

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



موسوعة

العلامة الشيخ التسخيري

المجلد الثالث

العقيدة والحضارة

المعهد العالي للدراسات التقريبية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي

سر شناسه	: تسخيرى، محمدعلى، ١٣٢٣-١٣٩٩ Taskhiri, Muhammad Ali
عنوان و نام پديدآور	: موسوعة العلامة الشيخ التسخيرى / المعهد العالى للدراسات التقريبية، التابع للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامى.
مشخصات نشر	: تهران: مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى، ١٤٤٠ ق.= ٢٠٢١ م.= ١٤٠٠-
مشخصات ظاهرى	: ج.
شابک	: دوره: ٧-٣٢١-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨؛ ج ٣: ٥-٣٢٥-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨؛ ٥٠٠٠٠٠٠ ريال
وضعيت فهرست نویسى	: فيبا
يادداشت	: عربى.
يادداشت	: فهرست نویسى بر اساس جلد دوم، ١٤٠٠.
يادداشت	: ج. ٤ و ٧ و ١١ (چاپ اول: ١٤٤٢ ق.= ٢٠٢١ م.= ١٤٠٠ ق.) (فيبا).
يادداشت	: كتابنامه.
مندرجات	: ج. ٢. التفسير. - ج. ٣. عقيدة و تمدن. - ج. ٤. الحضارة. - ج. ٦. الاقتصاد. - ج. ٧. الوحدة والتقريب. - ج. ١١. الاصول والفقه
موضوع	: تسخيرى، محمدعلى، ١٣٢٣-١٣٩٩ -- فهرست مطالب
موضوع	: Taskhiri, Muhammad Ali -- Concordances
موضوع	: اسلام -- مطالب گونه گون
موضوع	: Islam -- Miscellanea
شناسه افزوده	: پژوهشگاه مطالعات تقريبي
رده بندي كنگره	: BP١١
رده بندي ديويى	: ٢٩٧/٠٢
شماره كتابشناسى ملي	: ٨٥١١٨٤٤
اطلاعات ركورد كتابشناسى	: فيبا

## هوية الكتاب



مجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامى

اسم الكتاب: موسوعة العلامة الشيخ التسخيرى (المجلد الثالث) العقيدة والحضارة  
تأليف: محمدعلى التسخيرى  
التنظيم والتحقيق: المعهد العالى للدراسات التقريبية  
التابع للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامى  
مسؤول امور الطباعة وتصميم الغلاف: محمد تقي مهجور  
المخرج: سيده محمد حسني زاده  
ردمك الدورة: ٧-٣٢١-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨ / ج ٣: ٥-٣٢٥-١٦٧-٩٦٤-٩٧٨ ISBN:  
الطبعة الأولى: ١٤٤٢ هـ- ٢٠٢١ م  
الكمية: ١٠٠٠ نسخة  
السعر: ٥٠٠٠٠٠٠ ريال  
الناشر: الجمهورية الاسلامية في ايران - طهران: ص، ب: ٦٩٩٥ - ١٥٨٧٥  
المعهد العالى للدراسات التقريبية (قم) - ص، ب: ٣٨٧٣-٣٧١٨٥  
بريد الإلكتروني: [info.taqrib@gmail.com](mailto:info.taqrib@gmail.com) : تلفكس: ٩٨٢٥٣٧٧١١٣٨٨+  
\* جميع الحقوق محفوظة للناشر \*

# في الطريق إلى التوحيد الإلهي

الشيخ محمد علي التسخيري



## الفصل الأول: حول الفطرة الإنسانية

### الفطرة هي الأساس

إن الحديث عن الفطرة هو حديث عن الحجر الأساس في كل البناء التصوري والتصديقي لدى الإنسان، وما لم يطرح هذا البحث فإن أي بحث آخر سوف يكون سابقاً لأوانه، ذلك أن هناك في أذهاننا أفكاراً كثيرة يمكن أن نصنفها إلى نوعين: فهناك فكرة هي مجرد إدراك ساذج لا يصحبه أي حكم أو إذعان نفسي كمجرد تصور جبل أو بستان ويسمى بـ(التصور).

وهناك فكرة هي إدراك يصحبه حكم وإذعان نفسي وتسمى هذه الحالة بـ(التصديق). وقد بحث الفلاسفة - أول ما بحثوا - عن مصادر التصورات والتصديقات التي توجد في الذهن الإنساني، والذي يهمننا حالياً هو البحث عن مصدر التصديقات أي الإذعانات النفسية للأفكار والاعتقاد بها.

### المدرسة العقلية والمدرسة الحسية

يمكن أن نقول: إن أهم المدارس الفكرية في الإجابة عن هذا السؤال الخطير هي المدرسة العقلية والمدرسة الحسية. ومن المؤكد أن الإسلام يؤكد على المدرسة العقلية مع توضيح لها، فما هي حقيقة هاتين المدرستين؟ ولماذا أكد الإسلام على العقلية منها دون الأخرى؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه باختصار وتوضيح، إن شاء الله.

### المدرسة الحسية

أمّا المدرسة الحسية فهي تؤكد على أن التجربة الخارجية هي مصدر كل تصديق إنساني،

فليست هناك في الذهن أية قضايا تسبق التجربة الحسية الخارجية. وبتعبير آخر ليست هناك قضايا وأفكار نصدّق بها بالبداية والوجدان والفطرة، وإنّما ينحصر سبيل اعتقاد الإنسان بأيّ شيءٍ بطريق التجربة، ولما كانت التجربة الحسية لا تتناول الأشياء غير المحسوسة فلا يمكن التصديق بها مطلقاً نفيًا أو إثباتًا، وهذا تُبطل المدرسة الحسية التصور الإلهي المصدّق بوجودات غير مادية.

### مناقشة المدرسة الحسية

ولكن هذه المدرسة مبتلاة بمناقشات مهمة نذكر بعضها منها:

#### المناقشة الأولى:

إننا نسأل أتباع هذه المدرسة عن الدليل المبرهن على صحة أساس مذهبهم هذا، ما هو؟ أي ما هو الدليل الذي يدعونا للتصديق والاعتقاد بالقضية التالية: التجربة هي مصدر المعرفة التصديقية عند الإنسان وليس لديهم أزاء هذا السؤال إلا أن يقولوا إن هذه قضية بديهية واضحة لا تحتاج إلى دليل، أو يقولوا إن التجربة نفسها أثبتت صحتها. أمّا أنّ التجربة تثبت صحة نفسها فهذا هراء وهرطقة فكيف يثبت الشيء نفسه مع أن الدليل نفسه مشكوك القدرة على الإثبات فكيف يثبت لنا أنه قادر إن لم يستند إلى دليل آخر. فلا يبقى إلا يدّعي هؤلاء أن هذه القضية فطرية بديهية لا تحتاج إلى برهان وعندئذ يكونون قد اعترفوا بالمذهب العقلي وهو مذهب المعرفة الصحيح في التصور الإسلامي.

#### المناقشة الثانية:

نحن نعرف أن هناك أحكاماً عقلية تصديقية باستحالة بعض الأمور فمثلاً: كلُّنا نصدّق باستحالة أن تكون الفكرة المعيّنة صحيحة وباطلة معاً، فإمّا أن تكون باطلة فلا تصح، وإمّا أن تكون صحيحة فليست باطلة نعم كلنا نصدق بذلك ولكن من أين جاء هذا الحكم؟ هل من التجربة إنها لا تعرف الاستحالة لأن الاستحالة ليست أمراً مادياً، وأن التجربة لا يختلف أمامها: «عدم صعود الإنسان إلى المريخ» و«عدم اجتماع الصحة والخطأ» فلماذا قلنا: إن الأول ممكن عقلاً والثاني مستحيل؟ إن هذا التساؤل يكشف لنا عن وجود مصدر آخر



للتصديق غير التجربة الحسية، ويبطل المذهب الحسي .  
ولكن ماذا لو أنكرنا التصديق باستحالة شيء كاجتماع النقيضين؟  
الواقع أن هذا الإنكار يؤدي إلى أن ننكر حتى وجودنا وعالمنا ونتائج تجاربنا وعلومنا  
جميعاً، إذ يصبح من الممكن أن نكون موجودين ومعدومين تماماً، وأن تكون علومنا صحيحة  
وباطلة، بل يكون من الممكن أن يكون المذهب التجريبي في المعرفة - وهو ما نتحدث عنه -  
نفسه باطلاً وصحيحاً في آن واحد... كل هذا يؤكد لنا خطأ هذا المذهب وبطلان كل  
المبادئ المادية التي اعتمدت عليه ومنها الماركسية و...

#### المناقشة الثالثة:

أما المناقشة الثالثة فتتركز على مبدأ العلية. هذا المبدأ الذي نصدق به جميعاً، فلاريب في  
وجود علل ومعاليل في الكون، وهو الأمر الذي يتفق عليه الإلهيون وجلُّ الماديين ومنهم  
الماركسيون فإذا صدقنا بهذا المبدأ عدنا نتساءل عن هذا التصديق كيف سلمنا بصحته؟ وهل  
جاء عبر تجربة حسية؟ وهل إن علاقة العلية شيء محسوس حتى يمكن أن نجربه أو ندخله،  
في مختبر فيزيائي؟ إنَّ هذا يوضح تماماً بطلان المذهب التجريبي ووجود مصدر آخر  
للتصديقات الإنسانية.

#### المناقشة الرابعة:

وملخص هذه المناقشة أن هذا المذهب - أي المذهب القائل بتوقف الحكم النفسي على  
التجربة فقط - لا يستطيع أن يفسر لنا صفة اليقين المطلق التي تمتاز بها الرياضيات مع أنها لا تخضع  
للتجربة. فنحن لانشك مطلق في عدم مجيء يوم تبطل فيه مسألة رياضية مثل  $(2 + 2 = 4)$  (أن  
محيط الدائرة أطول من قطرها)، وأمثالها، هذا في حين نتوقع لكثير من نظرياتنا الطبيعية الانهيار  
في المستقبل رغم أننا نؤمن بها حالياً، وتخضع للتجربة.

إذا لاحظنا هذا قلنا: إن التجربة إذا كانت هي سبب تصديقنا في كل من القضايا الرياضية  
والطبيعية معاً فلماذا نؤمن بإيماننا لايقبل الشك في الرياضيات ولدينا هذا التردد في الطبيعيات.  
وهناك إشكالات مهمة أخرى لانرى داعياً للتعرض لها في هذا الحديث.

## المدرسة العقلية

أمّا المذهب العقلي في المعرفة: فيرى أن القضايا الذهنية المختلفة التي نصدق بها ومنها القضايا التالية:

- هذا العالم مخلوق لرب حكيم.
  - الأرض كروية.
  - الكل أكبر من جزئه.
  - هذا العالم له وجود خارج الذهن.
  - الأمم تهلك بظلمها.
- هذه المجاميع تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: القضايا الأولية البديهية؛ وقد جبل الإنسان على الإيمان بها، وطبع على التصديق بها فيها من أحكام. فمثلاً قضية: (العام لم يوجد خارج الذهن) يصدق بها الإنسان بمجرد أن يدرك معنى العالم والذهن والوجود والخارج، وهكذا قضية (التقيضان لا يجتمعان) و(مبدأ العلية) وأمثالها، فلا يحتاج الإنسان للتصديق بها إلى التجربة أو إلى أي دليل آخر.

النوع الثاني: القضايا النظرية؛ وهي القضايا التي تحتاج إلى استدلال وبرهان كقضية: (الأرض كروية) و(العالم حادث لا أزلي) و(هلاك الأمم بظلمها) وأمثالها، فهذه القضايا تحتاج إلى برهان ودليل.

وبعد هذا نقول: إننا إذا لاحظنا مجموع التصديقات الذهنية وجدناها كلها تركز على القضايا الأولية البديهية، فهي أساس أيّ تصديق في الذهن وعلى هذا الأساس تكون عدة التصديق متوفرة في نفس الإنسان. وتتضح من خلال هذا المذهب أن ميدان المعرفة الإنسانية يمكنه أن يتجاوز الأمور المحسوسة، أي تكون للإنسان تصديقات لا تقوم على أساس التجربة وتتعلق بعالم ما وراء المادة والطبيعة.

وينبغي أن لا يظن أحد أن المذهب العقلي في المعرفة ينكر دور التجربة الحسية في تزويد الإنسان بالمعرفة. كلاً فإنه (أي المذهب العقلي) يؤمن بدورها المهم في هذا المجال. غاية الأمر أنه

لا يحرص سبيل المعرفة بالتجربة الحسية أولاً، ولا ينظر إلى التجربة إلا أنها عملية توضح انطباق قانون عقلي ذهني مسبق، تماماً كما يطبق الطبيب معلوماته الكلية على مواردها المختلفة عبر الفحص الطبي الذي يجريه على المرضى.

وهكذا استفاد المذهب العقلي من التجربة دون أن يحرص نفسه في إطارها، وليحرر الإنسان من الأطر المادية، وليعطيه أصالته في المعرفة، الأمر الذي يجعله كادحا في سبيل معرفة الحقيقة سواء كان ذلك في الإطار المادي أو في عالم ما وراء المادة... في حين يبقى المذهب الحسي حبيس ماديته، مقيداً بإطارها الحسي دون أن يملك ما يقوله عن عالم ما وراء المادة لقصر مقياسه وقصور منبعه عن أرواء ظمئه الشديد إلى معرفة الحقيقة الكونية الهائلة.

### قيمة المعرفة الإنسانية وحدودها:

وإذا كانت مسأله تحديد مصادر التصديقات والأحكام الذهنية من أهم المسائل الفلسفية؛ فإن مسألة تحديد قيمة المعرفة الإنسانية لا تقل عنها أهمية.

ولكن ما هو جوهر هذه المسألة؟

إنها باختصار تدور حول قدرة الإنسان على معرفة العالم الخارجي، أي العالم خارج ذهنه كما هو وبالذقة، أو تدور حول مدى مطابقة ما يُصدَّق به من معلومات وما هو في الواقع حقاً. فإذا علمت بأن زيدا واقف، وأن الأرض كروية، وأنَّ محيط الدائرة أطول من قطرها؛ فهل أن الأمر كذلك في الواقع؟

وكانت هذه المسألة مدار جدل عنيف بين المفكرين منذ أقدم العصور. فكانت هناك مدارس تنكر وجود العالم الخارجي أصلاً، أو تنكر إمكان معرفته، وأخرى تؤمن بوجوده وبقدرة الإنسان على كشفه، وثالثة تشك في كل شيء. وقد شكلت هذه المدارس على مدى التاريخ تيارات ثلاثة يجبوأ حدها تارة، ويغمر الفكر العالمي أخرى: فقد يسيطر الفكر السوفسطائي المنكر لقيمة المعرفة ثم يجبو عند سيطرة فكر سقراط وأرسطو المثبت ثم تأتي فترة شك من أمثال بيرون. هذا قديماً. أمّا في العصور المتأخرة فبعد أن سيطر ديكرت بفلسفته اليقينية، نجد جون لوك يسيطر على الموقف بعده، ثم تسيطر المثالية التي تتراوح مدارسها بين نظرات مختلفة.

وعلى أيّ حال، فما نركز عليه هنا أمران:  
الأول. أن هناك نظريات تؤدي حتماً، إلى التشكيك في قيمة المعرفة الإنسانية، حتى ولو لم يقصد أصحابها ذلك، ومن أهمها:

المدرسة السلوكية التي تجعل الإنسان آلة ميكانيكية والأفكار الإنسانية وظائف جسمية وردود فعل للظروف الخارجية وهي بهذا تحكم على نفسها بنفسها فلا يمكن القول - وفق مفهومها - بأن هذه الفكرة الإنسانية واقعية صادقة، لأنها وجدت بفعل الظروف وتتغير بتغيرها. وهكذا قل عن المدارس الأخرى كالفرويدية التي تجعل أعمال الإنسان الشعورية متأثرة تماماً بشهواته ودوافعه اللاشعورية.

وكذلك الماركسية التي تجعل الفكر الإنساني ظاهرة وانعكاساً عقلياً للوضع الاقتصادي. وهكذا الدوركهايمية التي تجعل الفكر الإنساني مصاغاً من قبل البيئة الاجتماعية التي يعيشها. وباختصار فإن هذه المدارس لا تؤمن بوجود أصالة للفكر الإنساني أبداً، بل تسخره للظروف المختلفة، وبالتالي لا تبقى له قيمة أو قدرة على كشف الواقع الخارجي كشفاً صحيحاً. والتناقض هنا يبدو عندما نعرف أن هذه المدارس تقضي على نفسها بهذه التصورات، إذ لا يمكنها أن تدّعي أنها مدارس علمية يقينية صحيحة.

أما التصور الإسلامي فهو يؤمن بقدرة الإنسان على كشف الواقع الخارجي كشفاً تاماً عبر وجود الجانب الأصيل في الذهن الإنساني، أي عبر وجود الأمور الوجدانية الفطرية التي تسميها بعض الروايات بـ(الرسول أو النبي الباطني) كما تسمي النبي بـ(العقل الخارجي). فنفس هذه الأمور (الوجدانية الفطرية) لا تقبل التشكيك مطلقاً؛ فهي كاشفة عن الحقيقة دائماً كمبدأ العلية التامة، وقيام نظام الأسباب والمسببات في الكون إجمالاً، ومبدأ استحالة اجتماع الوجود وعدم هذا الوجود في شيء واحد، أو مبدأ اجتماع النقيضين وأمثالها، وكل معرفة استندت إلى هذه الأمور البرهانية استناداً صحيحاً فهي يقينية. أما قيمة النظريات التجريبية فتتوقف على مدى الدقة في تطبيق الأمور الوجدانية على التجارب الخارجية.

## نظرية المعرفة في القرآن

وهنا نجدنا بحاجة إلى الحديث عن رأي الإسلام والقرآن في قيمة المعرفة، ومصدرها

على ضوء النصوص الإسلامية والنظرة الإسلامية العامة للكون والإنسان والحياة.

فما هي نظرية المعرفة القرآنية؟

وبتعبير آخر ما هو رأي القرآن في المسألتين التاليتين؟

أولاً: هل يمكن الوصول إلى يقين يتعلق بالواقع الخارجي؟ وما مدى إمكان مطابقة

أفكارنا للواقع؟

ثانياً: ما هي مصادر المعرفة في المنطوق القرآني؟

### الإيمان بالواقع الخارجي:

أمّا في مجال السؤال الأول فإن المتأمل في المجموع القرآني العام يجد أن القرآن يبتنى على أساس إمكان المعرفة الإنسانية الصحيحة، أي إمكان وصول الإنسان إلى تكوين صورة صادقة عن الواقع وقدرته على تحصيل اليقين المطابق للواقع الخارجي.

فهو بعد أن يؤكد وجود العالم الخارجي بنحو خاص، أي وجود عالم مادي قائم على أساس عالم ميتافيزيقي، وبتعبير آخر يؤكد على وجود الحقيقة المطلقة وهي الله تعالى الذي خلق الكون بما فيه، بعد هذا يدعو الإنسان لتكوين المعرفة اليقينية التامة عبر السبل الطبيعية التي تنتهي إليها. فهو إذن يفترض إمكان تكوين معرفة يقينية صحيحة ويرفض مدارس الشك المطلق أو المدارس التي تُفقد الإنسان - بطبيعتها - القدرة على تكوين المعرفة اليقينية ولتوضيح هذا الذي قلناه نطالع مع الآيات التالية:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>٣</sup>.

١. الرعد: ٢.

٢. البقرة: ٤.

٣. المائدة: ٥٠.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾<sup>٢</sup>.

ويبدو إمكان المعرفة اليقينية الصادقة من الآيات التي تتحدث عن مطلع عهد الإنسان

حيث يقول تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>٣</sup>.

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تجعل من البديهي إيمان القرآن بإمكان المعرفة اليقينية.

### مصادر المعرفة في المنطوق القرآني

أما رأي القرآن الكريم والنصوص الإسلامية عموماً في مصادر المعرفة اليقينية فما يمكن

استفادته من مصادر هو:

#### أولاً الحسن:

وقد نص القرآن على كونه مصدراً من مصادر المعرفة بانضمام العقل اليه، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ﴾<sup>٤</sup>.

ونؤكد هنا على مسألة انضمام التعقل باعتبار أن الحس لوحده لا يمكنه أن يؤدي إلى يقين

كامل صحيح ما لم تطبق عليه القواعد الأولية البديهية، أي ما لم تجر عليه عملية التعقل كما

قلنا ذلك في ما سبق، ومن هنا فقد دفع القرآن الإنسان للسير في الأرض والاستفادة من

الحواس التي منحها وأعمال التدبُّر لاكتشاف الحقائق الكونية.

١. الجاثية: ٤.

٢. الانعام: ٧٥.

٣. البقرة: ٣١.

٤. النحل: ٧٨.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾<sup>٢</sup>.

وينحو باللائمة على أولئك الذين امتلكوا الحواس ولم يستفيدوا منها في مجال التدبر واكتشاف الواقع فإذا هم: ﴿صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهَمَّ لَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>٣</sup>.

ومن الملاحظ أن أهم دليل يركز عليه القرآن الكريم في مجال معرفة الله هو دليل النظام الكوني المتقن، والتناسق الرائع، وهو يعتمد أول ما يعتمد على الحواس ولكن في إطار من التفكير والتدبر كما سلف ذكره.

### ثانياً - العقل:

وعليه فالمصدر الثاني لتكوين المعرفة الإنسانية هو العقل، أو فنقل بتعبير آخر: هو قدرة الذهن الإنساني على تطبيق الكبريات العقلية الوجدانية على الموارد المختلفة، واستنتاج نتائج جديدة للإيمان بها بيقين صحيح، وبدون وجود الأوليات البديهية، وبدون قدرة الإنسان على تطبيقها لا معنى للإيمان بالتعقل والتدبر، فما التدبر إلا تجاوز المحيط المادي لاكتشاف ما وراءه من عوالم وحقائق، وقد رأينا كيف فتح القرآن في الآية السابقة. أبواب المعرفة الإنسانية عبر السمع والأبصار والأفئدة كما طالعنا. الآيات الداعية إلى التعقل والتدبر ومنها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>٤</sup>.

ولا كمال رسم موقف القرآن نجد أنه في موارد أخرى يقوم باستدلالات عقلية خالصة: مما يكشف عن إيمانه بالقدرة الذاتية للإنسان على اكتشاف الحقيقة، وذلك كقوله تعالى:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ \* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾<sup>٥</sup>.

١. الانعام: ١١.

٢. الاعراف: ١٨٥.

٣. البقرة: ١٨.

٤. محمد: ٢٤.

٥. الانبياء: ٢٠-٢١.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾<sup>١</sup>.  
 وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَهُنَّ﴾<sup>٢</sup>.

كما إننا نجد القرآن يدفع للتدبر والتعقل عندما يعلل بعض الأحكام بعلة معينة مما يؤكد اهتمامه بدوره في الربط بين الأحكام وأهدافها وهي الفلاح أو التقوى وأمثالهما.

### التحذير من خطأ العقل

وتبدولنا روعة الموقف القرآني من مصدرية العقل للمعرفة عندما نلاحظ أنه ينبه الإنسان على موارد خطأ العقل وأن عليه أن يتجنبها بوعي ودقة.  
 فقد يتبع الإنسان أموراً ظنية وهو يتصور أنها يقينية مقطوع بها لأنها توافق مصلحته فيذكره القرآن بخطئه حين يقول:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ \* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ \* أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ \* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ \* إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾<sup>٣</sup>.  
 ويقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾<sup>٤</sup>.  
 ويقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>٥</sup>.

### موارد خطأ العقل

فموارد خطأ العقل هي موارد تحكم الهوى والمصالح الشخصية، والموارد التي تزين للإنسان سوء عمله، ومن هذه الموارد تصور الإحاطة بكل جوانب الحقيقة والغفلة عن

١. الطور: ٣٥.

٢. الاحقاف: ٣٣.

٣. النجم: ١٩ - ٢٣.

٤. الفرقان: ٤٣.

٥. محمد: ١٤.



بعض العناصر الدخيلة في الاستدلال والاستنتاج، ولذا ينبّه القرآن على هذه الحقيقة بقوله ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>١</sup>.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن البعض حاول التقليل من دور العقل في المنطوق الإسلامي مستندين إلى هذه الموارد التي يشير إليها القرآن حيث يقع العقل في الخطأ، كما يشيرون إلى بعض الرويات التي تحدّ من عمل العقل كما في الرواية التي أكدت على أن «دين الله لا يصاب بالعقول» ولكن الواضح أن الآية الأنفة قد بينت - كما قلنا - أحد أسباب الخطأ العقلي في بعض الموارد، وليست تريد أن تسد باب المعرفة العقلية، كيف وقد رأينا تأكيد القرآن على العقل والاستدلال به، أمّا تلك الروايات التي نفت دور العقل فقد جاءت في صدد ردّ الأسلوب الذي اتبعته مدرسة أهل الرأي في قياس بعض الأحكام على بعضها الآخر والاستحسان وأمثالها من الأدلة التي هي من الأحكام الظنية وهي في الحقيقة من باب اتباع الظن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾<sup>٢</sup> ولمّا كان هذا الأمر خطيرا فقد وقف الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ضده بقوة، وأوضحوا أن العقل لا سبيل له لإدراك علل الأحكام الشرعية؛ لنقصه وضعفه.

أمّا في الموارد الطبيعية للتعقل - كموارد الاستدلال - فإن الأحكام القطعية للعقل أمر لا يقبل الرد، وقد جاء في الروايات: إن الله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة؛ فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء وأمّا الباطنة فالعقول<sup>٣</sup> والحقيقة هي أن الله تعالى والأنبياء لم يعرفوا إلا بالعقل السليم، وهل أصبح الإنسان إنسانا بدون العقل.

### ثالثا - الإلهام الإلهي

أمّا المصدر الثالث: فهو الإلهام القلبي والهداية الإلهية والوحي، وهذا ما يبدو لنا عند مطالعة مختلف الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

١. الإسراء: ٨٥.

٢. يونس: ٣٦.

٣. الكافي ج ١ ص ١٦، الوسائل ج ١٥ ص ٢٠٧، البحار ج ١ ص ١٣٧.

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ ٢.

وقد جاء في الروايات عنه عليه السلام: جاهدوا أنفسكم على شهواتكم تحل قلوبكم الحكمة<sup>٣</sup> وفي الكافي من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه<sup>٤</sup> وفي نهج البلاغة فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة. (صباحي الصالح/خ/٢٣٠)

وأخيرا فمّا لاشك فيه في المنطوق الإسلامي أن الوحي يتخذ دور الرافد الكبير للمعرفة الإنسانية وخصوصا في تلك الحقول التي يقصر العقل عن بلوغ مداها كحقول التشريع.

### الفطرة الإنسانية ودورها في المعرفة

بعد هذا البحث ينبغي لنا أن نخرج من دائرة المعرفة الإنسانية لنلقي نظرة شمولية على نظرية الفطرة الإنسانية فهي أوسع منها. ذلك أنّ الفطرة لها أدوار أوسع من مجال المعرفة الإنسانية نفسها.

### المراد من الفطرة

ولكن ماذا نقصد بالفطرة؟

إنّنا نقصد بها ذلك الجانب الأصيل في الوجود الإنساني الملازم لكل أبناء النوع البشري عموما. ومثل هذا الجانب لا يمكن إنكاره - إجمالا - في الوجود الإنساني.. نعم ربّما يصاب في بعض الأحيان بانحرافات وتغطيات مؤقتة تمنعه من أداء دوره في صياغة حياة الإنسان العقلية والسلوكية والنفسية، إلا أنه، لا ينمحي، بل يبقى كامنا، لأنه قد جبل عليه الإنسان وعجنت به طبيئته، وفطر عليه فلا يأس منه أبدا إنّما يحتاج إلى تنبيه وإثارة بطرق خاصة.

١. العنكبوت: ٦٩.

٢. الانفال: ٢٩.

٣. ميزان الحكمة ج ٥ ص ٤٥٥، الدر المنثور، ج ١، ص ٣٤٩.

٤. عيون اخبار الرضا، ج ١ ص ٧٤، البحار، ج ٦٧، ص ٢٤٢، الجامع الصغير للسيوطي، ج ٢، ص ٥٦٠، كنز العمال، ج ٣، ص ٢٤.

وأعود فأكرر أنّ الجانب الفطري أصيل في النفس وإن كان ظهوره على مسرح النفس والسلوك متفاوتا، فربما وجدت ظروف تساعد على جعل صورته باهتة التأثير في النفس، وربّما وجدت ظروف أخرى تركز هذه الصورة وتعطيها لونها الطبيعي، وربما تضيف إليها تلوينا هو فوق طاقتها الطبيعية. وعليه فهذا الجانب من وجود الإنسان جانب ثابت من جهة، ومرن التأثير من جهة أخرى، ولكن قبل الدخول في بحث جوانب هذه النظرية ينبغي أن ندرك أهميتها أولاً.

فما هي أهمية البحث في الفطرة؟

قبل كل شيء لابدّ وأننا نتذكر أن المفكرين اختلفوا في منابع معارف الإنسان وتصديقاته، فانقسموا إلى فريقين: أحدهما يقيم بناء المعارف الإنسانية على أساس أمور وقضايا فطرية يؤمن بها الإنسان دون حاجة إلى تجربة وملاحظة حسّيتين، في حين ينفي الآخر هذا المذهب ويقيم المعرفة على أساس حسّي بحت. والذي يهمنا هنا هو أن ندرك أنّ هذه المسألة المهمة مبتنية على البحث عن نظرية الفطرة ومدى واقعيتها ومن هنا ندرك أهمية بحثنا هذا.

كما أننا ندرك أهميته في مختلف مجالات العلوم الإنسانية ذلك أنّ الإيمان بالفطرة هو المقرر الوحيد الذي يمكنه أن يؤكد وجود إيديولوجية إنسانية او ينفىها، إذ الإيديولوجية الإنسانية هي تلك الفكرة العملية التي تناسب واقع الإنسان وتساعد على تكوين صورة عن الكون والحياة، وهدفه من الحياة ومسيرته نحو ذلك الهدف، والانسجام في سلوكه مع كل ذلك. ومن الواضح توقف كل ذلك على وجود هدف واقعي وخط بياني واقعي للإنسان، أي على وجود الفطرة المعينة للهدف عند الجميع.

وبهذا ندرك أيضاً الدور الذي تلعبه نظرية الفطرة في إعطاء معنى للبحوث الأخلاقية، ومحورها هو الإدراكات الوجدانية الفطرية، فبدون هذه الإدراكات تكون البحوث الأخلاقية بلا مبرر منطقي، وكذلك فإن البحوث التربوية تفقد مبررها بدون الفطرة، ويتوضح هذا عندما نلاحظ الفرق بين صناعة الخشب مثلا وتربية الإنسان، فالخشب موجود لافطرة له، أي ليس له سبيل طبيعي مرسوم، ولذا فسواء صنع بابا أو شباكاً أو غير ذلك فلا يقال عنه أنه خرج عن ذاته ورُبّي تربيةً غير سليمة، بل يقال: إنّه صنع كذلك. أمّا في المجال الإنساني فمن الواضح أن الإنسان لو دُرّب على أن يكون ذئبا يفترس الآخرين،

أوطاغية يتلذذ بامتصاص دماء الشعوب، أو معدباً لا يقرُّ له قرار حتى يسمع صراخ المحرومين المعدَّين، هذا الإنسان خارج عن سبيله الطبيعي وتلك التربية تربية مغلوطة على العكس ممَّا لو كانت قد نمت فيه الأخلاقية الجيدة، والتعقل المرهف، والإرادة الحرة فإنَّها ستكون تربية صحيحة. فيجب - إذن - أن يكون هناك خط فطري وإطار خاص بالإنسان إذا تجاوزه لم يعد إنساناً؛ حتى تكون هناك تربية، وحتى يصدق التعبير المعروف (اغتراب الإنسان عن ذاته). الغريب في الأمر هو أن يتداول هذا التعريف عند الماركسيين - تبعاً لوجوده في فلسفة فيور باخ وهيكل من قبل - نعم الغريب أن تتحدث الماركسية عن الغربة عن الذات والعودة إليها وهي لا تنظر إلى الإنسان كذات متميزة لها قوانينها وفطرتها، وإنَّها هو تماماً كالمادة الخالية من أي سير طبيعي يتأثر فكرها بالطبيعة أكثر. إذن فليس هناك معنى لهذا التعبير إلا بعد الإيمان بالفطرة، وكذلك لا معنى لتصور التكامل نفسه ما لم تكن هناك نقطة ومسير طبيعيين يكون السير وفقهما متكاملًا، بعكس الانحراف عنها.

### ثبات الاستراتيجية بثبات الفطرة

وهكذا بيتني على الإيمان بنظرية الفطرة: الإيمان بخلود الحقيقة أو الحقيقة المطلقة، وكذلك تبني عليها مسألة إمكان بقاء نظام اجتماعي معين بشكل دائم إذا استطاع أن يوافق الفطرة، وعلى ضوء هذه النظرية تتحدد إستراتيجية الدعوة والتبليغ وتتجلى أهمية هذه النظرية في البحوث الحقوقية ذلك أن كل تلك البحوث تستهدف إرساء الحقوق وإعطاءها لأصحابها، ولكن من الذي يشخص الحق؟ ليس هناك من مشخص إلا الفطرة الأصيلة التي يؤمن بها ويشعر بها أي إنسان. فإذا لم نؤمن بالفطرة وجب أن نلقي كل حديث عن الحقوق جانبا. والواقع أننا لم نستقص موارد أهمية هذا البحث المهم، وإنَّنا نترك هذا الاستقصاء للقراء الكرام. إن وجود هذا الجانب في الإنسان أمر لا يحتاج إلى استدلال أو برهان أو حتى إلى مجرد تنبيه، وذلك لوضوحه تماماً فيكفي مجرد الرجوع إلى النفس والوجدان لتجلى لنا الخطوط الفطرية ولو إجمالاً، إلا أن الشبهات التي أثرت حول الفطرة دعت الباحث إلى أن يلتمس بعض الأمور التي تنبه الوجدان إلى هذه الحقيقة بعد أن تمسح شاشته من بعض الغبش والغبار المتراكم عليها. ومن هذه التنبيهات عمل الباحث على إيضاح بعض النقاط التي

يشترك فيها كل أفراد الإنسان على مرّ التاريخ وباختلاف الظروف الجغرافية والنفسية والحضارية، كاشتراكها مثلاً في تملك ذوق فنيّ خاص يقف أمام مظاهر الجمال في الطبيعة كالمنظر الطبيعية، والتماثيل الفنيّة الرائعة فيقف أمامها معجباً مبهوراً اللبّ. فإذا بك تجد إنسان عصر الرقيق إلى جنب إنسان العصور الزراعية والصناعية في مستوى واحد، الكل معجبون بهذه المظاهر الأمر الذي يشير إلى ارتكاز هذا الإعجاب وذاك الذوق على أسس فطرية واحدة لا تتغير بتغيّر النظم الاجتماعية مثلاً وهو ما ينقض من الأساس نظرية المادية التاريخية وأمثالها من نظريات العامل الواحد المحرك للتاريخ. وشبيهه بالذوق الفنيّ القدرة الإنسانية على التعقّل، وهي أمر ثابت لم يصنعه المجتمع بل هو الذي صنع المجتمع ووضع سبل تحوله، وهكذا الغرائز المختلفة.

### البديهيات بعض من المنطلقات الفطرية

والواقع: إن كل من ينكر الفطرة يعترف بها دون أن يشعر، وذلك لكونها أصيلة في الوجود الإنساني لا يمكن الخلاص منها، فمثلاً سوف نعرف أن الإيمان بوجود العالم خارج الذهن الإنساني، والإيمان بمبدأ العليّة، وكذلك مبدأ استحالة اجتماع النقيضين أي كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد، هذا الإيمان فطري لا محالة، وكل من يقيم الأدلة ضده من أمثال باركلي الذي لا يعترف بالوجود الخارجي للعالم، ودافيد هيوم الذي لا يعترف بكون العلية علاقة خارجية قائمة بين الأشياء، والماركسية التي تقيم تصورهما على أساس اجتماع النقيضين، كل هؤلاء يعترفون بالضمن بها يستدلون ضده، وإلا فمع من كان يتحدث باركلي حينما كان يلقي محاضراته التي شرح بها فكرته ألم يتحدث مع أناس خارجيين لم يصنعهم ذهنه ولا أفكاره؟ ثم ألم يحاول هيوم أن يجعل أدلته التي يقيمها علّة لإيمان الآخرين بالتأنيح؟ أي أنه اعتمد على مبدأ العليّة لينفي هذا المبدأ. وهل أن الماركسية مستعدة لأن تصف نفسها بأنها مخطئة إلى جنب كونها على صواب، وفي آن واحد، فتتضي بذلك على حتميتها التاريخية وقوانينها التي تدعي لها الصرامة والصدق والشمول؟

### المجالات الفطرية لدى الإنسان

والآن لنعرف ما هي المجالات الفطرية؛ أي ما هي الجوانب الفطرية الثابتة في حياة الإنسان؟

يمكننا أن نقول إن المساحة الفطرية تشمل الجوانب الإنسانية التالية:

### أولاً - الإدراكات النظرية والعملية

ونعني بذلك وجود جانب فطري وجداني بديهي في الذهن الإنساني يجعله يدرك نوعين من القضايا والأمور:

**النوع الأول - الإدراكات النظرية:** وهذا النوع يفتح آفاق النفس الإنسانية على الواقع الخارجي ويكشف له عن قوانين عامة من مثل (استحالة اجتماع النقيضين، وأن الكل أكبر من جزئه، ومبدأ العلية) كما مرّت الإشارة إليها. وهذه القوانين تشكل أساساً ثابتاً يبنى الإنسان عليه كل معلوماته عن العالم والمحيط القائم وتصوراته عن عملية التطوير الصحيح لهذا المحيط، وهنا ينبغي أن نؤكد على أن هذا الجانب من إدراكات الإنسان هو الذي يطلق الإنسان من عزلته الذاتية ويوصله إلى الحقيقة والتعامل مع الكون، وبدونه لاتنفع تجربة حسية أو أي شيء غيرها في تحقيق هذا الهدف. ولها بحث مفصل له محله. هذا هو النوع الأول من الإدراكات الفطرية وهو ما يسمى بالإدراكات النظرية.

**النوع الثاني - الإدراكات العلمية:** ونعني به أن النفس الإنسانية جبلت وعجنت على الإيمان بقضايا ترتبط بما ينبغي له أن تكون فيه حياته، لا بما هو كائن وقائم. فكل نفس إنسانية جبلت على إدراك أن العدل أينما تحقّق كان حسناً على الإطلاق، وأن الظلم أمر مستقبح ينفر منه الطبع الإنساني السليم، كما جبلت على إدراك أن بعض الأمور حسنة بطبيعتها كشكر كل من أنعم، وطاعة كل من ثبتت له حقوق الربوبية والمولوية، وكذلك من مثل بعض الصفات الخلقية كالصدق والرفق وغيرهما.

وكل هذه أمور ترتبط بسلوك الإنسان وعمله، وتدفعه إلى ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الصحيح.

### ثانياً - الغرائز

أمّا المجال الثاني للفطرة فهو الغرائز. وقد اختلف علماء النفس كثيراً في تعريف واحدٍ للغريزة، ولم يتفقوا على قائمة واحدة للغرائز وإن كانوا جميعاً - تقريباً - يتفقون على فطريّتها إجمالاً، وكونها وراثية غير مكتسبة، ولعل تعريف الغريزة الأقرب إلى اللغة العلمية هو كونها

ميلاً ثابتاً لدى المخلوق الشاعر، وهذه الغرائز تشكل الحوافز والدوافع المحركة التي لا يمكن تصور حركية حياتية إنسانية بدونها وستحدث فيما يأتي عن دورها في التحرك بالإنسان نحو هدفه الطبيعي.

### ثالثاً - القدرة الإنسانية الخارقة على التعقل والتدبر والتفكير

وأما المجال الفطري الثالث؛ فهو هذه القدرة الإنسانية الخارقة على التعقل والتدبر والتكفير، وتتوضح روعة هذه القدرة الذهنية بملاحظة بعض الفروق بين الذهن الإنساني والمرآة التي تنعكس عليها الصور، الأمر الذي يتيح للذهن أن يعلو على الواقع ويغيره - كما اشرنا إلى ذلك من قبل - فرغم وجود أوجه شبه بين الذهن والمرآة حيث يقبل كلاهما انعكاس الخارج على صفحته، وحيث تتأثر الصور المنعكسة في كل منهما بوضعها الخاص، رغم ذلك توجد فروق أساسية أهمها:

١- إن المرآة إنما تعكس الصور المادية فقط، بينما يستطيع الذهن الإنساني أن يدرك المعاني غير المحسوسة.

٢- إن المرآة لا تدرك نفسها ولا تنعكس صورتها هي على شاشتها ولكن الذهن يدرك نفسه بوضوح أي إن له ما يسمّى بالعلم الحضورى؛ حيث تحضر نفسه لديه. ألسنا نعلم بأنفسنا أكثر من غيرنا.. وهذا بنفسه يشكل دليلاً رائعا على كون النفس الإنسانية وجوداً غير مادي، إذ المادة لا يمكنها أن تدرك نفسها مطلقاً، أي تنعكس انعكاساً مادياً على ذاتها.

٣- إن المرآة إذ أخطأت فإنها لا يمكنها أن تدرك خطأها في هذا الانطباع؛ بينما يستطيع الذهن أن يدرك خطأه، وله مقاييس ثابتة لتصحيح خطئه، بحيث لا يؤثر عليها أي مؤثر خارجي؛ وهي الأمور البديهية الوجدانية التي تحدثنا عنها. وهذا الفرق أيضاً يشكل دليلاً حياً على لامادية النفس الإنسانية، لأنها لو كانت مادية لكانت هي ومقاييسها متأثرة بالمحيط والأجزاء المادية الأخرى.

٤- إن المرآة تجمد على صورتها كما هي، بينما يمتلك الذهن خاصية التعميم وهي من أروع نعم الله على الإنسان، إذ للذهن أن يلاحظ بعض المصاديق والجزئيات المتفرقة ويجرب

عليها ثم ينتقل إلى استنباط واستخراج قاعدة عامة يطبقها على باقي المصاديق الأخرى وهنا تأتي خواص التعمُّق والتدبُّر والاستنباط الذهنية كفأصل مهم بينه وبين المرأة.

٥- إننا نشاهد الذهن قادرا على طرح فروض وأطروحات للمستقبل، في حين تعجز المرأة عن ذلك.

٦- إن المرأة عاجزة عن خزن الصور بالنحو الذي يستطيعه الذهن الإنساني الذي تمرُّ به ملايين الصور فيخزنها ثم يقوم بعد ذلك بعملية الاستدكار.

٨- إن الذهن يمتلك خاصية تداعي المعاني وهو ما تفقده المرأة.

٩- إن الصورة التي تنعكس على الذهن تبقى ثابتة الأبعاد حتى لو تغير موقع الذهن أو موقع الشيء المنطبع فإن صورة العصا وأنا قريب منها تبقى هي هي حتى لو ابتعدت عنها كثيرا، في حين نجدتها تتغير في حال المرأة.

وهذا الفرق أيضاً من الأدلة الحية على كون عمل الذهن عملاً روحياً لامادياً، وإبطال النظرة المادية للموجودات الكونية. أخيراً فإن الصور عندما تنطبع في الذهن تنطبع بكامل أبعادها. فعندما أرى الحديقة أراها بكل أبعادها وهذا لا يمكن في مورد المرأة، فالكبير لا ينطبع في الصغير مطلقاً. وهذا الفرق يوضح تماماً كون النفس موجوداً مجرداً من المادة.

وهكذا لاحظنا بعض القدرات والطاقات الذهنية التي جبل عليها الإنسان؛ فهو يقوم بها بسرعة دون أن يشعر بذلك وهذه القدرات هي التي تمنح الإرادة الإنسانية إطاراً جديداً تختلف به عن وجودها في باقي الحيوانات. ومن هنا يمكن أن نقول إن وجود الإرادة الحرة في الإنسان أمر فطري طبيعي، وإن أي انحراف في مجال أعمال هذه الإرادة (بكتبها أو التقليل من شأنها) هو انحراف عن الخط الإنساني الصحيح، ومن هنا أيضاً نعتبر كل المبادئ التي تقول بالتحتمية التاريخية الحدية (كحتمية تبعية النظام الاجتماعي للوضع الاقتصادي، وبالتالي تفقد الإنسان إرادته وحرية الفاعلة) مبادئ رجعية بالمنطق الإنساني الصحيح لأنها ترجع الإنسان إلى أصل واطئ حيواني، وتقعده به عن كل معاني التسامي والكمال، إذ لا معنى للتسامي والكمال الإنساني إذا كان الإنسان مسوقاً إلى مصيره بحتمية تاريخية لا تبقى له أية إرادة في البين.



### حالات الفطرة الإنسانية

وهنا نتساءل عن حالات الفطرة ودرجات وضوحها في شعور الإنسان ثم نحاول التعرض إلى بعض الأساليب التي تنبهاها وضرورة هذا التنبيه.

أمّا الحالات: فما يمكن أن نقوله بهذا الصدد هو أن الفطرة وإن تعذر حذف تأثيراتها حذفاً نهائياً من حياة الإنسان الواحد فضلاً عن الحياة الإنسانية ككل، إلا أنها تمتلك مرونة خاصة، الأمر الذي يفسح المجال للإرادة الإنسانية الحرة في أن تعمل عملها على مسرح الحياة، فليس الجانب الفطري في الإنسان بمستوى الجانب الفطري في الحيوان بالمستوى الذي يفقده أية إرادة حرة في قبال غريزته فإذا الحيوان مسخر لهذه الغرائز تمام التسخير، نعم ليس الجانب الفطري متحكماً في وجود الإنسان بل يترك مجالاً للإرادة الإنسانية لتختار حتى قبول متطلبات الفطرة وإشباع ميولها. وهذا ما يميز الإنسان عن غيره ويجعله موجوداً فريداً في الكون. وإذا كانت الفطرة بهذا المستوى فإننا نتوقع لها أن تتأثر بالظروف والشبهات وأنماط التربية والمصالح. والواقع أن الميول الإنسانية يمكن تقسيمها إلى قسمين: فهناك ميول مادية، وأخرى ميول معنوية. فكما للنفس استعداد للتفتح الجنسي، كذلك يوجد فيها استعداد فطري للتفتح المعنوي على التضحية والصبر والشعور بالمعاني الإنسانية السامية، وإذا كان الاستعداد المادي يتفتح بصورة طبيعية في حياة الإنسان وعلى اختلاف في المناطق، فإن الاستعداد المعنوي يحتاج - لكي ينمو نمواً طبيعياً - إلى أن يمر بجو مناسب محرك فيه هذا النمو، أمّا إذا لم يصادف هذا الجو المناسب فربما يضمّر إلى حد لا يبدو له أثر على حياة الإنسان. ألسنا نشاهد أناساً تكاد تنعدم من قلوبهم معاني الرحمة والشفقة والعواطف الإنسانية الخيرة؟ ألم يرق الطواغيت بتقديم المؤمنين والنساء المؤمنات إلى حيث تتحفز الأسود الجائعة المفترسة لتمزيقهم ثم يكون تلذذ هؤلاء الطواغيت بالعذاب الذي يمزق الاجسام المؤمنة؟ ألسنا نجد الكثيرين ممن مُسِخَتْ إنسانيتهم يفرحون لألم ضحاياهم؟ إن هؤلاء ألقوا بأنفسهم في جحيم الرذيلة فضمرت لديهم الاستعدادات الفطرية، والقرآن الكريم يحدثنا عن أناس ربّما كانوا في مطلع عهدهم معتدلين يستمعون لنداء الفطرة والوجدان ويُعْمِلون عقولهم في مجالها الواسع ولكنهم ابتلوا بحالات انحرافية سيئة مما ترك على شاشة نفوسهم وفطرهم نقاطاً مبهمّة تكاثرت فغطت صفحة الرؤية كلّها يقول تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾<sup>١</sup> نعم أساءوا وأساءوا حتى خفيت لديهم الأمور الواضحة. وعليه فيمكن أن نقول إن الفطرة تارة تتخذ موضعها الطبيعي من حياة الإنسان، وأخرى ينحرف مدى تأثيرها، وهذا الانحراف ربّما يتمثل في ضمور وضعف تأثير جانب فطري معيّن، كضمور التعقل، أو ضمور غريزة التدبّر، أو غريزة حب الاستطلاع؛ فلا يعود الإنسان مهتما بما يجري حواله، أو مكتثرا بما يدور على الساحة الاجتماعية، وربّما كان الانحراف متمثلاً بشكل طغيان جانب فطري غريزي على جانب آخر، كما يبدو هذا عند من أفرطوا في إشباع غرائزهم الجنسية إلى الحد الذي جعلها مقياس الحياة، أو في إشباع غريزة حب الذات فلا ينظر الإنسان بعد ذلك إلى أي مصلحة اجتماعية أوحى في أعمال التعقل إعمالاً مفرطاً بحيث لا يبقى أي مجال إحساسي عاطفي في حياة الإنسان. ومن هذا النمط أولئك الذين أشبعوا غريزة التدبّر إشباعاً مفرطاً على حساب كل الغرائز الأخرى؛ فترهبوا، واعتزلوا الحياة الاجتماعية. إن هذه الحالات كلها تمثل انحرافاً فطرياً رهيباً يرفضه الإسلام أيّما رفض، ويعتبره من حالات الجاهلية، فلا رهبانة في الإسلام، ولا فجور ولا طوبائية صوفية منعزلة، ولا أيّاً من هذا القبيل.

### وسائل وأساليب تنبيه الفطرة

وهنا نصل إلى المرحلة التالية من حديثنا هذا وهي إن الفطرة إذا كانت تغفو ولا تنعدم، تضمّر ولا تفنى فكيف يمكننا أن ننبه الفطرة الغافية؟ وأنّى يمكن تقوية الجانب الفطري، ليتضح بحالته الطبيعية في وجود الإنسان؟ والجواب عن هذا الجانب يكمن في أمور خارجية وذاتية، أي أننا نحتاج:

**أولاً - إلى نظام تربوي متكامل يعترف بالواقع الفطري الإنساني ويدرك أبعاده ويركز على تنمية الاستعدادات الفكرية والمعنوية، ويحاول أن يسير بهذا الجانب نحو التكامل. ومثل هذا النظام يحتاج إلى علم كامل بالنفس الإنسانية، ومعرفة بروابط النفس والعالم الخارجي، وهذا ما لا يتوفر للإنسان بعلمه المحدود وتجاربه الناقصة، وحالته التأثرية، ومن هنا نجد**

احتياج الإنسان إلى معونة السماء التي تنزل الوحي لتحبيه، ولتزكيه، وتعلّمه الكتاب والحكمة، وتهديه الصراط المستقيم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾<sup>١</sup>.

**ثانياً -** إن الإنسان يحتاج إلى عملية تأمل ذاتي عميق يزيل كل الغشاوات ويذيب كل الرّين والدرن المغطي لشاشة القلوب. هذا التأمل دعا إليه الإسلام كثيراً، بل ربّى الإنسان متأماً واعياً مفكراً محاسباً. والواقع أن عملية الدعاء - وخصوصاً في ربيع الدعاء شهر رمضان - تمنح النفس الجو المناسب من الصفاء ليتجلى جوهرها وتبدو أصالتها على مسرح الشعور الإنساني، وربما يساعد الصفاء الجسمي والجو الهادي في السّحر على استرجاع تأثيرات الفطرة، في حين يُنسي الجو الصاخبُ النفسَ أحياناً. ومن الأساليب التي بها تصحو الفطرة ما يستعله الفلاسفة والحكماء واهل الاستدلال من السّير بالنفس من مقولات واضحة جدّاً، والتدرج بها حتى إيصالها إلى الحقيقة التي يراد لها أن تدركها، ولعل هذا هو أسلوب سقراط في المعرفة. كما أن الفطرة الإنسانية تصحو، حين يقع الإنسان في حالاتٍ من الشدّة، وينقطع أمله من الوسائل المادية، وتتلاشى أمامه كل الأوهام التي صاغها. وحينئذ تتجلى الفطرة ناصعة فتشير إلى الحقيقة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في بعض آياته التي تسحب من المجرمين اعترافهم بالله تعالى في مثل هذه الحالات.

### الفطرة والهدف السامي

يستطيع الباحث في النفس الإنسانية أن يدرك بوضوح توفر النفس الإنسانية على عناصر تشخّص للإنسان هدفه الكبير، وتربطه بهذا الهدف عبر ميول فطرية. وما نحاوله هو أن نشخّص ذلك الهدف الإنساني الكبير وكيف تعمل الفطرة للإيصال إليه؟

وقبل كل شيء ما هو الهدف الإنساني السامي؟

لورجعنا إلى القرآن الكريم نسأله عن هذا الهدف لرأينا يشخّصه في العبودية المطلقة لله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>٢</sup>. ولورجعنا إلى الروايات

١. الاسراء: ٩.

٢. الذاريات: ٥٦.

الشريفة وجدناها تشخص الهدف في المعرفة الكاملة، وتؤكد أن الله تعالى كان كنزا مخفيا فأراد أن يعرف فخلق الخلق لكي يُعرف.. ومن الواضح أن هذه الإرادة الإلهية تعني أن رحمة الله أدركت هذا الإنسان لأنها علمت باحتياجه للوجود لكي يصل إلى كماله بمعرفته التامة لله تعالى... ولا معنى لتوهم احتياج الذات الإلهية إلى هذه المعرفة. أما إذا رجعنا إلى وجدانا وميولنا الفطرية نستوضحهما عن الهدف فإننا سنجد الوجدان يصرخ بوضوح: الكمال: نعم هناك نداء صارخ يدفع الإنسان نحو الكمال والتكامل دون أن يقف عند حدٍّ وإنما هو الكدح والكدح نحو المراحل الأسمى. ولكن هل أن هذه الأهداف أمور متباينة مفترقة؟ إن من يعيش منطق القرآن والروايات يدرك أن هذه الأهداف تشكل هدفا واحدا، أوهي أمور يلزم بعضها البعض الآخر، ذلك أن الله تعالى هو الذات الكاملة كمالاً مطلقاً لا يحدُّه حدٌّ أبداً؛ وهو الحقيقة الكونية الهائلة والوجود المطلق، وما عداه مخلوق له، ووجوده مجرد ارتباط وقيام به تعالى فهو القيوم على الكون كله. أما الإنسان فإن غاية وجوده هي القرب المعنوي الإرادي من هذه الحقيقة الكونية الهائلة، فكلما اكتسب من الصفات الإلهية ما يناسبه؛ قَرَّبَ من هذه الحقيقة الكبرى، وكلما ازداد قربا وعبودية لها؛ ازداد كمالاً، ولاريب في أن ازدياد القرب والعبودية إنما يتم عبر المعرفة الفكرية والعملية، فمعرفة الله تعني معرفة الحقيقة، وتعني الانسجام الكامل مع الحقيقة، وتعني السير الحضاري المتواصل نحو الكمال، وقد قلنا إنه سيرٌ متواصل ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾<sup>١</sup>، ولأنَّ الله لا يحدُّه حدٌّ؛ فهو فوق كل كمال، ومهما تكامل الإنسان كان فوق كماله كمال.

وهكذا نلاحظ أن العبودية الإنسانية لله تعالى هي سر كمال الإنسان، وأن الإيديولوجية الإسلامية بعد أن تشخص نقطة الكمال المطلق في الله تعالى ترى أن درجة العبودية كلما ارتفعت فإن ذلك يعني ارتفاع درجة الكمال بنفس المستوى. أليس الكمال هو القرب من أكمل الحقائق؟ ثم إن هذا القرب يتناسب طردياً مع مستوى المعرفة الإنسانية للحقيقة الهائلة. إذن فالكمال الإنساني يكمن في عبوديته لله، وعبوديته لله رهن معرفته به. هذا وقد

١. الانشاق: ٦.

احتوت الفطرة على الميول الثلاثة التي تؤمن بسير الإنسان نحو هذه الأهداف القصوى. فهناك في الفطرة ميل عارمٌ نحو المعرفة يسمّى بغريزة حب الاطلاع والاستطلاع واستكشاف المجهول، وهي تؤمن دائماً اندفاعاً ذاتياً نحو المعرفة، وهناك في الفطرة ميل عام نحو التكامل مما يضمن سيره نحو تكامله دائماً، وهذا يعني الدفع نحو التغيير المتواصل وعدم الجمود على مرحلة خاصة. أمّا العبودية: فالذي يضمن السير نحوها هو غريزة التدين الأصيلة في النفس الإنسانية والموجودة في كل مراحل التاريخ وعند كل المجتمعات التي لم تلوثها الشبهات، وإن كانت تطبيقات هذه المجتمعات خاطئة في بعض الأحيان تأثراً بموارد الخطأ في العقل.. وتعمل هذه الغريزة بتناسق مع الغرائز الأخرى لتحقيق الهدف الإنساني العام. ومن الجدير بالذكر أن الماركسية وأمثالها من المذاهب المادية تحاول أن تعلل الحسّ الديني في الإنسان بعامل مادية مؤقتة؛ كالوضع الاقتصادي للطبقة الحاكمة والذي يدفعها لأن تدفع الطبقة المحكومة بالدين، أفيون الشعوب - كما تعبر - أوه نتيجة طبيعية لحالة الطبقة المسحوقة للتعويض عن هذه الحالة البائسة، أو يعلل هذا الحسّ الديني بالخوف والجهل وغير ذلك ولكن الدراسة الواعية للتاريخ ولعمق الحسّ الديني والتطورات التي خلقها أو مرّ بها تؤكد أن ما قيل كله هراء؛ فالماركسية نفسها تعترف بوجود الدين في المجتمعات الأولى اللأطبقية فكيف يكون ظاهرة طبقية اقتصادية؟ ولو كان الدين من صنع الطبقة الحاكمة فكيف نفسّر عمل الدين الإسلامي - مثلاً - على تحطيم مصالح هذه الطبقة ومعارضته الدائمة للترف والمترفين؟ وكيف استجاب له - أول من استجاب - المستضعفون في التاريخ؟ ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾<sup>١</sup> وكذلك لو كان الدين تعبيراً عن البؤس الذي يعيشه المحرومون فكيف نفسّر انضمام الكثير من ذوي المقام الممتاز إليه؟ وكيف نفسّر تضحية أبناء هذا الدين بكل ما لديهم من طاقات مادية في سبيل تحقيق أهداف الدين؟ ولا معنى بعد هذا لأن يقال بالتمييز بين نشوء دين سماوي وآخر فكلها تمتلك جذوراً ونداءات وانطلاقات واحدة، وكلها يسند بعضها البعض؛ فالروح واحدة والأهداف واحدة فلا معنى للتمييز ولا يعبر هذا التمييز بين منابت الدين إلا عن محاولات

يائسة لتضليل الفكر عن معرفة واقع الجذور الدينية، وبنفس المستوى يمكن مناقشة الإدعاء بأن الجهل والخوف من جذور الدين بعد إن كان الدين ضد هذين العاملين، وكان السبيل الأكمل لبناء الشخصية الواعية العاملة بالحقيقة، والمطمئنة الثابتة في وجه الأحداث التاريخية. وعليه فليس أمامنا إلا الرجوع إلى الفطرة والتماس الجذور الدينية فيها، الأمر الذي جعل الدين ظاهرة عامة في الشعوب حتى أن برجسون يقول: لم توجد جماعة من غير ديانة وحتى نجد العالم النفسي الكبير (يونك) يقول في كتابه علم النفس الديني إنه لا يمكن إنكار أن الدين هو أحد أقدم ظواهر الروح الإنسانية وأعمها ويقول معجم لاروس للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الإيمان بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة في الإنسان، ويقول ايورث: لو كنا نعتقد أن التاريخ دليل صادق في الكشف عن حقيقة الإنسان لاستطعنا أن نقول إن الإنسان كان يشعر دائماً من أعماق نفسه بضرورة الخضوع للمبدأ الأعلى الذي يفوقه كمالاً وقوة، ويجمع كل وجوه الخير والحق. ويقول كارليل في عقيدتي إن الشعور الديني ينبع من أعماق الفطرة، ويشكل غريزة أصيلة ونزوعاً أصيلاً في نفس الإنسان.

## الفصل الثاني: الرحمة الإلهية تهدي الإنسان بكل أنواع الهداية إلى كماله

تشكل العقيدة في الإسلام الأساس الذي يبتنى عليه النظام، والروح التي تسري في كل جوانبه. ومن هنا نشاهد القرآن الكريم عندما يتعرض للأحكام المختلفة يختم الآيات المتعلقة بها بما يشعر بأن كل هذه الأحكام قائمة على التقوى والفلاح. والعقيدة الإسلامية بدورها تركز على حقيقة أساسية هي حقيقة التوحيد والتنزيه وإعطاء صفات الكمال كلها لله تعالى، ونقصد بها الأعم من صفات الذات وصفات الفعل في الاصطلاح. والآية القرآنية الشريفة التي نقرأها قبل كل سورة وهي بسم الله الرحمن الرحيم تركز في أذهاننا أن كل شيء في الكون ينطلق وابتدئ من الله تعالى، خصوصاً إذا لاحظنا أن متعلق الجار والمجرور فيها محذوف، مما يشير بل يؤكد لنا معنى العموم، وأن كل شيء ابتدئ من اسم الله ويقوم باسم الله، وأن كل حركة في الكون هي باسم الله تعالى. في حين يؤكد لنا المقطع الأخير من الآية الكريمة أن ذلك الانطلاق إنما يكون على أساس من تلك الرحمة الواسعة اللامحدودة، وذلك اللطف الإلهي العام. والإنسان من بين كل الكائنات هو الكائن الذي انصبَّت عليه الرحمة الإلهية الفائضة فوهبته العقل والإرادة، وجعلته لوحده الموجود الذي يقبل الوصول إلى درجات الكمال الممكنة، فكان هو الموجود المكرَّم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾<sup>١</sup>.

وكان هو الموجود الذي سخرت له الموجودات وخلقت لاجله لكي يواصل مسيرته في طريق الكمال من جميع جهات حياته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup>، وجعل الهدف من الخلقة هو العبادة، إشارة إلى أن درجة العبودية لله تعالى كلما ترقّت ترقّى الإنسان في مدارج الكمال واصبح الأكثر قربا من أعظم حقيقة في الكون، وأكثر علما وارتباطا بواقعه كعبدٍ لخالق الكون العظيم.

وما نريد أن نبخثه هنا هو الوسائل التي زوّد بها الإنسان لكي يقطع الطريق الطويل نحو هذا الهدف النبيل جدًّا.

وسنوضح النقاط التالية فيما يلي:

أ- ما هي أنواع الهداية؟

ب- ما هي نوعية تأثير كل نوع على الآخر؟

ج- كيف يتناسق عمل هذه الأنواع في سبيل إيصال الإنسان إلى الهدف المطلوب؟

### أنواع الهداية

ويمكننا أن نقسم الهداية الموجودة لدى الإنسان إلى قسمين:

تكوينية، وتشريعية.

أمّا التكوينية فتتنظم في مجالات عديدة:

### الهداية الغريزية

إذ من الواضح أن في أعماق كل حيوان توجد صفات نابعة من فطرة الإنسان ومرتبطة بذاته، ولأصالتها؛ فإنها تطبع سلوكه بطابعها تماما ولا مناص منها، فهي تشكل - إذن - أحد الدوافع التي هيئت بدقة لإبقاء النوع الحيواني وخلق الحافز فيه للسير في الطريق التكويني المرسوم.

ويختلف تأثير الغريزة في الحيوان من نوع لآخر تبعا لوجود هداية أخرى وعدمه.



## الهداية العقلية

والمقصود بها تلك الطاقة التي يمتاز بها الإنسان عن غيره من الحيوانات وبهذه الهداية يستطيع أن يفعل ما يلي:

**الأول** - السيطرة على الغريزة والحد من تأثيراتها المفرطة وتهذيبها وتصريفها بصورة نظيفة.  
**الثاني** - التخلص من حدود المشاعر المادية المحصورة بما يحس به فقط، والتعالي على الواقع؛ مما يمنحه فرصة تغييره إلى الحالة الأفضل. وهذا هو السبب الذي جعله يمشي في خط التكامل، ويقطع شوطا بعيدا، في حين لم تمش الحيوانات الأخرى في هذا السبيل مطلقا. نستنتج مما سبق ما يلي:

أ- إن كل من ارتفعت لديه صفة التعقل؛ ارتفعت لديه صفة الإنسانية، والعكس بالعكس.  
ب- إن كل مذهب ينمي في الإنسان جانب التعقل - طبعاً مع عدم إغفال الجوانب الأخرى فيه - فهو مذهب إنساني والعكس بالعكس.

## الهداية التشريعية

وأعني بها ما يحمله الوحي إلى البشرية من تشريعات تنير لها طريق كمالها وتهديها إلى الصراط المستقيم. وهي التي يمهد لها العقل بإيانه بالله تعالى رباً خالفاً أحداً، وبالرسول ﷺ هادياً ومبشراً وقائداً، وهكذا باقي العقائد. وعندما تستقر أصولها العقائدية في النفس؛ تنبع منها تشريعات حياتية، وتشترك العقيدة والتشريعات في توجيه الهدايتين توجيهاً صحيحاً على تفصيل يذكر في محله.

فالهداية التشريعية تقوم بما يأتي:

- ١- إعطاء العقل الخبرة اللازمة وتنميته وتقويته في نفسه.
  - ٢- رسم السبل التي يجب أن يسلكها العقل في مختلف المجالات. ومنها مجال تنظيم الغرائز والسيطرة عليها وإشباعها إشباعاً متوازناً.
- هذا إلى غير ذلك مما يضمن للمسيرتين الفردية والاجتماعية ديمومة التكامل.

## مستلزمات تحقق الهدف الإنساني الأعلى

أما التناسق في تأثير الهدايات بأنواعها في سبيل إيصال الإنسان نحو الغاية المنشودة فإنه بعدما

عرضناه سابقاً اتضح أن الهدف الإنساني الأعلى يتطلب أموراً كثيرة؛ أهمها الأمور التالية:

- ١- وجود دوافع ذاتية نحو التكامل ولو على المدى الطويل.
- ٢- وجود دوافع ذاتية نحو حفظ الفرد والنوع الإنسانيين.
- وذلك باعتبار أن الهدف الأعلى يحتاج إلى مرور الإنسانية بمراحل تكامل ضرورية.
- ٣- وجود الإرادة التي تشكل صمام الأمان في تنظيم تأثير الدوافع.
- ٤- وجود منبع محيط عالم قدير مشرف على تنظيم الإرادة والتخطيط لعملها.
- وقد شكلت الغرائز الدوافع والمنابع الفطرية الذاتية المطلوبة في النقطتين الأوليين.

فمما يمكن تصنيفه ضمن النقطة الأولى:

أ- غريزة التدين.

ب- غريزة حب الكمال.

ج- غريزة حب الاستطلاع... وغيرها.

وهذه كلها تدفع بالإنسان نحو استكناه الحقائق والشوق نحو الحقيقة الكاملة المطلقة.

ومن الواضح أن ذلك يعتبر أول الطريق، بل وأساس السير في سبيل الهدف الأصيل.

ومما يمكن تصنيفه ضمن النقطة الثانية:

أ- غريزة حب الذات وفروعها من غرائز الخوف والإشباع وغيرها.

ب- غريزة الغضب.

ج- الغريزة الجنسية.

د- غريزة الأمومة.

فإذا التفتنا إلى أن هذه الغرائز كلها منابع فؤارة عمياء، يعمل كلُّ منها على أن ينعكس في سلوك الإنسان وعمله ويوجِّه حياته، إذا التفتنا إلى ذلك أدركنا سرَّ الحاجة إلى الإرادة التي هي سرُّ الفرق بين الإنسان والحيوان، وطبعاً نقصد بها الإرادة الواعية لا الإرادة الحيوانية التي حدثتنا عنها الآية القرآنية الشريفة:

﴿.. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ...﴾<sup>١</sup>.

والنعمة الكبرى التي تقوم بمهمة صمام الأمان لعمل الغرائز وتنظيمها هي العقل . ولكن لما كان العقل محتاجاً أشد الحاجة إلى من ينمّيه أولاً، ويخطط ويصدر له إلاً وامر وبالتالي يوجهه بعلمه الواسع إلى مواقع التنفيذ أو الإحجام أو غير ذلك فقد كان الوحي والإلهام هما اللذين يقومان - بلطفه تعالى - بتلك الوظائف . وعلى ذلك فيمكننا أن نمثل للغرائز بمنابع الأنهار التي تجري المياه منها بهيئة أنهار تشق طريقها وتتفرق هنا وهناك، ولربما جفت أحيانا فتعطش المدن، ولربما فاضت فأغرقتها، ولكن إذا أقيم السد الكبير المنظم العقل والإرادة الحرة فإنه ستحصل ضمانة من الفيضان ومن الهدم والعطش المتوقع وسيسيطر على تنظيم المياه للرّي والسقي . ولكن السد يحتاج إلى توجيه وتخطيط وإشراف من قبل هيئة تطّلع من مكان رفيع على الحاجات وتحاول الموازنة بينها وترسل التقارير المتوأصلة إليها عن ذلك، وتلك الهيئة يقابلها الوحي في موارد حديثنا هذا .

فما أعظم نعم الله تعالى!

وما أروع تنظيم هذا الكون!

وما أكرم الإنسان فيما لوسار في طريق الهدى والحق،

### علل الانحراف نحو المادية<sup>١</sup>

إن الإيمان بالله أمر فطري طبيعي، أمّا الإلحاد فيعتبر حالة مرضية، بالاصطلاح خلاف القاعدة، ومن هنا نرى أن ما يسمّى بـ«علم تاريخ الأديان» مخطئ تماماً في منهجه. إنه يبحث عن سبب نشوء الدين في الاقتصاد والحروب وغير ذلك ولكنه ينسى أن الاعتقاد بالله - كما قلنا - فطري مع الحياة، وأنّ الحالة الطبيعية لا يتساءل عن عللها مطلقاً. إنه يجب أن يتساءل عن علل المرض والانحراف ويبحث عنها في مظانها الأصيلة إذا أراد أن يكون واقعياً مع نفسه .

كثيراً ما يثار التساؤل بأنه لو كان الأمر كما تقولون فلمَ هذا التيار المادي الجارف الذي نلاحظه يتّسع يوماً بعد يوم؟ ولم هذه المجموعة الكبيرة من العلماء الملحدين؟

١ . للتفصيل يراجع كتاب «علل غرايش به مادي غرى» آية الله الشهيد المطهري .

والجواب على هذا التساؤل له مراحل نوجزها فيما يلي:

**أ - محكمة الوجدان والعقل:** فمهما تعالى الصراخ فإنه سيبقى وجدان الإنسان في نفسه صارخا بعظمة الله المتجلية في الكون، بل في أي جزء صغير فيه، حتى يقول عالم الحشرات المعروف (هانري فابر) إن التدبُّر في بناء حيوان صغير مثل النملة والتشكيلات الحياتية لها يقود مئات الملايين من الناس إلى الله.

**ب - ملاحظة الواقع:** فليس الأمر بهذه الصورة المهولة، إننا نجد أعظم علماء الكون مؤمنين بالله، وأكبر العقول الفلسفية تؤمن بالله.

**ج - التوجه للدوافع:** وهذه هي المرحلة الأساس في الموضوع، فيكفي أن نطلع على الدوافع لنعلم علم اليقين أن الإلحاد بأواجه نابع من أسس وتصورات خاطئة تماما. ماهي هذه الدوافع؟

يلزمنا في هذا الصدد ولكي نكون دقيقين أن نقوم ببحثين:

**أ - في الدوافع البيئية والنفسية الشخصية لكل منحرف، وهذا ما لا يمكننا معالجته معالجة عامة ولسنا نقصده في هذا البحث.**

**ب - في الدوافع النوعية للانحراف عن الفطرة والتي لها مساقط أكبر وأوسع في حياة أولئك الضالين.** وهذه الدوافع لتأملناها، ولاحظنا قوتها والجو الذي تخلقه، عرفنا بوضوح أن بقاء العقيدة الدينية أصيلة راسخة في النفوس رغم كل هذا العقبات، وهو بنفسه دليل على كونها تستمد من الفطرة والمنطق بقاءها وحياتها.

والآن ماهي هذه الدوافع نحو الانحراف المادي والابتعاد عن الخط الأصيل؟ يمكننا في

هذا الصدد أن نطرح العوامل التالية:

**الأول - العوامل العامة:** التي تنتج عن السير الحضاري المنحرف، أو حتى عن السير الحضاري الصحيح الذي لا يمكن إدراك مغزاه، أو الذي يصادف في الإنسان ميولاً منحرفة فُيزيد تأثيرها في حياته (كما سيتضح هذا عند الحديث بالتفصيل عن هذه العوامل العامة).

**الثاني - العامل السياسي:** ونعني به بالضبط العامل الاستعماري الذي ينبع من الدوافع الذاتية الطاغية عند فئة معينة أو شعب معين نتيجة وضع خاص. وهذا أيضاً ما سنفصل الحديث عنه.

**الثالث - ما يمكن أن نسميه بعامل الفهم الديني الخاطيء:** ولعل في هذا شيئاً من الغرابة، ولكننا سنجد بوضوح أن المتتمين إلى معسكر الإيمان بالله أنفسهم كثيراً ما ساعدوا على زجّ الجماهير والجماعات نحو المعسكر المادي، فإن بعض البسطاء والجامدين من المتدينين يدفعون بعض المجاميع بتصرفاتهم البسيطة والجامدة إلى الانضمام إلى الصفوف المعادية دون أن يشعروا أن تلك الأجنحة إن انتصرت فإنها سوف لن تبقى أي وجود ديني، وسوف تنسف الجذور وتميت صوت الحق.

وعلى أي حال فأصول العوامل التي عملت على رقد المعسكر المادي، أي المعسكر المنحرف عن الخط الفطري السليم هي:

### أ - العوامل العامة

وها نحن نبدأ بالحديث عمّا أسميناها بالعوامل العامة مرتّزين - في كل ما نبحث - على الموجة اللادينية في العصور المتأخرة لأنها في الواقع هي التي أعطت المعسكر الملحد هذه السعة وولدت هذه الشبهة في الأذهان... وإذا عدنا إلى جذور الموجة الملحدة رأينا الدور الكبير الذي لعبته الاكتشافات الهائلة في عصور النهضة العلمية الحديثة، والتي قدّمت للبشرية خدمات مادية رائعة في مجالات السيطرة على الطبيعة والاستفادة من التجربة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها قضت على كثير من المسلّمات العلمية التي سيطرت على الذهن العامة ربّما لقرون عديدة، نعم لعبت هذه الاكتشافات دوراً في خلق حالتين متضادتين في آن واحد ولكنها متفقتان على الخط الفطري الأصيل. هاتان الحالتان المتضادتان هما حالتا: الشك في كل الحقائق شكّاً رهيباً قاتلاً، والإيمان المطلق بالتجربة وإسراء تأثيرها إلى كل مجالات المعرفة الإنسانية.

ولكن كيف اجتمع الشك واليقين!؟

هناك بعض العوامل التي تضافرت على بلورة هذه النتيجة - منها:

١- **اعتماد المذهب التجريبي فقط:** إن الملاحظ بوضوح هو أن المذهب التجريبي الذي يقول بالاعتماد على الحس دون غيره، وينكر أي إمكان للإيمان بموجودات غير مادية، هذا المذهب كان منبوذاً إلى حدّ كبير في العالم على صعيده الفكري، وكانت الأفكار الإلهية هي

المسيطرة في الغرب تبعا لجهود كبار الفلاسفة، ولكن وبعد أن نبغ علماء كبار، وراحوا يعتمدون على التجربة في بحوثهم العلمية المبرجة الأمر الذي أدى إلى كشف هائلة في المجال المادي، وأدخل البشرية في عصر التطور الميكانيكي الهائل، والسيطرة المتنامية على القوى الطبيعية، وسهّل لها الكثير من المصاعب، وحلّ الكثير من المشاكل العلمية والعلمية وأوقفها على الكثير من الحقائق الكونية، بعد كل هذا، وبدلاً من أن يتجه العقل العلمي الذي اكتشف هذه الأسرار إلى التدبّر والتأمل في هذا النظام العالمي البديع والوصول إلى مدبّره ومنظمه ومنسقه، بدلا من هذا اتجه - بفعل بعض الآراء الفلسفية المتطرفة - إلى تقديس التجربة ومقياسية الحس الملاحظة، وبالتالي تقديس المذهب التجريبي. وهذا يعني الصعود بالتجربة من مجرد طريقة ناجحة لفهم العلاقات المادية القائمة في العالم إلى مقياس مطلق يتحكم في كل تصورات الإنسان وتصديقاته، وهو يعني بالضرورة حصر المعرفة الإنسانية في إطار المادة، والابتعاد بها عن الإيمان بأي شيء وراءها أي الانحراف نحو المادية عن الخط الإلهي الفطري، إلا أن هؤلاء نسوا أن التجربة الحسية لا يمكن أن تجعل مقياسا يحكم بالإثبات أو النفي على عالم ليست هي من سنخه، كما نسوا أن التجربة نفسها - لكي توصل إلى النتائج العامة - تحتاج إلى عملية تعقل وتجريد. وهذا ما لا يقوم به الفكر إلا عبر المقولات الفطرية التي يؤمن بها.

٢- انهمار بعض المسلمات الموروثة دينياً: أمّا النتيجة السلبية الأخرى: فهي الشك الشامل بكلّ الحقائق، ذلك أن الفكر العلمي كان يسلمّ بأمور وقوانين يعتبرها غير قابلة للمناقشة، ولكنّه وجد خلال النهضة العلمية (الرنسانس) أنّ تلك الحقائق قد انهارت في فترة قصيرة الواحدة بعد الأخرى الأمر الذي خلق روح الشك في كل قضية علمية مسبقة. وهذا أمر صحيح، ويقظة علمية ضرورية، ولكن هذا الشك تحوّل إلى شك هدام عندما تجاوز المساحة الطبيعية له فوصل إلى الشك في كل الحقائق الدينية شكّاً لا يتبعه تحقيق فكري دقيق بنّاء، شكّاً إلى حد التشكيك في الأمور البديهية الفطرية كمبدأ العليّة، وحتى الإيمان بوجود العالم الخارجي نفسه، وهذه الحالة بلاريب ممّا تساعد تمام المساعدة على تغذية الاتجاه المادي وإضعاف المعسكر الإلهي.

وعلى أي حال فإن تقدم العلوم التجريبية بدلاً من سيره في المجرى الطبيعي له وتأكيد

للمسألة الإلهية الفطرية سار في سبيل المادية نظرا للقصور الذهني وتحويل التجربة - وهي المؤثرة في ظروف نسبية - إلى مقياس مطلق.

**٣- العوامل التاريخية:** ثم إن من العوامل التاريخية العامة التي ساعدت على الانحراف نحو المادية تلك الرجّات التاريخية القوية التي خلقت القلق والتعقيدات النفسية الواسعة الأبعاد، ونعني هذه الحروب المهلكة للحرث والنسل والتي ابتلعت الملايين من البشر، وأيتمت الملايين من الاطفال. فقد خلقت هذه الحروب الوحشية النهمه؛ القلق الفردي والاجتماعي، وحولت الإنسان إلى وجود معقد لا يثق بشيء، لا يطلب الرحمة أو يهبها لأحد. ومن الواضح أنه إذا استحكمت القلق والتعقيدات النفسية في أعماق الإنسان انحرفت فطرته، وتشوهت شاشة بصيرته، وراح يجبط خبط عشواء في عالم المادة. فتارة تراه يؤلّه الجنس (كما فعل فرويد)، وأخرى يؤلّه الاقتصاد (كما فعل ماركس)، وثالثة يؤلّه مصالحه الشخصية الفردية (كما في الرأسمالية)، وأخيرا فإنه يؤلّه القلق اللانتماء، بل يؤلّه نفسه (كما نلاحظ في المذاهب اللامتتمة والوجودية غيرها)... وهكذا رأينا أن هذه الرجّات التاريخية كان لها الأثر الكبير في هذا المجال، ولانعني بهذا أنها هي وحدها سبب القلق الوحيد، ولكن نقصد أنها شكّلت سببا كبيرا في إيجادها، الأمر الذي جرّ إلى المادية.

**٤- عامل الظلم والاستبداد:** وهنا نصل إلى العامل الاجتماعي العام الآخر الذي قاد البشرية إلى المادية والانحراف عن الفطرة وهو اقتران بعض التحولات الاجتماعية المهمة بنظرات مادية، ذلك أننا نعلم أن الظلم كان ولا يزال يفتك بالكثير من المجتمعات فيسلبها حقها ويلقيها في وهدة الحرمان والضياع، فإذا استطاع مبدأ معين أن يدعو إلى إزالة الظلم ونصرة قضية المحرومين، بل ولو استطاع أن يصبّ آمال هؤلاء في قوالب علمية؛ فإنه سوف يجلب تأييد هؤلاء المحرومين ووقوفهم إلى جانبه. أمّا إذا استطاع أن ينجح في تطبيق شيء من أطروحاته فإنه - بلاريب - سوف يجر وراءه جماهيرهم. وهذا ماجرى عبر تاريخ أوروبا؛ فقد راحت الماركسية المادية - مثلا - تنادي بأطروحة الثورة وحكومة البروليتاريا بعد أن رأت هذه البروليتاريا (أي العمال الكادحين) يئنون تحت سياط الرأسمالية البشعة، ويمتص الرأسماليون قوتهم، فجاءت لتصور لهم جنتهم وحكومتهم التاريخية المزعومة، وبالتالي لتنظّم بعض التنظيمات، وأخيرا لتنجح بعض هذه التنظيمات في استغلال الطرف الموالي للثورة،

وضعف جهاز القياصرة، وسوء الاوضاع بسبب الحرب العالمية الأولى؛ لتثورتمسك بأزمنة الحكم مدعية أن التاريخ قد قال قولته، وأن العمال سيحكمون. وهكذا نجد أن احتلال بعض المبادئ المادية لمواقع الثورة محاولة فلسفتها، وفلسفة آمال الجماهير ولو بوعود كاذبة لم يتحقق منها شيء بعد ذلك، كل ذلك قرن في ذهن هذه الجماهير بين الثورة المادية وتأكد هذا القرن بينهما بملاحظة السلوك الاقطاعي والارستقراطي الذي سلكته الكنيسة الأوربية، الأمر الذي جعل الماركسية تنجح في الربط بين الدين والتخدير والرجعية وبالتالي تشوه الفطرة العامة لدى الشعوب تجرُّها إلى المادية.

والواقع أننا نعلم أن الدين الواقعي قد نمت في أحضانه الحرية ومبادئ الثورة على الظلم. إن الأنبياء - كما هو واضح لمن درس تاريخهم - كانوا هم الطليعة في كل ثورة على الطواغيت والفراعنة، ونصرة المستضعفين. يتضح هذا لمن يطالع الآيات التالية:

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ \* وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَبَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ \* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾<sup>٣</sup>.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>٤</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾<sup>٥</sup>.

١. القصص: ٥ - ٦.

٢. آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨.

٣. ألم السجدة: ٢٤.

٤. النساء: ٩٥.

٥. الصف: ٤.



فالدين منطلق الثورة، والمحرّك للشعوب لكي تطالب بحقها في الحياة الكريمة، والمحرّر للعقول من خرافات الانحراف. وهذه أمامنا ثورة إيران المسلمة البتلة فلنعش معها لنجد كيف أن الدين هو الذي حقق أمل الجماهير وقضى على الطواغيت. وعلى أي حال فإن واقع الدين بقي مجهولاً لدى الغربيين ولم ينظروا إليه إلا من خلال التصرفات الكنيسية المنحرفة، الأمر الذي سمح للمبادئ المادية أن تحتل موقع الثورة وتسحب إليها آمال الجماهير، وبالتالي ترفد الاتجاه المادي بموجة عارمة وتيار جماهيري قوي، مغطية بذلك على نداءات الفطرة، والمنطق السليم.

### ب- الاستعمار

إن الاستعمار العالمي قاده أناس ماديون لا يعرفون أي معنى للقيم الإنسانية والمعنوية، ولم يكونوا يستهدفون سوى الوصول إلى منابع المواد الخام أينما كانت وبأي وسيلة ممكنة، ولو على جماجم الأبرياء وفي ظلال آهات المحرومين، وكذلك احتكار الأسواق العالمية لتصريف البضائع التي تنتجها مصانع المستعمرين... وذلك بعد التستّر بمئات من الشعارات البرّاقة الخدّاعة، ومثلها من المبرّرات كرسالة الرجل الأبيض لتحضير العالم وتمدينه، ورسالة العالم الاشتراكي لتحرير الشعوب. نعم تبرقع الاستعمار حتى تبرقع التحرّر ليسحب نفوذه على مختلف المناطق، حتى عاد العالم اليوم لقمة تتنازعها أظفار الاستعمارين الشرقي والغربي، ويقع تارة موقعاً للتصالح السلمي وأخرى مورداً للتنازع، وحينئذ تزدهر مصانع الأسلحة والمزاييدات والشعارات البرّاقة، وهكذا دواليك، وكل المستعمرين يشعرون بأن نمو الشعور الديني عند الشعوب وخصوصاً الشعور الديني الإسلامي الذي لا يُفترّ ظالماً على ظلمه، ولا يتسامح مع شعب صبر على كظة ظالم ولم ينطلق ثائراً في وجهه مجاهداً مناضلاً يحطم قلاعهم وقواعده، هو العقبة الأولى.

إنه شعر - مثلاً - بأن الإسلام يستطيع أن يوحد الأمة في وجه خططه الاستعمارية الماكرة، ويوحد مسالكها وينشط أجهزتها الفاعلة الثورية، فعمل وعمل حتى استطاع أن يكسر هذه الشوكة، ويخلق قطاعاً ملحداً أو علمانياً لا يكثرث للدين ولا ينظر إليه إلا كتراث يُحترم لأكثر، ولكن لا يسمح له بالتدخل في تنظيم شؤون الحياة؟

ويمكننا في هذا الصدد أن نشير إلى بعض الخطط الاستعمارية الخبيثة عبر النقاط التالية:  
**أولاً -** السيطرة الاستعمارية العسكرية حيث تحركت الجيوش النظامية لتحتل الأرض الإسلامية احتلالاً عسكرياً، وتمسك بيدها بأزمة الأمور، توجه مختلف النشاطات لصالح الأهداف الاستعمارية الملحة لانرانا بحاجة إلى التعرض للمؤامرات الاستعمارية التي مزقت جسم الأمة واحتلت كل مساحاتها تقريباً. خصوصاً في الثلث الأول من القرن العشرين.

**ثانياً -** قام الاستعمار بعملية تكبير وتهويل للحضارة الغربية المادية التي لا تستحق لفظ حضارة - كما يرى أحد المفكرين - لأن الحضارة تعني إحراز التقدّم في الجانبين المادي والمعنوي، في حين يفقد التمدّن الغربي أي ارتفاع للأسهم المعنوية في الساحة، بل يواجه انخفاضاً حاداً يكاد يُفرغ الإنسانية من أي محتوى إنساني ويعود بها حيواناً جشعاً لا يهتم إلا بطنه وفرجه. وعلى أي حال فقد عمل الاستعمار على تضخيم حضارته وتكبير نتائجها حتى المعنوية، رابطاً إيّاها بالنتائج المادية الباهرة؛ ليسلب لبّ أبناء هذه الأمة، ولينسوا الفرق بين التقدّم المادي المعنوي، ولينبهروا بالحضارة الغربية، وليقدّسوا نتائجها سواء على صعيد الفكر أو على صعيد المادة، فكلّ ما هو غربي فهو تقدّم، وكل ما هو من الغرب فهو ما يتطلبه مثقف هذا العصر، وكل تقليعة غربية تجد لها سوقها الرائجة في المجتمع الشرقي، حتى لقد تأصلت في هذا المجتمع عقدة الحقد تجاه الغرب والحضارة المادية الغربية. والحديث في هذا المجال طويل طويل لا يسعنا التعرض هنا لكل أبعاده.

**ثالثاً -** وهو الأهم؛ فقد كانت الأمة الإسلامية عند الغزوة الاستعمارية تمرّ بفترات سبات حضاري فكري، أنتجت فراغاً فكرياً هائلاً بعد أن جمد مفكرو هذه الأمة على قوالب متحجرة، ولم ينظروا للإسلام إلا من زوايا تفكير رجعي ضيق يبرّر حالة السكون والخنوع، ويحوّل المفاهيم الإسلامية الثورية إلى مفاهيم تبرّر الخنوع والاستكانة؛ فإذا بالصبر وهو أروع صفة نفسية تدعو لتجميع القوى والاحتفاظ بها ومنعها من التبدّد ثم تفجيرها في لحظات الفرج والفرصة السانحة، إذا به يتحوّل إلى مفهوم تقويعي مريض وإذا بالزهد كذلك ينتقل من مفهوم ثوري يُعلي الإنسان على كل الروابط التي تمنعه من الانطلاق والثورة، إلى مفهوم رهباني متصوّف متفوق منعزل، وهكذا قل عن باقي المفاهيم... ممّا

خلق - كما قلنا - فراغاً فكرياً ونظرة ضيقة، وابتعاداً عن روح الإسلام، الأمر الذي أحسَّ به الاستعمار جيداً، واقتنص الفرصة التي سنحت له فراح يعبئ قواه الشيطانية لبث الأفكار الإلحادية بأغلفة براقّة خدّاعة، وبطبّخات فكرية جاهزة، مقدّماً إيّاها للشباب المتطلّع، للشباب الفارغ عقائدياً؛ ليقوم هذا الشباب النهم بدوره بالتهام هذه الأفكار وحشدها في ذهنه، والإلتزام بها كعقائد أصيلة، وهو في الواقع يجهل حتّى تفصيل هذه الأفكار فضلاً عن أن يدرك أدلّتها وبراهينها ويناقش الواهي من هذه البراهين. ولا نريد أن نبتعد وهذه العقيدة الماركسية الملحدة وهؤلاء أتباعها هنا في بلادنا. تعال معي نستقرّثكم منهم فهمها وفهم قوانينها وروابطها ومدى العلاقة بين مذهبها الاجتماعي ونظرتها العامة للتاريخ، وبالتالي موقفها العام من الكون ككل؟! ترى هل يمكن أن تعد هؤلاء بالأصابع؟ ثم إذا جئت تناقش هؤلاء الذين فهموها فرضاً؛ فكم تجد منهم من استوعب أدلّتها - إن كانت لها أدلة يمكن أن تستحق هذا العنوان -؟ ثم كم من هؤلاء الماركسيّين في عصرنا من فهم الإسلام ثم حاول أن يقارن بينه وبين الماركسية ليرجّح الأخيرة عليه؟

أمّا أنا فرغم كثرة لقاءاتي بهؤلاء لم أجد منهم أحداً يثبت أمام إحدى المناقشات التي يوجهها المنطق الإلهي العقلي رغم أنّي قابلت العديد من مدّعي القيادة الفكرية لهم، وقد رأيت ضحالة ما بعدها ضحالةً في فهم الماركسية فضلاً عن الدفاع عن تصوراتها المريضة، حتى أنّي شهدت انهيار تيار ماركسيّ قوي في إحدى الجامعات نتيجة لقاءات عامة دامت أقل من أسبوع. وعلى أي حال فإن الغفلة لن تدوم، وسيرجع الشباب المسلم - إن عاجلاً أو آجلاً - إلى عقيدته الرصينة ونظامه الخلاق وعندها يعرف أنه اغترب عن ذاته وفطرته عندما لجأ إلى هذا المشرب الكدر.

رابعا - بعد هذا نجد الاستعمار يعمل على خلق كادر عميل في داخل الدول المسلمة بمختلف الأساليب، ومنها العمل على استجلاب الطلاب إلى معاهده المسخرة لصالحه ليريّبهم جنوداً لأهدافه الخبيثة، ويزرع في أذهانهم الأفكار الإلحادية المختلفة. خامسا - العمل على تحطيم اللغة العربية، وهي لغة المسلمين العامة، هي كذلك لغة النصوص الإسلامية التي يمكن فهم الإسلام من خلالها، وقد قامت هذه الخطة على أساس إشاعة اللغة العامية في كل منطقة ممّا سيؤدي إلى نسيان اللغة التي أدّى الدين بها وضياعها،

وكذلك قامت على أساس عمل المسؤولين غير العرب على ما أُسمي بعمليات تطهير اللغات التركية والفارسية وأمثالها من الألفاظ الدخيلة، وذلك لخلق الفصل اللغوي بين الشعوب الإسلامية.

**سادسا - العمل المتواصل على زرع حدود وهمية مصطنعة توزع جسم الأمة الإسلامية إلى مناطق صغيرة، وكل منطقة منها وطن وهمي له نشيده الخاص وعلمه الخاص. وهكذا شاعت روح التفوق المحلي والنظرة الضيقة لأهالي كل منطقة بأن ينظروا إلى مصالحهم فقط ويزداد التأمر عندما يترك الاستعمار بعض المناطق المتنازع عليها بين هذه الدويلات، يتابع الاستعمار خطته الممزقة فيطرح في المرحلة السابقة الفكرة القومية ليمزق الأمة الإسلامية ويفرقها تفرقة عنصرية، وكلنا قد شهدنا ما فعلته الدعوات القومية من خلق روح التنافر والتباعد بين الشعوب المختلفة وهذا ما روجه بعد إعطاء المناطق استقلالها الشكلي في الثلث الثاني من القرن العشرين، كما شهدنا كيف عمل الاستعمار على ضرب ثورتنا الإسلامية عبر إثارة النزعات القومية الضيقة.**

**سابعا - العمل الماكر على بث روح تأكيد كل منطقة على تاريخها الخاص، مما يمزق الأمة الإسلامية إلى أمم مختلفة متباعدة تاريخيا. ومن الواضح أن التاريخ المشترك له دوره في شد الأمة، في حين يعمل التاريخ المختلف على خلق الحواجز التاريخية بين قطاعاتها، وبعد هذا يصعد الاستعمار من عملياته فيحرك عملاءه المثقفين للتركيز على التاريخ الوثني لكل منطقة، فهنا تركيز على الفراعنة وتاريخهم، وهناك على الآشوريين والبابليين، وهناك على الأكاسرة، وهلم جرا.**

**ثامنا - ولزيادة التمزيق تتدخل الأصابع الاستعمارية لزرع الخلافات الطائفية العملية بين المسلمين، بل الخلافات الجزئية بين أبناء المذهب الواحد، وحول بعض القضايا التي لا تملك تلك الأهمية التي نعطيها لها أحيانا... ذلك أن الخلافات الفكرية إذا كانت أمورا طبيعية فإنها يجب أن لا تتعدى الجانب الفكري إلى المجال العملي، وخصوصا عندما يكون العدو على الأبواب، إلا أنها الأصابع الاستعمارية المسمومة تحرك وتحرك.**

وعلى غرار الخطط الماضية نجد الاستعمار يسخر بعض الجاليات التبشيرية في تنفيذ خطته، كما يعمل على تسخير طبقة من العلماء المبشرين لتزييف التاريخ الإسلامي، وملاحظة

النقاط التي يتصورونها نقاط ضعف، والنفوذ من خلالها إلى لبّ الشباب على الأخص. وقد اعتمد هؤلاء كثيرا على إثارة الشُّبه مثل إثارة الشُّبه العقائدية التي تقع على أساس الغيبية الموجودة في الإسلام.

تاسعا - وأخيرا فالاستعمار يعمل على استغلال كل وسائل التمييع لبث الروح الشهوانية وتحريك الغرائز في الشباب أيضاً، وهذا يتمثل في المجالات الخليعة والسينمات والرقص في المسارح والملاهي وغير ذلك. ومن كان له أدنى معرفة بأساليب النظام الاستعماري السابق يؤمن بهذه الحقيقة. ودخل هذا في الموضوع واضح إذ إن الشهوة وإثارتها هي الطريقة الخبيثة التي يمكن أن ينفذ منها شيطان الاستعمار إلى أغراضه.

إذ يشعر المرء مع ثورة الشهوة أنّ الإسلام وقف سدّاً حائلاً بينه وبين إشباع لذاته المسعورة، متناسيا المقاييس النوعية الواقعية وكل الإضرار الناتجة من هذه النظرة الثائرة، ينسى كل هذا لينطلق إلى المبادئ الإباحية الملحدة ويزداد به معسكر الكفر.

والخلاصة: إن الاستعمار عندما يشيع هذه المادية الأخلاقية فإنه يمهد السبيل للمادية العقائدية. إذ غالبا ما تؤدي الحياة المادية التي يعيشها الإنسان إلى العقيدة المادية تماما كما تؤدي العقيدة المادية إلى السلوك المادي.

فإذا حدّد الإنسان مركزه من الكون على أساس أنّ هذه الحياة هي كل الشوط، وأنّه يجب أن يشبع غريزة حب الذات فيه تماما منها، وأن لا شيء وراء المادة... إذا اعتقد ذلك فقد فتح الباب على مصراعيه لأن يعبّ من اللذات، ويظلم الآخرين، ويذوب عنده معنى الفضيلة والرذيلة. وهكذا نؤمن بما سبق إذا لاحظنا ما يلي:

- أ- إن الأخلاق لا يمكن أن تبنى على غير أساس العقيدة.
  - ب- وإن التقوى لإلهية إن ذهبت زال المانع من طغيان الشهوات.
  - ج- إن النظرة المادية تخلق في الإنسان صراعا داخليا يقوده نحو التخلُّص من حياته والغرق في عالم المسكرات ممّا يساعد تماما على الانحراف وانتهاء المادية العقائدية إلى المادية الأخلاقية.
- أمّا العكس فواضح أيضاً. فالأخلاق، والعمل؛ لهما تأثير فيهما تعميق الفكرة أو إذابتها. عندما نسأل ما ربط الفكر بالعمل؟ فالجواب - كما يقوله أستاذنا الشهيد المطهري - إن الإيمان

ليس فكراً جاقاً وخصوصاً الأفكار الكونية العامة والاجتماعية؛ فالاعتقاد بالله يستتبع الاعتقاد بالإسلام، وهو يقتضي العمل بدساتيره ونظمه، ثم إن الانحراف الأخلاقي يبعد الروح عن مقام تلقّي اللطف الإلهي، ولذا جاء أن المعصية تُبعد الإنسان عن الله شيئاً فشيئاً، وأن القلب تغطيه ظلمات المعاصي شيئاً فشيئاً.

وربما كانت هذه الآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى على بعض تفاسيرها ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾<sup>١.٢</sup>

### ج - الفهم والسلوك الديني الخاطئ

ثم لنلاحظ الدور الذي لعبه بعض الذين ينتمون إلى المعسكر الديني في رقد وإغناء الموجة الإلحادية أو التشكيكية في الدين. ونحن نعتقد أن هذا الدور يتمثل في أمور، منها:

الخلافات الدينية المتطرفة التي تؤدي إلى نتيجة يرفضها الطرفان رفضاً، أي الخروج من الدين والانضمام إلى الملحدين... ويبدو التطرف في النزاع عندما لا ينحصر في المسائل الخلاقية المعقدة بين العقول المفكرة التي هي بمستوى الحل والعقد، وتطرح على أصعدة ذات مستوى واطئ، الأمر الذي يعطيها أبعاداً غير واقعية ويشكك الكثيرين في الفكر الديني البسيط الذي يطرحها، كما أن هذا التطرف يبدو عندما لا يُقبل المتنازعان على النزاع بموضوعية وتجرد، وإنما بتعصبٍ مقيت، والتماس الفوز لا غير ومن هنا تُتبع شتى الأساليب لسلب عقيدة الطرف الآخر على الأقل فتثار شبهات جدلية تماماً، أو تصاب عقيدة الطرف الآخر في الصميم إلى غير ذلك، كما أن التطرف يبدو أيضاً عندما لا يحصر النزاع في الجانب الفكري وإنما ينزل إلى مرحلة النزاع العملي، مما يؤدي إلى صور هزيلة.

وأخيراً فإن من التطرف في النزاع طرح بعض الأمور على مائدة البحث رغم أنها ليست ممّا ينبغي فيه النزاع، أو هذا المستوى من النزاع إذا أردنا أن نضرب أمثلة على نتائج هذه الخلافات المتطرفة وجدنا أمامنا مجموعة هائلة التأثير. فمن الأمثلة التي تبدو لنا: حرب

١. الروم: ١٠.

٢. راجع «علل كرايش به ماديجري» - بالفارسية - ص ١٢٣ و ص ٢٣٤.

الاسرائيليات المشوهة التي شنها أعداء الإسلام في صدره لتشويه صورته وبث الخرافات في تراثه الفكري وتحريف مسيرته الحضارية، والحديث في هذا الموضوع واسع لا مجال له هنا، كما أن من الأمثلة هذه الدراسات التي قام بها المستشرقون الصليبيون للإسلام بعقائده ونظمه وأخلاقه شخصياته وكيف قام هؤلاء بتكبير بعض الجوانب لخلق التشكيك والتحريف مما أدى إلى عملية ابتعاد عن الإسلام وبالتالي عن الدين عموماً، إذ من الواضح أن هذه الشبهات الناتجة من دراسات المستشرقين أو وجود الاسرائيليات لاتدع الإنسان المؤمن حتى تخرجه من دائرة الإيمان، لا أنها تخرجه من شعبة مؤمنة إلى شعبة أخرى، ويمكن أن تضرب على الخلاف المتطرف مثلاً ابتليت به البشرية بعقائدها وبأخلاقيتها وبنظامها الاجتماعي ونعني الصراع الذي خاضه الصهاينة ضد كل البشرية وقيمها باسم الدفاع عن العقيدة الدينية، وما بروتوكولات حكماء صهيون إلا وثيقة دامغة جرّت البشرية إلى الدمار الحضاري والأخلاقي، وزجّت بالكثيرين في مسيرة الانحراف عن الفطرة والارتكاس في المادية.

كانت هذه بعض الأمثلة التي سقناها كمنهج للنزاع الديني المتطرف الذي يشجع على الابتعاد عن الدين، وهو أحد الأمور التي تمثل الدور الذي لعبه أتباع الإيمان في الدفع إلى الإلحاد، ومن تلك الأمور بعض أنماط السلوك المنفر الصادر منهم، أي ممن يدعون الإيمان، فقد يكون لهذا السلوك - على اختلاف دوافعه - ردود فعل قوية تدفع للإلحاد أو تحبّذه. إذا أردنا نلاحظ بعض الأمثلة فلنلاحظ مثلاً ظلم الكنيسة في أوروبا: ذلك أن الكنيسة انحرفت انحرافاً فضيعاً عن مهمتها الأساسية وأصبحت سنداً للطبقة الحاكمة المستبدة ومعقلاً للرجعية بل أصبحت هي الحاكمة المستبدة التي تمتلك إقطاعيات خيالية من الأرض، وتعتبر الناس عبداً لها، تتحكم فيهم تماماً كما يتحكم الإقطاعيون بفلاحهم أو السادة بعبيدهم، وراحت العقائد السخيفة تروج فيها كبيع صكوك الغفران، المزايدة على أراضى الجنة. أمّا عن ضغطها على الفكر العلمي الأوربي فحدث ولا حرج، فقد أنشأت محاكم للتفتيش (تفتيش العقائد) حاكمت الآلاف من رجال الفكر النوابع وحكمت عليهم بالموت والحرق والتبديد لأيّ تهمة ولأيّ شيء أو فكرة كانت تتصورها الكنيسة متناقضة مع ما في الإنجيل من تصورات.

وبهذا وجَّهت للعلم والدين معا أقسى الضربات، وكانت نتيجة ذلك أن نظر الخط العلمي إلى الخط الديني كعقبة كبرى في وجه تقدمه وتقدم العالم؛ فعمل شيئاً فشيئاً على كسر القيد، وعندما انكسر طوق الكنيسة وتحرَّر الإنسان؛ ظن هذا الإنسان في لحظة عصبية عاطفية أنَّ الدين ككلُّ هو سبب التأخُّر، والعامل الرجعي العائد بالإنسان إلى كهوف التاريخ، وتأكَّد هذا العنصر عندما رأى العمَّال والمحرومون أنَّ الكنيسة ترفع لواء الظلم والجور في حين يرفع لواء التحرر والاعتناق أناس ماديون؛ فربطوا بين الرجعية الإلهية، وكذا بين التقدم العلمي والاجتماعي والمادية، متناسين أنَّه ربطُ طفولي عاطفي لا واقعي، إنه ربطُ بين الكنيسة والرجعية لا الدين الذي يرفض كل تصرفاتها - كما رأينا في ما سبق - ولكنه الفوران الخلاص الذي له منطقته الخاص البعيد عن مثل هذا التفكير. أمَّا إذا أردنا التماس الأمثلة من تاريخ المسلمين فيكفينا ملاحظة أنماط الظلم التي نتجت من قبل بعض مدَّعي القيادة الإسلامية وهي منهم بريئة. ويكفي أن نشير إلى الظلم والجمود اللذين ابتلي بهما بعض خلفاء العثمانيين ممَّا ولَّد عند الكثيرين من غير الناصجين اليأس، أو سمح للأيادي الاستعمارية أن تحرِّك هؤلاء للقضاء لا على العثمانيين فحسب، بل وعلى ما يمثله العثمانيون من اتجاه إلهي، وكانت الردة المعروفة والاتجاه المقيت هنا نحو العلمانية أو هناك نحو القومية الضيقة إلى غير ذلك.

والواقع أنه كان على هؤلاء المخدوعين أن يرجعوا إلى واقع الدين الإسلامي ليروا كيف تتجلى فيه الثورية المنطقية والحماس الإنساني الواعي، والبناء الجيد لشخصية الأمة أمام حكامها، والنظرة البعيدة للكون والحياة والعمل الحثيث على تحقيق التقدم العلمي والاجتماعي، والعدالة الاجتماعية التي تحتفظ بعنصري الضمان والكرامة معا موازنة بين مختلف النظم التي قدمت الضمان تارةً فأفقدت البشرية كرامتها، أو قدَّمت الكرامة والحرية فأفقدت البشرية تارةً أخرى ضمانها بل وحتى كرامتها أيضاً، لورجعوا إلى الإسلام الأصيل لوجدوا فيه أطروحة الحياة السعيدة الراضية لكل سلوكات هؤلاء الحكام الرجعيين.



## الفصل الثالث: الفطرة تمهد السبيل إلى الله

سبق وإن قلنا إن مسألة المعرفة الإنسانية هي أهم الأسس التمهيدية للبحوث العقائدية، وإن النظرية الإسلامية في المعرفة تركز على نظرية أهم وأشمل وهي نظرية الفطرة الإنسانية الأصيلة التي منحت الإنسان دوافع سيره نحو الكمال، وجهازه بالأضواء الكاشفة لعقبات الطريق، زودته بالمركز المفكر والقوة الضابطة التي تعمل بتوجيه من المركز المفكر الذي يستمد الهدى بدوره من تعليقات السماء، والمتبع ينتهي للحقيقة التي تقول: إن السير الطبيعي الفطري يوصل إلى الإيمان بالحقيقة المطلقة الكاملة وهي الله تعالى، فإذا طُرح سؤال في البين عن السر في تشكُّل هذا التيار الإلحادي القوي بعد القول بفطرية الإيمان فإنه يجاب عليه بأنَّ هناك عوامل كثيرة دفعت الكثيرين إلى الإلحاد، وكلها ناتجة من الجهل بكل أنواعه، وحتى جهل العلماء، ونعني به القصور الفلسفي الاجتماعي الذي يصاب به العلماء أحيانا مما يجزُّ أتباعهم نحو الانحراف المادي. كما أن للاستغلال والاستعمار دورهما الكبير في خلق الموجهة الإلحادية. وبعد هذا علينا أن نعود إلى القرآن الكريم وننعم بتصويراته عن الفطرة لننتقل إلى البناء العقائدي الإسلامي بالتفصيل.

### الفطرة الإنسانية في النصوص القرآنية

وعندما نعيش في ظلال القرآن العظيم نجد أنه يؤكد أن الفطرة حقيقة قائمة في النفس الإنسانية، وأنها مستودع الدوافع الإنسانية نحو الكمال، نجد أن كل آية تستدل على عقيدة إنما تتوجه للفطرة الإنسانية، تستثير كوامنها وتجلو الغبش عنها لتدرك بوضوح الحقيقة المغروزة

فيها، كما أننا نلاحظ أن القرآن حتى في مجال عرضه لبعض نواحي الأنظمة الإسلامية الحياتية يؤكد على أن يدرك الإنسان - بفطرته - الطيبات التي ترضاها الفطرة ويحلها الشارع (الإسلام) والخبائث التي ياباها الإنسان بفطرته ويرفضها الشارع وكأن الشارع يوكل أمر المحللات إجمالاً إلى الطبع الفطري حين يقول في سورة المائدة الآية الرابعة يسألونك ماذا حلّ لهمم قل أحلّ لكم الطيبات أو حين يقول في الآية الخامسة من نفس السورة اليوم أحلّ لكم الطيبات وتبدو الروح الفطرية في التشريعات عندما نجد القرآن يعترض على التحريم المترتمة لبعض الأمور التي تدرك الفطرة طيبها حين يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ \* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>١</sup>.

هذا في الجانب التشريعي وفطريته. والأهم من هذا؛ هو التركيز القرآني المباشر على الفطرة حين يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>٢</sup> ومن الواضح تأكيد القرآن في هذه الآية الكريمة على أن الدين أمر فطري، وأن الفطرة عبئت بما يقودها نحو أصوله الكبرى، وأن الفطرة أمر ثابت لا يمكن تغييره.

والجميل الرائع أن نجد هذه الآية تأتي بعد آيتين أخريين يستدل بهما القرآن على عقيدة المعاد يوم القيامة، وعلى استحالة أن يكون المخلوق شريكاً لخالقه سواء في الخلق أو التدبير، يستدل بهذا ولكن استدلالاً فطرياً يقبله المنطق غير الملوث، المنطق السليم الفطري الساذج، والمنطق الفكري السليم المعمق أيضاً مع اختلاف في مستوى التلقي فيقول تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي

١. الأعراف: ٣١-٣٣.

٢. الروم: ٣٠.

ما رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُوهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾،  
والتأكيد هنا على العقل إرجاع اللواقع الفطري الأصيل. وهناك آيات أخر تركز على أن الفطرة  
تنبه عند الشدائد من مثل الآية ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ٢.

### الفطرة الإنسانية في الاحاديث الشريفة

وهنا لابد أن نذكر بعض الروايات الشريفة التي تؤكد هذا الذي ذكرناه، فقد جاء في  
كتاب الكافي باسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال قلت: فطرة الله التي فطر الناس  
عليها قال: التوحيد ٣.

وعن اسماعيل الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبد الله  
بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها ٤.

وجاء في الكافي أيضاً: كل مولود يولد على الفطرة ° يعني على المعرفة بأن الله خالقه. وقد  
يبلغ الصفاء الفطري إلى حدٍ يقول معه الإمام الحسين في دعاء يوم عرفة: كيف يستدل  
عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو  
المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل؟! إنه أوضح - إذن - من كل موجود لدى  
الفطرة النقية الصافية.

وفي ختام حديثنا عن الفطرة نوذ أن نُذكر بالأهمية القصوى التي يمتلكها هذا البحث  
باعتباره يشكل أساساً للعقيدة الإسلامية راجياً من الله تعالى أن يمنَّ على البشرية الضالَّة  
بالعودة إلى رحاب فطرتها النقيَّة، السير على خط الإسلام الحنيف دين الفطرة،

١. الروم: ٢٧-٢٨.

٢. الروم: ٣٣.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١٢، توحيد الصدوق، ص ٣٢٨، أمالي الطوسي ص ٦٦٠، فيض التقدير للمناوي، ج ٣، ص ٥٤٢.

٤. الكافي، ج ٨، ص ٢٨٢، البحار، ج ١١، ص ٣٣١.

٥. الكافي، ج ٢، ص ١٣، توحيد الصدوق، ص ٣٣١، مسند احمد، ج ٢، ص ٤١٠، مجمع الزوائد للهيتمي، ج

٧، ص ٢١٧، صحيح مسلم، ج ٨، ص ٥٢.

## في الطريق إلى الله

نحاول منذ الآن توضيح الصورة الفطرية العقلية، والأدلة المقنعة لهذه العقيدة، متجنبين - غاية الإمكان - التعقيد، ومركّزين على تنبيه الفطر الغافية. كل ذلك لكي تتوضح معالم أسسها العقائدية وبالتالي إيديولوجيتنا. فالإيديولوجية في تصورنا هي إشعاع وبناء فوقي للتصور عن الكون، ولا معنى لتصورها ومعرفة تفصيلها إلا عبر معرفة تفصيل العقيدة التي تحدّد موقف صاحبها من الكون والإنسان تاريخاً وحضارة. أول قضية عقائدية تطرح في الأساس العقائدي هي قضية وجود الحقيقة المطلقة الكاملة التي منها ينطلق الكون، وبها يستمر وجوده، ومنها تفيض على الكون ديم الرحمة والهداية.

نعم بعد أن نعيش معا هذه القضية واقعا مجسّداً أمامنا لا مجرد قضية وراثية لا بأس بالإيمان بها... ولا يمكن أن تعاش هذه القضية واقعا حياً إلا إذا توضّحت مبرراتها وأدلتها المنطقية القاطعة التي لا تترك أي مجال للشك والريب... ولحسن الحظ فإن مسألة وجود الله تعالى تمتلك أوضح الأدلة وأكثرها إقناعاً، حتى لقد عبّر البعض عن هذا المعنى بقوله: إن الأدلة على وجود الله هي بعدد مخلوقاته فما أكثر من وصلوا إليه تعالى عن طريق تأمل بسيط في وردة أو ورقة أو فراشة، وما أكثر ما أقام الناس من أدلة تتفاوت بساطة وتعقيداً على وجوده..

## الادلة الفلسفية

ولست الآن في صدد أن أسرد - هنا - الادلة الفلسفية. فرغم تقديري البالغ لجهود الفلاسفة في هذا المضمار وخصوصاً الفلاسفة المسلمين أخص منهم بالذكر فيلسوف الأمة الإسلامية الكبير، وعقل البشرية المفكر الملاً صدر الدين الشيرازي الذي أبدع أيّما إبداع في هذا المجال في كتابه القيم (الأسفار الأربعة) وكتابه الآخر (المبدأ والمعاد) نعم رغم تقديري لهذه الجهود الجبارة واعتقادي بأنها كافية لدعوة كل الملحدّين على الأقل لإعادة النظر في مواقفهم السطحية فيني أفضل هنا سلوك الطريق القرآني الأوسع، وأعني به طريق التنبيه على الظواهر الحسية في الحياة الإنسانية، ومن ثم الوصول إلى الإيمان الجازم بالوجود الإلهي. والظاهرة التي نركز عليها في هذا الحديث هي ظاهرة العلّية التي تستوعب مختلف أرجاء الكون... فالعلّية العامة أمر ندركه بفطرننا، وأمر لا تحيد عنه تجربة من تجاربنا، ومن هنا وقف

الفكر الفلسفي موقف الإنكار من فكرة (هيوم) المادي القائلة بإنكار العلية كحقيقة قائمة في الواقع الخارجي أي القائم خارج تصور الإنسان.

### دليل العلية

إن المعلولية موقف نتخذه مسبقاً من كل موجود محسوس على الأقل، بل هو في الواقع موقف نتخذه من كل موجود ناقص يمكن أن يعدم ويفنى؛ حسياً كان أو غير حسّي، ولا نستثنى منه عقلاً إلا الموجود المطلق الكامل، لأن احتياجه للعلة خلاف فرض كونه كاملاً مطلقاً. وعلى هذا فإن هذا المبدأ يجزئنا إلى البحث عن علة وجود هذا الكون ظواهره ولا معنى لأن ننتهي إلى علة هي ناقصة بدورها ومحتاجة إلى علة أخرى، كما أنه لا معنى لتصوير سلسلة علل ناقصة غير متناهية لأن ذلك يخالف الوجدان والحكم الفطري إذ أننا بفطرتنا ندرك أن مجموع السلسلة مهما كانت هو ناقص محتاج إلى من يكمل هذا النقص... وهكذا نجد الفطرة والعقل يتلاحمان في سوق الإنسان نحو الإيمان بالله المطلق الكامل علة هذا الكون التي لا معنى للتساؤل عن علتها لأنها كاملة مطلقة غير محتاجة. ولعله لمثل هذا السبيل إلى الله يشير القرآن الكريم حين يطرح هذا التساؤل السريع والعميق المفعول فيقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ والجواب واضح: فجواب (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) هو (كلاً) لأن ذلك ينافي تركيز الفطرة على العلية، وجواب (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) هو كلاً أيضاً لأنه يستحيل أن يخلق الشيء نفسه استحالة واضحة فطرية فكيف يمنح الشيء المعدوم - فرضا - نفسه الوجود؟! هكذا إذن وبكل بساطة يقود القرآن الكريم الإنسان إلى الله تعالى. فليس أمامه - وهو يؤمن بمبدأ العلية - إلا أن يسير نحو المطلق الكامل، والواقع أن الإنسان لن يهدأ ولن يستقر ولن يلقي راحته إلا إذا بلغ الحقيقة المطلقة. فإذا عمي عنها أوضّل عاش قلقاً فاقدا لرواه روحه الحقيقي. ومن هنا يصح لنا أن نقول إن الإيمان بالله يستمد جذوره الحقيقية من الفطرة النقية.

### التناسق الكوني يقود إلى الله

إن أوسع الظواهر وأوضحها في هذا الكون الواسع هي ظاهرة النظام الدقيق، والتناسق العجيب الذي حيرَ ألباب فطاحل العلماء كما حيرَ أبصار الأناس السذج البسطاء على

السواء، بل إن العالم يقف أمام نسيج بشري محكم مكون من ملايين القطع المتناسقة فيفقد نفسه أمام روعته وتكنيحه، وإن عملية كيميائية معقدة جدا تجريها الورقة بكل بساطة - وهي عملية التمثيل الضوئي - قد تركت العلماء في حيرة من أمرها وتركيباتها فهذا (فابر) يقول: إن التدبُّر في بناء حيوان صغير كالنملة، والتشكيلات الحياتية المنظمة لها، يعيد آلاف الملايين من الناس إلى الله.

ولعلنا لانرى حاجة في هذا المجال لاستعراض جوانب التنسيق الكوني لوضوحه، ولتوفر الكتب العلمية التي تتناول مثل هذا الموضوع، ولكن الذي نحاول توضيحه هنا هو بعض النقاط.

**النقطة الأولى:** إن النظام الدقيق لا يمكن تصوره في أية مجموعة إلا إذا تصورنا:

أ - وجود أجزاء عديدة.

ب - وجود هدف تعمل له جميع الأجزاء.

ج - وجود نظرة علمية حكيمة تلاحظ إمكانيات كل جزء ووظائفه، وتضعه في محله اللائق به لتنسق فعاليات كل الأجزاء وتنسجم مع هدفها.

د - وجود دوافع تحرك الأجزاء وتضمن بقاء فاعليتها لتحقيق الهدف.

**النقطة الثانية:** إن المبادئ العلمية الفلسفية اليوم تكاد تشترك في تصور العالم على أساس الترابط القوي بين أجزائه، وإن كل حركة من حركات هذا العالم متأثرة تمام التأثير بحركات الأجزاء الأخرى، حتى لترى علماء الطبيعة يؤكدون على أن حركة ورقة على سطح الأرض لتؤثر - بنحو ما - على حركة أبعد الكواكب والمجموعات الشمسية بالنحو الذي لم نتوصل بعد إلى قياسه. فالترابط الكوني حقيقة قائمة سواء أخذنا بالتجارب العلمية أو الديالكتيكية التي تعتبر الترابط القوي والتأثير المتبادل أساسين من أسسها، أو اتبعنا النظرة الإلهية للعالم وقيامها على نظام العلل والمعلولات.

**النقطة الثالثة:** إننا نطمئن إلى وجود تناسق هادف في بعض ما توصلنا إلى معرفته وما نتعامل معه من الموجودات الكونية... ولكن لماذا الابتعاد إلى خارج النفس؟ ألسنا نؤمن ونطمئن تماما إلى وجود تنسيق غريب بين أجزاء الجهاز الإنساني نفسه...؟ إن هذه حقيقة لا ينكرها إلا مجنون أو مكابر.

بعد ملاحظة النقاط الثلاث الماضية أي ملاحظة مقومات التنظيم كذلك اخذ الترابط الكوني العام بعين الاعتبار فإن مجرد معرفتنا لجزء متناسق منظم في الكون يعنى لزوم أن ننظر للكون كله على أساس أنه وحدة متناسقة لها هدفها، وتشرف عليها حكمة وشعور ينظمان ترتيب أجزاء هذه الوحدة. إذ لو لم يكن يشكل وحدة لما كان يعنى إلا الفوضى لاغير. هذا بالضبط ما يتوصل إليه كل ناظر إلى جمال هذا الكون الرحيب وتناسقه فينتقل منه بوضوح إلى الله تعالى خالق الكون ومنسقه، وتطمئن إليه نفسه، ويستريح إليه ضميره، ثم يتوجه إلى الله تعالى متديّناً.

وإن التناسق الكوني أمر واضح تؤمن به الفطرة. ولذا يركز القرآن في كثير من آياته على هذا التناسق فيقول مثلاً في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا \* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا \* وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاجًا \* وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا \* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا \* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا \* وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا \* وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا \* وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا \* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا \* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾<sup>١</sup>.

ويقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾<sup>٢</sup>. والآيات الكريمة في هذا المجال كثيرة، وكذا نجد الحديث الشريف يؤكد على مظاهر التناسق هذه. ونحن نكتفي بالإشارة هنا إلى حديث المفضل ابن عمرو وملخصه أن المفضل يجد جماعة يخوضون في آيات الله تعالى ويستتهزون بها فيغضب ويواجههم بكلام قاس، ثم يعود إلى الإمام الصادق عليه السلام فيطلب إليه أن يلقي عليه من حكمة الله في الكون ما يستطيع به أن يدافع عن دين الله فيبدأ الإمام بإلقاء بعض الدروس في حكمة الله وإتقان الكون ويقول: - يا مفضل: أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه، ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك، وميزته بعقلك؛ وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده. فالسما مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسباط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر

١. النبأ: ٦-١٦.

٢. الفرقان: ٦١.

مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معدُّ، والإنسان كالمملك في ذلك البيت، والمخول على جميع ما فيه، وضروب النبات مهياً لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه فغني هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة<sup>١</sup>.

---

١. راجع: توحيد المفضل، ص ١١، بحار الانوار ٣: ٦١.



## الفصل الرابع: التكامل الكوني والإيمان

نتابع معا استعراض الظواهر والحوادث الكونية العامة التي تقودنا إلى أهم أساس من أسس الإيديولوجية الإسلامية وهو الإيمان بوجود الحقيقة الإلهية المطلقة، فقد استعرضنا في إطار الظواهر التي يشير إليها القرآن الكريم ظاهرتي العلية والنظام الدقيق، والحقيقة التي نركّز عليها هنا هي حقيقة التكامل العام وهي من أهم الظواهر الكونية وأقربها إلى حسّ الإنسان المفطور ذاتا على حب التكامل... إنها حقيقة تستجلب النظر، يقف أمامها العقل خاشعا. إنه قبل كل شيء يجد نداء التكامل في أعماقه، نداءً صارخا لا يتوقف به عند حد مطلقا. فمهما سما في فكره وحضارته ونفسه فإنه يجد أنّ حب التكامل ما زال حيا قويا معطاء.. وإذا انتقل إلى الصعيد الخارجي، أي إلى خارج نفسه، وجد أنواعا من التكامل بلاريب، فكل موجود يسير نحو كماله المناسب له بصورة طبيعية إذا لم تعترضه عوائق. إن الخلية تطوي طريق تكاملها بنموها واتحادها مع باقي الخلايا لتشكّل جهازا ينظّم إلى باقي الأجهزة ليقوم بدوره المناسب في العضو الجسدي الذي له دوره المناسب أيضاً في المجموع الجسدي الذي يسعى بالتالي نحو هدفه في إطار سير خاص.

والبذرة تطوي طريق تكاملها الطويل بكل روعة وتنسيق، فإذا بها، وهي الحبة التي لاتين، دوحة مورقة وارفة الظلال، وثمارا شهية لها دخلها في إدامة الحياة على وجه الأرض؛ كل ذلك إن لم تعترضها عوامل الفناء. وفوق كل هذا السير التكاملي للفكر الإنساني والذي يستحق قبل غيره أن ينطبق عليه عنوان التكامل... إلا ينتقل الإنسان من موجود لا يعلم شيئا وهو جنين ثم يعلم بما حوله وهو وليد ثم يتنامى الشعور لديه شيئا فشيئا فيبدأ

بالاستفادة التكوينية من ظاهرة التقارن الذهني بين الأشياء والأشياء، أو بين الألفاظ والأشياء. ثم يتطور حاله فإذا به يعبر مرحلة الاعتماد على الصور الحسية ومقارنتها إلى مرحلة التجريد، أي محاولة تجريد الصور الذهنية من الملامح الخاصة لها وصياغة كليات لا وجود لها إلا في الذهن. وهكذا حتى يتحول ذهن الطفل إلى عقل كبير كعقل الطوسي وابن سينا وأنشأتين وأمثالهم؟ إن التكامل الحقيقي ليكمن في هذه المسيرة بشكل أوضح من غيره بعد حصول هذا النمو الكيفي الهائل وباتجاه متصاعد.

ولا نريد هنا استعراض أوجه التكامل ومصاديقه الأخرى ففي هذا المجال حديث طويل والأمر لا يحتاج - لوضوحه - إلى أكثر من الإشارة. إن التكامل حقيقة كونية هائلة جدا يؤمن بها الماديون أيما إيمان فضلاً عن الإلهيين. وإذا كانت كذلك فقد ثار التساؤل الطبيعي عن سرّ هذا التكامل والقدرة التي أوجدته في الآفاق الكونية، وبالتالي عن سرّ السير الطبيعي نحو الكمال وعدم التخلف بطبيعة الحال، بل وعن سرّ التكامل التنسيقي بين الموجودات الكونية والذي يبدو خيراً ما يبدو في بدن الإنسان فإن نمو الخلايا بشكل طبيعي نمو تكاملي متناسق، فلا تنمو الخلية التناسلية قبل أن تنمو الخلية العضلية، ولا تنمو قبل الخلايا الهضمية، وهكذا.

إن هذا التحرك المنسّق نحو الكمال يكشف لكل ذي وجدان - وفوق أي تشكيك قبله - عن موجود كامل مطلق يقف وراء هذا التكامل، ولأنه مطلق من كل ما يوصف به (وصفاته هي عين ذاته كما سيأتي) فهو تعالى في كل أن يشد الكون إليه، أي إلى الكمال، ولأنه غني مطلق فهو يفيض على الموجودات سيرها التكاملي الحثيث الذي لا ينقطع لأنه سير على طريق لا حدود له ولا وقفات، في حين لن يسلم أي مبدأ مادي من الانتكاس في فلسفة أو تصور يوقف العالم.

وخير مثل يُضرب في هذا الصدد هو أهم مبادئ المادية انتشاراً وأكثرها تعميماً في عالمنا الحديث، ونعني به التصور الماركسي للحياة والمجتمع، ولنركز على تصوره للمجتمع الإنساني المتطور إذ نجده - أي التصور الماركسي المادي - يقع في تناقض غريب عندما يؤمن من جهة بأن قوانين التطور - في أي مجال - قوانين عالمية دائمية حتمية لا تقف عند حد مطلقاً،

ولا يعوقها أي عائق فهي الحاكمة على الكون كله فضلاً عن كونها حاكمة على المجتمع التاريخ الإنسانيين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التصور الماركسي للتكامل الاجتماعي ينطلق من قاعدة التناقض والتضاد بين الطبقات الاجتماعية؛ فالتاريخ كله نتيجة للصراع الطبقي، أي الصراع بين مالكي وسائل الإنتاج وفاقدي هذه الوسائل... ولذا فيجب أن يطوي مراحل التاريخ القلبية المتصورة من قبل، حتى يصل إلى المجتمع الشيوعي اللأطبي... والتساؤل هنا حول ما إذا كان هذا المجتمع سيتوقف عن النمو فتموت قوانين التطور الديالكتيكي، أو أنه سينمو رغم اللأطبيه بدون العلة التي تتصورها الماركسية حاكمة على كل التطورات التاريخية... وعلى أي حال فإن المنطق الإلهي هو الذي يفسر التكامل المستمر حثيثا وغير المتوقف. ولا ريب في أن وجود المطلق الكامل هو الذي غرس في أعماق الإنسان السعي نحو المطلق الكامل.

وأخيرا فلنعش في الآفاق القرآنية الرحبية حيث يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۚ ١ .  
 ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۚ ٢ ،  
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ ٣ .  
 ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ۚ ٤ ؛  
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ  
 ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّىٰ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ ٥ .  
 ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۚ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا

١. الانشاق: ٦.

٢. يس: ٣٦.

٣. الفرقان: ٥٤.

٤. الكهف: ٣٧.

٥. غافر: ٦٧.

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا  
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾.

### الإيمان بالتكامل يحقق الإيمان بالله تعالى

إن التكامل حقيقة كونية هائلة جدا يؤمن بها الماديون أي إيمان فضلاً عن الإلهيين. هذا ما قلناه ووضحناه إلى حدِّ ما، ورأينا فيه أن التكامل القول به لا ينسجم وأفكار الآلة والمادية، إذ التكامل عطاء مستمر وكلُّ ما يمكن أن يذكر للتكامل من أسباب مادية هو في الواقع (ومع فرض قبولنا بأنه سبب للتكامل) سبب منقطع مُنْتَهٍ، والتكامل حقيقة لا تتوقف عند حدٍّ كما يلاحظها الوجدان.

هذا ويجب أن نعلم أن كل التفسيرات التي تفصل التكامل عن الحقيقة الإلهية - وخصوصا في الموجودات الشاعرة - لا تستطيع أن تفسر هذا الاتجاه الصعودي الرتيب، إذ غاية ما تقول إن هناك قوة دافعة نحو التحرك. أمّا لماذا كان اللازم أن تكون هذا الحركة تكاملية أي متصاعدة فهي لا تملك لذلك أي جواب، وبتعبير آخر فإنه لا يختلف لدى التفسيرات المادية أن تكون الحركة - سواء في الكون أو المجتمع - تقدُّمية أو رجعية. ولا بدَّ أنكم تتذكرون الحقيقة التي أشرنا إليها من قبل؛ وهي أن التكامل لا يصبح ذا معنى إذا لم نفرض للموجود مسيرة وحدًا كما ليا أعلى للوجود كله بحيث يكون كل سير على طريق القرب من ذلك الموجود الأعلى كما لاً، يكون كل ابتعاد عنه رجعيةً وارتكاساً، فهل تستطيع المادية أن تفترض ذلك الموجود الأعلى الذي يصبح مقياساً لنوعية كل تحرك؟

### العلم والإيمان

والأغرب من كل ادِّعاء هذا الذي ابْتُلِيَ به الفهم الغربي أحياناً. وأعني به تصور وجود تنافٍ بين الإيمان بالله والإيمان بالتكامل، باعتبار أنَّ التكامل هو عملية تدريجية، بينما الإيمان بالله كخالق للعالم يعني أن يوجد العالم دفعة واحدة وبأقصى درجات كماله، لأن العالم من

إرادته تعالى، وإذا أراد الله شيئاً فإنها يقول له كن فيكون. أو يقال مثلاً: إن وجود العالم لو كان طبق علم إلهي مسبق لما كان هناك معنى للصدفة. في حين أننا نجد دوراً هائلاً للصدف في حياة الإنسان ومسيرة الكون، فكيف يمكننا أن ننكر دور الصدفة؟ وفي قبال هذين التوهمين المغلوطين يقول أستاذنا المفكر الإسلامي الكبير الشهيد المطهري: إنه لا العلم الأزلي يؤدي إلى الإيمان بالوجود الآتي غير المتردد، ولا الإيمان بالإرادة الإلهية يؤدي إلى ذلك، وإنه لم يطرح حتى الإلهيون في العالم أو الكتب الدينية المقدسة هذا الموضوع بهذا الشكل، فقد جاء في الكتب الدينية أن السماوات خلقت في ستة أيام، وأياً كان المراد من الأيام الستة أهي الدورات الست، أو الأيام العادية التي تساوي ٢٤ ساعة فإنه يفهم منها التدرج، وهذا القرآن الكريم يعرض الحلقة التدريجية بكل صراحة، يعتبرها دليلاً على وجود الله تعالى. أما مسألة وجود الصدفة في حياتنا فإن كلمة الصدفة تستعمل في موردين: أحدهما في مورد حصول حادثة بدون علة أبداً؛ أي حصول ظاهرة لم تكن قد حصلت بتأثير أي عامل. وهذا النوع من الصدفة يرفضه الإلهيون والماديون.

### الصدفة

ثم إن الذين يقولون إن النوع الفلاني من الحيوانات قد وجد صدفة لا يقصدون هذا المعنى؛ بل يقصدون المعنى الثاني وهو فرض حصول نتيجة معينة من مقدمة لم نألف من قبل أنها تؤدي إلى مثل هذه النتيجة بصورة طبيعية. ثم يضرب الأستاذ الشهيد مثلاً على ذلك فيقول: إذا ركبت سيارة من طهران وقصدت بها مدينة قم ووصلت هذا المدينة فإنك لن تقول تحركت بالسيارة في طريق قم ووصلتها صدفة، ذلك أن من طبيعة السير في هذا الطريق هو الوصول إلى هذه النتيجة، نعم لو كنت التقيت بصديق لك كان يمر في هذا الطريق عبر رحلة طويلة فإنك تقول: إلتقيت به صدفة. ومثل هذا النوع هو المقصود. ومن الواضح أن هذا اللقاء له عللة الخاصة التي جهلتها أنت فتصورت أن اللقاء كان صدفة، ولذا فليس الأمر صدفة بالنسبة للمشرف على كل التحركات والنشاطات في إيران مثلاً.. فهذه الصدفة - إذن - صدفة نسبية. أي بالنسبة لشخص دون شخص.

نستنتج من هذا أنه لا تنافي مطلقاً بين الإيمان بالتكامل والإيمان بالله العالم القدير خالق

العالم والمخطط له، أمّا التوهم الآخر وهو توهم أن الإيمان بالله يستلزم أن يوجد العالم دفعة واحدة فهو سخيف غريب. ذلك أن الإيمان بالله النافذ الإرادة يعني أن الله إذا أراد شيئاً حصل ذلك الشيء وبالشكل الذي أراد، فإذا أراد له أن يوجد دفعة وجد؛ وإذا أراد له أن يوجد تدريجاً وجد كذلك. خصوصاً إذا لاحظنا أن العالم بنفسه ليس فيه إلا قابلية الوجود التدريجي (التكامل).

### النتيجة

من كل ما تقدم نعرف أن مسألة التكامل الكوني هي سبيل واسع إلى الله تعالى، وأن الانحراف في الفهم هو الذي يمنع هذا السبيل من فاعليته في الدفع نحو الله. أما الإنسان الصافي الفطرة، والواعي في تصوره، فهو فوق كل تشكيك وقبل كل شبهة يجد أن هذا الخط التكاملي الذي تسلكه الكائنات لا بدّ وأن يقف من ورائه موجود كامل مطلق من الحدود الزمانية والمكانية ليشرق على كل شؤونه وليمد كلاً على سعته ووفق حكمته علمه الواسعين.

### التطور في المادة ومسألة الإيمان بالله

قبل كل شيء يجب أن نؤمن بالحقائق التالية:

أولاً: مبدأ العلية القائل بأن (كل حادثة لها سبب تستمد منه وجودها).

وثانياً: أننا لو وجدنا درجات في شيء وهذه الدرجات بعضها أقوى من بعض فلا يمكن أن تكون الدرجة الأقل كما هي السبب في وجود الدرجة الأعلى، إذا لا يمكن أن تنبت درجة أعلى كما لا من درجة أدنى، لأن كل درجة أعلى هي أثرى من الأدنى وفيها زيادة نوعية عليها، وهكذا قل عن النطفة والجنين والوليد؛ فكل مرحلة تالية هي أثرى من المرحلة السابقة التي هي أفقر منها، ولا يمكن أن يكون الفقير علة ومعطياً لثراء الغني وهو فاقد له وهذه هي الحقيقة الثانية وملخصها: إن الشيء لو كان ذا درجات فالدرجة الأدنى لا يمكن أن تكون سبباً للدرجة الأعلى.

أمّا الحقيقة الثالثة: فهي حقيقة علمية ثابتة واضحة وهي أن المادة في سيرها التطوري تتخذ لها أشكالاً مختلفة نوعياً، أي مختلفة من حيث التكامل لا أنها مختلفة كمّاً فقط، فإن

الاختلاف بين النطفة والإنسان ليس اختلافاً كمياً فقط وإنما يعبر عن تطور نوعي هائل، وهذا أمر لا ينكره مادي أو إلهي اليوم، وإن كانت المادية القديمة لا تؤمن به إلا أن المادية الحديثة رفضت ذلك وأمنت بوجود تطورات نوعية كيفية، ومنها الماركسية التي آمنت بالتطور النوعي قانوناً عاقماً في كل شيء حتى في الحقيقة. وهذا من أغرب المبالغات.

على ضوء الحقائق الثلاث الماضية أي مبدأ العلية، وأن الأدنى لا يكون سبباً للأعلى درجة، وأن التطور في المادة قديكون نوعياً؛ نعرف أن في سير المادة يوجد تكامل كفيي وزيادات إضافية فمن أين جاءت هذه الزيادات؟ ولا يمكن أن يقال إن الزيادة جاءت من المادة أي الدرجة الأوطأ فهو خلاف الحقيقة الثانية، وكيف نتصور أن المادة الميتة تمنح لنفسها الحياة؟ وكيف يُمَوّن الفقير بنكا كبيرا؟ فليس لدينا إلا أن نقول إن الزيادة جاءت من منبع آخر يتمتع بكل ما تحتويه الزيادة الجديدة من حياة وفكر (وهو الله تعالى)، وإن نموّ المادة تنمية منه بحكمته وتدييره، هذا ما تعطيه بوضوح الآيات الكريمة ١٢-١٤ من سورة (المؤمنون) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا \* ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وإلى هذا الدليل يشير القرآن الكريم بقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ \* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>١</sup>، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ \* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾<sup>٢</sup>، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ \* أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ الشَّجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾<sup>٣</sup>. ﴿وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ \* ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾<sup>٤</sup>. هذا وقد حاولت المادية الحديثة أن تقول: إن التطور ليس مثل تمويل الفقير لمشروع رأسمالي كبير حتى نتعجب منه بل هو يعني أن اشكال التطور كلها كانت موجودة في المادة منذ البدء، فالدجاجة موجودة في البيضة على أساس اجتماع النقااض حيث يحمل كل شيء نقيضه في

١. الواقعة: ٥٨ - ٥٩.

٢. الواقعة: ٦٣ - ٦٤.

٣. الواقعة: ٧١ - ٧٢.

٤. الروم: ٢٠.

أعماقه ويتصارع معه فيتحقق التطور. وهنا تثور مجموعة من الأسئلة التي لا تجد هذه المادية لها جواباً؛ إذ نتساءل هل أن البيضة والفرخ نقيضان، البيضة تصنع الفرخ وهو يعني أن تكون سبباً لوجود الحي، أو أن يخلق الميت الحي؟ هل تقصدون أن الفرخ كان كامناً في البيضة ثم ظهر من الخفاء وهذا يعني عدم حصول التكامل فهل يثرى من يخرج نقوده من جيبه فقط؟ وإذا كانت البيضة هي بالفعل فرخاً فلماذا الحركة والتكامل من حالة البيضة إلى حالة الفرخ؟ بل لا معنى للحركة. وهكذا تتوالى الأسئلة ليس أمامها إلا أن ترجع فتقول: إن الذي كان موجوداً في البيضة هو إمكانية صيرورتها فرخاً، وفي البذرة هو إمكانية صيرورتها شجرة، وفي الوليد هو إمكانية صيرورته شاباً، أما الحجر فليس فيه إمكانية الكون فرخاً ولكن هذه الإمكانية درجة واطئة تحتاج إلى من ينقلها إلى الفعلية الواقع، وليس ذلك في كل الكون إلا الله تعالى.

ولو رجعنا إلى أصل الذرات والجسيمات التي تكوّن المادة لقلنا إن المادية الحديثة تؤمن بوحدة تركيبات المادة، وعليه فإن كان التناقض سبباً للحركة وجب أن لا تنتج التناقضات إلا نوعاً مادياً واحداً، لا أنواعاً متعددة فيبيضة الدجاج لا تنتج إلا دجاجاً، فلماذا هذا الاختلاف في الأنواع؟ وهكذا يفقد التفسير المادي للتطور، علميته رغم تبجّحه بالعلمية، حيث نجد الماركسية تصف نظرتها إلى الكون ومذهبها في الحياة الاجتماعية بالعلمية المحضّة، ولو كان الصراع بين ضدّين مستقلّين داخل البيضة فليس هو تناقضاً ولكن كيف يؤدي إلى النمو الزائد على المجموع؟ وهل هناك صراع نمى شيئاً طبيعياً؟ إنَّ الصراع يُضعف ولا يقوي كالأمواج التي تعيق السباح إلا أن يمنح قوة من الخارج، ثم اين الصراع في المثال الذي يضر بونه وهو تحول الماء إلى غاز، والغاز إلى ماء؟ وكم تكشف لنا الطبيعة عن أضداد تصارعت وتحطمت كما لو التقى البروتون الموجب والالكترون السالب؟ وعليه فليس أماننا إلا الإيمان بالله تعالى مصدراً للتطور والتكامل، أما المادة فليس فيها إلا الصلاحية والإمكان.

### القرآن ومسألة الإيمان

نقدم في ما يلي بعض آيات القرآن التي أثبت الله تعالى فيها - بما لا يقبل الشك - وجوده، وأنه



الخالق، البارئ، المصور، العليم، القادر، الحكيم، وأكثر فيها سبحانه من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير وإلا تزان، في خلق السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والجبال، والأنهار والبحار، والنبات، والحيوان، والإنسان، والأسماك، والأبصار، والأفئدة، وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس نذكرها متبركين بها مستهدين بهداها.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى \* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمُرْعى \* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾<sup>٢</sup>.

﴿قَاتِلِ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ \* مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ \* مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ \* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ \* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ \* ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾<sup>٣</sup>.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَعِنبًا وَقَضْبًا \* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا \* وَحَدائقَ غَلْبًا \* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾<sup>٤</sup>.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى \* أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْهُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى \* ثُمَّ كَانَ عَلاقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى \* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾<sup>٥</sup>.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ \* فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ \* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ \* وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَدِّبِينَ \* أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا \* أَحْيَاءً وَأَمْواتًا \* وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَايَ سَاحِلَاتٍ وَأَسْفِينًاكُمْ مَاءً فُورَاتًا \* وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَدِّبِينَ﴾<sup>٦</sup>.

١. العلق: ١ - ٥.

٢. الاعلى: ١ - ٥.

٣. عبس: ١٧ - ٢٢.

٤. عبس: ٢٤ - ٣١.

٥. القيامة: ٣٦ - ٣٩.

٦. المرسلات: ٢٠ - ٢٨.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَيَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْفَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ \* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾<sup>١</sup>.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ \* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾<sup>٢</sup>.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾<sup>٣</sup>.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ \*﴾<sup>٥</sup>.

﴿أَبَشِّرْ كُونَ مَا لَا يُخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾<sup>٦</sup>.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ \* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ

نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ \* لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾<sup>٧</sup>.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ \* أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ \* أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>٨</sup>.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ \* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾<sup>٩</sup>.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ

خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>١٠</sup>.

١. ق: ٦ - ١١.

٢. البلد: ٨ - ١٠.

٣. القمر: ٤٩.

٤. الاعراف: ٥٧.

٥. الاعراف: ١٨٥.

٦. الاعراف: ١٩١.

٧. يس: ٣٣ - ٣٥.

٨. الواقعة: ٥٧ - ٥٩.

٩. الواقعة: ٧٥ - ٧٦.

١٠. النمل: ٨٨.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾<sup>١</sup>.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾<sup>٣</sup>.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾<sup>٤</sup>.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>٥</sup>.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾<sup>٦</sup>.

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ \* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ \* وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ \* وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾<sup>٧</sup>.

١. القصص: ٦٨.

٢. يونس: ٥ - ٦.

٣. يونس: ٣١ - ٣٢.

٤. يونس: ٣٤ - ٣٦.

٥. يونس: ١٠١.

٦. يوسف: ١٠٥.

٧. الحجر: ١٩ - ٢٣.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ \* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ \* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ \* وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾<sup>٢</sup>.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ \* الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ \* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾<sup>٣</sup>.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ \* وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾<sup>٥</sup>.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِتَالِحٍ

١. الانعام: ٧٥ - ٧٩.

٢. الانعام: ٩٥ - ٩٩.

٣. الملك: ١ - ٤.

٤. المعارج: ٤٠.

٥. الحاقة: ٣٨ - ٣٩.

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١﴾.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ \* يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٣.

﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٤.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ٥.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ \* وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي

١. الروم: ٨.

٢. الروم: ١٧ - ٢٤.

٣. البقرة: ٢١ - ٢٢.

٤. البقرة: ١١٧.

٥. آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.

اللَّيْلِ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢﴾.

﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ \* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٣﴾ \* هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا \* إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٤﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٥﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾.

هذه بعض الآيات الشريفة التي تدور حول مسألة الإيذان بالله تعالى ذكرناها بالإضافة لما سبق من آيات في هذا المجال... ويمكننا أن نلاحظ أنها تنقسم إلى ثلاث مجموعات (وقد توجد المجموعات الثلاث في آية واحدة).

**الأولى** - تؤكد أن السير نحو الله تعالى سير طبيعي نابع من أعماق الفطرة.

**الثانية** - تؤكد على قانون العليّة مباشرة وهو بدوره فطري.

**الثالثة** - تؤكد على نظام الحلقة، وعجائب الخلق، والهدفية والحكمة، والإبداع،

١. الرعد: ٢-٤.

٢. الرعد: ١٦.

٣. الرحمن: ١-٥.

٤. الانسان: ١-٢.

٥. الحج: ٤٦.

٦. التغابن: ٣.

والاحتياج، والتكامل، والإجابة للدعاء كظاهرة والحياة، وغير ذلك. مما يدفع الإنسان بكل وضوح نحو تجلي الظواهر التي لا تُعدُّ سلوك الطريق الطبيعي إلى المطلق جلّ وعلا. وكنا قد أشرنا سابقاً إلى بعض الآيات في مجال المعرفة الإنسانية موارد خطأ العقل، وربط الدين بالفطرة، فليراجع مجموع الآيات بكل عمق لتشرق النفس بأنوار الله جلّ وعلا.

### الإيمان بالله في الأحاديث الشريفة

وهذه بعض الأحاديث الشريفة في مجال الإيمان بالله تعالى.

\*يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام متحدثاً عن هدف بعث الرسل:

(فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسى نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول)<sup>١</sup>.

\*وروي عن الإمام العسكري عليه السلام في تفسير آية (بسم الله الرحمن الرحيم) أنه قال: (اللّه هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونه، وتقطع الأسباب من جميع من سواه، تقول: بسم الله: أي أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحقّ العبادة إلا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دُعِيَ، وقال رجل للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله: دُلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: هل كُسرَت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال نعم: قال فهل تعلّق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال: الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجى. وعلى الإغاثة حيث لا مغيث)<sup>٢</sup>.

\* عن الإمام الصادق عليه السلام بعدما سئل عن قول الله عز وجل ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: التوحيد<sup>٣</sup>.

١. البحار، ج ١١، ص ٦٠، نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٣.

٢. البحار، ج ٣، ص ٤١، توحيد الصدوق، ص ٢٨٩.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٢١٢، توحيد الصدوق، ص ٣٢٨، أمالي الطوسي، ص ٦٦٠، فيض التقدير للمناوي، ج ٣، ص ٥٤٢.

\* سأل الديصاني أبا عبد الله عليه السلام فقال: ما الدليل على أن لك صناعاً؟ فقال عليه السلام: وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين:

إمّا أن اكون صنعتها أنا، فلا أخلو من أحد: معنيين:

إمّا أن اكون صنعتها وكانت موجودة، أو صنعتها وكانت معدومة. فإن كنت صنعتها وكانت موجودة فقد استغنيت بوجودها عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنك تعلم أن المعدوم لا يُحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صناعاً والله رب العالمين<sup>١</sup>.

\* سئل أبو عبد الله فقيل له: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قال بفسخ العزم ونقض الهمم: عزمت ففسخ عزمي، وهممت فنقض همّي<sup>٢</sup>.

\* حديث المفصل بن عمرو عن الإمام الصادق وهذه مقاطع منه:

يا مفضل: إن الشُّكَّاءَ جَهِلُوا الأسبابَ والمعاني في الخَلِقةِ، وَقَصُرَتْ أَفْهَامُهُمْ عَنِ تَأَمُّلِ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، فِيمَا ذَرَأَ الْبَارِي جِلَّ قَدْسِهِ وَبِرّاً مِنْ صَنُوفِ خَلْقِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْوَعْرِ، فَخَرَجُوا بِقَصْرِ عُلُومِهِمْ إِلَى الْجَنُوحِ، وَبِضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنُودِ، حَتَّى أَنْكَرُوا خَلْقَ الْأَشْيَاءِ، وَادَّعَوْا أَنَّ كَوْنَهَا بِالْإِهْمَالِ، لِاصْنَعَةِ فِيهَا وَلَا تَقْدِيرِ، وَلَا حِكْمَةٍ مِنْ مَدَبِّرٍ وَلَا صَانِعٍ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ، وَقَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفِكُونَ فِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَعِمَاهِمُ وَتَحْيِرُهُمْ بِمَنْزِلَةِ عُمَيَانَ دَخَلُوا دَاراً قَدْ بُنِيَتْ أَتَقَنَّ بِنَاءٍ أَحْسَنَهُ، وَفُرِشَتْ بِأَحْسَنِ الْفُرْشِ وَأَفْخَرِهِ، وَأُعِدَّ فِيهَا ضُرُوبُ الْأَطْعَمَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالْمَلَابِسِ، وَالْمَأْرَبِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا وَلَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا، وَوُضِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ عَلَى صَوَابٍ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَحِكْمَةٍ مِنَ التَّدْبِيرِ فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ فِيهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، وَيَطُوفُونَ بِبُيُوتِهَا إِدْبَارًا وَإِقْبَالًا، مُحْجُوبَةً أَبْصَارُهُمْ عَنْهَا، لَا يَبْصُرُونَ بُنْيَةَ الدَّارِ، وَمَا أُعِدَّ فِيهَا، وَرَبَّهَا عَثَرَ بَعْضُهُمْ بِالشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وُضِعَ مَوْضِعَهُ، وَأُعِدَّ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ جَاهِلٌ بِالْمَعْنَى فِيهِ وَمَا أُعِدَّ، وَمَاذَا جُعِلَ كَذَلِكَ، فَتَذَمَّرَ وَتَسَخَطَ، وَذَمَّ الدَّارَ بِأَنْبِيَاءِهَا. فَهَذِهِ حَالُ هَذَا الصَّنْفِ فِي إِنْكَارِهِمْ مَا أَنْكَرُوا مِنْ أَمْرِ الْخَلِيقَةِ وَثَبَاتِ الصَّنْعَةِ. فَإِنَّهُمْ لَمَّا عَرَبَتْ أَدْهَانُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ فِي الْأَشْيَاءِ، صَارُوا يَجُولُونَ فِي هَذَا الْعَالَمِ حَيَارَى، وَلَا يَفْهَمُونَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ

١. البحار، ج ٣، ص ٥٠، توحيد الصدوق، ص ٢٩٠.

٢. توحيد الصدوق، ص ٢٨٩، البحار، ج ٣، ص ٤٩.



خلقته حسن صنعته وصواب تهيئته. وربما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه، والإرب فيه، فيسرع إلى ذمّه ووصفه بالإحالة والخطأ؛ كالذي أقدمت عليه المانوية الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفاجرة، أشباههم من أهل الضلال، المعلّلين أنفسهم بالمحال، فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته، وهداه لدينه، ووقفه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التعبير بالدلالة القائمة، الدالة على صانعها، أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك، يرغب إليه في الثبات عليه والزيادة منه فإنه جلّ اسمه يقول: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد.

يا مفضل: أول العبر والأدلة على الباري جلّ قدسه: تهيئة هذا العالم، تأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك، وميزته بعقلك، وجدته كالبيت المبني، الم معدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسما مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسباط، النجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معدّ، والإنسان كالمملك ذلك البيت، والمخول جميع ما فيه، وضروب النبات مهياة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملاءمة، أن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضا إلى بعض، جلّ قدسه، وتعالى جده، وكرم وجهه، ولا إله غيره، تعالى الله عما يقول الجاحدون، وجلّ وعظم عما ينتحلّه الملحدون.

نبتدي يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاؤه، حتى إذا كمل خلقه، استحکم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقة الضياء، هاج الطلق بأمة فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صُرفَ ذلك الدّم الذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثدييها، فانقلب الطعم اللون إلى ضرب آخر من الغذاء، وهو أشد موافقةً للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمّظَ وحرّك شفتيه طلبا للرضاع فهو يجد ثديي أمّه كالأداتين المعلقتين لحاجته إليه فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن، دقيق الأمعاء، لئن الأعضاء،

حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه؛ طلعت له الطواحن من الأسنان الأضراس ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل له إساغته....  
وهكذا يمضي الإمام عليه السلام مبينا جوانب الرّوعة والنظام في مختلف مجالات الإنسان. وفي الأثناء يسأله المفضل قائلًا: يا مولاي إن قوما يزعمون أنّ هذا من فعل الطبيعة. فيجيب عليه السلام: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علمٌ وقدرة على مثل هذه الأفعال أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق فإن هذه صنعته؟ وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قدتراه من الصواب والحكمة فاعلم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذي سمّوه طبيعة هو سُنته في خلقه الجارية على ما أجراها عليه.

(والحديث يتعرض بتفصيل إلى مختلف جوانب النظام الأخرى فليراجع في البحار الجزء الثالث من ص ٥٧- إلى ١٥١).

\* ودخل أبو شاكر الديصاني - وهو زنديق - على أبي عبد الله عليه السلام فقال له:  
يا جعفر بن محمد دُئني على معبودي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إجلس، فإذا غلامٌ صغير في كفة بيضة يلعب بها فقال أبو عبد الله عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة، فناوله إياها فقال أبو عبد الله عليه السلام:  
ياديصاني: هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهب مائة وفضة ذائبة، فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن أصلاحها، ولم يدخل فيها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها لا يدري للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس ترى لها مُدبّرًا؟ قال: فأطرق مليًا ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأنت إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنتُ فيه<sup>١</sup>.

\* وعن الرضا عليه السلام أنه دخل عليه رجل فقال له: يا ابن رسول الله: ما الدليل على حدوث

١. البحار، ج ٣، ص ٣١-٣٢، الاحتجاج، ج ٢، ص ٥٧١، الكافي ج ١، ص ٧٩.

العالم؟ فقال: أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تُكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك<sup>١</sup>.  
 \* ويقول الإمام الصادق عليه السلام من حديث (... ما أقبح الرجل تأتي عليه سبعون سنة  
 أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته)<sup>٢</sup>.  
 \* ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: كما في نهج البلاغة بترقيم صبحي الصالح انشأ الخلق إنشاء  
 وابتدأه بلاروية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب  
 فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولائم بين مختلفاتها، وغرز غرائرها...<sup>٣</sup>.  
 \* ويقول من خطبة له عليه السلام:

الذي ابتدع الخلق على غير مثال امثله، ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان  
 قبله، وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من  
 الخلق إلى أن يقيمها بمسالك قوته، ما دلنا باضطراب قيام الحجة له على معرفته، فظهرت  
 البدائع التي أحدثتها آثار صنعته، وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه،  
 وإن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة...<sup>٤</sup>.

\* ومن خطبة له عليه السلام

كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به... سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك، وما  
 أصغر كل عظمة في جنب قدرتك، وما أهول ما نرى من ملكوتك، وما أحقر ذلك فيما  
 غاب عنا من سلطانك...<sup>٥</sup>.  
 \* ومن خطبة له عليه السلام:

إبتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات، وساكن وذوي حركات، وأقام من شواهد البيئات  
 على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به، ومسلمة له، ونعقت في أسماعنا

١. البحار، ج ٣، ص ٣٧، الفصول المهمة، ج ١، ص ١٤٠، الاحتجاج، ج ٢، ص ١٧٠.

٢. البحار، ج ٤، ص ٥٤، كفاية الأثر للقمي، ص ٢٦٠.

٣. ن م، ص ٤٠، الاحتجاج، ج ١، ص ٢٩٧.

٤. نهج البلاغة، ص ١٢٦، توحيد الصدوق، ص ٥٠، البحار، ج ٤، ص ٢٧٥.

٥. نهج البلاغة، ص ١٥٨، المعيار والموازنة للاسكافي، ص ٢٥٧.

دلائلة على وحدانيته، وماذراً من مختلف صور الأطيوار التي أسكنها أحاديث الأرض، وخروق فجاجها، ورواسي أعلامها، من ذات أجنحة مختلفة، وهيئات متباينة مصرفة في زمام التسخير، ومرفوفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح، والفضاء المنفرج<sup>١</sup>.

---

١. نهج البلاغة، ص ٢٣٥، البحار، ج ٦٢، ص ٣٠.

## الفصل الخامس: إلى التوحيد

نحن أمة موحّدة تبنى حياتها على أساس التوحيد الخالص لله تعالى، وترفض كل الظواهر الصنميّة والتصورات المنحرفة عن الأشياء بالشكل الذي يجعلها شريكة لله، كل مفاهيمنا مبنية على التوحيد، وكل خططنا العمليّة تستمد منه روحها، والتوحيد أمر فطري بمعنىّ من المعاني، ولكي نتأكد من ذلك تعالوا ننظر إلى أنفسنا لنعرف آيات الله فيها، وإننا نعلم أن الأمور التي تشترك فيها النفوس تعبّر عن حقائق خارجية لا يمكن إنكارها، فإذا نظرنا إلى أنفسنا رأيناها تتجه بوضوح إلى الكمال المطلق، هل يقف طموحك أنت عند حدّ؟ هل يستقر قلبك إذا استمعت إلى تفسير مادّي أعمى للحياة؟ هل يتقبّل وجدانك فكرة الآلهة المتعددة المتناحرة في الكون؟

### التوحيد في أعماق الإنسان

والواقع أن الوثنيين أنفسهم - أي الذين يعتقدون بتعدد الآلهة - هؤلاء لا تستقر أرواحهم إلا عندما يفرضون وجود (رب الأرباب) وهو تعبير آخر عن حسّ التوحيد في أعماق الإنسان، فالصفاء النفسي والتأمل في أعماق تطلعات النفس يكشف لنا عن دفع فطري للتوحيد، وعندما تصل القلوب إلى الله تكون قد بلغت غاية ما تريد فتطمئن ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>١</sup> إن هذا الدفع النفسي الأصيل لا بدّ وأن يعبر عن حقيقة كبرى وهي حقيقة التوحيد.

### دعوة جميع الأنبياء إلى التوحيد

بَعْدَ هَذَا أَوْدُّ أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَى حَقِيقَةِ كِبْرِي بَعْنَايَةِ، تَلِكْ هِيَ حَقِيقَةُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا إِلَى الْإِلَهِ الْوَاحِدِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ نَبِيٍّ يَحْمِلُ مَعَهُ شَوَاهِدَ صَدَقِهِ دَعَا إِلَى إِلَهٍ آخَرَ، أَوْ آمَنَ بِفِكْرَةِ التَّعَدُّدِ - أَيِ تَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ - يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup> وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>٢</sup> وَعِنْدَمَا نَلَاظِ دَعْوَةَ الْأَنْبِيَاءِ لِقَوْمِهِمْ كَمَا يَعْضُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَجِدُ الْوَحْدَةَ حَتَّى فِي التَّعْبِيرِ: فَلِنَقْرَأْ مَعًا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾<sup>٣</sup>. ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غير﴾<sup>٤</sup>، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غير﴾<sup>٥</sup> هَا نَحْنُ نَجِدُ الْوَحْدَةَ حَتَّى فِي التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّارِيخِ لَا يَحْدِثُنَا عَنِ نَبِيِّ ادَّعَى السَّفَارَةَ عَنِ السَّمَاءِ وَحَمَلَ مَا يَثْبِتُ صَدَقَةَ ثُمَّ دَعَا إِلَى غَيْرِ التَّوْحِيدِ. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْكِبْرِي إِذَا انْضَمَّتْ إِلَى حَقَائِقَ أُخْرَى كَالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ وَكَوْنِهِ كَمَا لَمْ تَقُمْ، وَكَالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى صَدَقِ الرَّسُولِ فِي دَعْوَاهِ الرِّسَالَةَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى عِبْرَ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ مَعَاجِزٍ يَتَحَدَّى بِهَا الْبَشَرُ، وَعِبْرَ اسْتِقْرَاءِ حَيَاتِهِ لِلْإِيْمَانِ بِصَدَقِهِ، كُلُّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ تَوْضِحُ لِلْعُقُولِ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ.

### الأدلة الوجدانية على التوحيد

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الْعَالِمُ الْجَلِيلُ السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّهِ شُبَّرٌ فِي كِتَابِهِ (حَقُّ الْيَقِينِ): إِنَّ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ شَاهِدَةٌ وَالْعِلْمُ الْعَادِي قَاضٍ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَ الصَّانِعِ إِلَهٌ آخَرٌ لَمْ تَحْتَجِبْ عَنِ أَحَدٍ آثَارُهُ، وَلَوْ صَلَّ خَبْرُهُ إِلَى النَّاسِ، وَلَعَلِمَ حَالُهُ مَعَ الْبَارِي جَلَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّوَافُقِ وَعَدَمِهِ،

١. الانبياء: ٢٥.

٢. آل عمران: ١٨.

٣. الاعراف: ٦٠.

٤. الاعراف: ٧٣.

٥. الاعراف: ٨٥.

ولأرسل إلى الخلق رسله بأوامر ونواهي ووعدٍ ووعد... .

ثم يقول: وهذا البرهان بزغ نَيْرُهُ من مشرق باب مدينة العلم حيث قال عليه السلام في وصيته لولده الحسن أو (محمد ابن الحنفية على اختلاف الرواية) واعلم يا بني: أنه لو كان لربك شريك لأتتكَ رسله ولرأيت آثار ملكه<sup>١</sup>.

ونعود فنكرر هذا السبيل إلى التوحيد فتقول:

**أولاً:** إن الأدلة الواضحة دلت على وجود الله الكامل المطلق.

**ثانياً:** إن الأدلة الواضحة كالمعجزة والسلوك القويم، دلت على صدق الرسل في دعواهم لرسالاتهم عن الله.

**ثالثاً:** إن جميع الأنبياء دعوا إلى الله الواحد الأحد.

فلا يبقى لناريب في الوجدانية الإلهية بعد هذا، وهذا ما يمكن أن نضيفه إلى كل الأدلة التي تُذكر للتوحيد لتؤكد أن العقل والفطرة يشيران إلى الوجدانية بوضوح، وإذ تأكدنا من وحدانية الذات الإلهية تأتي مسألة الوجدانية في العبادة وصياغة الحياة الاجتماعية وفق هدى الله، ونفي كل قوة تضارع قوة الله، وكل موجود يعبد من دون الله صنماً كان أو طاغوتا بشرياً متجبراً، والإنطلاق لبناء المجتمع العابد لله، المسلم له في كل أموره.

### مناحي التوحيد

تحدثنا في ما مضى عن الأساس الثاني من أسس إيديولوجيتنا الإسلامية وهو الإيمان بالتوحيد بكل أبعاده، أي التوحيد لله في ذاته فلا شريك له ولا نظير، والتوحيد لله في أفعاله، فهو خالق الكون ومدبره مبدئه، والتوحيد لله في العبادة، فلا تصاغ الحياة إلا وفق هداه، ولا يقام المجتمع إلا على أساس من عبادته والتقرب إليه والالتزام بأوامره والإنتهاء بنواحيه تعالى، وقلنا إن ذلك يعني بوضوح نفي كل الظواهر الصنمائية من الحياة، إعلان الحرب ضدها، والعمل على محو النظم والإيديولوجيات الخاطئة المقامة عليها، وتحرير الذهن الإنساني من قيودها المحطمة. فإدام في الأرض نظام وضعي فإن المسلم يشعر بأن الحياة ما زالت غير موحدة، ومادام في الأرض

١. نهج البلاغة، ج ٢، ص ٧٠، البحار، ج ٦٢، ص ٣٠.

طاغوت يحكم بغير ما أنزل الله فإن المؤمن الواعي يشعر بلزوم رجم هذا الطاغوت أينما كان وبأية صفة تلبس، ما دامت الأخلاقية الحيوانية هي السائدة فإن المرء الواعي يشعر أيضاً بأن التوحيد لم يحصل على أثره المطلوب في الحياة الإنسانية.

### أدلة التوحيد في القرآن الكريم

من هنا إذن تتجلى الأهمية التي يمتلكها هذا الأساس المهم في حياتنا، بل إنه يُشكّل روح هذه الحياة، وبدون هذه الروح تعود حياتنا موتاً وجموداً ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾<sup>١</sup>.

ومن هنا أيضاً يتجلى سرُّ الاهتمام القرآني الكبير بمسألة التوحيد، فنجد القرآن يستدل على هذه المسألة تارة باستدلالات فطرية واضحة من مثل قوله تعالى: في سورة الاسراء ٤٢- ٤٣: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَاتَّبَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا \* سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا \* ذَلِكَ أَنْ تَصُورَ إِلَهَيْنِ كُلُّ مُنْفَعَةٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ؛ يعنى الصراع والنزاع، وواضح أن صراع الآلهة يعني خراب الكون بلالريب.

فسبحان الله وتعالى عما يقولون من الشرك علوا كبيرا، علوا في ذاته عن الشريك، وعلوا في وضوح التوحيد عن الاشتباه بالشرك، وعلى نفس هذا الوتر الفطري تأتي الآية القرآنية الأخرى في سورة الأنبياء الآية لتؤكد أنه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فالسماوات والأرض بنظمها الموحدة لا يمكن أن تقوم على أساس تصور إلهين قادرين لكل منهما إرادته المطلقة، ولا يتبع هذا التصور إلا فساد في العالم وهو أمر نشهد عدمه، ولنفس هذا المضمون تشير الآية القرآنية الأخرى في سورة (المؤمنون الآية ٩١) حيث يقول تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وفي الآية ١١٧ يقول: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.



إنه إذن دليل واحد ينظر إليه القرآن ويُعبّر عنه بتعبيرات مختلفة وربما نجد القرآن الكريم يذكر الدليل الذي تحدثنا عنه في ما مضى أي الدليل الذي يعتمد على صدق الأنبياء ووحدة دعوتهم فيقول تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ \* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup>.

### جلاء التوحيد في الفطرة الإنسانية

ونحن تارة ثالثة نجد القرآن يتحدث مع الوجدان الموحد، ويشير كوامن الفطرة ومخزوناتنا، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ \* وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ \* وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ \* ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾<sup>٢</sup> فالإنسان الذي يقع في ضرر مهول تزول عنه كل الحجب المادية الخداعة وتتوجه فطرته إلى الله الواحد لا غير.

ولا يبقى بعد هذا إلا التشكيك والظن والتخمين وإثارة الشبهات التي يأبأها العقل السليم: يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾<sup>٣</sup> وما أروع قول القرآن في وصف حال المشركين إذ يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾<sup>٤</sup>.

### ظاهرة التوحيد في السلوك الإنسان

إن التوحيد يشكل منطلق التصور الصحيح عن الكون، وأساس الإيديولوجية الإنسانية

١. الانبياء: ٢٤ - ٢٥.

٢. النحل: ٥١ - ٥٤.

٣. الرعد: ٣٣.

٤. يونس: ٦٦.

التي تتكفل ببناء إنسانية صالحة متكاملة، والروح التي تهب النظام فاعليته وضمانته التطبيقية في نفس الوقت. إن التوحيد بمعناه الأصيل جعل أساسا لكل انتصار حضاري متوقع للإسلام، فكان الرسول الأعظم ﷺ أول ما قال لأهل مكة: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ذلك لأنه يعلم أن كلمة التوحيد لا تقف أبدا عند حد الكلام وإنما تتجاوزه إلى حد صنع الحضارة، وهذا ما أثبتته التاريخ بوضوح، ومن هنا كانت هذه الكلمة المحور الأساس الذي تجتمع عليه كل الديانات فيقودها إلى الخير والسعادة. يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>١</sup> أرأيت كيف كانت الكلمة: إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا أنها كلمة تنعكس على الحياة فاذا بها حياة عابدة لله لا يتخذ فيها البعض البعض الآخر رباً من دون الله، وإنما الكل مخلوقون متعهدون مسؤولون مسلمون لأمر الله ونهيه، وما أجمل تلك الحياة الإسلامية وما أكثر ما نتوقع منها أن تترك من آثار، فلنعش إذن مع بعض إشعاعات التوحيد على حياتنا، ولنعمل على أن نوجد هذه الإشعاعات إن لم نجدتها في بعض جوانب الحياة. إن التوحيد يشكل مقياسا لوحدة الإنسانية ومحورا يطوف حوله كل أفراد البشر ومجتمعاتهم، ذلك أنه يعني أن الرب واحد لا شريك له، وأن كل ما عده مخلوق له، وأن أفراد الإنسان هم متساوون في النسبة إليه، وأنهم يمثلون أفرادا لنوع خلقه الله وحمله مسؤولية إعمار الأرض بتكافؤ وتضامن وتعاون، وأودع في كل منهم طاقات واحدة، ورسم لكل الأرض منهجا يتكفل سيرها على طريق تكاملها، فطلب من رسوله أن يخبر الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾<sup>٢</sup> فيجب أن تنتظم البشرية كلها في مسيرة واحدة هي مسيرة التسليم الجمعي لرسالة الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾<sup>٣</sup> (إن هذه

١. آل عمران: ٦٤.

٢. سورة الاعراف: ١٥٨.

٣. سورة البقرة: ٢٠٨.

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١﴾ وبهذا يتكفل التوحيد ببناء الإنسانية موحدة، وعندئذ تذوب الحروب والتناحرات المصلحية الضيقة التي ما زال العالم يتخبط في آثارها المدمرة، ويبدل الإنسان غير الإنسان الذي نبصر وغير المجتمعات التي نشاهد. إن التوحيد ورضا الله الواحد هو المقياس الوحيد الذي يمكنه أن يجمع البشرية على خط واحد وذلك بمختلف ألوانها وأجناسها ومختلف مناطقها الجغرافية وأذواقها ونفسياتها ومختلف مراتبها وقدراتها المالية.

نعم: رضا الله لوحده هو مقياس الوحدة، والوحدة العالمية هي الضرورة التي يحس بها الإنسان اليوم أكثر من غيره، لأنه اكتوى بنار الفرقة والتمزق والمصالح، أما إذا تجاوزنا المقياس التوحيدي للدولة العالمية فلن نعثر مطلقاً على مقياس آخر.

إن المقاييس المتصورة لا تتجاوز التجمع على أساس المصالح المشتركة أو على أساس العنصر أو اللون وما إلى ذلك، وهذه الأسس تمزق أكثر مما تجمع، وتمحور أكثر مما تنفي المحاور، فإذا العالم كله يعيش حالة من التربُّص والخوف والتكتل، والتكتل المضاد والتآمر والإتفاق كحياة الحيوانات في الغاب، بل هم أضل سبيلاً، إنَّ ما عدا التوحيد من مقاييس هي أمور متناقضة بشكل غريب. فمصلحة الفرد لا تتفق مع مصلحة الآخر، ومصلحة هذا المجتمع تكون على حساب المجتمع الآخر، أما موضوع الوحدة في المصالح العالمية فما زالت لحد اليوم خرافة لا يصدقها إلا البسطاء السذج، أو مَنْ لا خبرة له بالأُمور. على أن كل المقاييس المادية هي مقاييس متغيرة وغير ثابتة مما يترك أثره الكبير على خلق التمزق البشري، وهل أكثر هزءاً من مقياس مائع لا حدود له. أما رضا الله وأما التوحيد وخصوصاً التوحيد الذي عرضه الإسلام، فهو وحده الذي يمكن أن يشكل أفضل أساس للوحدة العالمية المثلى. فعلينا إذن كواجب إنساني أن ننشر رقعة التوحيد الإسلامي، وأن نجعل الشعوب تعي الثورة الإنسانية التي بعثها الإسلام في التاريخ.



## الفصل السادس: نظرة أكثر تفصيلاً إلى التوحيد

ماذا نعني بـ(التوحيد)؟

يقول في حق اليقين: (والمراد من التوحيد معنيان: الأول عدم الجزئية، والثاني - عدم الشريك) وقد يقال إن المراد به (ان الله واحد لا اثنين). وهذا القول يوقع الإنسان في خطأ فضيع، ففي ازاء هذه العبارة صورة من الشرك ويسمى هذا بـ(التوحيد العددي) ويعنى أن الله واحد مقابل الاثنين ويستلزم هذا كون الله مفهوم كلياً ولكنه لا يمثل الافردا واحدا.

مثاله (الشمس) فهي مفهوم كلي له فرد واحد. وهذا هو عين الاشتباه.

ومما يروى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال عند ما سئل عن هذا المعنى (فقول القائل

واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لا يجوز)

والحقيقة أن عقيدة التوحيد رغم أنها بالصورة الأولية مفهومة وواضحة ولكنها بالتأمل والتفكر يمكن أن تكون مقياساً دقيقاً لصحة العقائد بطلانها بالمقارنة فيما بينها - ونحن نترك المقارنة هنا إلى مجال آخر والذي يهمننا أن نقول إن حقيقة التوحيد الذي يثبت به الإسلام لها اربعة معان:

الأول: توحيد واجب الوجود لا شريك له في وجوده ووجوده كما عرفت سابقاً.

الثاني: توحيد صانع العالم ومدبر النظام وقد خالفه الثنوية - كما سيأتي.

الثالث: التوحيد في العبادة.

الرابع: التوحيد في الخلق والرزق وقد جمع البعض بين (التوحيد في الصنع والتوحيد في

الخلق) بعبارة: (التوحيد في الافعال)

## توحيد الله في وجوده

أما توحيد واجب الوجود وهو الأساس فقد اقيمت عليه أدلة عديدة نذكر أهمها. بعد معرفة ما يلي:

أ- ذات الله عين وجوده.

ب- الله وجود مطلق لا محدود.

أما ذات الله عين وجوده، يعرف مما سبق من الأدلة خصوصا ما انتهينا إليه في بحث (مبدأ العلية) عرفنا أن الموجودات الكونية وجودات ارتباطية تعلّقية تحتاج إلى موجود ترتبط به وتتعلق به بينما لا يرتبط هو بأى شئ آخر.

وبمعنى آخر فإن وجوده ليس مستمدا من غيره إذ بعد أن سلمنا بأن في هذا العالم وجودا ما فاما أن نفرض أن هذا الموجود ازلّي ابدى غير محتاج. وهو (واجب الوجود) واما أن لا يكون كذلك وانما يرجع إلى علة أصلية هي (واجب الوجود). ولا يمكن أن لا يرجع إليها لبطلان التسلسل كما يأتي. وعلى أساس هذا نقرر أن ذاته تعالى (عين الوجود).

و(الوجود المطلق) بدليل أن الوجود لو كان شيئا عارضا على ذاته وليست ذاته عين وجوده، فمعناه أن ذاته خالية من الوجود والعدم وكلاهما على حد سواء بالنسبة إلى ذاته، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر يعطيه الوجود.

ومع ذلك كيف يكون هو العلة الأولى للكون في وجوده وهو في نفس الوقت معلول - بالفرض - لعلة أخرى. وبعبارة أخرى الشئ الذي ليس وجود عين ذاته يكون وجوده من الغير - وهو خلف - إذن فالوجود المطلق هو الذي ذاته عين وجوده وسيأتي توضيح المطلب أكثر إن شاء الله.

بعض الأمثلة التقريبية من المحسوسات وهذه - كما قلنا - تقريبية لأكثر لأنها لا يمكن أن تعطي الحقيقة اللامادية، ومنها ما يلي:

١- عندما نرى الغرفة مضاءة نقول إن الغرفة لم ينبع منها ضوءها، فلا بد أن يكون من غيرها، وهكذا نعرف أن المصدر هو الشمس وعند ما نسأل هل أن النور من ذاتياتها نعرف أن الأمر ليس كذلك بل يمكن أن تحلومنه كما يتوقع بعض العلماء. فمن اين اكتسبت

ضياءها؟ الجواب من النور ولكن من أين اكتسب النور ضياءه؟ لامعنى لهذا السؤال لأن الضياء عين ذات النور.

اكتسبت اليد دسومتها من الغذاء الدسم، واكتسب الغذاء دسومته من الشحم ولكن لا معنى للتساؤل عن دسومة الشحم من أين اكتسبها!! فالشحم دسم بطبيعته.

### الله موجود لانتهائى:

بعد أن عرفنا بأن وجوده عين ذاته يجب أن نعرف انه وجود لا محدود من جميع الجهات اذمعنى الانتهاء هو العدم.

نقول عمرنا محدود، فكرنا محدود، طاقنا محدودة ويعني ذلك أن حياتنا وتفكيرنا وطاقتنا لها نهاية تنعدم عندها.

وعندما علمنا بأن وجود الله عين ذاته فلامعنى لتصور المحدودية فيه. وبعبارة أخرى: فإن ذاته (تعالى) لامتناهية من حيث العلم والقدرة والأزلية والأبدية والحياة وو... إذ كل هذه الأوصاف ترجع إلى الوجود، فالعلم نوع من الوجود، وهكذا القدرة والحياة وهكذا. فالذات التي هي عين الوجود وغير مقيدة (اذ القيد نقص) تملك كل الكمالات بصورة مطلقة ومن جميع الجهات.

### صفاته عين ذاته

وهكذا نعرف ويتأكد لدينا ما اصر عليه العلماء وامامهم أمير المؤمنين عليه السلام وباقي الائمة المعصومين عليهم السلام إن صفات الله ليست اعراضاً في مقابل الذات الإلهية فهي عين ذاته، كما أن الوجود هو عين ذاته - فمثلاً انكشاف الأشياء لزيد لا باعتبار ذاته بل باعتبار صفة العلم القائمة في نفسه بينما انكشاف الأشياء لله باعتبار ذاته هو تعالى.

فهذه الصفات وجودها في الله تعالى وتميزها باعتبار آثارها ومن الادلة العقلية التي تقام على الموضوع نذكر ما يلي:

١- لو كانت عرضية - سواء كانت مستندة إلى الغير أو إلى نفس الذات - فهي في مرتبة متأخرة عن الذات الإلهية وحينما تكون الذات في المرتبة المقدمة ذاتا مجردة من الصفات

وفيهما امكان الصفات لوجودها وهذا يلزم منه أن الذات الإلهية تحتوى على جهة ممكنة بينما واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات وإلا لتركب من جهة ضرورية وجهة ممكنة.

٢- الاحتياج إلى الصفات إنما يكون لاجل الحصول على الآثار الناجمة عنها، والله تعالى لا يحتاج إلى شئ يحصل منه على تلك الآثار، فأثار الصفات إنما تصدر من الذات الإلهية مباشرة بلا توسط صفة عرضية.

٣- كما أن تصور الصفات العرضية يستلزم تصور مرتبة تكون فيها الذات خالية من الصفات الكمالية وهذا هو عين النقص.

## إثبات التوحيد

### الأدلة الفلسفية

سلك العلماء طرقا كثيرة لإثبات التوحيد، وسنسلك بعضها - إن شاء الله - ويمكن تصنيفها إلى مايلي: - الأدلة الفلسفية - العلمية - الفكرية - النقلية - الأدلة الفلسفية: ذكرت لها تقريبات، منها ما يلي:

#### ١- لا معنى للتعدد

في الحقيقة المطلقة لا معنى للتعدد، إذ لا يحصل التعدد إلا بإضافة القيود لحقيقة ما، ومع عدم القيد لا معنى للتعدد. مثاله: لو تصورنا حقيقة (البياض) بلا أي قيد ثم عدنا وتصورناها مرات عديدة فإن الصورة الحاصلة واحدة لا تتغير - مع الاحتفاظ بعدم التقييد المفروض - فما تصورناه أولاً هو عين ما تصورناه ثانياً؛ ولكن متى تعدد الصور؟

إن التعدد يفرض حينها تضاف القيود إلى حقيقة البياض، نتصور - مثلاً - قيد المكان: البياض الموجود هنا، وهناك. أوقيد الزمان: البياض الموجود أمس، واليوم وغدا، أوقيد الإضافة: بياض الطبا شير، القطن، الحليب هكذا، فما لم نضيف قيوداً لا يحصل لنا تعدد وإذا حذفنا كل القيود فالتعدد غير ممكن مطلقاً في الحقيقة الواحدة.

وكما كان الله تعالى ذاته عين وجوده فذاته وجود مطلق بلا أي لوثة عدم، فلا يمكن



تصور فردين للموجود. نعم يمكننا تصور ذلك عندما نُدخل في البين القيودَ الزمانية والمكانية أو الكمية أو الكيفية أو غيرها.

ولكن مع الالتفات إلى أنه تعالى غير مقيد بأي قيد متصور فلا يمكن تصور التعدد فيه بمعنى أنه يستحيل أن نتصوره شريكاً أو نظيراً مطلقاً.

يقول العلامة الطباطبائي في نهاية الحكمة ص ٢٤٤ (قد تبين... أن ذات الواجب لذاته عين الوجود الذي لا ماهية له ولا جزء عديم فيه فهو صرف الوجود، وصرف الشيء واحد بالوحدة الحقة التي لا تتشبه ولا تتكرر إذ لا تتحقق كثرة إلا بتميز آحادها باختصاص كل منها بمعنى لا يوجد في غيره وهو ينا في الصرافة فكل ما فرضت له ثانياً عاد أولاً فالواجب لذاته كما أنه موجود بذاته واجب لذاته وهو المطلوب)

## ٢- الوجود المطلق لا يمكن أن يتعدد

بعد أن عرفنا أنه تعالى موجود لانهائي مطلق من جميع الجهات نقول إن (الوجود المطلق لا يمكن أن يتعدد) إذ التعدد يستلزم التحديد في جهة من الجهات، مثلاً إذا استوعبت المرأة كلها بصورة إنسان ما فلا مجال لصورة إنسان آخر مطلقاً، نعم، يمكن أن تصغر الصورة بالابتعاد عن المرأة ويقف إنسان آخر إلى جنب الأول وحينذاك فكل منهما يملأ جانباً واحداً من المرأة ومحدود بتلك الحدود فلا يمكن أن نفرض مطلقين في آن واحد، إذ على الأقل أحدهما ينتهي عندما يبدأ الآخر أو فقل إن أحدهما يفقد الآخر بما يحتويه، والفقدان محدودية وتناه، والتناهي لا يجتمع مع عدم التناهي المفروض فكل منهما محدود لخروج الآخر عن حدوده.

**النتيجة:** أننا بلغنا إلى مرحلة تصور أن الله وجوده عين ذاته فوجوده مطلق لامتناه، فاذا فرضنا التعدد فهو فرض للتحديد والتناهي، وهما لا يجتمعان، فلا يتصور التعدد مطلقاً.

## ٣- فرض الشريك يستلزم فرض التركيب والاحتياج

وخلاصته: إذا فرضنا مبدئين لعالم الوجود فيجب أن يكونا مركبين من جزئين على الأقل: وذلك: أنها لو كانا متشابهين من جميع الجهات فلا معنى لكونهما اثنين بل هما واحد، فكل شيئ لا بد أن يختلف في جهة معينة حتى يكونا شيئين فيمكن أن ننظر إلى غزالين متشابهين

تماما ولكنها يختلفان على الأقل من زاوية المكان والأعضاء وغير ذلك وهكذا بعض الأمثلة، فكل شيئين لابد أن تكون بينهما جهة اختلاف أو بحسب الاصطلاح - ما به الامتياز - كما يجب أن تكون بينهما جهة اشتراك، ولو في أصل الوجود، ففيهما ما يسمى بـ(ما به الاشتراك) فكل منهما بالضرورة مركب من ما به الامتياز وما به الاشتراك وسنثبت أن التركيب محال في الذات الإلهية.

ويعبر صاحب شرح التجريد عن هذا الدليل بقوله:

(لأنه لو كان هناك واجب وجود آخر لتشاركا في مفهوم كون كل منهما واجب الوجود فاما أن يتميزا اولاً؟ والثاني يستلزم المطلوب وهو انتفاء الشركة، والأول يستلزم التركيب وهو باطل<sup>١</sup> وإلا لكان كل واحد منهما ممكنا وقد فرضناه واجبا وهذا خلف).

ويقول في (حق اليقين) (انها لو تعددا لزم كون كل منهما مركبا من الوجوب والمائز وكل مركب محتاج إلى اجزائه والحاجة من خواص الممكن والمفروض كونه واجبا)<sup>٢</sup>.

وقد يصور الدليل هكذا: إن الله (أحديّ الذات) وإن لم يكن كذلك وكان له شريك فلا بد من وجود مميزات لكل منهما تفصله عن الآخر وهذا يستلزم الاحتياج للغير فالموجود المحض هو عين الوحدة والغنى. ذلك أننا إذ نفرض فردين لواجب الوجود يلزم أن يكون هناك مائز بينهما لكي تصدق الاثنينية ولكن من اين هذا المائز؟ ومن أثر في وجوده؟

فإن قيل: إن هذا المائز ذاتي لاحد الفردين، صار كل فرد منهما مركبا من (الأمر المشترك) و(هذا المائز) وهذا المركب محتاج للجزئين، الواجب لا يحتاج لشيء.

وإن قيل: إن وجودا خارجيا ثالثا هو المؤثر، فبطلانه واضح.

هذا وقد نسب للفارابي دليل شبيه بهذا يقول فيه (وجوب الوجود لا ينقسم بالحمل على كثيرين مختلفين بالعدد وإلا لكان معلولاً).

١. ص ٢٢٦.

٢. ص ٢١.

#### ٤- دليل التمانع:

لو تعدد الإله حددت قدراتها بمنطقه خاصة وليس أي منهما إلهاً، لأنه يحكم منطقة معينة دون غيرها وهذا يتنا في مع كونه قادراً مطلقاً ومحيطاً وقيوماً... الخ.

وإن فرضت قدراتها كاملة وهذا فرض محال إذ على الأقل لا يسيطر أحدهما على الآخر فمن المسلم به أن وجود أمرين ومريدين في الكون يوجد الفوضى ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وإن فرضنا انهما متعاونان وغير متنافرين، فاما أنهما يحتاجان لمساعدة بعضهما فليسا هما - معاً - إلهين أو أن كلاً منهما يستطيع إدارة الكون فوجود الثاني عبث وبلا فائدة وتعاونها عبث ولغو وكلها لوازم باطلة هذا مع أننا قلنا إنه يستحيل فرضهما قادرين مطلقين، لأن أحدهما على الأقل لا يقدر على الآخر ولو قدر عليه أيضاً لما كان الثاني إلهاً مطلقاً وهكذا العكس.

وهكذا نلاحظ أن المسألة كلما فرضت على نحو استلزمت شيئاً محالاً وباطلاً فلا مناص من الاعتراف بالتوحيد.

وبتعبير آخر: إن فعل الواجب هو بمقتضى علمه، فكل منهما له قدرة تخالف قدرة الآخر لاختلاف العلم، وبالتالي يختلف الفعلان فيلزم اختلاف النظام ولربما عبر عن هذا الدليل بما قال به ابن رشد من دليل التمانع:

«لو كانا اثنين فأكثر، لجاز أن يختلفا، وفي حالة الاختلاف لا يخلو ذلك من ثلاثة أقسام: فاما أن يتم مرادهما جميعاً، واما أن لا يتم مراد واحد منهما: واما أن يتم مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر...»

ولما كان يستحيل إلا يتم مراد واحد منهما، لأنه في هذه الحالة يكون العالم لا موجوداً ولا معدوماً، ولما كان يستحيل أن يتم مرادهما معاً، لانه في هذه الحالة يكون العالم موجوداً ومعدوماً فلم يبق إذن إلا الحالة الأخيرة، وهي أن يتم مراد الواحد، ويبطل مراد الآخر، فالذي بطلت ارادته عاجز، والعاجز ليس بإله<sup>١</sup>.

١. الكشف عن منهج الأدلة ص ١٥٧

ويقرر في البحار هذا الدليل فيقول: «إن وجوب الوجود يستلزم القدرة والقوة على جميع الممكنات قوة كاملة بحيث يقدر على إيجاده ودفع ما يصاده مطلقاً، وعدم القدرة على هذا الوجه نقص، والنقص عليه تعالى محال ضرورة... فنقول حيثئذ: لو كان في الوجود واجبان لكانا قويين قوتها يستلزم عدم قوتها لأن قوة كل منهما على هذا الوجه تستلزم قوته على دفع الآخر عن ارادة ما يريده نفسه من الممكنات. المدفوع غير قوى بهذا المعنى الذي زعمنا أنه ملازم لسلب النقص»<sup>١</sup>.

### ٥- الشريك ينافي الكمال المطلق

وقد يسلك هذا الطريق فيقال. إن التفرد بالصنع والوجود كمال فوق كل كمال، وسلب الكمال عن ذات الواجب محال، فلا يكون له شريك لانظير، وأنه تعالى غني عن الشريك ولأن الشركة نقص إذ التصرف الكامل لا يجوز لأحد الشريكين فيكون كل منهما ناقصاً. وقد يصور الدليل هكذا:

إن القديم لو كان فردين متغايرين لزم أن يكون بينهما فرجة قديمة أي فأصل وقديم فيكون القدماء ثلاثة وإذا كانوا ثلاثة كانوا خمسة وهكذا يكونون سبعة وهكذا إلى ما لا نهاية. وبهذا يستدل الإمام كما سيأتي.

### ٦- التركيز على المائز الذي يميز أحدهما عن الآخر

أ - لو كان فيهما معاً أي في ذاتهما اوصفتها فهما محدودان. ب - أن المائز إن كان كمالاً فكل منهما يفقد ما عند الآخر من كمال، وإن كان كمالاً في أحدهما فقط فهو الإله. وهكذا رأينا بعض الطرق التي سلكت للوصول إلى التوحيد بصورة عقلية فلسفية خالصة - ولئن تشابهت بعضها في الروح واختلفت في التعبير فإنها كلها تشير إلى حقيقة واحدة لا يمكن أن تنكر من قبل أي فكر سليم، تلك هي (التوحيد).

### الأدلة التجريبية والكونية

يقول في حق اليقين (ان من تأمل بفكر سليم وعقل مستقيم في هذا العالم الذي هو ما

١. البحار ج ٣ ص ٢٣١.

سوى الله رآه من مبدئه (وهو عالم العقول والأرواح) إلى منتهاه (وهو عالم الأجسام) كسلسلة متشابكة بعضها في بعض وكل جزء مرتبط بما يليه...

وكما إذا تعدد رئيسان في منزل أو حاكمان في بلد أو سلطانان في مملكة أورث اختلال نظامها وأوضاعها فكذا لا تنتظم السماوات الأرضون وما فيها وما بينهما بالهين، وكما أن اتلاف أعضاء الشخص الواحد الإنساني منتظمة في رباط واحد منتفعا بعضها من بعض في اختلافها وامتياز بعضها عن بعض يدل على أن مديرها واحد وممسكها عن الإنحلال قوة واحد ومبدأ واحد فكذلك ارتباط الموجودات بعضها ببعض على الوصف الحقيقي والنظم الحكيمة دليل على أن مبدعها مديرها وممسك رباطها أن تنفصم واحد حقيقي...<sup>١</sup>

وهكذا يحاول هذا الدليل أن ينتقل من وحدة الكون إلى وحدة الله، ذلك أننا نرى كل الموجودات حكمتها قوانين واحدة صارمة من الذرة إلى المجرة، بحيث تُرجع كل الموجودات إلى عناصر واحدة، كل ذلك يشير إلى نقطتين.

أ- إن وحدة الأثر وترابطه يدلان على وحدة المؤثر والخالق.

ب- إن استقرار النظام وترابطه المتناسق يدلان على وحدة الحاكم من باب أن الإرادتين لا بد وأن تتعارضاً وعندها يتمزق الكون «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فنحن عندما نطالع كتاباً مؤلفاً يمكن أن نعرف أن أسلوبه واحد أو متغير أو أن مؤلفه واحد أو أكثر - إن كنا من المحققين - فالأسلوب الواحد المتناسق اللفظ والفكرة وكيفية الولوج إلى العقدة وكيفية الحل كل هذه الأمور تنبئ عن شخص واحد وراء هذه الفكرة.

ولو كان له مؤلفان فإنها مهما حاولا التشابه في تأليفه فإنها يختلفان في الأسلوب - قطعاً، وذلك لأنهما شخصان، ولو تساوت كل شروط وجودهما لما كانا اثنين بل هما واحد فقط.

ويبدو الأمر بصورة أكبر إذا كان المؤلف موسوعة كبيرة متنوعة المعارف وهكذا تنتقل إلى كتاب الكون المفتوح الكبير الكبير لنشاهد الترابط والتناسق العجيب بين ما نستطيع الوصول إلى معرفته وما لا نستطيع.

يقول كوثرن الرياضى الشهير بعد تحليل قوانين الذرة ومقارنتها مع قوانين المنظومة الشمسية (العالم المادى بلا شك عالم مرتب ومنظم وليس عالم القلق والفوضى عالم محكوم للقوانين ولا اثر فيه للصدفة).

ويقول كيسل: هذه التحولات نتيجة مشية مدبر حكيم واحد وهذا صحيح تماما إذ أننا نجد أن القوانين الحاكمة في الذرة كقانون الجانبيه قانون العلية وقانون الطرد عن المركز نفسها تعمل في تنظيم عمل مئات الملايين في النجوم البعيدة بما لا يدركه الفكر.

ثم إن ذرات العالم كلها تعمل وفق نظام واحد فكلها فيها نواة وفي النواة قوة كهربائية موجبة وتطوف حولها الالكترونات وفيها قوة كهربائية سالبة ومن ثم نجد أن النظام في المجرات أيضاً قائم على هذا النسق وما ابعد الفرق الحجمي بين قدرة كل ١٠٠ مليون منها تحتل رأس ابرة ومجرّة تتيه فيها العقول. ومن هنا نجد العلماء ينتقلون من تجربة صغيرة للحكم على كل العالم المادى باعتبار وحدة القوانين.

ويؤكد علماء الاحياء أن القوانين والشرائط الحياتية متشابهة في كل الاحياء ويؤكد علماء التشريح أن الحيوانات كلها متشابهة التركيب، كل هذه الأشياء تؤكد بوضوح:

إن مبدأ هذا العالم واحد حكيم مدبر وتحيل التعدد في ذلك وتجعل احتماله صفراً.

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ \* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾<sup>١</sup> ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا \* تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾<sup>٢</sup>

﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾<sup>٣</sup> ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ

١. الملك: ٣ - ٤.

٢. الاسراء: ٤٤.

٣. الاسراء: ٤٢.

إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ<sup>١</sup> وسيأتي حديث حول الموضوع في ما يلي إنشاء الله.

### الدليل الفطري

وهذا الدليل - كما هو واضح يعتمد الفطرة دليلاً بلا احتياج للأدلة الدقيقة وانما يكفي أن يلحظ الإنسان ما يدور في أعماق ووجدانه ليحكم بعد ذلك على النتيجة التي انتهينا إليها من باقى الطرق، فالإنسان الذي ينقطع أمله من الحياة وتطغى عليه المشاكل الهائلة كأن يسقط من طائرة إلى أعماق بحر رهيب - هذا الإنسان يتوجه بوجدانه إلى قوة واحدة يتركز فيها الأمل حيث لا أمل يطلب منها العون حيث تنغلق كل الطرق - وهناك، حيث تذوب كل الشبهات فلن يصرخ. الوجدان إلا بالتوحيد والقران الكريم يعبر عن هذه اللحظات الرهيبة بقوله الكريم:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ<sup>٢</sup>، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ<sup>٣</sup>﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ<sup>٤</sup>﴾.

واعود فأقول إن الدعايات والاسباب التي امرضت الفطرة هي التي أثرت في الانحراف الذي أصابها، وإلا فمع فرض إنسان يعيش على فطرته النقية غير الملوثة لن نجد أماناً إلا موحداً يحمل التوحيد عقيدة. وهنا ينبغي أن ننبه إلى حقيقة نفسية تكشف عن واقع موضوعي أصيل تلك هي حقيقة اتجاه الإنسان إلى الكمال المطلق... أنه لا يقف طموحه عند

١. المؤمنون: ٩١.

٢. الاسراء: ٦٧.

٣. يونس: ٢٢.

٤. لقمان: ٣٢.

حد ولا ينتهي عند شيء، ولا يستقر قلبه إلا عند الوصول إلى المطلق وإن أخطأ التطبيق حتى انا نجد الوثنيين إذ يعددون الآلهة لاتستقر أرواحهم حتى يتصوروا رب الأرباب المتحكم. إذن فالصفاء النفسي المتأمل في أعماق تطلعات النظر يكشف لنا عن سوق فطري نحو التوحيد وعندما تصل القلوب إلى الله تكون قد بلغت غاية ماتريد فتطمئن ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وهذا الدافع النفسي لا بد أن يعبر عن واقع قائم وراء النفس مشرف على الكون، فإن تعبيره عن ذلك في كل إنسان يكاد يكون بمنزلة أي تعبير فطري آخر عن الواقع.

### الدليل النقلي

والذي سوَّغ لنا الاعتماد على الدليل النقلي هو ما يلي:

أ - الأدلة العقلية على وجود الله تعالى. ب - الأدلة العقلية على لزوم بعث الأنبياء وانقاذا لبشرية ج - الإقتناع العقلي بصدق الأنبياء من مختلف الطرق.  
فاذا تمت هذا المقدمات الزمنا - عقلا - بتصديق ما ينقلونه لنا.

فاذا اضمنا إلى هذه المقدمات أن الأنبياء دعوا جميعا إلى الاله الواحد كقوله تعالى: ﴿... هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ... وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup>.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>٢</sup> ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>٣</sup> ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>٤</sup> ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>٥</sup>.

١. الانبياء: ٢٤ - ٢٥.

٢. آل عمران: ٨.

٣. الاعراف: ٥٩.

٤. الاعراف: ٦٥.

٥. الاعراف: ١٥١.



﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>١</sup>.

فنجد التماثل بين جميع الأنبياء حتى في الكلمات الداعية إلى التوحيد.

فإذا أضفنا هذه المقدمة إلى سابقاتها ثبت لنا التوحيد ثبوتاً قاطعاً لا يحتمل التردد، وإلا

فإنه بتترتب على عدم تصديقنا بالتوحيد أمور باطلة، منها:

تكذيب الأنبياء الذين قام الدليل على صدقهم.

او القول بنسبة الكذب إليه تعالى، وهذا يستلزم إضافة النقص إلى مقام الألوهية تارة

والإحتياج. تارة أخرى، وغير ذلك.

او القول بعدم علمه بالشريك الذي نفاه. على أن الفطرة السليمة شاهدة والعلم العادي

قاضٍ بأنه لو كان مع الصانع إله آخر لم تحتجب عن أحد آثاره، ولوصل خبره إلى الناس،

ولعلم حاله مع الباري جلّ ذكره (من التوافق وعدمه). ولأرسل إلى الخلق رسله بأوامره

ونواهيه ووعدته ووعيده، وتجويز وجوده مع عدم وصول خبره والمعرفة بأحواله احتمال غير

صحيح، وهذا البرهان بزغ نوره من مشرق باب مدينة العلم حيث قال ﷺ في وصيته لولده

الحسن أو محمد بن الحنفية على اختلاف. الرواية: (واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك

لأنتك رسله ولرأيت آثار ملكه...)<sup>٢</sup>.

### آيات في التوحيد:

مرت بنا بعض الآيات الشريفة في التوحيد، وها نحن نذكر بعضها هنا مستهدين بالقرآن

لتركيز التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾<sup>٣</sup>.

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ

إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا

١. الاعراف: ١٥.

٢. حق اليقين، ص ٢١، نهج البلاغة، ج ٢، ص ٧٠، البحار، ج ٦٢، ص ٣٠.

٣. يونس: ٦٦.

إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ \* وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢﴾ .

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴿٣﴾ .

﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ \* خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤﴾ .

وقال الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَازْهَبُونَ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥﴾ .

﴿أَتَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا \* وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿٦﴾ .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا \* سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٧﴾ .

١. يوسف: ٣٩ - ٤٠ .

٢. الرعد: ١٤ - ١٦ .

٣. الرعد: ٣٣ .

٤. النحل: ٢ - ٣ .

٥. النحل: ٥١ - ٥٥ .

٦. الاسراء: ٢٢ - ٢٣ .

٧. الاسراء: ٤٢ - ٤٣ .

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا \* هُوَ لَا يَفْعَلُ مَا نَحْنُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ \* أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ \* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ \* إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾<sup>٣</sup>. ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

**ملاحظة:** هناك مباحث هامة أخرى تتعلق بآثار التوحيد في بناء المجتمع الإنساني الواحد المتناسك، وهي تؤجل إلى محلها كما أن هنا بحثاً لا تقل عن تلك أهمية تقوم على أساس أن الصورة المقدمة عن الله تعالى تعتبر مقياساً يقدم الدين ويؤخره، فيقارن فيها بين الصورة الإسلامية والصور الأخرى عن الله تعالى، ومن ثم يكون البرهان الجلي على صدق الصورة الإسلامية الذي ينتج في النهاية أن يكون الإسلام قد قدم أروع عقيدة إلهية وكشف عن الواقع الكشفي الملائم تماماً لكل نتائج العقل والوجدان، وما نحن نتعرض فيها يلي لبعض الأمور المرتبطة بالصورة الإلهية التي قد مهما الإسلام موضحين بعض جوانب الخلاف فيها.

### صفاته تعالى

تقسم صفاته إلى إيجابية وسلبية، وتسمى صفات الكمال وصفات الجلال، والحقيقة أن نفس الإيهان بوجوده تعالى يستتبع الإيهان بهذه الصفات على ما سيأتي، وقد مرّ بنا أن الدليل يقتضينا أن نقول بأن صفاته عين ذاته.

١. الكهف: ١٤ - ١٥.

٢. الانبياء: ٢٢ - ٢٥.

٣. الانبياء: ٩١ - ٩٢.

٤. المؤمنون: ١١٦ - ١١٧.

والملاحظ أنهم اختلفوا في التعبير عنها كثيرا، وغالبا ما كانت نزاعاتهم لفظية، فترى أحدهم يُجمل والآخر يفصل محتجا بأن التفصيل اكمل من الإجمال، وغير ذلك. وعلى كل، فقد عدّوا منها ثمانية، يمكن ارجاع الباقي من الصفات الذاتية إليها، والباقي من الصفات كالرازقية والخالقية هي من صفات الإضافة.

ويمكن القول إن كل الصفات ترجع إلى «القدرة والعلم والحياة»، وقد قال الشهيد الثاني رحمته الله أنه يمكن ارجاعها جميعا إلى وجوب الوجود، وليست هذه الصفات الاتعيرات توضيحية عن الذات الإلهية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وتمام توحيده نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف».

وقبل الدخول في شرح بعض هذه الصفات نود أن نقول: إن هناك أمرين مرتبطين يقفان كعقبة كبرى في معرفة صفات الله تعالى، لذا كانت معرفة الصفات طريقا خطرا في حين أن الاستدلال على وجود الله تعالى كان استدلالاً فطريا يقوم به جميع من له إدراك.

### الصفات الإيجابية:

١- المحدودية والنقصان اللتان تنبعان من كوننا وأذهاننا بعض الموجودات الممكنة، فإن هذه الصفة تمنع من تصورنا التفصيلي لصفات واجب الوجود التي تتصف بالمحدودية واللا نهاية والأزلية وإلا بديه حينها نكتفي حتما بالتصور إلا جمالي لذلك والذي يقوم عليه البرهان والدليل.

ب - قياس التشبيه، فإن الإنسان بمقتضى كونه وجودا ماديا يقيس الأشياء على نفسه ويقع في أكبر الاشتباه إذا اراد أن يقيس صفاته تعالى على صفاته هو (أي الإنسان)، وهذا ما وقع الكثيرون في حباته الخدّاعة (راجع ص ٢٢١ في ج ١ من نهج البلاغة طبعة الاعلمي من خطبة له في ملك الموت (هل تحس به إذا دخل منزلاً أم هل تراه إذا توفي أحدا؟ بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بإذن ربها؟ أم هو ساكن معه في أحشائها؟ كيف يصف الهه من يعجز عن صفة مخلوق؟)١

١. البحار، ج ٦، ص ١٤٣.

ونحن في بحثنا هذا نحاول أن نسلك طريقاً مختصراً يلتقط من مجموع الصفات بعضها ويسلط الضوء عليها ثم يتعرض لبعض المشاكل الكبرى بصورة مستقلة، وهناك تقسيم آخر للصفات وهو أنها تنقسم إلى صفات الذات، وصفات الفعل ولتوضيح ذلك نقول: اننا تارة ننظر إلى شخص معين بغض النظر عن باقي الأشياء فنلاحظ أنه علام حي قادر الخ وأخرى ننظر إليه مع فرض أشياء أخرى في البين فلاجل الاتصاف تحتاج الذات لتحقيق شيء آخر فلاجل أن يكون كاتباً يجب أن تلحظ الكتابة، ومتكلماً يجب أن يلحظ التكلم فلا يكون كاتباً إلا إذا فرض وجود قلم وقرطاس وهكذا:

(ومن هنا يتضح أن الصفات الحقيقية لله تعالى والتي (هي عين ذاته) إنما هي القسم الأول من الصفات أي صفات الذات، أما القسم الثاني والذي يكون للغير تأثير في تحققها وكل شيء غيره مخلوق له وموجود حادث فالصفة التي تحدث بوجوده لا يمكن أن تكون صفة للذات وعين ذات الله تعالى.

فهذه الصفات التي تثبت لله تعالى بعد تحقق الخلق من مثل (الخالق، العادل، الرب، المحي المميت، الرازق، الحكيم، وغيرها) كلها ليست عين الذات وإنما هي صفات الفعل بمعنى أنه بعد تحقق الفعل تنتزع هذه الصفات منه لا من الذات كالحالقية المنتزعة بعد تحقق عملية الخلق والتي تقوم بالأشياء التي انتزعت منها لا بالذات الإلهية لتتغير الذات بحدوث هذه الصفة من حال إلى حال. والشيعية يعتبرون الإرادة والكلام بمعناهما الظاهر، المفهوم من اللفظ (الإرادة بمعنى الطلب والكلام بمعنى كشف اللفظ عن المعنى) يعتبرونها من صفات الفعل ومعظم أهل السنة يعتبرونها بمعنى العلم ويعدونها من صفات الذات<sup>١</sup>

### القدرة

- ١- صفات الفعل عقلية خالصة لأكثر، تنتزع بملاحظة صدور فعل من البارئ تعالى، ومع غرض النظر عن صدور الفعل منه فلا واقع لمثل هذه الصفات.
- ٢- صفات الفعل حادثة ولكن لا ربط لذلك بأن تكون الذات محلاً للحوادث، إذ أفعاله تعالى حادثة بمقتضى اختياره وقدرته.

١. شيعة در الاسلام للعلامة الطباطبائي ص ٧٦.

٣- لا تنحصر صفات الفعل بحد معين لأنها تتبع الافعال وأفعاله تفوق العدو الإحصاء.  
**ملاحظة:** نستنتج أننا يمكننا أن نثبت صفات الفعل له ونقيها عنه فنقول: (يريد ولا يريد)  
 ولكن لا يمكن إثبات ونفي صفات الذات فنقول عالم غير عالم.  
**القدرة:** فهو تعالى قادر على كل شيء، يقبل في نفسه الوجود، والأدلة على ذلك مختلفة:

### الدليل الأول: دليل النظام القائم في الكون

وهو أوضح الأدلة: فإننا نلاحظ هذه التشكيلات العجيبة الجبارة المختلفة التراكيب والصفات والتي مربنا ذكر بعضها، ولا نعيده، وانما نشير إلى أن ذلك يدل عقلاً على وجود قدرة لانهاية دلالة طبيعية فطرية بلا اى احتياج إلى الاستدلال العقلي ويكفي أن نعلم أن الكون بما فيه من ملايين الاشكال الحجم والتركيبات كلها ترجع إلى الذرة وبنائها البسيط من جهة والمعقد من جهة أخرى فخالقها إذن لا بد أن يمتلك هذه الصفة بلا تحديد.  
 والحقيقة أن قدرة الله تعالى متعلقة بكل الأمور التي يمكن أن توجد في نفسها، فلا معنى للتعجب، ولا معنى للعمل الكبير أو الصغير، بل كل هذه التصورات ناشئة من قياس التشبيه الذي قلنا عنه إنه عقبة في سبيل الفهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المرقمة ١٨٠ من نهج البلاغه (وما الجليل واللطيف والثقل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه الاسواء)<sup>١</sup>  
 وهذا الدليل قد يعطى صيغة عقلية أخرى ملخصها:

إن الكون بكل ما فيه مبني على أساس من مصالح وحكم مما يقطع العقل من ورائه بأن الخالق لا بد وأن يكون قد أوجدها على أساس من مصلحة وحكمة على أساس علمه بهذه الحكمة.  
 والمراد من القدرة والاختيار ليس إلا ذلك. فالإرادة والقدرة فيه تعالى عين ذاته - كما مرّ من الدليل - وعين علمه بالمصلحة.

فواجب الوجود - باعتبار أن الوجود والعدم اليه متساويان - عين القدرة، وباعتبار انكشاف المصالح والمفاسد عين الإرادة - على تفصيلات تذكر في محلها -.

١. البحار، ج ٣، ص ٢٦، نهج البلاغة، ج ٢، ص ١١٢، الاحتجاج، ج ١، ص ٣٠٦.

**الدليل الثاني: الالامحدودية والقدرة المطلقة**

ويعتمد على ما سبق من أن الله تعالى موجود وغير محدود، فيجب أن يتتح من ذلك أن لله القدرة على كل شيء ممكن الوجود.

والعجز محال تصوره في الموجود اللانهائي، باعتبار أنه إما أن ينشأ من محدودية قدرة الفاعل أو عجز وسائل العمل لديه أو وجود الموانع، لامتني لكل هذه التصورات في الله تعالى. وقد يقرر بشكل آخر فيقال:

لو فرضنا محالاً أن الله لا يقدر على شيء، فالأمر لا يخلو من حالتين:

١- أن يكون هناك موجود آخر يقدر عليه.

٢- أن لا يكون هناك موجود آخر يقدر عليه. ففي الحالة الثانية يكشف أن الأمر في نفسه محال، إذ لا بد للموجود من موجد قادر كما بينا سابقاً.

والحالة الأولى خلاف الفرض، إذ الفرض أن الله اكمل كل شيء، العجز خلاف الكمال، فالعجز ليس هو الله، وإنما الموجود الآخر القادر هو الله.

يقول في حق اليقين ص ٢٠: (ان العجز نقص لا يليق بالكمال وقد تقدم وجوب كمال الواجب)

**الدليل الثالث: الدليل النقلى**

وهو يعتمد على ما أسلفنا سابقاً ليقوم برهاننا والقرآن الكريم والأحاديث مليئة بما يوفى هذا الجانب حقه.

**في القرآن الكريم**

يقول القرآن الكريم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>٢</sup>.

وتتكرر عبارة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أو ﴿إِنَّكَ

١. فاطر: ٤٤.

٢. يس: ٨٣.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ أَوْ ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَوْ ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ أَوْ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَوْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أكثر من خمس وثلاثين مرة.

### في الاحاديث الشريفة

في توحيد الصدوق: عن الرضا عليه السلام (إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئته فجهلوك وقدرتك والتقدير على غير ما به وصفوك، وإني برئ يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ليس كمثلك شيء) <sup>١</sup>. وفيه من الصادق عليه السلام وهو يخاطب ابن أبي العوجاء: (وكيف احتجب عنك من أراك قُدْرَتَهُ في نفسك؟ نشؤك ولم تكن، كبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك وسقمك بعد صحتك...)

يقول الراوى (وما زال يعد قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه) <sup>٢</sup>

وفيه عن محمد بن عرفة قال: قلت للرضا عليه السلام خلق الأشياء بقدره أم بغير قدرة فقال: لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بقدره لأنك إذا قلت خلق الأشياء بقدره فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره وجعلته آله صماء بها خلق الأشياء وهذا شرك وإذا قلت خلق الأشياء بقدره فإنها تصفه أنه جعلها باقتداره عليها وقدرة ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلى غيره <sup>٣</sup>.

وأخيراً: فإن الفطرة التي قادتنا من قبل إلى الله تقودنا أيضاً إلى قدرته اللامتناهية، وذلك حينما تنجلي كل الغشاوات المضللة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٠-٤١﴾ إن الفطرة تقودنا إلى خالق قادر مطلقا يستطيع تهيئة كل الامكانيات التي تنقذ الإنسان من أية ورطة.

١. الصحيفة السجادية، ص ٢٢، امالي الصدوق، ص ٧٠٧، ارشاد المفيد ج ٢، ص ١٥٣.

٢. الكافي، ج ١، ص ٧٥، توحيد الصدوق، ص ١٣٧، البحار، ج ٣، ص ٤٣.

٣. عيون اخبار الرضا، ج ٢، ص ١٠٨، توحيد الصدوق، ص ١٣٠، البحار، ج ٤، ص ١٣٦.



## اشكالات وأقوال واهية

نستنتج مما سبق أن قدرته تعالى قدرة غير محدودة مطلقاً فالفاعل له مطلق القدرة ولكن قد يكون القابل لا يقبل الوجود وقد وجدت هنا أقوال واشكالات واهية نذكر بعضها:

قالت المعتزلة إنه تعالى لا يقدر على القبح والشر لأنه يستلزم الظلم قولها باطل (فإن القدرة على القبح ليست بظلم بل فعله ظلم، والله سبحانه قادر على ذلك، منزه عن فعله، وقد فروا من الظلم ووقعوا في العجز)<sup>١</sup> وسيأتي مزيد بحث يتعلق بالموضوع في مسألة الشر وقالت الأشاعرة أن الشر منسوب فعله إليه تعالى خوفاً من الشرك في أفعاله، وهم فروا من الشرك ووقعوا في الظلم، وسيأتي توضيح ذلك.

واشكّل بعض هكذا هل يقدر الله على أن يخلق موجوداً مثله؟ فإن قدر فليس الشريك محالاً وإن لم يقدر فهو عاجز سبحانه؟ أو هل يقدر الله على أن يخلق موجوداً لا يستطيع هو أن يعدمه؟ أو هل يستطيع أن يجعل العالم كله في بيضة؟ وهكذا.

وجواب هذه الأسئلة جميعاً أن القدرة تتعلق بالأمر الممكنة أما الأمر المحال فلا يقبل الوجود بنفسه، أن النقص في جهة القابل لا الفاعل.

والآن لنأخذ السؤال الأول فالموجود الذي يصنعه الله ويخلقه لا بد أن يكون مخلوقاً ممكناً وإلا لما احتاج له تعالى فكيف يمكن أن تتصور شيئاً ما واجب الوجود ثم يخلقه غيره وهكذا نجيب على باقي الأسئلة.

فنكتة بطلان السؤال الأخير مثلاً إن الكبير بوصفه لا يمكن أن يحتويه الصغير بوصفه، يقول في حق اليقين:

«ولا يلزم العجز أيضاً بعدم وجود الممتنع كشريك الباري واجتماع الضدين، ولا ينافي ذلك عموم قدرته تعالى، لأنه ممتنع لذاته عن قبول الوجود، وعدم قابليته واستعداده لتعلق القدرة، لا لأنه تعالى ليس بقادر، على ذلك، فإنه تعالى لا يوصف بالعجز، وقد روى الصدوق في التوحيد غيره من الإمام الصادق عليه السلام إن إبليس قال لعيسى بن مريم أيقدر ربك على أن

يدخل الأرض في بيضة لا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة فقال عيسى ويملك إن الله تعالى لا يوصف بعجز، ومن أقدر من يلطف الأرض ويعظم البيضة وعنه عليه السلام قال: قيل لأمر المؤمنين عليهم السلام: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة قال إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذي سألتني لا يكون، وفي رواية ويملك أن الله لا يتصف بالعجز ومن أقدر من يلطف الأرض ويعظم البيضة. <sup>١</sup>

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال جاء رجل إلى الرضا عليه السلام فقال هل يقدر ربك أن يجعل السماوات والأرض وما بينهما في بيضة؟ قال: نعم: في أصغر من البيضة، قد جعلها في عينك! وهي أقل من البيضة لأنك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما ولو شاء لأعماك عنها. <sup>٢</sup>

### الاختيار

ارجع البعض هذه الصفة إلى القدرة وقد قلنا إن ذلك ممكن وصحيح فيه تعالى بعد إن كانت صفاته عين ذاته.

ولكن المجال مجال ملاحظة مختلفة منا نحن، وعلى كل، فالله تعالى مختار في أفعاله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل فليس مثل النار ولزوم احراقها والشمس ولزوم إشراقها وإنما هو تعالى علة مختارة وهذا هو المائز الأصيل لعله العلة عن باقي العلة التي تستمد عليتها وارتباطها بالمعلول منه تعالى فإذا جعلت لها العلية فلا معنى لتخلف معلولها عنها، والدليل على هذا يقرب من الأدلة السابقة، وملخصه:

- (١) الدليل النقلي بعد ملاحظة المقدمات السابقة في الأدلة النقلية السابقة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ و﴿يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.
- (٢) والدليل العقلي: وقد يقرب بتقريبين.

١. حق اليقين، ص ٣٢، توحيد الصدوق، ص ١٢٧، البحار، ج ٤، ص ١٤٢

٢. توحيد الصدوق، ص ١٣٠، البحار، ج ٤، ص ١٤٣.

أ - ويقوم على أن ما اقمنا على وجوده الدليل هو الكامل المطلق اللانهايي فاذا تصورناه غير مختار فقد تصورنا عجزه ونقصه.

ب - ولو كان الله تعالى غير مختار فلازمه أن يكون العالم قديم قدمه تعالى ومحال تصور قديمين واما أن يكون هو حادثا لحديث العالم وهو خلاف الفرض.

وتوضيحه أن العلة إن لم تكن مختاره فالمعلول يصدر عنها بمجرد وجودها ولما كان العالم معلولاً لله تعالى فإن تصورناه - سبحانه - علة غير مختارة - فيجب أن نتصور قدم العالم وهو ثابت البطلان، أو أن نتصوره تعالى غير قديم بمعنى أنه مرت فترة عليه لم يكن موجوداً، وهذا خلاف كون وجوده عين ذاته وأنه واجب الوجود.

وقد نوقش هذا التقريب بمناقشات لا مجال للكلام عنها، وكفيها التقريب الأول.

نستنتج من هذا أن قدرته تعالى هي عين ذاته وهي لا محدودة، وعند ما نقول: إنها لا محدودة فيجب أن نتصور، ما نقول، إننا نتعجب كثيرا عند ما نسمع بالقدرات الهائلة ونقف مدهوشين للسلطة التي يملكها رئيس دولة كبرى ولكن عندما نتصور محدوديته وأنه غير قادر على دفع المرض عن نفسه وجلب النعاس لها عند الارق نعرف جيدا في المقابل ما معنى القدرة اللانهاية المتصرف باختيارها في الكون، كل الكون، وما أعظمها من كلمة يعبر عنها القرآن الكريم بـ(الجبار) وتأتي التعبيرات الأخرى تكشف عن مدى هذه القدرة أو على الأصح عن بعض مصاديق أعمالها ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>١</sup>.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَبْضُ وَيَسْطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾<sup>٣</sup>.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾<sup>٤</sup>.

١. الرعد: ١٦.

٢. البقرة: ١٤٨.

٣. البقرة: ٢٤٥.

٤. البقرة: ٢٥٥.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>٢</sup>.  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾<sup>٣</sup>  
 ﴿وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾<sup>٤</sup>

وتتجلى القدرة العلمية من الايات التي تعرض أشراف الساعة أي مقدمات وعلائم  
 القيامة فلترجع. في حين (وخلق الإنسان ضعيفا) مهما طغى وقدر، و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ  
 مَثَلٌ فَاذْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾<sup>٥</sup>.  
 وأخيرا فلنعش في رحاب هذه الآية الكريمة ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ  
 وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>٦</sup>.

### العلم والحكمة

أ - العلم: ما زال الإنسان - ولن يزال مهما تقدم في مجال معلوماته عن كونه - جاهلاً  
 بالجانب الأكبر من هذا الكون حتى أن البعض يمثل ما يعلمه الإنسان اليوم بقيمة تقرب من  
 (الصفرة) بالنسبة إلى حجم المعلومات الكلية، بل أن الإنسان إلى الآن أجهل ما يكون  
 بنفسه، يقول (الكسيس كاريل): (وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي  
 يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كتزا من الملاحظة التي كسبها العلماء الفلاسفة  
 والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع إلا زمان فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة  
 فقط من أنفسنا.. أننا لانفهم الإنسان ككل...  
 ... فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة.. وواقع

١. الاعراف: ٥٤.

٢. فاطر: ٤٤.

٣. فاطر: ٤١.

٤. الزمر: ٦٧.

٥. الحج: ٧٣.

٦. آل عمران: ٢٦.

الأمر أن جهلنا مطبق)¹.

ويقول اينشتين (الذي قرأناه إلى الان في كتاب الطبيعة قد علمنا الكثير من الأشياء وعرفنا من خلاله لغة الطبيعة، ولكن مع كل هذا وفي قبال هذه المجلدات التي قراناها فإننا بعيدون جدا عن الحل الكامل)².

ويقول فلا ماريون (استطيع أن أسأل عن المجهولات عشر سنين ولكنكم لاتستطيعون أن تجيبوا على أي منها).

فاذا أردنا أن نقيس هذا إلى علم الله تعالى فهنا يكون العجب والحيرة أنه قياس العلم المحدود إلى العلم اللامحدود ومن هنا ندرك قيمة ما تعبر عنه كلمة (لامحدود) وقد قلنا سابقا أن قياس اللامحدود على المحدود أولد بعض الاشكالات التي ستعرض لها في ذيل هذا البحث إن شاء الله تعالى.

**الادلة على علمه تعالى:**

### الدليل النقلى

وقد اقتصر في حق اليقين على هذا الدليل، فقال:

(ويكفي في ثبوت علمه تعالى الآيات المتضافرة والأخبار المتوترة) ومع ملاحظة ما سبق

من المقدمات فهذا صحيح تمام الصحة لمايلي:

١- لاشك بأن هذا هو الذي يفهمه الجميع وبصورة فطرية

٢- ولأن الطرق التي سلكت فلسفيا لإثبات ذلك والنص عليه طرق عرة المسلك إلا

بعضها الذي استفيد من القرآن الكريم والاحاديث، فنجد القرآن كريم والأحاديث الشريفة قد سلكت أروع الطرق لإثبات ذلك.

وهذه بعض النصوص الشريفة في البين:

١. الانسان ذلك المجهول، ص ١٧.

٢. نقلا عن كتاب خدا را چگونه بشناسيم، ص ١٥٦ - ١٥٧

## الآيات

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>١</sup>  
 ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>٢</sup>  
 ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا  
 يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>٣</sup>  
 ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ  
 اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>٤</sup>  
 ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ \*  
 عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ \* سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ  
 مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾<sup>٥</sup>.

## الاحاديث الشريفة

في دعاء عن الإمام الرضا عليه السلام: سبحان من خلق الخلق بقدرته واتقن ما خلق بحكمته  
 ووضع كل شيء منه موضعه بعلمه، سبحان من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور  
 و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>٦</sup>  
 ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: (لم يسبق له حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً)<sup>٦</sup> (علمه  
 بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين وعلمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في  
 الأرضين السفلى)<sup>٧</sup>.

١. ق: ١٦.

٢. الانعام: ٥٩.

٣. الملك: ١٣ - ١٤.

٤. الرعد: ٨ - ١٠.

٥. توحيد الصدوق، ص ١٣٧، البحار، ج ٤، ص ٨٥، مسند الرضا، ج ٢، ص ٦٧.

٦. نهج البلاغة، خطبة ٦٤.

٧. نهج البلاغة، خطبة ١٦٢، كنز العمال، ج ١، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

وعن أبي علي القصاب قال كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، فقلت: الحمد لله منتهى علمه فقال: (لاتقل ذلك فإنه ليس لعلمه منتهى)<sup>١</sup>.

عن عبدالله بن مسكان:

سألت ابا عبدالله عليه السلام عن الله تبارك وتعالى كان يعلم بالمكان قبل أن يخلق المكان أم علمه عند ما خلقه وبعد ما خلقه؟ فقال: (تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه كعلمه به بعد ما كونه)<sup>٢</sup>. وعن الإمام موسى أنه قال:

(علم الله لا يوصف منه بأين، ولا يوصف العلم من الله بكيف، ولا يفرد العلم من الله، ولا بيان الله منه وليس بين الله وبين علمه حد)<sup>٣</sup>.

والنتيجة أن الدليل النقلي كاف لإثبات أنه تعالى عالم مطلق بجميع الأشياء كلياتها وجزئياتها ظاهرها وباطنها... الخ

### الادلة العقلية والفطرية

ونستقي منها أدلة ثلاثة

**الأول:** إن الله كمال مطلق كما سلف والجهل بأى شئ يعنى العجز.

**الثاني:** دليل النظام

بمعنى أننا عندما نلاحظ هذا النظام الكوني العجيب بكل ما فيه من ترابط وأحكام فإن الفطرة تدل حينذاك على أن خالق مثل هذا النظام عالم تماماً بكل ما في مخلوقاته، فالنظام في كل شئ دليل علم المنظم بكل شئ وذلك لأنه تعالى مطلع على كل العلل بمقتضى خلقه، ومن امتلك هذا الاطلاع فلا معنى للماضي والمستقبل لديه بعد أن امتلك «مفتاح الغيب» وهذا الدليل يوضحه القرآن الكريم بأروع بيان كما سبق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

**الثالث:** الله حاضر في كل مكان فلا يغيب عنه أي شئ ولتوضيح هذا الدليل يجب أن

نمر بها يلي:

١. البحار، ج ٤، ص ٨٣، نور البراهين للجزائري، ج ١، ص ٣٤٢.

٢. توحيد الصدوق، ص ١٣٧، البحار، ج ٤، ص ٨٥، نور البراهين، ج ١، ص ٣٤٧.

٣. توحيد الصدوق، ص ١٣٨، البحار، ج ٤، ص ٨٦، نور البراهين، ج ١، ص ٣٥٠.

١- بملاحظة كلمة (لانهاى) جيدا، لا يمكن أن ندرك عظمتها إلا بملاحظة ما يقابلها من العلم النهائى وحيثئذ تتجلى العظمة.  
والقرآن الكريم يقول في وصف هذه اللانهاية:  
﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>.

**ملاحظة:** إننا محدودون ونهايون فيجب أن نتحرز من قياس التشبيه فإننا بمقتضى ذلك نجهل الكثير من الأمكنة التي لانحضر فيها.  
وهنا نقول إنه تعالى غير محتاج إلى الزمان والمكان فهو فوقهما ومعنى ذلك أنه لامعنى للقرب المكانى والبعد وكذلك الزمان فالكل نسبتها اليه واحدة، ونفس هذا دليل واضح على علمه تعالى بكل شىء، وقد مرت بنا رواية القصاب عنه عليه السلام ورأينا جواب الإمام على ذلك وأن علمه قبل خلق المكان كعلمة بعد خلقه.

### العلم الحسولى والعلم الحضورى

من اعقد المسائل الفلسفية مسألة الادراك مع أن كل شىء نعرفه بالادراك، والادلة تركز على أنه وجود لا مادى، وهناك فرق كبير بين وجود الصورة الذهني ووجودها الخارجى.  
(لان الصورة المدركة بحجمها وخصائصها الهندسية وامتدادها طولا وعرضا لا يمكن أن توجد في عضو مادى صغير في الجهاز العصبي)<sup>٢</sup>.  
فصورة الجبل لاتتملك ارتفاع الجبل قطعا، وبانطباع الصورة في العين تقوم الأعصاب بالايصال، والدماغ بعملية الفرز، وحينها تدرك الروح أو النفس، حقيقة هذه الصورة، فالذي علمناه حقيقة هو هذه الصورة والذي علمناه تبعا هو الجبل، مثل هذا العلم يقال له العلم الحسولى.

١. لقمان: ٢٧.

٢. فلسفتنا، ص ٣٥٤.



وفي قبال هذا العلم يوجد ادراك آخر يدعى (العلم الحضوري) وفي هذا القسم يكون المعلوم حاضراً لدينا بوجوده الخارجى وبلا توسط صورة أو شئ آخر، ومن أمثلته: علم الإنسان بنفسه فالإنسان يدرك نفسه ووجوده دون توسط أي شئ.

وقد حاول ديكارت أن يشك في هذا العلم ثم يستدل عليه فقال (انا افكر إذن انا موجود) ولكنه استدلال باطل ناقشه ابن سينا المتوفي قبل ديكارت بقرون (لانه حين يقول (انا افكر فأنا موجود) إن كان يريد أن يبرهن على وجوده ب(فكره الخاص) فقد أثبت وجوده الخاص من أول الأمر واعترف بوجوده في نفس الجملة الأولى، وإن كان يريد أن يجعل (الفكر المطلق) دليلاً على وجوده فهو خطأ لأن الفكر المطلق يحكم بوجود مفكر مطلق لامفكر خاص<sup>١</sup>.

إن هذا العلم فطري ولا معنى لإقامة البرهان عليه.

ومن أمثلة العلم الحضوري الآلام والحالات النفسية المختلفة التي يحسها الإنسان، وعليه، فإنه في العلم الحضوري لا يتعامل الإنسان مع الوجود الخارجى وانما مع صورته في حين يحضر الشئ الخارجى نفسه لدى العالم بالعلم الحضوري.

كما أنه ينفصل العلم الحسوي (الصورة الذهنية) عن المعلوم (الوجود الخارجى) ولكنها يتحدان في العلم الحضوري فالإنسان نفسه يدرك نفسه.

ويعتبر صاحب حق اليقين أن هذا القسم من خرافات المتكلمين، ويرى أنه لا يجب التفكير فيه. والانصاف أن المسألة بحث فيها أكثر مما تستحق وازدادت المناقشات بين المتكلمين وحر فيها اعلامهم، ولو رجعوا إلى الايات والروايات واستقوا علمهم في المسألة منها ومن فطرتهم لوصلوا إلى المراد.

ولكن هذا لايعني أن لا نتعرض لذلك، أننا - كما هو واضح - عرفنا انقسام العلم إلى هذين القسمين.

وبمقتضى الأمر الذي يتناسق مع عقولنا نعلم بأن الله تعالى علمه حضوري إذ العلم

١. فلسفتنا، ص ١٠٧.

الحصولي من مختصات المادة والأجسام والمقيدة بحدود الزمان والمكان بينما - كما تقدم - هو فوق الزمان والمكان وهو حاضر في كل مكان وزمان، فعلمه حضوري.

ولكن يجب الالتفات إلى الفرق بين العلم الحضوري عند معشر الممكنات والحضوري عنده تعالى، فهو (علم حضوري كامل) أنه علم العلة الواجبة المحدثه والمبقيه للكون الحاضر بتمامه لديه والقائم كل شؤونه به تعالى.

وهنا نؤكد على أن الله تعالى هو العلة المحدثه والمبقيه للكون وأنه يقوم به تعالى دائماً فالله هو المفيض للوجود والكون هو المتلقي لذلك الفيض الإلهي وهذا يعني أن كل الكون حاضر لديه يستمد منه الوجود.

#### حل بعض المشكلات:

(١) قيل: إن علمه تعالى محصور بذاته فقط ولأن ذاته علة المخلوقات جميعاً فهو بمعنى مجازي عالم بالمخلوقات ولكنه حقيقة عالم بنفسه فقط ودليلهم على ذلك أن ذاته تعالى بسيطة غير مركبة لا تنطبع فيها هذه الصور للحوادث اللانهائية. وسر الاشتباه يكمن في تشبيههم علم الله بعلمنا نحن الذي هو انطباع صور لأكثر في أذهاننا بينما كل الكون بما فيه مستقبله حاضر عنده تعالى، والتعدد ليس في ذاته بل في المخلوقات.

(٢) هل الله عالم بالكليات؟

ومن نفس نقطة الاشتباه السابق نشأ هذا الإشكال، وهو أن الكلّيات أشياء ثابتة يمكن أن يعلم بها الله أما الجزئيات فهي متغيرة متبدلة ولما كان علمه عين ذاته فعلمه بالمتبدلات يعني تبدل ذاته وهكذا قاسوا علمه بعلمنا مع أننا موجودات زمانية مكانية والعلوم تنتقش في أذهاننا وتذهبُ وليست نسبة الماضي والمستقبل الينا واحدة.

أما علمه فأزلي وهو يعلم بكل هذه الأشياء وتحضر لديه كل الأشياء.

(٣) الحياة: إنها نعبر عن الموجود المادي بأنه حي إذا رايناه يمتلك بعض الخصائص الحياتية كالانتقال من مكان إلى مكان والنمو والحصول على بعض الدرجات التي كان يفقدها في سيره التكاملي. وترتقي درجة الحياة، وتتأكد هذه الصفة كلما امتلك الموجود هذه

الصفات أو مراحل أعلى منها وأهمها إمكانية الشعور والاحساس ثم الإدراك بشكل أكمل حتى أننا نصل إلى أعلى درجات الحياة الكامنة في الإنسان نظراً لقدرته الإدراكية الواسعة واختيارية الحركة فيه.

وهكذا نعرف أن العلم والقدرة والاختيار تمثل درجة راقية من درجات الحياة، وكلما اتسعت هذه الخصائص تعمقت صفة الحياة أكثر. لما ثبت أن الله تعالى ذو علم حضوري مطلق وقدرة واختيار لامتناهيين فقد ثبتت صفة الحياة لله تعالى بل أن الحياة الحقيقية هي عين الذات الإلهية المطلقة وهنا نؤكد مرة أخرى على لزوم نفي التشبيه، فكل مظاهر الحياة المتعارفة من حركة ونمو وتوليد واحساس وغيرها هي درجات حياتية واطئة تتصف بها بعض الموجودات الممكنة لاغير، أما الذات الإلهية فكل هذه أمور مستحيلة فيها، وإنما هي (أي الذات المقدسة) عين الحياة التي هي عين العلم المطلق والقدرة والاختيار المطلقين.

٥٤- وفي ذيل هذا البحث يمكن أن ندرج صفتي السمع والبصر فنقول انه:

السميع البصير: إذ مرجعها إلى احاطته الكاملة بكل الأشياء وقد ذكر لأفراد هاتين الصفتين وتعيينها توجيهات، منها:

لأن الله تعالى افردهما في كتابه الكريم.

إن الغرض هو الرد على من ينكر العلم بالجزئيات (وهو بعيد) خصوصاً إذا لاحظنا حال المخاطبين عند نزول الآية.

ومنها وهو - الاقرب - إن الله تعالى ذكر هذه الصفات تقريباً لسعة علمه إلى أذهان الناس الذين لا يخلون من سمع وبصر وأن ذلك سيكون ادعى لزرهم وأكثر تأثيراً في أنفسهم، ولانحتاج هنا للاستدلال الثقلي العقلي على ذلك.

**ملاحظة:** إذا كان المقصود من هذه الصفات نتائجها وهو العلم فهل يصح لنا أن ناتي بأوصاف أخرى (هي للمكنات) ونعطيها للذات الإلهية، مثل: (ذائق وشام) وأمثالها، ونقصد بها نتائج الذوق والشم:

الجواب أنه لا مانع عقلي من ذلك ولكن لما اجمع المسلمون على أن الأسماء الإلهية توقيفية أي متوقفة على ورودها في نص شريف لزم التقييد بذلك.

### القدم والازلية والابدية

فهو تعالى أول بلا أول قبله، وآخر بعده، لم يسبق له حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً.  
والدليل العقلي عليه واضح وصريح.  
أما الدليل العقلي فيتلخص في النقاط التالية:  
أ- ما قلناه سابقاً من أننا أثبتنا الوجود اللامحدود له تعالى، وهذا ينافي عدم القدم وعدم الأبدية.  
ب - يلزم من جواز سبقه بالآخرين أن يكون معدوماً، ثم يوجد فيحتاج إلى مؤثر في إيجادها واعدامه وهذا باطل قطعاً.  
ج- إن جواز سبقه بشيء ينافي ما اثبتناه من وجوب الوجود.  
د - ثبت أن المؤثر الوحيد في الكون هو تعالى، فكيف يؤثر في نفسه العدم أو الوجود.  
ولقد قال في التجريد (ووجوب الوجود يدل على سرمديته) وعلق في الشرح (والدليل على أنه تعالى باق ما تقدم من بيان وجوب وجوده لذاته وواجب الوجود لذاته لا يجوز عليه العدم وإلا لكان ممكناً).

### الصفات السلبية

يجدر بنا كمقدمة للبحث أن نراجع بعض خواص المادة ثم نكون على حذر شديد من نفوذها وسرايتها إلى الساحة الإلهية. فمن خواصها:

#### ١- عدم المحدودية

فالمادة مهما اتسعت أبعادها فهي محدودة لاحتمالها، فإننا يمكن أن نتصور وجوداً أعظم منها.  
ب - التركيب: المادة مركبة ومكونة من أجزاء وعناصر وذرات تقبل التجزؤ، وقوام المادة بأجزائها فلا يمكن تصور مادة بلا أجزاء.  
ج - اللاشعور - باعتبار أن الشعور أو الإدراك يستحيل أن يكون في المادة لأنه في نفسه لا يحتوي صفاتها فكل جزء مادي لا يشعر بالجزء الآخر وإنما يعمل كرها مطبقاً القانون الكوني الجبري المفروض عليه.

د - التغيير والتبديل والتطور - وهذا شئ تسالم عليه جميع العلماء الفلاسفة الأقدمين والمحدثين وهو واضح فيما نجد من حركات الكون أمامنا من انفجارات وفيضانات وشروق وغروب وغير ذلك.

هـ - الاحتياج إلى الموجد أولاً وإلى من يعطيها شكلها ثانياً وإلى المكان والزمان وغير ذلك فهي احتياج محض.  
إلى غير ذلك.

إذا عرفنا هنا، وضممنا إليه أنه تعالى منزه عن أي مسحة مادية، توضحت لدينا كل الصفات التي تنزه عنها سبحانه كما سيأتي إن شاء الله، ومنها:

١- عدم الاحتياج مطلقاً إلى أي شئ آخر، وذلك:

لأننا أثبتنا سابقاً أن الكائنات وجودات تعلقة تحتاج قطعاً إلى وجود مستقل، إلى واجب الوجود. والاستقلال: يعنى الغنى المطلق، وإى خدشة في الغنى تنفي الاستقلال، وإى خدشة في الاستقلال تجعلنا نحتاج إلى موجود مستقل آخر، هو علة العلل.

## ٢- عدم التركيب

لا من الأجزاء الخارجية (الجسمية) كالرأس والصدر، ولا من الأجزاء الذهنية كالجنس والفصل، وإلا فإنه يلزم:

أ - الاحتياج إلى الأجزاء، لأن كل مركب يحتاج إلى أجزائه، وإلى المركب فالشئ لا يؤثر في نفسه التركيب.

ب - الامكان لأن كل جزء لا يقوم بنفسه وإنما يكون منضمّاً إلى الأجزاء الأخرى فليس بنفسه واجب الوجود، ومجموع الممكنات لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

## ٣- عدم كونه محلاً للأشياء الحادثة

كالنوم واليقظة والحركة السكون والقيام والقعود والرضا والسخط لأنه قديم لا معنى لعروض الحوادث عليه لأن ذلك من لوازم المادة كما سبق، والله منزه عن المادية.

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾<sup>١</sup>، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾<sup>٢</sup>، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>٣</sup>. إن الرضا والرحمة مثلاً عندنا يعنينا الميل النفسي نحو الشيء المرضى عنه والمحبوب والتأثر به وكلا هذين يعدان مستحيلين في الساحة الإلهية فعند ما يأتي التعبير ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>٤</sup>؛ أو ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾<sup>٥</sup> نعلم أن المقصود من كل هذه التعبيرات نتائجها لانفسها تماماً.

فرحمة الله تعني النعم العظيمة وغضبه يعني العذاب والقرب يعني ازدياد النعم أو يعني الإحاطة الكاملة بالشيء.

وقد ورد في تأويل بعض هذه الصفات أن الأذى الحقيقي إذا توجه إلى أولياء الله تعالى فكانه توجه إلى الله مثل (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) وما ورد عنه ﷺ: (فاطمة بضعة مني من أذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله)<sup>٦</sup>.

والدليل عليه واضح إذ الذات القديمة الأزلية لا يمكن أن تعرض عليها الحوادث.

#### ٤- عدم الحلول والاتحاد بالغير كما تزعمه بعض الفرق الضالة لمايلي:

أ- الحال يفتقر إلى المحل الذي يحل فيه.

ب- الحلول في مكان يستلزم خلو المكان الآخر منه.

ج- يستلزم الانتقال من حالة إلى أخرى.

وكلها باطلة.

١. الحديد: ٣.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. الشورى: ١١.

٤. البقرة: ١٩٥.

٥. الصف: ٤.

٦. البحار، ج ٣٠، ص ٣٥٣، أمالي الصدوق، ص ١٦٥، كنز العمال، ج ١٢، ص ١١١، مسند احمد، ج ٤، ص

٥، سنن الترمذي، ج ٥، ص ٣٦٠، صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢١٠، صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤١،

خصائص النسائي، ص ١٢١..

اما الاتحاد فهو بنفسه غير معقول بالإضافة إلى أننا نقول إن ذلك الغير الذي يتحد به الله تعالى اما واجب أو ممكن، وعلى الأول يلزم تعدد الواجب، وعلى الثاني نسأل ما هي نتيجة الاتحاد؟ هل هي وجود واجب أو ممكن؟ فإن قيل واجب يلزم انقلاب الممكن إلى الواجب وهو مستحيل، وإن قيل ممكن يلزم انقلاب الواجب إلى الممكن وهو مستحيل. وقد زعمت فرقة ضالة بأن الإنسان إذا تدرج في العبادة فإنه سيصل إلى مرتبة الاتحاد وهي مرتبة اليقين إستناداً إلى الآية الكريمة (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وحينها فلا تجب العبادة، وهذا مردود لأمر منها.

أ- إنه يخالف رأي الإسلام بالضرورة.

ب- لو صحّ لانتطبق على سادة العارفين النبي والائمة عليهم السلام مع أننا نشاهدهم في العبادة أشد ما يكون العبد.

ج- لو رجعنا إلى استعمالات كلمة اليقين نعرف أن المقصود منها هنا هو (الموت) بدليل الآية القرآنية ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ \* وَكُنَّا نَحْوُصُّ مَعَ الْخَائِضِينَ \* وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ \* حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾<sup>١</sup>. وقد يراد به يوم القيامة فهو يوم اليقين.

هـ- للدلالة العقلية السالفة.

### هـ- عدم التجسيم

انتشرت فكرة التجسيم في الكتب التي فيها البشر ونسبها إلى الله باعتبارها كتباً مقدسة، والإنجيل والتوراة مملوان بأفكار التجسيم.

وقد انتقلت هذه الفكرة إلى الكثير من كتب المسلمين.

في حين انكر الشيعة والمعتزلة ذلك

الدليل العقلي: على بطلانه

هو أن التجسيم يستلزم الاحتياج للمكان والزمان ويستلزم التركيب التناهي، وكلها باطلة في الساحة الإلهية سبق وأن مرّ الحديث عنها.

الدليل النقلي: وقد عضد القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>١</sup>

وجاءت روايات أهل البيت عليهم السلام تؤكد ذلك:

ومنها قول الإمام الصادق عليه السلام سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا يحد ولا يحس ولا يحيط به شئلا جسم ولا صور ولا تخطيط ولا تحديد<sup>٢</sup>.

هذا وقد كان جمود المجسمة على بعض الالفاظ القرآنية هو الذي أوقعهم في ذلك، كقوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>٣</sup> ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾<sup>٤</sup> ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾<sup>٥</sup>.

أما استدلالهم بالآيات فهو ناشئ من جمود لا أكثر، إذ لو أنهم نظروا للآية في إطار المفهوم الصحيح الإجمالي عن الله وهو (ليس كمثله شيء) وما يرشد إليه العقل والفطرة لما وجدوا فيها ظهورا فيما يدعون. على أن هذه الآيات كانت تعبر عن أغراض أدبية أخرى غفل عنها هؤلاء فلا يريد القرآن أن يقول مثلا كل شيء يهلك إلا وجه الله فقط.

وهكذا بالنسبة لآية اليد فاليد عند العرب تعني النعمة وقد تعني القوة فالآية ترد على اليهود المدعين بخل الله أو خلقتهم للعالم وتركه لوحده، أو أن يده تعالى مقبوضة عن عذابهم فجاء الرد بأن يديه مبسوطتان وله القدرة والنعمة المطلقة.

يقول الشهرستاني في الملل والنحل وزادوا - أي المجسمة - في الاخبار أكاذيب وخصوصا ونسبها إلى النبي صلى الله عليه وآله وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإن التشبيه فيهم طباع، حتى قالوا: اشتكت عيناه - أي الله - فعادته الملائكة وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه،

١. الشورى: ١١.

٢. الكافي، ج ١، ص ١٠٤، توحيد الصدوق، ص ٩٨، البحار، ج ٣، ص ٣٠١.

٣. القصص: ٨٨.

٤. الانسان: ٩.

٥. المائدة: ٦٤.



وأن العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد، وأنه ليفضل من كل جانب اربع أصابع<sup>١</sup>.

### ٦- عدم الاحتياج إلى المكان لأنه ليس بجسم

وقد افردناه لوحده لأهميته وإلا فهو داخل في عدم الاحتياج المطلق. إن التساؤل عن مكان الله تعالى أصله تساؤل ناشئ من قياس التشبيه فنحن اناس محدودون والله تعالى موجود لانهاهي فهو محيط بكل شئ. وقد يظن أحد أنه يشبه الأثير الموجود في ما نراه في الكون، ولكنه خطأ محض إذ يستلزم وجود الأجزاء، ولكننا نقصد من وجوده في كل مكان أنه فوق المكان ولا معنى للمكان في ساحته المقدسة وأن الأشياء بالنسبة اليه كلها متساوية. ويمكن أن نقرب الأمر بتصوير القوانين العامة (الكل أكبر من الجزء) إنها ليست محدودة بمكان دون مكان، ولا يحويها مكان.

### القرآن والكتب المحرفة

إن القرآن يقول ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ﴿أَيْنَ مَا تُولُوجُ فَهَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَالْأَرْضِ إِلَهُ﴾

بينما نجد في تلك الكتب أن عيسى بعد العروج إلى السماء جلس إلى جنب الله الايمن، أو أنه تعالى كان في السماء وكان متألماً من ذنوب أبنائه لذانزل إلى الأرض بشكل (روح القدس) واستقر في رحم مريم وولد بصورة عيسى عليه السلام لينقذ الناس من الخطيئة وليكون الها للناس، أو قضية اختفاء آدم عن الله الذي كان يتمشى في الجنة، أو قصة صراع يعقوب مع الله أو ذهابه إلى خيمة إبراهيم عليه السلام.

وهو من نتائج القول بالتجسيم ويمثل الطفولة العقلية تماماً كما نجد الطفل يتساءل عن مكان الله وصفاته.

١. الملل والنحل، ج ١ ص ١٠٦.

فالطفل يمر بمرحلة التحديد المادي ويفسر الأشياء كلها كما يراها ولكنه يستطيع أن يدرك المجردات إذ اترقى فكريا وهكذا الأمم، وهؤلاء بنو اسرائيل يحدثننا القرآن انهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من طفولتهم فهم بعد أن رأوا المعاجز الكبرى مروا على قوم يعبدون صنما فقالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ﴾.

إذ أنهم ثارت فيهم ماديتهم فصنعوا - عجلاً جسداً له خوار فعبدوه.

### ٧- عدم الرؤية

بعد أن آمننا بأنه تعالى موجود لانهائي فلا معنى لتصوير المكان والزمان فيه تعالى لأنهما يعينان التحديد، بل هما من خواص الجسمية والله منزه عنها باعتبار أنها تعني الاحتياج والسير نحو التكامل والتطور والله تعالى كما اثبتناه وجود مستقل كامل مطلق لا يتصور فيه ما في الجسمية من لوازم فاذا انتفت الجسمية انتفى امكان الرؤية البصرية لأن المرئي لا بد وأن يكون جسماً وفي جهة مقابلة وله صورة ومثل ومكان، وهو محاط بالنظر، وينفصل بفأصل عن الناظر اليه. وكل تلك مستحيلة في الله تعالى، فليس هو بجسم ولا يحتاج إلى مكان وليس كمثل شئ وهو المحيط بالأشياء وهو أقرب اليها من حبل الوريد.

ولو رجعنا إلى النقل لرأينا الآيات تؤكد عدم الرؤية ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾<sup>١</sup>. وقال تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>٢</sup>.

وكذلك الروايات في الصحيح عن الصادق عليه السلام: (الله اعظم من أن يرى بالعين)<sup>٣</sup>. وعن الجعفري عن الباقر عليه السلام (يا أبا هاشم أوهام القلوب أدق من أبصار العيون أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك وأوهام القلوب لا تدركه

١. النساء: ١٥٣.

٢. الانعام: ١٠٣.

٣. الكافي، ج ١، ص ٩٨، توحيد الصدوق، ص ١١٢، ومثله ما في سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٢٦، كنز العمال، ج ١٥، ص ٦٣٠، فتح الباري لابن حجر، ج ٣، ص ١٨٩.

فكيف أبصار العيون)¹.

وسأله عليه السلام رجل عما يروون من الرؤية، فقال: (الشمس جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر فإن كانوا صادقين فليماً وأعينهم من الشمس ليس دوها سحاب)². وفي التوحيد للصدوق باسناده عن الأصبح عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قام إليه رجل يقال له (ذعلب) فقال يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ قال يلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد رباً لم اره فقال كيف رأيت صفه لنا، قال: ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكنه رأته القلوب بحقائق الإيآن.

وعن الصادق عليه السلام قال رأى رسول الله ربه عز وجل بقلبه³. وفي رواية أخرى اما سمعت الله يقول ما كذب الفؤاد ما رأى لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد. وهكذا نعرف أن التساؤل عن رؤية الله أمر لا محل له وهو تساؤل قديم لكنه كما عرفت أن التساؤل عن الرؤية يمثل كما قلنا الطفولة البشرية التي تتساءل عن كل شئ وتريد أن تراه وتعرف مكانه في حين لا اشكال في أن الحواس لها طاقة محدودة أولاً وأن الله في نفسه لا يقبل الرؤية.

وهذه الأدلة كما تثبت عدم امكان رؤيته في الدنيا فكذلك في الآخرة.

**ملاحظة** نذكر هنا بأن الطفولة البشرية التي تحدثنا عنها هي التي دفعت للقول بالمذهب التجريبي في المعرفة وعدم قبول الإيآن بالأشياء إلا بعد الإحساس بها، وهي التي دفعت للقول بالجسمية والرؤية عند من يعتقدون بوجود الله تعالى وذلك بملاحظة ورود ما يشعر بها في القرآن الكريم من مثل ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾⁴.

١. البحار، ج ٤، ص ٣٩، الكافي، ج ١، ص ٩٩ توحيد الصدوق، ص ١١٣.

٢. الكافي، ج ١، ص ٩٨ وتوحيد الصدوق، ص ١٠٨، ومثله في تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٢٩٠، والدر المنثور، ج ٦، ص ٢٩٠، وفتح الباري، ج ١٣، ص ٣٥٤.

٣. أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٠٣، البحار، ج ٤ ص ٤٣، تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٥٧، احكام القرآن، ج ٣، ص ٥٥٠.

٤. القيامة: ٢٣.

ولكننا يجب أن نعلم أن القرآن نفسه اعطى قاعدة كلية تنزه الله عن كل تشبيهه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثم ركز على أن الله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>١</sup>.

وأخيرا اعتمد على نفس الدليل العقلي الفطري الذي قرر أنه تعالى لا يحده زمان ولا مكان ثم دفع الإنسان لتفهم القرآن وتعبيراته الأخرى، وإذا لاحظنا هذه الآية وأمثالها مما تؤدي إلى الرؤية والجسمية وأمثال ذلك في هذا الإطار القرآني العقلي الفطري رأينا أن لا ظهور لها إلا في حصول نتائج الرؤية للإنسان كالعلم والتلذذ برؤية رحمة الله، وهذا ما يبدو لنا عند ذكر الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾<sup>٢</sup>.

هذا وقد احتمل بعض المفسرين أن (ناظرة) هنا بمعنى منتظرة بقربنة مجيئها بهذا المعنى كما في قوله تعالى حكاية عن ملكة سبأ ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>٣</sup> وبملاحظة جو الآية يبدو امكان هذا التفسير، ويتأكد بالروايات.

#### بقيت لدينا كلمات

**الأولى:** يمكن للوجدان أن يقيم الأدلة على صفات الله تعالى بصورة إجمالية بلا أن يحتاج إلى كثير من المقدمات العقلية، فينطلق من الكمال التنظيم الكوني الدقيق إلى الله الذي هو فوق كل كمال فيوجب له غاية الكمال وهذا يعني صفاته عين ذاته لأنها الغاية المتصورة للكمال هكذا ثبت له باقي الصفات الثبوتية ونفي عنه كل الصفات السلبية باعتبار الأولى كمالات والثانية أنواعا من النقص.

**الثانية:** حاول البعض أن يرجع صفاته الثبوتية إلى السلبية فمعنى أنه غني أي غير فقير ومعنى قادر غير عاجز وهكذا وهؤلاء لم يلتفتوا إلى أن ذلك يعني أن صفاته كلها عدم وبالتالي تكون ذاته - والعياذ بالله - عدما. هذا ما لا يرضاه إنسان واع.

١. الانعام: ١٠٣.

٢. القيامة: ٢٢ - ٢٥.

٣. النحل: ٣٥.

والواقع أن الصفات السلبية يمكن ارجاعها إلى الثبوتية.

**الثالثة:** علينا في معرفة صفاته تعالى الكثيرة أن نرجع إلى النصوص القرآنية المباركة والروايات الشريفة التي تعتبر خير معين ومرشد في هذا الطريق الخطر وقد ذكرنا بهذا مرارا. **الرابعة:** تكرر منا كثيرا أننا لانستطيع أن نحيط بذاته تعالى وهذا واضح مع لانهايتها ومحدوديتها ومن هنا جاءت بعض النواهي عن التفكير في ذات الله.

اذ يكفي الإيمان الإجمالي بوجود الذات وصفاتها الثابتة بالقطع والتي كما قلنا يمكن الوصول إليها من طريق النظر في عجائب الكون وعن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال: يا ابن آدم لو اكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرة ابره لغطاه، تريدان تعرف، ملكوت السماوات والأرض إن كنت صادقا فهذه الشمس خلق من خلق الله فإن قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول<sup>١</sup>.

وأخيرا نقل هذه الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام (هل سمي عالما قادرا إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود اليكم والباري تعالى واهب الحياة ومقدر الموت ولعل النمل الصغار تقرهم أن لله زبانتين أي قرنين فإنهما كما لها وتتصوران عدمهما نقصان لمن لا يكونان له)<sup>٢</sup> وسنذكر في البحث الروائي بعض الروايات في هذا المجال إنشاء الله.

**الخامسة:** إننا لم نذكر في بحث الصفات السلبية صفة عدم الشريك لأننا تحدثنا عنها بصفة مستقلة بعد بحث (وجود الله) لأهميتها الخاصة لأن الكثير من بحوث الصفات تتوضح خلال بحوث التوحيد.

**السادسة:** قلنا إن الصفات المذكورة للذات كثيرة ويمكن ارجاع بعضها إلى البعض الآخر فمثلا ذكرت من صفات الله أنه تعالى - مدرك باق.

اما كونه مدركا فهو نفس كونه عالما، واما كونه باقيا فهي صفة الأبدية. وكذلك يرجع كونه مريدا كارها إلى الاختيار.

١. الكافي، ج ١، ص ٩٣، توحيد الصدوق، ص ٤٥٥، الفصول المهمة، ج ١، ص ١٧٤.

٢. الرواشح السماوية للمحقق الداماد، ص ١٣٣.

## صفات الفعل

مرّبنا أن صفات الفعل هي التي نصف بها الذات الإلهية بملاحظة افعالها وهي كثيرة  
نختار منها الصفات التالية:

### الله المتكلم

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾<sup>١</sup> وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾<sup>٢</sup>.

مما دفع الأشاعرة لأن يثبتوا لله تعالى كلاما نفسيا كصفة زائدة وقد تقدم الحديث عن بطلان ذلك، فليس هناك إلا الذات الإلهية. وكل الصفات الذاتية هي عينها بلا أي زيادة عليها. وقد كان قياس التشبيه هو الذي أوقعهم في هذه المفارقة الباطلة مما دفع العلماء الآخرين لردهم، ولعل ذلك هو سبب تسمية علم العقائد بعلم الكلام وإن احتمل أن يكون السبب هو كونه سلسلة من المباحث والكلام حول العقيدة والله.

هذا وقد لعبت بدالسياسة في هذه المسألة أيضاً بعد أن انجرت إلى مسألة كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق ولعل ذلك كان مؤشراً من مؤشرات الجدل العقيم الذي يصيب الأمم فيجرها إلى الضياع.

وبملاحظة ما سبق إن قلناه يتضح سخف تصور تكلم الله بنفس تصور تكلمنا نحن المخلوقات أي تحرك العضلات وقرب بعضها من بعض أحداث اصوات معينة. إذ أن كل ذلك يستلزم مادية وتركبا وطروا للتغيرات والحوادث وغيره. وكلها بعيدة من الساحة الإلهية المنزهة. فلا يمكن إذن أن يراد بالتكلم إلا أحداث تموج في الهواء بإذنه تعالى ينتج هذه الاصوات أو الأمر التكويني لبعض الاجسام بالتكلم العادي وأمثال ذلك. ننبه هنا إلى أننا لم نؤول الآية كما يتوهم بل فهمناها على ضوء الإطار العام التي اعطيت من خلاله - كما سلف.

١. النساء: ١٦٤.

٢. الشورى: ٥١.

نعم لو فسرنا الكلام الإلهي بمعنى آخر وقلنا إن المراد من الكلام الإلهي هو حصول نتيجة الكلام في ذهن المخاطب بأية طريقة كانت حتى ولو لم يكن هناك لفظ في البين - لو فسرناه هكذا لما كان هناك مانع عقلي في البين منه، ولكنه قد يكون خلاف ما يظهر من الآية من دون مبرر لارتكاب هذا الخلاف وإن كان القرآن قد أطلق على الموجودات والنعم اسم (كلمات ربي) باعتبار أنها أفعال الهية. كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثامنة عشرة - في تفسير قوله تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). قال: إنها يقول لما أراد كونه كن فيكون لا بصوت يقرع ولا ببناء يسمع وإنما كلامه سبحانه فعله<sup>١</sup>. هذا وقد جاءت تعليقات أهل البيت توضح ذلك، كغيره من الموارد:

ففي خبر صحيح عن أبي بصير قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول لم يزل الله جل اسمه عالماً بذاته ولا معلوم ولم يزل قادراً ولا مقدور قلت جعلت فداك فلم يزل متكلماً؟ قال: الكلام محدث كان الله عز وجل وليس بمتكلم ثم أحدث الكلام<sup>٢</sup>.

### الله الصادق

إن من صفات الله تعالى أنه لا يفعل القبيح، والكذب قبيح على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. فإذا كان الكذب قبيحاً عقلاً وواقعاً وكان الله عليماً بذلك غير غافل عنه ولم يكن محتاجاً له لتحقيق شيء يفقده فذلك محال على الله، أمنا بأن الله اصدق الصادقين. وعلى هذا يمكننا أن ننفي كل ما هو قبيح عقلاً عن الساحة الإلهية.

### الحسن والقبح العقليان

وهذه المسألة تعتبر من الاسس الكبرى التي تبتني عليها الآراء الكثيرة الهامة، ويعني انكارها انكاراً لكثير من المبادئ المسلمة. و**خلاصتها**: إن نظرية الفطرة الإسلامية تثبت للإنسان ما يسمى بالعقل العملي وهي

١. البحار، ج ٥٤، ص ٣٠، نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٢٢، الاحتجاج، ج ١، ص ١٧٤.

٢. امالي الطوسي، ص ١٦٨، الفصول المهمة، ج ١ ص ١٨٩، البحار ج ٤، ص ٦٨.

القدرة الإنسانية الثابتة ثبوتاً فطرياً في وجوده وبها يستطيع أن يدرك ما ينبغي فعله وما لا ينبغي على اختلاف في درجات ذلك المدرك من حيث حسنه وقبحه.

وقد أنكر الأشاعرة قدرة العقل هذه وقالوا بأننا نعجز عن ادراك الأمر الحسن أو الأمر القبيح ولكن يوكل ذلك إلى الشارع فما قبحه الشارع فهو قبيح وما استحسنته فهو حسن.

وقد وقعوا من انكارهم هذا في مفارقات:

منها عدم امكان الرد على من لا يرى وجوب طاعة الله تعالى. ومنها عدم امكان الاستدلال على لزوم بعثة الأنبياء. ومنها انسداد طريق الإيمان بصدق نبوة النبي عن طريق المعجزة بعد احتمال اجراء المعجزة على يد الكافر<sup>١</sup>.

ومنها عدم قدرتنا على استكشاف فطرية الدين في الأمور الأخلاقية.

و غير ذلك كثير. هذا وقد جعل بعض العلماء الحسن والقبح من الأمور الاعتبارية فالحسن والقبيح ذاتا هو ما اتفق العقلاء على ذلك فيه. وذلك فرارا من عدم كون هاتين الصفتين من الأمور الخارجية، ولكن الواقع أن هاتين الصفتين ليستا من اعتبارات العقلاء فهما ثابتتان للفعل حتى لو لم يكن هناك عقلاء (ان الظلم قبيح والعدل حسن) في كل وقت ومكان فاذا لم تكونا صفتين عينيتين أي موجودتين في الخارج كالأشياء الأخرى ولم تكونا ذهنيتين اعتباريتين عرفنا انهما موجودتان في نفس عالم القوانين أي وجودهما كوجود القوانين الرياضية والقضايا الفطرية الازلية (كاستحالة اجتماع النقيضين) و(الكل أكبر من الجزء) وأمثال ذلك.

وعلى أي حال فالعقل والوجدان الإنساني يدرك قبح الأشياء وحسنها فاذا كانت قبيحة الصدور من كل عاقل فهي مستحيلة الصدور من الله والكذب من تلك الأشياء القبيحة.

والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة في مواضع عدة.

### الله الحكيم

لما كانت هذه الصفة تطلق على الذات الإلهية بملاحظة الهدفية الموجودة في ما يفعله فقد

١. راجع البيان في تفسير القرآن ص ٢٣.



كانت من صفات الفعل. فإننا إذا طالعنا هذا الكون وما يجري فيه من أمور ادركنا جزءاً من الهدفية الموجودة، وبالتالي ادركنا إجمالاً الهدف العالم المتوفر بملاحظة الترابط الكوني الذي لا يكاد ينكره أحد حتى الماديون. فالدليل الأول على حكمته هو دليل الحكمة الموجودة في هذا النظام البديع والذي أشرنا إليه من قبل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

ومن لطائف صنعته وعجائب حكمته ما ارانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شئ ويسطها الظلام القابض لكل حي<sup>١</sup>.

ويستدل على الحكمة الإلهية أيضاً: بأن فعل الله متناسب مع ذاته الكاملة ففعله كامل ويتم كمال الفعل بملاحظة هدفه وكماله من كل عيب. وكذلك يستدل لذلك بانتفاء علل عدم كون الفعل حكيماً وهي الجهل والعجز وهما منتقيان عن الساحة الإلهية فلا يبقى إلا العبث، وهو محال على الله تعالى، لأنه قبيح عقلاً.

وعلى أساس من هذه الصفة يصل الإنسان إلى لزوم بعثة الأنبياء عن طريق ملاحظة هدف الإنسان، والى لزوم تصديقهم عن طريق معاجزهم بل والى لزوم المعاد ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>٢</sup>، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾<sup>٣</sup>.

### بعض النصوص الشريفة

ذكرنا خلال البحث بعض الآيات الكريمة والروايات الشريفة وها نحن هنا نقدم باقة منها وهي خير معين في هذا المجال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة:

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي نعمه العادون لا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن الذي ليس لصفته حد محدود، ولانعت

١. نهج البلاغة، خطبة ١٥، البحار، ج ٦١، ص ٣٢٣.

٢. المؤمنون: ١١٥.

٣. آل عمران: ١٩١.

موجود ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فطر الاخلايق بقدرته ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار اليه، ومن أشار اليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمنه ومن قال علام فقد اخلى منه. كائن لاعن حدث. موجود لاعن عدم مع كل شئ لابقارنة، غير كل شئ لابقازيلة. فاعل لابقعنى الحركات والآلة، بصير إذ لابقنظور اليه من خلقه متوحد إذ لابقن يستأنس به ولا يقنوحش لققده...<sup>١</sup>.

ويقول أيضاً: الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، كل مسمى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره مُتَعَلِّمٌ، وكل قادر غيره يقْدِرُ ويعجِزُ، وكلٌ سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات، ويُصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها، كل بصير غيره يعمى عن خفي الالوان ولطيف الاجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره طاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، لابقنخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على ند مُتاور ولا شريك مكائر ولا ضد منافر، ولكن خلائق مريبون، وعباد داخرون لم يخلق في الأشياء فيقال: هو كائن، ولم يناعنها فيقال: هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتداءً ولا تديير ما ذراً...<sup>٢</sup>.

ويقول ﷺ: واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له: الأول لاشئ قبله والآخر لا غاية له، لابقنق الأوهام له على صفة، ولا تقعد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض ولا تحيط به الأبصار والقلوب<sup>٣</sup>

١. نهج البلاغه، ص ٣٠، المعيار والموازنة، ص ٢٥٤، دستور معالم الحكم لابن سلامة، ص ١٥٣.

٢. نهج البلاغه، ص ٩٦، البحار، ج ٤، ص ٣٠٨.

٣. المعيار والموازنة، ص ٢٥٤.

ويقول عليه السلام: ... كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين باوهمهم وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقد روك على الخلقة المختلفة القوى، بقرائح عقولهم. واشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك، والعدل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك نطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وانك أنت الله الذي لم تنه في العقول فتكون في مصب فكرها مكيفا ولا في رواياتها واطرها فتكون محدودا مصرفا<sup>١</sup>.

ويقول عليه السلام أيضاً: لايشغلة شأن، ولا يغيره زمان ولا يحويه مكان لا يصفه لسان، ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولانجوم السماء ولاسوا في الريح في الهواء...<sup>٢</sup>.

ويقول عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملا بس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لابروية مريد لاهمة، صانع لاجارحة لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقه، تعنو الوجوه لعظمته وتجب القلوب من مخافته<sup>٣</sup>.

هذا ونهج البلاغة يزخر بالكلمات الشريفة الأخرى التي قالها عليه السلام في هذا المجال فنوصي القراء بمطالعتة والاستمداد من ندير علومه.

وهذه بعض الاحاديث الشريفة من الكتب الأخرى حدثنا محمد بن علي ما جيلوية عليه السلام قال حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن محمد بن خالد الطيالسي الخزاز الكوفي عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: لم يزل الله جل وعز ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما احدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، القدرة على المقدور، قال: قلت فلم يزل الله متكلماً؟ قال... إن

١. نهج البلاغة ج ١ ص ١٦٤، البحار ج ٥٤ ص ١٠٠ ص ١٩١ لسان العرب ج ١١ ص ٤٣٦، النهاية في غريب الحديث ج ٣.

٢. نهج البلاغة، ص ٢٥٦، البحار، ج ٧٤، ص ٣٠٧.

٣. البحار، ج ٦٩، ص ٢٧٩، ومثله في تاريخ دمشق، ج ٥٤، ص ٢٨٢.

الكلام صفة محدثة ليست بأزلية، كان الله عز وجل ولا متكلم<sup>١</sup>.

حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل عليه السلام قال: حدثنا علي بن إبراهيم عن ابيه عن العباس بن عمرو عن هشام بن الحكم قال في حديث الزنديق الذي سأل ابا عبدالله عليه السلام أنه قال له أتقول إنه سميع بصير، فقال ابن عبدالله عليه السلام هو سميع بصير، سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة بل يسمع بنفسه ويصير بنفسه وليس قولي إنه يسمع بنفسه أنه شيء والنفس شئ آخر ولكنني اردت عبارة عن نفسي، وكنت مسؤولاً، وافهاما لك إذ كنت سائلاً فأقول يسمع بكلمه، لا أن كله له بعض ولكنني اردت افهامك والتعبير عن نفسي وليس مرجعي في ذلك إلا إلى أنه السميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى<sup>٢</sup>.

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عليه السلام قال حدثنا الحسين بن الحسن بن ابان عن الحسين بن سعد عن النضر بن سويد عن عاصم بن حميد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له لم يزل الله مريداً، فقال: إن المرید لا يكون الا المراد معه بل لم يزل عالماً قادراً ثم اراد<sup>٣</sup>.

ابى عليه السلام حدثنا سعد بن عبدالله عن أحمد بن محمد بن خالد عن البيه عن ابن أبي عمير عن ابن اذينة عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: المشيئة محدثة<sup>٤</sup>.

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عليه السلام قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار عن سهل بن زياد عن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن الجسم والصورة فكتب سبحانه من ليس كمثل شئ لا جسم ولا صورة (التوحيد ص ٥٧)

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عليه السلام قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار عن سهل بن زياد عن محمد بن اسماعي بن بزيع عن محمد بن زيد قال: جئت إلى الرضا عليه السلام أسأله عن التوحيد فأملى علي: الحمد لله فاطر الأشياء إنشاء ومبتدعها ابتداء بقدرته وحكمته لا من شئ فيبطل الاختراع ولا لعلة فلا يصح الابتداع خلق ما شاء كيف شاء متوحداً بذلك

١. توحيد الصدوق، ص ٩٢-٩٣، الكافي، ج ١ ص ١٠٧، الفصول، ج ١، ص ١٤٣.

٢. توحيد الصدوق، ص ٩٧، الكافي، ج ١، ص ٨٣، الفصول المهمة، ج ١، ص ١٩٠، البحار ج ٤، ص ٧٠.

٣. توحيد الصدوق، ٩٨، الكافي، ج ١، ص ١٠٩، البحار، ج ٤ ص ١٤٤.

٤. توحيد الصدوق ص ٩٩، الكافي، ج ١، ص ١٠٤، الفصول المهمة، ج ١، ص ١٤٤، البحار ج ٣، ص ١٠٣.

لاظهار حكمته وحقيقته ربوبيته لاتضبطه العقول ولا تبلغه الاوهام لاتدركه الابصار ولا يحيط به مقدار عجزت دونه العباد وملكت دونه الابصار وضل فيه تصاريف الصفات احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور عرف بغير رؤية دو صف بغير صورة ونعت بغير جسم لاله إلا الله الكبير المتعال<sup>١</sup>.

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد الوليد عليه السلام قال حدثنا محمد بن يحيى العطار قال: حدثنا محمد بن عيسى عن هشام بن إبراهيم قال: قال الغياصي قلت له يعني ابالحسن عليه السلام جعلت فداك امرني بعض مواليك أن أسألك عن مسألة قال ومن هو؟ قلت الحسن بن سهل قال: في أي شيء المسألة؟ قال قلت في التوحيد قال وأي شيء من التوحيد؟ قال: يسألك عن الله جسم أو لا جسم قال فقال لي أن للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: مذهب إثبات فيذهب، ومذهب النفي، ومذهب إثبات بلا تشبيه. الإثبات بتشبيه لايجوز، ومذهب النفي لايجوز والطريق في المذهب الثالث إثبات بلا تشبيه<sup>٢</sup>.

حدثنا علي بن محمد بن أحمد بن أبي عبدالله البرقي عليه السلام. عن ابيه عن جده أحمد بن أبي عبدالله عن ابيه عن عبدالله بحر عن أبي ايوب الخزاز عن محمد بن مسلم قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله عز وجل خلق آدم على صورته فقال هي صورة محدثة مخلوقة واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه فقال بيتي، وقال ونفخت فيه من روحي<sup>٣</sup>.

علي بن الحسين عن هارون بن موسى، عن محمد بن همام، عن الحميدى، عن عمر بن علي العبدي عن داود بن كثير الرقي عن يونس بن ظبيان قال: دخلت على الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت: يا ابن رسول الله اني دخلت على مالك واصحابه فسمعت بعضهم يقول: إن لله وجهها كالوجوه وبعضهم يقول: له يدان، وإن احتجوا لذلك يقول الله تبارك تعالی بيدي استكبرت وبعضهم يقول هو كالشباب من ابناء ثلاثين سنة فما عندك في هذا يا ابن

١. التوحيد، ص ٥٨، الكافي، ج ١، ص ١٠٥، البحار، ج ٤، ص ٢٦٣.

٢. التوحيد، ص ٦٠، البحار، ج ٣، ص ٣٠٤، نور البراهين، ج ١ ص ٣٥٨.

٣. التوحيد، ص ٦٢، الكافي، ج ١، ص ١٣٤، البحار، ج ٤، ص ١٦.

رسول الله؟ قال: ... وكان متكئا فاستوى جالسا وقال: اللهم عفوك عفوك. ثم قال: يا يونس من زعم أن لله وجها كالوجوه فقد اشرك، ومن زعم أن لله جوارح كجوارح المخلوقين فهو كافر بالله فلا تقبلوا شهادته وتأكلوا ذبيحته، تعالى الله عما يصفه المشبهون بصفة المخلوقين. فوجه الله أنبيأؤه وأولياؤه، وقوله خلقت بيدي استكبرت اليد: القدرة، كقوله وأيدكم بنصره، فمن زعم أن الله في شيء أو على شيء، أو يحول من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء أو يشتغل به شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين والله خالق كل شيء لا يقاس بالمقياس، ولا يشبه بالناس لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان قريب في بعده بعيد في قربه ذلك الله ربنا لا اله غيره فمن اراد الله واحبه بهذه الصفة فهو من الموحدون ومن أحبه بغير هذه الصفة فالله منه برئ ونحن منه براء<sup>١</sup>.

ابي عليه السلام قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد بن عيسى قال حدثنا أبو نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما اسري بي إلى السماء بلغ بي جبرئيل مكانا لم يطأه جبرئيل قال فكشف لي فأراني الله عز وجل من نور عظمتته ما أحب<sup>٢</sup>.

حدثنا علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق قال: حدثنا محمد بن يعقوب الكليني عن أحمد بن ادريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قره المحدث أن ادخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فأستأذنته في ذلك فإذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام الأحكام حتى بلغ سؤاله التوحيد فقال: أبو قره انا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية فقال أبو الحسن عليه السلام فمن المبلغ عن الله عز وجل إلى الثقلين الجن والانس لاتدرکه الابصار وهو يدرك الابصار ولا يحيطون به علما وليس كمثلته شيء أليس محمدا صلى الله عليه وآله؟ قال بلى قال فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعا فيخبركم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: لاتدرکه الابصار وهو يدرك الابصار، ولا يحيطون به علما وليس كمثلته شيء ثم يقول: انا رايت بعيني واحطت به علما وهو على صورة البشرأ ما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقه أن ترميه بهذا أن

١. التوحيد، ٢٨٨، البحار، ج ٣، ص ٢٨٧.

٢. التوحيد، ص ٦٦، الكافي، ج ١، ص ٩٨، البحار، ج ٤، ص ٣٨.

يكون يأتي عن الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر قال أبو قرة فإنه يقول: ولقد رآه نزلة أخرى فقال أبو الحسن عليه السلام إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: ما كذب الفؤاد ما رأى، يقول: ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى آيات الله عز وجل غير الله، وقد قال: ولا يحيطون به علماً فإذا رآته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة فقال: أبو قرة فتكذب بالروايات فقال: أبو الحسن عليه السلام إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبت بها وما اجتمع المسلمون أنه لا يحاط به علم ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء<sup>١</sup>.

أبي قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن أبي نجران عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله عز وجل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار قال: إحاطة الوهم ألا ترى إلى قوله قد جاءكم بصائر من ربكم ليس يعنى بصر العيون فمن أبصر فلنفسه ليس يعنى من البصر بعينه ومن عمى فعليها لم يعنى عمى العيون إنما عنى احاطة الوهم كما يقال فلان بصير بالشعر وفلان بصير بالفقه وفلان بصير بالدراهم وفلان بصير بالثياب، الله اعظم من أن يرى بالعين<sup>٢</sup>.

حدثنا أبي عليه السلام قال، حدثنا محمد بن عبدالله قال: حدثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: جاء قوم من وراء النهر إلى أبي الحسن عليه السلام فقالوا له: جئناك نسألك عن ثلاث مسائل فإن اجبتنا فيها علمنا أنك عالم، فقال سلوا فقالوا أخبرنا عن الله أين كان كيف كان وعلى أي شيء كان اعتماده، فقال: إن الله عز وجل كيف الكيف فهو بلا كيف، وأين الإين فهو بلا أين، وكان اعتماده على قدرته، أي على ذاته، قالوا نشهد أنك عالم<sup>٣</sup>.

حدثنا أبي عليه السلام قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم قال: قال: أبو شاعر الديصاني إن في القرآن آية هي قوة لنا قلت ما هي؟ فقال: وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله. فلم أدربها اجيبه فحججت فأخبرت أبا عبدالله عليه السلام فقال: هذا

١. التوحيد، ص ٦٧، ٦٨، الكافي، ج ١، ص ٩٥، أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٠٤.

٢. التوحيد، ص ٦٨، الكافي، ج ١، ص ٩٨، الاحتجاج، ج ٢، ص ٧٦.

٣. التوحيد، ص ٧٩، عيون اخبار الرضا، ج ٢، ص ١٠٧، البحار، ج ٤، ص ١٤٣.

كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل له ما اسمك بالكوفة فإنه يقول فلان فقل ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان فقل كذلك الله ربنا في السماء اله وفي الأرض اله وفي البحار اله وفي كل مكان اله قال: فقدمت فاتيت ابا شاكر فاخبرته فقال هذه نقلت من الحجاز<sup>١</sup>.

أبي عليه السلام قال حدثنا سعد بن عبدالله عن إبراهيم بن هاشم عن ابن أبي عمير عن منصور بن حازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له أرايت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة اليس كان في علم الله قال فقال بلى قبل أن يخلق السماوات والأرض<sup>٢</sup>.

أبي عليه السلام قال حدثنا سعد بن عبدالله عن إبراهيم بن هاشم عن ابى أبي عمير عن هشام بن الحكم عن منصور الصبقل عن ابى عبدالله عليه السلام قال: إن الله علم لاجهل فيه، حياة لاموت فيه نور لا ظلمة فيه<sup>٣</sup>.

أمالي الشيخ عن ابن ناتان عن علي عن ابيه عن ابن أبي عمير عن إبراهيم الكرخي قال: قلت للصادق جعفر بن محمد عليه السلام إن رجلاً رأى ربه عز وجل في منامه فما يكون ذلك؟ فقال: رجل لادين له إن الله تبارك تعالی لا يرى في اليقظة ولا في المنام ولا في الدنيا ولا في الآخرة<sup>٤</sup>.

امالي المفيد عن ابن قولويه، عن الكليني، عن علي بن إبراهيم عن الطيالسي، عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لم يزل الله جل اسمه عالماً بذاته ولا معلوم، ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور. قلت جعلت فداك فلم يزل متكلماً؟ قال: الكلام محدث. كان الله عز وجل وليس بمتكلم ثم أحدث الكلام<sup>٥</sup>.

وأخيراً فهذا غيض من فيض أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي نعتقد أنها لو لم تمد الأمة بالنظرة الصحيحة في هذا الطريق الشائك لكانت الشبهات التي آثارها الزنادقة من جهة وأنواع الجمود الذي احتوى بعض العقول المطاعة من جهة أخرى، تعصف بالفكر

١. التوحيد، ص ٨٦، البحار، ج ٣، ص ٣٢٣.

٢. التوحيد، ص ٨٩، المحاسن، ج ١ ص ٢٩٣.

٣. التوحيد، ص ١٣٧، البحار، ج ٤ ص ٨٤.

٤. البحار، ج ٤، ص ٣٢، ومثله ما في تاريخ دمشق ج ٥٦ ص ٩٠.

٥. البحار، ج ٥٤، ص ٣٠، نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٢٢، الاحتجاج، ج ١، ص ١٧٤.



الإسلامي وتحرف الأمة إلى الشرك والضياع.  
ومن هنا كان أهل البيت أماناً لهذه الأمة، وسفينة نوح وباب حطة، واحد الثقلين اللذين  
من تمسك بهما لن يضل أبداً.



## الفصل السابع: العدل الإلهي

وهو من أهم صفات الفعل الإلهية مما يوجب شيئاً من البحث المفصل وقبل كل شيء لابد أن نطلع على بعض التمهيدات الهامة التي تنير لنا سبيل البحث.

### التمهيد الأول:

البحث في هذه المسألة ومبرراته التاريخية والواقعية كان البحث في هذه المسألة قد بدأ بالبحث عن مسألة الجبر والاختيار، ومنها انجرت البحث إلى العدل الإلهي وانقسم المسلمون إلى قسمين فيها، فقسم يؤيد العدل ويسمى بـ(العدلية)، والآخر يرى أن ليس للإنسان أن يحدد مسار الفعل الإلهي، فكل ما يفعله تعالى هو العدل وليس لدينا مقياس نؤطر به أفعال الله. وراح كل يؤيد مدعاه بالأدلة العقلية والنقلية.

وربما كانت هذه المسألة من المنعطفات الفكرية الهامة التي وجدت خلال النهضة الفكرية الإسلامية التي اوجدها القرآن الكريم في المسلمين وكانت لها آثارها الكبرى على تصور المسلمين بل وحتى على حياتهم وفقههم وغير ذلك مما لا مجال للتعرض له.

وانما نقول: إن البحث في هذه المسألة يقوم على أساس:

١- الأهمية البالغة التي يعطيها القرآن الكريم والشريعة عموماً لمسألة العدل الإلهي عموماً والعدل في الكون خصوصاً.

٢- النهضة الفكرية الهائلة التي آثراها الإسلام والتعمق البرهاني الذي اوجده الاستدلال القرآني في الأذهان قل هاتوا برهانكم.

أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا.  
 ٣- كون المسألة من الأمور التي ترتبط بكثير من المسارات العقائدية والحياتية وحتى التشريعية.  
 ولانرى بعدا في أن للحكام المستغلين الظالمين تأثيرا في إبعاد الأمة عن الواقع لتبرير ما  
 يعملون مستغلين بعض المسلمات أو الآيات القرآنية لإثارة الشبهات في الأذهان وتضييع الحق  
 وخلق روح التسليم المطلق لمشتبهاتهم. فهم من جهة يركزون الروح الجبرية في الأمة، وهذا  
 يعني أن تنظر لما يفعله الحكام على أنه قدر إلهي لا محيص عنه وهل يمكن الوقوف بوجه  
 القدر؟! ومن هنا فهي تسلم للقدر، ولاتلوم الحاكم على فعله الذي يتم بإرادة الله ومن جهة  
 أخرى نجد الدعايات التي يروجها أتباع الحكام تمنع العقل والفطرة من إدراك أي مقياس  
 للعدل والفعل العادل بحجة قصوره وبالتالي يكون العدل لا مفهوم له إلا أن هذا الفعل هو من  
 الله فهو عدل. ولذا فكل ما يقوم به هؤلاء الظالمون هو العدل لأنه فعل الله في الواقع.

### التمهيد الثاني: هل العدل من أصول الدين؟

والمقصود بأصول الدين الخطوط العريضة للتصور الإسلامي والتي يقوم عليها البناء  
 التصوري والتشريعي للإسلام كله.

ولأول وهلة - وطبق مسيرتنا في البحث - يبدو أن إثبات العدل لله تعالى متضمن لبحث  
 التوحيد الشامل لإثبات وجود الله وصفاته الجمالية والجلالية. ولكننا نجد التركيز على العدل  
 كأصل آخر بعد أصل التوحيد. ولعل ذلك لما قلناه من أنه يشكل فأصلاً رئيسياً في التصور  
 والعمل لا بد من تعيينه منذ البدء ولهذا رأينا انفصال مسار العدلية عن غيرهم من الأشاعرة  
 الأمر الذي انتج فصل هذه المسألة من أصول الدين.

ويرى بعض الأساتذة المفكرين أن سر جعلها من (أصول الدين) يكمن في كون هذه  
 المسألة مطروحة لا على صعيد المفكرين والعلماء فحسب بل قد تجاوزتهم إلى الأناس  
 العاديين الذين تساءلوا بشكل طبيعي عن الموقف فيها.

### التمهيد الثالث: مسألة التحسين والتقبيح العقليين

راينا من قبل أن الإيذان ببعض الصفات الإلهية يتوقف على إدراك الحسن والقبح من قبل  
 العقل، ومسألتنا هذه - وهي العدل الإلهي - تتوقف أيضاً على هذا الإيذان.

ورائنا أيضاً أن الإنسان له قدرة ادراك الحسن والقبح وانهما صفتان واقعتان موجودتان في عالم القوانين.

وما نريد التأكيد عليه - هنا - أن العقل إذا كان له هذه القدرة فليس يعني هذا أن نتبع كل ما يستحسنه العقل ولو استحساناً ظنياً وانما المراد هو أن للعقل أن يقطع في بعض الموارد بحسن فعل معين واذا تم له القطع خصوصاً إذا كان الأمر مما يعقطع به كل العقلاء انكشف حسنه الواقعي.

### التمهيد الرابع: العدل وأنواعه.

ذكرت للعدل ثلاثة معاني أو استعمالات:

**الأول:** التوازن ويقصد به وضع كل جزء من أجزاء المجموعة الكاملة في محله المناسب بدقة بحيث يحقق المجموع أفضل ما يتصور له من هدف، وهذا يتصور في المجال التكويني كما هو الحال في الكون المتوازن الدقيق الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع. كما يتصور في المجال التشريعي حيث يشكل كل تعليم من تعاليم الشريعة ملاءماً جيداً للحاجات الحياتية ليتحقق بالتالي الهدف الرسالي العام وهو سعادة الإنسانية مثلاً. ولكننا لن نبحث عن العدل بهذا المعنى، لأنه أقرب إلى الحكمة الإلهية منه إلى العدل، وقد بحثنا عنها فيما سبق.

**الثاني:** التساوي، ومن الواضح أن التساوي في كثير من الأحيان يعني الظلم.

**الثالث:** إعطاء كل ذي حق حقه وما يستحقه

وانما يتصور هذا المعنى في الأشياء التي لها مسيرة فطرية بها تشكل طريقها التكاملي كالإنسان مثلاً فإنه يملك بالفطرة والواقع مسيرة تكاملية تعتمد على دواعي فطرية وأهداف فطرية محددة إجمالاً، ولذا، فالإنسان طبق نظرية الفطرة يستحق مثلاً أن يوفر له جو التكامل والمعرفة، فاذا تم ذلك كان عدلاً، واذا منع من ما يستحقه كان ظلماً. وهذا المعنى هو الذي نبحث عنه هنا ونريده وهو الذي قلنا إن الوجدان يكشفه ويؤكد عليه.

### الدليل على العدل الإلهي

لولا أن المسألة مرت بمنعرجات فكرية كثيرة ووقعت فيها شبه أثارها التعصب أو

السياسة أو الدس لقلنا إن العقل والفطرة الإنسانيين بعد أن يلاحظا الاطلاق والغنى المطلق في الله وصفاته الحسنی يدركان بوضوح عدالة الله تعالى وفيضه الكامل على كل من يستحق الفيض الالهی.

وهذا المعنى هو الذي يلتفت اليه الإنسان المسلم بوضوح عندما يطالع الايات القرآنية بذهن صافٍ عارٍ عن الشبهه، فماذا نفهم من قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>٢</sup>

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>٣</sup>

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>٤</sup>؛

﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾<sup>٥</sup>

هل نفهم منها غير هذا المعنى الواضح وهو أن الله لا يفعل كل ما هو ظلم في نظر العقل القطعي المسبق وإلا فلا معنى لهذا الإخبار وهل يريد القرآن أن يقول إن الله لا يظلم احدا لأن كل ما يفعله الله - هو العدل - ودون أن يكون مسبقا متصفا بصفة أصلاً. أن المفهوم منها وجود تشخيص عقلائي مسبق يركز عليه القرآن ويؤكد أنه صفة عامة - إجمالاً - لكل أفعال الله تعالى وهو المطلوب. هذا وقد ذكرت الآيات القرآنية والروايات - كدليل نقلي على هذه الصفة - كما قد ذكر لمسألة العدل الإلهي دليل عقلي وهو يركز على الرجوع إلى علل الظلم ومنع الشيء من ما يستحقه، وبالاستقراء يعلم انها:

أما الضعف بمعنى أن يكون الموجود ضعيفا محتاجا لسحق حقوق الآخرين حتى يحقق ما يحتاج اليه،

١. النساء: ٤٠.

٢. يونس: ٤٤.

٣. النحل: ١١٨.

٤. الكهف: ٤٩.

٥. آل عمران: ١٨٢.

او الجهل بنتائج الظلم وما يعود به على المظلوم والظالم، أو بأن هذا الذي يقوم به هو ظلم ومنع للشئ من ما يستحقه،  
 او وجود بعض العوامل النفسية المحركة للظلم كالحقد والحسد والبخل والإحساس بلزوم التعويض السلبي وأمثال ذلك.  
 وكل ما يتصور من عوامل للظلم هو بعيد عن الساحة الإلهية تمام البعد، فلا داعي له - تعالى - للظلم وعدم العدل بل هو الفياض الكامل الغني المطلق.  
 هذا هو الدليل العقلي المذكور عادة. ويمكن أن يقال استنادا لنظرية التحسين والتقييح العقلين إن العقل يدرك أن العدل بمعنى إعطاء كل مستحق حقه وعدم حرمانه منه هو كمال وحسن على أي حال، وأن حرمانه مما يستحقه ظلم ونقص وقبيح، والله تعالى متصف بكل معاني الحسن والكمال ومنزه عن كل نقص وقبح فلا محالة من ثبوت العدل الالهي.  
 فالعقل يحكم تارة بأن الله يتنزه من كل ما هو ظلم واقعا، وأخرى يحكم بأنه يتنزه عما قطع هو بأنه ظلم.

### بعض العقبات التي تقف أمام الإيمان بالعدل

وهذه العقبات ربما تطرح في وجه الحكمة الإلهية فيجاب عليها بجواب قد يختلف عما يمكن أن يجاب به عندما تطرح في وجه العدل الإلهي، الأمر الذي يهمننا هنا. ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

### المشكلة الأولى: مشكلة الشر

وتكاد هذه المشكلة تكون من أعمق المشاكل التي اثيرت في قبال التوحيد الإلهي وكذلك من أعمقها في وجه العدل الالهي. ذلك، أن هناك الكثير من الأشياء والحوادث والأفعال التي نطلق عليها اسم الشر نظرا لآثارها المدمرة، وفي خصوص وجود أنماط الشر يقال تارة: كيف يمكن تصور الشر مخلوقا لله تعالى وهو الكمال المطلق والخير اللامحدود؟ وهنا وجد الاتجاه الثنوي المشترك، ويقال تارة أخرى في إطار التوحيد الالهي: كيف يمكن أن نتصور الله تعالى اوجد كل هذا الشر مع الإعتراف بعدالته واستحالة ظلمه؟

وقد بحثت الفلسفة الإسلامية هذا الأمر بشكل رائع، الأمر الذي لم يبق فيه أي إبهام،  
وها نحن نوضح ذلك باختصار<sup>١</sup>

### التنوية ومناقشتها

راى البعض من المفكرين القدامى أن الموجودات الكونية تنقسم إلى موجودات خيرة  
وأخرى شريرة ولما كان الخير يختلف عن الشر فلا بد أن يكون لكل منهما مبدأ وخالق مستقل  
عن الآخر وهكذا وجد هؤلاء انفسهم عاجزين عن الجمع بين الاطلاق في القدرة الإلهية  
والاعتقاد بالحكمة والعدل الإلهيين.  
وقد حلت الفلسفة الإسلامية هذه الشبهة بأسلوبين.

### الأسلوب الأول: التركيز على أن الشر أمر عدمي

التركيز على أن الشر أمر عدمي وليس أمراً أصيلاً حتى نحتاج معه إلى خالق.  
وذلك لاننا لانستطيع أن نفرص بين الأشياء الحسنة والأشياء القبيحة بفأصل معين كما  
نعمل عند الفرص بين الحيوانات والنباتات، بل أن الأشياء الحسنة والقبيحة مركبة تركيباً  
عجيباً، بمعنى أننا نجد أن الوجودات الكونية كلها وجودات خيرة وأن عدمها وفقدانها هو  
ما يسمى بالشر). فالشر أمر عدمي أو وجود يستلزم نوعاً من العدم. فمثلاً الفقر عدم  
والموت عدم اما الميكروبات والعواصف - مثلاً - فهي ليست بنفسها شراً بل تستلزم ما  
نسميه بالشر كالموت والدمار، ولو لم تستلزم هذا لما كانت شراً.  
وهنا نقول:

إن الموجودات في الكون خيرة بنفسها، اما الشرور فهي من الأمور العدمية، والعدم ليس  
مخلوقاً، أنه عدم الخلق، أن البصر والإبصار هو الذى يحتاج إلى خالق اما العمى فهو عدم  
البصر ولانتساءل فيه عن خالقه يكفي فيه عدم خلق البصر.

### الأسلوب الثاني: الشر أمر نسبي

والمقصود من نسبية الشر أن الشرية ليست صفة حقيقية ثابتة مطلقة لاي شئ في الكون،

١. للحصول على تعمق وتوضيح أكثر يراجع كتاب العدل الالهي للاستاذ المطهري.



وانما يمكن أن يتصف بها الشيء بملاحظة شيء ثالث يكون هذا الشيء بالنسبة إليه شرا . فالإنسانية مثلا بنفسها صفة حقيقية لأنها لا تحتاج إلى قياس زيد إلى شيء ثان حتى يتصف بالإنسانية، بينما نجد التقدم والتأخر صفتين اضافيتين لزيد، فقد يكون متقدما على عمر وفي شيء ما ومتأخرا عن خالد فيه، والشريعة من الأمور النسبية كذلك . فقد قلنا سابقا إن الأمور الشرعية على قسمين فاما هي أمور عدمية واما هي أمور وجودية تنتج عنها أعدام وتكون شرا لاستلزامها هذه النتائج العدمية . فمثلاً العواصف في نفسها ليست شرا ولكنها بالنسبة للمدن التي دُمّرت تعتبر شرا، والأمور النسبية الإعتبارية لا تحتاج إلى خالق .

وعلى أي حال فالوجود الحقيقي للأشياء أي وجودها بغض النظر عن غيرها ليس شرا وإذا كان هناك شر فهو بملاحظة أمور أخرى، في حين تكون بملاحظة غيرها خيرا . ولن نستطيع أن نضع ايدينا على وجودات معينة ليس لها أي أثر خير مطلقا . وبهذا نعرف أن شبهة الثنوية التي سيقت لتأكيد مبدأين لهذا العالم لامعنى لها وأن الموجودات كلها مخلوقة لله .

وقدردها القرآن الكريم و أكد على أن الله تعالى هو خالق الأشياء كلها ومقدرها تقديرا وأنه تعالى ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾<sup>١</sup> وبهذا يجاب على السؤال الأول ولكن السؤال الثاني باق على حاله، هو: كيف يمكن الإيمان بالعدل الإلهي مع أنه تعالى خالق الكون الذي نجد فيه شرورا على أي حال . ولماذا لم يملأ الله تعالى هذه الأعدام بوجودات خيرة ويخلص الناس من البلايا والمصائب وهل يتسجم هذا مع العدل وعدم الظلم .

### نقاط حول اشكال تنافي الشرور مع العدل الإلهي

وها نحن نوضح الموقف من هذا الاشكال على ضوء علاج الفلسفة الإسلامية لمشكلة الشر :  
**النقطة الأولى:** هل يمكن لهذا العالم أن يكون بلا تصور شر في البين؟ إن الشرور لا يمكن أن تنفك من الخيرات اما الأمور الشرعية والعدمية فهي تتبع النقص الطبيعي الموجود في الكائنات باعتبار وجودها الناقص الممكن وعلى اختلاف درجات النقص فيها، واما

الوجودات التي هي بطبيعتها خيره يلزم منها بعض الأمور الشرية فلا يمكن تفكيك هذه اللوازم عنها.

**والواقع** أننا لو لاحظنا الترابط الكوني العام الذي تحدثنا عنه في مطلع الحديث عن وجود الله تعالى والذي آمنت به الفلسفات الإلهية والمادية لاحظنا أن أي تغير يحدث في جانب من الكون يؤثر على الجوانب الأخرى بلاريب، أدركنا أنه لا يمكن تصور بقاء هذا النظام مع رفض بعض أجزائه، إذ يعني ذلك انعدام الكل الكوني العام بكل ما فيه من جمال وحسن. إن النظم في نفسه يعني الاختلاف والتكثر والتناسق بين الأشياء المختلفة لتحقيق الهدف العام، وعليه فيجب أن ينظر لكل جزء من النظام في إطار النظام العام لا أن يركز عليه منفرداً ليرى مثلاً هل هو شرار خير.

وقد ذكر الفلاسفة أن أنواع القبح المنتشرة في العالم هي التي منحنا الإحساس بالجمال وإلا فلو كان الجميع حسان الصورة لم يكن أي منهم حسناً إذ لا معنى للحسن حينذاك. وهكذا نجد أن هذا الكون بما فيه من شرور هو النظام الأكمل في علم الله، وأنه تعالى منح كلا حسب استعداداته الذاتية ضمن النظام الأكمل المتناثر الأعضاء، وليس الأمر كما يتصور البعض من أن الجميع كانوا على مستوى واحد، فأوقع الله الاختلاف بينهم فمنح هذا دون ذلك بدون أي مبرر في البين، بل أن الواقع هو أن الله تعالى منح كل شيء ما يمكن أن يحصل عليه ضمن النظام العام ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾<sup>١</sup> والرحمة الإلهية لا تحرم أي موجود مستعد أبداً، ولكن الاستعدادات والإمكانات ليست على مستوى واحد. والروابط بين العلل والمعاليل هي روابط ثابتة لا تتغير.

وهكذا نعرف أن وجود أنواع الشرور أمر لا ينفك من هذا العالم، وأنها تعطي العالم معاني الجمال والنظام بلا أن نتصور حيفا في البين، فكل جزء اكتسب من الله كل ما يقتضيه البناء الكوني العام.

**النقطة الثانية:** البلاء مصدر السعادة والتكامل. وهي حقيقة أكد عليها: القرآن

والفلاسفة والتاريخ والتجارب الاجتماعية والطبيعية فإن الصعوبات هي التي تفجر الطاقات ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ و﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾<sup>١</sup> و﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب﴾ \* وَاللِّي رَّبِّكَ فَارْعَب﴾<sup>٢</sup> و﴿وَلَنَبِّئَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾<sup>٣</sup> ﴿وَلَنَبِّئَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾<sup>٤</sup> ﴿وَنَبِّئَنَّكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾<sup>٥</sup>.

إن التكاليف الشرعية هي التي تسيّر بالإنسان نحو كماله وعلائته وتظهر جوهره الحقيقي وأن المصائب التكوينية التي يلاقها الإنسان لا بد وأن تترك أثرها في تنبيه شخصيته في الشدائد.

وهناك في كتاب الكافي باب تذكر فيه الروايات الكثيرة التي تؤكد هذه الحقيقة.

فعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل<sup>٦</sup>.

وعن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلا بإحدى خصلتين إما بذهاب ماله أو ببليّة في جسده<sup>٧</sup>.

ومن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي أيوب عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

١. هود: ٧.

٢. الانشراح: ٧-٨.

٣. البقرة: ١٥٥.

٤. محمد: ٣٦.

٥. الانبياء: ٣٥.

٦. الوسائل، ج ٣، ص ٢٦٢، البحار ج ٦٤، ص ٢٠٠، ومثله في مسند احمد، ج ٦، ص ٣٦٩، سنن النسائي، ج ٤ ص ٣٧٩، مستدرک الحکام، ج ٣ ص ٣٤٣.

٧. الكافي، ج ٢، ص ٢٥٧، الوسائل، ج ٣، ص ٢٦٢، ومثله في المعجم الاوسط للطبراني، ج ٢، ص ١٧، والآحاد والمثاني للضحك، ج ٣، ص ٩٩.

المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه، يذكر به<sup>١</sup>.  
وعن علي بن إبراهيم عن ابيه عن بعض اصحابه عن الحسين بن مختار عن أبي أسامة، عن  
حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله  
بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض.  
وغير ذلك<sup>٢</sup> مما يوضح ما نشهده وجدانا من دور البلاء في صياغة الشخصية المؤمنة  
الواعية الصابرة القادرة على بناء المجتمع، وإذا كان البلاء له هذه الآثار الفردية فله آثاره  
الاجتماعية أيضاً، وكم من الأمم من أصابهم البلاء فصقل روحها وأعادها من جديد أمة  
حضارية. قال الشاعر:

رب نفس كدرهم قد جلاها العلم حتى أعادها ديناراً

ويجب أن نلاحظ بالطبع أن الآثار الحسنة للبلاء إنما تتصور في النفوس المستعدة لتقبل  
الأثر الحسن. وإلا فمطر الرحمة يتحول إلى وحل في المحل غير المستعد. إن البلاء في هذا  
المجال كالأمثال التي يضربها القرآن، يتقبلها الواعون فينمون بها وجودهم في حين يتخبط  
الآخرين في ضلال وتيه متسائلين عن معانيها، يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ  
كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾<sup>٣</sup>

ومما يمكن أن نذكر للبلاء من آثار:

أولاً: ظهور جوهر الأشياء وانبثاق الامكانيات الخفية الكامنة في الإنسان والتي تتجلى  
وتنجلي من خلال البلايا والشدائد وفي الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن الله ليغذي عبده  
المؤمن بالبلاء كما تغذي الوالدة ولدها باللبن<sup>٤</sup>.

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٥٤، المؤمن، للحسين بن سعيد، ص ٣٣، الوسائل، ج ٣، ص ٢٦٢.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٥٢، ومثله مافي الجامع الصغير، ج ٢، ص ٢٧٥، وكنز العمال، ج ٣، ص ٣٣٥.

٣. سورة البقرة: ٢٦.

٤. بحار الانوار، ج ٨١، ص ١٩٥.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال، الأيام توضح لك السرائر الكامنة<sup>١</sup>

وثانيا: إن الهزاهز والشدائد تربي في النفس الإنسانية القوة والصلابة، وكلما كانت الحياة اصعب قويت الإرادة واشتد العزم على تجاوزها.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام الاوان الشجرة البرية أصلب عودا<sup>٢</sup>

ويقول أيضاً البلاء للظالم أدب وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة للأولياء كرامة<sup>٣</sup>

وثالثا: تنبيه الإنسان من الغفلة ليعرف واقعه وضعفه واحتياجه الدائم لله ويدرك مدى النعم الإلهية الكبرى التي تفيض عليه وفي كل ذلك ما يحقق شرائط تكامله وسيره المتوازن على الصراط المستقيم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾<sup>٤</sup>

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾<sup>٥</sup>

النقطة الرابعة: المصائب التي يصنعها الإنسان لنفسه

نحن نعلم أن الإسلام يعتقد بوجود قوانين تاريخية وسنن ثابتة لها دورها في توحيد المسيرة الإنسانية وسوقها نحو كمالها ومنعها من الهوى الحيواني المادي الرهيب، فكل من التكامل المعنوي والهبوط، والرفعة الحضارية والهوى، والسوء والحسن والخير قوانين وللإنسان في قبال ذلك ارادته في أن يجعل نفسه موضوعا لأي منها تماما كما في قانون الهوي التكويني من السطح والاستفادة التكوينية من النباتات النافعة واللحوم أمثال ذلك فاذا كان

١. بحار الانوار، ج ٧٧، ص ٢٨٦، الكافي، ج ٨، ص ٢٣، من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٣٨٨، نهج البلاغة،

٤، ص ٤٩، دستور معالم الحكم لابن سلامة، ص ٢٩.

٢. نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٢، البحار، ج ٣٣، ص ٤٧٥، نهج السعادة للمحمودي، ج ٤، ص ٣٧.

٣. البحار، ج ٤٢، ص ١٧٣، مستدرک الوسائل، ج ٢ ص ٤٣٧.

٤. الاعراف: ٩٤.

٥. الاعراف: ١٣٠.

الإنسان قد اوقع نفسه أو مجتمعه تحت طائلة أحد قوانين الهوي الموضوعة أصلاً لصالح الإنسانية لتحذره من الانحراف، فلا يلو من الانفسه وليس من الصحيح نسبة البلية إلى الله بمعنى أن الله هو الذي ظلمه فلا معنى هنا للظلم بل هو عين العدل.

وربما بلغ الأمر إلى حالة أمكن معها تفسير كل المصائب بهذا النحو، يقول تعالى:

﴿ مَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾<sup>١</sup>

ويقول تعالى يضا: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾<sup>٢</sup>

ويقول: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ \* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ \* وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾<sup>٣</sup>

﴿ مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾<sup>٤</sup>

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ \* فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾<sup>٥</sup>

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾<sup>٦</sup>. ويقول ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾<sup>٧</sup>

١. الشورى: ٣٠.

٢. النساء: ٧٩.

٣. هود: ١٠٠ - ١٠٢.

٤. آل عمران: ١١٧.

٥. النحل: ٣٣، ٣٤.

٦. يونس: ١٣.

٧. النحل: ١١٨.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ  
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾<sup>١</sup>

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾<sup>٢</sup>

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾<sup>٣</sup>

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى  
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>٤</sup>

وبمراجعة هذه الايات نعلم الكثير عن أسباب البلايا والمصائب فنعلم مثلاً أن الذنوب والانحراف والفسق عن الصراط المستقيم كل هذا ينتج الهلاك والبوار والبلاء لاحتمال إلا أن تتدارك الإنسان رحمة الهية نتيجة قابلية لهذه الرحمة.

ونعلم أيضاً أن البلاء لا يصيب الظالمين لغيرهم فحسب وانما يصيب الظالمين لأنفسهم المتقاعسين عن الحق الغافلين عن اتباع الهدى التابعين لغيرهم نتيجة كسل أو طمع او خوف وأمثال ذلك.

وها هو القرآن يذم المسلمين الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا والقوا انفسهم في الاستضعاف فيقول في حقهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾<sup>٥</sup>

وفي رواية عن الصدوق عن ابيه عن عبدالله بن جعفر عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله لا يعذب العامة بذنوب الخاصة إذا عملت الخاصة بالمنكر سرا من غير أن تعلم العامة، فإذا عملت الخاصة بالمنكر

١. الاعراف: ١٦٥.

٢. الانفال: ٢٥.

٣. الكهف: ٥٩.

٤. النحل: ٦١.

٥. النساء: ٩٧.

جهاراً فلم تغير ذلك العامة استوجب الفريقان العقوبة من الله عز وجل<sup>١</sup>.  
وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال في حديث له: اوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام أني معذب من قومك مائة الف: اربعين الفا من خيارهم، فقال عليه السلام: يارب هؤلاء الاشرار فيما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل اليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي<sup>٢</sup>.  
وفي رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم عذاب الله<sup>٣</sup>.  
وكذلك نعلم أيضاً أن هناك مصالح نجهلها قد تستدعي إمهال الظالمين ولكن لهم موعداً لا يخفوه يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام ولئن امهل الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجامن مساع ريقه<sup>٤</sup> إلى غير ذلك.

### المشكلة الثانية: مسألة التفاوت في الملكات والقدرات

وتطرح المشكلة بهذا النحو:

لاريب في أن نسبة جميع الموجودات إلى الذات الإلهية على حد سواء فلما ذا إذن اختلفت حظوظها من حيث الكمال والنقص والشعور اللاشعور وأمثال ذلك؟  
ولنا هنا كلمات حول هذه المشكلة.

### الكلمة الأولى:

إن الجواب الإجمالي عن المشكلة بأنها ليست مشكلة وإنما هي مجرد أمور نجهل حكمتها ومصطلحتها فنكتفي بعلمنا الإجمالي بأن الله لا يفعل أي شئ إلا عن حكمة وعدل، هذا

١. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٧، قرب الاسناد حميري، ص ٥٥، علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٢٢، ومثله ما في موطأ مالك، ج ٢، ص ٩٩١، مسند احمد، ج ٤، ص ١٩٢، كنز العمال، ج ٣، ص ٦٥.
٢. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٦، الكافي، ج ٥، ص ٥٦، البحار، ج ١٢، ص ٣٨٢، ومثله ما في فيض القدير للمناوي ج ٢، ص ٥٠٥.
٣. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٧، ومثله ما في مسند أحمد عندهص، ج ٥، ص ٣٨٨، وكنز العمال، ج ٣، ص ٧٤، وسنن الترمذي ج ٣، ص ٣١٦، وسنن البيهقي ج ١٠ ص ٩٣ وغيرها.
٤. نهج البلاغة، ج ١، ص ١٨٧.



الجواب صحيح إلى حد كبير وربما يلزم الاكتفاء به من قبل من لم يمتلكوا حظاً علمياً يليق بمستوى البحث في هذه المجالات.

ولاريب في أن هذا الجواب يكفي أولئك الذين يؤمنون بالله تعالى إيماناً فطرياً أو إيماناً عقلياً مباشراً بملاحظة الأدلة العقلية التي تركز على الوجود المطلق والامكان واحتياج العالم إلى الخالق الحكيم فهم ينظرون لكل مخلوقاته بهذا المنظار، كما أن هذا الجواب يكفي أيضاً حتى لأولئك الذين عرفوا الله من النظام الدقيق لهذا العالم فإن رؤيتهم للنظام الدقيق وضوح المصلحة في أجزاء كثيرة من العالم كافية لحصول علم إجمالي لهم بأن الكون كله منظم وفق مصالح دقيقة لازمة بعد أن يدركوا ارتباط هذا الجزء الذي ادركوا نظامه ومصالحته بباقي الأجزاء في العالم.

إلا أن الباحث يجب أن يسعى - مهما أمكن إلى الجواب التفصيلي على أمثال هذه المشاكل، وذلك لمواجهة خطة التشكيك الكافرة التي تلقي الشبه في الأذهان مما يشكك الكثيرين في العلم الإجمالي المذكور.

### الكلمة الثانية:

ذكر الفلاسفة - في هذا المجال - أن نظام العلل والمعالي في الكون نظام ذاتي أي أن روابط العلل والمعالي والمقدمات والنتائج هي بنحو تكون فيه مرتبة أي جزء في هذا النظام المتسلسل في العالم هي المقومة لوجود ذلك الجزء بحيث لا يمكن فصل ذلك الجزء عن مرتبته. وليس الأمر كما يتصور البعض من أن الله يخلق أجزاء العالم أولاً ثم يمنحها النظام ثانياً، بل أن خلقها يعني إيجادها بمراتبها الوجودية أي على هذا النحو من النظام، فالله تعالى أراد خلق العالم فوجد العالم بهذا النظام الذاتي له.

وقد أقام الفلاسفة الأدلة العقلية على بطلان نظرية تعدد الإرادات الإلهية في مجال خلق العالم، أي أن يريد تعالى خلق هذا الجزء ثم يريد خلق ذلك وهكذا، وصحة القول القائل بأن العالم من بدئه إلى نهاية يوجد بإرادة إلهية واحدة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ \* وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾<sup>١</sup>.

وعلى هذه النظرية تكون ارادة الله تعالى لوجود الأشياء هي عين إرادة هذا النظام بكل ما فيه من أجزاء ووظائف وتفاوت بين الأجزاء علّية ومعلوليّة حاكمة ذات هيمنة على ارجاء هذا النظام، فكل جزء له محله الذاتي خلال هذا النظام ولايمكن تصور تغير معلول لعلّة معينة إلى معلول آخر فيتحوّل الإنسان إلى نبات والنبات إلى ملك وأمثال ذلك.

وهنا يذكر الفلاسفة المبادئ التي تثبت الترابط الذاتي العام، وهي:

١- قانون العلة والمعلول العام.

٢- الضرورة العلية.

٣- السخية بين العلة والمعلول.

٤- انتهاء العالم إلى علة واحدة هي علة العلل.

ومما يوضح هذا التصور مراجعة الآيات التي تتحدث عن ثبات السنن الإلهية من مثل:

﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾<sup>١</sup>.

وليست السنة والقانون إلا أمرًا عقليًا منتزعا من تلك الضرورة القائمة بين الأشياء.

وعليه فهذا الكون يجب أن ينظر اليه بصورة عامة ويلاحظ المجموع الكلي فيه.

وعند ما نلقي عليه هذه النظرة العامة نجد أنه الخير كله رغم ما فيه من تفاوت وأمور قد تجر إلى شئ من الشر، ولو لا وجود هذا التفاوت لم يكن من المتوقع حصول كل هذا الخير الوجودي العميم. ومن هنا يتم لنا أن نعرف ما مر سابقا من أنه ليس في الكون شئ يعبر عن شر محض فلا ريب في أنه طريق الخير والتكامل وهكذا التفاوت الذاتي الموجود فإنه سبيل لتحقيق الكون للخير وسيره نحو الكمال بارادة الله ومشيتته.

### الكلمة الثالثة: التفاوت في القدرات سر التنظيم المتحرك النشط.

وهذه حقيقة لا يتم تصورهما إلا إذا تصورنا مجتمعا كل أفرادها على حد واحد من الاستعدادات والإمكانات والقدرات. إنه لن يكون لدينا في هذا الفرض إلا الخمود وإلا الجمود، فإن الاختلاف هو الذي يدفع كل جزء اجتماعي لأن يكمل نقصه هو بالتفاعل

١. فاطر: ٤٣.

الإجتماعي، الأمر الذي يحقق سد الفراغ الاجتماعي من جهة أخرى فتتم الحركة والنشاط والتسخير البناء، نعم أن اختلاف الأذواق والقدرات والعواطف والتركيبات العضوية وأمثالها شرط أساس لقيام حياة اجتماعية صالحة يقول تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾<sup>١</sup>.

وقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

الناس بخير ما تفاوتوا فإذا استووا هلكوا<sup>٢</sup>

### مشاكل أخرى:

وأخيراً: فإن كل المشاكل التي اثيرت في وجه العدالة الإلهية يتوضح جوابها من ملاحظة ما سبق أو بشئ من التأمل.

فما ذكر غير ما سبق مشكلة الموت مثلاً وهي لا تشكل مشكلة إلا لدى اولئك الذين اذهبوا طبياتهم في الآخرة بفعلهم وانحرافهم الاختياري عن السبيل المنطقي القويم. ومنها مشكلة المعلولين والمستضعفين والتي تنشأ على أساس بعض الآثار السلبية للقوانين التكوينية التي هي في الأصل مبعث الخير العميم من مثل قانون الجاذبية الذي به يحفظ التوازن الكوني العام ولكنه قد يكون باعثاً على سقوط شخص وابتلائه بعلّة مزمنة، أو تنشأ من تقصير إنساني في مجال اختيار الزوجة الملائمة أو ابتلائه ببعض العادات المنهي عنها مما يؤثر على نسله وعقبه وعائلته، أو سماح المجتمع لانتشار بعض الانحرافات المؤثرة على روية الجيل الجديد.

ومشكلة وجود الغرائز الدافعة للانحراف كغريزة حب الذات وغريزة الجنس والغضب وأمثالها وهي في الواقع إنما عادت مشكلة لسوء الاستخدام والجهل وإلا فقد مربنا في صدر هذه البحوث العقائدية أن الغرائز كلها دوافع فطرية عمياء تقود نحو التكامل بشرط قيادة العقل الإرادة الإنسانية اياها.

١. الزخرف: ٣٢.

٢. أمالي الصدوق، ص ٥٣١، البحار، ج ٧٤، ص ٣٨٣، مسند الرضا، ج ١ ص ٢٩٢، ومثله في كنز العمال، ج ٣، ص ٦٨١، وجامع البيان للطبري، ج ٧، ص ١٣٤، والدر المنثور، ج ٢، ص ٣٣٩، وراجع سنن الدارمي، ج ١، ص ٧٨.

ومما يذكر أيضاً وجود مشاكل الصراع التي تثيرها القوى الشريرة في الكون كالشيطان والظالمين وأمثال ذلك.

ولكننا عرفنا أن الصراع هو طريق التكامل الفردي والاجتماعي وأن المصائب لها آثارها التربوية الكبرى في حياة الإنسان.

وهؤلاء العلماء يقرون أن للميكروبات الجسمية آثارها الهامة في سلامة الجسم ونموه وتكامله وبالتالي تكامل القوى النفسية في الإنسان. أما فلماذا كان الشيطان مخلوقاً بهذا المستوى من الانحراف فذلك نابع من اختياره هو وتكبره، وهكذا الظالمون في الأرض فإنهم اختاروا طريق الانحراف. ووجود هذه الموجودات يدفع الإنسان إلى تجاوزها العلو على ضعفها، أما إذا كان الشعب ممن يستمرى الظلم فذلك بما قدمت يداه وما ربك بظلام للعبيد ومن هنا كان اللازم الوقوف بوجه الانحراف وقوفاً عاماً والسير في طريق التكامل والعبودية المطلقة لله تعالى لا غير فاذا لم يوفق البعض - رغم كل سعيه - لنيل مطالبه وهضم حقه فإن الله سينتقم له بلا ريب ولا يضيع حقه أما في الدنيا أو في الآخرة.

### مشاكل ترتبط بعالم الآخرة:

وهناك عقبات توضع أمام الإيمان بالعدل الإلهي على أساس الاعتقاد بالمعاد الآخروي وما يتضمنه من عقاب للعاصين وعفو عنهم وغير ذلك نحاول هنا التعرض إليها، وهي:

#### أولاً - مشكلة العقاب والعقاب الزائد

اذ يتساءل هنا عن فلسفة العقاب الإلهي للعاصين ومدى ضرورته في الآخرة أولاً، ثم يتساءل عن مدى انسجام نوع العقاب الذي هو أكبر من الجريمة الدنيوية مع ملاحظة العدل الإلهي الذي اكدناه.

وهل هناك تناسب مثلاً بين عملية القتل في الدنيا والعقاب الطويل في النار؟  
والواقع أن التساؤل الأول لا ينطرح في الذهن المستقيم وإنما تثيره الشبهات الملحدة المعاندة لا أكثر وإلا فنحن نعلم أن العقاب إنما يستحقه من قام:  
أولاً: بهضم حق الآخرين واعتدى عليهم وثانياً: مع علم منه بذلك.

وماد أم هذا الشخص قد تجاوز حدّه الإنساني واعتدى عالماً عامداً على حق الغير استحق العقاب بتجاوزه فلا يمانع العقل والوجدان في عقابه. اما لوقيل بأنه وإن كان يستحق العقاب ولكن الإنسانية والوجدان يشهدان بحسن العفو عنه، قلنا: إن الجرائم ليست كلها على وتيرة واحدة كما أن المجرمين لا يمكن أن ينظر اليهم من خلال ما عملوه فقط دون اخذ الدوافع الذاتية ومدى عمق الانحراف النفسي بعين الاعتبار.

فإن بعض الجرائم وخصوصاً في إطار بعض الحالات النفسية الانحرافية الشديدة لا يكون العفو عنها أمراً حسناً مقبولاً وجدانياً.

وهنا قد ينبري البعض ليؤكد أن العفو أن لم يكن حسناً فهو غير قبيح وجدانا فلما ذا

العقاب إذن؟

ويقال في قبال هذه الشبهة أن الذنوب والمعاصي الهامة الناشئة على أساس العناد - مثلاً تقتضي بنفسها أن يعاقب مرتكبوها، ولا مانع ولاداعي لعدم تنفيذ هذا الإقتضاء عند وصوله مرحلة التنفيذ.

على أن الله تعالى قد وعد بالعقاب ليسد الطريق امام انحراف الإنسان وقضائه على وجوده البشري الاجتماعي، ويضمن بقاء سيره على الخط الكمال المستقيم. وليس هذا الوعد وعداً كاذباً والعياذ - بالله - بل يعبر عن واقع حقيقي. وهو تعالى أصدق الصادقين - ولا يقف في قبال تنفيذ الوعد أي مبرر له أو مانع خصوصاً وقد عرفنا أن العفو في بعض الحالات لا مبرر له وليس حسناً ليقف مانعاً من التنفيذ.

وبهذا الجواب لانرانا مضطرين لما أجاب به البعض من العلماء بوجود العلاقة التكوينية التي لانفصام لها - طبق قانون العلية الذي يحكم الكون - بين الجريمة وعقابها الموضوع لها، وأن نؤول النصوص فنؤكد بأن العقاب المطروح في الآخرة هو عقاب روعي كما أن اللذة هي لذة روحية وهما يتعقبان الأعمال الصالحة والسيئة بشكل طبيعي.

#### اشكال عدم التناسب بين حجم الجريمة ونوعية العقاب

وهذا هو الاشكال الذي انطرح امام الفلاسفة والحكماء وعلى الألسنة. فكيف نتصور

انسجام عدم التناسب هذا مع الاعتقاد بالعدل الإلهي؟

وهناك بعض الأجوبة التي طرحت في البين وأهمها:

**الجواب الأول:** ما ذكره بعض الفلاسفة وملخصه يتم على خطوات:

١- إن هناك تفاوتاً كبيراً بين كل من عالم الدنيا وعالم الآخرة فالدنيا مثلاً هي عالم الحركة وهي عالم يجوي الأشياء الحية والميتة وعالم الزراعة والعمل، وعالم العمل الجماعي والمصير الجماعي المشترك تقريباً للأفراد في حين أن الآخرة هي دار الثبات ودار الحياة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾<sup>١</sup> حيث يتحدث فيها كل شيء. وهي عالم الحصاد الثواب والعقاب بالإضافة إلى أن كل فرد حينئذ له مصيره الخاص ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا توجد تأثيرات وتأثرات من قبل بعضهم على البعض الآخر وإن كانوا يلتقون ويتجمعون بصفاء وألفة في الجنة. ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾<sup>٢</sup> أو بتنفر وتناكر في النار ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾<sup>٣</sup>.

٢- إن الجزاء على اقسام:

فهناك الجزاء التعاقدي كقوانين العقوبات في الدنيا.

وهناك الجزاء التكويني أي ما يصيب الإنسان في الدنيا جزاء الذنب كالزنا مثلاً.

وهناك الجزاء الذي يشكل تجسماً لنفس الجريمة وهو نوع الجزاء في الآخرة والذي لا يقوم على أساس التشفي أو ردع الجريمة.

٣- وهذا الجزاء الأخير ليس كالأول تعاقدياً وليس معلولاً للذنب بل هو الذنب نفسه مجسداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾<sup>٤</sup>.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>٥</sup>.

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. الحجر: ٤٧.

٣. سورة ص: ٦٤.

٤. آل عمران: ٣٠.

٥. الكهف: ٤٩.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَاهُمْ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>٢</sup>.  
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾<sup>٣</sup>.  
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾<sup>٤</sup>.  
 ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ﴾<sup>٥</sup>.

فأعمالنا لها صورة فانية موقته وصورة ملكوتية وهي من ملازماتنا ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾<sup>٦</sup> هذه هي خلاصة الجواب الأول الذي يجب أن يكمل بأن يقال: بأن العمل يبقى ملازما للإنسان والروح الإنسانية بحيث لا تنفصم هذه الملازمة حتى بعد الموت.

إلا أن الظاهر من الآيات والروايات التي تتحدث عن جهنم وعقابها ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾<sup>٨</sup> وزجر الله تعالى سلطة ملائكته وأمثال ذلك كله يخالف هذا التصور ولذا فلو لم يكن هناك حل غير هذا الحل التجاننا اليه وخالفنا الظاهر وقلنا بأن القرآن الكريم حذر الإنسان من أن يلقي نفسه في مغبة عمل يبقى ملازمه إلى ما يعلمه الله. اما إذا كان هناك حل يوافق الظاهر عولنا عليه، ويكون ما جاء في الآيات السابقة تعبيرات أدبية رائعة عن أن العمل الإنساني لاغير هو الذي يؤدي إلى هذه النتائج وهذا المعنى واضح في الآية الشريفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ

١. الزلزال: ٧.

٢. البقرة: ٢٨.

٣. النساء: ١٠.

٤. الحشر: ١٨.

٥. التكوير: ١٤.

٦. الحجرات: ١٢.

٧. راجع الكتاب القيم «العدل الإلهي» للاستاذ العلامة المطهري ص ٢٤٩ فما بعد.

٨. سورة ق: ٣٠.

سَعِيرًا ﴿١﴾ والسعير - كما هو الظاهر - اسم للنار التي سيبتلون بها في الآخرة.

**الجواب الثاني:** ويبتني على أن العذاب في الآخرة ثمرة طبيعية تكوينية للعمل المنحرف في الدنيا تماما كما أن البذرة تؤدي إلى نبات شجرة وارفة فلا مانع من أن تكون بعض الأعمال لها ثمرات خالدة مستمرة.

وربما ذكروا أمثال الآية الشريفة ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾ \* لَا يُقْتَرُونَ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ \* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾.

وهذا الجواب بالإضافة إلى كونه خلاف ظاهر الآيات والأحاديث كما سبق لا يمكنه أن يحل الإشكال بشكل تام إذ يقال في قبالة: ولكن لماذا لم تدرك الرحمة الإلهية هذا الإنسان فلا تدعه يتعذب أو تشكل مانعا من أداء العمل إلى هذا الخلود في العذاب تماما كما تستطيع أن تضع مانعا من نمو البذرة المستمرة.

**الجواب الثالث:** إنه صحيح أن المفسدات التي تنتجها الذنوب كثيرة ولكن مفسدات بعض الذنوب كبيرة جدا إلى حد يحتاج الأمر معه إلى منعه بفرض بعض العقوبات الصعبة، ولذا وعد الله المنحرفين الكافرين بالخلود في النار وهو تعالى لا يخلف وعده.

وهذا الجواب لا يقنع السائل واذا تم في أصل العقاب فمن باب أنه لا داعي للوقوف بوجه اقتضاء الجريمة للعقاب اما في الخلود في النار، فهناك داع لذلك، وهو تحقيق حد من التناسب بين الجريمة والعقاب.

**الجواب الرابع:** ما قال به العرفاء ومن تبعهم من الفلاسفة إن الكفار وإن كانوا مخلصين في النار إلى ما لا نهاية له إلا أن عذابهم لا بدله من انقطاع وزوال فتكون النار بردا وسلاما بعد ذلك واستند بعض من أيده إلى حديث مقطوع عن النبي ﷺ قال: ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقبا<sup>٣</sup> وغيره من الأحاديث مما ليس بأحسن منه.

١. النساء: ١٠.

٢. الزخرف: ٧٧.

٣. التبيان للشيخ الطوسي، ج ٦، ص ٦٨، جامع البيان لابن جرير، ج ١٢، ص ١٥٤، التوفيق الرباني، ص ١٥٣، ومثله في فيض القدير، ج ١، ص ٥٥، وتهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٤٢.



وقد ذكر في حق اليقين (ج- ٢ ص ٢٤٨) هذا الوجه ورده بذكر بعض الروايات من أهل البيت عليهم السلام والتي تكذب هذه الرواية وأمثالها وتصر على فكرة الخلود كما جاء في الكافي عن حمران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام بلغنا أنه ليأتي على جهنم حين تصطفق أبوابها، فقال: لا والله أنه الخلود، قلت: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك؟ فقال هذه في الذين يخرجون من النار<sup>١</sup> كما ذكر بعض الردود الأخرى.

ثم راح يستعرض الآيات الواضحة للدلالة على الخلود في النار العذاب من مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ وقوله تعالى ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وغيرها من الآيات الكثيرة وكلها تثبت بطلان هذا الوجه المخترع.

**الجواب الخامس:** وهو الصحيح الموافق لظاهر الآيات والروايات ملخصه أن يقال: إننا يجب أن لانكفي بتركيز النظر على الأثر المادي المحسوس للجريمة والذنب، وانما نلاحظ ذلك في إطار الدوافع الذاتية للمذنب المجرم ومدى تأصل روح الاجرام. أي نحاول التعرف على الخلفيات النفسية التي تكشف عنها الجريمة فإن لذلك أكبر الأثر في معرفة مدى أثرها. ومن هنا فإننا يجب أن نشخص العناصر الثلاثة التالية في الجريمة لنعرف مدى تناسبها مع العقاب وهذه العناصر هي:

**أولاً:** نفس العمل الاجرامي ومدى أثره على الفرد والمجتمع والمسيرة الإنسانية التكاملية بما فيها الجوانب الأخلاقية والاجتماعية الأخرى.

**ثانياً:** نوع الجريمة من زاوية كونها تجرؤا على حق معين.

فإن نوع الجريمة يختلف باختلاف صاحب الحق فإن الأمر يختلف فيما لو كان الأمر لا يتجاوز تعديا على حق إنسان كافر، عما لو كان صاحب الحق مسلماً ورعاً مثلاً ويزداد الأمر

١. الفصول المهمة للحر العاملي، ج ١، ص ٣٧٣، البحار، ج ٨، ص ٣٤٦، ومثله في جامع البيان، ج ٢، ص ٥٦، والدر المنثور، ج ٣، ص ٣٥٠.

فيما لو كان قريبا ويشتد لو كان منعمًا بنعمة كبيرة أو أبا أو أما. ويتغير الموقف فيما لو كان العمل يشكل اعتداء على المجتمع الحاضر أو على الإنسانية بكاملها.

ولكن كل هذا يهون إذا التفتنا إلى وجود حق حقيقي عظيم هو حق المولوية لله تعالى مالك الكون وخالقه ومسخره لصالح الإنسان ومانح الإنسان اعظم المواهب ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾<sup>١</sup> إنه الحق الذي لا يتصور فوق عظمته عظمة. فاذا انتقلنا من عالم المولوية الحقيقية إلى عالم الإنسان وضعفه واحتياجه أدركنا عظمة التجري الإنساني على الحقيقة الكبرى في عصيان يرتكبه في الذنوب الصغائر فكيف به في الأمور الكبائر؟ ثم كيف به في العصيان والطغيان ضد الفطرة والعقل والخالق والمنعم وانكاره أو الاشرار وعباده من دونه ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>٢</sup> وتبدو عظمة الانحراف العقائدي عند ما نطالع مع الآية الكريمة - مثلاً - إذ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا \* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾<sup>٣</sup>.

ثالثاً: مدى الإصرار والعناد على الضلال:

وهو الجانب النفسي الهام الذي يجب أن يلحظ بعين الإعتبار ليبدو لنا الحجم الحقيقي للجريمة. فنحن نتأكد في كثير من الأحيان من أن البعض لو كانوا سيخلدون في الدنيا فإنهم لن يرتووا من ما يمتصون من دماء وما يهتكون من أعراض وما يسحقون من شعوب، ولن يرفعوا عن عنادهم للحق والله تعالى بل يضلون يسعون في الأرض فساداً.

ومن هنا فقد جاءت بعض الروايات التي تنسب علة خلود الكفار في النار - إلى إصرارهم وعنادهم وعزمهم على مواصلة الضلالة إلى الأبد لو كانوا خالدين<sup>٤</sup>.

**النتيجة:** فإذا لاحظنا العناصر الماضية علمنا أن هناك تناسباً كاملاً بين نوع الجريمة وحجمها الحقيقي وبين عقابها دون أن يشكل ذلك أي عقبة في وجه العدل الإلهي.

١. إبراهيم: ٣٤.

٢. لقمان: ١٣.

٣. مريم: ٩٠.

٤. راجع الجزء الثامن من بحار الانوار.

ويجب أن لا نغفل - بالطبع - مدى علم الإنسان بنوع الجريمة واستعداده الذهني لتصوير عظمتها ومدى قدرته على اختيارها وغير ذلك مما يؤثر في نوعية العقوبة وهو أمر مأخوذ بعين الاعتبار بدقة في الحسابات الأخروية الصارمة ﴿إِنَّمَا نُجَزُّونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>١</sup>

### ثانياً: الشفاعة

ومن المشاكل التي تطرح كاعتراض على مسألة العدل الإلهي (الشفاعة). فيقال بأنها تعني التفرقة بين العباد وأمثال ذلك - كما سيأتي - لما كانت هذه المسألة تمتاز بشيء من الأهمية فإنه ينبغي أن نبسط الكلام فيها إلى حد معقول متناسب مع هذه الدراسة السريعة فتتناول هذه المسألة من مختلف جوانبها ليتضح الحق فيها - إن شاء الله -.

### معنى الشفاعة

الشفاعة تعني: الانضمام، ويتبادر من لفظها أنها تعني انضمام موجود اكمل إلى آخر ناقص ليكمل نقصه.

أما في المصطلح العقائدي فتعني الشفاعة:

تدخل الشافع لدى الله تعالى واستدعاء تقريب المستشفع إليه محوما يبعده عنه

### شروط حصول الشفاعة

ويشترط في حصولها شرطان يرتبطان بصلاحيته الشافع والمشفوع له، وهما:

الأول: صلاحية الشافع للشفاعة، وهي مقام إلهي يمنح له جراء ثباته على الحق وعمل هام قام به في هداية البشرية حيث تقول الآية ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾<sup>٢</sup> ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ \* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾<sup>٣</sup>.

١. الطور: ١٦.

٢. مريم: ١٩.

٣. طه: ١٠٩ - ١١٠.

ومن هنا احتجنا لمعرفة الذين منحوا هذا الحق، والآيات والروايات تذكر لنا بعض هؤلاء الشفعاء، فمنهم الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ... لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾<sup>١</sup> وهكذا الأئمة عليهم السلام - كما في الروايات المتواترة التي سنذكر بعضها - كذلك الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾<sup>٢</sup> وهكذا الشهداء بالحق كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

ومنهم المؤمنون كما جاء في الروايات الكثيرة، ويظهر حالهم بملاحظة الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾<sup>٤</sup>.

وهناك استشفاع من نمط آخر هو استشفاع العمل ومكانه وزمانه فإنها كلها تشكل استدعاء للمغفرة والرحمة والعفو عن صاحبها.

**الثاني:** قابلية المستشفع وهي بدورها يجب استفادتها من النصوص الشريفة وأول ما يستفاد هنا أن الكافرين بالله تعالى والمعاد لا تنفعهم شفاعته مطلقا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ \* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ \* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ \* عَنِ الْمُجْرِمِينَ \* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ \* وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ \* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ \* حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ \* فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾<sup>٥</sup> والعلامة الطباطبائي يستفيد منها أن الشفاعة لأهل اليمين، وهم من ارتضي دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾<sup>٦</sup>.

فالمشفوع لهم إذن هم من ارتضي دينهم ولكنهم ابتلوا بعمل الذنوب الكبيرة إذ الصغيرة معفو عنها.

١. الانبياء: ٢٦-٢٨.

٢. النجم: ٢٦.

٣. الزخرف: ٨٦.

٤. الحديد: ١٩.

٥. المدثر: ٣٨-٤٨.

٦. الانبياء: ٢٨.

وقد كتب أبو عبدالله الصادق عليه السلام إلى أصحابه:

اعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً، لأملاك مقرب ولانبي مرسل ولا من دون ذلك فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه<sup>١</sup>.

### علاقة الشفاعة بالاستغفار

قيل إن الغفران الإلهي لما كان يتم وفقاً لنظام خاص وعلى أسس واقعية دقيقة فإنه يمر عبر نفوس سامية إلى من يتعلق به فيكونون وسائل للغفران. فالشفاعة إذن وسيلة من وسائل غفران الله وأسلوب لتنفيذ هذا الغفران على يد الشافع وسيتضح بعد هذا ما لدينا من تعليق على هذا القول.

والذي يبدو من خلال ملاحظة الآيات والروايات أن الشفاعة هي بنفسها استغفار وطلب العفو من الشافع للمستشفع، ولأريب في وجود نوع من الإمتياز - على أسس واقعية لمثل هذا الاستغفار من حيث صدوره من نفوس طاهرة.

### دور الشفاعة في بعث الأمل

الشفاعة وجه من وجوه الرحمة الإلهية التي رأيناها تتمثل من قبل في قبول الدعاء وقبول التوبة، وسراها متمثلة في أساليب أخرى إن شاء الله تعالى. بعد توضيح كل هذا، يتوضح دور الشفاعة في إعطاء عنصر الأمل فعالية وقوة، وتركيز الإطمئنان بتحقيق الأمل.

ويمكن أن نرجع تأثير الإيمان بالشفاعة في هذا المجال إلى أربعة أدوار:

- الف - دورها في عملية فتح باب الرجوع عن الانحراف.
- ب - دورها في عملية الإطمئنان بتحقيق النتيجة من تحقق درجة قريبة أو حاجة أو مطلب دنيوي.
- ج - دورها في عملية إيجاد نوع من الجزاء للعاملين على تحقيق الأهداف الكبرى.
- د - دورها في عملية الإتصال بالشافع وتأطير الأمل في حدود أهداف الشافع.

١. روضة الكافي، ص ١، البحار، ج ٨، ص ٥٣، اصول الكافي، ج ٨، ص ٤٠٥.

**الدور الأول:**

فإن التوبة تقوم بنفس هذا الدور وهو فتح أبواب العودة إلى الطريق الصحيح، وتحويل العناصر المنحرفة إلى عناصر فعالة لصالح السير الإيجابي للمجتمع، وتخليصهم من عذاب الضمير والقلق الذي هو أقل ما ينتج من الانحراف.

فما معنى الشفاعة إذن إذا كانت التوبة والدعاء هي الباب المفتوح؟

وعند الجواب من هذا السؤال نود أن نؤكد على أنه:

١- لتكن الشفاعة بابا آخر من أبواب الرجوع إلى الله.

٢- ولتكن للشفاعة فوائدها الأخرى كما سيأتي من أنها تخلق نوعا من الربط الشديد بالشفيع، مما يحقق أهدافا كبرى تشترك في صنع الهدف العام للخلق، ففتح باب الشفاعة لفوائد خاصة تماما كفتح باب الدعاء لفوائد إضافية كما مر بنا سابقا.

ومن جملة الفوائد: ما يمكننا أن نفترضه من أن الإنسان المنحرف قد يصل به الأمر مرحلة يتصور معها أن توبته لن تقبل، وأن دعاءه لن يستجاب نظرا لعظم جرمه. وعلاج هذه الحالة سوف يمكن باعطائه اشعارا حسيا بأنه سيقترن مع طلبه ودعائه طلب من مقدم عظيم وجيه عند الله تعالى... وهذا المعنى يمكننا أن نلاحظه بوضوح في أساليب طلب العفو التي تعلمها الأدعية المتفرقة. فهي تلقن الداعي أن يعيش آفاق عظمة محمد وآل محمد، ويطلب منه تعالى أن يصلي عليهم بألسنة متعددة تحمل معها كل معاني الإرتباط بهم، ومن ثم تلقنه أن يستشفع بهم من عظيم الذنب وكبر الانحراف.

**الدور الثاني:**

فواضح أن الاستشفاع بالأنفس الطاهرة المقربة منه تعالى: وبنص منه تعالى على الاستشفاع بهم لأجل تحقيق آمال الإنسان، سواء كان ذلك من حيث القرب إلى الله تعالى وتحقيق درجة أعلى من الرضا الإلهي المطلوب، أو من حيث الأمان والآمال في السعادة والنصر وحل المشاكل، هذا الاستشفاع له تأثيره في خلق اطمئنان بالنتيجة، وهو يعطي الأمل دفعا لأجل أن يهبى الأرضية المساعدة لتقبل التأثير.

**الدور الثالث:**

فيمثل - كما سبق - في إعطاء العاملين في سبيل الهدف نوعاً من الجزاء، فقد وردت الأحاديث الكثيرة في أن المؤمن يشفع في خلقٍ كثيرٍ بأمر الله، وتلك أمنية عظيمة للإنسان المؤمن أن يقوم بالشفاعة لإنقاذ من يرتبط بهم بنوع من الارتباط، وذلك اليوم يوم الجزاء والفرع الأكبر. لعمري إن هذا المقام الذي يعطيه الله لمؤمن هو من أعظم أنواع الجزاء تأثيراً في نفسه، وتحريكاً لحب ذاته في سبيل خدمة المجتمع والعقيدة، والتضحية في سبيلها بكل غال ورخيص.

وهنا تتخذ الشفاعة نفسها دور الأمانة، فتبعث على العمل لتهيئة الأرضية المساعدة للحصول على ذلك الشرف الكبير.

**الدور الرابع:**

وأخيراً فإن الشفاعة في (دورها الرابع) تخلق ذلك الارتباط العاطفي الواعي، المؤطر بإطار عقائدي بالشفيع، إذ تركز منزلته لديه، وتجمله يقتضي اثره. وهذا المعنى له تأثيره في إعطاء الأمل صبغة الشفيع، ونعني بذلك إعطاه الصبغة التي يرضاها الشفيع تبعاً لرضا الله تعالى، مما يضمن لنا أملاً صحيحاً واعياً.

ومن هنا يمكن أن نضيف إلى المواقف تأثير تصور النوع الثاني من الشفاعة (وهو شفاعة العمل) في خلق الإحساس والشوق الكبير للدخول في موقف التبعية المسجد، في ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت فينجو من تبعاته، إذ يدخل في الوفد الذي تحيطه عناية الرحمن، ويقوده الشفعاء الذين يظللهم الرضا الإلهي. والرضوان آنذاك أقصى ما يتصور من العطاء والنعيم:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

**الآراء في الشفاعة**

سارت الأمة الإسلامية في خطها العام منذ بدء عصر الإسلام على الاعتقاد بالشفاعة

بفضل تعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة التي تبين بوضوح صحتها إجمالاً وأنها ستقع حتماً. ولكن فئة من المسلمين عارضت الإيمان بها حتى وصلت به إلى حد الشرك. وها نحن نذكر بعض الأقوال في هذه المسألة:

قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً وبصريح الآيات وخبر الصادق (أي النبي ﷺ) وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة للمذنبين المؤمنين. واجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها. ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، وتعلقوا بمذاهبهم...<sup>١</sup>.

وقال الفخر الرازي: أجمعت الأمة على أن لمحمد ﷺ شفاعة في الآخرة<sup>٢</sup>.  
وقال المحقق الطوسي: الإجماع منعقد على الشفاعة في كلا جانبي زيادة المنافع وإسقاط المضار.  
وقال العلامة الحلي: اتفقت العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وآله على ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ (تجريد الاعتقاد) وعليه قوله تعالى: عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً هذا وقد حاول المنكرون تأويلها.

قال ابن تيمية: الشفاعة بمعناها المعروف شرك بالله ومُعتقده كافر، يجب على المسلمين أن يستتبهوه وإلا فيجب قتله<sup>٣</sup>.

وراح الطنطاوي يؤولها بأنها مجرد نفحات علمية وأخلاقية حكيمة آداب كريمة<sup>٤</sup> في حين يبدو من الشيخ محمد عبده أنها من المتشابهات ويجب أن نؤول المقصود منها.

### بعض الروايات في الشفاعة

ذكرنا بعض الآيات الكريمة في ما سبق، وهي توضح وجود الشفاعة بمعناها المنسب للذهن الشرعي في الإسلام وقد اجمع المفسرون على أن المقصود من قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ

١. راجع بحار الانوار، ج ٨، ص ٦٢.

٢. التفسير الكبير ج ٣، ص ٦٣.

٣. كشف الارتباب ص ١٦٣ و٢٣٨.

٤. تفسير الجواهر ج ١ ص ٦٤.



يَبْعَثُكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿١﴾ هو شفاعة النبي ﷺ في أمته وذلك كما صرح به الطبرسي.

وها هي بعض الروايات التي نكتفي بذكرها هنا:

١- قال رجل لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: إن لنا جارا من الخوارج، يقول إن محمدا يوم القيامة همه نفسه فكيف يشفع؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يحتاج إلى شفاعة محمد عليه السلام يوم القيامة.<sup>٢</sup>

٢- روى البخاري: حدثنا يوسف بن راشد حدثنا أحمد بن عبدالله حدثنا أبو بكر بن عياش عن حميد قال سمعت أنسا رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا كان يوم القيامة شفعت فقلت يا رب أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة فيدخلون، ثم أقول: ادخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء.<sup>٣</sup>

وروى عن جماعة من أهل البصرة أتوا أنسا يسألونه عن حديث الشفاعة، فحدثهم بها في حديث طويل... قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محمداً أحدهم... أخرله ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعطى، اشفع تشفع...<sup>٤</sup>.

٣- وروى مسلم - في جملة أحاديث الشفاعة التي يرويها - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - عليه السلام -: أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأما تم إماتة حتى إذا كانوا فحماً إذن بالشفاعة...<sup>٥</sup>

٤- وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً - أو قال سئل عنه - قال: هو

١. الاسراء: ٧٩.

٢. بحار الانوار، ج ٨، ص ٤٢، المحاسن، ج ١، ص ١٨٤، البحار، ج ٨، ص ٤٢.

٣. صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الانبياء وغيرهم، ص ١٩٧ - ١٩٨، البحار، ج ٨، ص ٤٨، جامع البيان، ج ١٥، ص ١٨٠.

٤. البخاري، ج ٩، ص ١٧٩ - ١٨٠.

٥. مسلم، ج ١، ص ١١٨، وراجع، ص ١١٥ - ١١٦، مسند احمد، ج ٣، ص ١١، سنن ابن ماجه: ج ٢، ص ١٤٤١.

المقام الذى اشفع فيه لأمتي<sup>١</sup>.

٥- واخرج ابن أبي شيبة عن سلمان - رضي الله عنه - قال: يقال له - أي لمحمد ﷺ -: سل تعطه واشفع تشفع. وادع تجب. فيرفع رأسه فيقول: امتي - مرتين أو ثلاثا - فقال سلمان: يشفع في كل من في قلبه مثقال حبة حنطة من إيمان...<sup>٢</sup>

٦- واخرج ابن جرير عن ابن مسعود، قال: يأذن الله تعالى في الشفاعة فيقوم روح القدس جبرئيل ﷺ ثم يقوم إبراهيم الخليل ﷺ ثم يقوم موسى وعيسى ﷺ ثم يقوم نبيكم ﷺ واقفًا ليشفع، ولا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود...<sup>٣</sup>

٧- روى علي بن إبراهيم عن ابيه عن الحسن بن محبوب عن زرعة بن محمد عن ساعة بن مهران - والسند صحيح - عن أبي عبد الله ﷺ قال: سألته عن شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة! قال ﷺ: يلجم الناس يوم القيامة العرق فيأتون الأنبياء العظام واحدا بعد واحد حتى يتتها إلى النبي ﷺ فيعرضون أنفسهم عليه ويخر ساجدا فيمكث ما شاء الله، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، اشفع تشفع، وسل تعط. وذلك قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾<sup>٤</sup>

٨- روى الصدوق عن طريق الاعمش عن الإمام الصادق ﷺ قال: فاصحاب الحدود فساق. لا يخلدون في النار ويخرجون منها يوما. والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين إذا ارتضى الله عز وجل دينهم<sup>٥</sup>

٩- روى الصدوق عن طريق التميمي عن الإمام الرضا عن آبائه عن علي ﷺ قال: من كذب بشفاعة رسول الله ﷺ تنله<sup>٦</sup>

١. الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٧، مسند احمد، ج ٢، ص ٤٤١، مسند ابن حنيفة، ص ١٧١.

٢. الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٨، مصنف ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ٢٢١، وكتاب السنة عمرو بن أبي عاصم، ص ٣٧٠.

٣. الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٨، مسند أبي داود الطيالسي، ص ٥١، مستدرک الحاكم، ج ٤، ص ٤٩٧، مصنف ابن أبي شيبة، ج ٨، ص ٣٥٥، السنن الكبرى للنسائي، ج ٦، ص ٣٨٢.

٤. تفسير القصص، ص ٣٨٧، بحار الانوار، ج ٨، ص ٣٦، مسند احمد، ج ٢، ص ٤٣٥، صحيح مسلم، ج ١، ص ١٢٣، مسند ابن المبارك ص ٦٣، ومسند ابن راهويه، ج ١، ص ٢٢٩.

٥. الخصال، ج ٢، ص ١٥٤، البحار، ج ٦٩، ص ١٥٩.

٦. عيون أخبار الرضا، ص ٢٢٥، البحار، ج ٨، ص ٤٠.

١٠- روى العياشي باسناده إلى عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: نعم، فقال له رجل: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يومئذ؟ قال: نعم، أن للمؤمنين خطايا وذنوبا، وما من أحد الا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ. قال: وسأله رجل عن قول رسول الله - صلى الله وآله وسلم - أنا سيد ولد آدم ولا فخر؟ قال: نعم يأخذ حلقة باب الجنة فيفتحها فيخر ساجدا، فيقول الله: ارفع رأسك، اشفع تشفع، اطلب تعط، فيرفع رأسه ثم يخر ساجدا فيقول الله: ارفع رأسك، اشفع تشفع، واطلب تعط، ثم يرفع رأسه فيشفع ويطلب يعطى<sup>١</sup>

### بعض الاشكالات وردّها

يمكن أن يقال إن أهم الإشكالات التي تورد على الشفاعة تختصر فيما يلي:  
 أولاً: إنها تنافي التوحيد في العبادة.  
 ثانياً: يلزم منها أن تكون رحمة الشافع اوسع من رحمة الله تعالى وهو ينافي الكمال المطلق.  
 ثالثاً: إنها توجب الجرأة على القوانين وتشجع على الاجرام.  
 رابعاً: يلزم منها أن يقع الله تعالى تحت تأثير الشفيع في حين أن الله لا يتأثر بشئ  
 خامساً: إن الشفاعة تفرقة امام القانون وهي تنافي العدل الإلهي.  
 سادساً: إنه لا يعقل دخل الشفاعة في تعليل استحقاق المذنب للعقاب، إذ الإستحقاق يتبع ما يصدر من نفس الفاعل لا من شخص آخر، فإن كان المذنب قابلاً للعفو فلماذا لا يغفر له وإلا فما معنى الشفاعة؟  
 سابعاً: إن القرآن الكريم يرد الشفاعة في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾<sup>٢</sup>.  
 ثامناً: إن الشفاعة تتنافى مع المبدأ القرآني القائل بأنه ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.  
 وواضح أن بعض هذه الاشكالات تشكل ردا على أصل الشفاعه معقوليتها في حين تشكل الأخرى على أدلة إثباتها.

١. بحار الانوار، ج ٨، ص ٤٨.

٢. البقرة: ٤٨.

### جواب العلامة المطهري

ويمكن تلخيصه في ما يلي:

١- إن المجتمع الذي تتدخل في مقدراته الأموال والوساطات والقوة هو مجتمع ضعيف القانون، وهذا بالضبط ضد الإطار الذي يعطيه القرآن الكريم لقوانينه، بحيث لا يؤثر أي من العوامل في السير العادل لمقررات الحكمة الإلهية، وهذا ما نجده بوضوح في قوله تعالى ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (أي رشوة) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقد وضح التطبيق العملي للإسلام هذه الحقيقة الإسلامية.

٢- الشفاعة شفاعتان: فالنوع الباطل منها هو النوع الذي يترك الفوضى ويجرّ إلى الظلم وهو شفاعة الوساطة لمنع من إجراء القانون، وهذا هو النوع الذي تردّ عليه الإشكالات الماضية، وهو الذي يفهمه بعض العوام منها، إذ جعلوا المقرين وسطاء الله في منع العقاب وهي أيضاً ما فهمه بعض المشركين وتصوروه في حق الاصنام وهو ما رده الأنبياء والأوصياء ورفضوه.

أما النوع الصحيح من الشفاعة فهو على نحوين:

شفاعة العمل، وشفاعة الفضل. وشفاعة العمل تشمل النجاة من العذاب ونيل الحسنات وارتفاع الدرجات أما شفاعة الفضل فهي تقتصر على نحو العذاب وربما الوصول إلى بعض الحسنات ولكنها لا ترفع درجة وهي التي عبر عنها ﷺ بقوله: ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أما المحسنون فما عليهم من سبيل<sup>١</sup>.

والمقصود من شفاعة العمل هو تجسم الروابط الدنيوية الخيرة في الآخرة حيث تتجسم روابط القادة باتباعهم كرابطة النبي ﷺ بالأئمة ﷺ وروابطهم هم بالأمة، وروابط المؤمنين بعضهم ببعض. حتى أنه تتجسد رابطة القرآن باتباعه حيث ورد عنه ﷺ إن القرآن شافع مشفع<sup>٢</sup>.

١. عيون اخبار الرضا، ج ٣، ص ١٢٥، الوسائل، ج ١٥، ص ٣٢٥، تفسير القرطبي، ج ٥ ص ١٦١، تاريخ

دمشق، ج ١٣، ص ٤٦٣، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٥٤.

٢. البحار، ج ٨٩، ص ٢٠، المجازات النبوية، ص ٣٠٧، مجمع الزوائد عنده، ج ٧، ص ١٦٤، مصنف ابن أبي

شيبه، ج ٧، ص ١٧٢، الجامع الصغير، ج ٢، ص ٢٦٤، كنز العمال، ج ١، ص ٥١٦.

وهذا النوع من الشفاعة لا ترد عليه اشكالات الشفاعة، وإنما يتصور امكان ورودها على النوع الثاني، وهو شفاعة الفضل والمغفرة.

٣- من المفاهيم الإسلامية التي يؤيدها النظر الواقعي مسألة الرحمة الإلهية الواسعة فالأصل في الإنسان والكون الخير والفضل، في حين يشكل الشر عارضة وحلولاً وقتية للمشاكل. كما أن من سنن الكون المبنية على الرحمة الإلهية مسألة التطهير سواء في المجال التكويني المادي حيث تشكل عمليات التنفس وجريان المياه وتحلل الجيف نماذج للتطهير التكويني، أو في المجال المعنوي عبر التوبة والدعاء وأمثالهما.

ومن السنن الكونية المعبرة عن الرحمة الإلهية مبدأ (السلامة)، فقد أودع الله في أعماق كل موجود ما يساعد على إبقائه سالماً، وكمثال على ذلك وجود الكريات البيض التي تقاوم الميكروبات أو وجود الفطرة الإنسانية التي تحافظ على الوجود الشخصي والنوعي وتضمن إلى حد بعيد سلامة السير ووضوح الأهداف.

وعليه فالمغفرة الإلهية ليست ظاهرة استثنائية بل قاعدة كلية معبرة عن الرحمة الإلهية ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾<sup>١</sup>.

٤- إن للمغفرة الإلهية نظاماً كباقي المبادئ الكونية العامة فالوحي مثلاً لا ينزل على أي أحد وإنما له نظام خاص، وهكذا المغفرة الإلهية لا يمكنها أن تتحقق بلا واسطة نفوس سامية، فعملية المغفرة أن نسبت إلى الله سميت مغفرة وإن نسبت إلى هذه النفوس السامية سميت شفاعة والشرط الأساس لهذه المغفرة هي قابلية الشخص لها أن الله لا يغفر أن يشرك به يغفر ما دون ذلك لمن يشاء فالإيمان شرط الغفران وهناك شروط أخرى تعبر عنها الآية لمن يشاء أو لمن ارتضى وكأن القرآن أخفى بعض هذه الشروط ليتجنب النتائج السلبية لها ويحتفظ بإيجابيتها.

٥- فالشفاعة الحقيقية تشرع من الله وتنتهي للمذنب، والباطلة هي عكسها، والآيات

التي تنفي الشفاعة تنظر إلى هذه الحقيقة، وهي أن الشفاعة لله والاستشفاع يتم عبر الوسائل التي يقرها الله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾<sup>١</sup>.  
٦- وهكذا يجب على كل الاشكالات المذكورة أنفا.

### مناقشة هذا الجواب

الملاحظ في هذا الجواب أن الشفاعة المذكورة فيه ترجع إلى أحد أمرين:  
**الأول:** إن الشفاعة مجرد تنفيذ لأوامر الله، وايصال نتائج الرحمة الإلهية إلى العبد المستحق لها، عن طريق بعض الوسائل التي اكتسبت دورها نتيجة سموها النفسي، وبهذا يعود الاستشفاع وتقديم هذا الشفيع بين يدي الله أمرا شكليا ربما ترجع فائدته إلى احترام هذا الشخص المقرب.

**الثاني:** إن الشافعين لهم تأثير تكويني في النتيجة ورفع العذاب، ولكن هذا التأثير كتأثير الدواء في الايصال إلى الشفاء، وحينئذ فلا تكون الشفاعة معبرة عن مقام معنوي خاص.

وهذان الأمران ينفيان ما هو الظاهر من آيات الشفاعة ورواياتها من أنها عملية توصل وتقرب إلى الله عن طريق الشفعاء وتقديمهم واقعا بين يدي الله والطلب اليه بجاههم أن يعفو عن الذنب فيخاطب المذنب الشفيع قائلاً: يا فلان إنا توجهنا واستشفعنا بك إلى الله في قضاء حوائجنا وغفران ذنوبنا، يا وجيها عند الله اشفع لنا عند الله.

إن الظاهر من الروايات كقوله صلى الله عليه وسلم ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من امتي هي امتلاك مقام معنوي رفيع ومحاولة امتنان على اهل الكبائر بطلب العفو لهم من الله.

وعليه فلن نلجأ إلى هذا الجواب إلا إذا لم نستطع الإجابة على الاشكالات بغيره مما يوافق الظاهر القرآني والروائي الشريف.

ويمكن أن يقال إن الشفاعة تبدأ بطلب من العبد وتوكل من الشفيع تنتهي إلى استجابة الله لدعاء الشفيع والعفو عن العبد المذنب.

فإن الاستشفاع وسيلة مؤثرة تماما كالدعاء ففي كل من الاستشفاع الدعاء فوائد ذاتية

تؤثر في استحقاق العبد للمغفرة وإلا فلماذا الدعاء وهو من ضروريات الإسلام؟ اليس الله يعلم حاجة العبد فلماذا يرغبه في الدعاء؟ اليس ذلك لأن في الدعاء نفسه الأثر التربوي النفسي مما يساعد على تهيئة إلا رضية الصحيحة للمغفرة؟

ومثل هذه الشفاعة لا يرد عليها إشكال - كما بينه بعض الأساتذة - فليس التوسيط لدى الله وطلب العفو منه وتقديم مقام الشفيح المعنوي بين يديه شركاً أو خروجاً على التوحيد في العبادة. كما أنها لا تعني أن الشفيح أوسع رحمة من الله، بل أن الشفيح يتدخل رجاء استحقاق هذا المذنب المتوسل لأجله العفو بعد أن تتأثر إحساساته بتوسلات المذنب واصراره على الإعتذار، ولا مانع من ذلك، وليس هذا يعني أعمال الأحاسيس فيما لا ينبغي، وإنما هو توسل إلى الله للعفو، مما يساعد على تهيئة القابلية له.

ثم أن هذه الشفاعة لا تبعث على (الجرأة على القانون) بعد إن كانت شروط قبولها كلها واحتواء الشفاعة على هذه الشروط غير واضحة مما يحذر الإنسان من الوقوع في المعصية. على أن قبول المولى لشفاعة الشفيح ليس يعني وقوعاً تحت تأثيره الألباء هذا الاشكال في الدعاء من الشخص نفسه وتضرعه خيفه رجاء، وإنما يعني ذلك في الشفاعة - نوع جزاء للشفيح على أعماله الحسنة.

أما إشكال التفرقة فيقال فيه:

**أولاً:** ما الإشكال في حدود تفرقة في الاحسان طبق موازين معينة؟

**ثانياً:** بأنه يمكن أن تشمل الشفاعة كل من يستحقها فلا يكون هناك أي تفرق.

أما التوسل بالشفيح فهو لتحقق الأهلية للشفاعة في الشفيح، وأما الإشكال السادس حول إمكانية تدخل الشفاعة في تقليل استحقاق العقاب فيجاب عليه: باننا قلنا سابقاً إن المعصية توجد مقتضى العقاب الذي يوثر لو لم يوجد مانع من تأثيره خصوصاً وأن المولى قد وعد اداعي للكذب.

أما وقد جاءت الشفاعة فإنها تؤثر في رفع قبح التخلف عن الوعد أو أنها تؤثر ولا موضوع للتخلف بعد أن أخبر المولى بالشفاعة مسبقاً.

وهكذا يحسن تلبية شفاعة الشفيح فيشكل مانعاً عن العقاب.

### موقف القرآن من الشفاعة

يبقى لدينا أن نلاحظ موقف القرآن الكريم من الشفاعة وهل نفاها بشكل صريح أو وضع مبدأ ينافيها، أم لا..؟

أما إن الشفاعة تنافي المبدأ القرآني القائل بأنه (ليس للإنسان إلا ما سعى) فهو أمر غير وارد قطعاً بعد أن عرفنا أن الشفاعة تشكل مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهية ولاريب في أن الرحمة الإلهية تعني مضاعفة الأجر أو العفو عن عقاب، وبالتالي تعني مضاعفة الثواب وإضافة الأجر، والآية إنما تقرر أن الأجر لا يعطى للإنسان إلا على أساس سعي واستعداد، الشفاعة نفسها لا تتم - كما قلنا - إلا على هذا الأساس.

وأما الموقف القرآني من الشفاعة نفسها فإن الملاحظ لأول وهلة أن هناك آيات تنفي وقوع الشفاعة مطلقاً يوم القيامة كما في قوله تعالى ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا حُلَّةً وَلَا شَفَاعَةً﴾<sup>١</sup> أو نفي منفعتها كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وقد اجاب عنها العلامة الطباطبائي بقوله:

والجواب: أما عن الآيات النافية للشفاعة فقد عرفت أنها لا تنفي مطلق الشفاعة بل الشفاعة بغير إذن الله وارتضائه، وأما عن الآيات النافية لمنفعة الشفاعة - على زعم المستشكل - فإنها تثبت الشفاعة ولا تنفيها فإن الآيات واقعة في سورة المدثر وإنما تنفي الإنتفاع بها عن طائفة خاصة من المجرمين لاعتن جميعهم،

ومع ذلك فالشفاعة مضافة لا مجردة مقطوعة عن الإضافة. ففرق بين أن يقول القائل: فلا تنفعهم الشفاعة وبين أن يقول: فلا تنفعهم شفاعة الشافعين فإن المصدر المضاف يشعر بوقوع الفعل في الخارج بخلاف المقطوع عن الإضافة، نصَّ عليه الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز. فقوله: شفاعة الشافعين يدل على أن شفاعة ما ستقع، غير أن هؤلاء لا ينتفعون بها، على أن الإتيان بصيغة الجمع في الشافعين يدل على ذلك أيضاً كقوله: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

١. البقرة: ٣٥٤.

٢. المدثر: ٤٨.



وهناك آيات تؤكد مسألة الشفاعة كما مر من قبل. وقد رأينا أن العلامة الطباطبائي يجمع بين المجموعتين على أساس أن الآيات النافية للشفاعة تنفي الشفاعة بدون إذن الله في حين أن المثبتة لها تثبتها بإذن الله ورضاه.

والذي يبدو أن الآيات النافية للشفاعة - لاتقبل التخصيص - فهي تنفيها مطلقا ولذا فهذا الجمع خلاف الظاهر.

وإنما الذي يظهر هو أن المراد بالشفاعة المنفية هي نفوذ الشفاعة تأثيرها بلا أن تنتسب إلى الله تعالى ومن الواضح أن الشفاعة التي تعطي مفهوم الإعانة لقيمة لها ما لم تستند إلى الله تعالى، فالإعانة الحقيقية لله الله الشفاعة أما الشفاعة التي اثبتت فهي تلك المسندة إليه تعالى أي التي شكلت استدعاء من قبل الشفيع واستجابة من قبل الله تعالى.

### القضاء والقدر والجبر والاختيار

وختاما لمبحث العدل الإلهي نجد لزاما علينا أن نعطي صورة موجزة عن هذا المبحث العقائدي موضحين شيئا من تاريخه ومستعرضين بعض التصورات الخاطئة التي أوجت بكثير من النتائج السلبية.

ولما كان البحث عن القضاء والقدر الإلهيين يكتسب أهميته العملية الهامة من زاوية ادائه إلى حسم الموقف في مسألة (الجبر والإختيار الإنسانيين) فقد آثرنا البحث عن المسألة الأولى أولاً ومن ثم إعطاء التصور الإسلامي الصحيح في مجال المسألة الثانية.

### النقطة الأولى: لمحة تاريخية

أوجد القرآن الكريم في الأمة الإسلامية نهضة فكرية جلييلة وذلك لما:  
أ- طرح أمام الفكر الإنساني المسألة الواقعية بصورتها الإلهية التي تعني ربط الكون بكل ما فيه بالخالق العظيم المجرد من كل خصائص المادة بأعلى درجات التجريد والمتصف بكل صفات الكمال.

ب- وكون المفهوم الترابطي الدقيق عن النظام الكوني المتفاعل بكل جنباته وأصعدته بما فيها الإنسان وتاريخه وأهدافه.

ج - وربّي العقل والبرهان العقلي الدقيق وعلم الإنسان أساليب التفكير الصحيح واتباع المنهج المنطقي السليم ليكون أقدر على درك المسألة الواقعية وتحمل مسؤوليته في الحياة.

د - وفتح أمامه صفحة التشريع الإلهي الدقيق للحياة والذي يضمن له النمو الفكري والحضاري المتواصل.

الى غير ذلك مما أنتج نتاجا حضاريا ساميا سبق كل المقابيس المتصورة لأية نهضة فكرية. ولذا كان من الطبيعي أن يتعمق الفكر الذي يؤطره القرآن ويهديه، ولكنه كان يحتاج إلى ولادة ونمو ورعاية على يد القادة المعصومين لثلايفلت زمامه وتكبوه حادثه فيتهافت على موائد الفكر المسبق والذي اقيم على قواعد لايقبل الإسلام كثيرا منها لعدم واقعيتها.

ولو تسنى للإسلام أن يطبق خطته المفروضة في تسليم القيادة السياسية والفكرية للقادة من أهل البيت عليهم السلام المؤهلين لكان من الطبيعي أن لايقع المسلمون عبر نهضتهم الفكرية في منعرجات ملتوية أو وهادات لاخلاص منها. وكان لها الأثر العميق في تاريخ الحضارة التي صنعها المسلمون.

وتعتبر هذه المسألة التي نتحدث عنها هنا من اولى المسائل الفكرية التي طرحت في الفكر الإنساني في جو قيادي منحرف استغلها لصالح انحرافه السياسي فعمق سوء فهمها وترك وبال ذلك للأجيال.

وعلى أي حال فقد كان الفهم النقي للمسلمين الأوائل واضحا إلى حد كبير بفضل تعليمات النبي الكريم حول التصور الإسلامي عن القضاء والقدر، حيث سئل صلى الله عليه وآله عن الأحراز المتداولة لأجل الشفاء (وأضاف الغزالي أن السؤال كان عن الحرز والدواء) وهل تستطيع أن توقف مسير القدر؟ فأجاب صلى الله عليه وآله (انها من قدر الله) <sup>١</sup>.

وقد نقل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إنه مرَّ تحت حائط آيل فقام انتقل إلى حائط آخر فقيل له: يا أمير المؤمنين أتفر من قضاء الله؟ فقال عليه السلام أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل <sup>٢</sup>.

١. قرب الاسناد للحميري، ص ٩٥، الوسائل، ج ٢، ص ٤٢٥، البحار، ج ٥، ص ٨٧ ومثله في مسند احمد، ج

٣، ص ٤٢١، ومستدرک الحاكم، ج ٤، ص ١٩٩، واسد الغابة، ج ٥، ص ١٨٠.

٢. توحيد الصدوق، ص ٣٦٩، اعتقادات المفيد، ص ٣٥، البحار، ج ٥، ص ٩٧، ومثله في مفردات غريب

وهناك نصوص أخرى توضح جدا وجود تصور صحيح للمسلمين عن القضاء والقدر وبما يعدهما عن الجبر وفقد أن الإنسان لحيته واراوته.

ولكن انحراف الفهم وتصور وجود نوع من التعارض والتنافي أدى إلى وجود مسلكين بين المسلمين أحدهما المسلك الجبري والآخر المسلك القائل بحرية الإنسان وقد سمّي أتباعه بـ(القدرية) ثم اندمج المسلكان في فرقتي الأشاعرة والمعتزلة بعد ذلك، فأيد الأشاعرة مبدأ الجبر، والمعتزلة مبدأ (القدر)، وراح كل من الطرفين يؤكد على مبدئه مستدلاً عليه بالآيات القرآنية والاحاديث الشريفة وربما العقل.

وسنعرف في ما يأتي إن شاء الله أن مبدأ (القضاء والقدر) الشامل أمر إسلامي أصيل في نفس الوقت الذي يعتبر فيه (مبدأ الإرادة الإنسانية الحرة) مبدأ أصيلاً أيضاً. وأن سر الغلط يكمن في التصور المغلوط للقضاء والقدر الأمر الذي أدى في النهاية إلى اعتقاد التنافي بينهما.

وخير شاهد من الطبيعة الإنسانية نسوقه هنا ونكتفي به، هو ذلك الفهم الطبيعي الساذج لمسألة القدر في صدر الإسلام والإنسجام الكامل بين هذا الفهم واعتقاد مسؤولية الإنسان عن أعماله، الذي يستبطن - قبل أي شيء - الاعتقاد بحرية الإرادة الإنسانية، حتى كان المسلم يجد أن كل ما يفعل بمأثراته ما هو إلا تطبيق لمبدأ (القضاء) والقدر الإلهي لاغير.

ولكن ما إن ثارت الشبه حتى تواردت الاشكالات، الأمر الذي دعا اهل البيت عليهم السلام للقيام بتوعية فكرية عامة سوف نتعرض إليها إن شاء الله ولكننا نكتفي هنا بذكر رواية عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث جاءه شيخ فجئى بين يديه - بعد أن رجع من صفين وقال له:

يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله قدر؟

فقال الإمام عليه السلام: اجل يا شيخ، ما علوتم من تلعة ولاهبطتم من واد الا بقضاء من الله وقدر. فرد الشيخ بقوله: عند الله احتسب عنائي، يا أمير المؤمنين فقال الإمام ٧- مه يا شيخ فو الله لقد عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وانتم مقيمون، وفي منصرفكم وانتم منصرفون، ولم تكونوا في شئ من حالاتكم مكرهين ولا اليه مضطرين.

فقال الشيخ: كيف لم تكن في شئ من حالاتنا مكرهين ولا اليه مضطرين، وكان  
بد(القضاء والقدر) مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أو تظن: أنه كان قضاء حتما وقدرا لازما؟ أنه لو كان كذلك  
لبطل (الثواب والعقاب) والأمر والنهي والزجر من الله، وسقط معنى (الوعد والوعيد) ولم  
تكن لائمة للمذنب ولا محمداً للمحسن، لكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان  
المحسن أولى بالعقوبة من المذنب.

تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرحمان، وحزب الشيطان(قدرية) هذه الأمة  
ومجوسها، أن الله كلف تخييراً ونبي تحذيراً أعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع  
مكرها ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين  
مبشرين ومنذرين عبثاً، وذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار

### النقطة الثانية: أهمية المسألة عقائدياً واجتماعياً

تمتلك هذه المسألة أهميته خاصة نظراً لكونها مسألة مطروحة لدى الجميع حتى بسطاء  
الناس، فكل إنسان يريد التعرف على مركزه في الحياة ودوره وأصالته فيها، وهل يستطيع أن  
يصنع مستقبله أم هو إنسان محكوم لا بد له أن يطوي سبيلاً معيناً لا غير.  
كما أن قسماً كبيراً من أهميتها نابع من مساقطها وآثارها العملية الواسعة، حيث أنها  
تشكل - كما مر - الأساس الذي يؤدي على اختلاف النظر فيه - إلى الجبر والتفويض  
الإنسانيين بما في كل منهما من خصائص وتأثيرات على سلوك الإنسان.  
فمن الآثار السيئة المترتبة على الإعتقاد بالتفويض أن يعتقد المرء بفقدان الإشراف  
الإلهي، بل بالمحدودية في القدرة الإلهية في قبال الإرادة الإنسانية، وهذا - بالإضافة إلى  
آثاره السلبية التي تدع الإنسان يتصور لنفسه ما ليس له خلافاً لمقتضيات العقل البشري  
الحاكم بسعه القدرة الإلهية فيتكبر ويتجبر - منافٍ لمحكومة الإنسان لله تعالى.

١. نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٦٢، عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٢٧، الارشاد للمفيد، ج ١، ص ٢٢٥، التوحيد  
لصدوق، ص ٣٨٠، ومثله مافي كنز العمال، ج ١، ص ٣٤٤، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٥١١.

في حين يمكن أن يعدّ الاعتقاد بالجبرية وتحكّم القوى الغيبية في سلوك الإنسان دون أن يملك بإزائها أية أصالة، يؤدي إلى كثير من النتائج السلبية، ومنها مثلاً: فقدان المسؤولية الأخلاقية وتحول المجتمع الإنساني إلى مجرد آلات تعمل ما هو مخطط لها من قبل دون أن تملك أي مقاومة، والفرق بينها وبين الآلات الميكانيكية الصامتة أن هذه الآلات لا تشعر بما تقوم به بينما يحسّ أفراد الإنسانية بما يقومون به ولكنهم يعيشون مرارة الإستسلام المطلق.

وبعد فقدان المسؤولية نجد أن أصل التشريع للبشرية والدعوة إلى الصراط الخير والإعتقاد بالإنسانية المتكاملة كلها تصبح أموراً لا معنى لها في عالم جبري محتوم. نعم أن الجبرية تُفقد الإنسان أهم خصيصة إنسانية وهي الإرادة الحرة في كثير من مجالات الحياة وهكذا يشكّل الاعتقاد بالجبر اشكالاً واسعاً على مسألة العدل الإلهي ومعنى العقاب والثواب ومدى فائدة التشريع، بالتالي تفقد هذه التصورات محتوياتها مطلقاً. والواقع:

إن تحكيم الوجدان بعد تطهيره من الشبه يؤدي إلى رفض كلا التصورين والإعتقاد الإجمالي بنوع من التوافق والإنسجام بين العقيدتين (القضاء والحرية) وهذا الشعور هو رصيد الإسلام الأصيل في تحريك النفوس وإبلاغها الواقع النقي وتحويله في مشاعرهما إلى إيجابية محرّكة.

هذا وقد استغلت الطبقة الحاكمة المعتدية الاعتقاد بالجبر لتحكم قواعدها الظالمة وتبرر إجرامها واستغلالها وتضرب كل شوق للتغيير واصمة إياه بتهمة الوقوف في وجه قضاء الله وقدره.

فهي إذن - بهذا الاعتقاد - معذورة في ما تقوم به من جهة، ومن جهة أخرى ليس للشعب أن يثور في وجهها لأن ذلك يعتبر وقوفاً بوجه القدر.

وهذا ما يفسر لنا تبني بني أمية لفكرة الجبر واحتضانها وضرب فكرة (القدرية) واعداد زعمائها. فقد سأل معبد الجهني شيخه الحسن البصري عن تمسك بني أمية بـ(القضاء والقدر كثيراً فأجابته بقوله: «هؤلاء أعداء الله يكذبون على الله.»<sup>١</sup>.

١. تاريخ مصر للمقريزي، ص ٣٥٢.

وكثرت شكوى الناس من قلة الأرزاق فواجههم معاوية وهو يتلو هذه الآية «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم».

فقام اليه الأحنف بن قيس وقال: «ان الله قسم رزقه بين عباده بالعدل، ولكنكم حلتم بينهم وبين أرزاقهم»<sup>١</sup>.

وحدثنا ابن أبي الحديد عن أن معاوية كان يتظاهر بالجبر والإرجاء ان المعتزلة كفروه لذلك<sup>٢</sup>. وهذا الأخطل يصف معاوية فيقول:

و عن امرئ لا تعد فينا نوافله      أظفره الله فليهنأ له الظفر

و عن بني امية يقول:

نمت جدودهم والله فضلهم      وجد قوم سواهم خامل نكد

هم الذين أجاب الله دعوتهم      لما تلاقت نواصي الخيل واجتلدوا

و يوم صفين والابصار خاشعة      امدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ويقول مسكين الدارمي في شأن عقد الولاية ليزيد:

بني خلفاء الله مهلاً فإنما      يبوئها الرحمان حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلاه ربه      فإن أمير المؤمنين يزيد<sup>٣</sup>

### النقطة الثالثة: معنى القضاء والقدر:

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً، وكل واحد منهما على وجهين: إلهي وبشري. فمن القول الإلهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾<sup>٤</sup>... ومن الفعل الإلهي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا

١. البراهين، ص ٤٢.

٢. شرح نهج البلاغه، ج ١، ص ٣٤٠.

٣. راجع: ثورة الحسين للمرحوم شمس الدين، ص ١١٤ - ١٢٢.

٤. الاسراء: ٢٣.

يَقْضُونَ بِشَيْءٍ<sup>١</sup> وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾<sup>٢</sup>... ومن القول البشري نحو  
قضى الحكام بكذا، فإن حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفعل البشري (فاذا قضيتم  
مناسككم... والقضاء من الله تعالى أخص من القدر لأنه الفصل بين التقدير والقدر هو  
التقدير والقضاء هو الفصل والقطع...<sup>٣</sup>

ويقول: فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة. الثاني: بأن يجعلها على  
مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة...<sup>٤</sup>

والنتيجة من هذين النصين الذين يساعدهما التبع في القرآن الكريم السنة الشريفة: أن:

القضاء: هو القول أو الفعل المحكم القاطع.

والقدر: هو المقدار والحد الطبيعي لوجود الأشياء وتركيبها وعلاقتها، كما جاء في  
الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام قال: (أتعلم ما القدر؟ قلت: لا، فقال عليه السلام هي الهندسة ووضع  
الحدود في البقاء والفناء.<sup>٥</sup>

وقد ذكرت للقضاء والقدر أو الإبرام والتقدير معاني<sup>٦</sup> منها:

أولاً: إن المراد منه ما وقع عليه الإبرام والتقدير الإلهي من السنن الكونية العامة الشاملة  
للأمور المحسوسة، كقانون الجاذبية والطررد عن المركز والدواء والشفاء وأمثالها، والروابط  
الخفية بين المحسوسات كالرابطة بين الدعاء والمطر، والظلم والهلاك والإلتزام بالإيمان  
والنصر أمثالها.

فالتقدير: هو تفصيلات القانون وظروفه ونتائجه والقضاء هو ابرامه ثبوته وعمومه.

ويناسب هذا المعنى ما جاء في الرواية من أن أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل

١. غافر: ٢٠.

٢. فصلت: ١٢.

٣. المفردات، ص ٤٠٦-٤٠٧.

٤. المفردات، ص ٣٩٥.

٥. اصول الكافي، ج ١، ص ١٥٨، مسند الرضا، ج ١، ص ٣٦.

٦. ذكرت في بعض الكتب مثل الانسان والقدر للاستاذ المطهرى، و(القضاء والقدر) للشيخ السبحاني.

مشرف على السقوط إلى حائط آخر فقيل له: يا أمير المؤمنين: أتفر من (قضاء الله)؟ فقال عليه السلام: «أفر من قضاء الله إلى قدر الله»<sup>١</sup>.

وكذلك ما جاء حول الرابطة الطبيعية القوية بين أعمال الإنسان استحقاق الجزاء، حيث سئل الإمام الرضا عليه السلام: عن (قضاء الله قدره) في أفعال العباد) فقال: الحكم عليهم بما يستحقونه من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة<sup>٢</sup>.

**ثانياً: إن المراد منه الشريعة الإسلامية أو مطلق التشريعات الإلهية، لأنها مقدره بقدر دقيق منسجم مع الواقع الإنساني ومتطلبات العدالة لأنها لا تقبل النقص والخطأ.**  
ولعل هذا التفسير من باب التفسير بالمصداق، حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام في الرواية الماضية: هو الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية والتمكين في فعل الحسنة وترك السيئة.. وكل ذلك: «قضاء في أفعالنا وقدر لأعمالنا»<sup>٣</sup>.

**ثالثاً: هو قانون العلية والترابط الصارم العام الذي يتم ضمن شروط ظروف محدودة ومقدرة. وهو أمر فطري وجداني.**

**رابعاً: إن التقدير إرادة الهية والقضاء قاطعيتها.**

**خامساً: إن التقدير هو العلم الدقيق الإلهي الذي لا يتخلف.**

### **النقطة الرابعة: هل تؤدي هذه المعاني إلى الجبر؟**

إن التأمل الدقيق في المعاني المذكورة للقضاء والقدر يوصلنا إلى عدم وجود أي تناقض بين الاعتقاد بها والاعتقاد بحرية الإنسان وإرادته المتحررة من الضغط.

**أما على المعنى الأول:** فواضح، لأنه صحيح، أن بعض القوانين التكوينية والوضعية تؤثر أثرها، أراد الإنسان أم لم يرد، ولذا فليس هو بمسؤول مطلقاً عن أية نتائج مترتبة عليها إذا لم يكن يملك أي منفذ للإرادة ولكن الكثير منها قوانين يمتلك إرادته أن يجعل من نفسه

١. توحيد الصدوق، ص ٣٦٩، راجع: ص ٢٠٩.

٢. عيون اخبار الرضا، ج ١، ص ٧٨.

٣. بحار الانوار، ج ٥، ص ١٢٦، الاحتجاج، ج ١، ص ٣١١، ارشاد المفيد، ج ١، ص ٢٢٦.



موضوعا لها... ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾<sup>١</sup> ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾<sup>٢</sup> ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾<sup>٣</sup> ﴿أَمْرًا مُّزْفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾<sup>٤</sup> ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>٥</sup> ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>٦</sup> ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا \* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾<sup>٧</sup> ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾<sup>٨</sup> ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>٩</sup>.

ومن الرائع أن نعلم أن الاستحكام والإبرام وجريان الأمور بأسبابها يفسح ميدان الأمل الدافع للعمل الحر والاطمئنان للنتيجة وبدون ذلك فالخمول والكسل وعدم التعويل على الإرادة الحرة وانتظار المصير المجهول.

واما على المعنى الثاني: فواضح جدا إذ التشريع يستهدف بناء الإنسانية التي سارت بارادتها في طريق التكامل وما هو إلا هدىً ووعيترهيب من الانحراف.

واما على المعنى الثالث: فسنين أن الإرادة الإنسانية بحقيقتها لا تحتاج إلا إلى موجد ومبق ويمكنها أن تتجه الوجهة التي تشاء دون أن تتأثر في اتجاهها بأي عامل آخر، ولادليل مطلقا على شمول قانون العلية لحالة اتجاهها بل الوجدان شهد بالعدم.

واما على المعنى الرابع: أي أن كل الموجودات الكونية لا يمكنها أن توجد أو تؤثر إلا في

١. الانسان: ٣.

٢. البلد: ١٠.

٣. الكهف: ٥٩.

٤. الاسراء: ١٦.

٥. الرعد: ١١.

٦. الانفال: ٥٣.

٧. نوح: ١٠-١١.

٨. البقرة: ٤٠.

٩. العنكبوت: ٦٩.

إطار الإرادة الإلهية لأتتها وجودات تعلقة حقيقتها بالإرتباط والتعلق، ولا يمكن أن تحصل إلا بوجود المتعلق الغني المطلق هو الله تعالى الذي يقوم الكون كله باسمه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾<sup>١</sup> ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup> (الأعراف: ٥٨). وفي هذا المعنى يتعقد الأمر قليلاً وتتضارب الآراء وتتعدد الحلول

### الحل الأول للمشكلة: هو أن يقال:

إن لكل حادثة من حوادث الحياة علة طبيعية هي السبب في حدوثها يترابط نظام الأسباب والمسببات ويوجد في هذا النظام نوعان من العلل: (العلل المضطربة) كضروة الشمس وغروبها و(العلل المختارة) وهي شاعرة مريدة مختارة. وفي مورد العلل المختارة نقول: إن ارادة الله تعلقت بوجود معلولاتها عن اختيار، وبهذا فإن فرض الصدور الجبري ينافي الاختيار.

ويمكن أن يقال في قبال هذا الحل: إن كان يقصد أن ارادة الله تعلقت بصدور أفعال الإنسان عن شعور منه بأنه مختار سواء كان في الواقع مجبوراً أم لا، فهذا لا يحل المشكلة لا يفرض المسؤولية.

وإن قصد الاختيار الواقعي الثبوتي للإنسان فإنه لا يحل المشكلة، إذ صحيح أن ارادة الله تعلقت بصدور العمل اختياراً ولكن كيف يتم هذا التصور مع محكومة الإرادة الإنسانية لقانون العلية العام وتأثرها الحتمي بعللها، ومعها كيف يمكن أن نتصور أنها حرة؟ وبتعبير آخر إن تعلق الإرادة الإلهية بقوانين العلية العامة يبدو بينه وبين تعلق الإرادة بصدور الفعل عن اختيار نوع من التنافي ولا يمكن لهذا الحل أن يرفعه.

### الحل الثاني:

إن الإرادة الإنسانية خارجة عن إطار قانون العلية العامة بالوجدان لما كانت ممكنة فهي في وجودها محتاجة إلى خلق الهى ولكنه حل ناقص.

١. البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ٢٠.

٢. الأعراف: ٥٨.

لان تأثيرها في التحريك أيضاً أثر ممكن يحتاج إلى جعل الهي .

### الحل الصحيح:

إن قانون العلية عام بلاريب ولكنه يتخلف بشهادة الوجدان في الإرادة الإنسانية فإن كل ما يتصور وما يقال من علل للارادة الإنسانية مثل (الغرائز والميول الشديدة) كل ذلك يمكننا أن نتصور تحققه في النفس الإنسانية ونتصور معه بقاء الإرادة الإنسانية حرة صامدة امامها، وعليه فإن الروح الإنسانية يمكنها أن تريد بدون أن تقع تحت أي تأثير من عامل آخر . ويمكن تنبيه الوجدان إلى هذه الحقيقة بالاشارة إلى تعلق الشوق الأكيد أحيانا بالأمر المستحيلة مع عدم وجود إرادة لها مطلقا .

وإنما يؤثر الشوق أثره إذا غفل الإنسان عن نفسه .

أو يساعد على الترجيح في ما إذا واجه الإنسان سبيلين أمامه يؤديان إلى مقصوده وربما لم يكن للترجيح أي باعث إلا الوصول إلى المقصود كما يشهد الوجدان أيضاً .

فإذا كانت الإرادة الإنسانية متحررة عن قانون العلية، قلنا إن الإرادة - حدوثا وبقاءً وبالضمن امكانها للتأثير - كلها أمور ممكنة تحتاج لجعل تكويني إلهي، وقد شاءت ارادة الله أن توجد الإرادة في الإنسان في كثير من المجالات التكاملية وتدوم وتؤثر في التحريك والدفع وصوغ السلوك الإنساني .

ومن هنا يتبين لنا معنى (الأمريين الأمرين) الذي أفهمه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وأن الإرادة من جهة مخلوقة محتاجة لإذن الله و ارادته حدوثا وبقاءً وتأثيرا فلن تؤثر الا بذنه تعالى .

وهي من جهة أخرى عملية حرة للنفس الإنسانية مما يجعلها مسؤولة عن نتائجها . وهذا يمكننا أن ننسب العمل إلى الإنسان باعتبار نشوئه من ارادته والى الله تعالى باعتبار إذنه باستمرار الإرادة وتأثيرها .

ويقرب آية الله الخوئي مسألة الأمر بين الأمرين بضرب المثال التالي:

لفرض إنسانا كانت يده شلاء لا يستطيع تحريكها بنفسه، وقد استطاع الطبيب أن يوجد فيها حركة إرادية وقتية بواسطة قوة الكهرباء، بحيث اصبح الرجل يستطيع تحريك يده

بنفسه متى وصلها الطبيب بسلك الكهرباء، وإذا انفصلت عن مصدر القوة لم يمكنه تحريكها أصلاً، فإذا أوصل الطبيب هذه اليد المريضة بالسلك للتجربة مثلاً، وابتدأ ذلك الرجل المريض بتحريك يده ومباشرة الأعمال بها، والطبيب يمدده بالقوة في كل آن - فلا شبهة في أن تحريك الرجل ليده في هذه الحال من (الأمر بين الأمرين)، فلا يستند إلى الرجل مستقلاً لأنه موقوف على إيصال القوة إلى يده، وقد فرضنا أنها بفعل الطبيب، ولا يستند إلى الطبيب مستقلاً، لأن التحريك قد أصدره الرجل بإرادته، فالفاعل لم يجبر على فعله لأنه مريد، ولم يفوض إليه الفعل بجميع مبادئه، لأن المدد من غيره، والأفعال الصادرة من الفاعلين المختارين كلها من هذا النوع (البيان في تفسير القرآن ص ٦٥).

### بعض الآيات حول الموضوع

وإذا جمعنا بين مجموعتي الآيات التي نتحدث عن هذا الموضوع توصلنا لنا هذه الحقيقة.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾<sup>٢</sup>.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾<sup>٣</sup> ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>٤</sup>.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْئِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>٥</sup>.

١. آل عمران: ١٥٤.

٢. الحجر: ٢١.

٣. الطلاق: ٣.

٤. إبراهيم: ٤.

٥. آل عمران: ٢١.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ  
 بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾<sup>٢</sup>.  
 ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾<sup>٣</sup> ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ  
 نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾<sup>٤</sup>.

### بعض الروايات في الموضوع

ذكرنا من قبل بعض الروايات، وها نحن نضيف إليها الروايات الشريفة التالية:  
 فقد جاء في تحف العقول أن رجلاً اسمه عباية سأل الإمام أمير المؤمنين عن الاستطاعة  
 التي بها يقوم ويقعد ويفعل؟ وهل أن الإنسان يملك الإستطاعة والقدرة على أعماله؟ وإذا  
 كان الأمر كذلك، فكيف يتدخل في عمل يعمله الإنسان بقدرته واستطاعته؟ فقال له الإمام  
 أمير المؤمنين عليه السلام: إنك سألت عن الاستطاعة، فهل تملكها من دون الله أو مع الله؟  
 فسكت عباية، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:  
 قل يا عباية، قال: وما أقول؟ قال عليه السلام: إن قلت: إنك تملكها مع الله قتلتك. وإن قلت:  
 تملكها دون الله قتلتك قال عباية: فما أقول يا أمير المؤمنين؟  
 قال: تقول انك تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن يملكها اياك كان ذلك من  
 عطائه، وأن يسلبكها كان ذلك من بلائه، وهو المالك لما ملكك والقادر ما عليه أقدرك.<sup>٥</sup>  
 وسأل رجل الصادق عليه السلام، فقال:  
 قلت: أجبر الله العباد على المعاصي؟ قال: لا قلت: ففوض الأمر اليهم؟ قال: لا،

١. الرعد: ١١.

٢. النحل: ١١٢.

٣. الروم: ٤١.

٤. الشورى: ٢٠.

٥. تحف العقول، ص ٣٤٥، البحار، ج ٥، ص ٧٥، كنز العمال، ج ١، ص ٢٤٩.

قال: قلت فماذا؟ قال: لطف من ربك بين ذلك.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: لا جبر ولا قدر، ولكن منزلة بينهما<sup>١</sup>.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام حين أتاه نجدة يسأل عن معرفة الله، قال:

يا أمير المؤمنين بماذا عرفت ربك؟ قال عليه السلام، بالتمييز الذي حَوَّلني والعقل الذي دلني، قال: أفمجبول أنت عليه؟ قال: لو كنت مجبولاً ما كنت محموداً على إحسان ولا مذموماً على إساءة وكان المحسن أولى باللائمة من المسيء فعلمت أن الله قائم باق ومادونه حدث حائل زائل، وليس القديم الباقي كالحادث الزائل قال نجدة: أجدك أصبحت حكيمياً يا أمير المؤمنين، قال: أصبحت مخيراً فإن أتيت السيئة بمكان الحسنة فأنا المعاقب عليها<sup>٢</sup>.

سئل الصادق عليه السلام هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال عليه السلام هو اعدل من ذلك فقليل

له: فهل فوض اليهم؟ فقال عليه السلام هو أعز واقهر لهم من ذلك<sup>٣</sup>.

وروي عن الصادق عليه السلام قوله:

الناس في القدر على ثلاثة أوجه: رجل يزعم أن الأمر مفوض اليه، فقد أوهن الله في سلطانه، فهو هالك، ورجل يزعم أن الله جل وعز أجبر العباد على المعاصي وكلفهم ما لا يطيقون، فقد ظلم الله في حكمه، فهو هالك: رجل يزعم أن الله كلف العباد ما يطيقون ولم يكلفهم ما لا يطيقون، فاذا احسن حمد الله واذا اساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ<sup>٤</sup>.

والأخبار في هذا المجال كثيرة، ونحن نعتقد أنه لو لا أهل البيت عليهم السلام لانجرت الأمة إلى منعطفات خطيرة، وربما كانت تفقد جل عقيدتها ونظمها الإسلامية.

هذا كله بالنسبة للمعنى الرابع للتقدير، أما المعنى الخامس المرتبط بالعلم الإلهي الأزلي. فيمكن أن يقال فيه: إن العلم الإلهي تعلق بوقوع الفعل من العبد على نحو الاختيار

١. البيان ص ٣٤٦، الكافي ج ١ ص ١٥٩، الفصول المهمة، ج ١ ص ٢٣٦.

٢. تحف العقول، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

٣. تحف العقول، ص ٣٤٥ - ٣٤٦، الكافي، ج ١، ص ١٥٩، تاريخ دمشق، ج ٥١، ص ١٨٢، الفصول المهمة للحر العاملي، ج ١، ص ٢٣٦، ومثله في لسان الميزان لابن حجر، ج ٤، ص ٤٤٧.

٤. تحف العقول، ص ٣٧١، البحار، ج ٧٥، ص ٢٥٥.

الكامل وهذا لا يؤدي مطلقاً إلى الجبر، وإلا لأدى إلى تخلف ما تعلق به العلم الإلهي نفسه. وما يوجبه العلم الإلهي الأزلي هو صدور أثر الفاعل الطبيعي من الفاعل الطبيعي، وأثر الفاعل الشعوري من الفاعل الشعوري، وأثر الفاعل المجبور من الفاعل المجبور، وأثر الفاعل المختار من الفاعل المختار، لا يقتضي العلم الإلهي أن يصدر أثر الفاعل المختار من ذلك الفاعل قهراً وجبراً<sup>١</sup>.

### النقطة الخامسة: القدر الحتمي وغير الحتمي

جاء في بعض الروايات - وأشارت الآيات إلى - وجود قدر محتوم آخر غير محتوم. فكيف يمكن تصوير عدم الحتمية في القضاء والقدر مع وجود قانون العلية العام الذي لا يتخلف؟

### تفاسير للقدر غير المحتوم

ذكرت للقدر غير المحتوم تفاسير كما يلي:

**الأول** القدر الطبيعي أي المسير الطبيعي المفروض للموجود كالمسير الطبيعي لبذرة شجرة التفاح وهو الصيرورة شجرة مورقة وهذا القدر الإقتضائي محتمل التبدل عندما تعرض بعض العوارض فتميت الشجرة. ومن هنا نعرف معنى ما ورد في البحار (ج ٤ ص ١١٦) من أن الدعاء يغير الأجل غير الحتمي دون الحتمي أي يمنع من المسير الطبيعي للعمل. وعليه فالقدر المحتوم هو ما يعلمه الله من المسير والمصير والشروط التي ستحصل. وبتعبير آخر فإن غير المحتوم هو بملاحظة الحادثة بالنسبة إلى جزء علتها والمحتوم هو بملاحظة العلة التامة لها.

١. شرح هذه النظرية سماحة استاذنا العلامة الشهيد المطهري، في كتابه الانسان والقضاء والقدر، وقد هزني هذا اليوم (٥/٢/١٩٩٠) نبأ استشهاده ابان الثورة الاسلامية الطاهرة في ايران.

**الثاني<sup>١</sup>:** إن غير المحتم يعني وجود امكانات عديدة امام الموجود المادى كالشجرة التي تحوى امكانات التكامل والزوال المختلفة.

وكل امكان يشكل نوعا من القضاء والقدر فاذا شرب المريض الدواء فشفي كان ذلك بالقضاء واذا لم يشرب فمات كان ذلك نوعا آخر منه، أي من القضاء.

أما المحتم فهو الإمكان الوحيد المتروك أمام الموجودات المجردة التي ليس لها الانوع خاص من الوجود.

وتدخل أفعال الإنسان في غير المحتم لاحتوائها على كل الإمكانيات الموجودة أمام النبات والحيوان بالإضافة لوجود الإرادة الخلقية وقوة الترجيح عند الإنسان.

**الثالث:** إن غير المحتم هو الظواهر التي يمكن للإنسان أن يغيرها كدناءة الأب التي يمكن أن تؤثر في الطفل ولكنه يمتلك إرادة تغييرها، وذلك، في مقابل ما لا يمكنه تغييره من القوانين، كقوانين الجنون الوراثي.

وهناك تفسيرات أخرى والملاحظ أن التفسير الأول هو الأقرب للظواهر اللفظية.

### الدعاء والقضاء

بعد العرض السابق تبين لنا مفهوم تغيير الدعاء للقضاء، ولتوضيح ذلك أكثر، نقول: إن التصور القرآني عن القوانين التكوينية يعطيها مجالاً أوسع بكثير من المجال المادي الضيق. إن القرآن مثلاً يعتبر هلاك الأمم نتيجة كفرها وظلمها سنة طبيعية كونية وكذلك قانون ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُصَّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ أو ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أو ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كل هذه وغيرها قوانين تكوينية لها أثرها، وكلها تشكل قضاء وقدر لهذا الكون. والدعاء وتأثيره لا يخرج عن هذا الإطار، فاذا كان القدر غير الحتمي مشروطاً بالدعاء الإنساني أو عدم الدعاء، فإن الدعاء حينئذ سيؤثر أثره كتطبيق من جهة للقضاء والقدر، ومنع من جهة أخرى لقضاء وقدرٍ آخر غير حتمي.

١. الانسان والقضاء والقدر للمطهري.



### النقطة السادسة: البداء

وأخيراً لابد لنا من الحديث عن التصور الشيعي الصحيح لهذه المسألة التي جرّها سوء الفهم إلى تصور غير واقعي دعا الكثيرين من أعداء الشيعة لتعيرهم، بل لتكفيرهم، لأنهم يقولون بـ(البداء).

ذكر صاحب الملل والنحل نقلاً عن سليمان بن جرير الزيدي، أنه قال:

إن أئمة الرافضة قد وضعوا مقاليتين لشيعتهم، لا يظهر أحد قط عليهم<sup>١</sup>.

**أحدهما:** القول بالبداء، فإذا أظهروا قولاً: إنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهور ثم لا يكون الأمر على ما أظهره. قالوا: بدا لله تعالى في ذلك.

**والثانية:** التقية. فكل ما أرادوا تكلموا به. فإذا قيل لهم في ذلك أنه ليس بحق وظهر لهم البطلان قالوا: إنها قلناه تقية، وفعلناه تقية<sup>٢</sup>.

ونقل عن الفخر الرازي قوله: قالت الرافضة البداء جائز على الله تعالى وهو أنه يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله تعالى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾<sup>٣</sup> وهذا باطل، لأن علمه من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك، فإن دخول التغيير والتبديل فيه محال<sup>٤</sup>. وهناك تصريحات غيرها.

وكل من انتقد الشيعة على القول بالبداء تصور أن البداء يعني: أن يطلع الله على تجدّد شيء جديد لم يكن قد تنبأ به من قبل، أو حسب له حسابه.

في حين راح يعلل البعض القول بها بتعليلات سخيفة واهية.

استظهار:

والذي يظهر من متابعة الأخبار الواردة عن الأئمة عليهم السلام وأقوال العلماء: إن القول بالبداء

١. أي لا يغلبهم أو يُلزمهم.

٢. ص ١٦٠.

٣. الرعد: ٣٩.

٤. البداء عند الشيعة، ص ٣٣.

ما هو إلا نفس الإيهان بمضمون المقطع القرآني الشريف ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

حيث رأينا من قبل ان: القضاء والقدر الإلهي إما أن يكون محتوما بإرادة الله تعالى فلامرده، واما أن يكون غير محتوم وإنما هو بنحو الإقتضاء، وعندئذ فمن المتوقع أن تتخذ الحوادث مسيرا جديدا خلافا لطبيعة الأمور، بعد أن تستجد أمور أخرى وتتدخل قوانين كونية أخرى - بإذن الله تعالى - فيبدو أمر جديد للقدر الإلهي لم يكن متوقعا من قبل. والملاحظ في النصوص الشريفة أن الإعتقاد بالمحو والإثبات والقول بالبداء كان تأكيدا على نفي العقيدة اليهودية المنحرفة بأن يدالله مغلولة وإثبات أن يديه مبسوطتان ولا يحدمن قدرته شئ.

فاذا كان القدر محتوما فهو بإرادته تعالى.

وإذا كان غير حتمي فهو كذلك، ولن تمر الحوادث بمجرى إلا وهي تطبق قدرا وقضاء وإرادة الهية.

هذا هو ما يفهم من الروايات وما اكدت عليه النصوص الواردة عن أئمة الشيعة واقوال علمائهم، وهو مفهوم أصيل في العقيدة الإسلامية، يعمل على:

- ١- تنزيه الله تعالى من أي نقص في القدرة وابطال سخافات اهل الكتاب.
- ٢- فتح باب الأمل للناس وتفجير طاقات الإبداع ليعملوا بكل جهدهم على تحدي الواقع المنحرف رغم مظاهر والقوة والعزة الظاهرية التي يمتلكها.
- ٣- إعطاء تفسير صحيح لكثير من الأمور التي يظن الناس أنها من الأمور المحتمة ثم ينكشف لديهم عدم ذلك.

### أقوال بعض العلماء في (البداء)

قال الصدوق في كتاب العقائد: باب الاعتقاد في البداء إن اليهود قالوا: إن الله تبارك وتعالى قد فرغ من الأمر، قلنا: بل هو تعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن، يحيي ويميت، ويخلق ويرزق ويفعل ما يشاء، وقلنا يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وأنه لا يمحو إلا ما كان، ولا يثبت إلا ما لم يكن، وهذا ليس ببداء كما قالت اليهود أتباعهم فنسبنا في ذلك إلى

القول بالبداء، وتبعهم على ذلك من خالفنا من أهل الأهواء المختلفة. وقال الصادق عليه السلام: ما بعث الله نبيا قط حتى يأخذ عليه الإقرار لله بالعبودية وخلع الأنداد، وأن الله يؤخر، ويقدم ما يشاء ونسخ الشرايع والأحكام بشريعة نبينا وأحكامه من ذلك، ونسخ الكتب بالقرآن من ذلك، وقال الصادق عليه السلام: من زعم أن الله عزجل بدا في شئ ولم يعلمه أمس فأبرأ منه وقال: من زعم أن الله بدأ له من شئ بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم:

وقال الشيخ الطوسي في العدة: البداء حقيقة في اللغة هو الظهور، لذلك يقال: بدلنا سور المدينة، وبدلنا وجه الرأي، وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾<sup>١</sup> ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾<sup>٢</sup>.

ويراد بذلك كله ظهر وقد يستعمل ذلك في العلم بالشئ بعد أن لم يكن حاصلاً، وكذلك في الظن، فأما إذا أضيفت هذه اللفظة إلى الله تعالى فمنه ما يجوز اطلاقه عليه، ومنه ما لا يجوز، فأما ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه، ويكون اطلاق ذلك عليه على ضرب من التوسع، وعلى هذا الوجه يحتمل جميع ما ورد عن الصادق عليه السلام من الأخبار المتضمنة لإضافة البداء إلى الله تعالى دون ما لا يجوز عليه، من حصول العلم بعد أن لم يكن، ويكون وجه اطلاق ذلك فيه، تعالى، والتشبيه هو أنه إذا كان ما يدل على النسخ يظهر به للمكلفين ما لم يكن ظاهراً لهم، يحصل لهم العلم به بعد أن لم يكن حاصلاً لهم، اطلق على ذلك لفظ البداء.

وذكر سيدنا الاجل المرتضى قدس سره وجهاً آخر في ذلك: وهو أن قال: يمكن حمل ذلك على حقيقته بأن يقال: بدا له تعالى بمعنى أنه ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهراً له، وبداله من النهي ما لم يكن ظاهراً له، لأن قبل وجود الأمر والنهي لا يكونان ظاهرين مدركين، وإنما يعلم أنه يامر أو ينهي في المستقبل فاما كونه آمراً وناهياً فلا يصح أن يعلمه إلا إذا وجد الأمر والنهي، وجرى ذلك مجرى أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾<sup>٣</sup> بأن نحمله على أن المراد به حتى نعلم جهادكم موجوداً لأن قبل وجود الجهاد لا يعلم

١. الجاثية: ٣٣.

٢. الزمر: ٤٨.

٣. محمد: ٣٦.

الجهاد موجودا وانما يعلم كذلك بعد حصوله فكذلك القول في البداء وهذا وجه حسن جدا.

وقال الإمام العلامة، معلم الأمة الشيخ المفيد محمد بن النعمان في كتاب تصحيح الاعتقاد في شرح ما قد مناه من كلام الصدوق: قول الإمامية في البداء طريقة السمع دون العقل وقد جاءت الأخبار به عن أئمة الهدى عليهم السلام، والأصل في البداء هو الظهور، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ اللَّهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾<sup>١</sup> يعني به ظهر لهم من أفعال الله تعالى بهم ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وقال: ﴿وَبَدَأَ اللَّهُ مَا سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ﴾<sup>٢</sup> يعني ظهر لهم جزاء كسبهم وبان لهم ذلك تقول العرب وقد بدا لفلان عمل حسن، وبداله كلام فصيح كما يقولون: بدا من فلان كذا فيجعلون اللام قائمة مقامه، فالمعنى في قول الإمامية: بدأ الله في كذا أي ظهر له فيه، ومعنى ظهر فيه أي ظهر منه، وليس المراد منه تعاقب الرأي ووضوح أمر كان قد خفي عنه، وجميع أفعاله تعالى الظاهرة في خلقه بعد أن لم تكن فهي معلومة فيما لم يزل، وانما يوصف منها بالبداء ما لم يكن في الاحتساب ظهوره، ولا في غالب الظن وقوعه، فأما ما علم كونه وغلب في الظن حصوله فلا يستعمل فيه لفظ البداء، وقول أبي عبدالله عليه السلام: ما بدأ الله في شيء كما بدأ له في اسماعيل فإنما أراد به ما ظهر من الله تعالى فيه من دفع القتل عنه، وقد كان مخوفا عليه من ذلك، مظنونا به، فلطف به في دفعه عنه، وقد جاء الخبر بذلك عن الصادق عليه السلام، فروي عنه عليه السلام أنه قال: إن القتل قد كتب على اسماعيل مرتين فسألت الله في دفعه عنه فدفعه<sup>٣</sup> وقد يكون الشيء مكتوبا بشرط فيتغير الحال فيه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلًا مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ﴾<sup>٤</sup>، فتبين أن الاجال على ضربين: ضرب منها مشروط يصح فيه الزيادة والنقصان، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾<sup>٥</sup> وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا

١. الزمر: ٤٧.

٢. الزمر: ٤٨.

٣. تصحيح اعتقادات الإمامية للمفيد، ص ٦٦، المسائل العكبرية للمفيد، ص ٩٩.

٤. الأنعام: ٢.

٥. فاطر: ١١.

عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ فبين أن آجالهم كانت مشترطة في الامتداد بالبرو الانقطاع بالفسوق.

وقال تعالى - فيما أخبر به عن نوح عليه السلام في خطابه مع قومه -: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٢﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٣﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، فاشترط لهم بالاستغفار مداً للأجل وسبوغ النعم فلما لم يفعلوه قطع آجالهم وبتراً أعمارهم واستأهلهم بالعذاب، فالبداء من الله تعالى يختص ما كان مشترطاً في التقدير وليس هو الانتقال من عزيمة إلى عزيمة، ولا من تعقب الرأي - تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً -.

وقد قال بعض أصحابنا: إن لفظ البداء اطلق في أصل اللغة على تعقيب الرأي والانتقال من عزيمة إلى عزيمة، وإنما اطلق على الله تعالى على وجه الإستعارة كما يطلق عليه الغضب والرضا مجازاً غير حقيقة وأن هذا القول لم يضر بالمذهب، اذالمجاز من القول يطلق على الله تعالى فيما ورد به السمع، وقد ورد السمع بالبداء. على ما بينا. والذي اعتمدناه في معنى البداء أنه الظهور على ما قدمت القول في معناه، فهو خاص فيما يظهر من الفعل الذي كان وقوعه يبعد في النظر (الظن خ ل) دون المعتاد، إذ لو كان في كل واقع من أفعاله الله تعالى لكان الله تعالى موصوفاً بالبداء في كل أفعاله وذلك باطل بالاتفاق.<sup>٢</sup>

وقال آية الله الخويي في (البيان):

فالقول بالبداء هو الاعتراف الصريح بأن العالم تحت سلطان الله قدرته في حدوده وبقائه، وأن ارادة الله نافذة في الأشياء أزلاً وأبداً، بل وفي القول بالبداء، يتضح الفارق بين العلم الإلهي وبين علم المخلوقين، فعلم المخلوقين - وإن كانوا أنبياء أو أوصياء - لا يحيط بما أحاط به علمه تعالى، فإن بعضاً منهم - وإن كان عالماً (بتعليم الله إياه) بجميع عوالم الممكنات - لا يحيط بما أحاط به علم الله المخزون الذي استأثر به لنفسه، فإنه لا يعلم بمشيئة الله تعالى - لوجود شيء - أو عدم مشيئته إلا حيث يخبره الله تعالى به على نحو الحتم.

١. الأعراف: ٩٦.

٢. البحار، ج ٤، ص ١٢٥ - ١٢٧.

والقول بالبداء يوجب انقطاع العبد إلى الله وطلبه وإجابة دعائه منه كفاية مهياته، وتوفيقه للطاعة وابعاده عن المعصية، فإن انكار البداء الإلتزام بأن ما جرى به قلم التقدير كائن لا محالة - دون استثناء - يلزمه يأس المعتقد بهذه العقيدة عن إجابة دعائه. فإن ما يطلبه العبد من ربه إن كان قد جرى قلم التقدير بانفاذه فهو كائن لا محالة، ولا حاجة إلى الدعاء والتوسل. وإن كان قد جرى القلم بخلافه لم يقع أبداً، ولم ينفعه الدعاء ولا التضرع. وإذا يئس العبد من إجابة دعائه ترك التضرع لخالفه، حيث لا فائدة في ذلك. وكذلك الحال في سائر العبادات والصدقات التي وردت عن المعصومين عليهم السلام أنها تزيد في العمر أو في الرزق أو غير ذلك مما يطلبه العبد. وهذا هو سرّ ما ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام من الاهتمام بشأن البداء.

روى الصدوق في كتاب التوحيد باسناده عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: ما عبد الله عز وجل بشئ مثل البداء (أفضل من البداء - نسخة) وروى بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما عظم الله عز وجل بمثل البداء<sup>١</sup>.

وروى باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما بعث الله عز وجل نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، وخلع الأنداد، وأن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء<sup>٢</sup>. والسر في هذا الإهتمام: إن انكار البداء يشترك بالنتيجة مع القول بأن الله غير قادر على أن يغير ما جرى عليه قلم التقدير. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فإن كلا القولين يؤيس العبد من إجابة دعائه وذلك يوجب عدم توجهه في طلباته إلى ربه.

وعلى الجملة: فإن البداء بالمعنى الذي يقول به الشيعة الإمامية هو من الإبداء (الظهار) حقيقة، واطلاق لفظ البداء عليه مبني على التنزيل الإطلاق بعلاقة المشاكلة. وقد اطلق بهذا المعنى في بعض الروايات من طرق أهل السنة. روى البخاري باسناده عن أبي عمرة، أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، أعمى، وأقرع

١. ورواه الشيخ الكليني أيضاً الوافي باب البداء ص ١١٣، الكافي ج ١، ص ١٤٦، التوحيد، ص ٣٣٣.

٢. ورواه الشيخ الكليني أيضاً. نفس المصدر.

بدأ الله عز وجل أن يبتليهم فبعث اليهم ملكا فاتى الأبرص...<sup>١</sup> وقد وقع نظير ذلك في كثير من الاستعمالات القرآنية: كقوله تعالى ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾<sup>٢</sup> وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾<sup>٣</sup>.  
 وقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>٤</sup> وما أكثر الروايات من طرق أهل السنة في أن الصدقة والدعاء يغيران القضاء.<sup>٥</sup>

### بعض النصوص الشريفة:

١- (تفسير بن إبراهيم) قال على بن إبراهيم في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ \* يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾<sup>٦</sup>.

فإنه حدثني أبي، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن عبد الله بن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتابة إلى سماء الدنيا فيكتبون ما يكون من قضاء الله تعالى في تلك السنة فإذا أراد الله أن يقدم شيئا أو يؤخره أو ينقص شيئا أمر الملك أن يمحو ما يشاء ثم أثبت الذي أراد. قلت: وكل شيء هو عند الله ثبت في كتاب؟ نعم.

١. صحيح البخاري، ج ٤، باب ما ذكر عن بني اسرائيل، ص ١٤٦، صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢١٣ صحيح ابن حبان، ج ٢، ص ١٣، كنز العمال ج ٣ ص ٧٣٩.

٢. الانفال: ٦٦.

٣. الكهف: ١٢.

٤. الكهف: ٧.

٥. روى سلمان، قال: قال رسول الله لا يرد القضاء الا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر. رواه الترمذي، باب ماجاء: لا يرد القدر الا الدعاء ٨، ص ٣٥٠. وروى ثوبان: قال رسول الله - ص - لا يزيد في العمر الا البر، ولا يرد القدر الا الدعاء، وأن الرجل ليحرم الرزق بخطينة يعملها. رواه ابن ماجه، باب في القدر، ج ١، ص ٢٤. ورواه الحاكم في المستدرک. وصححه ولم يتعقبه الذهبي، ج ١، ص ٤٩٣. ورواه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، والروايات بهذا المعنى كثيرة تُطلب من مظانها، وفي كتب الشيعة ورواه البخاري ج ٧٤، ص ١٦٦، ومستدرک الوسائل، ج ٥، ص ١٧٨، مكارم الاخلاق للطبرسي، ص ٣٨٩.

٦. الرعد: ٣٨ - ٣٩.

قلت: فأى شيء يكون بعده؟ قال: سبحان الله ثم يحدث الله أيضاً ما يشاء تبارك وتعالى<sup>١</sup>.

٢- (تفسير على بن إبراهيم): ﴿الم \* غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾<sup>٢</sup> فإنه حدثني أبي، عن محمد بن عمير، عن جميل، عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿الم \* غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قال: يا أبا عبيدة إن لهذا تاويلاً لا يحلمه إلا الله والراسخون في العلم من الأئمة: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما هاجر إلى المدينة - وقد ظهر الإسلام - كتب إلى ملك الروم كتاباً وبحث إليه رسولاً يدعو إلى الإسلام، وكتب إلى ملك فارس كتاباً وبحث إليه رسولاً يدعو إلى الإسلام، فأما ملك الروم فإنه عظم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأكرم رسوله، وأما ملك فارس فإنه يغلب كتابه واستخف برسول الله صلى الله عليه وآله وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهونون أن يغلب ملك الروم ملك فارس، وكانوا لناحية ملك الروم أرجح منهم لملك فارس، فلما غلب ملك فارس ملك الروم بكى لذلك المسلمون واغتموا<sup>٣</sup> فأنزل الله ﴿الم \* غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض، وهي الشامات وماحولها، ثم قال: وفارس من بعد غلبهم الروم سيغلبون في بضع سنين.

قوله: لله الأمر من قبل أن يأمر ومن بعد أن يقضي بما يشاء. قوله: يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء. قلت: أليس الله يقول: في بضع سنين؟ وقد مضى للمسلمين سنون كثيرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي امارة ابي بكر، وأما غلب المؤمنون فارس في امارة عمر. فقال: ألم أقل لك: إن لهذا تاويلاً وتفسيراً؟ والقرآن يا أبا عبيدة ناسخ ومنسوخ، أما تسمع قوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني إليه المشيئة في القول أن يؤخر ما قدم يقدم ما أخر إلى يوم يحتم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين، ذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾

٣- (امالي الشيخ): المفيد، عن أحمد بن الوليد، عن أبيه، عن الصفار، عن ابن عيسى، عن ابن محبوب، عن العلاء، عن محمد قال: سئل أبو جعفر عليه السلام عن ليلة القدر، فقال: تنزل فيها

١. البحار، ج ٤، ص ٩٩، ومثله في جامع البيان، ج ١٣، ص ٢١٨.

٢. الروم: ٢-٤.

٣. في التفسير المطبوع. كره لذلك المسلمون واغتموا به.



الملائكة والكتب إلى سماء الدنيا فيكتبون ما هو كائن في أمر السنة وما يصيب العباد فيها. قال: وأمر موقوف لله تعالى، فيه المشيئة يقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء، وهو قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾<sup>١</sup>. تفسير العياشي: عن محمد مثله.

٤- (التوحيد): أبي، عن محمد العطار، عن أبي عيسى، عن الجمال،<sup>٢</sup> عن ثعلبة، عن زرارة، عن أحدهما عليه السلام قال: ما عبد الله عز وجل بشئ مثل البداء<sup>٣</sup>.

٥- (التوحيد): ابن الوليد، عن الصفار، عن أيوب بن نوح، عن ابى أبي عمير، عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما عظم الله عز وجل بمثل البداء.

٦- (التوحيد): ماجيلويه، عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله عز وجل نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية وخلع الأنداد، وأن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء. تفسير العياشي: عن محمد مثله.

٧- (التوحيد): الدقاق، عن الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن اليقطيني، عن يونس، عن مالك الجهني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه<sup>٤</sup>.

قال الصدوق رحمة الله في التوحيد: ليس البداء كما تظنه جهال الناس بأنه بداء ندامة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ولكن يجب علينا أن نقلله عز وجل بأن له البداء معناه أن له أن يبدأ بشئ من خلقه فيخلقه قبل شئ، ثم يعدم ذلك الشئ ويبدأ بخلق غيره، أو يامر ثم ينهي عن مثله، أو ينهي عن شئ ثم يأمر بمثل ما نهى عنه، وذلك مثل نسخ الشرائع، وتحويل القبلة، وعدة المتوفى عنها زوجها.

١. الكافي، ج ٤، ص ١٥٧، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٥٩، الوسائل، ج ١٠، ص ٣٥٠، امالي الشيخ المفيد، ص ٦٠.

٢. الجمال مشترك بين جماعة والظاهر هنا بقرينة روايته عن ثعلبة بن ميمون أنه عبد الله بن محمد المزخرف.

٣. في بعض النسخ: ما عبد الله عز وجل بشئ أفضل من البداء.

٤. الكافي، ج ١، ص ١٤٨، توحيد الشيخ الصدوق، ص ٣٣٤، الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٥٣ بحار الانوار، ج ٤، ص ١٠٨.

ولا يأمر الله عباده بأمر في وقت ما إلا وهو يعلم أن الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك، ويعلم أن في وقت آخر الصلاح لهم في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم، فإذا كان ذلك الوقت امرهم بما يصلحهم، فمن أقر الله عز وجل. بأن له أن يفعل ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويخلق مكانه ما يشاء ويؤخر ما يشاء كيف يشاء فقد أقر بالبداء، وما عظم الله عز وجل بشئ من الإقرار بأن له الخلق والأمر، والتقديم والتأخير، وإثبات ما لم يكن، ومحو ما قد كان، والبداء هو ردّ على اليهود لأنهم قالوا: إن الله قد فرغ من الأمر فقلنا: إن الله كل يوم في شأن، يحيي ويميت، ويرزق، ويفعل ما يشاء، والبداء ليس من ندامة وإنما هو ظهور أمر، تقول العرب: بدأ لي شخص في طريقي أي ظهر، وقال الله عز وجل: ﴿وَبَدَأَ هَٰؤُلَاءِ مِنَّا اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾<sup>١</sup> أي ظهر لهم، ومتى ظهر لله تعالى ذكره من عبد صلة لرحمه زاد في عمره، ومتى ظهر له قطيعة رحم نقص من عمره، متى ظهر له من عبد اتيان الزنا نقص من رزقه وعمره، ومتى ظهر له منه التعفف عن الزنا زاد في رزقه وعمره، ومن ذلك قول الصادق عليه السلام ما بدأ الله ببدء كما بدأ له في اسماعيل ابني يقول: ما ظهر لله أمر كما ظهر له في اسماعيل ابني إذ اخترمه<sup>٢</sup> قبلي ليعلم بذلك أنه ليس بإمام بعدي وقد روي لي من طريق أبي الحسين الأسدي رضوان الله عليه وفي ذلك شئ غريب، هو أنه روى أن الصادق عليه السلام قال: ما بدأ الله ببدء كما بدأ له في اسماعيل أبي إذ أمر أباه بذبحه ثم فداه بذبح عظيم<sup>٣</sup>.

وفي الحديث على الوجهين جميعاً عندي نظر، إلا أني أوردته لمعنى لفظ البداء والله الموفق للصواب.

٨- (بصائر الدرجات): أحمد بن محمد، عن ابن أبي عمير، أو عمّن رواه، عن ابن أبي عمير، عن جعفر بن عثمان، عن سماعة، عن أبي بصير، وهب، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لله علمين: علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبياء ونحن نعلمه<sup>٤</sup>.

١. الزمر: ٤٧.

٢. أي اهلكه.

٣. الاحكام للآمدي، ج ٣، ص ١١٠.

٤. بصائر الدرجات، ص ١٢٩، والكافي، ج ١، ص ١٤٧، ص ٨٨.

٩- (إكمال الدين): أبي، عن محمد العطار، عن الأشعري، عن الجاموراني، عن اللؤلؤي، عن محمد بن سنان، عن عمّار، عن أبي بصير سماعه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فأبرأوا منه.

١٠- (قصص الأنبياء): بالإسناد إلى الصدوق، عن أبيه، عن عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم قال: سألت عبد الأعلى مولى بني الصادق عليه السلام - وأنا عنده - حديث يرويه الناس، فقال: وما هو؟ قال: يروون أن الله عز وجل أوحى إلى حزقيل النبي صلوات الله عليه أن أخبر فلان الملك أنّ متوفيك يوم كذا، فأتى حزقيل الملك فأخبره بذلك قال: فدعا الله وهو على سريرته حتى سقط ما بين الحائط والسرير فقال: يا رب أخرجني حتى يشبّ طفلي وأقضي أمري فأوحى الله إلى ذلك النبيّ أن أتت فلانا وقل: أنّي أنسأت في عمره خمس عشرة سنة. فقال النبيّ: يا ربّ عزّتك انك تعلم أنّي لم أكذب كذبة قطّ، فأوحى الله اليه: إنّما أنت عبد مأمور فأبلغه<sup>١</sup>.

١١- (أمالي الشيخ): الحسين بن إبراهيم القزويني، عن محمد بن وهبان، عن أحمد بن إبراهيم، عن الحسن بن عليّ الزعفرانيّ، عن أحمد البرقيّ، عن أبيه محمد، عن ابن أبي عمير، عن هشام ابن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله تعالى: وقالت اليهود يدالله مغلولة فقال كانوا يقولون: قد فرغ من الأمر<sup>٢</sup>.

١٢- (المحاسن): أبي، عن حماد، عن ربعيّ، عن الفضيل قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: العلم علمان: علم عندالله مخزون لم يطلع عليه أحدا من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله، فأما ما علم ملائكته ورسله فإنه سيكون، لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدم فيه ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويثبت ما يشاء<sup>٣</sup>. تفسير العياشي: عن حماد بن عيسى مثله.

١٣- (تفسير العياشي): عن حمّان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله: ثم قضى

١. البحار، ج ١٣، ص ٢٢٥.

٢. أمالي الطوسي، ص ٦٦١، البحار، ج ٥، ص ٤٨.

٣. المحاسن للبرقي، ج ١، ص ٢٤٣، الكافي، ج ١، ص ١٤٧، البحار، ج ٤، ص ١١٣.

أجلاً وأجل مسمى عنده قال: فقال: هما أجلان: أجل موقوف يصنع الله ما يشاء، وأجل محتوم، وفي رواية حمران عنه: أما الأجل الذي غير مسمى عنده فهو أجل موقوف يقدم فيه ما يشاء ويؤخر فيه ما يشاء وأما الأجل المسمى هو الذي يسمي في ليلة القدر<sup>١</sup>.

١٤- (تفسير العياشي): عن الفضيل قال: أبا جعفر عليه السلام يقول: العلم علمان: علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه آخر، يحدث فيه ما يشاء<sup>٢</sup>.

١٥- (تفسير العياشي) عن ابن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام يقول:

إن الله يقدم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب. وقال: فكُلُّ أمر يريد الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه، أن الله لا يبدو له من جهل<sup>٣</sup>.

١٦- (تفسير العياشي): عن الحسين بن زيد بن علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

إن المرء ليصل رحمه وما بقي من عمره الاثلاث سنين فيمدها الله إلى ثلاثين سنة، وأن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيقصرها الله إلى ثلاث سنين أو أدنى.

قال الحسين:

وكان جعفر يتلو هذه الآية:

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب<sup>٤</sup>.

وفي الختام،

نسأل الله أن يوفقنا لمعرفة الكاملة والقيام بمقتضيات هذه المعرفة أنه السميع المجيب.

١. البحار، ج ٤، ص ١١٦، الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٦٨.

٢. البحار، ج ٤، ص ١١٩، نور البراهين، ج ٢، ص ١٤٨.

٣. البحار، ج ٤، ص ١٢١، ومثله ما في جامع البيان للطبري، ج ١٣، ص ٢٢١، ونواسخ القرآن لابن الجوزي، ص ١٨.

٤. الوسائل، ج ٢١، ص ٥٣٧، البحار، ج ٣، ص ١٢١، الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٦٩ ومثله ما في كنز العمال،

ج ٣، ص ٧٦٥.

## أهم المصادر

- أحكام القران، أحمد بن علي الجصاص، ط ١، ١٤١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- اسد الغابة، ابن الاثير، انتشارات اسماعيليان، تهران.
- الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم الضحاك، تحقيق باسم فيصل أحمد الجوابرة ط ١-١٤١١، دار الدراية.
- الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي، تحقيق سيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان.
- الأحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الأمدي، ط ٢، ١٤٠٢، المكتب الإسلامي - دمشق.
- الارشاد، الشيخ المفيد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد.
- الاعتقادات، الشيخ الصدوق، تحقيق عصام عبد السيد.
- الأمالي، الشيخ الصدوق، ط ١، ١٤١٧، مؤسسة البعثة.
- الأمالي، الشيخ محمد بن حسن الطوسي، تحقيق مؤسسة بعثت، دار الثقافة، قم، ط ١، ١٤١٤.
- البداية والنهاية، أبي الفداء اسماعيل بن كثير، تحقيق علي شيري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨.
- التبيان، الشيخ الطوسي.
- التوحيد، الشيخ الصدوق، تحقيق السيد هاشم الحسيني، ١٣٨٧، جامعة المدرسين، قم.
- الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠١.
- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، ط ١، ١٣٦٥، دار المعرفة.
- الرواشح السماوية، مير محمد باقر الحسيني، ١٤٠٥، مكتبة السيد المرعشي النجفي، قم.

- السنن الكبرى، أحمد بن حسين البيهقي، دار الفكر، بيروت.
- السنة، عمرو بن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣، ١٤١٣، سيد الشهداء، قم.
- الصحيفة السجادية، مكتب النشر الإسلامي، جامعة مدرسي الحوزة العلمية، قم.
- الفصول المهمة في أصول الأمة، الشيخ الحر العاملي، تحقيق محمد بن محمد بن حسين، ط ١، ١٤١٨، مؤسسة المعارف الإسلامية للإمام الرضا عليه السلام.
- الكافي، الشيخ الكليني، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ط ٢، ١٣٨٨.
- المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق وشرح: محمد الزيني، منشورات بصيرتي، قم.
- المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، تحقيق سيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.
- المستدرک، محمد بن عبدالله الحاكم النيشابوري، تحقيق الدكتور يوسف المرعشي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦.
- المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي، تحقيق سعيد محمد اللحام، ط ١، ١٤٠٩، دار الفكر.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق إبراهيم الحسيني، دار الحرمين.
- المعيار والموازنة، محمد بن عبدالله الاسكافي، تحقيق محمد باقر المحمودي.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني ١٤٠٤، مكتب نشر الكتاب.
- الموطأ، مالك بن انس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٦.
- المؤمن، الحسين بن سعيد الكوفي، ط ١، ١٤٠٤، مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم.
- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ط ٤، ١٣٦٤ش، مؤسسة اسماعيليان، قم.
- أمالي المرتضي، الشريف المرتضى، تحقيق السيد محمد بدر الدين النعساني، مكتبة آية الله المرعشي النجفي قم، ط ١، ١٣٢٥.
- بحار الانوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق علي شيري، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
- تاريخ مصر، المقرئزي.

- تفسير القرآن العظيم، اسماعيل بن كثير، ١٤١٢، دار المعرفة، بيروت.
- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد القرطبي، ١٤٠٥، دار احياء التراث العربية.
- توحيد المفضل، المفضل بن عمر، تحقيق كاظم المظفر، ط ٢، ١٤٠٤، مؤسسة الوفاء.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط ١-١٤٠٤.
- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، ١٤١٥، دار الفكر، بيروت. التوفيق الرباني.
- دستور معالم الحكم، محمد بن سلامة، مكتبة المفيد، قم.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣.
- سنن الدارمي، عبدالله بن بهرام الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق.
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٤٨ق.
- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، دار الطباعة العامرة اسطنبول، ١٤٠١، دار الفكر، بيروت.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي بيروت.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الفكر، بيروت.
- علل الشرائع، الشيخ الصدوق، تقديم السيد محمد صادق بحر العلوم، ١٣٨٥-١٩٦٦م. نشر منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف.
- علل غرايش به ماديگري.
- عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، حسين الأعلمي، ط ١، ١٤٠٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب.
- فيض القدير، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق أحمد عبد السلام، ط ١، ١٣١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

- قرب الاسناد، السيد الحميري، ط ١، ١٩٩٣، مؤسسة آل البيت.
- كفاية الأثر، خزاز القمي، تحقيق سيد عبد اللطيف الحسيني، ١٤٠١، انتشارات بيدار، قم.
- كنز العمال، المتقي الهندي، تحقيق الشيخ البكري الحياي، والشيخ صفوة الصقا، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، ط ١، ١٤٠٥، دار إحياء التراث العربي.
- مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، ١٤٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مسند ابن المبارك، عبدالله بن المبارك، تحقيق السامرائي، ط ١، ١٤٠٧، مكتبة المعارف، الرياض.
- مسند ابن راهويه، اسحاق بن إبراهيم المروزي، تحقيق الدكتور عبد الغفور عبد الحق، ط ١، ١٤١٢، مكتبة الإيمان، المدينة.
- مسند أبي حنيفة، أحمد بن عبدالله الاصبهاني، تحقيق محمد الفاريابي، ط ١، ١٤١٥، مكتبة الكوثر، الرياض.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.
- مسند الإمام الرضا، الشيخ عزيز الله العطاردي، ١٤٠٦، مؤسسة طبع ونشر مدينة القدس الرضوي.
- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، تحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ط ٢، ١٤٠٤.
- ميزان الحكمة، محمد الري شهري، تحقيق دار الحديث، ط ١.
- نور البراهين، السيد نعمه الله الجزائري الموسوي، تحقيق السيد رجائي، ط ١، ١٤١٧، مؤسسة النشر الإسلامي.
- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، مطبعة النهضة، قم ط ١، ١٤١٢ - ١٣٧٠ ش، دار الذخائر، قم، إيران.
- نهج السعادة، محمد باقر المحمودي، ط ١، ١٣٩٦، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
- وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ط ٢، ١٤١٤، مهر، قم.



# حول الصحوة الإسلامية

تأليف: الشيخ محمد علي التسخيري



## المقال الأول: حقيقة الصحة وأعراضها

### (أ) الصحة.. أسبابها ومظاهرها ودوامها<sup>١</sup>

يكاد الحديث في هذا الموضوع يعدُّ من أجمل الأحاديث، لأنَّه يتعلَّق بأهم قضية وأهم ظاهرة تعيشها الأمة الإسلامية كونها تمثل منعطفاً في تاريخها المبارك.. وما أجمل أن نركِّز على قضايانا المعاصرة من زاويتها العقائدية والحضارية، بدلاً من الانشغال في مشاكل عقيمة، بعيدة عن الواقع الذي نعيشه والأهداف التي نرنو إليها.

وقد ارتأيت في مجال تناولي هذه الظاهرة المباركة أن أتعرِّض لها من الزوايا الثلاث: (الحقيقة، الأسباب، الاستدامة) تحقيقاً للترابط المقوم بين هذه الزوايا، وتأكيداً للنتائج العملية التي يجب أن تنتهي إليها من خلال البحث.

### حقيقة الصحة الإسلامية

من نافلة القول أن نتحدث عن التركيبة الإسلامية - ككل - إلا أن التذكير بها يحقق تمهيداً جيداً لفهم حقيقة الصحة الإسلامية. فالإسلام عقيدة تحدّد للإنسان موقفه من الكون والحياة والإنسان بتاريخه وحاضره ومستقبله. وتنبت من هذه العقيدة مفاهيم تشكّل أساساً عملياً واسع الأبعاد. وعلى أساس العقيدة والمفاهيم الحياتية، تتخذ العواطف الإنسانية مساراً توجيهياً تختلف إختلافاً حقيقياً عنها عندما لا تعيش في هذا الإطار.

---

١. ألقى في الملتقى الثامن عشر للفكر الإسلامي في الجزائر بتاريخ ١٠/٧/١٩٨٤.

وبعد كلّ هذه الأرضية المناسبة يأتي البناء الاجتماعي الإسلامي ليشمل تخطيط الإسلام كلّ نواحي الحياة الإنسانية.

وحينئذ فالمسلم الواعي حقاً يتمتع بالعناصر التالية:

أولاً: فهم الحقيقة الإسلامية فهماً مطّرد العمق.

وثانياً: إيمان منطقي بها.

وثالثاً: نفوذ إيماني إلى العواطف، وصياغتها الصياغة التي تنسجم بها مع الأسس.

ورابعاً: نقل واع لها إلى المجال العملي، الشخصي والعام.

إنّها العناصر التي يمتاز بها المسلم الواعي، والتي يصعد الإنسان بها مدارج الكمال من

خلال تأصلها في وجوده وحياته.

وعنصر الفهم يعمُّ فهم الإسلام - أساساً وبناء نظرياً - من جهة، والإطار العملي

التنفيذي من جهة أخرى، وأعني بالفهم الإسلامي التطبيقي فهم التعليمات الإسلامية

الهادفة لكيفية ملء المساحة المباحة، أو ما أطلق عليها أحد كبار المفكرين منطقة الفراغ، التي

تركها الإسلام للحاكم الإسلامي ليقوم بملئها على ضوء التعليمات مع ملاحظة المصلحة

الإسلامية العليا والظروف الموضوعية القائمة. ويعتبر ما يسمّى الأمر الموحى به مباشرة

أسمى درجات هذا الفهم في حين يتلوه في الدرجة ما يتحصّل بالإجتهد الأصيل الصحيح.

أمّا عنصر الإيمان فهو بدوره متفاوت الدرجة، ممّا يسوّغ أن يؤمر الذين آمنوا بالإيمان،

وتصعيد هذه الدرجة أو توسيع المساحة الإيمانية، ويشمل الإيمان بالموقع المحدّد من الكون

والمنطق الحياتي والهدف السامي ونوع السبيل إلى الهدف.

وإذا ركّزنا على الصعيد العاطفي رأينا التدرّج نفسه فيه، حتى يصل الأمر إلى مستوى

أن يملأ الحب الإلهي وجود العبد فيسمو حتى ليقول الحديث عن الزهراء - تلميذة

الإسلام -: إن الله تعالى يرضى لرضاها ويغضب لغضبها، وحتى يتحول الدين إلى حب

كله، هل الدين إلا الحب<sup>٢</sup> كما جاء في بعض الروايات.

١. الاعتقادات (الصدوق) ص ١٠٥.

٢. الخصال (الصدوق) ص ٢١.

ومن هنا يُدعى المؤمنون إلى تجاوز مرحلة الإيمان العقلي المجرد، إلى مرحلة الخشوع والتحرُّك العاطفي. فيقول تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾<sup>١</sup>.

وأخيراً تصل المرحلة إلى عنصر العمل، الذي يأتي بشكل طبيعي بعد التحرك العاطفي، ذلك لأن الإرادة الإنسانية هي حصيلة الشوق المؤكَّد إلى حد كبير.

وأشدَّ الناس تمرُّفاً في الشخصية هم: أولئك الذين تنفصل أعمالهم عن عقائدهم وعواطفهم، وأذكر هنا مقولة للفرزدق، قالها بعد أن سأله سبط رسول الله الحسين بن علي، عن وضع أهل الكوفة آنذاك فأجاب: قلوبهم معك وسيوفهم عليك<sup>٢</sup>.

والواقع أن انعدام العمل يشكّل قرينة طبيعية على عدم فاعلية الأسس.

يقول القرآن الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ \* فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ \* وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾<sup>٣</sup>.

بعد هذا التحديد لمعالم الوعي والصحوة، يمكننا أن نشخص تحققها في أي زمان ومجتمع، عبر ملاحظة تحوُّلها إلى ظاهرة اجتماعية، وعدم اقتصرها على مجموعة صغيرة. نعم إذا شملت الصحوة قطاعاً كبيراً، وتعاطفت معها الأكثرية الجماهيرية المسلمة أمكن - بحق - أن يتحلّى ذلك المجتمع بحالة الصحوة الإسلامية.

هكذا كانت الغفوة ولقد مرّت أمتنا الإسلامية بفترات زمنية طويلة، عمّتها غفوة، وشملها تخدير وضياع مقيتان يعتصر لهما القلب ألباً.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر إلا على صعد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فمن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثّر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

١. الحديد: ١٦.

٢. دلائل الإمامة (الطبري) ص ١٨٣.

٣. الماعون: ١-٣.

والتجزئية تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كل الجهات، فهو ممزق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء، وهو ممزق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات المتعددة، وآلهة التاريخ والتمدن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، واللون وحتى العلم، وكلها تشكل مطلقاً يجرداها ذهن الإنسان من نسبتها، ويمنحها صفة الإطلاق لتشكّل - بالتالي - قيوداً على التحرك الحضاري إلى الإمام، ويصبح الانشغال بالهموم الضيقة والشخصية هو الديدن العام؛ وقليل أولئك الذين يفكرون لصالح الأمة كلّ الأمة، ويعيشون قضاياها الرئيسية، وجرائم الكفر والانحراف الفكري والخلقي تسود الساحة، فلا تجد أمامها من يقف في وجهها، والروح الحماسية ميتة، إلا تعصباً لمال أو تجمع أو مذهب خاص أو حاكم طاغ. ومن الطبيعي - والحال هذه - أن تكون هذه القابلية محفزاً للاحتلال على مختلف الصعد ومنها الصعيد العسكري.

وهكذا كان الحال، وبدأت - الصحوة شيئاً فشيئاً - حتى بلغت ما نحن فيه من حال.

### معالم الصحوة

وقد تمثلت معالم الصحوة اليوم في أمور كثيرة، لسنا بصدد استيعابها بقدر ما نحن فيه من الإشارة، حيث نجدها في:

- هذا الاتجاه العام نحو تفهّم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.
- وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة - وخصوصاً قطاع الجيل الشاب - نحو تطبيق الإسلام، في كلّ شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كلّ المهالك والمشاكل، التي تورّطت فيها مسيرة الأمة.
- وهذا التفهّم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي في التخطيط لمسح الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دماؤها،
- وكذلك تفهّم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، وطبيعة المرحلة التاريخية التي تعيشها.

- وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتزّ المسلم اليوم في

أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

- وهذا الاتجاه الرائع نحو الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، وتناسي الصراعات الجانبية.

- ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدة على كل الأرض الإسلامية. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنها تكشف جميعاً عن التطلع والعمل على صنع المستقبل.

- وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقض مضاجع اللصوص الكبار، وتهز عروش العملاء الصغار، وتمزق أستار المستترين والمتبرقين. إنها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمد أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسياً دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

- وأخيراً وليس آخراً: هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة؛ وذلك يمثل ظاهرة إسلامية حميدة.

كل هذا أربع دهاقنة الكفر وعملاءهم، حتى أيقنوا أن ما كانوا يخشونه قد تحقق، واستعادوا - من جديد - إلى ذاكرتهم مقولة غلادستون عن القرآن، كأكبر عنصر دفاعي لدى المسلم، ومقولة ديغول حين حذرهم - في الأربعينات - من هذا العملاق النائم، والذي تداعب خصلات شعره مياه الأطلسي، وتغسل رجليه مياه المحيط الهادئ... ومقولة الجنرال غلوب باشا (إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود إلى القرن السابع للميلاد) فراحوا يكررون التحذير.

فوزير الخارجية الأمريكي يجذر العالم من اليقظة الإسلامية ووزير الخارجية الإسرائيلي يكرر التحذير، وهذان العملاقان المتعاديان في الشرق والغرب يضعان يداً بيد لمواجهة المد الإسلامي. لقد اشتد التخطيط لمواجهة هذا السيل الإسلامي العارم، الذي يهدد حضارتهم بالزوال، لأنه يحمل العلاج الناجع، والذي يمزق أحلامهم، ويقضي على منافعهم الرخيصة.

وكأن الاستعمار - بين عشية وضحاها - وجد أن كل أحابله ويوره السرطانية التي زرعها في قلب هذه الأمة تزول، وكل الآلهة التي نصبها أمامها - كما أشرنا إليها من قبل - تتهاوى وتمزق تماماً، كما وجد المبشر المسيحي نفسه في حيرة، عندما حدث بعض المسلمين عن معاجز (الرب المسيح) فرحوا يصلون على محمد وآل محمد.

لقد وجد الاستعمار أن القوى والأساطيل الجامدة تذوب عند كل صرخة تكبير يطلقها مجاهد مسلم، واستولى الرعب على الطغاة عندما وجدوا أن القيود والسجون ترتجف، أمام تكبير الأسير المسلم وصرخته الربانية الهادرة.

### أسباب الصحة

وليس من الصعب على من ينطلق في تفكيره من زاوية إسلامية موضوعية أن يكتشف، أسباب هذا التحول العظيم في حياة الأمة. نعم قد يعمى عنها الحول القلب، أما البصير، فلا يشك في كونه لطفاً إلهياً محضاً، شمل هذه الأمة بعد فترة، وأهلها لأن تطرح نفسها في الساحة العالمية، وتمكن إسلامها من قيادة العالم من جديد، موطئة لليوم الموعود، حيث (يكون الدين كله لله).

أما العناصر التي أهلت الأمة لشمول هذا اللطف الإلهي لها، فهي:

أولاً: العمل الدؤوب للعلماء والمفكرين الذين أحسوا ببدء هذه الأمة، وراحوا يخططون ويرسمون لها سبل العلاج. والواقع أن عمل العلماء انصب على أن يستعيد الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفق يفجر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دقاتها، وإذا تجلّت الفطرة النفسية على صعيد الحياة، كان الفلاح كله.

والجدير بالذكر أن هؤلاء المفكرين لم يستطيعوا أن يحققوا ما حققوا إلا بعد أن حرروا نفوسهم من المتع الرخيصة، ونذروا أنفسهم للهدف، وتحلّصوا من قيود التبعية، للحكام الذين شكّلوا - في فترة الغفوة - قيوداً ظالمة، وإلا بعد أن اتصفوا بالعلمية والروح التغييرية الإسلامية معاً.

ولن تستطيع كل أساليب التمويه والخداع والالتهام أن تمحو من أسمع الأمة صرخات



الأسدآبادي (الأفغاني) وعبد، والبناء، وسيد، وعودة، والمودودي، وابن باديس، والإبراهيمي، والمطهري، والشهيد الصدر، والإمام الخميني، بعد أن أدت دورها العظيم في تحقيق هذه الصحوة المباركة.

ثانياً: الدور الرائع الذي قامت به الحركات الإسلامية، في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة. وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلا أنها جميعاً قد أجمعت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدّاً بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام... وإني لأعلم أنّ الكثير من أبناء هذه الأمة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أنّ الكثير من المحاولات الاستعمارية، والعميلة، قد جرت لجرّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على أنظمة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة. وطبيعي أنّ هذه المحاولات لا بدّ أن ينكشف زيفها في فضاء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

ثالثاً: ردود الفعل التي اعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي، فبالرغم من التخطيط الدقيق لهذا الهجوم، والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب الحياتية ويستكمل كلّ عناصر النجاح المطلوب، بل وبالرغم من هذا النجاح الظاهري، الذي تصوّر الاستكبار العالمي أنّه حققه، فسلب الأمة فكرها، وإيمانها بإسلامها، وعاطفتها الحماسية، وشخصيتها، وبالتالي ثروتها المادية، حتى ظنّ أنّها قد ماتت، أو هي توشك على الموت، بعد أن شدّ وثاقها بالحدود المصطنعة، ومزّق وجودها بالتناحر القومي، والوطني، والعنصري، والتاريخي، وزرع في وجودها البؤر السرطانية الخبيثة، وأثقل كاهلها بالحكام العملاء، وسرّب إلى أوصالها سمومه الفكرية والعاطفية، وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق<sup>١</sup>. وبالرغم من كلّ هذا انتج الهجوم نتيجة عكسية، فقد أيقظ الأمة وعلمها أنّ سرّ وجودها هو إسلامها العظيم، وأنها لن تجد السعادة إلا في ظله.

١. إنّ من كان يرى إيران في عهد الشاه يصيبه الدهول لمصير هذه الأمة، واليأس القاتل من هداها، وعودتها إلى الإسلام.

وقد كان تأثير الهجوم الغربي لصالح الصحوة على طريقتين:

الأول: أنه كشف نفسه وحضارته، وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمة. فلقد أثبتت كل الآراء والنظم التي خططها للحياة الاجتماعية فشلها، وعمقها، وغربتها عن فطرة الإنسان، وشعور المسلم وعقليته. وهي حقيقة أدركها الاستعمار تماماً قبل غيره، فراح يستر فشله بعملية الترفيع، أي عملية إلباس الأفكار الغربية لبوس العروبة والشرق والإسلام، مما فضح به نفسه أكثر فأكثر.

لقد أثبتت الفلسفة الغربية خواءها أمام الفلسفة الإسلامية، وأعلنت التنظيمات الغربية عن إفلاسها أمام عمق التخطيط الإسلامي. أما الحرية والإنسانية فلا يستخدمها الغرب إلا كشعارات لا مضمون لها على الإطلاق... كل هذا ترك أثره - بلا ريب - في التوعية من حيث لا يريد العدو.

الثاني: أنه دفع المؤمنين الحريصين على مستقبل هذه الأمة لاتخاذ موقف المواجهة والتخطيط الدؤوب للصحوة المباركة.

وبعد هذا الفشل لم تنفع الاستعمار كل أساليب التطبيع الخبيثة، ولم تجده نفعاً حتى الأقنعة الإسلامية، والمظاهر الخادعة التي تعلن الدفاع عن الإسلام، ولكنها تحرف الإسلام نفسه في أذهان الأمة، وتفرغه من محتواه الثوري والتغييري، فإذا بعاداته طقوس واجترار عقيم، وإذا بنظمه قيود للحياة الفردية، وانزواء عن الحياة الاجتماعية.

إنه التحريف والتخريف، وهو أمر لا ينطلي على الفطرة التي سرعان ما تكتشف زيفه فينقلب الأمر لصالح الحقيقة.

وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة، تلك الصيغ الرجعية للحكم (الإسلامي)، وتلك الأطروحات البديلة الممؤهة للوحدة الإسلامية، والتي صورتها للامة وحدة بين الحكام، وراحت تعلن للامة - كل يوم - أنها تسير على خطى تحقيق الوحدة. وتمثرت أعوام وأعوام، وإذا بالامة تجدها نفسها أسيرة الخداع من أول الطريق، فلا الشخصية عادت، ولا الأرض السلبية استعيدت ولا الفوارق الظالمة الاجتماعية رفعت، بل سار الحال من سيئ إلى أسوأ، يغضب له الرب العظيم، ويفرح له الشيطان الرجيم.

نعم، فشلت كل أساليب مقاومة الهجوم الغربي بالأسلوب الغربي، لا لشيء إلا لأنها كانت من صنع الغرب نفسه، وأتى تنقذ الأمة من ورطتها الحادة الأساليب الشيوعية أو الليبرالية. رابعاً: الأحداث الكبرى في العالم الإسلامي وفي مقدمتها نجاح الثورة الإسلامية المباركة بقيادة الإمام العالم الزاهد الشجاع الخميني، والتي هزّت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وحققت حلماً كان يبدو بعيد التحقق، من شعب أعزل، لا يملك إلا إيمانه وقبضاته العزلاء. وقد كان لهذه الثورة المباركة، الكثير الكثير من المعطيات التي أثرت أثراً كبيراً في تحقق الصحوة، وتناميها، وانتشارها.

وشملت تلك المعطيات الصعد الحياتية المختلفة، وأعطت الأمة الإسلامية والعالم دروساً رائعة. إنها أكّدت للشعوب المسلمة:

- قدرتها على أن تقارع أقوى القوى وتمزقها.
- وضرورة القيادة الحكيمة، والتفاف الشعب حولها.
- ولزوم تحرر العلماء من سيطرة الحكومات، ليقودوا شعوبهم.
- وكيف تتدخل يد الغيب في نصره المؤمنين وإرعاب الطغاة.
- ونوعية ومقدار المعاجز التي يحققها الدور الفعال للشعب المسلم، في الساحة السياسية والتشريعية.

- وكيف يتلاحم مبدأ قيادة الفقيه العادل ونظام الشورى، في عملية رائعة الأثر.
- وكيف يتحوّل كل التآمر الاستعماري لصالح القضية الإسلامية.
- وأن الإسلام يستطيع - نظرياً وعملياً - أن يشمل جميع الجوانب الحياتية.
- وكيف يتم تطهير الجو من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية وفضح الأنظمة التي ادّعت الإسلام وخدمت قضية الاستكبار.

- ولزوم تقديم القرابين من أجل الإسلام، والدروس المعبرة في الشهادة والتسابق نحوها، بما لم يعهد إلا في الصدر الإسلامي الأول.

- وتحدي هيبة الدول الكافرة (العظمى) وتمريغ أنوفها في التراب.
- وقد استطاعت الثورة الإسلامية أن تهزم كل الأساليب القومية، والوطنية الضيقة،

والشيوعية الملحدة، والليبرالية غير الملتزمة، وكل الطروحات التي مؤه الغرب بها على الأمة الإسلامية. كما دعت إلى توحيد المسلمين ضد العدو الكافر، بأروع الخطى في هذا السبيل، وانتهجت سياسة اقتصادية مستقلة، قائمة على أساس تحقيق الاكتفاء الذاتي، فاستطاعت أن تقف على قدميها، رغم كل أنماط الحصار والظروف القاسية التي فرضها الاستعمار وعملاؤه، وغيّرت كل أساليب التعليم وأضفت عليها الصبغة الإسلامية الخالصة. وطهرت كل وسائل الإعلام من أدران الانحراف والتخريف، واضعة أسس إعلام إسلامي نزيه، وآتت نظاماً تربوياً إسلامياً، شمل كل الجوانب. ونجحت في القضاء على التناقضات الحادة بين الفئات الاجتماعية، عاملة في سبيل الارتفاع بالطبقة المحرومة، مانعة من الإسراف وتجاوز الحد، دون أن تخرج عن الحدود الإسلامية، ولا نستطيع أن نستمر في تعداد المعطيات فهي مما لا يمكن عرضه بهذه العجالة.

كل هذه المعطيات وغيرها كثير كثير أحدثت ثورة في كل مكان، وهزت الجماهير هزاً، وفتحت آفاق الأمل نحو الغد الإسلامي، الأمر الذي لاحق شبحة الاستعمار وعملاؤه في كل مكان، فراح يعيد النظر في حساباته من جديد، بعد أن أعلنت عقوله الالكترونية المعقدة فشلها في تقرير الموقف الجديد.

على أننا يجب أن لا ننسى وجود بعض العوامل الأخرى للصحة، ولكنها - مهما تسامت - ثانوية جداً، لا تستطيع أن تحظى بهذا الشرف الكبير.

## ديمومة الصحة

### أولاً: صيانة الصحة

إن هذه الصحة من أعظم النعم علينا، فينبغي أن نشكر الله تعالى عليها، وشكر هذه النعمة يعني الانسجام معها، ووعيها جيداً، والعمل على تعميمها وتعميقها وديمومتها في الحياة. فالتحول الكبير لا يتم إلا في فترات الصحة العامة، والقائد الفذ هو الذي يستطيع أن يضمن الوعي المتأجج حماساً في شعبة لقضيته الكبرى، فإذا ما خبا ذلك التأجج، كان ذلك ايذاناً بموت المسيرة بلا ريب. إن التأجج الواعي ليحوّل كل العقبات إلى جسور، وكل

المؤامرات المعادية إلى ضربات معاكسة، يزكّي بها نفسه، وينفي عن وجوده النفايات الضارة. ويجب أن لا تغيب عن بالنا حقيقة مهمة هي: إن الإيمان قد يحصل في لحظة صحوة وبكل سهولة، ولكن الأمر الصعب هو الاستقامة على خطّه، والعمل بمقتضياته، والصمود أمام الضربات والعقبات الداخلية والخارجية. وربما كانت هذه الصعوبة هي السر الكامن في قوله: شيبيني سورة هود<sup>١</sup>. وذلك لمكان آية الاستقامة فيها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾<sup>٢</sup>. وهكذا يمكن أن ينطبق الأمر على التحوّلات التي تحدثها صحوة اجتماعية ما، فقد يكون السيل عارماً، والثورة ضخمة بحيث لا يقف أمامها الطغاة، وقد تحدث بارقة فتعمّ الصحوة قطاعاً واسعاً.

أمّا الأمر المهم فهو المحافظة على الصحوة، ونتائج الثورة المباركة، وإدامتها بعد أن يهدأ الطوفان، ويملك العدو الفرصة الكافية للمواجهة والتخطيط، بل وتنسحب من الميدان العام عناصر فقدت فاعليتها، أو رأت الأمر على خلاف مصلحتها الذاتية، أو غير ذلك ممّا يوجد - عادة - في سبيل العاملين.

ومن هنا فإن على كلّ الواعين القادة، وكل مسلم يدعو ربّه أن يجعله للمتقين إماماً، أن يجعلوا الحفاظ على الصحوة، بل وتوسعتها وتأجيحها، في طليعة ما يفكرون به، ويعملون على صيانتها، وإلا فالخيانة العظمى، والتفريط المخزي، وأنّ عليهم أن يديموا دفع عجلة النهضة الفكرية والعملية، بكل ما يملكون من طاقة، وبعد أن يحرروا وجودهم وفكرهم من سيطرة الطواغيت، والعمالة للأجنبي، فالتحرير الذاتي شرط أساس لعملية التحرير الاجتماعي.

وينبغي لهم أن لا يتوانوا في عملية ضخ الزخم الثوري في العروق النابضة. فأى فتور في ذلك يعني النكوص بلا ريب، وعندما أتحدّث عن الثورة فلا أعني إلا التغيير على الخط الفطري الصاعد، والذي تتلاحم فيه العقيدة والمفاهيم، والعواطف والأعمال، وهو ما أشرنا إليه آنفاً.

١. كنز العمال ج١، ص ٥٧٤.

٢. هود: ١١٢.

### ثانياً: الصحوة والتطرف

لابد أن ننبه إلى أن هناك أعراضاً قد تصاحب عملية الصحوة، أو عملية الثورة، ينبغي للعاملين أن يلتفتوا لها:

فمن أعراض الصحوة ما قد يبدو لدى بعض الأشخاص من تطرف في تقييم الجهاد، حتى ليرفض الدخول في أي حوار فردي ببناء، أو حكم لسلوك خاص، بحجة الانشغال في عملية الجهاد، بل قد يكون التركيز كله على نصوص الجهاد، مع إهمال النصوص الأخرى. وما هي - جميعاً - إلا أجزاء لنظام فكري وعملي متلاحم، لا يتم عطاؤه إلا بالتركيب والتناغم والانسجام، وقد ابتلينا في إيران وغيرها بأناس جهلة، تصوّروا أن الإسلام ينحصر في هذا المعنى، وانحرفوا إلى الحد الذي نبذوا معه الإسلام نفسه، وانخرطوا في المسلك اليساري الإلحادي.

كما أن من أعراضها على الصعيد الاجتهادي أن يفرض المرء في التجديد، حتى لينبذ الأسس القويمة التي أسسها القدماء من المفكرين المسلمين، وحتى ليتصوّر الإنسان أنه ينبغي أن يفصل عن كل تراثه، بحجة الصحوة الجديدة.

إلا أن الصحوة إذا امتلكت قيادتها الوعي، وأحست في شتى مجالاتها بالشمول الإسلامي والتفاعل الإنساني، كهدف إسلامي، لم تنحرف إلى مجالات التطرف.

على أننا يجب أن لا نغفل أمراً آخر هو أن الكثير ممّا توصم به الصحوة الإسلامية اليوم من تطرف يعبر عن لؤم، أو تقاعس، أو تخطيط خبيث للقضاء عليها، أو استسلام لفهم جامد، أو هوى حاكم فاسق، أو ما إلى ذلك من الأدواء التي يصاب بها بعض الناس.

### ثالثاً: الصحوة والتهمة

رأينا أن صحوة الأمة الإسلامية أمر حذر منه دهاقنة الكفر على مرّ العصور، بعد أن أدركوا أن الإسلام إذا انطلق من عقاله تحمله جماهيره الواعية فلن يبقى لنظمتهم ومصالحهم وخططهم المستقبلية باقية، وقلنا إن الاستقامة على الصحوة هو الأمر الأصعب، بعد أن تنتشر الشبهات، ومن هنا فقد بدأت التهم الاستكبارية تنهال، وتشكل بأشكال مختلفة، ورحنا نستمتع إلى عبارات من قبيل: الفئة التقليدية، الفئة الرجعية، الفئة التي تحرق الأعراف

الاجتماعية، الفرق الانتحارية، الإرهاب الإسلامي، وما إلى ذلك. وإذا كانت التهم قد استطاعت أن توقف مسيرة الإسلام العظيم الهادرة في الصدر الأول، فإنها تستطيع أن تؤثر أثرها اليوم، أما الوعي الثوري الأصيل ينتشر، والجهاد حاضرة في الساحة الإسلامية العامة، والمفكرون الواعون يتصدون لنشر الحقيقة، فإن كيد الشيطان الأكبر، والشياطين الصغار، يرد إلى نحورهم بلا ريب، بفضل الله تعالى وعنايته.

#### رابعاً: الصحوة الإسلامية والاحتواء

عملية الاحتواء ثم التحريف هي من أخطر العمليات التي واجهها الإسلام خلال تاريخه الطويل، وهي - نفسها - أخطر ما تواجهه الصحوة الإسلامية اليوم... لقد تمثلت الصحوة في عطش جماهيري حاد لتطبيق الإسلام على كل شؤون حياتها، وطرحه على الساحة العالمية مبدأً يهزم أمامه كل المبادئ المنحرفة، ويعمل على نفي كل البؤر الطاغوتية في الحياة والمسيرة... وما أن أحس الاستكبار بأنه لا يستطيع أن يواجه هذا السيل حتى خطط لاحتوائه أو امتصاص كل ذلك الشوق الجماهيري من خلال مسرحيات وعمليات وشعارات براقية تخلب الألباب، دون أن تحمل مضموناً خاصاً، وصرنا حينئذ نشهد على الساحة الإسلامية اتجاه الكثير من الأنظمة لطرح الإسلام، وإعلان الكثير من الحكام التدين المصطنع، وعقد الكثير من المؤتمرات الضخمة المترفة باسم الإسلام، بل وتشكيل المنظمات الدولية (الإسلامية)، وتفرعها الأخطبوطي، بما يشمل مختلف الجوانب، بحيث ينبهر المرء المسلم عندما يواجه هذا العمل الإسلامي الضخم، وراحت القرارات تصدر الواحد تلو الآخر، لتعبر عن الطموح الموحد، بل وأنشئت عدة تنظيمات وجمعيات كبرى، باسم العمل على حمل هم الإسلام إلى العالم. هكذا شهدنا تتابع الرجوع إلى الإسلام من قبل الأنظمة، حتى أتحمنا بهذا الحديث.

وظن الاستكبار أنه يستطيع من خلال ذلك خداع الجماهير المسلمة، وامتصاص شوقها، وزاد في تصوّره هذا انجذاب بعض الأفراد والفئات إلى اللعبة.

أما الحقيقة فبقيت كما هي ناصعة بعد أن شهدت الجماهير المسلمة هذا الهوان والتراجع المتزايد أمام العدو، وهذا البيع المتزايد للثروة وتقوية العدو، وهذا الترف والسرف والفجور

الذي يمزق الحجب والأقنعة، وهذا التآمر السافر على الأمل الإسلامي الجديد، وهذه الفوارق الطبقيّة الهائلة، بل وهذه المذابح هنا والمراقص هناك، وهذه المجاعة هنا والتخمة هناك، وما جاع فقير إلا بما متع به غني<sup>١</sup> كما يقول أمير المؤمنين علي.

وكلمة أخيرة نقولها لهؤلاء الذين يقفون في وجه الصحوة: إن الله تعالى إذن لعصر العودة أن يبدأ، ولمسيرة الإسلام الحاكم أن تنطلق، ولن تستطيع كل أنماط التآمر والخذلان، والتهم والاحتواء، أن توقف الزحف الإسلامي المقدس.

كما أقولها لجماهيرنا الإسلامية الواعية: إن علينا أن نطمئن دائماً إلى نصر الله وعونه - تعالى - فإذا ما حققنا في أنفسنا قابلية الفيض الإلهي، فإنه تعالى فياض لا ينقص فيضه ولا يبخل به، ولتعلموا أن العقبات والضربات أمر طبيعي في المسيرة، بل هي مصدر قوة، إذا وعينا كيف نتلافها، أما الألم والقرح فهو أمر يصيبنا كما يصيب العدو في حين نتفوق عليه بالأمل العظيم بالله تعالى، وهو أعظم دافع للنصر والفوز:

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾<sup>٢</sup>.

### الصحوة الإسلامية بين الترشيده والتضليل

قضية الصحوة الإسلامية - اليوم - هي الشغل الشاغل للاستكبار العالمي، ولكل العملاء الذين نصبهم قيوداً على حركة هذه الأمة، كيف يجهضها؟ وكيف يفرغها من محتواها؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى، هي تشكّل القضية الرئيسية للواعين الداعين إلى الحق، كيف يرشّدونها ويزيدون من حرارتها، ويستثمرون فرصتها لإعادة الإسلام إلى واقع الحياة؟

فهي إذن قضية كبرى، وهناك إذن اتجاهان:

- اتجاه الإجهاض والاحتواء.

- واتجاه الترشيده والتصعيد، الفكري والعاطفي.

أما اتجاه الترشيده والتصعيد، فتقوده قيادات العمل الإسلامي وفي مقدمتها الثورة

١. نهج البلاغة ج ٤، ص ٧٨.

٢. النساء: ١٠٤.



الإسلامية المباركة وقائدها العظيم؛ لأنها كانت أعظم الأسباب في إيجاد هذه الصحوة. وهذا الاتجاه المبارك يمتدُّ إلى القلوب، وخصوصاً الواعية القوية الشابة منها، فلا توقف إشعاعه الفكري والحاسي سدود أو حدود، بل ينغرس في أعماقها، ويمتدُّ كشجرة طيبة، ويفرع ويثمر، وعباً وحماساً وانشداداً للإسلام، ونقمةً على أعدائه، وملاحقةً لنظم الكفر، وضغطاً على الحكام العملاء؛ كي يقلعوا عن عمالتهم.

وهذا الامتداد والتوسع هو مصدر القلق العظيم الذي طفق على ألسنة المسؤولين في دول الاستكبار العالمي، فراحوا يخططون ويخططون، لبلورة الاتجاه المقابل له، اتجاه الاحتواء والتوجه المنحرف، وتفريغ الشحنة دون التعرُّض للخطر، فما هو الأسلوب الذي أعدَّوه؟ إنهم رأوا المقاومة عقيمة، وأن الصحوة والثورة آتية، فيجب الالتفاف عليها، من خلال العملاء المزروعين هنا وهناك، أو من خلال المخدوعين، وطببي القلب إلى حد السذاجة. فكان الأسلوب هو محاربة الثورة الإسلامية من خلال الأساليب الدينية نفسها، تماماً كأسلوب الإسرائيليات الذي حاول أن يضرب الإسلام بأساليبه وبطرقه هو. وتنوّعت تطبيقات هذا الأسلوب:

فمنها: عقد المؤتمرات والندوات الإسلامية من جهة، وتقليل الشكل الظاهري للانحراف من جهة أخرى، مع التركيز على التضليل الخفي.

ومنها: طرح الأفكار الاستسلامية، وأنصاف الحلول، والاستشهاد بالنصوص الإسلامية، مع فصلها عن واقعها وشروطها الصحيحة.

ومنها: اتهام أولئك الذين لا يستسلمون بالتطرف، والهمجية والتقليدية، والرجعية، والخروج على طريقة السلف، وعصيان أولي الأمر، وشق عصا المسلمين، متناسين أن بعض الحكام اليوم يمثلون معاول تحطم الوحدة الحقيقية، وعقبات كبرى في سبيلها.

وكانت أهم الأفكار مكرراً الفكرة التي دعت إلى مدّ الجسور بين الحكام والشباب المسلم الناهض على حساب الإسلام نفسه ومع التنازل عن مقتضياته، بل وربما طلبت من العملاء أن يكونوا هم الجسور بين هاتين الشريحتين المتنازعتين اليوم، فلا يخيفوا أي طرف من الآخر، ويهدثوا من ثورة هذا وعنف الآخر، لكي تمرَّ الأزمة بسلام!

ولكن ماذا يعني ذلك غير ترسيخ أقدام الحاكمين بعد أن تزلزلت الأرض تحتهم، وغير تكريس عمالتهم للأجنبي، وغير إجهاض هذه الصحوة واحتوائها بالأساليب التي تنصبغ بالصبغة الدينية؟ وماذا تعني غير إرجاع العجلة إلى الوراء بعد أن توافر الجو المناسب لكي تتقدم إلى غدها الإسلامي المشرق، غد الحكم الإسلامي في كل الأرض الإسلامية، غد تطبيق الإسلام في كل شؤون الحياة، وغد مقارعة الطواغيت الكبار، وتحقيق حلم الأنبياء؟ وعلى أية حال؛ فما أن أعلن عن عقد مؤتمر الصحوة الإسلامية في الجزائر، حتى رأينا التنظير (الإسلامي) الكاذب يبيث هذه الفكرة بين العقول، ويطلب من كل المرتزقين أن يتبعوا هذا الخط، وهكذا طلعت علينا مجلة (المجلة) وفيها ما يناسب كل ذوق من (الفنانين والراقصين إلى العلماء والمحققين) في عددها ٢٢٩ والمؤرخ ٣٠ / حزيران - ٦ تموز / ١٩٨٤ الموافق ١ - ٧ / شوال / ١٤٠٤ هـ (أي قبيل انعقاد المؤتمر تماماً) طلعت لترسم لنا الخط المذكور تماماً، وأن من طالع ما كتبه المنظر الديني لمجلة (المجلة) يدرك أبعاد التآمر - الأنف الذكر - إذ كتب تحت عنوان: حسن النية في علاقة الحكام ودعاة الإسلام:

لابد من كسر تلك السلسلة النكدة من الفعل ورد الفعل في العلاقة بين الحركة الإسلامية ودعاة الإسلام من جهة، والسلطات الحاكمة من جهة أخرى، فهي - كما أسلفنا القول - سلسلة لا تجرّ إلا إلى الأحقاد والعداء، بل تزيدها وتوأصلها، وهذا أمر يعود بالضرر على الطرفين في هذه العلاقة، ويعود بالضرر الكبير على الأمة كلها، ولا يفيد إلا أعداء الأمة. (أما التسليم والحل الوسط فهو في صالح الأمة وليبق الوضع على ما هو عليه)١.

ولكن كيف يتم الخروج من هذه السلسلة، وحلقاتها المتتابعة المشؤومة، وقد أوجدت ما أوجدته من مشاعر تبدأ بعدم الثقة ولا تنتهي عند التوجّس والخوف الذي يساور كلاً من الطرفين؟ [وإنما تسير إلى حد الثورة ضد الظالمين].

إذا عرف كل من الجانبين ما يريده الجانب الآخر، واعتبره حقاً مشروعاً له، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه يستطيع التعايش مع هذا الحق، أمكن أن نتقل إلى الخطوة التالية، وهي بذل

١. تعليقات المؤلف وضعت بين قوسين معقوفين [...] .

محاولة لإحلال حسن النية، في نفس كل من الطرفين تجاه الطرف الآخر، محل التوجس والخوف وعدم الثقة، بل ومحل التفكير بالإساءة والأذى، ثم تنفيذ ذلك، أي لا بد من نقض ما يحدث في البلاد العربية منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

ترى ما الذي تريده أية حكومة من أية مجموعة من المواطنين في بلادها، لا تشاركها الرأي، ولا تقتنع بأسلوبها في الحكم؟ لو ذهبنا نسأل لأتانا الجواب أن الحاكم يريد أن يطمئن أولاً إلى أنه غير مستهدف بشخصه أو نظامه من قبل تلك المجموعة [فلا يُسأل ولا يُتقد، كيفما حكم، ومهما فعل].

ويريد بعد ذلك أن يلتفت إلى تنفيذ برنامجه دون معوقات غير مشروعة (!) وهكذا تتلخص المسألة في استمرار الحاكم في السلطة وتطبيق البرامج لا غير...، وليست هناك أية أهداف استعمارية والحمد لله!!].

أما الذي تريده الحركة الإسلامية ودعاتها فهو - على ما يردده رجالها وقاداتها - أن تبلى دعوتها للناس بحرية ليكون أمامهم الخيار مفتوحاً بكل حرية، فإما أن يقبلوا دعوة الإسلام أو يرفضوها، وأن يكون دعاة الإسلام أحراراً في مخاطبة الناس ليبينوا لهم خير الإسلام ومزاياه، دون أن يخافوا عسفاً واضطهاداً من جانب السلطة، بل يجدوا الأمن والطمأنينة على أنفسهم وأسرهم وهم يقومون بمهمتهم هذه، فالهدف هو حرية الدعوة لا غير [أما العمل على تطبيق الإسلام ونفي الظلم فهو غير منظور].

ومعنى هذا أن المطالب الأساس لكل من الطرفين هي الأمن وحرية العمل، كل في مجاله، وليست هذه المطالب التي يصعب الاتفاق عليها، أو تنفيذها، إذا ما توفر حسن النية لدى الجانبين، وتوفره ليس بالمطلب العسير، أما على صعيد الدول فقد كانت الدول والأقوام تتخاصم وتتحارب، وتستمر الحرب بينها سنين طويلة، ثم تصالح فتحسن علاقاتها، وتحل الصداقة محل العداوة القديمة، ويكفي أن تنظر إلى وضع ألمانيا مع فرنسا وبريطانيا اليوم. وأما على صعيد الأفراد فالمسألة تنطبق بشكل أوضح، والمثل يقول: لا تأتي الصداقة إلا بعد عداوة، والمقصود أن الصداقة الحميمة هي التي تأتي بعد العداوة، [والمطلوب هو الصداقة الحميمة مثلاً بين برك كارمل والمجاهدين، وشاه إيران والثورة الإسلامية].

فأمّا الأمن فالمفروض أنّه متحقق أصلاً. فواجب الحكومة أن تكفل الأمن للمواطنين، ودعاة الإسلام فئة من المواطنين اختارت دين الله منهاجاً ودستوراً وأحبت أن تدعو الناس إلى الخير الذي يشتمل عليه هذا الدستور، وليس في اختيارها ما يخرج بها عن دائرة من يجب على الحكومة أن تكفل لهم الأمن. ومع توفّر حسن النية المتبادل لا يبقى سبب يمكن أن يساق في تبرير حرمان دعاة الإسلام من الأمن.

وأما أمن الحاكم على نفسه ونظامه من دعاة الإسلام، فقد ذكرنا من قبل أنّ الاغتيال السياسي ليس من الأساليب التي تنتهجها الحركة الإسلامية، كما أنّ فكرة الانقلاب غريبة على حسنها، إذن هنالك أمن مبدئي للحاكم ونظامه، بالرغم من حوادث الاغتيال التي وقعت فعلاً، فتلّك كانت - كما بينا - عمليات فردية استهدفت رد اعتداء على الإسلام نفسه، أو كان ذلك من أوهام القائمين بتلك العمليات، وعلى أي حال، فإن العمليات الفردية لا يحسب لها حساب في هذه المبادئ العامة.

ولا يمكن أن يؤخذ قطاع من المواطنين بجريرة أفراد، لمجرد الاشتراك في الفكرة العامة والمبدأ، ثم إنّ إحساس كلّ من الطرفين بأنّ الآخر يبادلّه حسن النية أكبر ضمان لعدم تكرارها. وحرية العمل كذلك يفترض أن تكون متحقّقة، فنحن نفترض في أية حكومة تقوم في بلد إسلامي أن لا تعادي الإسلام، وأن لا تسعى إلى إخماد صوته، وطالما أنّ الحركة الإسلامية تجعل هدفها تبليغ دعوة الإسلام فإن المفروض - نظرياً - أن لا تحول الدولة بينها وبين هدفها هذا [نعم، إذا كان هدف الحركة الإسلامية هو الوعظ فقط فما الضرر منه؟].

وأما حرية الحاكم في العمل فإنّ الأصل أنّ للحاكم على الأمة حق النصح، فالدين كما يقول رسول الله ﷺ: هو: (النصيحة) وعندما سئل لمن؟ أجاب ﷺ: لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [وهكذا يعدّ هؤلاء العملاء أئمة للمسلمين] فالحاكم - كلّ حاكم - يحتاج إلى النصح الأمين ليتجنّب المزالق والكوارث التي تعود بضررها على الأمة، والمفروض أنّ النصح للحاكم حق الأمة وواجبها، فإذا وجد دعاة الإسلام من الحاكم أنه يستمع إلى نصح الأمة، وهم - كقطاع من الأمة يستطيعون تقديم النصح له، فما يطالبونه بعدها بشيء، قبل نصحتهم أو رفضه [فالنصيحة - أن لم تستمع مخاطر - هي أقصى هدف].

هنا قد يقول قائل: وهل نسيت أن دعاة الإسلام يجعلون هدفهم تطبيق شريعته، وهو أمر قد لا يرضاه الحاكم، أو لا يحدث هذا تناقضاً بين الطرفين يجلب العداء والخصومة؟<sup>١</sup>.  
 أمّا جواب السؤال فيتحننا به (هذا المنظر) بعد هذا المقال في الأعداد التالية يتلخّص في السعي لإقناع الحكام بضرورة التغيير، وأنه أنفع لهم، ثم يكتب:  
 وإذا تمّ ذلك فقد تجاوزنا المرحلة الصعبة بكل نجاح.  
 والواقع، أننا لا ندرى أيها أشدّ خطراً على الصحوة الإسلامية، هل المساومة النصفية مع حكّامهم هؤلاء، أم اتجاه حكّامهم نحو تحقيق المثل الأعلى المضروب، حيث تتحوّل الأرض الإسلامية إلى بقرة حلوب ذلول للاستكبار وعملائه المفضوحين؟! أما الذي نعلمه - جيداً - فهو أنّ كلّ هذه الأساليب التي نبذتها أمتنا الإسلامية وكل هذا (التخدير الإسلامي!) قد انتهى مفعوله أمام وعي جماهيرنا الإسلامية لطريقها ولأهدافها وللعقبات المزروعة في هذا الطريق، وإن صبح الإسلام سيتنفس بعد ليل الغفوة البهيم.  
 ومع هذا فإننا نؤكّد أنّ ردم الهوة بين الحكام والمحكومين إذا كان يؤدي إلى خدمة القضية الإسلامية فنحن معه بكل قوة.

## (ب) الإمام الخميني رحمته الله والصحوة

### مقدمات

أولاً: إن الإمام، وإن كان شخصاً عظيماً، إلا أننا هنا لا نبحث عن جوانب العظمة فيه بقدر تلمّسنا لأبعاد رؤيته للواقع، وبرناجه لتطوير هذا الواقع، ومدى تحقيق هذا البرنامج واقعاً، أو مدى ما يمكن تحقيقه منه مستقبلاً، وذلك لكي نتخذه مثلاً وقدوة في مسيرتنا الجهادية، في مجال زرع بذور الصحوة أو إيجادها أو ترشيدها في أي منطقة من عالمنا الإسلامي، أو بالأحرى من امتدادنا الإسلامي حتى في المساحات الأخرى.  
 ثانياً: ممّا لا ريب فيه أنه رحمته الله كان يمتلك تصوّراً متكاملًا عن قضية الصحوة بكل أبعادها،

وهو ما يشهد له استقراء كلماته ومواقفه وخططه الثورية. فالمتتبع لكلماته في مطلع دخوله ساحة العلن الكلامي، وقيامه بتأليف كتبه يشهد وحدةً في نمط الكلام من الوضوح والنفوذ إلى عمق المشكلة القائمة والتركيز على التركيبة الروحية للفرد والمجتمع - من جهة - وعلى سرّ المشكلة من جهة أخرى.

والمتتبع لمواقفه يجدها وكأنتها تشكّل خطوات متتابعة مرسومة من قبل، تتناغم مع الظروف، وتتصاعد مع الحوادث، إلا أنّها كلها يربطها خيط واعي واحد، ولا أدل على ذلك من استعراض مواقفه من نفسية الشعب الإيراني، من جهة، والنظام الشاهنشاهي القائم من جهة أخرى.

وهكذا يمكن ملاحظة تخطيطه الحديث الذي سار بعملية التوعية الفكرية منذ البدء وحتى الختام، والذي استهدف إثارة الحماس الثوريّ بالمدى المناسب مع ما تسمح به الظروف المتغيرة والمناسبات الإسلامية، ومن ثمّ التخطيط لتحويل ذلك الحماس إلى فعل جماهيري حاشد مزق كلّ حسابات الكمبيوتر البشري، وبالتالي صنع أروع ثورة عرفها التاريخ المعاصر، حيث انفلت الشعب الإيراني المسلم من طوق الهيمنة العالمية عليه.

ثالثاً: إن الإمام يؤمن تماماً بمبدأ (تصدير الثورة) وهو أمر لا يمكن أن ينكره أحد على الرغم ممّا حاوله بعض الناس مما يعبر عن انهزامية أمام النقود المطروحة. إلاّ أنّه لم يكن ليقتصد الصورة التحريفية التي منحها إياه الإعلام الغربي، أي صورة التصدير بالأسلح وإيجاد الانقلابات العسكرية وما إلى ذلك. إنّ كان يركّز على الجانب الثقافي والحماسي في آن واحد، فهو يقول (حين يتحدث مع سفراء الاقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ):

إننا نعتبر الاقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإنّما نريد لها أن تتمتع بما تتمتع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى، وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كلّ الشعوب، إننا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كلّ الشعوب وكل الحكومات وتتخلّص من قيود التبعية والتسلط.<sup>١</sup>

١. كتاب (كلام الإمام) ج ١٥، ص ٣١٧.

وفي حديث آخر يقول سماحته وهو يتحدث إلى سفراء الجمهورية الإسلامية: إننا نرنا لنحبي الإسلام، ومن ثم لنصدر الثورة - بمشيئة الله - إلى كل مكان، ذلك أننا أخوة وأحبة، مما يزيد فينا الأمل للعمل سوية وبكل ما نستطيع لتعميم هذا الجهاد وتحقيق هذا الهدف.<sup>١</sup>

بل كان ﷺ يرى أن بالإمكان تعميم هذا التصدير إلى كل الشعوب فيقول بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ:

إننا إذ نعلن عزمنا على تصدير الثورة إلى كل الأقطار الإسلامية بل كل الأقطار التي يبرز فيها المستضعفون تحت نير المستكبرين، فإننا نريد من ذلك أن نحبي في الشعوب روح التحرك ضد المستكبر الفتاك، ونردم تلك الهوة بين الشعب والحكم المسلط عليه.<sup>٢</sup> فالتصدير - إذن - يعني (تصدير نموذج في إيران) وهذا يعني بدوره تصدير الخصائص المشتركة أو التي يمكن لها أن تمتد إلى أنحاء العالم الإسلامي، وتجريدها من المزايا المحلية الخاصة. والذي نريد أن نخلص إليه أن الإمام الخميني إذ يتحدث عن الثورة الإسلامية في إيران وعن مزاياها وخصائصها ودوافعها، ومحركاتها ونتائجها وعوائقها وموانعها، فإنه إنما يتحدث عن مسيرة الصحوة الإسلامية عبر مصداق من مصاديقها وتطبيق أمثل لها في إيران، وهو بالتالي يبرز نظريته العامة في مجال الصحوة الإسلامية، وإلا فما معنى التصدير؟ ومن هنا نجد ﷺ يؤكد مثلاً أن ما نشاهده من تخطيط لضرب الثورة إنما هو تخطيط لضرب الإسلام والصحوة الإسلامية عموماً، والقضاء على كل أمل للجماهير المسلمة في صياغة تشكيلة حكومية إسلامية في أي مجال آخر.

فهو يقول مخاطباً مجموعة من الأخوة الباكستانيين في خريف عام ١٩٨٠: هل تتصورون أن هدف الخطط الاستعمارية هو القضاء على إيران؟ كلا، إن الهدف هو القضاء على الإسلام، فليس الأمر يقتصر على قطر واحد فحسب، إنه يعمُّ الأقطار الإسلامية جميعاً.<sup>٣</sup>

١. كلام الإمام ج ١٥، ص ٣١٧.

٢. المصدر نفسه ص ٣١٦.

٣. كلام الإمام ج ١٥، ص ٤٦ - ٤٧.

ومن هنا جاز لنا أن نعمّم حديثه إلى مجموع العالم الإسلامي حتى ولو كان يتحدث عن الثورة الإسلامية في إيران وعواملها ونتائجها.

رابعاً: أننا إذا شئنا أن نعرف على منهج أو خطة أو أبعاد شخصية معينة فلا بدّ من تتبع أقوالها وأفعالها وتقاريراتها، لنقوم - بعد التأكد من دلالاتها - باستنباط مجمل الأبعاد، ومعرفة أجزاء النظرية المتكاملة، وهذا بالضبط ما يجب أن نفعله عندما نحاول اكتشاف مذهب معين أو نظام عام للإسلام. ذلك إن علينا أن نكتشف هذا من خلال مجموعة النصوص النظرية أو المفهومية المطروحة، والأحكام المتفرقة المبنية على ذلك المذهب أو التي تشكل أبعاد النظام، وبالتالي أن نلاحظ نوع التطبيقات الفعلية التي قبلها الإسلام ونفذها في الحياة. وبنفس هذا الأسلوب نستطيع أن نكتشف أبعاد الشخصيات المنظّرة، ونعرف مجمل نظراتها إلى الواقع والحياة، وهذا ما نرجو أن نتبعه في دراستنا السريعة هذه، راجين التوفيق.

### حقيقة الصحوة

قلنا إنّ أمتنا الإسلامية مرّت بفترات زمنية طويلة، عمّتها غفوة، وشملها تخدير وضياح مقيت، يهتزُّ له القلب ألباً.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر، إلا على صعد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فممن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزئية تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كلّ الجهات، فهو ممزق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء. وهو ممزق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات متعددة وآلهة التاريخ والتمدن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، تمزق وجوده؛ هذه المفاهيم كلها سوف نشهدها في كلمات الإمام الخميني وهو يتحدث عن إيمانه بمستقبل الصحوة، ومظاهر الصحوة وثمارها، وعواملها وأسلوب ترشيدها والحفاظ عليها والأخطار التي تواجهها من قبل أعدائها.

فمن الظواهر التي أكّدها الإمام الخميني في كلماته، وسعى بجد لتحقيق الإيمان بها في



ذهن الجماهير، موضوع الإيمان بمستقبل الصحوة الإسلامية، بحيث لا تشوبه أية شائبة ولا يساوره أي شك في تحقيق هذا الغد المرتقب، وطبيعي أن الأمل الكبير يلعب دوره في تحريك الهمم نحو صنعه ويشد العزيمة على تحقيقه.

فنجده تارة يذكر بالوعد الإلهي الذي لا يتخلف مطلقاً، باعتباره قاعدة لهذا الأمل الكبير، فيقول في رسالته التي وجهها بمناسبة قيام الجمهورية الإسلامية وذلك بعد أشهر من نجاح الثورة الإسلامية:

إن الله تعالى قد وعد بانتصار المستضعفين على المستكبرين بتوفيقه ووعدده وجعلهم أئمة، وها هو الوعد الإلهي يقرب من تحقيقه، إننا لنأمل أن نشهد نحن هذا التحقق.<sup>١</sup> وأخرى تنبأ بانتصار حتى على القوى العظمى، فيقول في حديثه لمجموعة من أعضاء حركة أمل اللبنانية (أواخر عام ١٩٨٠):

يجب أن نحذف من قاموسنا منطق الهزيمة القائل بأننا لا نستطيع الالتحام مع القوى الكبرى. إنكم إذا شئتم حققتم ما تريدون بإذن الله.<sup>٢</sup> ونجده عليه السلام تنبأ بسقوط المعسكر الشيوعي وانهياره بسرعة، وذلك قبل تحقق هذا الانهيار الذي نشهده، فقد أرسل رسالته المشهورة لغورباتشوف في مطلع عام ١٩٨٩ وهي إحدى الرسائل النادرة التي بعثها إلى زعماء الدول، وقد قال له فيها بالحرف الواحد: إن البحث عن الشيوعية ينبغي أن يتوجه من الآن فصاعداً إلى متاحف التاريخ.<sup>٣</sup> وربما كانت هذه الرسالة من أعظم الوثائق التي تؤكد لنا أن المؤمن الصادق ينظر بعين الله تعالى فيفتح الله له آفاق الحقيقة.

ومن ثم نجده <sup>٢</sup> يركّز عنصر الإيمان بنمو الانتفاضة الإسلامية في كل مكان، ويشير دائماً بانفتاح الآفاق أمام الصحوة بعون الله.

ففي عام ١٩٧٠ يجيب على رسالة للطلبة الجامعيين المسلمين في أوروبا فيقول:

١. كلام الإمام ج١، ص ٢٤.

٢. المصدر نفسه ج ١٥، ص ٢٦١.

٣. مجلة التوحيد، العدد ٥٣، ص ٧.

إنني - على الرغم من شيخوختي وعدم حصولي على ما كنت آمله - لآمل بكل ثقة أن تستمر شعلة هذه النهضة التي انطلقت في السنين الأخيرة بتأييد الله تعالى وأدت للتقارب بين العلماء والمثقفين.<sup>١</sup>

ويتحدث الإمام الخميني عن الثورة الإسلامية وانتصارها عام ١٩٧٩ فيقول:  
لقد تحقّق ذلك على الرغم من الحسابات المادية التي كانت تطرح استحالة أن تنهار قوة تقف القوى كلها مساندة لها، وحتى الحكومات المنتسبة للإسلام أيضاً كانت تقف موقف الدعم لها ولكنها انهارت بالتالي.<sup>٢</sup>

ويقول في كتابه الرائع (ولاية الفقيه) والذي كان الموجّه الكبير لقيام الثورة الإسلامية:  
أنت أيها الشعب إذا أصررت على الطريق المستقيم وقمت بالأمر فإنك ستمسك أزمّة الأمر بيدك، وستصدر منك الأمور وإليك تعود، وإذا تحققت الحكومة التي أراها الإسلام فإن الحكومات الفعلية في العالم لن تستطيع الوقوف أمامها.<sup>٣</sup>

ويقول أيضاً مخاطباً الطلبة الجامعيين في أمريكا وكندا في ١٧ / رمضان / ١٣٩٥ هـ:  
إن نقطة الموضوع التي تزيدني في أواخر عمري أملاً تتركز في هذا الوعي واليقظة التي تسري في هذا الجيل الشاب، إنها روح سارية بكل سرعتها وهي بحول الله تعالى ستصل إلى نتائجه الحتمية فتقطع أيادي الأجانب وتسطر العدالة الإسلامية.<sup>٤</sup>  
وفي بيان أصدره إلى عموم الشعب الإيراني في عام ١٩٧٢ - أي قبل سبع سنوات من الانتصار - يقول:

إنكم تملكون طاقات شابة عظيمة تستطيع أن توصل الإسلام والبلاد إلى أوج العظمة والعزة وتقطع أيدي الجناة عن البلاد الإسلامية وبلدكم أنتم، تلك الطاقة التي لو بذلت في طريق الحق لتحوّلت إلى طاقة أبدية واتصلت بالقدرة الإلهية الأبدية... فاستيقظوا وأيقظوا

١. كلام الإمام ج ٦، ص ٢٨.

٢. المصدر نفسه ج ١٥ ص ٦٦.

٣. كلام الإمام ج ١٠، ص ٣١.

٤. المصدر نفسه ج ١٠، ص ٦٩، ونداء الثورة، ص ١٩٨.

الغافلين.. عودوا أحياءً وامنحوا الحياة للأموات، وانطلقوا تحت لواء التوحيد لتطووا ملف الاستعمار بنوعيه الأحمر والأسود.<sup>١</sup>

ويقول في لقاءه الضباط الباكستانيين أوائل عام ١٩٧٩:

على المسلمين أن ينهضوا، فهم منتصرون في نهاية المطاف وسيتصرون.. وإن أمريكا لن تستطيع أن تقف في قبال المسلمين.<sup>٢</sup>

وهكذا نجده مطمئناً واثقاً بمستقبل الصحوة الإسلامية، ساعياً بكل قوة وبمنطق سليم لتعميق هذا الإيمان في نفوس أبنائه الثوار.

ومن غريب الأمر أن الاستعمار حاول أن يتغافل عمق الصحوة الإسلامية، ومدى اتساعها، بل الأغرب من ذلك أن نجد بعض المتممين إلى المدرسة الرجعية يحاولون جاهدين إنكار حدوث صحوة إسلامية مطلقاً.<sup>٣</sup>

والإمام يعتبر هذه الغفلة الاستكبارية تغافلاً يجب على المسلمين أن يردوا عليه رداً عملياً. فهو يقول في جوابه على الرسالة التي وجهتها إليه المنظمات التحررية في أنحاء العالم والتي عقدت اجتماعها في الجزائر أوائل عام ١٩٧٩ ما يلي:

إننا نعدُّ عدم إدراك عمق النهضة الإسلامية في العصر الحاضر والجيل المعاصر أحد الأخطاء الكبرى للسيد كارتر وأمثاله، وأن على الشعوب الإسلامية - عبر وحدتها الإيمانية المستمدة من الله - أن تخرج هؤلاء من غفلتهم.

فيا أيها المسلمون في أنحاء العالم ويا أيها المستضعفون الثائرون، ويا أيها البحر الإنساني اللامتناهي، انهضوا ودافعوا عن كيانكم الإسلامي والوطني.<sup>٤</sup>

ولكن لم هذا التغافل والتجاهل؟ الحقيقة هي أنه يستهدف أن لا تعي كل الجماهير حقيقة

١. المصدر نفسه ج١٠، ص ٦٥ (الخميني والثورة) ص ١٠٢.

٢. كلام الإمام ج١٥، ص ١٦٧.

٣. حاول بعض المفكرين أن يعلن ذلك بصراحة في مؤتمر الفكر الإسلامي في الجزائر فتم التصدي لدعوته وفضحها.

٤. كلام الإمام ج١٥، ص ١٦٧.

ما يحدث، وإلا فإن النهضة ستسري سريان العافية في العروق اليبوسة، والنار في المهشيم، وهو ما أصرَّ الإمام الخميني على توضيحه أمام الجماهير. إنه يقول في حديث له أمام عوائل الشهداء عام ١٩٨١:

إن هؤلاء يرون حديث سقوطهم وفنائهم في كلِّ مكان من العالم، فحتى السود في أمريكا يعلنون ذلك، إنهم يرون الإسلام قدرة متقدمة تعبئ بنفسها الشعب والأجنحة المتدنية والعناصر المظلومة، وإننا لندعو بمشيئة الله أن يؤدي هذا لثورة المستضعفين في العالم للقضاء على القوى العظمى.. إنهم يخافون من هذا التحرك...<sup>١</sup> وهكذا راح يستعرض مظاهر هذه النهضة والصحة ليؤكد لها في وعي الجماهير.

### ١- التحرك الإسلامي الواسع

من أهم المظاهر التي أكد عليها وعلى قوتها، هذا التحرك الجماهيري الإسلامي في عدّة أماكن من العالم الإسلامي، ومنها هذه الثورة الإسلامية الكبرى في فلسطين. وكلنا يعلم أن الإمام عاش لهذه القضية وسخر لها طاقاته، وبقي وفاقاً لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته. إنه أعلن كون إسرائيل غدة سرطانية يجب اقتلاعها، وأن المسلمين قادرون - مهما عنت أمريكا وإسرائيل - على القضاء على منبع الفساد هذا. وكم كان يتألم حينما يرى هذا التخاذل والتراجع المستمر، وعلى أي حال فإن الإمام الخميني عليه السلام كان يأمل كثيراً في الصحة الإسلامية في الجماهير الفلسطينية، وكان يعتبر ذلك سبيل الخلاص الوحيد، وملف القضية الفلسطينية في أقوال الإمام واسع جداً لا يمكننا أن نستوعب حتى جزءاً يسيراً منه.<sup>٢</sup>

إنه يعتبر يوم القدس يوم الإسلام، ويوم الحكومة الإسلامية التي ستسود العالم الإسلامي كله، يوم قهر القوى العظمى، ويوم انطلاق المسلمين من عقابهم لإحقاق حقوقهم، ويوم الرد

١. كلام الإمام، ص ٢٢١.

٢. تراجع الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الشأن، ومنها الجزء ١٩ من كتاب (كلام الإمام)، وهو تحت عنوان (كلمات الإمام في فلسطين والصهيونية).

العملي على تغافل القوى الكبرى لحقيقة الصحوة الإسلامية.<sup>١</sup> ومن أنماط ذلك التحرك الواسع ثورة الشعب الأفغاني المسلم بوجه الطغاة الملحدين، بل وقوفه أمام القوة الشرقية العظمى بكل جبروتها وبمتمهى الضعف في السلاح والقوة في العزيمة، مما أدى في النهاية إلى انهيارها. وهنا يخاطب الإمام الخميني كارتر قائلاً:  
من المستحسن أن يعتبر كارتر بأفغانستان: حيث الحكم المسلط يدعمه الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية واليسارية... إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يخضعوا الشعب الأفغاني المسلم لإرادتهم.<sup>٢</sup>

ويقول في رسالته إلى حجاج بيت الله الحرام عام ١٤٠٤ هـ:  
لقد ردّ الشعب الأفغاني العدوان السوفيتي الغادر، عدوان تلك القوة الاسطورية والجيش الضخم والحكم الغاصب والحزب الخائن، رده بقدرة الإيمان والتوكل على الله العظيم والاعتماد على النفس بحيث يمكن القول إن الاتحاد السوفيتي يعيش الآن الحيرة والندم على هجومه الظالم، وهو يحار كيف ينقذ نفسه ويحفظ ماء وجهه.<sup>٣</sup>

## ٢- انتفاء الأساطير الاستعمارية

ومن مظاهر الصحوة الإسلامية هذا الوعي السياسي الكبير لحقائق الأمور وانتفاء الأساطير التي حاول الاستعمار زرعها في النفوس من قبيل: أسطورة إسرائيل التي لا تقهر، وأسطورة انحصار سبيل السعادة بأحد المذاهب الرأسمالي أو الاشتراكي، وأسطورة (التخدير الديني) و(تضاد الاتجاه الديني والثورة) وأسطورة انحصار السبيل بالمعسكرين دونها ثالث.

وهنا يقول الإمام الخميني عليه السلام في رسالته بمناسبة يوم القدس العالمي في أوائل العقد

١. كلام الإمام ج١٩، ص١٢٩.

٢. كراس (القيادة وأفغانستان): ص٦ من حديث للإمام مع طلاب كلية الإلهيات أواخر عام ١٩٧٩.

٣. المصدر نفسه ص١١.

الثامن من هذا القرن:

إلى متى تسحر أسطورة الشرق والغرب الكاذبة المسلمين الأقوياء وتوحشهم الأبواق الإعلامية الجوفاء<sup>١</sup> وفعالاً فقد حطمت الثورة الإسلامية هذه الأسطورة.

### ٣- معالم كبيرة أخرى

ومن يستعرض كلمات الإمام التي تركّز على معالم الصحوة الإسلامية يستطيع اكتشاف الكثير من هذه المعالم:

- فهذا الاتجاه العام نحو تفهّم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.

- وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة، وخصوصاً قطاع الجيل الشاب نحو تطبيق الإسلام، على كلّ شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كلّ المهالك والمشاكل التي تورّطت فيها مسيرة الأمة. كلّ هذا بعد الجهود الكبرى التي بذلها الاستعمار لكي تنسى الأمة إسلامها.

يقول عليه السلام مخاطباً مجموعة من حراس الثورة عام ١٩٧٩:

إن الإسلام كاد أن ينسى وكادوا يقضون عليه، وكادوا يسحقون القرآن، إلا أن ثورتكم يا شباب إيران، ونهضتكم يا أبناء الشعب الإيراني - وهي نهضة إلهية - أحييت القرآن وأحييت الإسلام وأعطت الإسلام حياة جديدة<sup>٢</sup>.

- وهذا التفهّم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي، في التخطيط لإفناء الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دماؤها.

- وكذلك تفهّم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، ونوع المرحلة التاريخية التي تعيشها.

- وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتّر المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

١. كلام الإمام ج ١٥، ص ٣٢٠.

٢. كلام الإمام ج ١٠، ص ٣٧٨.

- ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدة على كل الأرض الإسلامية.

- ثم هذا التخطيط العلمي الرائع للتقريب بين المذاهب الإسلامية وتطبيق قاعدة تتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

.. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنها تكشف جميعها عن التطلّع والعمل على صنع المستقبل.

- وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقصّ مضاجع اللصوص الكبار، وتمهزّ عروش العملاء الصغار، وتمزّق أستار المستترين والمتبرقعين، إثرها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمدُّ أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسياً دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

يقول الإمام الخميني في رسالته إلى الشعب عام ١٩٨٠:

إنني لأخجل حقاً حينما أشاهد هذا الجيل الشاب الذي يطالبني - وهو في عنفوان شبابه - أن أدعو له كي يرزق الشهادة.<sup>١</sup>  
ويقول أيضاً مخاطباً الشبان:

أنتم ذخائر الإسلام، وإن هذا التحول الذي حدث بين شبابنا إنما هو صنع إلهي.<sup>٢</sup>  
- وأخيراً وليس آخراً، هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة، وذلك يمثل ظاهرة إسلامية ضخمة. وأضححت المرأة المسلمة في طليعة الثائرين حتى قال فيها الإمام الخميني: أنتن قدتن الثورة الإسلامية.<sup>٣</sup>

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى مجموعة من المحرومين في أواخر عام ١٩٧٩:

١. كلام الإمام ج٦، ص ١٠٦.

٢. المصدر نفسه ج ١٠، ص ١٣٩.

٣. المصدر نفسه ج ٦، ص ٨٤.

إنكم إذا أمعنتم النظر فستجدون قادة القوى العظمى يعيشون الاضطرابات والقلق، إنّه ليقلقهم أن تنطلق جماعة تعمل باسم الله ولا ترجو إلا ثوابه. إنّها نعمة إلهية ولن نستطيع أن ندرك عظمة النعم الإلهية الخفية.<sup>١</sup>

كل هذه المظاهر أشار لها الإمام وعمل على تكرارها على مسامع العالم ليحقق غرض العزة والشعور بالكرامة والثقة بالمستقبل في نفوس جماهير الأمة، في حين يبعث الرعب في قلوب المستكبرين، وللرعب جيش لا يقهر وله دوره الذي تحدّثنا عنه الآيات القرآنية الشريفة في دحر العدو الكافر.

### عوامل الصحة

ومن يستعرض عوامل الصحة الإسلامية المعاصرة كما يصوّرها الإمام الخميني عليه السلام ربما يحار في وضعها في سلسلة العوامل أو في سلسلة النتائج، إلا أن هذه الحالة حالة طبيعية، ذلك لأننا نتحدّث عن ظاهرة اجتماعية تعيش مع الإنسان، فهي بالقدر الذي تصنع فيه تأثيرها تتأثر بدورها وتكبر وتقوى في نفس الوقت.

خذ على ذلك مثلاً عامل توفّر القيادة الواعية الصبورة، فإنّه عامل حاسم في صنع التغيير، إلا أن التغيير نفسه يهب القيادة وعياً أكبر وجلداً أقوى ونظرة أكثر خبرة لكي توأصل مسيرتها الطويلة.

وهكذا يمكن القول عن باقي العوامل، وهذا ما سنعرفه من خلال هذا البحث الشيق في كلمات الإمام الخميني وتصوّراته عن الصحة المباركة.

وأهم ما لاحظنا من عناصر هي كالتالي:

- التأييد الإلهي.

- توفّر القيادة الواعية.

- توفّر مجموعة من العلماء والمفكرين المرين.

- تأهل الشعب لعملية التغيير.

١. المصدر نفسه ج ١، ص ٥٠.



- ظلم الطغاة.

- قدرة الإسلام نفسه من خلال تصوّراته وتعاليمه ومناسباته على صنع التغيير.

- الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها.

ولعلنا نجد هذه العوامل هي الأهم في صنع الثورة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول الأكرم محمد ﷺ فلقد كان التأييد الإلهي - قبل كل شيء - هو العامل الأهم، كما كانت شخصية الرسول ﷺ صاحبة الأثر العظيم، في حين كان استعداد الأمة للعمل - وهو استعداد نما شيئاً فشيئاً - ذا أثر ضخم في صنع ذلك التحوّل التاريخي الكبير. وطبيعي أنّ الرسالة التي حملها أولئك المؤمنون كانت ذات خصائص كبرى وفّرت السبيل للنصر ودخلت إلى القلوب وتعمّقت مع الجذور الإنسانية، ولعل الآية الشريفة التالية تشير إلى أهم هذه العوامل.

يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي آتَىكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ \* وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

فلنستعرض إذن باختصار دور هذه العوامل في كلمات الإمام:

### العامل الأول: تأييد الله تعالى

وهذه حقيقة أكّدها الإمام مراراً وأعلن أنّ الذي صنع هذه الصحوة هو لطف الله ورحمته، وإننا لم نكن إلا وسائل لنزول هذه الرحمة الإلهية، ولعله لم يكن يخلو كلام للإمام من ذكر هذه الحقيقة، وهو ما شهدناه في بعض النصوص الماضية.

وكمثال على ذلك يقول في رسالته إلى الطلاب في أمريكا عام ١٩٨٠:

إن الثورة الإسلامية بتأييد الله المَنَّان تتسع على المستوى العالمي وهي بمشيئة الله سوف تجر القوى الشيطانية إلى التقوقع والانزواء.

### العامل الثاني: توفر القيادة المطلوبة

وهذه بدورها حقيقة مهمة وما أكثر ما كانت بعض أنماط الصحوة تتجلى هنا وهناك إلا أنّها تؤول إلى الاضمحلال بسبب عدم توفر القيادة الكفؤة أو ضعف هذه القيادة، ومن هنا فالقائد دائماً هو المستهدف من قبل أعداء الصحوة للتصفية الجسدية أو المعنوية، وكلنا يعلم دور الدعايات المشتركة ضد الرسول العظيم ﷺ وأتباعه المخلصين.

وأول ما يشترط في القائد الإخلاص للقضية والتواضع الخلقى والعمل في سبيل تحقيق رضا الله، فهو روح العمل وسرّ استمراره وتوفيقه، فهو ينظر للواجب قبل أن ينظر لنتيجة العمل.

يقول الإمام الخميني في حديثه لسكان كردستان عام ١٩٧٩:

إلهي إنّك تعلم أنّنا ما طلبنا في نهضتنا هذه سوى رضاك، وإنّك لتعلم أنّنا نفر من الظلم حتى ولو أصاب فرداً واحداً.<sup>١</sup>

ويقول لمراسل صحيفة بالتيمورسان قبيل نجاح الثورة:

إنّني بعون الله تعالى سأقوم بواجبي في خدمة الإسلام والمسلمين وسأستمرّ ما لم يكن هناك منع (إسلامي) للاستمرار.<sup>٢</sup>

وفي حديثه لوزير الداخلية والمحافظين في أواخر عام ١٩٧٩ يقول:

إن علينا واجباً يجب أن نقوم به وهو ما فعله، والذين يعملون بواجباتهم ليس المهم لديهم النصر أو الهزيمة، فإذا انتصرنا فهو حسن، وإذا انهزمنا فقد هزم من قبلنا أمير المؤمنين والحسين ولكنهم قاموا بواجباتهم وها نحن نعمل بواجبنا.<sup>٣</sup>

وعندما يسأله مراسل التايمز اللندنية قبيل نجاح الثورة عن حياته الشخصية يجيب:  
حياتي الخاصة حادثة فردية من مجموع حوادث العالم ولا تحتاج إلى توضيح، أما عقيدتي فهي كعقيدة سائر المسلمين في تلك المسائل الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة والقادة

١. كلام الإمام ج ١٥، ص ١٨٧.

٢. المصدر نفسه ج ٦، ص ٤٠.

٣. المصدر نفسه ج ٦، ص ٦٠.

الصادقين، بعده، وروح هذه العقيدة وأهمها وأجلها عقيدة التوحيد.<sup>١</sup>  
وعندما تحدّث أحد النواب في مجلس الشورى بحضوره فأطرب في وصفه رد عليه قائلاً:  
إنني لأخشى أن تكون هذه الأقوال وأمثالها سبباً لحدوث حالة من الغرور والانحطاط  
لي وإنّي لاعوذ بالله - تبارك وتعالى - من الغلو، ولو كنت أعتبر نفسي حائزاً على مرتبة أعلى  
من سائر الأفراد فذلك انحطاط فكري وتسافل روحي.<sup>٢</sup>

ويقول في حديثه في لقائه بالطلاب الدارسين في الهند عام ١٤٠١هـ:  
إن علينا تحقيق مفاد الآية الكريمة ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾<sup>٣</sup> وعلى الشعوب  
الإسلامية أن تحقق الحق في مجتمعاتها وتبطل الباطل.<sup>٤</sup>

ومن شروط القائد أن يكون شعبياً متواضعاً يعيش مع الجماهير المسلمة ولها، ويفكر في ما  
يصلحها ولا ينزل عنها، كلّ هممه خدمتها ورضاها، يعي آلامها ويعيش آمالها، ويحكّم  
قلوبها قبل أبدانها. وهو ما طبّقه الإمام الخميني نفسه على حياته الشخصية والسياسية. يقول  
الإمام في رسالته إلى الشعب في عيد انتصار الثورة الأول:

إن الأطباء منعوني من الاشتراك في عيد الشعب الغيور والجيش الإسلامي إلا أن قلبي  
مع الشعب الشريف، والجيش الإسلامي الوطني والحرس، ودعائي المتواضع يودّعهم  
وسأبقى ما بقي في رفق من الحياة خادماً مضحياً في خدمة الجميع.<sup>٥</sup>

ويقول في كلمته إلى الخطباء والعلماء في طهران عام ١٩٨١:

إننا جميعاً رهن لمنة هذه الجماهير العظيمة. إننا نعطي كلّ شيء في سبيل الإسلام ولا

تطلب شيئاً.<sup>٦</sup>

١. كلام الإمام ج٦، ص ٧٧.

٢. المصدر نفسه ج٦، ص ٩١ - ٩٢.

٣. الإسراء: ٨١.

٤. المصدر نفسه ج١٥، ص ١٧٣.

٥. كلام الإمام ج٦، ص ٥٨.

٦. المصدر نفسه ص ١٠٤.

ويقول قبيل الثورة وهو يقيم بباريس:  
 إن شعبنا يعتبرنا خدماً للإسلام والوطن، والمسائل التي نطرحها كانت في ضمير هذا الشعب، ولذا فنحن نتحدث عن مطالب الشعب.<sup>١</sup>  
 ويقول مخاطباً الوفد المرسل للتحقيق في الحرب المفروضة، وكان يضم بعض القادة الكبار عام ١٩٨٠:

إنني أنصحكم أيها السادة وأنتم على رأس بعض الأقطار الإسلامية أن تسعوا لتحكموا القلوب لا أن تحكموا الأبدان والقلوب عنكم بعيدة.<sup>٢</sup>  
 وهكذا كانت سيرته العملية، فلم يكن شيئاً ولم يسكن قصراً ولم يترك شيئاً يذكر. كانت حياته تتلخص في بيت مستأجر وغرفة صغيرة ومصحف وبعض الكتب المهداة، وهذا وهو الرجل الذي يهّذ القوى العظمى وينغص حياة ذوي القصور الفارحة في أنحاء العالم.  
 كان يعيش مع شعبه بكل وجوده، وهذا ما يشهد له به التاريخ.

ومن الأمور المشترطة في القائد بشكل طبيعي أن يتمتع بالأهلية العلمية، ذلك أنه يريد أن يقود تحركاً عقائدياً ويسعى لتطبيق منهج إنساني متكامل وأطروحة جامعة. وطبيعي أن القائد يجب أن يطبق الأطروحة على نفسه، كما يسعى للالتزام بتوجيهات الأطروحة ومناهجها في أسلوبه العملي حتى إذا ما انتصر راح يعمل على تطبيقها على الحياة الاجتماعية تطبيقاً ترضاه أدلتها ومنابع رؤيتها للواقع والحياة. وهذه أمور تتطلب أن يكون القائد متمتعاً بالصفات العلمية والخلقية العليا، وهي في الواقع ما يسمّى بالأساس العقلي، أي الأساس الطبيعي لنظرية ولاية الفقيه، فلا بد لقيام الحكومة الإسلامية من وجود ولاية تسوّغ إصدار القوانين والتحديدات التي تستتبعها هذه القوانين للحرية الأصلية للأفراد تحقيقاً لطموحات الرسالة ومصالح المجتمع، وهذه الولاية إنما تمنح للشخصية التي تتمتع بالقدرة الفقهية والسلوك الملتزم العادل والأهلية القيادية المطلوبة، ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبعاد هذه النظرية الإسلامية الأصيلة بقدر ما أردناه من الإشارة إلى ضرورة تمتع القائد بهذه الصفة العلمية.

١. المصدر نفسه ص ٢٩.

٢. المصدر نفسه ص ١٨١.

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى الناس في أوائل عام ١٩٧٩: إلهي إنك تعلم أنني لا أدافع عن العلماء (ودورهم) لأنني منهم بل لأنني أعلم أن هذا الصنف من الناس هو الذي يستطيع إنقاذ الشعب.<sup>١</sup> وكان من تأكيدات أنه يتم الالتحام بين الجامعات العلمية الدينية (الحوزات) والتي كانت المدرسة الفيضية مثلاً لها، والجامع العلمية الحديثة (الجامعات الأكاديمية)، وذلك بعد أن عمل الاستعمار على إيجاد الهوة السحيقة الملأى بالتهمة والسخرية بينهما. لذلك نراه يقول مخاطباً مجموعة من العلماء الدينين والأساتذة والطلبة الجامعيين في أوائل عام ١٩٨٠:

لقد هدمتم ذلك السد الكبير بين ما نسميه بالفيضية<sup>٢</sup> والجامعة، إنها الخطوة الأولى والتي يجب أن تستتبعها خطوات فتعملوا على أن تكونوا مستقلين غير تبعيين... إن الأجيال الآتية يجب أن تعلم بضرورة وحدة هذين المركزين، وإنما يتم ذلك من خلال العلم والعمل. العلم والتهديب، يشكلان جناحين لا يمكن الطيران بأحدهما فقط.<sup>٣</sup> وطبيعي أنه إذا تمّ الالتحام وقفت كلّ الجامعات العلمية تسند القيادة علمياً وعملياً. وعندما حاول بعض المفكرين الجامعيين النيل من مكانة الفقهاء وذلك قبيل نجاح الثورة الإسلامية عاتبهم الإمام الخميني قائلاً: لقد عمرتُ ثمانين عاماً وعشتُ ستين عاماً في الجامعات العلمية، ولي منذ حوالي ثلاثين عاماً اشتراك في مسيرة الأمور الاجتماعية، وإمامي هذه العقود الأخيرة بكل حوادثها، ومعنى ذلك أنني لا أفتقر للخبرة في هذا المجال، ولذلك فإنني أعلن من خلال معلوماتي عن مسيرة الإسلام منذ الصدر الأول وحتى اليوم، أن الذين حفظوا المسيرة الدينية بكل أبعادها هم العلماء.<sup>٤</sup>

١. كلام الإمام ج٦، ص ٥٢.

٢. المقصود هو الحوزة العلمية بقم، والفيضية واحدة من المدارس الدينية في الحوزة، لكنها أصبحت من رموزها.

٣. كلام الإمام ج٦، ص ٦٣.

٤. المصدر نفسه ص ٧٣.

### العامل الثالث: قيام العلماء بواجباتهم

إدراكاً منه لدور العلماء نجده يتوجه إليهم ويذكرهم بدورهم في عملية النهضة الاجتماعية ويعمل على نفي العناصر العميلة والتي يسميها بوعاظ السلاطين، وهو مصطلح طرح من قبل على ألسنة بعض المفكرين الاجتماعيين إلا أنه كان معبراً عن روحية هذه الطبقة. وقد هاجمها الإمام الخميني بشدة، وحذر الناس منها وطردها من المسيرة الاجتماعية. إنه يؤكد في حديثه لأهالي مدينة قم في أوائل عام ١٩٨٠:

لقد قلت مراراً إن العالم الذي يعمل خلافاً لشأن العلماء وتعاليم الإسلام ويتأمر علينا، إنه أشد من السافاك<sup>١</sup>، بل هو سافاك معمم... إن لي نفوراً من الكثير منهم ولا أؤمن بالكثير منهم...<sup>٢</sup> ويؤكد في كتابه (ولاية الفقيه)<sup>٣</sup> قائلاً:

إن ذلك الفقيه الذي يدخل في جهاز الظلمة ويعود من حواشي البلاط ويطيعهم ليس أميناً ولا يمكن أن يحمل الأمانة الإلهية، والله وحده يعلم مدى المصائب والمحن التي صبها علماء السوء هؤلاء على الإسلام.

وفي قبال ذلك يؤكد الإمام الخميني في أماكن كثيرة وتأكيد شديد على قيام العلماء بواجباتهم في سبيل دفع عجلة الصحوة إلى الإمام:

لقد رأينا أناساً كانت مجرد معاشرتهم وملاحظة سيرتهم تترك أثرها التنزيهي على الآخرين. إن عليكم أن تهذبوا أنفسكم إلى الحد الذي يترك سلوككم فيه وأخلاقكم وإعراضكم عن الدنيا أثره في إصلاح الناس، فيقتدون بكم، وتعدون أسوة للأنام، وجنداً لله، لتستطيعوا أن تعرفوا الإسلام، والحكومة الإسلامية. لا أريدكم أن تتركوا التفقه، بل عليكم الدراسة المتواصلة بكل جدية، وأؤكد على هذه المسألة. لا تخلوا الحوزات من الفقهاء، وما لم تتفقهوا فإنكم لن تستطيعوا أن تخدموا إسلامكم، إلا أن عليكم خلال دراستكم أن تعرفوا الإسلام للناس.

١. اسم جهاز المخابرات عهد شاه إيران.

٢. كلام الإمام ج ٦، ص ٦٢-٦٣.

٣. المصدر نفسه ص ١٩٩.

ويضيف:

إن تحطيم الطاغوت - أي القوى السياسية المنحرفة الحاكمة - في وطننا الإسلامي إنما هو من واجباتنا<sup>١</sup>.

وقبل أكثر من خمسة عشر عاماً من نجاح الثورة، كان الإمام الخميني يؤكد هذه الحقيقة: على علماء الإسلام الدفاع عن أحكام الإسلام المسلّمة، واستقلال الأقطار الإسلامية، والنفور من الظلم وإسرائيل وعملائها وأعداء القرآن المجيد، والإسلام، والوطن... إنَّ السكوت في هذا العصر في قبال الظلم إنما هو إغانة عليه<sup>٢</sup>. ويقول أيضاً ﷺ:

إن الفقهاء يجب أن يقودوا الشعب ويمنعوا من اندراس معالم الإسلام وتعطيل أحكامه... إنهم اليوم حجّة على الشعب تماماً كما كان الرسول حجّة على الأمة وكانت الأمور كلها موكولة إليه، فكل راد عليه محجوج، والفقهاء منصوبون من قبل الإمام ﷺ حججاً على الناس<sup>٣</sup>. ولا ننسى هنا أن نشير إلى صفة كان الإمام القائد يؤكّد عليها في القيادة، وهي صفة الشجاعة في قول الحق، وهي صفة تمتع هو بها في القمة إذ يقول مثلاً: إن (رجال السلطة) يعاملونني معاملة العبيد في القرون الوسطى، إنني أقسم بالله العظيم بأنّي لا أريد حياة كهذه. (إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)<sup>٤</sup>، ليتهم يقبضون عليّ حتى أعلم إنّي قد أدت واجبي<sup>٥</sup>. ويقول ﷺ:

لقد أعددت قلبي لرمح عملائكم ولكنني لن أتقبل الخضوع أمام الجبابرة<sup>٦</sup>.

١. ولاية الفقيه ص ٢٠٣.

٢. بيان صادر بمناسبة الخامس عشر من خرداد عام ١٩٦٣.

٣. ولاية الفقيه ص ١٠٦ و ١١٨ وغيرهما.

٤. العبارة التي قالها الإمام الحسين ﷺ في كربلاء قبيل استشهاده.

٥. بيان إلى الشعب عام ١٩٦١.

٦. في بيان صادر عام ١٩٦٢.

والحقيقة هي أننا نستطيع أن نجعل من أهم عوامل الصحوة قيام العلماء بواجباتهم.

#### العامل الرابع: التحوّل الشعبي باتجاه الإسلام والمعنويات

والواقع أنّ عمل العلماء انصبّ على أن يستعيد الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفّل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفق يفتجر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دفائنها، وإذا تجلت الفطرة النفسية على السطح الحياتي كان الفلاح كله.

والجدير بالذكر أنّ هؤلاء المفكرين لم يستطيعوا أن يحققوا ما حقّقوا إلا بعد أن حرّروا نفوسهم من المتع الرخيصة، وندروا أنفسهم للهدف، وتخلّصوا من قيود التبعية للحكّام الذين شكّلوا - في فترة الغفوة - قيوداً ظالمةً، وما زال الكثيرون منهم يشكّلون ذلك، وإلا بعد أن اتصّفوا بالعملية والروح التغييرية الإسلامية معاً.

يقول الإمام الخميني عليه السلام عام ١٩٧٩:

إن ما حدث في إيران من ثورة معلول لعاملين: الأول: - وهو الأهم من غيره - هو أنّ الشعب التحم مع الإسلام في مسيرته، بمعنى أنّ إيران من أقصاها إلى أقصاها كانت تطالب بالإسلام. والأمر الثاني: إن جميع الأصناف والقطاعات اتّحدت وتلاحمت فيما بينها.<sup>١</sup> ويقول في حديثه إلى بعض الجنود في نفس السنة:

سر انتصارنا يكمن في أنّ نهضتنا لم تكن سياسية فقط أو لانقاذ النفط من التبعية فحسب، وإنّما كانت تمتلك بعداً معنوياً إسلامياً، شابنا كانوا يتمنون الشهادة ويستقبلونها تماماً كما كان المسلمون في صدر الإسلام.<sup>٢</sup>

ويقول أيضاً:

هذه الهدية الغيبية، وهذه الحرية، وهذا الخلاص من تحكّم الظالمين، وهذا الاستقلال الذي منحنا الله إياه وقطع عنا أيادي الأجانب إنّما هو لقوة الإيمان ووحدة الكلمة والاتجاه

١. كلام الإمام ج ١٠، ص ١٤٧.

٢. المصدر نفسه ج ١٠، ص ١٢٩.



إلى الله - تبارك وتعالى - حيث ألقى يد العناية الإلهية على رؤوس هذا الشعب ظلها، وحققت هذا النصر، فلتحفظوا هذه الهدية الإلهية.<sup>١</sup>

ويقول مخاطباً مندوبي السودان والأردن بعد عام من نجاح الثورة:

إن على المسلمين أن يوجدوا التحوّل المطلوب؛ التحوّل من الخوف إلى الشجاعة، التحوّل من التوجّه للدنيا إلى الإيمان وإلى الله، فإن منشأ كلّ الانتصارات أن نتحوّل إلى موجودات إسلامية إنسانية إيمانية كما أراد الله لنا.<sup>٢</sup>

ومن الملاحظ هنا أنّ القائد الحكيم هو الذي يراقب مسيرة الثورة بكل دقة، فإذا ما حدثت حالة (الإقبال الثوري) لدى الأمة عمل على استثمارها على أفضل وجه، في سبيل تحقيق مصالح الشعب، وتصعيد الوعي لتحقيق الصحوة المطلوبة. ولنا من القرآن الكريم وعمل الرسول الأكرم والقادة خير الأدلة والتطبيقات لهذه القاعدة الأساس.

### العامل الخامس: اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري

عندما يتصاعد هذا العامل، وبالأخص عندما يتصاعد الإحساس الشعبي بهذا الظلم، يترك أثره في تحريك الجماهير نحو بذل الغالي والرخيص للخلاص منه، وتحقيق التغيير الاجتماعي المطلوب.

يقول الإمام الخميني عليه السلام في جوابه على رسالة الرئيس الليبي أواخر عام ١٩٧٧:

الشعب الإيراني وبعد انقضاء المراحل الزمنية السود المألوفة بالعنف، وبعد تحمّل أزمة مرعبة، وفقدان الاستقلال، وضياع الشعائر الإسلامية والوطنية على أيدي الجناة الذين تقف على رأسهم عائلة بهلوي المجرمة، وبعد مشاهدة كلّ ذلك السلب والنهب، وأنماط الخيانة اللامتناهية للمقدسات الدينية والوطنية، والذخائر الوطنية العظمى وفي طليعتها القوى الإنسانية والتراث الثقافي، هذا الشعب - وبمشيئة الله تعالى وتوكله على الإسلام والقرآن -

١. كلام الإمام ص ١٣٦.

٢. المصدر نفسه ج ١٥، ص ٦٠.

عاد إلى ذاته وراح من خلال نهضته الإسلامية يتقدم كسيلٍ عارمٍ لتحطيم السدود الكبرى للاستعمار والاستبداد....<sup>١</sup>

ويقول عليه السلام مخاطباً مجموعة من عشائر محافظة (بوير أحمد):

أحد العوامل التي حققت لكم النصر، هذا التصاعد في الظلم والإرهاب. ذلك أن الرعب والإرهاب عندما يطغى فإن الانفجار سيتبعه، ويتجمع الحقد الشعبي لتطلقه صرخة شجاعة، وفي إيران تجمعت هذه العقد النفسية وحصل الانفجار، والأهم من كل ذلك أن هذا الانفجار رافقه اتجاه نحو الإسلام، ولقد كانت صرخة الإيذان هي انطلاقة هذا التحرك.<sup>٢</sup>

### العامل السادس: الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها

وهذا عامل واسع الأبعاد بدوره، ذلك أن الإسلام - بمعنى من المعاني - يربّي الإنسان على أن يكون تغييرياً ثورياً دائماً لا يقبل مطلقاً بواقع فاسد. ومن أساليبه المهمة مسألة تعيين بعض الأماكن والأزمنة والشعائر لتمتلك زخماً معنوياً ثورياً يفوق الحالة الاعتيادية، ويعمل على إيجاد ضخ معنوي وحالة يقظة وصحو، ويدفع نحو تحقيق المعاني الكبرى التي يريدها الإسلام. فعلى الرغم من أن الله تعالى له ما في السماوات والأرض، وهو معكم أينما كنتم، إلا أنه شاء أن يعين بعض الأماكن وينسبها خصوصاً له بما يسمى (بيوت الله)، كما شاء أن يعين مكاناً معيناً له في الأرض ليكون بيته الحرام، وعلى الرغم من أن الزمان ملك لله تعالى وحده، لكنه شاء أن يعين شهر رمضان المبارك شهراً له، وعلى الرغم من أن الأيام كلها له، لكن هناك أياماً تثير الكثير من المشاعر لذا سميت أياماً لله، وهذه المحطات الزمانية والمكانية لها دورها الكبير في تحقيق عودة إلى الله وسرعة في العملية التغييرية.

والقيادة الواعية الحكيمة هي التي تستثمر هذه المناسبات الإسلامية لتحقيق التغيير المطلوب في مستوى الوعي والصحو. وكم كان الإمام يردد: إن كل ما لدينا من عطاء ثوري إنما هو نتيجة عطاء شهر محرم والمجالس التي يعقدها المؤمنون لإحياء ذكرى ثورة الحسين بن علي عليه السلام.

١. كلام الإمام ج ١٠، ص ٨٠.

٢. المصدر نفسه ج ١٠، ص ١٣٧.

وهو يؤكّد في وصيته الخالدة قائلاً:

وليعلموا أنّ تعاليم الأئمة عليهم السلام لإحياء هذه الملحمة التاريخية الإسلامية - ثورة الحسين عليه السلام -... إنّما هو بأجمعه صرخة بطولية شعبية بوجه الحكام الظلمة على مرّ التاريخ وإلى الأبد.<sup>١</sup>  
وعن أثر المساجد يقول في أحد أحاديثه عام ١٩٧٩:

كل الحركات الإسلامية منذ صدر الإسلام إنّما استمدّت انطلاقتها من المسجد، لقد كان المسجد محلاً لتعبئة القوى ضد الكفر والشرك، وأنتم باعتباركم من رواد المساجد يجب أن تحوّلوا المساجد إلى قواعد للإسلام وللحركة الإسلامية ليتمّ قطع أيادي الشرك والكفر وتأييد المستضعفين في قبال المستكبرين.

أما الحج فحدّث عنه ولا حرج، ففي تصوّرات الإمام الخميني عن الحركة الإسلامية يحتل الحج الدور الأكبر، وكان يحرص عليه على أن يحقق الحج دوره العظيم في صياغة المجتمع الإسلامي المؤمن العابد الموحد والمكافح ضد الطغيان.

ولقد كان يضمّن أروع توجيهاته في رسائله المطولة التي كان يوجّهها إلى الحجاج كلّ عام، وإنّا نعتقد أن هذا الجانب يحتاج إلى دراسة معمّقة فاحصة لكي نصل إلى الأبعاد الكبرى التي كان الإمام يرمي إليها في هذا العمل الإسلامي الكبير.

ولم تكن هذه النظرة وليدة نجاح الثورة الإسلامية، بل كان يبشّر بها قبل ذلك بسنين، فهو يؤكّد في كتابه (ولاية الفقيه) على ذلك قائلاً:

يجب استثمار هذه الاجتماعات لأهداف الإعلام والتعليقات الدينية وتوسعة مدار النهضة العقديّة والسياسية الإسلامية.<sup>٢</sup>

ولسنا نريد التوسّع في هذا المجال، وتكفي نظرة سريعة على رسائله إلى الحجاج لنكتشف الأهمية البالغة التي أولاها الإمام لذلك.

ومن المناسبات الإسلامية الأعياد الكبرى باعتبارها يوم العودة إلى الله، وهنا يطلب الإمام من خلال تهانيه أن تدرك الجماهير أبعادها، وقد كانت انطلاقة الثورة الإسلامية

١. كلام الإمام ج ١٥، ص ٧٩.

٢. ولاية الفقيه ص ١٨٠.

الكبرى من يوم عيد الفطر المبارك، فلنلاحظ كيف يبارك الإمام الخميني مناسبة عيد الاضحى المبارك لكل المستضعفين قائلاً:  
أُبارك هذا العيد الإسلامي الكبير لكل أولئك المستضعفين في العالم والذين ثاروا بوجه المستكبرين وأولياء الطاغوت.<sup>١</sup>

**العامل السابع: نجاح الحركات الإسلامية والثورة الإسلامية الكبرى في إيران نفسها**  
فعلى الرغم من أنّ هذا العامل معلول للصحة المباركة إلا أنّه بدوره يشكّل أكبر العوامل لتوسعتها ونموّها في كلّ العالم الإسلامي.

**العامل الثامن: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة.**

وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلا أنّها - جميعاً - قد أجمعت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدّ بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام. وكثيراً ما رأينا الإمام يذكّر بدور المرحوم الأفغاني والمدرس والنوري وحركة فدائيي الإسلام وغيرها.

وإنّي لأعلم أنّ الكثير من أبناء هذه الأمة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أنّ الكثير من المحاولات الاستعمارية والعميلة قد جرت لجرّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على نظم لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة، وطبيعي أنّ هذه المحاولات لا بدّ وأن ينكشف زيفها في أجواء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

وهنا أؤكد أنّ على القادة الإسلاميين أن يديموا دفع عجلة النهضة الفكرية والعملية، بكل ما يملكون من طاقة، بعد أن يحرروا وجودهم وفكرهم من سيطرة الطواغيت، والعمالة للأجنبي، فالتحرير الذاتي شرط أساس لعملية التحرير الاجتماعي.

١. كلام الإمام ج ١، ص ١١١.

وبالتالي فإن التذكير بهذه القضايا وتعميق الرؤية نحوها سوف يترك آثاره الإيجابية على استمرارية عملية الصحوة وديمومة النهضة الإسلامية.

ثم إنَّ عليهم عدم الانخداع بالنماذج التحريفية للإسلام التي يعرضها القشريون والمتنسكون كذباً والمتطفلون على الإسلام.

يقول الإمام الخميني بهذا الصدد:

إن المجتمع الإسلامي اليوم مبتلى بمجموعة من القشريين المقدسين كذباً والذين يعملون على إيقاف مسيرة الإسلام والمسلمين، ويوجهون الضربات للإسلام باسم الإسلام نفسه.<sup>١</sup>

وهو خطر داهم يجب الوقوف ضده، فمن هؤلاء تنبع أفكار من قبيل:

الإسلام ليس إلا مجموعة تعليمات أخلاقية!

لا حكومة في الإسلام!

علينا الصبر حتى ظهور الإمام المهدي عليه السلام!

يجب الفصل بين الدين والسياسة!

الإسلام ينسجم مع كل النظم الأخرى!

أحكام الإسلام فردية أما الشؤون الاجتماعية فمتركة للناس!

لا توجد روح تغييرية أو ثورية في الإسلام!

ليست هناك صحوة إسلامية!

لا مانع من فسح المجال للعدو الكافر كي يعيش في أوكار المسلمين، دفاعاً عن بعض العروش!

وأمثال ذلك من السخافات التي لا نتعب أنفسنا في دفعها إلا أنَّها تستطيع أن تترك أثرها السيئ في أذهان المسلمين.

### (ج) الصحوة وبعض الأعراض السلبية

ذكرنا أنَّه رغم المحاولات المشبوهة التي تعمل على إنكارها، فإن الصحوة الإسلامية

١. كلام الإمام ج ١٥، ص ١٧٦.

عادت حقيقة واضحة لها ظواهرها وآثارها في سوح التصور عن الحياة، ودور الإسلام في صياغة مستقبل الأمة ومسيرتها السياسية والاجتماعية، كما أنّ لها آثارها في عودة الجماهير إلى الإسلام ومفاهيمه ونظمه والدعوة إلى تطبيقها في شتى المجالات، وطرح مسألة الحل الإسلامي للمشاكل المتنوعة التي تعاني منها الأمة. ونحن نشهد اتساع ظواهر الالتزام بالتقاليد الإسلامية في قبال الأساليب المتنوعة التي يحاول البعض تسويقها للساحة الاجتماعية رغم كونها غريبة على الذوق والذهنية العامة لدى المسلمين. ومن مظاهرها فقدان الطروحات والأفكار الغربية قدرتها التأثيرية، رغم التطبيل والإغراء الإعلامي الواسع.

يقول المفكر المرحوم كليم صدّيقي: إن التاريخ قد دخل الآن طوراً جديداً، لقد تحقّق توقيف تدهورنا وانحطاطنا السريع... وقد برز فينا إدراك جديد بالقدر والاتجاه والهدف.<sup>١</sup> إن الصحوة الإسلامية بقيت على امتداد السنين الطويلة الموعلة في العمق تشكل الهاجس المرعب للغرب بعرضه العريض كما توحى كلمات قادته وسياسييه وكتابه ومؤرخيه ومنظّريه محذرة من يقظة العالم الإسلامي والبديل الحضاري الذي يقدمه الإسلام ممّا يقلص من نفوذ الغرب ويقلل من فرص تفوقه.

وربما حاول بعض الكتاب الغربيين أن يدفعوا المسلمين إلى التسامح بعد اليأس من وجود قوة منافسة للغرب، وهنا تقول السيدة (هانتر) في حديثها عن مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب: إن إمكان ظهور ثقل مضاد اقتصادياً وسياسياً للغرب قابل للنمو، يوفر للدول الإسلامية حليفاً محتملاً ومصدر عون، قد يعزز ميولها التنافسية تجاه الغرب ويحثها على تحدي السياسة الغربية، وفي المقابل فإن فقدان هكذا ثقل مضاد من المرجح أن ينتج موقفاً إسلامياً أكثر تسامحاً. وهي في كتابها تؤكد على عنصر تسامح المسلمين وربما تلمّح إلى لزوم انصراف المسلمين عن حالة المنافسة.

(١) افتتاحية (كرسنت) الكندية في ١٥ اغسطس، ١٩٨٠.

(٢) مستقبل الإسلام والغرب: تعريب زينب شوريا، ص ٢٢٥.

## الأعراض المرضية للصحة

والذي نركّز عليه في هذا الحديث هو الأعراض السلبية الكثيرة التي ابتليت بها الصحة الإسلامية والحركات التي تمثّلها - ولو في بعض نشاطاتها - أملاً في ارتفاع الوعي بهذه الأخطار، ومن ثم العمل على التخلّص منها، والسير على طريق الترشيد والتطوير والتأثير الأكبر في صنع غدها الواعد.

ويمكننا أن نشير فيما يلي إلى بعضها:

### ١- التركيز في عملية تطبيق الشريعة على بعض الجوانب الحياتية ونسيان الجوانب الأخرى

وهذه الحالة تُفضي إلى ترك انطباع سيّئ عن العملية وربما يفسح المجال لأعداء الصحة كي يشهروا بها، بالإضافة إلى أن عملية التطبيق نفسها لن تؤتي عطاءها المطلوب إلا في حالة تطبيق باقي جوانب الشريعة. ويبدو ذلك واضحاً من خلال فهمنا للإسلام كأطروحة جامعة مترابطة تحقّق توازناً وعدالة في إشباع الحاجات الإنسانية والتي هي بدورها مترابطة أشد الترابط واقعاً.

ويمكننا أن نمثّل هذه الحالة بعمليات التطبيق الشرعي التي ركّزت على نظام العقوبات، وأهملت الحياة الاقتصادية والتربوية والحريات الاجتماعية وفكرة تحقيق العدالة الاجتماعية.

### ٢- الاتجاه القشري والسطحي في فهم الشريعة

ولا ريب أنّ هذه الحرفية في القراءة، والسطحية في التفكير أفرزت حلولاً ناقصة لا تنسجم مع المنطق، وأبعدت النفوس عن تصوّر الحل الأمثل للمشاكل الحياتية المعقدة عند تطبيق الإسلام، بل قد تدعو - واقعاً - للسخرية وتبرر للعدو اتهاماته الظالمة أصلاً لهذه العملية بالتخلّف والرجعية والتزمّت والجمود وأمثالها. ولعلنا نجد في التجربة الأفغانية الطالبانية الكثير من هذه الظواهر بما لا نحتاج معه إلى التمثيل.

### ٣- الانفصال عن العلماء والمفكرين وحركة الاجتهاد الأصيل

وهذا المعنى يعني تحقّق اجتهادات ناقصة خصوصاً في قضايا حساسة، ممّا يؤدي إلى تطبيقات اعتبارية قد تؤدي إلى مخالفات واضحة للشريعة ومقاصدها.. وهذا ما لمسناه في

حركات الشباب المتحرِّق لخدمة الإسلام والمنفصل عن حركة الإسلام الأصيل ممَّا جرَّه إلى عواقب غير محمودة.

وربما شهدنا بعض المنظرين الغربيين يشجع هذا الاتجاه ومنهم بيدهام برايان، إذ يؤكد على لزوم المنع من احتكار الاجتهاد من قبل الفقهاء وفتح مجال (القراءة الحرة للإسلام) للجميع، فالعلماء هم المانع الأكبر لتقدُّم الأمة، وهو يشجع حتى قادة الصحوة الإسلامية على تجاوز هذا المانع.<sup>١</sup>

والغريب أن نجد في عالمنا الإسلامي كُتَّاباً يدَّعون انتماءهم حتى للحركة الإسلامية يدعون إلى رفض ما يسمونه بـ(طبقة العلماء) وفسح المجال لتعميم الاجتهاد، وأن يكون لكلِّ قراءته المستقلة عن الدين، بل ربما دعوا إلى نوع من الهرمنوطيقيا المنفلتة.<sup>٢</sup>

وما أكثر الحركات التي بدأت مخلصمة ولكنها انحرفت بفعل جهل قادتها وعدم اتصالهم بالعلماء، فارتكست في المخالفات وكل ما لا يرضاه الإسلام، بل وانغمست في الإلحاد، ولا ننسى ما ابتليت به حركات المسلمين السود في أميركا من (ادعاء نبوة الشريف درو علي) و(غيبية فارد علي المنتظر) و(ادعاء النبوة لاليجا محمد) و(الصبغة السوداء المعادية للبيض)، وأمثال ذلك.<sup>٣</sup>

#### ٤- الانبهار والانفتاح أمام بعض النظريات الغربية

وهذه الظاهرة تبرر بعناوين مختلفة؛ كالتجديد في الفكر الإسلامي، أو التحرُّك التنظيمي، أو برجة عملية الثورة والاستفادة من النظريات اليسارية أو اليمينية باعتبارها من الحكمة - وهي ضالة المؤمن يطلبها أينما وجدها - دون ملاحظة أنَّها جزء من كيان له أسسه وبنائه، فما أن تقبل بالمقتضيات حتى تنجر للقبول بالأسس المرفوضة أصلاً. وهذا ما لاحظناه من بعض اليساريين أو اليمينيين في بلدان إسلامية متعددة، ممَّا جرَّ البعض منهم إلى ما يقرب من

١. في مقالات نشرها تباعاً في الاكونوميست اللندنية عام ١٩٧٤.

٢. يراجع كتابنا (الحوار مع الآخر) ص ١٦٢.

٣. يراجع مقال الأستاذ آدم بمبا عن الداعية الأميركية مالكوم اكس في ندوة الحج الكبرى بمكة عام ١٤٢٣.



الإلحاد، والعياذ بالله تعالى، أو إلى حالة من الهجنة الفكرية التي تجمع بين الإسلام والليبرالية أو الاشتراكية، رافعة شعار التطور دون أن تتقيد بضوابط التغيير.

### ٥- الاتجاه نحو العنف والإرهاب

وهو الظاهرة الخطيرة التي قلبت الموازين والإستراتيجيات، ورفعت من حدة الصراع والالتهامات والتحديات وأنماط الحصار ضد الأمة الإسلامية ومعالمها ومعاهدها ونشاطها الاجتماعي بما لا نحتاج لتوضيحه.

وإذا كانت هذه الظاهرة معلولة لعوامل غريبة على واقعنا، أحياناً، أو تشكل رد فعل متطرف لأفعال معادية أحياناً أخرى، فإنها على أي حال لا تعبّر عن تطبيق أمين لنظام الجهاد في الإسلام - كما يتصور البعض منا خطأً أو كما يتصوره الأعداء - فهم يخططون بما يستطيعون لحذف هذا النظام الأصيل وتعليقاته من واقعنا التعليمي، ومن أدبنا وخطابنا السياسي.

ولسنا بصدد إثبات هذا المدعى بقدر اهتمامنا بالقول إنّ الإسلام يرفض الاستخدام العشوائي لأسلحة الدمار الشامل - كما يعبر عنها اليوم - سواء على صعيد العمل الفردي أو العمل الحكومي، والأنكى من ذلك أن يتم ذلك باسم الإسلام والصحة.

نقول هذا دون أن ننسى أنّ أميركا التي تدّعي قيادة الحملة ضد الإرهاب هي التي مولت الإرهاب في مختلف الأماكن وخصوصاً الإرهاب الصهيوني، وهي تستخدم حملتها لفرض عولمتها المجنونة والمتوحّشة - كما يعبر الكتاب الغربيون أنفسهم<sup>١</sup> - على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، ناقضة بذلك القوانين الدولية ومجامعها، وطارحة مفاهيم ونظريات خطيرة، ومن أخطرها فكرة (الحرب الاستباقية)، وفكرة (الثنائية: فإمّا أن تكون معنا أو فأنت إرهابي)، وغيرها.

### ٦- الصنمية التنظيمية، واتباع مصلحة التشكيلات قبل كلّ شيء<sup>٢</sup>

وهي ظاهرة قد يمكن تفهمها في جو مادي أو ليبرالي مصلحي، ولكن لا يمكن قبولها في المنطق

١. رسالة المسلم في حقبة العولمة ص ٥١٥.

٢. يراجع ما كتب حول هذه الظاهرة في كتاب (ثقافة الدعوة) الصادر عن حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

الإسلامي الذي لا يمانع بل ربما يفسح المجال لتنوع في الأحزاب والفصائل المختلفة في اجتهاداتها العملية ولكنه يرفض مطلقاً أن يتحوّل التنظيم إلى قالب فكري حديدي يमित الإرادة الفكرية وقدرة الاعتراض والتأكد من الموقف، ويشجع الذوبان حتى اللاواعي في القادة.

ونحن نجد في ثقافتنا الإسلامية الكثير ممّا يرفض ذلك، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>، أنّ المقصود هو إصغاءهم لهم وإطاعتهم من غير قيد أو شرط، ولا يطاع كذلك إلا الله سبحانه، وقد اخذ المفسرون ذلك من روايات عديدة.<sup>٢</sup>

### ٧- اليأس والتراخي

إذ أنّ الضربات الموجهة التي توجّهها القوى المعادية، وأنماط الحصار الظالم المضروب على الأمة وحركتها الإسلامية، والتهويل الكبير للمصاعب وتشويه التجارب التي نجحت في كسر الحاجز، وكثير غير ذلك ربما يؤدي إلى أن يتسرب اليأس إلى نفوس العاملين فيخلق حالة من التراخي ونسيان الأهداف الكبرى، بل وإلهاء النفس وإقناعها بالمكاسب الصغيرة، والأساليب الدعوية التي تبتعد عن مجالات التغيير وتكتفي باليسير، تاركة القضايا الكبرى بيد المصير المجهول. وما أتعب حال الفئة التي تفقد الأمل وتستكين للذل بعد إن كان الأمل بالله من مميزات المؤمنين، يقول تعالى: ﴿أَنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾<sup>٣</sup>.

### ٨- الاتجاه نحو الإصلاحات الفرعية وعدم التركيز على التغييرات المركزية

ونحن نعلم أنّ الأمور الفرعية - إن لم تلحظ في إطار العملية التغييرية - قد تتحوّل إلى أساليب تحذيرية، وربما ساعدت القوى الاستعمارية، والمحتلة منها، على ترسيخ هذه الظاهرة لكي تؤمّن شيئاً من الرضا الشعبي. وإذا نسيت القضايا المركزية فقدت الأمة حيويتها ومستقبلها.

١. التوبة: الآية ٣١.

٢. تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ج ٩، ص ٢٥٥.

٣. سورة النساء: الآية ١٠٤.

### ٩- عدم تفعيل إمكانات الأمة المتاحة

قد يجمّد الكثير من الإمكانيات الفنية والأدبية والإمكانات الحديثة، بل وربما أهمل الدور العظيم والتعبوي الذي يمكن أن تقوم به العبادات والاجتماعية منها بالخصوص، كصلاة الجمعة والحج في مجال تربية الإنسان المسلم التغييري الذي يرفض الخضوع لغير الله، والعيش في حياة لا يرضاها الله تعالى.

وقد ذكر باحثان جليلان هما الأستاذان السرياني وميرزا أثر الحج في استقلال اندونيسيا أن السلطات الهولندية التي احتلت هذه البلاد الإسلامية من عام ١٦٤١ وحتى ١٩٤٥ لاحظت أنه تحدث ثورات قوية بعد كلّ موسم حج، ورغم أنّ الكاتبين أرجعوا ذلك إلى اتصال الحجاج بإخوانهم من الجاويين<sup>١</sup> إلا أننا نعتقد أن الدور الأكبر هو لعملية الحج والتي تربي في الإنسان الحاج الروح التغيرية عبر ربطه بحركة الأنبياء، وهم أكبر المعيّرين عبر التاريخ، وخصوصاً سيدنا إبراهيم عليه السلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. ويمكن أيضاً ملاحظة تخوّف سلطات الاحتلال الفرنسي من الحج الجزائري مما دفعها لمنعه أو تحديده بشدة<sup>٢</sup>، فإذا انتقلنا إلى الصعيد الفردي نجد أنّ الحج ترك آثاراً ضخمة على الكثير الكثير من الحجاج ممّا لا يمكن إحصاؤه.

إن فئة تعمل على تعميم الصحوة الإسلامية وتعميقها واستمرار حيويتها يجب أن لا تغفل طاقات الإسلام والمجالات المفتوحة، بل تستغلها بكل قوة وإلا استغلها أعداء الصحوة أنفسهم.

### ١٠- فقدان الواقعية، وتجاوز المرحلة

ذلك أنّ عملية التغيير تحتاج إلى تخطيط فكري ومراحل عملية ولا يمكن الإغراق في التفاؤل والعمل على حرق المراحل، فإنّه يؤدي في الغالب إلى الارتكاس في الأخطاء،

١. القيت المحاضرة في ندوة الحج الكبرى في موسم حج عام ١٤٢٤ هـ.

٢. نفس الندوة مقال عن مكة وعواملها في فكر مالك بن نبي للاستاذ مولود عويمر.

وكشف النواقص، والتراجع لفئات لم تتشبع بعد بفكر الصحوة<sup>١</sup> وربما لاحظنا - على العكس - حركات إسلامية أغرقت في المرحلة فلم تستغل الفرص المتاحة بحجة أنها مثلاً مازالت في المرحلة الفكرية فلا يمكنها الإقدام على خطوة عملية.

### ١١- الدوران حول الذات وعدم فتح الجسور مع الآخرين

إن حركة الصحوة الإسلامية لا تتم ولا تتحرك في فراغ بل تعيشها اتجاهات أخرى، وعليها أن تمد الجسور معها.

فرغم أن الاتجاهات العلمانية والقومية والاشتراكية وأمثالها شكّلت في عقود خلت عقبات كأداء أمام الصحوة فإنها بحاجة اليوم للتعايش مع الصحوة، ولا بدّ للصحوة من فتح حوار معها. وربما يجربها الحوار إلى نوع من المهادنة وربما التعاون للقضاء على التخلف والفرقة القاتلة ومحاربة العدو الأكبر. أما الانغلاق ورفض الآخر فربما جمع القوى ضدها وأفشل خططها. بل إن فتح جسور مع حركة المعنويات في العالم والجهات الخيرة، والمدافعة عن حقوق الإنسان والمحرومين والمستضعفين سوف يعود بالخير. وقد شهدنا أخيراً بعض محاولات الانفتاح<sup>٢</sup>.

### ١٢- الاتجاه القطري والإقليمي

ونحن نلاحظ أن بعض عناصر الصحوة والحركة الإسلامية يتجه اتجاهاً ذاتياً قطرياً أو إقليمياً ينعزل به عن اهتمامات مجمل التحرك العام بل ويعمل على تكوين خصائص جغرافية له ينذر نفسه لها ولا يهتم بالخروقات التي تحدث في أماكن أخرى إلا اهتماماً عابراً بحجة (الأقربون أولى بالمعروف) متناسين أن العدو سيتفرد بهم بعد أن يفقدوا مدد الأمة. على أن الأطر الجغرافية نفسها قد تتحوّل إلى قيود وعوامل لتصفية النظرة الإسلامية العالمية وهي أهم ركائز الصحوة ومميزاتها. ولا نريد أن نعطي أمثلة لهذه الحالة لما يستتبع ذلك من

١. (ثقافة الدعوة) نشر حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

٢. من قبيل مؤتمر الحوار الإسلامي القومي في بيروت، ومؤتمرات الحوار المسيحي الإسلامي المتعددة في بيروت والقاهرة وطهران والخرطوم وبعض الدول الأوروبية.

حساسيات ونكتفي بالإشارة العامة.

### ١٣- فقدان التخطيط الإستراتيجي المستقبلي

وهي حالة تعيشها الأمة ويعيشها العالم الثالث فلا يوجد تنظير للمستقبل، ولا توجد أقسام لدراسة المستقبلات، ولا رؤى تحدد ما سوف يواجه الأمة حتى في المستقبل المنظور. وواضح أنّ الذي يمشي دون تخطيط مكباً على وجهه مرشح للعثرات القاتلة، وحاطب الليل قد يقطع يده هو.

إن الدراسات المستقبلية عادت تشكل أقساماً جامعية مهمة في الغرب وتمهد الجوّ للنظريات الإستراتيجية. ونحن نعتقد أن زوبعة (الآيات الشيطانية) ذات المظهر الأدبي، ونظريات (صراع الحضارات) و(نهاية التاريخ) ذات المظهر التاريخي، وفكرة (الحروب الاستباقية) الواردة في السياق العسكري، وبعض إرهابيات (العولمة) وحتى بعض المصطلحات من قبيل فكرة (القرية الصغيرة) و(الحدود المفتوحة)<sup>١</sup> المطروحة في المجال الاقتصادي شكلت في مراحل ما باللون اختبار قبل أن تتخذ سبيلها إلى واقع العلاقات الدولية. فأين الصحوة الإسلامية من هذه المعادلات؟

### ١٤- ظاهرة التمزّق وتراشق الاتهامات

وهي ظاهرة يمكن قبولها في مجال الاتجاهات المادية، ولكن الاتجاه الإسلامي لا يتحمّل مطلقاً هذه الأعراض، فالهدف واحد وروح التسامح وقبول الاجتهاد الآخر والتعامل مع الآخرين بروح الأخوة وفي إطار الوحدة لا تنسجم مطلقاً مع عمل أحدنا على إجهاض مشاريع الآخر إلا أننا مع الأسف نلاحظ وقع هذه الحالة إلى الحد الذي يهدّد وجود الصحوة وهويتها وهي الداهية الدهياء.

### ١٥- العمل الإسلامي في أوقات الفراغ

كثيراً ما نجد العاملين يخصّصون أوقات فراغهم للعمل الإسلامي، أما وقتهم الرئيسي

١. وهي مصطلحات روج الغرب لها لأغراض في نفسه.

فمتروك لشؤونهم الشخصية أو حتى للعمل مع الهياكل التقليدية المرفوضة، وحينئذ تعود الحركة الإسلامية حركة هامشية - كما يعبرُ كلِّيم صديقي<sup>١</sup> - في حين أنَّ الأمر يتطلب أن يكون رُفد الصحوة هاجسنا الأكبر.

### ١٦- الطائفية

وهو عرض خطير عانت منه الأمة الإسلامية وجرت لأجله أنهار من الدماء والدموع. لقد سمح الإسلام - بمقتضى واقعيته ومرونته وتخطيطه ليقى خالداً في توجيهه للحياة - بالاجتهاد، وتنوعت الاجتهادات خصوصاً بعد أن تعقدت الحياة، ونشأت المذاهب غنيّاً فكرياً لهذه الأمة.

ولكن تحول المذاهب بعد ذلك إلى طوائف وتدخل الأهواء الشخصية ومصالح حكّام السوء خلق النزاع بينها وأفقد الأمة حلاوة الاجتهاد الحر، ممّا دعى البعض إلى إغلاق باب الاجتهاد. ونحن نعلم أنَّ الصحوة لم تنطلق انطلاقةً طائفياً بل تحركت في مسارٍ إسلامي عام فأنتجت الكثير الكثير إلا أننا نلمح في الأفق بعض الاتجاهات الطائفية في بعض مجالات الصحوة ممّا يهدد إفشالها وتحويلها عن مسارها الصحيح والمطلوب.<sup>٢</sup>

### ملاحظات تعقيبية

الأولى: ما ذكرناه من ظواهر قد يكون بعضها داخلياً في عموم الآخر، كما قد يكون بعضها معلولاً للآخر ولكننا نعتقد أنها جميعاً تستحق أفرادها بعنوان مستقل لأهميتها.

الثانية: نستطيع أن نعبر عن هذه الأعراض بأنها تحديات داخلية تؤدي إلى نفس ما تؤدي إليه التحديات الخارجية، أو فلنعبّر بأنّ التحديات الخارجية تمتدّ في الفراغ الذي تحدّثه هذه التحديات، وربما كان بعضها معلولاً للتحديات الخارجية نفسها، فقد عمل الغرب لعشرات العقود وخصوصاً في القرنين ١٩ و ٢٠ على تكريس حالتي التخلف والتمزق بشتى أنواعه ومنها الطائفي، في الأمة.

١. في محاضراته في اجتماع منظمة الشباب الإسلامي بالرياض عام ١٩٧٦م.

٢. يراجع كتاب قصة الطوائف للأستاذ الانصاري ص ١٥٥ - ٢٢٠.

الثالثة: تستحق عملية المعالجة وبالتالي ترشيد الصحوة أن يفرد لها بحث خاص إلا أن عناصرها تبدو واضحة عند استعراض هذه الأعراض ونشير فيما يلي إلى بعض ما يجب عمله على ضوء ما سبق:

- ١- ضرورة السعي لتشجيع عملية التطبيق الكامل والمترايط للشريعة.
  - ٢- لزوم التعمق في فهم الشريعة ومقاصدها، والابتعاد عن السطحية.
  - ٣- ضرورة تحكيم دور العلماء والمجامع العلمية، وتفعيل عملية الاجتهاد الحر.
  - ٤- مراقبة التيارات الوافدة، والتحذير من الانبهار بها.
  - ٥- بيان الوجه الرحيم للإسلام ونبذ الإرهاب، ولكن لا يعني هذا الانظام، والسكوت على عمليات الكفر الإرهابية.
  - ٦- نبذ المظاهر الصنمية في العمل الحركي.
  - ٧- بعث روح الأمل في جماهير الصحوة.
  - ٨- التركيز على العمل التغييرى، دونما نسيان للأعمال الإصلاحية الفردية في سياق العمل التغييرى.
  - ٩- الاستفادة من كلِّ الإمكانيات المتاحة.
  - ١٠- التحلّي بالواقعية في العمل.
  - ١١- نبذ الطائفية.
  - ١٢- فتح الجسور المعقولة مع الآخرين.
  - ١٣- تحكيم روح الإسلام السياسى العالمية.
  - ١٤- اعتماد مبدأ التخطيط المستقبلى بعيد المدى.
- وهناك أمور أخرى نوكلها للدراسات المفصّلة<sup>١</sup>.

الرابعة: وهذه التوصيات يمكن أن تقدّم إلى مؤتمر سياسى إسلامى كمؤتمر القمة الإسلامى. وربما يقال: إن هذه الأمور لا ترتبط بالقادة السياسيين فما معنى توجيه توصيات

١. - تراجع مقالاتنا حول الموضوع: مجلة رسالة التقريب العددان ٣٤، ٣٥ ص ٢٢٧؛ كتاب قطر (رسالة المسلم في حقبة العولمة)، ص ٥١٠؛ الصحوة الإسلامية في مؤتمرات متنوعة.

لهم بهذا الشأن؟ إلا أن من الواضح كون الأمر يرتبط بهم ولو بشكل غير مباشر ذلك:  
 أولاً: لأن بيدهم الكثير من أزمّة الأمور في هذه الأمة، وقضية الصحة وترشيدها هي  
 قضية الأمة بلاريب، فلا يمكن أن يعفوا أنفسهم من المسؤولية.  
 وثانياً: لأن الكثير من هذه التوصيات ترتبط بهم مباشرة، خصوصاً بعد أن طالبت بعض  
 الجامعات العلمية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بأمثال هذه التوصيات.<sup>١</sup>  
 وثالثاً: فإنهم يستطيعون أن يوفروا الأجواء المناسبة لقيام الجماهير وتنظيماتها المدنية  
 بأدوار رئيسة لتحقيق ذلك.

### (د) التنوع المذهبي في المجتمعات الإسلامية

#### (علله وتاريخه وواقعه اليوم)

##### مقدمة:

يتميّز الإنسان بارادته الحرة، وهذه الإرادة - وإن كانت نتيجة لأشواق وعواطف متناهية  
 حتى تصوّر البعض من الفلاسفة والنفسانيين أنّ الإرادة هي نفسها شوق متراكم - ولكنها  
 تتميز عن الشوق الحيواني بأنها ترتبط بقناعاته العقلية في مجال (ما ينبغي فعله وما لا ينبغي) أو  
 ما يسمّى بـ(العقل العملي)، وهي أمور لا تتوفر في الحيوان. فالإرادة الإنسانية السوية - إذن  
 ومهما كانت العواطف المتراكمة - تسير بهداية من العقل العملي، في حين تتحرّك الإرادة  
 الحيوانية بدافع شهواني انفعالي أعمى. ومن هنا اعتبر الإنسان الذي يتحرّك بنفس هذا الدافع  
 حيواناً، بل هو أضلّ من الحيوان؛ لأن الله منحه الكابح الفطري وهو العقل فأهمله، يقول  
 تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا  
 يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾<sup>٢</sup>.

١. من قبيل التوصية الصادرة من مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة حول تطبيق الشريعة الإسلامية (قرار

رقم ١٠).

٢. الاعراف: ١٧٩.



فالحيوان يخلو من أي توجيهات عقلانية واعية محاسبة ومثله الإنسان الغافل عن ما يملكه من طاقات.

ومن هنا كانت الحرية لدى الحيوان وشبيهه الإنساني حرية الشهوة والأهواء، وهي حرية منفلثة من عقالتها ومخربة يجب السيطرة عليها في رأي الفلاسفة المسلمين بل والوضعيين أيضاً. فهذا الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي يقول: العقل العملي هو القوة التي تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل من الأمور الإنسانية التي يفعلها في معاشه ومعهده بخلاف القوة التي دونها فإن أفعالها حيوانية لا فكرية<sup>١</sup>.

ويوجه الفيلسوف الألماني المادي هيغل نقداً إلى التعريف الرائج في زمانه للحرية بأنها (القدرة على فعل شيء نشأت إلى) واصفاً التعريف بأنه يوضح عدم البلوغ الفكري؛ لأنه لا يشير إلى الحق والحياة الأخلاقية وغير ذلك<sup>٢</sup>.

وهنا يذكر الأستاذ مرتضى مطهري أن ملاك الشرف واحترام الحرية الإنسانية هو كونها في مسير الإنسانية فالإنسان السائر في هذا المسير يجب أن يكون حراً لا ذلك الذي اتبع شهواته حتى ولو كانت موجهة ضد البشرية<sup>٣</sup>.

ومن هنا وجدنا الإسلام يربّي في الإنسان المسلم العقلانية في الإرادة الفردية والاجتماعية وذلك بشتى الأساليب.

فهو يعتبر العقيدة الإسلامية بأركانها المركزية (التوحيد، النبوة، المعاد) هي الإطار العام الذي يوجه هذه العقلانية بما يتبعها من مفاهيم عامة من قبيل:

- الهدفية في الكون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾<sup>٤</sup>.

١. الأسفار الأربعة ج ٦، ص ٣٥٤.

٢. الفلسفة الاجتماعية والسياسية لهيغل تأليف جان بلامناتر. نقلاً عن كتاب (الحرية، العقل والايمان) للشيخ سروش ص ٤٠.

٣. التعرف على القرآن ج ٣، ص ٢٢٤.

٤. آل عمران: ١٩١.

- والمسؤولية ﴿وَقَفُّهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾<sup>١</sup>.
- والحرية الواعية ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾<sup>٢</sup>.
- والمحاسبة ﴿وَيُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾<sup>٣</sup>.
- والتوازن في الكون والموقف منه ﴿وَالسَّاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ إِلَّا تَطْغَوُا فِي الْمِيزَانِ﴾<sup>٤</sup>.
- ورفض الظلم بشتى أنواعه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾<sup>٥</sup>.
- ومن الظلم عدم إعطاء الحق لصاحبه والتطفيف ﴿لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾<sup>٦</sup>.
- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾<sup>٧</sup>.

نعم في هذه الأطر يربّي الإسلام العقلانية في المسلم ويعمل على تنمية الجانب العقلي فيه ورفع المعوقات عن التفكير الصحيح.

- أ- أما عملية التنمية الفكرية والعقلية فلها برنامج متكامل يشمل - مما يشمل - الأمور التالية:
- أ- فتح باب الحوار الإنساني البناء مع التحلي بالموضوعية، واحترام الآخر، والتركيز على الأمور العملية، واتباع المنهج الأحسن وغير ذلك.
- ب- دفع الإنسان للتغيير نحو الأحسن، وعدم الجمود على وضع متخلف، والتأكيد على بدء التغيير منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>٨</sup>. وعملية التغيير هي من مختصات الإنسان عبر استفادته من قدراته العقلية.
- ج- الدفع نحو التأمل والتدبر والتبيين والاعتبار والتعقل والوعي ﴿لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ﴾<sup>٩</sup>.

١. الصافات: ٢٤.

٢. الإنسان: ٣.

٣. الرعد: ٢١.

٤. الرحمن: ٧-٨.

٥. الشعراء: ٢٢٧.

٦. الاعراف: ٨٥.

٧. المطففين: ١.

٨. الرعد: ١١.

٩. ص: ٢٩.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾<sup>١</sup> ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>٢</sup> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَبَيَّنُوا﴾<sup>٣</sup> ﴿وَتَعِيهَا إِذْنٌ وَعِيبَةٌ﴾<sup>٤</sup> ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾<sup>٥،٦</sup>.

د- فسح المجال لعملية الاجتهاد: اجتهد رأيي ولا آلو<sup>٧</sup>.

هـ- الدفع نحو التشاور ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾<sup>٨</sup>.

كما عمل - على رفع - معوقات التفكير السليم ومنها:

### أ- المطلقات النسبية الوهمية

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾<sup>٩</sup>.

### ب- الخرافات

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾<sup>١٠</sup>.

### ج- التقليد

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>١١</sup>.

١. يوسف: ١٠٩.

٢. النحل: ٦٧.

٣. الحجرات: ٦.

٤. الحاقة: ١٢.

٥. النساء: ٤٣.

٦. الاسفار الأربعة ج ٦ ص ٣٥٤.

٧. مقولة للصحابي معاذ بن جبل رضي الله عنه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم.

٨. الشورى: ٣٨.

٩. يوسف: ٤٠.

١٠. المائدة: ١٠٣.

١١. البقرة: ١٧٠.

## د- الغفلة

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾<sup>١</sup>.

## نشوء المذاهب الإسلامية في ظل هذه الروح العقلانية

ومن الواضح أنه لم يكن هناك شديد حاجة للاجتهاد في عصر الرسول ﷺ بعد إن كانت الأحكام والمفاهيم تؤخذ مباشرة منه، وربما اجتهد بعض الصحابة فاقرهم الرسول على ذلك<sup>٢</sup>.

وكان الاختلاف بسيطاً وعندما اتسعت الرقعة الإسلامية نزلت آية النفر التي قررت واقعاً، وشرعت أساساً للاجتهاد وحجية خبر الواحد فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>٣</sup>.

ولكن وتيرة الاجتهاد ارتفعت بطبيعة الحال بعد وفاة الرسول ﷺ وهكذا استمرت بشكل أشد في عصر التابعين إلا أن المذاهب لم تظهر بشكل واضح محدد المعالم إلا بعد هذا العصر. ويرى الأستاذ السياسي أن العالم الإسلامي شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهباً فقهياً، حتى أن الكثير من البلدان كان يمتلك مذهباً خاصاً به<sup>٤</sup>، في حين ذكر الأستاذ أسد حيدر أنها كانت تزيد على الخمسين<sup>٥</sup>.

وكانت هذه المذاهب التي ظهرت بعد طبقة التابعين كما يرى بعض العلماء مذاهب فردية لم تتبن من قبل أتباع أصحابها، ولذلك انقرضت بانقراض أتباعها، وأخرى جماعية نضجت

١. الاعراف: ٢٠٥.

٢. كما في حديث معاذ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له: بما تقضي إذا لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله قال معاذ (اجتهد رأيي ولا ألو). وإن ناقش بعض العلماء في ذلك (راجع أصول المظفر ج ٣ ص ١٦٦).

٣. التوبة: ١٢٢.

٤. تاريخ الفقه الإسلامي ص ٨٦.

٥. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١، ص ١٦٠.

في ظلّ ما دوّنه أصحابها وأتباعها في مجموعات متكاملة<sup>١</sup>.  
ومن المذاهب البائدة:

- ١- مذهب الحسن البصري (٢٣-١١٠هـ).
  - ٢- مذهب ابن أبي ليلى (٧٤-١٤٨هـ).
  - ٣- مذهب الأوزاعي (٨٨-١٥٧هـ).
  - ٤- مذهب سفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ).
  - ٥- مذهب الليث بن سعد (توفي عام ١٧٥هـ).
  - ٦- مذهب إبراهيم بن خالد الكلبي (توفي عام ٢٤٠هـ).
  - ٧- مذهب ابن حزم داوود بن علي الاصبهاني الظاهري (٢٠٢-٢٧٠هـ).
  - ٨- مذهب محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ).
  - ٩- مذهب سليمان بن مهران الأعمش (توفي عام ١٤٨هـ).
  - ١٠- مذهب عامر بن شرحبيل الشعبي (توفي عام ١٠٥هـ).
- وغيرهم كثير.

أمّا المذاهب التي استمرّت مع الزمن وحتى اليوم فهي:

- ١- المذهب الإمامي الاثنا عشري وقد وسع معارفه الإمامان الباقر والصادق من أهل البيت عليهم السلام.
- ٢- المذهب الزيدي.
- ٣- المذهب الحنفي.
- ٤- المذهب الشافعي.
- ٥- المذهب المالكي.
- ٦- المذهب الحنبلي.
- ٧- المذهب الإباضي.

١. طبقات الفقهاء: القسم الثاني من المقدمة ص ٥٧.

## سر تنوع المذاهب

ولا نستطيع هنا البحث المفصل عن مقدمات نشوء المذاهب ولا عن عوامل الانقراض أو الانتشار، وهي عوامل علمية وموضوعية ذكرها العلماء عند عوامل الاختلاف. فذكر ابن رشد<sup>١</sup> ما يرتبط بتنقيح صغريات حجية الظهور أو حجية القياس وأضاف إليها السيد الحكيم<sup>٢</sup> الخلاف في الأصول ومباني الاستنباط، ويمكن أن نضيف إليه الخلاف في مناهج الاستدلال ومراحله.

وبالإضافة إلى العوامل الموضوعية يمكن تصور عوامل معرفية ذاتية من قبيل سعة المعلومات وضيقها، وعوامل نفسية وفردية كمدى القدرة على التحليل الذهني، وكذلك لا يمكن أن نغفل دور العوامل السياسية والتاريخية والمصلحية والاجتماعية وغيرها.

إلا أن الأهم من ذلك في بحثنا هذا هو ذكر النقاط التالية:

أولاً: لقد كان ظهور المذاهب تعبيراً عن تطور في العقلانية الإسلامية سداً لفرغ غياب الرسول الأعظم وانقطاع الوحي من جهة، وتوسع الحاجات، وكثرة الحوادث، وتعقد المجتمعات من جهة أخرى، وربما لتراكم المعارف الفقهية وانطراح الفروع المتصورة من جهة ثالثة. فهي إذن حالة طبيعية صحية حضارية.

ثانياً: وهذه المذاهب تشكل ثروة فكرية غنية للحضارة الإسلامية لا يستهان بها، كما تمنح الحاكم الإسلامي كما الفرد المسلم مساحة للاختيار الأفضل في مجال عملية تطبيق الشريعة في الحياة الفردية (خصوصاً إذا لم يتعين تقليد الأعلام)، والاجتماعية باعتبار أن الرأي الذي ينتج عن عملية إسلامية معترف بها، وهي الاجتهاد، تصح نسبته إلى الإسلام، وحينئذ يفتح أمام الحاكم الشرعي مجال واسع للمناورة وانتخاب الأصلح من الآراء مما يحقق المصالح (حتى لم يتفق الحاكم مع الرأي في اجتهاده الشخصي) بل يمكنه أن يقوم بعملية توفيق وتركيب بين الآراء للوصول إلى النظرية والمذهب الاجتماعي الأصلح مما يعبر أصدق تعبير عن المرونة الإسلامية<sup>٣</sup>.

١. بداية المجتهد ونهاية المقتصد المقدمة.

٢. أصول الفقه المقارن ص ١٩.

٣. وهذه بحوث علمية قمنا بطرحها في مجامع فقهية رفيعة المستوى ونشرناها من قبل، ولا داعي هنا ←

ثالثاً: هذه المذاهب - كما قلنا - شكّلت غنى للحياة الإسلامية وحالة طبيعة عقلانية كان الوصول إليها متوقعاً، إلا أن الذي حوّل هذه الظاهرة الطبيعية إلى ظاهرة سلبية على المسيرة الإسلامية هو ما نسّميه بالتحوّل إلى الطائفية الضيقة، حيث سعت هذه الروح الطائفية للابتعاد عن التعقل والحوار الذي دعى إليه القرآن الكريم، ونسيان حالة التسامح والمداراة الإسلامية، والخوض في جدال عقيم في بعض الأحيان ومقوت أخلاقياً. ورحنا نشهد فترات مريعة وأساليب لا إسلامية من التكفير والتفسيق والتبديع - كما يعبر الشيخ القرضاوي<sup>١</sup> - مما أدى بعد ذلك إلى نزاع عريض سالت على أثره أنهار من الدماء والدموع، ممّا مزق الأمة وأزالها عن موقعها الحضاري المطلوب<sup>٢</sup>، وقتل أو أضعف الروح العقلانية التي ربّاهَا الإسلام بكل ما يلازمها من (الاجتهاد الحر) و(التشاور المثمر) و(التغيير البناء) و(الحوار المنطقي)، وسيطرت مطلقات وهمية من قبيل (المذهبية المتفردة) و(الحق المحتكر) و(كفر الآخر) و(الاختصاص بالفرقة الناجية) وغير ذلك.

ومن هنا فنحن ندعو بجد لإعادة الحالة المذهبية إلى وضعها عبر إشاعة العقلانية المطلوبة وروح الحوار الإسلامي البناء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبر عنه بـ(حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية).

### حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية

إن ما أطلق عليه اسم (حركة التقريب) في العقود الأخيرة يمتلك جذوراً تمتد إلى أقدم الإسلام؛ لأنّها تستمد أصولها وحيويتها من أصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الأمة في صنع الحضارة الإنسانية أو الإسهام الفاعل فيها على الأقل. وقد نجحت في الفترة الأخيرة في التحول إلى إستراتيجية فاعلة.

للتفصيل (تراجع تقارير المؤلف عن بحوث مجمع الفقه الإسلامي وقد بلغت لحد الآن ستة مجلدات) وتراجع تجربة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر في التعرف على المذهب الاقتصادي في الإسلام.

١. مجلة رسالة التقريب العدد ٣٦، ص ٢١٠.

٢. راجع كتاب قصة الطوائف للأنصاري ص ١٥٥ - فيما بعد.

لقد وضع علماء وشخصيات كبيرة في الأربعينات من القرن الميلادي الماضي للبنات الأولى لهذه الحركة المباركة وجاهدوا حقاً في تبين معالمها وكتبوا العديد من المقالات لترسيخها في النفوس، بعد أن أصلوها وبيّنوا جذورها الشرعيين وضرورتها المتنامية. ونحن سعداء حقاً إذ نجد هذه البذرة قد نمت وتحوّلت إلى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها. حيث اهتمت بها المجامع العلمية كمجمع الفقه الإسلامي والاييسيسكو وجعلتها من أهم أهدافها. وادخلها القادة المسلمون في اجتماعهم الاستثنائي بمكة المكرمة في الخطة العشرية للبلدان الإسلامية، واستقبلها العلماء بكلّ رحابة صدر.

خصوصاً بعد الحوادث التي جرت وتجري في باكستان وأفغانستان والعراق ولبنان وغيرها.

### عقبات.. في طريق التقريب

ولقد أثمرت جهود العلماء والمفكرين والمصلحين اتجاهاً عاماً نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية، وميلاً عاماً نحو تغليب لغة الحوار المنطقية. وترجيحها على أية لغة أخرى انسجاماً مع توجهات الإسلام الأصيلة وتناغماً مع الميل العالمي نحو هذا الأسلوب فيما بين الحضارات والثقافات والأديان.

ونحن إذ نستبشر خيراً بهذا الأمر نعتقد بلزوم تعميقه في الأذهان والنفوس؛ لأنّه اتجاه علمي ونفسي خلقي في آن واحد، يريد أن يتعالى في الإنسان المسلم على خلافه في الرأي مع الآخر، ويتغاضي عما يرتبه هذا الخلاف من مقتضيات التنوّع في السلوك وصولاً إلى الموقف الموحد من التحدّيات الكبرى التي تواجهها الأمة، وكذلك من الأمور الداخلية التي هي لوازم الشخصية الواحدة لها.

وتستلزم عملية التعميق هذه القيام بكل ما من شأنه تحويل الرغبة في التقارب وبالتالي في التفاهم إلى ملكة وخلق اجتماعي أصيل وعام حيث يعود معه كلّ صوت تبعيدي حالة نشازاً وخروجاً على الجماعة، وسعيّاً خارج الدائرة وتحركاً خارج السرب تنفر منه الطباع وتتقرّز منه النفوس.

ولن يتحقق هذا الهدف إلا إذا قام العلماء والمفكّرون بعملية الاستيعاب الكامل للفكرة



أولاً ودراسة تاريخها، آثارها في مسيرة الأمة التاريخية والحضارية ثانياً، وتوعية الجماهير وبأثارها ثالثاً ونقل الفكرة - بالتالي - إلى الممارسة العملية اليومية المستمرة حتى تتحقق تلك المملكة ويسود ذلك الخلق المطلوب.

وربما تطلّب الأمر تنفيذ مشروعات اجتماعية مشتركة في المجالات البحثية أو الاجتماعية وغيرها.

ولعل أهم نقطتين يجب التركيز عليهما في البين هما:

أ - استقصاء الدوافع الدينية والاجتماعية وحتى السياسية باعتبارها مقتضيات التحرك نحو التقريب في الفكر والتوحيد في العمل.

ب - معرفة العقبات والموانع التي تقف بوجه ذلك. أما النقطة الأولى فهي تمتلك مخزونها الواسع في النصوص الإسلامية ويمكن الاستعانة فيها بأساليب القرآن الكريم المتنوعة في الدفع نحو الوحدة من خلال الدعوة المباشرة، وتركيز روح التعامل العقلاني والحوار المنطقي مع الآخر، والتذكير بتوحد العدو - رغم تناقضاته - في جبهة المواجهة مع الأمة الإسلامية، والنتائج الإيجابية للوحدة، والسلبية للتمزق وأمثال ذلك، وله حديث مفصل يذكر في محله.

وأما النقطة الثانية فهي موضع تركيزنا هنا رغم أننا بلحاظ محدودية الزمان لا نستطيع التوسع في الأمر.

### موانع في طريق التقريب

ولعل أهمها ما يلي:

أولاً: العامل الخارجي

من الواضح تماماً أنّ أعداء هذه الأمة يخلقون كلّ الظروف التي تؤدّي لتمزيق هذه الأمة ويقفون في وجه كلّ ما يعمل لتوحيدها. وقد لاحظنا أنّ الاستعمار الغربي عمل خلال فترة احتلاله للعالم الإسلامي، وخصوصاً في الفترة التي احتل فيها العالم الإسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة إسلامية شمولية في الربع الأول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا أنّه اعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

- ١- إبقاء الأمة على تحلّفها العلمي والاقتصادي والتعليمي وغير ذلك.
  - ٢- إشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي إلى جانب تحريك النزاعات القومية والعنصرية ولكن سرعان ما فشل مشروعه ممّا دعى بعض الكُتّاب المعاصرين لتسميته بالنصر سريع الزوال للعلمانية (١٩٢٠-١٩٧٠).
  - ٣- تمزيق العالم الإسلامي إلى دول وشعوب متفرقة، وتحريك العنعنات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية حتى التاريخية كلّ ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي يجري الحديث عن والتخوّف منه باستمرار من قبل القادة والمفكرين والكتاب الغربيين ويتم لصراع دائم مع العالم الإسلامي على أساسه. تقول الكاتبة هانتر في مقدمة كتابها: قامت الرواية التي ألّفها جون بوشان، وكان لا يزال رائداً في استخبارات الجيش البريطاني عام ١٩١٦، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوات الحليفة.
- كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء *The Green Mantle*: الإسلام عقيدة قتالية، إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أنّ هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة فماذا سيحدث يا صديقي؟ ستفتح جهنم أبوابها في هذه الأرجاء عما قريب. لدي تقارير من العلماء في كلّ مكان، صغار التجار في جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في أفغانستان والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكة، والأشراف في شمال إفريقيا، ولاسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهندوس والتجار اليونانيين في الخليج، فضلاً عن القناطر المحترمين الذين يستخدمون الشيفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إليّ على الأمر نفسه، أنّ الشرق في انتظار إشارة إلهية.
- بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبّر المعلق السياسي الأميركي، تشارلز كراوثر، عن مخاوف مماثلة عندما قال: إن الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأني أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها جون بوشان في روايته، فهو يتخذ شكل عالم إسلامي

متّحد تحت راية أصولية على النمط الإيراني تخوض صراعاً وجودياً ضد الغرب الكافر<sup>١</sup>. وهي من أهم النقاط التي ركّز عليها المرحوم السيد جمال الدين في خطته العامة لتحقيق نهضة إسلامية كبرى.

وها نحن نشهد دور اليد الأجنبية الممتدة لتحرك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وأفغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها أتباع المذاهب. وربما استخدمت وسائل الاعلام والأقلام والألسنة المأجورة لتحقيق الهدف.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهده اليوم أيضاً حيث يستغل البعض نفوذه ليثير البسطاء بل ربما بعض المنتسبين لأهل العلم لتحريك الإحن والنزاعات الطائفية. يقول أحد الكتّاب المؤرخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة: وكانت لاتمرّ سنة دون عنف بين ما وصف بفرق السنة وفرق الشيعة في سائر أرجاء المنطقة العربية الإسلامية فقد تولّى الترك بأنفسهم عام ٢٤٩هـ عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان أكثر الضحايا من منطقة (الشاكرية) ببغداد وبتبجتها هوجم السجن المركزي وأحرق أحد الجسرين الواصلين بين جانبي الكرخ والرصافة.

ويستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتن في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة وإلى طبرستان، وتوأصلت إلى شمال إفريقيا وهكذا<sup>٢</sup>.

وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة كمقدمة ابن خلدون وغيرها.

ويكفي أن نذكر بدور النزاع العثماني الصفوي في خلق الفتن الطائفية الداخلية واضعاف الأمة الإسلامية مما جرّ بالتالي إلى أن تفقد شوكتها وعزتها أمام التحديّات.

فلقد سيطرت الدولة العثمانية (١٢٨٠ - ١٩٢٤ م) على الشام وأجزاء من العراق إضافة

١. مستقبل الإسلام والغرب. شيرين هنتر تعريب زينب شوريا ص ١١١.

٢. قصة الطوائف للدكتور فاضل الأنصاري ص ٢٣٣.

إلى مناطق في شمال إفريقيا، وسيطرت الدولة الصفوية (١٥٠٦-١٧٣٤م) على إيران. وراحتا تتنافسان وتؤكدان هويتها المذهبية. مما أفرز نزاعاً طائفيًا مقيتاً سببه نزاع المصالح ونهم الغزاة والقبائل والمستبدين لا المذاهب، وشهدنا استعمار موجة التكفير والقتل وإهانة المقدسات في كلا الطرفين. ونحن إذ نشير إلى هذا النزاع لا ننكر الخدمات التي قدمتها للحضارة الإسلامية ولكننا ننعى عليها استخدام النزعات المذهبية لأغراض سياسية. وإذا كنا ننكر أي إكراه أو عنف للاجبار على تغيير المذهب فإننا ننكره على الطرفين معاً وبمستوى واحد.

ثالثاً: التكفير

وتعدُّ هذه الظاهرة من أهم العقبات بوجه التقريب. ورغم أن الإسلام وضح تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان، وحددها بدقة فإن هذه الحالة الغريبة حدثت بقوة.

فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ:

من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

وفي رواية أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء، وروى الشيخان والترمذي: من شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله حرم الله عليه النار<sup>١</sup>.

وروى سماعة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حققت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهرة جماعة الناس<sup>٢</sup>.

وربِّي القرآن الكريم الرسول الكريم ﷺ أتباعه على التعامل العقلاني والحوار المنطقي والقبول بالتعددية الاجتهادية إذا كانت على أسس شرعية منضبطة.

١. ذكرتها الصحاح في أول ما ذكرته من روايات وجمعها صاحب جمع الفوائد في مطلع كتابه.

٢. الكافي ج ٢، ص ٢٥.

إلا أن هذه الظاهرة حدثت في ظل ظروف عصبية في مطلع الأمر كما في قضية الخوارج. ورغم أن الأمة عبرت هذه الحالة وعادت إلى التعامل المنطقي في عصر أئمة المذاهب وقدم الأئمة أروع صور منطقية وربّوا أتباعهم عليها ولكن العوامل الكثيرة الأخرى قادت إلى عودتها من جديد.

وإنّي أعتقد أن أهم ما قاد لهذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذه الآخر بلوازم كلامه رغم أن هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

فقدياً كثر الخوارج علياً عليه السلام معتقدين أن لازم موقفه من التحكيم كفره والعياذ بالله.

فقد ذكروا أنه شك في نفسه حين قال للحكمين:

انظرا فإن كان معاوية أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتاني فإذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو أحق أم معاوية فنحن فيه أشد شكاً.

ورد الإمام عليهم بقوله: فإن ذلك لم يكن شكاً مني، ولكن انصفت في القول، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>١</sup>. ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيه على الحق<sup>٢</sup>.

وبعد عصر الأئمة دبّت هذه الحالة بوتيرة أوسع وذلك كما لاحظناه في الاختلاف حول (زيادة الصفات على الذات الإلهية) و(التحسين والتقيح العقليين) حيث رأى الطرفان المتنازعان أن الطرف الآخر يقوده رأيه إلى الكفر وهكذا نجد هذه الظاهرة في قضايا كثيرة من قبيل (التوسل) و(الشفاعة) و(البداء) وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسلّة) وغيرها. في حين لواحتكم الجميع إلى الحوار المنطقي لاكتشفوا على الأقل لدى الطرف الآخر ما يبرّر له الإيمان بهذه القضية أو تلك وربما اكتشفوا أن النزاع لفظي لا حقيقة له.

وزاد الجهل والتعصّب الطين بلة حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلاً لها فيفتي

١. سبأ: ٢٤.

٢. الاحتجاج للعلامة الطبرسي ج ١، ص ٤٤٤.

بغير ما أنزل الله. وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا مما أدى إلى سفك الدماء البريئة على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والأمة وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار

لا يحقق التشكيك الجو الهادئ المطلوب، ويدفع لنوع من التهرب أو المماطلة أو تلمس العثرات مما يمنع من تحقق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليات الحوار بين أتباع الأديان نتيجة ما يحمله كل طرف من تراكمات ذهنية عن الآخر فالطرف المسيحي مثلاً يحمل أحقاده الصليبية وإيحاءات المستشرقين بما يسمونه بـ(المهرطقة الإسلامية) وما يدور في نفسه من هواجس الصحوة الإسلامية التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الإسلامي سوابق ذهنية كبيرة عن خدمة التبشير المسيحي للاستعمار على مدى قرون.

ولكن العمل الجاد والتوجه للتعليلات الإسلامية الهادية والداعية لحسن الظن في الأخ المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقريب خصوصاً إذا تم على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضاً في مجالات العلم والاخلاص والعمل في سبيل الأمة بمجموعها.

خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر. وكل واحد من هذه الأمور يمكن أن يشكل بنفسه مانعاً من تحقق الحوار المطلوب وبالتالي الوصول إلى التقريب، وقد وجدنا النصوص الإسلامية تتظافر في المنع من هذه الأمور:

فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾<sup>١</sup>. يمنع من الحوار في الأجواء الانفعالية المصطنعة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>٢</sup> يمنع من الانشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر وذلك أيضاً واضح في الآية التي تنهي حتى عن سب آلهة المشركين.

سادساً: الاختلاف في المناهج

١. سبأ: ٤٦.

٢. سبأ: ٢٥.

اضف إلى كل ذلك أن اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج فينبغي السعي إلى ما يأتي:

- ١- الفراغ من المفروضات المسبقة قبل بدء عملية الحوار.
- ٢- الاتفاق على منهج واحد للاستنباط وليس هذا الاتفاق أمراً صعباً.
- ٣- تحقيق محل الحوار بدقة لئلا ينظر كل طرف إلى قضية ومفهوم لا ينظر ومفهوم لا ينظر إليه الطرف الآخر.

وهناك موانع أخرى من قبيل:

- ١- اعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله.
  - ٢- أخذ تصوّرات المذهب من أقوال خصومه.
  - ٣- دخول من ليس أهلاً في عملية الحوار.
  - ٤- اتباع الأساليب المتلوية للظفر بالآخر.
- وغير ذلك مما لا يسعنا المجال للتعرض له ولكن يجب حذفه حتى نصل إلى التقريب المطلوب بل الضرورة في عالمنا الملتهب.

### تنوع المذاهب بين الماضي والحاضر

انتشار المذاهب بين الماضي والحاضر: لقد تغيرت الخارطة المذهبية على مرّ التاريخ نتيجة عوامل كثيرة، ويكفي أن نقارن بين نصين ذكرهما الشيخ أسد حيدر<sup>١</sup> أحدهما للمقدسي وهو يتحدث عن انتشار المذاهب في القرن الرابع الهجري فيقول: سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وجهر وصعده شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم، وفي نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية وأشعرية، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فيأثم سنة، وأكثر أهل البصرة قدرية (وشيعة) وشم حنابلة.

... إقليم اقور وهو اليوم شمال العراق - أي الموصل ونواحيها - مذهبهم سنة وجماعة،

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١، ص ٢٩٢ طبعة مجمع أهل البيت.

إلا عانة فإنها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة، وإقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكيًا، والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث. إقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أن أكثر فقهاءهم مالكيون، ... وأعلى القصبه شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرة.

وإقليم المغرب، فالمذاهب على ثلاثة أقسام، وأما في الاندلس فمذهب مالك، وقراءة نافع، وهم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلا مذهب أبي حنيفة ومالك.

... إقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش فإتهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبدالله السرخسي.

وإقليم الرحاب مذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنيفة وهم بخارية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، وفي الدينور جلبة لمذهب سفيان الثوري.

إقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف الأهواز شيعة، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون.

إقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة، وللداودية دروس ومجالس وغلبة، ويتقلدون القضاء والأعمال.

إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي.

إقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داودياً إماماً في مذهبه وأهل الملتان (شيعة يجعلون في الأذان ويشنون في الإقامة) ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة<sup>١</sup>.

ومن الواضح أن هذه الجغرافيا المذهبية تغيرت بشكل كبير حتى في القرن الرابع والخامس نفسيهما.

١. أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري طبع سنة ١٩٠٩م بمطبعة بريل.



أمّا عن القرن الثالث عشر الهجري فيحدّثنا العلامة أحمد تيمور<sup>١</sup> بما يلي:  
 المغرب الأقصى يغلب عليه - الآن - المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضاً.  
 (طرابلس) المذهب المالكي. بكثرة، والحنفي بقلة، وهم من بقايا الأسر التركية، وأكثرها  
 في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركاً للقضاء  
 المالكي، وأمّا سائر أعمالها فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين ويلقب بشيخ الإسلام،  
 وله التقدم والزعامة والمعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا - الآن -  
 في تلقيه بشيخ الإسلام أيضاً. ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي، فإن من السنن المتبعة  
 عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفي، والنصف الآخر مالكية. وإنّما امتاز  
 الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة.

(مصر) الشافعي والمالكي، ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر  
 الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتاوى والقضاء الحنبلي قليل بل نادر.

(الشام): الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.

(فلسطين): يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي.

(العراق): يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة.

(الترك): العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان، المذهب الحنفي.

(الاكراذ): المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية، لأن مسلميها من أصل

تركمان أو كردي، والسنينيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفي.

(الأفغان): المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقلة.

(تركستان الغربية): التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأمّا تركستان الشرقية فكان

الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز

وما والاها الحنفي وفيهم شافعية.

(الهند): الحنفي والشافعي بقلة وفيها مذاهب أخرى.

١. نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص ٤٢.

(الهند الصينية): شافعية وكذلك مسلموا استرالية، وفي البرازيل من أميركا نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية.

(أميركا): فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ ألفاً وهم مختلفو المذاهب.

(الحجاز): الشافعي والحنبلي وفيه حنيفة ومالكية في المدن أهل عسير شافعية.

(اليمن): السنيون فيها وفي عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنيفة،

والغالب على عمان الإباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية.

(قطر والبحرين): المالكي وفيها حنابلة من الواردين عليهما من نجد.

(الاحساء): الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي.

(الكويت): المالكي.

ويعلق الشيخ أسد على هذا النص قائلاً:

هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرض

لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر...

ولابد من ملاحظة عامل الزمن والتغيرات السياسية. كما لا يعني أن تقسيمات تيمور

واحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الإضافة في الأسماء والزيادة في العدد<sup>١</sup>.

وهذا صحيح فاستقصاؤه غير مستوعب؛ لأنه لم يتعرض مثلاً للبلاد الإفريقية السوداء،

ولا للمسلمين في الصين وروسية وغيرها.

ورغم أننا نرفض تقسيم المسلمين إلى أكثرية وأقلية إلا أن الواقع يفرض نفسه، وهنا

نجد أن الأكثرية في العالم الإسلامي سنية وعلى اختلاف في البلدان من حيث كثرة أتباع أحد

المذاهب الأربعة (الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي) والأقلية شيعية بلا ريب. (اثنا

عشرية أو زيدية وغيرها) ويوجد أتباع المذهب الإباضي بشكل أكثرية في عمان كما تتواجد

أقليات إباضية في شمال إفريقيا.

فإذا ركّزنا على كل دولة رأينا هذه الحقيقة قائمة في أغلب الدول في حين تنقلب النسبة في

دول كالعراق والبحرين وأذربايجان وتتعاقد تقريباً في لبنان كما أن نوع العلاقات متباين.

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١، ص ٢٩٤.

فالأمر في دول جنوب آسيا ووسطها وإفريقيا وأميركا والدول الخليجية تسير نحو الوثام ومنح حقوق المواطنة للجميع مع وجود خلل في بعض هذه الدول نرجو أن يزول من خلال سعي هذه الدول لتحقيق حالة ديمقراطية مناسبة لها وسيطرة الاتجاه العقلاني والحواري على الاتجاه الطائفي المتطرف.

ولكنه متشنج تماماً في العراق نظراً لتدخل المصالح الاستكبارية أولاً وضعف الحكم المركزي ثانياً وانتشار السلاح بيد المجموعات الطائفية ثالثاً وتلاحم المجموعات الإرهابية التكفيرية مع بقايا النظام البائد رابعاً وثورة النزعات العشائرية والطائفية واتجاهات الثأر المضاد في المرحلة الخامسة.

إلا أنني متفائل بمستقبل أفضل يعيد للنسيج العراقي لحمته الطبيعية وللعراق دوره الطبيعي في القضايا الإقليمية والإسلامية والعالمية. وتفاؤلي هذا ناتج من خبرة لا بأس بها بالتركيبة العراقية والأوضاع الإقليمية والعالمية.

إن إيمان الأغلبية الساحقة للشعب بالحل الإسلامي، ووجود الكوادر الإسلامية المتمرسّة التي عركتها المحنة الطويلة، وتوفّر العلماء الأتقياء التقريبيين كلّ ذلك سوف يساهم في الوصول إلى الغد الأفضل.

وإنني أعتقد أن عملية التوعية الجماهيرية وقيام العلماء بدورهم الوحدوي وأداء الدول الإسلامية والعربية دورها المطلوب في رآب الصدع سوف يؤدي إلى تحقيق المصالحة الوطنية المنشودة.

أمّا الأمر في لبنان فلا يمكن أن يصنّف في حقل الصراع الطائفي وإن سعى البعض إلى ذلك. وإنما هو صراع سياسي محض نسأل الله تعالى أن يوفّق الشعب اللبناني لحله بأفضل وجه. وعدا هذه الموارد فإنني لا أجد أية حالة يؤبه لها في العالم الإسلامي إلا في باكستان ولكنها حالات فردية عابرة.

وفي الختام أسأل الله جلّ وعلا أن يمنّ علينا جميعاً بالعزة والوحدة والتلاحم لمواجهة التحديات المصيرية التي تستدّف ثقافتنا بل وجودنا على مستوى العالم الإسلامي كله.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>١</sup>.

### (هـ) الهوية بين تهديد التنميط وتداعيات التفريط

#### متى ينطرح السؤال؟

عندما تهاجم أمة ذات وعي وموقف من الكون والتاريخ والإنسان ولها إيديولوجيا حياتية مستوعبة مما ينتج تماسكاً هو من صميم فكرها وشخصيتها، فيراد لها أن تغرق في اللأبالية، ويستهدف تماسكها، وعندما يتم العمل على فصل الواقع عن جذورة التاريخية العريقة ومبانيه العقائدية، وخصوصياته المحددة،

وعندما يخطط الأعداء كي يميثوا العقل الجمعي والثقافة العامة والترابط الشعوري والتناسق السلوكي،

وعندما يراد قهر الإرادة وتفتيت الوحدة وكسر المقاومة،

وعندما يُعمل على دفع أية أمة للتردّي في وهدة الحالة الفولكلورية والسطحية لينتج من ذلك إمّا التمجيد والنرجسية الفارغة أو التعصب والعنصرية (وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة هي التفهقر الهوي والتراجعية والتطرف فكراً وثقافة واجتماعياً كما يعبر الدكتور فتحي التريكي<sup>٢</sup>،

نعم عندما يتأمر العدو على أمة ما يبرز سؤال (الهوية) أو (الهوية) كما يعبر بعض الفلاسفة. والهدف الواقعي هو معرفة حقيقة الأمة كما هي ومعرفة حدود هذه الحقيقة ومشخصاتها دونما إغراق في التعميم والنمطية بحيث تتحوّل إلى حقيقة سيّالة ووجود منفتح، ولا تفريط بمعالم الشخصية وتضييع لفرديتها وتشخصها الذي يمنحها ما تمتاز به على غيرها.

#### ما هي الهوية على صعيد الأمة؟

يطرح الفلاسفة حقيقة لا ريب فيها هي أنّ المفاهيم الكلية تبقى ذهنية فإذا أريد لها أن تدخل

١. التوبة: ١٠٥.

٢. الحداثة وما بعد الحداثة ص ١٩٥.

عالم الوجود تشخّصت بحدودها وتعيّنت بمميزاتها الوجودية ولكنها على أي حال لها هويتها في المرحلتين وهي تنطرح في الإجابة على سؤال ما هي أو ما هو؟ بل لا يمكن أن نتحقق من كون هذا الذي وجد هو مصداق لذلك المفهوم إلا إذا كنا نعرف أبعاد المفهوم نفسه.

ولذا يكون السؤال ما هي أبعاد مفهومنا عن ماهية الأمة الإسلامية نظرياً؟ له الأسبقية على سؤال ما هو واقع هذه الأمة ومدى انسجامه مع الصورة النظرية؟

وما تصوّره لهذه الأمة نظرياً يتأطرّ بالإطار التالي:

أولاً: تجمّع بشري يؤمن بتميز الإنسان عن سائر الموجودات الحية بخصائص فطرية لا تتوفر بمجموعها فيها هي:

أ - العقل بأحكامه النظرية والعملية، وقدرته على التخلّص من سيطرة الواقع الحسي وتأثيراته من خلال إدراكاته المتخيّلة، والموهومة والمستنبطة بالإضافة لمحسوساته التي يتجاوزها لتكوين المفاهيم الكلية التي يسرح بينها ليعود إلى الواقع المحسوس ويدرسه ويلاحظ نقاط القوة والضعف فيه ويفترض صورة جديدة تتخلّص من نقاط الضعف وتحتفظ بنقاط القوة، ويرسم لنفسه خارطة توصله للصورة النموذج، وحيث تبدأ عملية التغيير من خلال دوافع العلة الغائية ولذا يمكن أن يمتاز الإنسان بكونه الحيوان المغيّر.

ب - الغرائز والميول، وهي دوافع عمياء تشاركه في بعضها الأحياء الأخرى ويختص هو بميول متعالية (كالشوق إلى الكمال وحب الاستطلاع والتدين وأمثال ذلك).

ج - الإرادة الحرة التي تقرّر الموقف بمسؤولية مهما اشتدّت الضغوط العقلية والعاطفية. ثانياً: ويؤمن بالله تعالى خالقاً للكون مدبراً له وبكل صفاته الحسنى الجمالية والجلالية، وبالأنبياء والرسل وآخرهم الرسول الأكرم محمد ﷺ الذي جاء بالرسالة الخاتمة الخالدة قادة للتاريخ الإنساني ومبلغين لشرائع الله الهادية إلى مدارج الكمال، وبالقيامة معاداً لهذه المسيرة ممّا يعطيها هدفية ومعنى ولكل هذه المعتقدات فروع كثيرة تستفاد منها منطقياً.

ثالثاً: ويؤمن برسالة إسلامية تنظّم الحياة وتبني المجتمع وتربّي العقل والعواطف وتوجّه السلوك كله نحو الكمال وتتصف بالواقعية والأخلاقية والتوازن والمرونة والشمول والعدالة والوسطية إلى ما هناك من صفات منسجمة.

رابعاً: ويؤمن بضرورة المساهمة في المسيرة الحضارية الإنسانية وامتلاك دور طليعي فيها، عبر انفتاح على الحضارات والثقافات وتشجيع على التقدم، واتخاذ منهج حوارى منطقي مع الآخر، وتعاون عالمي في كل ما يخدم الصالح الإنساني العام ويدفع الظلم والعدوان على الحقوق وينصر المستضعفين ويحقق السلام العادل.

### موارد الحذر

وفي مجال تحديد الهوية يجب الحذر من الجوانب السلبية وأهمها:

أ - السقوط في مفهوم ذاتوي متعال، ورجسية تصعيدية لا مبرر لها، ونمطية تهدد كل أنواع الحوار وتنظر لنفسها على أنها نهاية التاريخ ومنتهى التقدم تماماً كما نشهده عند الليبرالية الديمقراطية ومنظريها اليوم، فهم مهما اختلفوا في الوسائل، فهي الصراع أو التنافس، يتفقون على أن المسار الحضاري يجب أن تتجه بوصلته نحو (الليبرالية الديمقراطية) لا غير وحتى أولئك الذين يدون مرونة في التعامل مع الآخر الإسلامي فهم يبقون على الهدف ويخففون من قسوة الوسائل.

إن الهوية الإسلامية رغم قيمها الثابتة الفطرية تفسح المجال للاجتهاد الإنساني أن يقدم إبداعاته التفصيلية، وحكمته العملية التنظيمية الإبداعية، ورجبته الاجتماعية المتغيرة.

ب - السقوط في هاوية التفريط بالقيم الإنسانية الثابتة، وهو مرض قاتل للحضارة يعصف بالقيم والعقل والمنطق والحقيقة والمعرفة، وهو تماماً ما سقطت فيه حالة ما بعد الحداثة الغربية.

إن الواقع الإنساني يحوي ثوابت قيمية هي سر انطباع أية مسيرة بشرية بالطابع الإنساني ومتغيرات طبيعية من قبيل بعض علاقات الإنسان بأخيه الإنسان أو بالطبيعة وإذا كان التعامل مع القيم ثابتاً فإن التعامل مع الجانب المتغير يتصف بطابع المرونة.

وعليه، فنحن ندعو للمرونة الواقعية ونرفض الميوعة المفرطة، يقول الأستاذ الشهيد الصدر: فالتحرك الضائع بدون مطلق تحرك عشوائي كريشة في مهب الريح، تنفعل بالعوامل من حولها ولا تؤثر فيها. وما من إبداع وعطاء في مسيرة الإنسان الكبرى على مر التاريخ إلا وهو مرتبط بالاستناد إلى مطلق، والاتحام معه في سير هادف غير أن هذا الارتباط نفسه يواجه

من ناحية أخرى الجانب الآخر من المشكلة، أي مشكلة الغلو في الانتهاء بتحويل النسبي إلى مطلق وهي مشكلة تواجه الإنسان باستمرار إذ ينسج ولاءه لقضية لكي يمدّه هذا الولاء بالقدرة على الحركة وموأصلة السير، إلا أن هذا الولاء يتجمّد بالتدريج ويتجرد عن ظروفه النسبية التي كان صحيحاً ضمنها، وينتزع الذهن البشري منه مطلقاً لا حد له للاستجابة إلى مطالبه، وبالتعبير الديني يتحوّل إلى إله يعبد بدلاً من حاجة يستجاب لإشباعها<sup>١</sup>.

ويقول الأستاذ التريكي: والفهم الموضوعي (لقضية الهوية في قبال الفهم الذاتي) يحاول إقرار تناظر وتناسق بين الهوية والعقل في صبغته المنفتحة والكونية في الآن نفسه، وهو يأخذ بعين الاعتبار ثوابت الوجود ومتغيّراته ويفتح الوجود على الحياة بتغيّراتها ومفاجآتها ونضالها وتوتراتها، فالذات في هذا الفهم مؤسسة للعقل والوعي المتحرك<sup>٢</sup>.

### السلوك الرشيد

ومن هنا فإن من اللازم علينا - ونحن نعمل على تلافي تهديد التنميط وتداعيات التفريط - الالتزام بسلوك متوازن رشيد ومن أنماطه ما يلي:

١- أن تمتلك الأمة نظرة عالمية إنسانية تستمد فلسفتها من وحدة الفطرة ووحدة المسيرة وضرورة التعاون الدولي في نظام عادل يعطي كلّ ذي حق حقه ويحترم الخصوصيات الثقافية كما يحترم حقوق الإنسان وحياته دونما اعتداء.

وحيث يجب التنبيه والحذر من الوقوع في حبال هذه العولمة المجنونة التي تعتمد الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية على الآخرين، وهي في الواقع إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديمة مع تغيير في الأسلوب والوسيلة.

إننا لا نستطيع أن نخطط لأية قضية حتى ولو كانت تبدو لأول وهلة داخلية بحتة - من قبيل قضايا التربية والإعلام والبيئة الداخلية وحركة الطاقة الداخلية والمسيرة الزراعية والتنمية العلمية، وحتى المناسبات والقناعات الفولكلورية - إلا إذا لاحظنا المسيرة العالمية

١. الفتاوى الواضحة ص ٧٥٣.

٢. الحدّثة وما بعد الحدّثة ص ٢٠١.

للعولمة في كل هذه المجالات وإلا فسيكون تخطيطنا ناقصاً تواجهه موانع بعد ملاحظة الفضاء العولمي والنفوذ العميق لثقافة العولمة إلى كل مجالات حياتنا شتناً أم أينا. وتلك بنفسها مشكلة تضغط على أنماط تخطيطاتنا.

ثم أن مفهوم الدولة وقدرتها بدأ يهتزُّ بشدة بالتالي راح دور الضغط الخارجي، والمراقبة الكونية يزداد. وربما كان هذا ذا أثر إيجابي في مجال نفي الأساليب الديكتاتورية والقمعية وإدانة انتهاك حقوق الإنسان، إلا أننا نعلم كون العولمة لا تستخدم هذه العناوين البراقة إلا لتبرّر تدخلها لتحقيق مصالحها الضيقة، فإذا رأت أن تدخلها ينقلب على أهدافه المخفية تخلّت عنه، وهو بالضبط ما رأيناه من تخلي أمريكا عن مشاريعها في الشرق الأوسط الكبير والجديد، بل وحتى عن عملائها الذين ثارت بوجههم الشعوب.

٢- أن تعتمد الأسلوب الوسطي المتوازن في مختلف تعاملاتها مع الواقع وتتجنب الإفراط والتفريط، فكلاهما يعدُّ خروجاً عن الجادة المستقيمة. ويمكننا أن نوّكد أنّها إذا ركّزا على أي شيء أفسداه حتى العلم والدين والمعرفة فإذا أصيبت هذه الأمور بالإفراط مثلاً تحوّلت إلى مسارات خطيرة ومنزلاقات واسعة.

٣- أن تجعل عملية الحوار مع الآخر الداخلي والخارجي منطقتها قبل أي خطوة أخرى. وها هو القرآن يتحدّث لنا عن أساليب من الحوار جرت ويمكن أن تجري بين أطراف متنوّعة ويرسم لنا أحسن الطرق في الحوار حتى أنا لنعتقد أن في القرآن نظرية متكاملة للحوار المنطقي السليم. ويخطئ من يتصوّر أنّ الحوار لغة العاجزين، بل هو على العكس لغة الأقوياء في منطقتهم، المطمئنين إلى أصالتهم، الواثقين من هويتهم، الموضوعيين في تعاملهم. نعم إذا أراد الآخرون استغلال الحوار لكسب الوقت وتنفيذ الخطط الجهنمية أو لبث الشبهات الممزّقة والظلم للوجدان الاجتماعي فإنهم هم الذين يسدّون باب الحوار.

٤- أن تعتمد الأمة منهج التغيير المستمر بهدف الوصول إلى الأفضل طبعاً مع الاحتفاظ بالثوابت الإسلامية التي هي جزء من الهوية. وتعمل على تعبئة كل طاقاتها المادية والمعنوية للتخلّص من حالة التخلف الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والتقني والتربوي والإعلامي وغير ذلك وليكن المنهج التغييرى سمة عامة وفق ما أراده الإسلام كما أشرنا إلى ذلك.



إن التجديد حتى في أساليب الاستنباط الديني، والتحرير في عملية الوعي، يشكل منة على الأمة كما تذكر الروايات.

٥- أن تمتلك الأمة المناعة الكاملة ضد التآمر على هويتها التقنية وثقافتها الاجتماعية من خلال التأثيرات التي تتركها احتكار المؤتمرات الدولية والجو الإعلامي من قبل قوى التآمر. وهذا المعنى ينسحب على عملية التقنين والتشريع الثقافي والاجتماعي؛ فيها نحن نشهد مؤتمرات التنمية والسكان والمرأة تسعى جاهدة لتعميم الثقافة الغربية والتصوّرات الاجتماعية المنحرفة باسم (الحقوق الجنسية) و(الحرية الفردية للمراهقين) وأمثال ذلك، مضمّنة ذلك في خانة حقوق الإنسان، وهي الباب الواسع الذي تنفذ منه العولمة إلى جميع المجالات. كما أننا نشهد تدخل العولمة الإعلامية من خلال الجوّ الخائق للمعلومات المتدفقة عبر مئات المحطات الفضائية والانترنت لتغير الحقائق، وتثبط الهمم وتبث الشائعات وتمزق الأواصر، وتغيّر التصوّرات وتشكك في القناعات وتخلق الحزازات. وهذه أماننا المؤامرة الضخمة التي تعمل على أن يخطئ العالم الإسلامي عدوه الحقيقي ويتوجّه إلى أعداء وهميين، بعد تحريك الكوامن الطائفية والقومية والجغرافية والتاريخية فيه.

وعلى نفس الوتر نذكر بالمشكلة الأخلاقية التي جلبها لنا إعلام العولمة فجعل الرذيلة والعري والتحلل وكل المحرمات مباحة معروضة في العلن أمام شبابنا وكل من تتحرك فيهم الأهواء. والأنكي أنه خلق له قواعد ومحطات داخلية تصبّ جميعها على الترابط الخلقي بين مجتمعاتنا فلا يستطيع الخيرون أن يصلحوا الأمر.

وقد ابتلينا أخيراً بالتدخلات العسكرية الأمريكية تحت غطاء العولمة ومساهمة القوى العظمى في دفع الأخطار عن البشرية ومحاربة الإرهاب، بعد أن سوقت لمفاهيم عولمية خطيرة من قبيل مفهوم (الحرب الاستباقية) وأمثال ذلك.

وكانت التدخلات الخطيرة في أفغانستان والعراق ولبنان، والقائمة ممتدة، بالإضافة للعدوان الصهيوني المستمر في تطبيق الأجندة الغربية الممتدة.

ولاريب أن العالم كله قد شهد ما تركته هذه التدخلات من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية مدمرة عانت منها مجتمعاتنا كثيراً.

وربما كان من سخرية المسيرة اليوم أن نجد نظماً حاكمة تنذر بالمدافع عن شخصية الأمة ووحدها وصمودها في قبال العولمة بتشديد الرقابة وزيادة القيود على الحرية وتكسيم الأفواه ونشر الاستبداد، فتكون بذلك من قبيل المستجير من الرمضاء بالنار. وما هي في الواقع إلا ذريعة للتشبيث بالحكم والسلطة وقد توافقت دول العولمة؛ لأنها تؤمن لها نفوذها وهيمتها وهو المقصد الأول في كل العملية العولمية.

٦- يجب أن تقوم الأمة بالنظر إلى المستقبل والعمل له دون الغرق في الطوباوية ودون أن تهمل تاريخها؛ لأنه أيضاً جزء من هويتها والذي يجب توظيفه لصالح التغيير التكاملي بدلاً من البقاء في أسر أحداثه المتلازمة. إنه يجب أن يكون عبءاً للاعتبار لا وحدة للتخدير وأحياناً للاختلاف المرير.

إن الطوباوية في النظرة المستقبلية مثلها مثل الذاتية التخديرية في النظرة التاريخية تضرب بالمسيرة أيما إضرار.

٧- يجب أن تمتلك الأمة موقف الأمل بالله مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية. فإنه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشد بالله تعالى في حالاته، ويتعلق بفضله، ولا ييأس من روح الله تعالى في أشد حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنها لن تتفرج فهو معتقد بقدره الله على تغييرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقق الهدف، نظراً لأنه يعتقد بأن الله أبقى أن تجري الأمور إلا بالأسباب وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي، تشكّلان عنصرين مهمين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تنفتت. وسلوك السبيل يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنساناً واقعياً يتعامل مع الواقع كما يتطلبه الواقع.

٨- على الأمة أن تتوازن بين موقف التوكّل على الله وموقف الثقة بالنفس. ولعلّ هذا النوع من التوازن يرتبط كل الارتباط بما قبله، فإن اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنه لا يملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى، ولا توفيق إلا به تعالى، ممّا يركّز النظر عليه في كل تأثير...

إلا أن هذا التوكّل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة بنفسه، ذلك لأنّه يتصور أنّ الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكّل تعاليم السماء روحها، وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكّل، يغيّر ونظرة مركز على السماء، يبني وهو يعلم أنّ المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكّل على الله تعالى خالق الكون فتقتحم الصعاب وتقدّم التضحيات.

٩- وعليها أن تقف موقف العلوّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كلّ عامل.

فبعد إيمان المسلم بأنّ العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كلّ ذلك الإرادة الإنسانية التي تهبّ للإنسان مجال التحكّم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأنّ له اختيار تنظيم حياته، ويده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لا يمكنه أن يتحرّك تجاهها، وإنما يمكنه - متى لاحظ عدم صلاح واقعه - أن يغيّره.

وهذا التصوّر يعطيه حركية دائمة على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كلّ ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريده ويرشده لتلا يضلّ، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبداً لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كلّ العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها المحسوس فنّنت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تماماً كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجاذبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يحسب لكلّ عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدف التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا - إذن - يوازن تقدير عمل العوامل والعلو على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعياً في سلوكه.

١٠- وعلى الأمة أن تقف موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر وذلك، لأنه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد فإن الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحاً بسلاح الوعي مستمعاً لإرشادات الوحي، متجنباً مزلق الضلال، مطمئناً بأنه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعاده تكمن في رحمه ورجم كل ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائماً وأهمها العبادات التي تشده شداً بالله تعالى، وتركز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً. وعليها بالتالي أن تقف موقف الخوف والرجاء.

ويكاد هذا النمط من التوازن يشكّل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المسلمة. فعن الصادق عليه السلام أنه قال: كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلا وفي قلبه نوران، نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا<sup>١</sup>. فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية. ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلت لديها المعقولات فقربت من عالم الحس ومن ثم انعكست على السلوك الخارجي. كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو<sup>٢</sup>.

والملاحظ هنا - كما لاحظ ذلك بعض الكتاب<sup>٣</sup> - أن الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيهها الوجهة الصحيحة، فنفي كل متعلقاتها الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكّل مصدراً للقلق الممزق

١. الوسائل ج ١، ص ٩٦.

٢. الوسائل ج ١١، ص ١٧.

٣. انظر: منهج التربية الإسلامية، ص ١٥٧.

للنفس الإنسانية، المميّع لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي ابتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية.

نعم، نفى الإسلام تعلق الخوف بأمور لا ينبغي الخوف منها، إلا في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلّق إلا في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى.

وبتعبير آخر: إن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه، والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته، فكل خوف أو رجاء لا يؤطره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن يتتفي من حياة الإنسان؛ لأنّه مصدر قلق بعد أن تعلّق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحياناً.



## المقال الثاني: الصحة والتغيير<sup>١</sup>

قد لا نأتي بجديد لو تحدّثنا عن أهمية إعادة النظر المستمرة في مضامين الفكر الإسلامي وصيغته، بهدف تجديدها وتفعيل العناصر الساكنة فيها؛ لأن استشعار هذه الأهمية من قبل أصحاب الفكر والاختصاص بات من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل.

وحسبنا أن الواقع المتغيّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي. وبالتالي رقد مسيرة الصحة الإسلامية وعصرنتها باستمرار. وهذا لا يعني أن الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كلّ دعوة للتجديد أو كلّ منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس، فإن تزايد تلك الأهمية تتناسب طردياً مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكّن الفكر الإسلامي من استيعاب كلّ مجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة، وحينها لا يكون التجديد هدفاً بذاته، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه.

وأعتقد أن عقد المؤتمرات والملتقيات يمثل - في جانب منه - حرصاً من قادة الفكر الإسلامي على حماية هذه الفكرة من موجات الاستهداف المباشر وغير المباشر، والتي ترفع ألواناً مختلفة ومتنوعة من الشعارات البراقة أحياناً والقائمة أحياناً أخرى. الأمر الذي يجعلنا

---

١. ألقى في مؤتمر (التجديد في الفكر الإسلامي) المنعقد في القاهرة بتاريخ ١ ربيع الأول ١٤٢٢هـ الموافق ٣١ مايو ٢٠٠١م.

حريصين على استمرار عملية التجديد بالمقدار نفسه الذي نحرض فيه على سلامة مناهج التجديد وأصالتها.

إن عملية التجديد التي نقصدها تتمثل في إيجاد صيغ فكرية جديدة تعتمد المصادر الإسلامية المقدسة، سواء كانت هذه الصيغ جديدة في موضوعاتها أو أنها معالجات لموضوعات قديمة أو أنها إعادة لتنظيم أفكار موروثه. والمهم هو أن تكون هذه الصيغ قادرة على الإجابة على التساؤلات الجديدة، وقادرة أيضاً على تلبية الحاجات المتغيرة التي تفرضها تحولات الزمان والمكان.

وعلى هذا الأساس فإن الاجتهاد لصيق بعملية التجديد، فهو أداؤها والمؤكد الذي ينتج مواد التجديد. ويرغم أن الاجتهاد يعني اصطلاحاً - على وفق الفهم الموروث - القابلية على استنباط الحكم الشرعي من مصادر التشريع الإسلامي، إلا أن تعميمه ليشمل كل مجالات الحياة، أو بالأحرى كل مجالات الفكر الإسلامي التي تتدخل في كل زوايا الحياة، سيجعل الاجتهاد منسجماً مع أهداف الشريعة نفسها، والتي هي قانون الحياة. إذن، فالاجتهاد هو أداة التجديد في فقه الأفراد، وأداة التجديد في فقه المجتمع وفي الفكر الاقتصادي والفكر السياسي والفكر الاجتماعي وغيرها، فضلاً عن قضايا علم الكلام، وأدوات الاستنباط وآليات فهم المصادر الإسلامية المقدسة، فهذه كلها تحتاج إلى الاجتهاد والتجديد. وهذا ما يجعل عملية التجديد ضرورية وخطيرة في الوقت نفسه.

وتكمن خطورتها في حساسيتها البالغة وآلياتها الدقيقة وطريقها الصعب؛ لأن أي تهاون أو انحراف فيها - لا قدر الله - سيؤدي إلى نتائج كارثية لا تتوقف آثارها على المجدد أو المجتهد أو الفكر وحده؛ بل تتعداه إلى الأمة بأكملها أو إلى فصيل وشريحة منها. ولا نبالغ إذا قلنا بأن المفكر داعية التجديد يمشي على حد السيف خلال عمله، وبالتالي فأى خطأ سينجم عنه منظومة كاملة من الأخطاء.

وتنطلق عملية التجديد من قاعدة المرونة أو عنصر المرونة في الإسلام، فعنصر المرونة هذا هو الذي أعطى للاجتهاد شرعيته، وخلق منه أداةً للتجديد في الفكر الإسلامي. ومن هنا، ففهم عملية التجديد تبدأ من فهم عنصر المرونة في الشريعة الإسلامية ومظاهرها



وتطبيقاتها. وهو ما سنحيله إلى محاور البحث.

### بين التجديد والمرونة

التمييز بين التجديد في الفكر الإسلامي وعنصر المرونة في الإسلام يمثل مدخلاً للتعرف على حقائق التجديد، ومدخلاً أيضاً لاكتشاف مظاهر المرونة وتطبيقاتها. ويتم هذا التمييز عبر أساسين:

الأول: إن الفكر هو تصوّر مستقى من الإسلام، أي أنّه نتاج فهم الفكر للمصادر الإسلامية المقدسة عبر الأدوات الشرعية للفهم. وهذا الفهم - الذي يبذل فيه المفكر كلّ جهده ليكون النتاج الفكري أكثر قرباً من مراد الشارع المقدس - له علاقة أيضاً بطبيعة فهم المفكر للواقع. ومن هنا فإن الفكر المنتج يتأثر بثقافة المفكر ومعرفته بالعلوم ذات المدخلة بموضوع الفكر، فضلاً عن بيئة المفكر واستجابته لعوامل الاختلاف ونوعيته وإحاطته بجوانب الموضوع. وهذه العوامل متغيرة من مفكر لآخر، الأمر الذي يؤدي إلى بروز نوع من الاختلاف بين النتاجات الفكرية، فإن عملية الاستنباط هذه أو الفهم هي الحيز البشري في الفكر الإسلامي، وبالتالي فالتجديد الفكري يتأثر بمجمل هذه الحقائق؛ لأنّه غاية المفكر التي يستخدم من أجل الوصول إليها فهمه للأصول المقدسة وللواقع أيضاً. وهو الذي يعبر عنه بالاجتهاد.

أمّا الإسلام فهو نظام شامل ومتكامل، ويعبر عن الثوابت التي لا تقبل التجديد بذاتها. وللإسلام أساليب ثابتة في التعامل مع الجانب الثابت في الحياة الإنسانية، وله أيضاً أساليب مرنة في التعامل مع الجانب المتغير، أي أنّ مرونة الإسلام وشريعته السمحاء تقتصر على معالجة المتغيرات، التي تمثل المساحة التي تتحرك فيها عملية التجديد.

الثاني: إن مرونة الشريعة تخلق مساحة مفتوحة من المتغيرات، وهي مساحة مشروعة تتدخل فيها الاجتهادات أو تصورات المفكر والعوامل المتغيرة في شخصيته وفي فهمه، والتي يعمل المفكر في إطارها على تنظيم الجوانب التقنية (التشريعية والتنفيذية) للحياة، بهدف إخضاع الحياة للشريعة. ومن هنا فإن البعد المرن في الشريعة هو الذي يحدّد مجالات

التجديد في الفكر الإسلامي ومساحاته. وهذه المساحات تتسع كلما ازدادت متغيرات العصر وضغوطاته وتحدياته.

### مظاهر المرونة في الشريعة

لا تعني المرونة التنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية، فإن كلاً منهما يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية؛ ذلك أن العقائدية والواقعية توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصور الرصين، فالمرونة - إذن - تعني التكتيك والتدرج الواقعي الذي يلحظ ضغوط الواقع، ويستهدف تعميق التصور الأصيل، والوصول إلى تطبيق الصورة التنظيمية المثلى. كما تعني قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقعي لها في إطار الاطروحة العامة للتنظيم. وبالتالي فالمرونة هي اتخاذ موقف مؤقت يتغير بتغير الحالة بهدف المحافظة على الموقف العام.

والعقيدة لا تخضع لعامل المرونة، فهي الثابت - بالمطلق - الذي لا يخضع للمساومة تحت ضغط الواقع. في حين أن التشريع وأساليب التطبيق والتبليغ فيها جوانب متغيرة، ولذلك فإن لعنصر المرونة مدخلية في صياغاتها ونظمها. وهنا يكمن سر خلود الإسلام وبقائه وقابليته على استيعاب كل ألوان التطور والتحدّي. وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الإسلامية بما يلي:

١- مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي - كما يقول علماء أصول الفقه - على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة، ومقاصد خاصة ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس. والمقاصد الخاصة فيها أيضاً جزئية ترتبط بحكم شرعي معين. وقد اختلف الفقهاء والأصوليون في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ العقل وغيرها. وبما أن قضية المقاصد

ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فإن الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، أمّا بالنسبة للمجال الاجتماعي أو أمر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي، لتكون جزءاً من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقّق مقصد الشريعة، كما سيأتي.

٢- الأحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة؛ لأن تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدّد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان لآخر، كطبيعة الإسراف والغنى والاحترام وإعداد القوة وغيرها. كما أنّ متطلبات الزمان والمكان قد تتطلّب - أحياناً - تعطيل حكم ما أو نظام ما لفترة معينة؛ نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة. وإذا كان الحكم يرتبط بعمل الأمة فلا بد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر أيضاً.

٣- فتح باب الاجتهاد في مجال استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي أنّ عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة إلى نوع متميز من التخصص الذي لا يستطيع أي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه. فالمجتهد إذا لم يعثر على دليل من مصادر التشريع فإنه يرجع إلى الأصول العملية، أي الأصول التي تحدّد الموقف العملي عند غياب الدليل الشرعي النصي في إطار منهجية لصيقة بالشريعة. ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه الأفراد أو فقه المجتمع، ككثير من قضايا العلوم التطبيقية والقضايا الداخلة في الأمور الحسبية، كنظم المرور والتسعير والتعليم، وقضايا الإعلام والاتصالات والفنون والآداب وغيرها.

والحقيقة أنّ النصوص التي تركتها مصادر التشريع تحديداً (القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضاً الخطوط العامة للنظم

الإسلامية، إضافة إلى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها مع الزمان والمكان. والحال أنّ كل يوم يمرّ على البشرية يحمل معه قضايا وموضوعات جديدة، لا تعجز الشريعة مطلقاً عن تحديد أحكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشريعة للامة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقى قادرة على إخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإن موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كإدراك المصالح العامة أو إدراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع.

ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس - خلال ممارسة عملية الاجتهاد - القواعد الظنية التي لم يقيم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في إطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي؛ لأن الشارع لا يسمح للفكر البشري المحض أن يضيف من ذاتياته للإسلام. وهذا الأمر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد وأصول غريبة عن جنس الشريعة، أي لا تفتح الباب على مصراعية للمجتهد بأن يحدد ويصلح ويطوّر في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من باب أولى بأن لا يتدخل في هذه الأمور التي لا تعدّ من اختصاصه.

٤- تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئة. فالحكم الشرعي - لاعتبارات مختلفة - ينقسم إلى حكم أولي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهّمنا هنا هو الحكم الثانوي، ويمكن أن نعرّفه: بأنّه الحكم المجهول للموضوع بلحاظ ما يطرأ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي. وهذه الحالات الطارئة هي من قبيل: (الضرر)، (العسر والحرج)، (العجز)، (الإكراه)، (الخوف)، (المرض)، (تزاحم الحكم عند تنفيذه مع حكم أهم منه)، (وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر)، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخص واحد. ومن هنا فالحكم الثانوي يعبر عن مرونة تشريعية؛ لأن المرونة هنا تعني الاستجابة للحالة الضاغطة بمقدار ما تحمله من ضغط. والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل إنّها استثنائية، فمثلاً في حالة (الاضطرار) نستدل بالآية الكريمة: ﴿... فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾<sup>١</sup> وفي باب تحريم الميتة والدم

ولحم الخنزير وغيرها.

وكذا في حالة (الخرج)، فإن الآية الكريمة تقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾<sup>١</sup> وغيرها. ولا بد أن نؤكد هنا على أن الأحكام الثانوية تختلف عن الأحكام الولائية (أحكام ولي الأمر)، لأن الأحكام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيما ذكر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي تركز عليها، بينما تركز الأحكام الولائية على المصلحة العامة ومتطلبات الوضع العام للمجتمع، ويصدرها ولي الأمر من منطلق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكام الثانوية في إطار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥- المساحة التي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقهاء بالأحكام الولائية) أو (الحكومية) أو (السلطانية)، وهي مساحة من الأحكام خاصة بولي الأمر الشرعي، أي الذي تولى أمر المسلمين في إطار ضوابط الشريعة، ومنها قابليته على استشارة هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية التي ترادف القابلية على الاستنباط. بالإضافة إلى قدراته الإدارية وتشاوره مع الإحصائيين وملاحظته للأضوية الكاشفة التي هيأها الشارع المقدس له. ونعرف الحكم الولائي بأنه: الاعتبار الصادر من الحاكم الشرعي بمقتضى صلاحيته الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق لكل مجتهد، فذلك ما يؤدي إلى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنهما تنحصر في الولي الذي حددت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم.

ومن هنا فالأحكام الولائية تختلف عن الأحكام الأولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة أن لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنها محدّدة بموضوعات معينة هي مساحة المباحات في الشريعة، وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الإسلامية، كأساليب تطبيق النظام المالي والاقتصادي، أو أساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخّل

الأحكام القضائية في هذا الباب. وباختصار فإن ولي الأمر يصدر الأحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد الشريعة، وليس له في هذا المجال - كما يقول الإمام الخميني - أن يستبدَّ بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي إلى الحكم الشرعي في ضوء:

١- مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدتها عبر استشارة المتخصصين.

٢- الأضوية الكاشفة - كما يعبر عنها الإمام محمد باقر الصدر - وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلّطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب، ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته ولياً للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣- الأولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكماً يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سدّ الذرائع التي يظنّ أنّها تؤدي إلى المفسدة، أما الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر في المجالات الفردية.

وهنا لا بدّ أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيّتين الكبيرين: مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة أهل السنّة، وتمثّل في سماح مدرسة أهل البيت عليهم السلام لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلّة وسدّ الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء. وعلى مستوى التطبيق فإن الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو (مجمع تشخيص المصلحة)، أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدتها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب. ونرى أن هذا المجمع يبتّ في الخلاف - على مستوى التقنين - بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور، إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

### منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة

لا شك أنّ هناك مساحات في الفكر الإسلامي لها علاقة بالفهم البشري ومدارك الإنسان وطبيعة نظرته للواقع ورؤيته لمنهجية النتائج الفكرية، وهي المساحات التي يمكن أن نعدّها بشرية، وهذه المساحات تقتصر على المتغيرات، أي المساحات المتغيرة في الفكر الإسلامي، ولا تتمدد إلى الثوابت؛ لأن هذه الثوابت مقدسة، وهي الدين بعينه. ويمكن تحديد منافذ الفكر البشري إلى الفكر الإسلامي في المجالات التالية:

- ١- فهم مقاصد الشريعة، العامة والخاصة أو الجزئية، فهذا الفهم متغير من مفكر لآخر، وهنا قد تختلف النتائج التي يخرج بها المفكرون والفقهاء بالنسبة لواقعة واحدة، مما يشير إلى بشرية هذه المساحة. وبالطبع يتأثر هذا الفهم بعوامل متغيرة بشرية أيضاً، كامتلاك ثقافة الواقع والعصر، وعمق النظرة وبعدها وشموليتها وغيرها.
  - ٢- فهم المصاديق، أي تطبيق الكليات على جزئياتها وتطبيق المفاهيم على مصاديقها. وهكذا تتدخل ذهنية الفقيه والمفكر في نوعية التطبيق وفي اكتشاف المصاديق والجزئيات. وتدخل في هذا الإطار أيضاً محاولات المجتهد للتخريج الفقهي للعقود الجديدة، كالتأمين مثلاً. وهذا الفهم والتخريج يخضع لعنوان بشرية الفكر.
  - ٣- سير عملية الاستدلال لدى المجتهدين وترتيب أدلتهم.
  - ٤- تحديد موارد الأحكام الثانوية، والظروف والمتغيرات التي ينطلق منها في تجاوز الحكم الأولي إلى الحكم الثانوي، وهي مساحة دقيقة ومحدودة، ولكنها - في كلّ الأحوال - تتدخل فيها طبيعة استيعاب المجتهد وتشخيصه للموضوع، وبالتالي فهي مساحة تغيرية.
  - ٥- تحديد ولي الأمر لمصلحة الأمة في قضية من القضايا، ونوعية تسليطه الأضوية الكاشفة على الموضوعات والأحكام، ونظرته لتحديد الأهم والمهم في الأحكام أو في موارد الاحتياط، وهذه المساحات خاضعة هي الأخرى لطريقة تفكير ولي الأمر واستيعابه للواقع ودقته في تصريف الأمور وفي اختيار الرأي الصائب بعد استشارة مبدأ الشورى.
- وفي مجمل المساحات المذكورة تدخل عملية التأصيل والأسلمة والتجديد والاكتشاف والتي تهدف بجمعها إلى اختيار الأسلوب الأمثل لتطبيق النظم الإسلامية التي تتضمنها

الشريعة، وهو ما يمكن أن نسميه بالتقنين أو التشريع - مجازاً - وهي مساحات تتسع للفكر البشري ليتحرك فيها بحرية عملية ترشدها الضوابط الشرعية ومقاصد الشريعة العامة. ونشير هنا إلى أن عملية التقنين لا تحوّل الحكم الشرعي إلى قانون بشري، وإن كان للفكر البشري دور في صياغته وتشكيله، بل إنّ عملية التقنين تتمثل في اكتشاف الحكم الشرعي لموضوع معين أو تحديد الأسلوب الشرعي لتطبيق هذا الحكم، وإذا تدخل الفكر البشري في صياغة الأسلوب أي تحويل الحكم الشرعي إلى قانون - وفقاً للمفهوم الوضعي للقانون - فلا يعني هذا أنّ القانون قد ألغى الشريعة وأنه أنزلها من السماء إلى الأرض. وبالتالي فهي عملية تكييف منضبط لمنهجية التقنين بهدف خدمة الشريعة، وكذلك تكييف للواقع بهدف إخضاعه للشريعة.

٦- إعادة النظر في الأمور - وحتى المسلمات منها - وباستمرار، وتوجيه النقد للفكر الديني السابق بكل موضوعية وانضباط. والتأكد من عدم تدخل الظروف النفسية والزمانية في عملية الاستنباط.

### ملاحظات عامة

وجود القواعد التي تضبط عملية التجديد تشكّل ضرورة أساسية لا يمكن لعملية التجديد أن تتم بدونها، وهي في الواقع قواعد تفرضها الشريعة نفسها من خلال النصوص والثوابت الشرعية ومن خلال ما يحكم به العقل من أسس وأصول يتفق عليها العقلاء، وعليه فلنا هنا ملاحظات:

الأولى: التجديد ليس هدفاً بذاته، أي أنّ التجديد ليس من أجل التجديد، بل هو وسيلة تهدف إلى تلبية حاجات المجتمع الجديدة وملاحقة متغيرات العصر، والإجابة على التساؤلات الشرعية والعقدية الضاغطة للإنسان المعاصر، والنظر في قضايا الواقع وتكييفها طبقاً لمواصفات الشريعة، وبالتالي صياغة المشروع الإسلامي النهضوي الذي يستوعب متطلبات الحياة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها، وتعبيد طريقها للوصول إلى الآخرة. أي أنّ التجديد - بكلمة واحدة - هو معلول الحاجات العملية، وليس مجرد حركة نظرية منفصلة عن الواقع وعن ضوابط الشريعة.



الثانية: دواعي التجديد تتعدّد بتعدّد الحاجة اليه، فالتجديد الهادف هو سنّة الله في خلقه، وتؤكدّه النصوص المقدسة، مثل: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة من يجدد لها دينها<sup>١</sup>. ثم إنّ التجديد يكشف حقيقة أدياء التجديد الذين ينتسبون إلى تيارات تحريفية وتوفيقية وتغريبية، والذين يعملون على مسح الشريعة بحجة الاجتهاد والتجديد.

الثالثة: التجديد يقوم به أصحاب الاختصاص فقط، وهو مطلب شرعي وعقلي ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾<sup>٢</sup>، ﴿فإن تنازعتم في شئٍ فردوه إلى الله والرّسول﴾<sup>٣</sup>، وأصحاب الاختصاص هؤلاء لهم مواصفات محددة شأن كلّ الاختصاصات الأخرى، فإذا احترمتنا تخصص الطبيب والمهندس والكيميائي والفلكي وعالم الاجتماع والصحافي، فلا بدّ أن نحترم تخصّص المعني بعملية التجديد، وهذا التخصّص يعني القابلية على الاستنباط من مصادر التشريع وعلى محاكمة الفكر وتمحيصه، أي أنّ المعني بالتجديد هو المجتهد المفكر الذي استوعب علوم القرآن تماماً وفهم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وأسباب النزول، إضافة إلى علوم الحديث والرجال، وعلوم العربية، وعلم الكلام والعقيدة وعلم الفقه وقواعده وعلم الأصول وقواعده. وهو تخصّص عميق ودقيق.

وهذا لا يعني - بحال من الأحوال - وصاية على الفكر الإسلامي من قبل مجموعة من الناس، بل بالعكس هو إعطاء الحرية الكاملة للفكر الإسلامي ليتحرّك في فضاءه الحقيقي، لا فضاءه المزيف الذي يحرفه عن أصالته. فكما نترك للطبيب حرية الحركة بمفرده في علم الطب ولا نسمح للفقيه والمفكر بالتدخل بشأنه وتخصّصه، بل ونعطي للطبيب ولاية ووصاية على علم الطب وعلاج الأمراض، فمن الواجب أيضاً أن لا نسمح للطبيب والفيلسوف وعالم الاجتماع والأديب والكاتب أن يتدخلوا في غير اختصاصاتهم، ومنها قضايا الشريعة والتجديد في إطارها.

١. مسند أبي داود الملاحم ١.

٢. النحل: ٤٣.

٣. النساء: ٥٩.

الرابعة: التجديد يتطلب مفكراً مجتهداً منفتحاً على الحياة والواقع، ويدرك ضغوطاتها ومشكلاتها، ملماً بقضايا العصر وأفكاره وثقافته. وبكلمة واحدة: المفكر المجتهد المثقف، وإلا فالمجتهد المغلق على الواقع والجامد على فهم الآخرين للنص، والبعيد عن ثقافات العصر ومتطلباته وتحدياته المتجددة والمتسارعة التي تفرضها الثورات المتكاملة في الاتصالات والمواصلات والتكنولوجيا والطب والهندسة الوراثية والبيولوجيا والاقتصاد وحركة المال والسياسة الدولية وغيرها، فضلاً عن التحديات التي تفرضها أساليب ووسائل تطبيق الشريعة، بكل مجالاتها، هو شخص لا يمكنه الخوض في قضايا التجديد؛ لأنه سيعكس صورة سلبية منقّرة عن الشريعة السمحاء والدين الحنيف. ومن هنا نرى أن الإمام الخميني وضع شروطاً جديدة للاجتهد، أبرزها القابلية على تحديد حاجات المجتمع أو العصر وتحديد مصالح المجتمع وفهم الواقع.

الخامسة: فكرة القراءات المختلفة للدين والمبينة على منهجيات علمية مستوردة، بعيدة عن ضوابط العقيدة وغريبة عن جنس الشريعة، كمنهجية الهرمنوطيقيا (التأويل تسامحاً) والاركولوجيا (الحفريات) والتاريخانية وهي فكرة اعتباطية وفضفاضة وغير دقيقة من الناحية العلمية. ونحن لا ننكر الاختلاف في فهم النص وفي فهم الموضوع وفي اعتماد القواعد الفقهية والأصولية وفي قبول الحديث وغيرها، ولكنه اختلاف مؤطر بالضوابط التي تفرضها الشريعة، أي للمنهجية الخاصة بكل علم من العلوم الإسلامية، كما أنه اختلاف بين المفكرين والمجتهدين، وليس بين كتاب وصحافيين وعلماء اجتماع وفلاسفة ورجال سياسة. وبالتالي فالتعددية (بلوراليسم) لا توزع الحقيقة بنسب متوازنة على كل صاحب رأي، بل إنّ الحقيقة واحدة وثابتة، ويبقى أن المفكرين والمجتهدين يبذلون كل ما في وسعهم من جهد للوصول إليها من خلال الكشف عن الحكم أو الأسلوب الشرعي، في إطار المنهجية الإسلامية المستخرجة من جنس الشريعة وغايات الدين، وإلا فهذا اللون التغريبي الذي يطرح تحت شعار التعددية والقراءات المتنوعة وفي إطار منهجيات وضعت لعلوم أخرى واخترعتها بيئات أخرى ومناخات علمية ودينية مختلفة عنا هي مثال صارخ للانفلات الفكري الذي يسمح لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن تكون له قراءته ورؤيته الخاصة

بالدين، وبالتالي - إذا أذعننا لهذه المنهجيات - سيأتي اليوم الذي لا يبقى فيه من شريعة الله إلا أشباح أحكام، أو معتقدات ممسوخة مفصلة على مقاس كل صاحب هوى.

السادسة: التجديد لا يتناول الأطروحة الدينية أو الدين بعينه أو ثوابت الدين، فهذه الثوابت، (أي الأصول الإسلامية المقدسة) خالدة خلود الدين الخاتم، لأن: (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة)، ولا يمكن تحت أي ذريعة من الذرائع الاجتهاد في مقابل الثوابت وتجديد الأصول المقدسة، اللهم إلا في إطار القواعد الاستثنائية الزمنية التي حددتها الشريعة نفسها، وسبقت الإشارة إليها. أما التجديد فمساحته الفكر الإسلامي والموروث والمعاصر، أي الإنتاج الفكري الإسلامي للمفكرين المجتهدين المتقدمين والمتأخرين، وكذلك في فهم الثوابت الإسلامية وقواعد وأصول هذا الفهم، وفي اكتشاف قضايا جديدة (مناهج، نظريات، علوم، رؤى) في المصادر المقدسة، وأخيرا في أسلمة بعض المناهج والنظريات التي وضعها الإنسان في الحقول المحايدة العامة. وبالتالي فهي مساحة متغيرات بأكملها.

السابعة: للتجديد والاجتهاد مرجعية ثابتة لصيقة بها، وهذه المرجعية يتم الرجوع إليها عند الاختلاف في الفهم والتأويل، وإلا فالتجديد لا يتحرك في الفراغ ولا ينطلق من فراغ، بل إن له فضاءه الذي يجول فيه، وهذا الفضاء هو مرجعية التجديد والاجتهاد المتمثلة في القرآن الكريم والصحيح من السنة الشريفة، وفي أدوات فهم الأصول المقدسة والكشف عن حقائقها كالعقل والإجماع وغيرهما.

الثامنة: من الطبيعي أن يطرح هنا بحث عن الموانع أو الأمور التي تقف عقبة في وجه التغيير، أو تمنع القادة من التفكير فيه. وبتعبير آخر فإنها تعمل على عدم انطراح مقتضي التغيير. وهي كثيرة نشير منها إلى ما يلي:

١- غياب القدرة والاستعداد الذاتي والامكانيات العلمية للتجديد، وهو عمل ليس سهلاً.

٢- غياب عنصر التخطيط للمستقبل في جامعاتنا الدينية.

٣- الخوف من تبعات التغيير وهي كثيرة. فإن التغيير ربما أثار العوام من المتدينين أو حرك بعض المصلحين لإثارته واستغلاهم، وربما حرك المتعصبين للقديم أو أولئك الذين ستتضرر مصالحهم بذلك. وقد يؤدي - بشكل موضوعي أو في تصور المغيرين على الأقل -

إلى انفتاح باب التجرؤ على المقدسات الدينية أو انهيار المسلّمات الأخرى. وربما أدى أحياناً - وهذا ما حدث كثيراً - إلى رمي المجدّدين بالزندقة والهرطقة وأمثالها.

### في الطريق إلى التجديد

في ضوء التصورات التي طرحتها هذه الدراسة، يطرح السؤال التالي نفسه: ما العمل لتحقيق التجديد المنشود؟ وللإجابة على هذا السؤال نرى أن من الضروري تحقيق وعي أشمل وأدق للإسلام من أدلته الأصلية، وادراكاً أكثر تحديداً لحقيقة مقاصده وغاياته. ولا بد أن نعيد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، في إطار ضوابطه. وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الدين (المفكرين والمجتهدين) أن لا يسمحوا لغير المتخصصين بالعبث في شريعة الله ومعتقدات الإسلام تحت ذريعة الاجتهاد والتجديد أو ذريعة تفصيل الدين على مقاس العصر، أو التضحية بالأصالة على مذهب المعاصرة، والتضحية بالتراث في مذهب التجديد، والتضحية بالشريعة على مذهب التعددية، والتضحية بالدين على مذهب العلم، فهذه الذرائع أو الثنائيات المستوردة لا وجود لها في مبادئ الإسلام الخالدة، لأنّها ثنائيات أنتجت العقلية الغربية في العصور التي أعقبت ما يسمى بالنهضة الأوروبية، بهدف إقصاء الدين عن الحياة، وهي إشكالية نابعة من الصراع بين الكنيسة ودعاة العلمانية.

وبالنظر لاتساع دائرة التغيير في الحياة وسرعة التطور، نرى أن قابلية التجديد على استيعاب هذا الواقع تتطلب آليتين:

الأولى: آلية الاجتهاد الجماعي، وتتلخّص في تشكيل لجان اجتهادية من مجموعة من المفكرين المجتهدين لبحث موضوع أو جملة مواضيع، ثم تتكامل نظراتهم ورؤاهم بعد التداول والمناقشة للخروج بحكم شرعي أو نظرية أو نظام إسلامي في مجال معيّن. وهناك تجربة مجمع الفقه الإسلامي بجدة، الذي نأمل أن تكون فيه لجان اجتهادية ثابتة تؤدّي عملها على مدار السنة؛ لملاحقة التطوّرات الهائلة المتسارعة التي تشهدها البشرية. ومن شأن الاجتهاد الجماعي استيعاب كلّ الموضوعات واختصار الزمن والخروج بأفضل الآراء.

الثانية: آلية التكامل بين المفكرين المجتهدين وأصحاب الاختصاصات العلمية والمهنية الأخرى، من خلال استشارة المفكرين المجتهدين لهؤلاء المتخصصين في الموضوعات

الجديدة، والاستعانة بهم في فهم العلوم والمناهج الجديدة، وقضايا الواقع المتنوعة والمعقدة، وفي تحديد مصالح الأمة والدولة، إذ يتم تداول هذه الموضوعات في لجان أو مجالس مشتركة، ثم الخروج بالرأي أو الاجتهاد الأفضل الذي يحقق مصالح الأمة ويكيّف الواقع لينسجم مع غايات الشريعة. وهذه الآلية تمت تجربتها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولا زالت توثق ثمارها، وتتمثل في (مجمع تحديد المصلحة) الذي يتكوّن من فقهاء واختصاصيين في مختلف المجالات، ويمثلون النخبة التي تخطّط للسياسات العامة للامة والدولة، ثم يعرضونها على ولي الأمر (القائد) لإقرارها.

ولابدّ من إخضاع تجارب تطبيق الشريعة والنظم الإسلامية في بلداننا للتقييم المستمر، أي القيام بعملية رصد علمية لنتائج هذه التجارب (على الطبيعة)، مثل تجارب تطبيق الاقتصاد الإسلامي والبنك الإسلامي والنظام القضائي والنظام السياسي ونظم التكامل والتعاون الاجتماعي والنظام التعليمي وغيرها. وستكون نتيجة هذا الرصد العلمي، من خلال الدراسات والبحوث، وضع مناهج ومبادئ وتفاصيل علوم إسلامية اختصاصية، كعلم الاقتصاد الإسلامي وعلم الاجتماع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي وغيرها.

### التجديد للمستقبل

لا شك أنّ التاريخ الإسلامي شهد ظهور مجددين عظام، بل وموجات رائدة من التجديد، وكانت كلّ حركة تجديد فكري تختص بها بواقعها وظروفها، أي أنّها حركة تجديد لزمانها. وهكذا فإن المحاولات الحالية للتجديد الفكري التي تقوم بها الطليعة المتنوّرة من المفكرين المجتهدين، هي تجديد لزماننا هذا، ويبقى للمستقبل تجديده ورجاله. ولكن في الوقت نفسه فإن المخططات الكبرى في مجالات السياسة الدولية والإعلام والاقتصاد والثقافة وغيرها، والتي يعدّها من يعبرون عن أنفسهم ب(سادة العالم) و(دعاة التفوق)، وتسارع الأحداث وتراكم المتغيرات والطفرات المتلاحقة في مجال العلم والتكنولوجيا، تجعل الحاضر لحظة غير محسوسة، وتجعل البشرية تعيش في المستقبل دائماً؛ إذ أنّ ما تكشف عنه الدراسات المستقبلية الغربية، يضعنا في حيرة ممّا سيحدث الآن وفي المستقبل، وهو ما يعبر عنه أحد مفكري الغرب ب(صدمة المستقبل)، لأن ما تمّ التخطيط له قبل عشرين عاماً

ظهرت نتائجه الآن، وما يتمُّ التخطيط له الآن ستظهر نتائجه بعد عشرين أو خمسين عاماً. وحيال ذلك فلا بدُّ أن يكون للإسلام وللفكر الإسلامي موقفه ممَّا سيحدث في المستقبل أو ممَّا يتم الإعداد له من الآن. ويتمثلُّ هذا الموقف في استعداد الفكر الإسلامي للمستقبل، ومحاولة امتصاص مفاجئاته وصددماته، وهو موقف ندعو إليه.

ولهذا فأنا أدعو لتدارس موضوعية الفكر الإسلامي المستقبلي الذي ينطلق من إشكاليات الحاضر وحيثياته، ويستشرف المستقبل وتحدياته وخياراته، ثم يخطط له في محاولة لاكتشاف بدائله المنشودة وبنائه والتحكُّم به. فمثلاً نظم الحاضر التي أعدَّ لها الآخرون، كالعولمة والأنسنة، ستتلور بمرور الزمان وتظهر نتائجها النهائية في المستقبل، وكذلك الكثير من الاكتشافات، كما يحدث في علم الجنتيك (الهندسة الوراثية)، فإن نتائجه ستظهر في المستقبل. وهكذا فإن الشريعة والفقه وعلم الكلام الإسلامي لا بدُّ أن يكون لها رأيها في كلِّ ذلك، وتستعدُّ له، لتكون بمستوى تحديات المستقبل وضغوطاته. وعلى هذا الأساس فإن منهجيات وأفكار ورؤى تطرح الآن، وهدفها وضع الفكر الإسلامي بمستوى قضايا المستقبل، كفلسفة الفقه وفقه المقاصد وفقه الأولويات وعلم الكلام الجديد والتحوُّل في الاجتهاد وأسلمة أو تأصيل العلوم الاجتماعية والإنسانية، وحتى التطبيقية، وغيرها، هي بأكملها مطروحة للبحث والتداول والمدارسة بين دعاة التجديد الأصيل في الفكر الإسلامي، بهدف نقل الفكر الإسلامي من المعاصر إلى المستقبلي، وبذلك نقدِّم الخدمة المثلى للجيل الإسلامي الذي ينشأ اليوم وسيمسك بزمام المستقبل، حين نعدُّ له الأحكام والنظم والنظريات التي تستوعب عصره. وهي في الواقع - وقبل كلِّ شيء - خدمة للجيل الحاضر، الذي يرى تحديات المستقبل ماثلة أمام عينه ويستشعر ضغوطاتها وآلامها؛ لأن الحاضر هو المستقبل، بعد أن اخذت البشرية تفقد إحساسها بالزمن الحاضر. وهذه الدعوة لا تعني - بأي حال من الأحوال - الهروب إلى الإمام وحرق المراحل والعبور على الأزمنة، بل على العكس، هي دعوة للانذكاك بالواقع ولاستحضار السنن الكونية والعمل بالنصوص الإسلامية المقدسة.

## المقال الثالث: الصحة والإعلام

### (أ) الغزو الفكري وأساليب المواجهة

إذا شئنا أن نستوعب كل المساحة الثقافية - من خلال المنظور الإنساني الإسلامي - فمن المحتم القول بأنها تمتد إلى حيث تمتد التركيبة الإنسانية نفسها، وهذا يعني شمولها للجوانب الإنسانية الثلاثة التالية:

- ١- الجانب التصوري والعقائدي: بما يشمل كل المفاهيم التي يملكها الإنسان عن الكون والحياة والإنسان، وبالشكل الذي يتناول السنن التاريخية والقوانين الحاكمة كلها.
- ٢- الجانب الاحساسي العاطفي: بما يشمل الغرائز والميول الأصيلة والمعدلة تبعاً للتربية الخاصة، وتكوين المصاديق المتعالية، كتحويل حب الذات الضيقة إلى حب للذات المتسعة الخالدة من خلال الإيمان بالآخرة.
- ٣- الجانب السلوكي العملي: وهو بطبيعة الحال يشمل كل موقف يتخذه الإنسان، حتى فيما بينه وبين نفسه، كما أنه متأثر بالجانبين السابقين تمام التأثير، وخصوصاً بالجانب الثاني، حيث فسّر المحللون النفسيون الإرادة الإنسانية بالشوق المؤكّد، بالرغم من أنّ الشوق المؤكّد هو المرحلة الأخيرة التي تسبق تصميم الإنسان على العمل - كما نعتقد - فإن الإنسان يبقى يمتلك الحرية في أخرج الضغوط العاطفية.

### الترابط بين المساحات الثلاث

وإذا قبلنا هذه الحقيقة فعلينا أن نؤمن بالكل الثقافي المترابط، وأن نعتبر أي انفصال بين

الأجزاء آنفة الذكر عملية مؤقتة، وأي قول بالفصل الدائم بين المساحات مجازفة يكذبها الوجدان والنصوص الشريفة. كما أن هذا الإيمان والقبول يفتح أمامنا باباً تربوياً وإعلامياً واسعاً، ننفذ من خلاله إلى المقصود أولاً، ونكتشف أيضاً - عبره - التآمر الإعلامي على الوجود الثقافي ثانياً.

وإننا إذا تأملنا واقعنا الوجداني رأينا حقيقتين مهمتين:

الأولى: هذا الترابط المحكم بين أبعاد الكل الثقافي الإنساني بما يمكن أن يرجع كل الإنسان إلى المحور الواحد المسيطر وهو النفس الإنسانية، فهي التي تتشقق في الواقع، وإن كانت المسارب أو المظاهر متفاوتة.

الثانية: أنه ونتيجة لهذا الترابط وهذه الوحدة الوجدانية فإن أي تنافر بين جزئين منها يعدُّ أمراً طارئاً على التركيبة الطبيعية الإنسانية سرعان ما تتغلب عليه لتحقيق الانسجام الكامل.

ومن هنا نستطيع أن نفسر الكثير من النصوص القرآنية من قبيل:

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾<sup>١</sup>.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup>.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾<sup>٣</sup>.

... وغيرها من النصوص الشريفة.

وفي ضوء هاتين الحقيقتين، علينا أن نعالج ثقافتنا على كل الصُّعْد، ونلاحظ مدى النفوذ الغربي فيها.

### العدو يستهدف كل الجوانب

ويبدو أن العدو - في حملته الثقافية - استهدف الجوانب الثلاثة بشكل عَرَضِيّ وفي آن واحد، إدراكاً منه لهذا الترابط، وتحقيقاً لمهمته الرئيسية، وهي قتل الشخصية الإسلامية في

١. الماعون: ١ و٢.

٢. الروم: ١٠.

٣. فاطر: ١٠.



وجود الفرد والأمة، وبالتالي تحقيق الأرضية السهلة لعملية الاستغلال الكبرى. فعلى الصعيد التصوري: عمل الإعلام الغربي والأفضل أن نسميه بالإعلام الاستكباري العالمي - نظراً لطبيعته ودوافعه الحقيقية الكامنة في طغيان الحيوانية والمادية في وجوده - على التغريب الثقافي عن العقيدة والتصورات الأصيلة مستغلاً فترات الجهل، والاتجاهات القشرية الخالية من روح الإسلام، والمركزة على جوانب جزئية عابرة، مكبرة إياها، وجاعلة هذه الجوانب هي محور الصراع وتضارب الآراء، عاملة - بالتالي - على نسيان التصورات الإسلامية التغييرية الكبرى، وترك الميدان الاجتماعي لكل المبادئ المدعية للعدالة والأصلاح، وهي في الواقع ضد ذلك.

ومن هنا رأينا اتجاه كثير من جيلنا الشاب نحو المبادئ التي احتلت زوراً موقع البطولة الثورية، والمطالبة بالقضاء على الظلم بعد أن أخلت هذه الآراء القشرية ذهنية جيلنا المسلم من المبادئ الإسلامية، والإسلام هو دين الصراع ضد التفرعن والفراعنة والطغاة، وهو دين الجهاد المتواصل ضد أي نمط من أنماط الظلم والاستبداد والاستغلال.

ثم إنَّ العدو، وتأكيداً لعملية التغريب الأنفة، راح يزرع الشبهات تلو الشبهات في النفوس تجاه الإسلام عقيدةً ونظاماً، وتجاه إمكان تطبيق الإسلام، وهو دين المجتمع القبلي - كما يدعون - فكيف يمكن تطبيقه في مجتمع القرن العشرين؟!

ولم تكن الشبهات عادية وإنما هي تشمل الحقول الفلسفية والمنطقية، تماماً كما تشمل الجوانب العملية. وهذه الشبهات عندما تصبُّ في روح الشباب الفارغ فإثما تعصف برويته ومفاهيمه، وإذا تمَّ ذلك ضمن الاستكبار انحراف الإحساس بالعمل بلا ريب. وإذا تمهد السبيل للنفوذ الغريب جاء دور بث الفكر الإلحادي المسموم لتحقيق المرحلة النهائية من العملية، ليصوغ الإنسان المسلم مباشرةً للماركسية بقيمها الواطئة أو الرأسمالية بجشعها ولؤمها، وعلى أي حال، يغدو عدواً للامة وعميلاً للأجانب الأعداء.

وأما على الصعيد العاطفي، فإن خطته الخبيثة يمكن أن تتلخص بعمليتين: الأولى: عملية إضعاف الروح الأخوية الإسلامية، روح إحساس المسلم أينما كان بألم المسلم الآخر، وإحلال الروح المحلية، والقطرية، والقومية، وحتى الوطنية الضيقة وغيرها.

أما العملية الثانية فهي عملية توجيه العواطف والدوافع نحو المادية السلوكية، الأمر الذي يترك أثره على الجانبين العقائدي والعملية بكل قوة، فتتحول المادية العاطفية إلى مادية عقائدية. وقد استغل الاستكبار الغربي كل الوسائل لتحقيق هذا الهدف وما زال يستخدمها حتى يومنا هذا في أرضنا الإسلامية، ونذكر منها: النماذج الخلقية المنحطّة، والمجلات والصحف الخليعة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والسينما والمسارح، ومحلات الدعارة وبيوتها، والملاهي والمراقص، والحفلات الماجنة، ومعسكرات الشباب ومنظّماته، و(البلاجات) والمسايح المشتركة والرياضة وتعاطي الخمر، والتشجيع على استهلاك وسائل التجميل، والتشجيع على ارتكاب الجريمة، ودفع المجتمع نحو المخدرات واستغلال الابداعات والأعمال الفنية لهذا الغرض. ومن تلك الفنون المستغلّة: الزخرفة والرسم والموسيقى، واستغلال التناجات الأدبية كالقصة والشعر، وتربية الشعب على تقليد الغرب الخليع في مختلف الشؤون كاللباس والسكن والسلوك، وفسح المجال للجمعيات والعناصر المندسة من: الصهاينة والبهائية والماسونية، ورواد نوادي الروتاري والملحدّين، ليساعدوا في إذكاء نار الفساد، وترويج الأفلام الخلاعية عبر أجهزة (الفيديو)، وإشاعة عملية المراسلة غير النزينة بين الجنسين، وتشجيع عمليات المقامرة في المقاهي العامة الكبيرة منها والصغيرة، وفي المسابقات الرياضية، وسباق الخيل من قبل المتفرجين، وغير ذلك الكثير الكثير من الأساليب الرخيصة. ونؤكد هنا أنّ الكثير من هذه الوسائل الإعلامية اكتسبت ضعتها من أهدافها الوضيعة لا من طبيعتها كوسائل إعلامية مجردة.

وبالتالي فعلى الصعيد العملي، كان هدفه المرحلي هو إبعاد النظام الإسلامي عن توجيه الحياة الإنسانية، وإحلال النظم الغربية المادية محله، بشكل كلي، أو في غالب الأحوال، وهنا أيضاً تنوّعت الأفكار التي مهّدت لها هذه العملية، فشملت:

- فكرة فصل الدين عن السياسة، وقصر الحياة الدينية على الشؤون الشخصية والعبادية، وترك الشؤون الاجتماعية للفكر التنظيمي الغربي.

- وترويج الاتجاه الليبرالي المتحرّر من التقيد بالتوجيهات الدينية.

- وتحييد العلمانية في الحكم بكل صراحة، أو بشيء دستوري يذكر الإسلام كدين للدولة

تمويهاً، في حين يحجر عليه أن يصوغ مجمل الحياة الاجتماعية إلا بما لا يتعارض مع المصالح الغربية والشخصية الضيقة.

وقد مهّدت لهذه الفكرة أفكار أخرى مخادعة من قبيل: فكرة تعقّد الحياة، ولزوم التطوير في كلّ مجالاتها، وعدم قدرة النظم الدينية على مواكبة هذا التطور، باعتبارها تؤمن بالمطلقات التشريعية، وهذه المطلقات لا تنسجم مع عملية التغيير المستمر، وكذلك فكرة التخويف من الحكومة الدينية، أو ما يسمونه بالاستبداد الديني، مذكّرين بما جرى في القرون الوسطى من الظلم الكنسي، وكيف وقفت الكنيسة إلى جانب الاقطاع المستبد، وأنّ هذا لا ينسجم مع الدولة الديمقراطية الحديثة، وغير ذلك من الأفكار التي مهّدت - كما قلنا - للعلمانية، فإذا بنا نجد الأرض الإسلامية تضج من وجود الحكم العلماني المغلف، دون أن يشعر أكثر الأفراد بمدى الجريمة التي ترتكب عبر ذلك.

والأنكى والأمر من ذلك أنّ بعض الناس من عملاء الغرب ووسائله الإعلامية المحلية العميلة راحت تدعو لإعادة النظر في الإسلام نفسه!!

فهناك من يدّعي أنّ الإسلام قد استنفد أغراضه التاريخية.

وهناك من يرفع نداءه طارحاً فكرة (البروتستانتية الإسلامية).

وهناك من يطرح النظم الغربية أساساً يجب أن يحوّر الإسلام نفسه بحيث ينسجم معها،

فتجد شيوع تعبيرات: (الديمقراطية الإسلامية، والاشتراكية الإسلامية.. الخ).

ولما لم يجد آذاناً صاغية راح بعض الأفراد يطرح الأفكار التلفيقية التي تأخذ من هذا

ضعفًا ومن ذاك ضعفًا وتقدّمه على أساس أنّه الإسلام المواقب لمسيرة التطور!!

وهذا القسم الأخير هو أشدّ الأقسام خطورة على جيلنا الإسلامي الناشئ ونحن في

إيران عانينا من كلّ الأفكار الماضية كثيراً، إلا أن الاتجاه التلفيقي بشكله الغربي أو الشرقي

كان يشكل العقبة الكأداء في عملية أسلمة الحياة الاجتماعية أسلمةً كاملة، لكن الثورة

الإسلامية تحلّصت من كلّ المنحرفين بعد أن تأمروا على كلّ المكاسب الإسلامية.

## خطوط المواجهة الإعلامية للغزو الثقافي

ونستطيع أن نميز - في مجال مواجهة الغزو الثقافي الأنف على الصعيد الثقافي والإعلامي - خطوطاً، أهمها خطان:

### أولاً: الخط الإعلامي الثوري البناء

وقد امتاز هذا الخط بمميزات منها:

- أ- وعيه للإسلام وعياً نافذاً، وإدراكه العميق الأصيل لنظراته الحياتية التغييرية الشاملة.
- ب- إدراكه لأبعاد الغزو الثقافي ومساربه ومظاهره.
- ج- تركيزه على محور المشكلة دون إهمال جوانبها وفروعها وتفصيلاتها، وبالتالي دعوته للتغيير الثوري والأصلاحي في آن واحد.
- د- تقديمه الطروحات الإسلامية للجيل، وبعث حركة ثقافية جديدة.
- هـ- تحريك الحس الإسلامي الحماسي المطلوب وعدم الاكتفاء بالتنظير الفكري الجاف. وهذا النوع هو الذي استطاع أن يقدم خدمات جلى على صعيد المواجهة وأن ينقذ الأمة من وهبتها.

### ثانياً: الخط الإعلامي السطحي

والذي تميز بما يلي:

- أ- بطرح الإسلام شعاراً براقاً، والتذكير بالأعجاب دونها عمل على تقديم الطروحات الحياتية.
  - ب- بتحييد الأصلاحات الجانبية وغض النظر عن الكثير منها خوفاً من الانفلات.
  - ج- باتباع أسلوب المساومة السياسية مع الحكام المرتبطين، مهما بلغ بهم الارتباط، والإكتفاء منهم ببعض الظواهر الكاذبة.
- ولهذا نجد جماهيرنا المسلمة تمج هذا الأسلوب، وترفض التعامل معه كإعلام إسلامي، مما أفقده تأثيره لا على صعيد المواجهة فحسب، بل وحتى على صعيد التأثير الجزئي، فلم يعد يحقق حتى ما يتوخى العملاء تحقيقه من تخدير وتغطية، وأمامنا تجارب حديثة جداً، حاول فيها أمثال هؤلاء التمويه وتشويه الإرادة الإسلامية من خلال إعلام واسع الأبعاد وعلى الصعيد العالمي، فكذبته الجماهير المسلمة وأسقطته من فوق عروش العاجية.

## الإعلام القرآني جوهر النهوض

وإذا أردنا أن ننهض في مجال الإعلام المواجه والمرئي في آن واحد، فليس لنا من سبيل إلا سبيل القرآن والدعوة القرآنية، إننا مسلمون قبل كل شيء، لنا تصوراتنا وناذجنا الخاصة بنا، والمستقاة من خالق الكون العليم بما يصلحه، والقرآن هو نموذجنا الأسمى في شتى المجالات، فهو: (الكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع) وهو: (ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعز لا تُهزم أعوانه) وهو: (كتاب الله، تبصرون به وتنطقون به، وتسمعون به) فعلينا أن نعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، فهو: (البحر الذي لا يدرك قعره)<sup>١</sup>.

إنه كتاب التوعية، والتوعية في الإسلام تسبق أية خطوة أخرى، الإسلام دين التوعية والتربية، وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم أن ينفذ المرء إلى عمقه، أنه يعرض جوهرته الثمينة، لأنه يعلم أن قيمته ستتكشف بكل وضوح للجميع، ولذا فهو يرفض أي تقليد من العقيدة ويدعو للبحث والبرهنة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾<sup>٢</sup>. وهو يرفض أية عملية إكراه عقائدي ﴿لا إكراه في الدين﴾<sup>٣</sup>، كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية ببصرها وبصيرتها.

وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر الإسلام بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء. يقول القرآن الكريم:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالتَّيِّبِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>٤</sup>؛  
﴿فَلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>٥</sup>.

١. نصوص متفرقة عن الإمام علي عليه السلام - تلميذ القرآن وتلميذ الرسول المبعوث بالقرآن - في (نهج البلاغة).

٢. البقرة: ١١١.

٣. البقرة: ٢٥٦.

٤. النحل: ١٢٥.

٥. الشورى: ١٥.

﴿ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعَمِلَ صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وفي هذا يقول آية الله السيّد الصدر في كتابه (اقتصادنا).

والأمر الآخر: أن يبدأ الدعوة الإسلاميون - قبل كلّ شيء - بالإعلان عن رسالتهم  
 الإسلامية، وإيضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام  
 حجّته، ولم يبقَ للآخرين مجالٌ للنقاش المنطقي السليم، وظلّوا بالرغم من ذلك مصرين على  
 رفض النور، عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبني المصالح  
 الحقيقية للإنسانية - إلا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلّح<sup>٣</sup>.

وقد جاء في كتاب (الكافي) للمرحوم الكليني عن الصادق عليه السلام قوله: وقال أمير  
 المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى  
 الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس  
 وغربت، ولك ولاؤه يا علي<sup>٤</sup>.

إنه أسلوب القرآن قبل كلّ شيء. الذي علّمه الله سبحانه لموسى وهارون عليه السلام: ﴿اذْهَبَا  
 إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾<sup>٥</sup>.

إنها الدعوة - حتى عند مواجهة الطواغيت - عسى أن يبتدوا إلى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة: (أدعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى  
 كسرى أنوشيروان، وقيصر امبراطور الروم، تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي. وهكذا  
 راح الدعوة يبتون الدّعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة الأوائل الذين أرسلوا

١. فصلت: ٣٣.

٢. يوسف: ١٠٨.

٣. ص ٢٧٥، ج ١.

٤. الكافي (الكليني) ج ٥، ص ٢٨.

٥. طه: ٤٣ و ٤٤.

لتحقيق واجب الدعوة إلى الله، ومنهم:

- عبد الله بن حذافة السهمي: مبعوث الرسول إلى إيران.
- حاطب بن أبي بلتعة: مبعوث الرسول إلى مصر لدعوة المقوقس.
- دحية الكلبي: مبعوث الرسول إلى روما.
- عمرو بن أمية: مبعوث الرسول إلى اليبامة.
- حرملة بن زيد: مع وفد معه إلى مدينة (أيلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.
- المهاجر بن أبي أمية: مبعوث الرسول إلى همدان.
- علي بن أبي طالب عليه السلام: مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.
- حذيفة بن اليمان: مبعوث الرسول إلى الهند.
- عبد الله بن عوسجة: مبعوث الرسول إلى قبيلة حارثة بن قريظ.
- جرير بن عبد الله البجلي: مبعوث الرسول إلى قبائل ذي الكلاع الحميري.
- ... وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب.

وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلاحظها في الوفود والبعثات السياسية المرسله من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية، وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.

وما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: إنها تنظر لعملية التوعية والايضاح - كرسالة إلهية ومبدأ ضروري - يجب الالتزام به لا أن يتم اعتماد هذه السياسة التوضيحية، باعتبارها مناورة سياسية، فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق وتغيرت الموازين.

### الهدف الرئيس والأهداف المرحلية للإعلام الإسلامي

الهدف الرئيس - بكل اختصار - هو تعبيد الأرض لله تعالى، وإيجاد المجتمع المؤمن العابد المحقق لخلافة الله في الأرض. وإذا وجد مثل هذا المجتمع، فإنه سيكون الأمة الوسط التي تطمح الأمم للوصول إلى مستواها، والأمة الشاهدة على البشرية جمعاء، باعتبار ما لها من

علو حضاري، نفسي ومادي، وحينئذ سيكون الدين كله لله، ويتحقق هدف الخلقة الإنسانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup>.

ويجب أن تصب كل التشريعات والسلوكيات والأقوال والأفعال وتتسمّر كل الأحداق بهذا الهدف الكبير الكبير، وتسترخص الغوالي لتحقيقه. إنه عظيم ترخص في قبالة دماء الأنبياء والطاهرين، وجهود الصالحين عبر التاريخ.

إلا أن هناك أهدافاً مرحلية (تنتهي إلى ذلك الهدف الكبير) يعمل الإعلام الإسلامي على الوصول إليها بشتى الوسائل الممكنة، فما هي؟

نستطيع أن نذكر أهم هذه الأهداف المرحلية في النقاط التالية:

**الأولى:** ترشيد إنسانية الإنسان: ذلك أنّ للإنسانية خصائص ومعالم إذا رشدت ونميت ضمنت للإنسان مسيرة متوازنة. أمّا إذا تلاشت من على سطح الوجود الإنساني، فحينئذ يكون الفسق عن السبيل القويم، وحينئذ تكون المسيرة المكبّة على وجهها، وعندئذ يتوقع الاجرام كله، وهذه المعالم باختصار هي: (التعقل السليم، والإرادة الحرة، والخلقية الفطرية، والدوافع المنضبطة)، وإذ لم تكن هنا بصدد عرض البرنامج الإسلامي، الواسع الأبعاد، لترشيد هذه الجوانب فإن من الطبيعي الإشارة إلى بعض مكوناته حينما نتحدث عن الأساليب الإعلامية.

**الثانية:** التوعية بالإسلام عقيدة ومفاهيم وتشريعاً، باعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى ذلك الهدف الكبير، وكلما تعمق وعي الأفراد بهذه الرسالة، وطروحاتها وخططها وحلولها للمشاكل الإنسانية، واتضح معالم الفرق بينها وبين المبادئ الوضعية وبانت خصائصها الرئيسية، استطاع المجتمع المسلم أن يخطو على طريق الهدف الكبير خطى أسرع وأثبت في نفس الوقت.

**الثالثة:** التوعية بكل ما يحيط بالأمة من أحداث وظواهر ومؤامرات وتفاعلات لها كلّها أثرها على تعيين المواقف المبدئية والمتحركة.



الرابعة: إيجاد الأرضية الصالحة لتطبيق الإسلام، في كلّ الأرض الإسلامية، وبالتالي في شتى أنحاء العالم، ويشمل هذا الجانب أموراً نتحدث عنها في الأساليب التفصيلية.  
الخامسة: تحقيق معالم الفرد المسلم والأمة المسلمة.

### العدة المطلوبة والأسلوب الأمثل

أمّا العدة المطلوبة للإعلام الإسلامي العامل على النهوض والمقاومة فيمكن تلخيصها بما يلي:

**الأول:** القدرة العلمية والثقافية إلى الحد المستوعب لكلّ جوانب الإسلام وأهدافه العامة. فليس من المعقول أن يطلب من الإعلام تحقيق الأهداف السالفة الذكر دون أن يكون مزوداً بمثل هذه القدرة، ويمكننا أن نردّ الكثير من نقاط الضعف الإعلامية إلى افتقارها، وتواجد السطحية في الفهم.

**الثاني:** الاستيعاب اللازم للفهم الاجتماعي العام، ومعرفة التحرك العالمي السياسي والاجتماعي وأساليبه ومحاوره، وتوفير الخبراء المهادين والمحققين بكلّ جدارة.

**الثالث:** معرفة أساليب العرض، أو ما يمكن أن يطلق عليه بفن الإعلام المناسب، وهو بالضبط ما كان قداماً يطلقون عليه اسم: (معرفة حال المخاطب)، فيجب أن نعرف من نخاطب، وكيف نخاطب، وأنى يتم ذلك، وهذا هو مضمون التحلّي بالحكمة في مجال الدعوة إلى الله.

**الرابع:** الإتيان العميق الواعي بالإسلام وأهدافه الكبرى، وتأصل ذلك في نفوس الإعلاميين إلى الحد الذي يحملهم على التضحية بكلّ غالٍ ورخيص في سبيل بلوغ الهدف السامي.

**الخامس:** التخلص من كلّ تبعية، أو ضيق أفق، أو مصلحة شخصية، والتجرد من كلّ ذلك لصالح الحقيقة.

والواقع أننا نعتقد أنه يكمن في هذه النقطة أحد أهم شروط النهضة الإعلامية، وأنّ إعلامنا الإسلامي اليوم مبتلى في الكثير من مقولاته بالتبعية للحكومات المتسلطة على شعوبها بالحديد والنار، فهو لا يعدو أن يكون دمية تتحرك بإرادة الحاكم القزم، وباتجاه تحقيق مصالحه. وإلا فماذا نسّمى إعلاماً ينتسب للإسلام وهو يسكت عن كلّ أنماط الخيانة

الأخلاقية، أو الخيانة الاقتصادية، أو الانحراف السياسي والعمالة المفضوحة، أو الاستسلام للعدو الصهيوني الغاشم، أو يردد نفس مُهم الاستكبار العالمي ضد أبطال المقاومة الإسلامية، أو يدعو للتستر على الجرائم. وربما بلغ من النذالة إلى الحد الذي يعلن فيه أنّ فكرة الحكم الإسلامي فكرة لا إسلامية! لا لشيء إلا ليرضي الحكم المسلط على رقاب الشعب، وإلا ليبارك قبضة الجلاد التي تشدد الخناق على رقبة الجيل المسلم المتوثب. أو قد يبلغ بهم الأمر إلى مهاجمة الأنبياء كداود وسليمان عليهما السلام لأغراض قومية وما إلى ذلك. أو ربّما اتجهوا إلى التأكيد على اللغات غير العربية مع إهمال العربية نفسها أو المحليّة العامية تنفيذاً للمآرب الاستعمارية.

**السادس:** ملاحظة الأرضيّة الإيمانيّة المتوقّرة في أوساط الأمة الإسلامية، فإنّها خير مساعد وعدّة على انطلاق الإعلام في مجاله المناسب، وتتجلّى لنا أهمية هذا العنصر حينما ندرك أنّه بنفسه شكّل سدّ المقاومة الرئيس أمام الهجوم الإعلامي الغريب حيث تحلّى عن الساحة حتى أولياؤهم الفكريون والسياسيون.

**السابع:** التمتّع بالخصائص القرآنية الإعلامية: وهذه الخصائص واسعة الأبعاد قد لا يمكن الاحاطة بها إلا من خلال دراسة تحقيقية عميقة، ومن هنا فإننا نكتفي بالإشارة لبعضها بما يتناسب وحجم هذا الحديث، وما نذكره منها يتلخّص فيما يلي:

**أولاً:** استحضار النظرة الغيبية إلى جانب الحسابات المادية، وذلك في كلّ تحليل أو توقّع مستقبلي والابتعاد عن النظرة المادية الحسابية الجافة فإن التصورات القرآنية المعطاة تؤكد كون المسيرة المشجعة مع العدل تنسجم معها القوى الطبيعية القائمة في خلقها على الأساس نفسه، في حين لا يتوفر الانسجام المطلوب مع الانحراف، وهو ما تلخّصه الآيات الكريمة التالية:

﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾<sup>١</sup>.

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾<sup>٢</sup>.

١. الفجر: ١٢-١٣.

٢. نوح: ١٠-١٢.

ويشمل ذلك كلّ النظرات الإسلامية في التاريخ والحياة والإنسان، ومن ذلك ما قلناه من الترابط بين أجزاء التركيبة الإنسانية.

**ثانياً:** الموضوعية والاتصاف بروح التبعية للحقيقة - أيّاً كانت - وحتى لو خالفت مصلحة شخصية، أو استدعت التضحية الغالية. ويبالغ القرآن في تحقيق الروح الموضوعية، وعدم النظر إلى الواقع الموضوعي من خلال رؤية مسبقة إلى الحد الذي يدعو فيه الخصم إلى افتراض نقطة الصفر في الحوار، وعدم الإيمان بشيء والانطلاق منها إلى الحقيقة الموضوعية فيقول مخاطباً الكفار: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>١</sup>.

**ثالثاً:** الهدفية في كلّ خطوة، ذلك أنّ الهدفية لا تتنافى مطلقاً مع الموضوعية في التصور الإسلامي؛ لأنّ المؤمن مطمئن تمام الاطمئنان أنّ الحقيقة الموضوعية - مهما كانت - تشكل آية من آيات الله تعالى وهدى إليه سبحانه.

وإذا انعكست الهدفية على حياة الداعية العامل، صرف النظر عن كلّ أنماط اللهو السخيف، والتضييع الوقتي فيها لا طائل تحته - وبالتالي لا تجد في نماذجنا الإعلامية ما يهدر هذا الوقت الثمين.

إنّنا نلاحظ الهدفية القرآنية في كلّ قصة، وفي كلّ مثل، وفي كلّ عبارة. ففي كلّ موضوع عبرة، ومع كلّ حديث اعتبار، وكلّ شيء يعبر عن مادة للدراسة وخدمة الهدف من خلالها:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾<sup>٢</sup>.

ويكفي أن نتابع آية قصة قرآنية لنكتشف الهدفية التي تتجلّى أروع تجلٍ.

**رابعاً:** التنسيق والانسجام بين كلّ الخطوات والجوانب وذلك انعكاساً للتنسيق القرآني، فإن الصورة المتشعبة تسودها روح واحدة. وهذه الخصيصة نتيجة للخصائص السابقة، وخصوصاً الهدفية، بعد افتراض وحدة الهدف وشموله كلّ جوانب التصور، وأي اختلال فيها يعني الانقلاب على الهدف.

١. سبأ: ٢٤.

٢. يوسف: ١١١.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>١</sup>.

في حين تتضاعف السرعة إلى الهدف عند التناسق ﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾<sup>٢</sup>. وإذا لاحظنا ضرورة هذه الخصيصة للتأثير المطلوب أدر كنا بمرّ ضياع الكثير من الأفكار الصحيحة المطروحة في إعلامنا - اليوم - لأنها تكذبها الأعمال والأطر المناقفة والمساومة، والأقوال الأخرى من صاحب الفكرة نفسه.

**خامساً: الواقعية والتفاعل المستمر مع الأحداث الاجتماعية، وعدم الغرق في تصورات طوبائية، وهذا من خصائص القرآن الكريم.** إنه بالرغم من كونه دستوراً عاماً لكل المسيرة البشرية، ينسجم مع ما يبدو من ظواهر ويعالجها على ضوء تلك التصورات العامة الأصلية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوُكُمْ...﴾<sup>٣</sup>. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدَّدُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَحِقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>٤</sup>.

وينبغي هنا أن نذكر بأننا نقصد بالواقعية هنا: ملاحظة الواقع والعمل على تطويره إلى المفروض، لا ما يبدو أحيانا من تفسيرات تتجه بالواقعية إلى عملية الاذعان للواقع، والتلون وفق متطلباته اذعاناً واستسلاماً له. والواقعية تتطلب أن تطرح الأساليب البديلة الصحيحة عند العمل لأصلاح ظاهرة منحرفة، وذلك نظير ما نلاحظه في الآية الكريمة على لسان لوط عليه السلام: ﴿...هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ...﴾<sup>٥</sup>.

وما نجده في تعبير الإمام علي عليه السلام حين يعمل على محو التعصب القبلي المقيت، يطرح التعصب لمكارم الخلاق حين يقول:

وأما الأغنياء من مترفة الأمم، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: (نحن أكثر أموالاً

١. الصف: ٣.

٢. فاطر: ١٠.

٣. المجادلة: ١.

٤. الأنفال: ٧.

٥. هود: ٧٨.

وأولاداً وما نحن بمعذيين) فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المُجَداء والنُّجَداء من بيوتات العرب، ويعاسب القبائل...<sup>١</sup>.

سادساً: المنطقية في العرض والابتعاد عن السطحية، إن القرآن يريّ المسلم على التأمل والبرهنة والتعقل واستقراء الأدلة القوية ومن ثمّ اصدار الحكم.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>٢</sup>.

أمّا الاتهامات الواهية، أو حتى التوقعات التي لا تمتلك دليلاً من الواقع، وطرح الآراء ونسبتها إلى الإسلام فهو الإنحراف الكبير ﴿... قُلْ أَلَلَّهُ إِنْ كُنْتُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾<sup>٣</sup>.

ومن هنا يتخلّص الإعلام الإسلامي من ركاب المقالات والتحليلات الواهية، التي ترك أثرها السلبي على الأفكار، وتلقي بتبعاتها على كواهل هؤلاء الكتاب والمحلّلين. ولا يستطيع هنا تحديد المساحة التي يجب أن تحذف من الاعلام المتداول في مناطقنا الإسلامية - حين تطبيق هذا الشرط - إلا أنني متأكد من لزوم حذف المساحة الكبيرة مما ينشر الآن بلا ريب.

سابعاً: التفاعل الوجداني الحراري العاطفي مع الهدف وحمل هم الرسالة للعمل على زرع الحماس الإسلامي للقضية الإسلامية من خلال ذلك.

إن كلام الداعية يجب أن يكشف للسامعين عن تألمه لقضيته وحماسه لأهدافه، وخشوعه أمام ربه وكلماته العليا وتفاعله معها، وهو أمر يريبه القرآن في نفوس اتباعه.

﴿... كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾<sup>٤</sup>.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ

١. نهج البلاغة، ٢٩٥.

٢. البقرة: ١١١.

٣. يونس: ٥٩.

٤. الزمر: ٢٣.

أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَفَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾.

**ثامناً:** الأخلاقية الإعلامية، ونعني بها الإلتزام الكامل بالأخلاق الإسلامية في المجال الإعلامي، فلا يُلقى القول على عواهنه، ولا تُشاع الفاحشة، ولا يُتهم المؤمن، ولا يُردُّ على القضاء، ولا تنمى روح التحاسد والتباغض والتحافد، ولا تُستخدم الألفاظ التي تمجِّها الأخلاقية الإسلامية. وإنما يعمل الإعلام الإسلامي على توفير البيئة الصالحة التي تفتح فيها الفطرة عن طاقاتها المبدعة، وبالتالي: تسير بالإنسان نحو أهدافه الأصيلة.

يقول القرآن الكريم واصفاً المؤمنين:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا \* وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا \* إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا \* وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا \* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا \* وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا \* وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمُيَانًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٢﴾.

**تاسعاً:** تنوع الأساليب الإعلامية، وهو في الواقع - مقتضى تطبيق مبدأي الحكمة، والموعظة الحسنة. والحديث عن تنوع الأساليب القرآنية بالذات حديث واسع، فالقرآن بأساليبه الرائعة استطاع أن يصوغ أمة هي في طبيعة البشر من شراذم متخلفة، كانت تتعثر خلف المسيرة البشرية، ويكفي هنا أن نشير - مثلاً - إلى روعة الاستفادة من أسلوب الجمل المعترضة أو العبارات في الحديث لتحقيق الهدف المطلوب، وتبدو لنا هذه الروعة إذا تأملنا

١. الحديد: ١٦.

٢. الفرقان: ٦٣ - ٧٤.

كلمة (سبحانه) في الآية الشريفة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾<sup>١</sup> والحديث هنا - كما قلنا - واسع الأبعاد.

**عاشراً:** العالمية في الاهتمام، وذلك انطلاقاً من عالمية الإسلام نفسه، وسعيه لحل مشكلات الإنسانية جمعاء، ومن هنا فإن أية دراسة أو اهتمام محلي يجب أن تتم في هذا الإطار العالمي العام، وعلى ضوء ذلك يجب أن يهتم الإعلام الإسلامي بقضايا المظلومين والمحرومين والمستضعفين، ويتفاعل معها بكل حرارة، في حين يقف أمام كل حركة استكبارية يقوم بها الطغاة المجرمون.

**حادي عشر:** رصد التحركات التأميرية للشياطين على وجود الأمة الإسلامية، والعمل على توعية الأمة بها بشكل دائم. إنها إذن المرابطة الدائمة في هذا المجال، والمرابطة: عمل جهادي يندب القرآن الأمة إليه، وإنه الحذر الدائم ﴿...إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ...﴾<sup>٢</sup> وهي مهمة جسيمة يجب أن ينهض بها الإعلام الإسلامي.

**ثاني عشر:** التأكيد على النقاط المشتركة الجامعة، ومن ثم الاتجاه لحل الخلافات في النقاط المختلف عليها، وهذا أحد أساليب الحكمة في الدعوة:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

وأخيراً فإن ما أشرنا إليه من خصائص لا يستوعب حتى الجزء الأكبر من الخصائص الإعلامية للمعجزة الإسلامية الإعلامية (القرآن الكريم) وإننا ذكرنا ما يفتح الأبواب أمام دراسة موسعة في هذا المجال.

## (ب) عناصر الضعف في الإعلام الإسلامي

إذا ركّزنا على نوعية الأهداف السامية التي ألقى على عاتق الإعلام الإسلامي وجدناها على النحو التالي:

١. النحل: ٥٧.

٢. الأعراف: ٢٧.

٣. آل عمران: ٦٤.

أولاً: أن يقوم بتبليغ رسالة الله إلى العالم، وتوضيح معالمها، وإبراز العناصر القادرة على سوق البشرية إلى كمالها المطلوب.

ثانياً: رفع المستوى الحضاري للأمة، بحيث يؤهلها لأن تكون الأمة الوسط، والأمة الشاهد، والأمة الطليعة.

ثالثاً: العمل على تجلية الفطرة في الأمة، وتعميق الروح الإسلامية فيها، وبث الروح النشطة الأصيلة التي حملها الإسلام إلى النفوس.

رابعاً: العمل على تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة على الصعيد السياسي والفكري والعاطفي، لتنهض بمهام النهضة الإسلامية الكبرى التي أرادها الله للإنسانية، والتي تفجرت آناً ثم خمدت جذورها، ثم عادت اليوم كأقوى ما تكون، إيماناً وعملاً في سبيل تطبيق حكم الله في الأرض.

خامساً: التصدي للمؤامرات الاستعمارية الكافرة ضد أمتنا الإسلامية وعقيدتها ونظامها السماوي، وفضح مخططاتها، والتنبيه على عناصرها الخفية والظاهرة.

إذا ركزنا على هذا الجانب، وأدركنا إلى جنبه أننا نمثل قسماً من دور الأنبياء عبر التاريخ بإبلاغ رسالة الله للعالمين، ولا حظنا من جانب ثالث مدى ما أعد لنا من جزاء - إما سلباً أو إيجاباً - نتيجة هذه المهمة الضخمة وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذا الجزاء قد ينعكس لا على موقفنا يوم الحساب فحسب بل وحتى على موقفنا العالمي اليوم، فقد يترتب على عملنا انقاذ أمة وقد يجرنا إلى تضييع أمتنا وأنفسنا بالتالي - نعم - إذا لاحظنا هذه الجوانب فستتضح لنا موارد القصور في اعلامنا الإسلامي، ونوعية العقبات التي تقف في وجه تحقيق المهمة الإعلامية الكبرى.

وهذا الضعف الإعلامي قد يكون - تارة - نتيجة تقصير مسبق، وأخرى لظروف خارجة عن إرادة المشرفين على الجانب الإعلامي والموجهين لمسيرته.

ونستطيع هنا أن نلخص هذا الضعف أو نركز منه على عنصر عدم مواكبته للمسيرة الإسلامية العالمية. وسنرى من خلال تبيين نقاط الضعف أن هذا الجانب هو الداء العضال لإعلامنا. إنه إعلامٌ متخلف، بطيء، نفعي، متخاذل، موضعي لا يهتم بالكل الإسلامي،



ومادي. وأقصد من قولي إنه مادي: أنه يهمل صفته الإسلامية وارتباطه الرباني، وينسى أن المسلم يؤمن بوجود ترابط حتمي بين النتائج المادية والمقدمات المعنوية، كالترايط بين استغفار أمة وشيوع الرخاء المادي فيها، وظلم أمة أخرى، وانزهاها، وتدميرها المحتتم نتيجة إرادة الله وسنته.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَيَّ الطَّرِيقَةَ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾<sup>١</sup>.  
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾<sup>٢</sup>.  
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>٣</sup>.

وعلى نفس هذا الغرار ورد الوعد الإلهي القرآني الرائع:

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَيَّ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>٤</sup>.  
إن إعلامنا يكاد ينسى كل هذا وينطلق ضعيفاً متخاذلاً أمام إعلام الاستكبار العالمي، وربما وجد نفسه في النهاية في فخ الاستعمار، فراح يتابع عمله وكأن شيئاً لم يحدث، إما استسلاماً وإما انتهازاً وإما غير ذلك.

والتقصير المسبق هذا يمكن أن ينسب إلى شخص بعينه، كما يمكن أن ينسب لجهة بعينها، ولكن أكبر التقصيرات من هؤلاء الذين سلمتهم الظروف - وأربأ بالأمة أن تكون هي التي سلمتهم - مهمة الإعلام الإسلامي العالمي بشكل رسمي، كما يمكن أن يقال: إن ذنب أولئك الذين كان من المفروض بهم أن يمددوا الإعلام بالوعي لا يقل مطلقاً عن ذنب الفئات السابقة بل يربو عليه.

١. الجن: ١٦.

٢. المائدة: ٦٦.

٣. الاعراف: ٩٦.

٤. القصص: ٥٥.

وموارد الضعف الإعلامي ترجع في الغالب إلى عدم التخطيط الواعي والشامل، والاهمال، ويمكن أن نلخصها كالتالي:

أولاً: الفردية وضيق الأفق عند المستقلين والتبعية والعمالة - غالباً - عند المرتبطين بحكّامهم أو بالجهات الممولة لهم.

فإذا لاحظنا الإعلام الإسلامي القائم اليوم وجدناه إما نتيجة جهد فردي ضيق الأفق، أو ضيق التمويل، أو ضيق القدرة على التعبير، ضيق المصادر الفكرية والخبرية والسياسية، وإنما يقوم على أساس تحسُّس فردي خاص بالدعوة وضرورتها ولزوم ابلاغ صوت الإسلام إلى العالم ومثل هذا الإعلام مبتلى بتقاط ضعفه الكثيرة، ويظَلَّ يعبّر عن وجهة نظر ضيقة قد لا تتجاوز رأي الشخص المسؤول عنه تجاه القضايا العامة دون أي تخطيط أو تشاور أو تعبير صحيح عن شعور إسلامي عام. وهذا يؤدّي - باحتمال كبير - إلى خطأ في تقدير الموقف نتيجة الجهل بعناصره المكوّنة ممّا يوقع الجماهير الإسلامية والمتعاطفة في حيرة من أمرها وتناقض في تصورها. وأعود فأؤكد أنّ مسألة الإعلام ليست مسألة شخصية أو موضعية ضيقة أو حكرًا على فرد خاص، إنّها مسألة الأمة والرسالة فيجب أن لا نستهيّن بها إلى هذا الحدّ.

هذا في الإعلام الفردي، أمّا في الإعلام الرسمي فإن القلب يكاد ينزف له دمًا تمامًا كما ينزف عندما يتذكر أنّ بعض مقدرات هذه الأمة - على الصعيد السياسي والاجتماعي - سُلمت لأناس أقل ما يقال عنهم أنّهم ليسوا بمستوى المسؤولية، أناس استمرأوا حياة الذل وراحوا يكرعون من آنية العدو الكافر، ويردون موارد الفكر المادي الهزيل، والتمدّن المادي القاتل الجاف، ويتسكّعون على الموائد الاستعمارية، ويسترضون أنيابها القاطعة ووحشيتها الكاسرة، وينضمون إمّا إلى معسكر شرقي أو معسكر غربي، وكلا المعسكرين ممّا أمرنا ديننا وشريعتنا ووجداننا وشرفنا وحتى مصلحتنا الحقيقية أن نبتعد عنهما، ونمشي على صراط مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

فلا قيمة للرسالة لديهم إلا بمقدار ما تحقّق لهم من مصالح، ولا تقييم لرأي الشعب إلا بمقدار ما يُمكنه من المطالبة بوجود المحاسب.

ومن هنا نعرف حال الإعلام الإسلامي، إنّهُ إعلام تابع - شعر أم لم يشعر - للمصالح الشخصية. إنّ مثل هذا الإعلام تنحصر وظيفته في تمرير عملية التخدير المطلوبة، وبثّ روح

الجفاف والكسل في أبناء أمتنا، وتحويل أنظارهم عن مسيرة النهضة الإسلامية الصاعدة، وعرض الإسلام من وجهة نظر الجهة التي تحميه وتموله، وتحليل القضايا العامة تحليلاً يتناسب للإسلام ظاهراً ويقوم واقعاً لتحقيق مصالح الجهة المصدرة له.

إن مثل هذا الإعلام في الواقع يفقد تأثيره بعد وقت قصير لدى جماهير النهضة الإسلامية؛ لأنه سرعان ما يتكشف زيفه، ويتحول في نظر جماهير الأمة إلى إعلام مكرر مزيف مخدر لا قيمة له، تستمع إليه الأمة المغلوبة على أمرها مستهينة به.

إن الأمة ستنظر إليه على أساس كونه جزءاً من المخطط الاستعماري الكافر، وهذا بالضبط ما حدث لشعبنا الإيراني المسلم وهو يتابع الإعلام الذي انتسب إلى الإسلام في عهد الشاه المقبور. لقد كانت الكلمة هناك تفعل فعلها المعكوس في الشعب، ولقد كان مجرد التعامل معه جريمة لا تغتفر لدى شعبنا المغلوب آنذاك، في حين راح يعيش بكل وجوده مع الإعلام الإسلامي الذي ينطلق اليوم من أعماقه، ويحمل رسالة الإسلام الصافية إلى العالم. أما علاج هذه الحالة فهو ما أودُّ التركيز عليه.

**ثانياً: التفكك المقيت بين أوجه الإعلام فكرياً وعملياً.**

إعلامنا الإسلامي لا يساير مشاعر أمتنا ولا يعيش مشاكلها، بل هو عن كل ذلك غريب غارق في مشاكل مخترعة من قبله، وكأنه يريد أن يصدق قول القائل (ما لله الله وما لقيصر لقيصر)! وإلا فمتى رأينا إعلامنا هذا - اللهم إلا القليل - يتصدى للمخطط الاستعماري الكبرى فيفندها. ومتى رأيناه يثير الروح النشطة في الأمة لكي تقف بصلافة أمام من امتهنوا وجودها وسلبوها حقها المغتصب، ومتى رأيناه يبحث مدى انطباق واقع حياتنا الاجتماعية السياسية المعاصرة مع القرآن؟ ولو كان فعل لما ابتلينا بهذه الحالة المخزية، ولما فقد هو مركزه الموجه لدى الجماهير.

إن من مظاهر التفكك أن لا تتناسب الحلول مع المشاكل، أو يتم التركيز على جانب في حين يهمل الجانب الآخر، وهو أكثر أهمية منه، ويتم الانشغال بأمور تافهة وتترك المسائل المصيرية.

**ثالثاً: التخلف عن التخطيط الإعلامي للإسلام نفسه.**

إن المتتبع لتشريعات الإسلام والملاحظ لأهدافها يجد كون الإسلام اهتم بهذا الجانب أيما اهتمام، لكي يوجد التلاحم بين تلقي العلم واعطائه أولاً، وبين كل أفراد الأمة وقضاياها

الكبرى ثانياً، ولكي يبعث الحرارة باستمرار في أوصالها، فلا تقعد عن هدف سام أو تتعاس أو تنسى. فهناك تشريعات لها جانب إعلامي ضخم، كتشريع صلاة الجمعة، والعيدين، والحج نفسه، وتشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الإسلام وغيرها ولكننا نجد الإعلام الإسلامي متخلفاً عن كل ذلك.

فبعض صلوات الجمعة عادت تحوي خطباً مكتوبة مقررة من الأعلى، وعاد أئمتها موظفين حكوميين يقرءون ما يُكتب لهم، لا يملكون أن يضيفوا من عندهم كلمة واحدة، فهل لكم أن تحدثوا عن أهدافها؟ وهل هي كما آلت إليه هذه الصلاة العظيمة في إيران. إن صلاة الجمعة في إيران - مثلاً - تقوم بأعظم الأدوار الإعلامية الإسلامية، إذ يتولأها المسؤولون المتدينون، ويترحون فيها مشاكل الأمة ويناقشون بصراحة كل شيء، لا يخافون فيها أحداً إلا الله تعالى، ولذا تجد صلاة الجمعة في طهران - مثلاً - قد يحضرها مئات الآلاف أحياناً نظراً لمعطيائها الكبرى.

أما العידان فقد تحولاً إلى يومي تهاني رسمية، وفرح وجذوة باهتة، وربما غطت عليها الأعياد الرسمية والوطنية وأمثالها، بل إننا نلاحظ - للأسف الشديد - أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في الكثير من الدول الإسلامية تكثف - فيهما - من البرامج التي تساعد على ترسيخ وإشاعة ظاهرة التحلل الاجتماعي والمجون، وتصوّر للمستمع والمشاهد القلم قد رُفع عنه في هاتين المناسبتين، فتحرف فلسفة وعلل الابتهاج - بحلولهما - ليتحوّل من ابتهاج عبادي يعمّق الارتباط بالله شعوراً وأسلوباً، إلى ابتهاج ماجن يعبر عن سطحية وتحلل.

أما الحج فقد حوّل إلى مجرد شعائر باهتة جامدة جافة، ودعوات شخصية، وطقوس ميتة، ورفعت فيه الشعارات غير الإسلامية علناً وأن السياسة يجب أن لا تختلط بالحج! أفلهذا دعا الإسلام أهل الأرض لأن يرسلوا وفودهم إلى بيت الله وفي ضيافته؟! ألم يكن من الممكن أن تجري طقوس مشابهة في مختلف البلدان؟

إن الحج عملية عبادية سياسية اجتماعية، ومن الإجماع أن نُفقد روحها الكبرى، هل فكرنا في جميع المسلمين هناك وطرح مشاكلهم السياسية والاقتصادية وتعيين حلولها؟ أم ترانا نخاف أن نتكلم الشعوب الإسلامية؟ وهكذا قل عن باقي التشريعات الإسلامية الأخرى.

رابعاً: عدم الاستفادة الإعلامية من الخدمات الاجتماعية، فإن هناك بعض أنماط

الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها الدول التي تحكم البلدان الإسلامية، ولكنها كلّها تقدّم باسم رئيس الدولة ولأغراض سياسية بحتة، في حين كان الأولى بها أن تقدّم للشعوب باسم الإسلام، خصوصاً وأنها ملك له ولشرعه لا لهؤلاء، فإذا أمكن أن نؤمن هذا الأمر استطعنا أن نوفر جواً عاطفياً جميلاً بين المسلمين، ونشدّهم إلى إسلامهم، واستطعنا أن ندعو غيرنا إلى حياتنا هذه.

وهناك مساوئ ونواقص أخرى لا بدّ من الإشارة إليها:

منها: إهمال بعض الحقول الإعلامية أو التقليل من شأنها كحقل المرأة المسلمة، والطفل المسلم، والشباب المسلم، والعامل وأمثال ذلك، فلا نجد إعلامنا قد وفّاهما أدنى حقها. ومنها: انعزال ذوي الطاقات الفكرية الأصيلة عن المجال الإعلامي، ولهذا الأمر مغزى دقيق مهم.

ومنها: أيضاً عدم تنوع الأساليب.

ومنها: الإهمال المقيت للفلم السينائي والمسرح والتلفزة وغيرها ممّا يجسّم المعنى أمام المشاهدين. كل هذا، والعدو الكافر يملك إمكانات إعلامية ضخمة وعناصر متدربة ومتخصصة، ويحتل كلّ رقعة من أراضي المسلمين احتلالاً إعلامياً، ممهداً للاحتلال الاستعماري (وإن كان ذلك بالنحو الامبريالي الجديد) بما فيه الاحتلال الفكري والنفسي وحتى العسكري. فهل أدركنا هذه النقاط الهائلة من الضعف؟ وهل عملنا على تلافيها؟! إنني أؤكد كون الإسلام سيظل يستعر في وجود هذه الأمة، وسيظل ينتشر في المجتمع البشري كله، حتى لو لم نكن نحن بمستوى مسؤولياتنا الكبرى، ولكننا لو أصلحنا أنفسنا لأصلح اللازم استطعنا أن نساعد في دفع عجلة مسيرته، وأن نقدم لمسيرته خدمات جليّة، وأن نقرب اليوم الموعود يوم تطهر الأرض من كلّ الطواغيت وإذنا بهم وعملائهم ونظمهم وأخلاقهم، يوم تطبق شرعة الله الصافية الأصيلة على الأرض كلّ الأرض.

وللارتفاع بمستوى الإعلام الإسلامي نسجّل هنا بعض الاقتراحات:

### الاقتراح الأول:

تشكيل مجمع إعلامي باسم - مجمع الإعلام الإسلامي - مهمته:

- أ - القيام بإيصال المفاهيم الإسلامية الأصيلة في مختلف المجالات العقائدية والتنظيمية إلى أوسع قطاع في الأمة، وبأفضل أسلوب.
- ب - المساعدة العملية في التجربة الاجتماعية التي يقودها الإسلام لبناء أمة إسلامية متماسكة ذات شخصية متميزة المعالم.
- ج - قول الحق أمام كل الطواغيت وإذنبهم، وعرض الواقع بكل صراحة أمام الأمة.
- د - حمل الإسلام إلى العالم، وذلك عبر الإشراف الكامل على مجمل النشاط الإسلامي بأوجهه المختلفة، وتموين وسائل الإعلام المختلفة بالفكر الأصيل على مختلف الصُّعد.
- على أن يتم تشكيل هذا المجمع من علماء إسلاميين معروفين بغيرتهم على الإسلام، واستقلالهم في آرائهم، وتكون له فروع في كل قطر إسلامي تمثل مواصفاته وتعكس مواقفه وتؤدي وظائفه.

### الاقتراح الثاني:

الاتصال المستمر بين العلماء والشخصيات الإسلامية لثلا يقعون فريسة للتضليل الدعائي والتمويه الإعلامي المعادي.

### الاقتراح الثالث:

المبادرة إلى تشكيل لجنة باسم (هيئة الخدمات الاجتماعية الإسلامية) تكون مهمتها توزيع الخدمات باسم الإسلام بدلاً عن تقديمها باسم هذا الرئيس أو ذاك الملك.

### الاقتراح الرابع:

العمل والتخطيط لرفع المستوى السياسي والثقافي والإعلامي لدى أبناء الأمة الإسلامية عبر الوسائل المتاحة، ومنها إقامة الندوات المفتوحة الحرة كما أن من أهمها إذاعة جلسات مجالس الشورى والبرلمانات مباشرة على الهواء لكي تعيش الأمة قضاياها.

### الاقتراح الخامس:

دعوة جميع الحكومات القائمة في البلدان الإسلامية للعمل الحثيث الدؤوب على منع وإزالة المظاهر الطاغوتية كالترف وأمثاله ومظاهر الحضارة المادية والانحراف الأخلاقي،

ومنع إصدار وتوزيع مجلات الخلاعة والجنس المفضوح، ومجلات الفكر العلماني الخبيث.

### الاقتراح السادس:

دعوة جميع أنشطة الإعلام الإسلامي إلى التأكيد على قضايا المستضعفين في الأرض وحمل لواء الدفاع عنهم استجابة لرؤية الإسلام.

### الاقتراح السابع:

ابتداع أسلوب الإذاعات الموجّهة نحو الشعوب الإسلامية التي ترزخ تحت نير الخلافات والنزاعات المنافية لتعاليم الإسلام.

### (ج) النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم

تختلف النفوس من حيث الموضوعية وسعة الأفق إلى حد كبير، فبين من لا يأبه لأيّ نقد شخصي مهما كان حاداً عنيفاً، وبين من تجرّحه كلمة ناقدة مهما كانت موضوعية بناءً. إلا أن نقد الحركة والاتجاه الفكري أمر طبيعي، وكثيراً ما يدعو الأفراد للتأمل وإعادة النظر دون أن يصحب ذلك تأجج حماسي بليد، أو عاطفة جريئة ضارية تسدّ السبل على التفكير الهادئ.. وتلك هي سؤرة الغضب الطافح عن حده. وما نحاوله هنا هو تحريك حسّ النقد الذاتي لمسيرة الفكر الإسلامي السائد اليوم في عالمنا الإسلامي المعاصر، والذي يطالعنا بشكل كتاب، أو مقال، أو محاضرة تطرح منفردة أو تنضم إلى مجموعة نطلق عليها عنوان ندوة أو مؤتمر فكري.

على أنّ منهاجنا في هذا البحث لا يتوجّه بالإشارة الصريحة إلى الرموز الفكرية التي تطالعنا أسماؤها في هذه الصحيفة الإسلامية أو تلك، وإنّا يطرح بعض الأمراض والنقائص التي لا يشك أحد في ماهيتها المرضية، ثم يترك للقارئ الكريم أن يطبّق بنفسه فيكشف المصاديق، إن وُجدت، أو بالأحرى يترك للمفكر نفسه أن يتجرّد من دوافعه الذاتية - والمفروض أنّه يعمل مخلصاً في سبيل إعلاء كلمة الله - فينظر هل تمسّه لفحة من هذا اللهب، أو تدنس ثوبه لوثة من هذا القتام؟

وقبل أن نظرح بعض هذه الأنماط المرضية نركّز على حقيقتين موضوعيتين هما:

أولاً: وجود بعض المفكرين الواعين الذين منحهم الله تعالى القدرة على التحليل الفكري المجرد، والاخلاص له - جل شأنه - الأمر الذي جنبهم الوقوع في المزالق، وجعلهم في مهبط الهداية الإلهية.

ثانياً: توقع التغيير الشامل للحركة الفكرية الإسلامية، وانسجامها بالتالي مع التغيير الشامل الذي يسري كالعافية الإلهية إلى أوصال عالمنا الإسلامي الكبير.. فنحن إذن إلى التفاؤل أقرب منا إلى التشاؤم.. بل إننا لنجدنا نحمل أملاً قريباً في طلوع فجر إسلامي فكري مشرق، يغمر الأرض نوراً بحوله تعالى وقوته.

أما وقد ركزنا على هاتين الحقيقتين، نوّد أن نستعرض - بما يتناسب وحجم هذا المقال - بعض نقاط الضعف، والحالات المرضية التي قد يُبتلى بها الفكر، أو فلنقل يبتلى بها المفكرون. وأولها - بكل صراحة - التبعية المكمّمة للأفراد، والتي غالباً ما تظهر على شكل تبعية للحكام الطغاة.. وهذه التبعية المقيتة قد تفرضها ظروف الطغيان المسيطر، كما قد يلجئ المفكر إليها ضعفه النفسي وحاجته الاقتصادية أو النفسية إلى مثل هذه التبعية.

ويمكننا أن نفترض لهذه التبعية من آثار السوء الشيء الكثير، فقد تبدأ بعنصر المجاملة، وعدم التعرّض لما يُغضب السلاطين، وتنتهي إلى عملية التزييف المتعمّد بعد أن تمتلئ البطون من الحرام، وتتفخ الأوداج من دماء المستضعفين المقهورين. وبين تلك البداية وهذه النهاية يمكن تصنيف الكثير الكثير ممّا يكتب أو يلقي في عالمنا الإسلامي وباسم الإسلام، والتربية، والتوعية!!

فهل يفكر بهذا الأمر أولئك الذين باعوا أئمن جوهرة في الحياة وهي (الحياة المعقولة) للشياطين الصغار التافهين، فراحوا يمتدحون جاهلاً لا يعقل ما ينطق، ولا يملك من مؤهلات الحكم والسيطرة إلا عمالته لسيد الأجنبي، وكم هناك من مؤتمرات حاول فيها بعض هؤلاء الأقرام أن يقرأوا ما كُتب لهم بخطّ واضح وحروف كبيرة لكنهم كانوا يتعثرون حتى في نطقهم، في حين كان المؤتمرون يعتبر ما قالوا وثيقة مهمة من وثائق الفكر الإسلامي المعاصر!!

ولا ننسى هنا أن نشير إلى أن للعمالة درجات، وأن الاثنان المقبوضة متفاوتة إلا أن بيع ذرة من الدين بالدنيا وما فيها يعتبر بلا ريب من أكبر العمليات الخاسرة. ولنتائج العمالة درجات، فمنها ما لا يتجاوز الإعراض عن ذكر ما يُغضب الحاكمين، والاعتصار على



التوعية البعيدة عن تحريك أبناء الأمة ضد الظلم. في حين نجد المظاهر الأخرى تصل إلى حد تسويغ ما يفعله هؤلاء الطغاة حتى ولو كان قد بلغ من الوضوح ما تبلغه الجريمة نفسها. إلا نرى بأّم أعيننا من يمجّد بعض المدّعين لقيادة الأمة وهو يرى بأّم عينه ظلمه وفساده وكونه جسراً لعبور إسرائيل إلى العالم الإسلامي.. وما صورة التميري وأمثاله عنا ببعيدة. والعينة المرّضية الأخرى - على الصعيد الفكري - هذا التكرار الممض للمفكر دونما إبداع وابتكار لا في مجال الموضوع ولا على صعيد الحلول، والاستنباط.. وأنّه لما يملأ القلب ألماً إلا نجد من يرفع الخطوة التالية لخطوة رفعها مفكر كبير هو المرحوم آية الله الشهيد الصدر رحمه الله في مجال الفكر الاقتصادي وذلك بالرغم من مرور ربع قرن على هذه التجربة من جهة، والحاجة الماسة لمثل هذه الخطى الفكرية الكبرى. وأماننا الساحة الفكرية فلنسر فيها، ولنصر هذه المظاهر، ونعمل بالتالي على إدانتها بأيّ شكل كانت.

أما نقطة الضعف الأخرى والتي تبدو للعيان فهي مسألة عدم التعامل مع الواقع، والابتعاد - إلا لماماً - عن المشاكل الواقعية للامة لعوامل كثيرة، منها ما سلف من عدم التعرض لما يغضب السلاطين، ومنها عدم الإحساس بألم الجماهير بعد تمام عملية التخدير، وغير ذلك. وإلا فكم هي الكتابات التي نشهدها من عملاء الغرب في منطقتنا وفي بقية أنحاء العالم؟ وهل من كتب عن الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام كله في إطار وحدة إسلامية شاملة تتناسى الحدود والمصالح الضيقة؟ وهل تتوفر الدراسات الكافية للمبادئ الكافرة التي تسود عالمنا الإسلامي كالقومية، والاتجاه البعثي العفلقني، والماركسية، والأفكار الرأسمالية وغير ذلك، مع أنّها مشاكل يعاني منها جسم الأمة وفكر شبابها الناهض؟ واستطراداً في هذا المجال نجد الفراغ الهائل في الدراسات الجامعية الإسلامية، فأين هي المناهج التي تشبع هذا النهم؟ وهل استطعنا العمل على تلبية هذا الشوق الجامعي المتطلّع للإسلام وهو واقع قائم لا شك فيه، فماذا نحن في قبالة فاعلون؟ وإذا أردنا أن نستمر في عرضنا لنقاط الضعف فإننا سنجد أماننا مثلاً: ضعف العرض وقلة التجديد في ذلك، وإهمال مسألة الإثارة الحماسية القائمة على أساس الفكر الأصيل، وهي جانب قرآني أهملناه في بحوثنا.. وغير ذلك كثير.

ونعود فنكرر ما قلناه آنفاً من أن هذه الآفات قد تكون غير عامة ولكنها - على أي حال - تمتلك مواقعها في وجودنا الفكري، الأمر الذي يتطلب نقداً ذاتياً موضوعياً يقوم به كل فرد، وكل مجموعة، مستهدفين القيام بالواجب الإلهي التاريخي، عاملين على المواكبة - على الأقل - لمسيرة تطّلع الأمة، والتي تطوي المسافات الطويلة لتبلغ الهدف الكبير حيث يكون الدين كله لله، وفي الأرض كل الأرض بعونه تعالى، والله على كل شيء قدير.

#### (د) الخطوط الإعلامية العريضة لتوحيد العمل التبليغي في العالم الإسلامي

إننا نعتقد أن للامة الإسلامية دوراً حضارياً بارزاً، لا باعتبار كونها جزءاً عظيماً من الوجود البشري العام فحسب، بل باعتبار ما تحمله من رسالة إنسانية تعلن أنها الرسالة المنقذة الوحيدة للإنسانية، الرسالة التي أعدها خالق البشر لتشكّل المنهاج الفريد لسير الإنسان نحو تكامله الفردي والاجتماعي. وكذلك نؤمن بأن الدعوة الإسلامية هي من صميم الواجبات على كل مسلم ملتزم بتعاليم الإسلام، وهذه الدعوة لا يحدّها زمان أو مكان، فتشمل كل الأرض على مدى الأزمان إلى أن ياذن الله للساعة أن تقوم.

ونرى أن من صميم واجباتنا العمل على طريق إرجاع خصائص الأمة المفقودة إليها، ومن خصائصها المسلمة أنها أمة داعية إلى الله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾<sup>١</sup>. كما أنه من الطبيعي أن يكون لتغيّر الزمان والمكان أثر كبير في تنوع أساليب الدعوة، لا بل وتغيير مضامينها، بما يتلاءم ونوع الهجوم الذي تتعرض له الأمة بأساليب جديدة من قبل أعدائها.

إضافة إلى ما سبق: فإن الأساليب غير المدروسة للدعوة ربما تؤدّي إلى نتائج عكسية دونما قصدٍ من أصحابها، في حين نجد عناصر متسلّلة غريبة طرحت نفسها في مجال الإعلام الإسلامي لأغراض دينية.

كل هذه الأمور تطلّبت وضع إستراتيجية إعلامية للدعوة الإسلامية تركّز بطبيعة الحال على الأهداف والمضامين والعناصر والأساليب والوسائل.

١. آل عمران: ١٠٤.

## أولاً: أهداف الدعوة الإسلامية

إذا قسمنا المساحات المخاطبة من قبل الإعلام الإسلامي أمكننا أن نطرح الدوائر المتداخلة التالية:

أ- الدائرة الإسلامية بما يشمل كل المذاهب الإسلامية.

ب- الدائرة الدينية بما يشمل كل الأديان السماوية.

ج- الدائرة الإنسانية العامة بما يشمل البشرية.

وحينئذ فمن الطبيعي أن يختلف الخطاب للدائرة الأوسع عنه في الدوائر الأخص منها.

أ) فعلى صعيد الدائرة الإسلامية: يستهدف الإعلام والدعوة الإسلامية - فيما يستهدف - الأمور التالية:

١- عرض الإسلام على أنه عقيدة ومفاهيم وتشريعات واطروحات حياتية تحلّ المشكلات الاجتماعية، وتضمن السير نحو العلاء، وبالتالي تعميق الإيمان في النفوس.

٢- العمل على نشر الأخلاق الإسلامية الأصيلة، ونبذ المفاصد الأخلاقية.

٣- العمل على تحقيق الخصائص القرآنية للامة الإسلامية، وفي طليعتها مسألة الوحدة الإسلامية والترابط والتوازن.

٤- العمل على تربية جيل إسلامي مؤمن قويّ على أساس من تعاليم الإسلام، يعرف تاريخه، ويدرك واجبه الحضاري.

٥- السعي الجاد لتهيئة الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام على واقع الحياة، مع تنظيم التبادل الحضاري في الحدود الملائمة للشريعة.

٦- توعية المسلمين بالمواقف السياسية والاجتماعية التي يواجهونها وترشيدهم إلى الحدّ الذي تتقارب فيه الرؤى والخطوات العملية لديهم جميعاً.

٧- توعية المسلمين بذخائرهم وطاقاتهم المادية والمعنوية لتحقيق التنمية والتوسعة المطلوبة في مختلف المجالات.

٨- العمل على توسعة دائرة معرفة اللغة العربيّة والناطقين بها، وذلك بغية رفع مستوى القدرة على الاستفادة من النصوص الإسلاميّة، وكذلك مستوى شعور الأمة بالوحدة الإسلامية.

٩- تأسيس قطاعات الأمة وأفرادها بنقاط الضعف والنقص الاجتماعي والاقتصادي، والعمل الجاد في سبيل تغطية نقاط العجز هذه - على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي - وتعريفهم بالعدو والصديق.

١٠- بعث روح الحماس والعاطفة الإسلامية بين أفراد الأمة، ليقوموا بواجباتهم في الدفاع عن مقدّسات الإسلام وقيمه السامية.

**ب) وعلى الصعيد الديني العام:** يستهدف الإعلام الإسلامي ما يلي:

١- توضيح حقيقة الدين الإسلامي وتصوّراته، لمنع سوء الفهم والتصوّر الخاطيء عنه.  
٢- الدعوة إلى كلمة سواء بين أتباع الأديان، وتعبيد الجميع لله، واجتناب كلّ ما يمتّ إلى الطاغوت بصلة.

٣- توضيح بعض الحقائق المتنبسة عليهم، كقضية بنوّة المسيح عليه السلام، وحقيقة التوحيد الإبراهيمي، وموضوع هداية الدين للحياة كلّها، وقدسّيّة الأنبياء، ووحدة الأديان.

٤- تنسيق الجهود لمحاربة الإلحاد والكفر والشرك.

٥- العمل الجاد لتحقيق موقف موحد من أية إهانة أو تجديف يمسّ الحقائق الثابتة المقدّسة للأديان الإلهية، وخصوصاً تلك المقدّسات المشتركة.

٦- السعي لإبعاد الجمعيات الدينيّة عن الانضواء تحت مراكز الظلم والطغيان والاستعمار، بل وجعلها مراكز إشعاع وخدمة لقضايا المحرومين والمستضعفين أفراداً وشعوباً.

٧- الدعوة لتحقيق الوثام والعيش المشترك، ونفي وسائل الخصام والتناحر الديني، وإشاعة روح الحوار المنطقي بين أتباع الأديان.

**ج) وعلى الصعيد الإنساني:** يتخلص هدف الدعوة الإسلامية في ما يلي:

١- تنمية الدوافع والركائز الدينية في النفوس.

٢- إشاعة الحس الخلقّي الإسلامي، وتحريك الكوامن الأخلاقية.

٣- التعاون المشترك لنصرة قضية المستضعفين والمحرومين، والدفاع عن القضايا العادلة وإدانة الظلم أينما كان.

٤- الدعوة بالحسنى لتفهم الدين عموماً ودوره في الحياة.

٥- السعي الجاد لتحقيق مجتمع دولي سليم على أساس من حقوق إنسانية مشتركة.

### ثانياً: مضمون الدعوة الإسلامية وخصائصه

- وعلى ضوء الأهداف السابقة تتحدّد خصائص المضمون الدعوي الإسلامي على النحو التالي:
- ١- فهو إعلام قرآني نبوي، يعتمد في أهمّ مصادره على هذين المنبعين الأساسيين، ويعمل على الرجوع إليهما في شتى المجالات.
  - ٢- وهو إعلام موضوعيّ ينأى عن التأثير بالمصالح الشخصية والفئويّة والسلطويّة وغيرها، وإنما ينبغي بيان الحقيقة لا غير.
  - ٣- وهو إعلام أخلاقيّ يتقيّد بالحدود الأخلاقية، ويتجنّب كلّ ما ينافيها كالكذب وإشاعة الفاحشة وغير ذلك.
  - ٤- وهو إعلام علميّ متطور في أساليبه، يعتمد آخر النتائج المتعلقة به، فهي كلّها من عناصر القوّة المأمور بها في القرآن الكريم.
  - ٥- وهو إعلام عالمي لا تحدّه حدود قوميّة ضيقة ولا مناطق جغرافية معيّنة.
  - ٦- وهو إعلام مستقلّ لا تؤثر عليه المصالح القومية والفوضوية والعقلية المحضّة، والعملية غير المخططة، وعوامل التمويه والتزوير وغيرها.
  - ٧- وهو إعلام واقعي لا يسبح في الفراغ، ويهيم مع الخيال، ولا يطرح حلولاً وهمية أو يتعامل مع افتراضات غير واقعية. إنّه يعيش مشكلات الحياة القائمة، ويلاحظ كلّ الامكانيات الإنسانيّة المتوفّرة.
  - ٨- وهو إعلام متوازن، يلحظ في حركته مصالح الأمة، ومقتضيات الصدق، والأهداف الإسلاميّة العليا.
  - ٩- وهو إعلام رساليّ يوظف كلّ طاقاته لخدمة الهدف الرسالي، وينأى عن السفساف، والمواضيع المنحطة والتافهة.
  - ١٠- وهو إعلام مترابط ينظر للحياة بنظرة شاملة، وينسجم مع كلّ القطاعات الأخرى في طرحه للحلول.
  - ١١- وهو إعلام مرن لا يرسف في أغلال الجمود، ولا تجرّه دواعي الانحلال.
  - ١٢- وهو إعلام إنساني لا ينطلق من منطلقات قومية أو فئويّة، وإنّما يلحظ العناصر الفطرية المرتكزة، ويحاول خدمة المجموع العام.

- ١٣- وهو إعلام عقائدي يشكّل في كلّ أوجهه مدرسة تعليمية تركّز العقيدة وتعمّق جذورها.
- ١٤- وهو إعلام مربّب يعرف أساليب التربية، ويعمل على تقديم النماذج العليا للامة، مبتعداً عن النماذج المتبدلة.
- ١٥- وهو إعلام موحد يبتعد عن كلّ ما من شأنه شقّ عصا المسلمين، وتفتيت قواهم، وإرباك مواقعهم.
- ١٦- وهو إعلام راصد لكلّ تحركات أعداء الأمة، يعمل على توعية المسلمين بالمخاطر التي تحيق بهم.

### ثالثاً: عناصر الدعوة

- لا ريب في أنّ من أهمّ عناصر الدعوة الإسلامية حمّلتها ودعاتها، وإن كان كلّ مسلم مكلفاً بمقدار علمه بالدعوة.
- وهؤلاء يجب أن يتّصفوا بكثير من الصفات وفي طليعتها:
- أ - المعرفة الدينية الشاملة للجوانب العقائدية والعملية، وذلك إلى الحد الذي يقربون فيه من الإجتهد والتخصّص، كما أنّ عليهم التعرّف على أفضل الأساليب التبليغية والتمكّن منها، وكذلك معرفة مخاطبيهم على اختلاف مستوياتهم.
- ب - الإيمان النافذ إلى الأحاسيس فلا يكفي الإيمان العقلي المجرد، وإنّما ينبغي أن يتمكن الإيمان من النفوس حتى يحرّك المشاعر.
- ج - التوفّر على الخلق الإسلامي الأصيل إلى حد رفيع بحيث يجب أن يرتفع عن الحد المتوسط للمسلم العادي في العمل بالمستحبات وترك المكروهات، وينسجم قوله مع عمله تماماً.
- د - الشجاعة وعدم الخشية إلا من الله تعالى.
- هـ - ترويض النفس على الجهاد والمثابرة وتحمل المشاق.
- و- التوفّر على ملكة التعبير الحسن، والتصرّف الحكيم المناسب.
- ز- إحراز المكانة الاجتماعية التي تؤهلهم للتأثير في الآخرين.
- ح - التوفّر على معرفة تاريخية عامة وخاصة للمسلمين، والوقوف على محل الاعتبار والمنعطفات في هذا التاريخ.

- ط - التعرّف على أفضل الأساليب التبليغية ومطالعة أحوال الدعوة والدعاة عبر التاريخ الإسلامي.
- ي - التمتع بخصائص التأثير المطلوب من قبيل الساحة والمرونة، النصيحة، التواضع، التدبير والمتانة، التنوع والتجديد، الاستغناء عن الآخرين، سعة الصدر، الاخلاص، النشاط الدائب، التخطيط، الزهد والحياة البسيطة، والعيش مع المحرومين.
- ك - الابتعاد عن الصفات المنفّرة، كالتكلف والتصنّع، والتمويه والتسرّع والإفراط والتفريط، والتعصب والطائفية، والتسلط والنفعية.
- ل - معرفة لغة المخاطبين.
- م - المظهر الجذاب والمناسب.
- ن - التعرّف على أساليب الحوار والمجادلة الحسنة.

#### رابعاً: أساليب الدعوة

- وهي متنوعة جداً، إلا أننا نشير إلى بعضها مستعينين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:
- أ - الأسلوب الفطري: ونعني به اتباع أسلوب أو توجيه أسئلة أو حكاية قصص تؤجج كوامن الفطرة ونزعاتها الفضلى، ممّا يترك أثره العميق في النفوس.
- ب - التدرُّج: وهو سنة قرآنية وعمل نبوي شريف، فقد لا يمكن إعطاء الحقيقة دفعة واحدة، وإنما يحتاج الأمر إلى عامل الزمان الذي يؤهل كلّ مرحلة لتلقّي تعاليم المرحلة التالية.
- ج - التكرار والتأكيد والتذكير المتواصل.
- د - العيش مع الأمة، وتحمل الخطر والمشاكل معها، والإحساس بالأمها، والتضحية في سبيل أهدافها العليا، ممّا يترك أكبر الأثر في مجال الدعوة.
- هـ - استخدام أساليب تداعي المعاني، والتبليغ المباشر عبر القصة، والفلم، والمسرحية، والمثل الجميل، والإشارة، وهو أسلوب أثبت نجاحه في مختلف المجالات.
- و- تقديم النماذج العليا للمخاطبين، لكي يتأملوا، ويعملوا على السير نحوها، وتجسيدها في وجودهم.
- ز - التخطيط لتوفير الأجواء المناسبة للتأثير: من قبيل العمل على حذف سيطرة العقل

الجمعي ليفسح المجال للتفكير الهادئ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفْرَادٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾<sup>١</sup>.  
أو إيجاد جوّ قدسي مناسب كما في مستحبات ليلة القدر.

### خامساً: وسائل الدعوة

- أ - وتدخل في هذا المجال كلّ الوسائل المشروعة التي يمكن استخدامها لتحقيق تلك الأهداف، كالمطبوعات والمسموعات والمرئيات ووسائل الاتصال بشتى أنواعها.
- ب - كما تدخل فيه كلّ العناصر الفنية كالقصة، والمسرحية، والخطّ، والرسم وفنون السينما، والمسارح، والتمثليات وأمثالها.
- ج - ومن الأمور التي ينبغي إدخالها في عنصر التبليغ والدعوة بصفقتها مراكز رائعة في تحقيق هذا الهدف: مراكز التعليم بشتى مراحل الابتدائية والمتوسطة والجامعية، والدراسات الكلاسيكية المسجدية وأمثالها.
- د - ومن أهم وسائل التبليغ: المنابر التي تعقد مجالسها في المناسبات المختلفة، وخصوصاً منابر صلوات الجمعة والحج والعيدين وأمثالها، فهي مناسبات تحمل كلّ العناصر الضرورية لتأثير التبليغ.
- هـ - وتعدّ الخدمات الاجتماعية أيضاً من أهم وسائل الدعوة تأثيراً.
- و- كما أنّ من وسائل العمل التبليغي تنظيم التشكيلات، والجمعيات، والمراكز الإسلامية، وإقامة المعسكرات الطلابية وغيرها.



## المقال الرابع: الصحوة والغرب

### مقدمة

العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب بدأت مع ولادة الإسلام، ومطالعة الآيات الأولى من سورة الروم توّضح أنّ المسلمين - رغم قلة الاتصالات آنذاك - كانوا يراقبون الحوادث العالمية بكل قلق. وعلى الطرف الآخر كان المشركون أيضاً يراقبون. ولم تكن مسألة انتصار الفرس على الروم - كما يبدو - مسألة يمرُّ بها المسلمون والمشركون بشكل عادي، فيفرح هذا ويحزن ذلك، وإنّما كان انتصار أي طرف يعني رجحان كفة الإيمان أو الشرك مما يكشف عن تصور الصراع على مستوى أوسع من الجغرافيا بلاريب. وهنا يبدأ التحدي والرهان - على ما تقوله بعض الروايات،<sup>١</sup> ويتجلّى صدق الوحي بأن الروم - وكانوا في معسكر الإيمان؛ لأنّهم من أهل الكتاب - بعد أن غلبهم الفرس المشركون سيبتصرون في بضع سنين، وهذا ما حدث بإرادة الله تعالى.

ولكن لا الروم ولا الفرس كانوا ليشعرون بما يخبىء لهم القدر من كيان سينطلق من رحم الصحراء ويكبر بعين الله وينقذ الأرض من وهدة الضياع. وربما سمعوا بذلك ولم يكثرثوا حتى جاءتهم الأنبياء بكبر هذا الوليد الصحراوي، ثم جاءتهم كتب الرسول الأكرم ﷺ تطلب منهم الإسلام حتى يسلموا.

---

(١) راجع مثلاً في تفسير الآيات المزبورة: الدر المنثور عن أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم.

فهذا كتاب إلى كسرى ملك الفرس يقول فيه ﷺ: ادعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحقق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك لعنة المجوس وهناك نصوص أخرى.<sup>١</sup>

وراحت الكتب تترى إلى عمال كسرى.<sup>٢</sup>

وهذا كتاب إلى قيصر عظيم الروم جاء فيه: أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.<sup>٣</sup>

وكذلك توالى الكتب على عماله.

واختلفت ردود الفعل، وكان رد الفعل المسيحي أكثر تعقلاً من رد الفعل المشرك، ثم كانت المناوشات وانتهى الأمر كما نعلم إلى هزيمة الامبراطوريتين أمام هذا الكيان خلال فترة وجيزة من الزمان. وكان المد الإسلامي الأول سريعاً وكاسحاً أذهل الطرفين، فانهار أحدهما وانحسر الآخر إلى عمقه الاوروبي تاركاً الشام ومصر والمغرب بعد أن حكمها قرابة ألف عام تقريباً ومنذ غزو الاسكندر لها.

وكان التقدم هذا مثار إعجاب المؤرخين الكبار من أمثال ثوراستروب وغوستاف لوبون وتوينبي وتوماس ارنولد.

وكانت مقاومة الفرس والروم عنيفة<sup>٤</sup> ولكن الإسلام كان بعث في العرب المسلمين ثورة لا تقاوم. واستمرّ التفوق الإسلامي تاركاً أثره في الغرب. وإن كان الاوروبيون قد سعوا لانكار ذلك والتأكيد على أن اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الاوروبي وليس الإسلام.

١. مكاتيب الرسول ج ٢، ص ٣١٦.

٢. المصدر نفسه ج ٢، ص ٣٨٨ مثلاً.

٣. المصدر نفسه ج ٢، ص ٣٩٠.

٤. راجع كتاب حركة الفتح الاسلامي للاستاذ شكري فيصل.

يقول الأستاذ أنور الجندي:

ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها. وكان ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطية وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد.

ولكن لم تهب ثورة الإسلام وتسير كتائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لها من معالم وآثار وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح. وقامت دولة جديدة، وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب... فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة... ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوروبا الحديثة.<sup>١</sup>

ورغم أن بعض المؤرخين الأوروبيين يمجدون معركة بواتيه التي قادها شارل مارتل وأوقف زحف المسلمين عام ٧٣٢م (١١٤هـ) ويعتبرونها نصراً لأوروبا إلا أن الآخرين منهم يعتبرونها من أشأم الفواجع في القرون الوسطى - كما يقول كلود فاير - حيث تقهقرت أوروبا ثمانية قرون.<sup>٢</sup>

وبعد عشر سنوات من سقوط طليطلة (١٠٥٨م) شنت الحروب الصليبية لمدة قرنين (١٠٩٩م - ١٢٩٥م) فدمرت الأخضر واليابس، ولكن أوروبا اكتسبت الكثير من هذا التلاحم مما شكل سر بدء نهضتها في القرن الخامس عشر (أي بعد ٣ قرون).

والطريف أن نجد من الكتاب الأوروبيين المحدثين من يعترف بأن الإسلام شكل العامل الخارجي للنهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي فليكن الغرب اليوم العامل الخارجي لنهضة العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري!<sup>٣</sup>

وبينما كانت أوروبا تمرّ بظلمات القرون الوسطى (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر) كانت الأرض الأخرى مشرقة بالإسلام، في الشرق بل في جزء من أوروبا، أي الاندلس. وفي عام ١٠٩٩ بدأت الحروب الصليبية وبتحريك من الكنيسة، وجرت فجائع يندى لها

١. الإسلام والعالم المعاصر، ص ١٣٠.

٢. المصدر نفسه، ١٣٢.

٣. بيدهام برايان في الايكونومست اللندنية سنة ٩٤.

جبين الإنسانية. وهي وإن عبّرت عن حقد وتعصّب، ولكنها تعبّر عن تسرّب الخوف الكبير للغرب من الإسلام الحضاري الزاحف، فليس صحيحاً ما تقوله السيدة هانتر من أنّ الغرب بدأ يشعر بذلك منذ سقوط (غاليلوي) بيد الأتراك عام ١٣٥٩م، بل سبق هذا الخوف الحروب الصليبية نفسها.

وكان دخول الإسلام إلى الاندلس في عام ٩٢-٩٥هـ (٧١١-٧١٤م) بدء الإشراقة في أوروبا لا في الاندلس فقط، ودام ثمانية قرون (حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢) لتبدأ معه النهضة الأوروبية، ورغم أنّ الإسلام خسر الاندلس فإنّه أقام في إفريقيا امبراطورية مالي وامبراطورية كادا في نفس القرن.

وهكذا تداول الغرب والإسلام القوة والغلبة.

ويعتبر الأستاذ سمير سليمان<sup>١</sup> أنّ الهجوم الغربي الثاني بدأ عام ١٧٩٢م عند نزول نابليون الاسكندرية وتوالت الحملات وأهمها:

- عام ١٨٠٠ سيطرة الهولنديين على اندونيسيا.

- ١٨٣٠ سيطرة فرنسا على الجزائر.

- أواخر القرن التاسع عشر: سقوط القوقاز وتركستان على يد الروس.

- ١٨٥٧ سيطرة بريطانيا على الهند.

- ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس.

- ١٨٨٢ احتلال الانكليز لمصر.

- ١٨٩٢ احتلال الانكليز للسودان.

- ١٩١٧ دخول الحلفاء بيت المقدس وبدء سقوط العثمانيين.

- ١٩١٨ تحقق السيطرة شبه التامة للانكليز والفرنسيين على العالم الإسلامي.

- ١٩٢٤ سقوط الدولة العثمانية.

- ١٩٤٨ إنشاء اسرائيل.

١. الاسلام والغرب، ص ٣٤ (كتاب التوحيد).

هذا الهجوم الكاسح أغرق العالم الإسلامي في حالة من الذهول ولكن بدأت ردود الفعل القوية، وهكذا لاحظنا ردود الفعل التالية:

- عام ١٨٣٠ بدء ثورة الجزائر.
- (١٨٣٩-١٨٩٧) حركة الإصلاح التي قادها الأسدآبادي (الافغاني) وعبدو الكواكبي.
- ١٨٣١ الحركة السنوسية في ليبيا.
- ١٨٥٧ ثورة المسلمين في الهند.
- ١٨٨٢ الثورة العربية في مصر.
- ١٨٨٩ الثورة السودانية.
- ١٨٩٥ ثورة المشروطة الإيرانية.
- ١٩١٩ الثورة المصرية.
- ١٩٢٠ ثورة العشرين في العراق.
- ١٩٢٤ الثورة السورية والسودانية.
- ١٩٢٤ الثورة الخطابية ثورة الريف.
- ١٩٣٠ ثورة عمر المختار في ليبيا.
- الثورة الإسلامية في الهند الشرقية وتركستان والقوقاز (ثورة الشيخ شامل) والعمانيين والسواحليين.
- ثورات المقاومة الإيرانية ضد المحتلين والعملاء في مطلع القرن العشرين من قبيل: ثورة تنجستان في الجنوب و ثورة الغابة في الشمال.
- ١٩٣٥ الثورة الفلسطينية.

إلى جانب ردود الفعل هذه - وكانت تختلف أحيانا في الأهداف والمناهج - نجد أن الغرب الذي استطاع أن يقضي على الوجود الإسلامي السياسي بسقوط الدولة العثمانية الذي نعده الكارثة الكبرى عام ١٩٢٤ نجد الهجوم الثقافي الغربي يتعاظم، والتصريحات الصليبية الجديدة تطرح بوضوح ضد الإسلام (ولعلها لم تنقطع لحد الآن وإن اختفت أحيانا) وكان كتاب اللورد كرومر المنتشر عام ١٩٠٨ الوجه الصارخ لهذا الهجوم، حيث زعم فيه أن الإسلام قد مات، أو أنه على ابواب الموت ولا يمكن أن تعيد إحياءه الإصلاحات؛ لأن الموت كامن في

جوهره الذي يركّز على تحلّف المرأة وجمود الشريعة فينبغي للعالم الإسلامي كي يساير التطور أن يقبل التحديث بدون الإسلام<sup>١</sup> وهي نظرة تمثل نظرة المستشرقين الجدد كما تسميهم هانتر وترى أنّهم يتفقون على أنّ الإسلام بطبيعته لا ينسجم مع الحداثة وبالطبع مع التغريب، وتصفهم بأنّهم جبريون ثقافيون يعتقدون أنّ المسلمين يفكرون ويتصرفون وفق طرائق معينة لأنّهم مسلمون.. وأنّ الطريقة الوحيدة التي يسع الغرب التعامل بها مع الظاهرة الإسلامية هي المقاومة والقمع والاحتواء وينصحون بمساعدة الغرب لتلك الحكومات المسلمة التي تقاوم إسلاميتها حتى يزالوا أو يخضعوا كلياً...<sup>٢</sup>

وبدأ التراجع الفكري الإسلامي بإبداء محمد عبده روحاً مهادنة تجاه كرومر<sup>٣</sup> وقد تلقف هذه المهادنة الفرع العلماني من مدرسته كلطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين واسماعيل مظهر وبالتالي وصل إلى ما يقرب من نظرة كرومر. ولا نعدم في أنحاء العالم الإسلامي عناصر من قبيلهم عاصرتهم وطرحت أفكارهم، وقد ساعدتها في ما بعد المدرستان القومية والماركسية اللتان نشطتا في المنطقة الإسلامية في أواسط القرن العشرين.

وإلى جانب هذه النظرة العدائية المعادية من قبل الغربيين للصحة الإسلامية كانت هناك نظرة استشراقية أخرى تطلق عليها هانتر اسم (العالم الثالثين الجدد) وتؤمن بأنّ الحاكم في العالم الإسلامي هو (القيم والمصالح معا) وبالتالي فمن الممكن تصور تصالح بين العالمين الإسلامي والغربي وهي تؤيد هذه النظرة.

والحقيقة أنّ القيم الإسلامية إنّما ترفض الجانب المعادي للإنسانية في الغرب كالتحلل الجنسي، واستغلال الشعوب، ورفض الحياة الخلقية، والكيل بمكيالين، والعمل على محو الثقافات الأخرى، والاستعمار بشتّى ألوانه، وأمثال ذلك، وفيما عدا ذلك فإنّ هناك نقاط التقاء كثيرة ونقاط تقبل الحوار.

ثم أنّ المصالح لا تشكّل مساحة ترفضها القيم، فالقيم في الواقع إنّما تعمل على تحقيق

١. وقد الف الشيخ الغلاييني كتابه (الاسلام روح المدنية) للرد عليه وصدر في نفس العام.

٢. مستقبل الاسلام والغرب، ص ٩٥ وسنركّز في ما تبقى من حديث على هذا الكتاب.

٣. محمد جابر الانصاري في مقاله المنشور في (ثقافتنا)، ص ١٥٣ العدد الاول نقلا عن محمد محمد حسين.

المصالح الإنسانية السامية.

وعلى أي حال، فقد سعى الغرب بشتى الوسائل لقهرو وجود الأمة عبر هجومه العسكري والثقافي والتسلي من خلال عملائه أو المنبهرين بحضارته لضرب القوة الإسلامية بعد قضائه على الدولة العثمانية، ولما لم يجده الاستعمار المباشر لكل المنطقة الإسلامية تقريباً راح يجرب فكرة إعطاء الاستقلال الشكلي مع العمل على مسك أزمّة الأمور بيده، وهنا شهدنا مولد الدول أو المجموعات المحدودة والتي تعتمد فكرة الأساس القومي أو الجغرافي ممزّقا بها جسد الأمة الإسلامية الواحدة، ومحققاً هدف الاستعمار.

ولكن هذه الحالة سرعان ما أثبتت أنّها لا تحقق للغرب هدفه، ولم تلبث إلا قليلاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى رحنا نشهد تنامي الحس الشمولي الإسلامي وقيام المؤسسات الإسلامية الشمولية، وخصوصاً عند المنعطفات الحساسة من قبيل احراق المسجد الأقصى الذي أدى إلى إشتعال الغضب الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في إيران في القضاء على النظام الرجعي العميل للغرب، وانتصار المجاهدين الافغان على القوة الروسية العظمى، وأخيراً انهيار القوة الإلحادية الكبرى وانعتاق الشعوب الإسلامية المحتلة، ممّا أوجد فكرة إسلامية شمولية ضخمة اضطرّ الغرب معها إلى تغيير إستراتيجياته.

وقد فوجئ الغرب بهذه الظاهرة العارمة - ظاهرة الصحوة الإسلامية - وراح يجللها بوسائله وتصويراته ليكتشف نقاط القوة والضعف فيها، ومن ثم يعمل على مواجهتها إذن من المهم أن تحدد الأسباب الأساسية للظاهرة الإسلامية وأبعادها المعادية للغرب وأن تقوم في شكل صحيح وأن يتم تبني السياسات الملائمة للتعامل معها<sup>١</sup> وسوف نركّز على نموذج من الرؤى الغربية فيما يلي:

### مع كتاب (مستقبل الإسلام والغرب) لشيرين هانتر

لكي نقف ولو بشكل سريع على هذا الكتاب علينا أن نعطي لمحات عن مسيرة البحث فيه على النحو التالي:

١. مستقبل الإسلام والغرب، ص ٩٩ (الترجمة العربية للسيدة زينب شوريا).

- ١- تبدأ الكتابة بالحديث عن رواية ضابط بريطاني ألفها عام ١٩١٦ على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها - إذا ما اندلعت - أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى وهو يعلن: إن الشرق في انتظار إشارة إلهية.
- ثم تذكر أن (كراوثرمر) عبّر بعد ٧٥ عاماً عن مخاوفه من أن أميركا تواجه الخطر الأصولي الإسلامي.
- ٢- وتقرّر أن أوروبا كانت تواجه همّ الخطر الإسلامي منذ سنة ١٣٥٩ بسقوط غاليبولي بيد الأتراك وتعرج على الخوف الذي استولى عليه بظهور الإمام الخميني عليه السلام.
- ٣- وتتحدّث عن الصراع القائم في الغرب بين الدين والعلمانية، وتعلن أن الفصل بين الثقافة والإيديولوجيا هو فصل زائف.
- ٤- ثم تذكر أن ميزات الإسلام تجعله خصماً حضارياً باستمرار للغرب.
- ٥- وتركّز على دور النفط في إذكاء الصراع، الأمر الذي لا يتصور عند الأصوليين الهنود، ولذا فلا يقلق الغرب كثيراً لنموّ هذه الأصولية.
- ٦- وتؤكد على كون الإسلام لا يمكن أن يهزم كما هزمت الاشتراكية والنازية.
- ٧- ثم تميز بين الإسلام (الشخصي) فهو جيد والإسلام (الحضاري) فهو سيّء، وترى أن الخطر كله آتٍ من الإسلام المقاتل<sup>١</sup>.
- ٨- ثم تعلن أن كلّ الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي وفيها يكمن التطور.
- ٩- وتؤكد كون الحل الوسط يكمن في قبول الغرب بدور الدين في الحياة وقبول العالم الإسلامي بالعلمنة.
- ١٠- ثم تقول: إن السبب الحقيقي في الصراع هو توازن القوى، فالمسلمون ينكرون السيطرة الغربية على مقدراتهم، والغرب ينكر عليهم تحديهم لتفوّقه.
- ١١- ثم تتحدّث عن دور الإيديولوجيا في المجتمع باعتبارها تخدم القوة وأنّ التضحيات الكبرى تحتاج لمبرر إيديولوجي، وترى أن القيم الغربية لا يؤبه بها إذا لم تخدم المصالح.

١. هذا التعبير ورد في متن الاستراتيجية الأميركية التي نشرت عام ١٩٧٩، وأكدت على ضرورة محاربة الإسلام المقاتل وتقصده به الإسلام السياسي.



١٢- وتعود فتؤكد أنّ النظام السياسي الإسلامي غير واضح في الكتاب والسنة. كما تؤكد وحدة الدين والسياسة ومفهوم الأمة عند المسيحية واليهودية سعيًا منها لتحقيق التقارب باعتبار أنّ المجتمع الإسلامي يقبل العلمنة (وإن كانت تعترف بكون النظام الإلهي والعلمنة لا يجتمعان) وحينئذ لا حتمية للصراع.

١٣- وتؤكد أنّه لا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام. ولكنها تنتقد من يسطّح موقف الإسلام، ثم تعود لتؤكد أنّ الإسلام توسّعي معاد للأخرين باعتباره يريد أن يحكم العالم، ساخرة من هانتينغتون الذي يرى أنّ المسلمين لا يعرفون منطق المساواة.

١٤- ثم تركز على حكم (الجهاد) فترى أنّه يتنافى مع مبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولكنها تخفّف منه؛ لأنّه مبدأ دفاعي، وتقترح على المسلمين أن يرجئوا الهدف العالمي.

١٥- وتنتقد التصوّر الغربي للإسلام ورؤيته للعالم، وتؤكد أنّ المسلمين يتعاملون ككتلة واحدة فيجب التعامل معهم كذلك.

١٦- وبعد أن تتحدّث عن مهارة الرسول ﷺ في التعامل مع أعدائه تتهم المسلمين في صدر الإسلام بأنّ دوافع اندفاعهم لم تكن عقائدية فقط، تمامًا كما هو الحال في الحروب الصليبية.

١٧- وتؤكد أنّ التمزّق الذي يعيشه المسلمون حول مفهوم دار الإسلام من مفهوم سياسي إلى مجرد مفهوم ديني، وأنّ الدعوات إلى الوحدة الإسلامية لا تجد لها صدقاً اليوم.

١٨- كما تذكر كون ممارسات المسلمين ضد حقوق الإنسان لا علاقة لها بالإسلام.

١٩- وتعتبر حركة الإحياء الإسلامي هي المسببة لصراع الحضارات. وترى أنّها بدورها معلولة لخصائص الإسلام.

٢٠- وتعرض إلى فكرتي علاقة الدين بالسياسة، وكيان الأمة الإسلامية، فتعتبرهما اسطورتين، وترى أنّ الأمة الإسلامية لم تقم لها قائمة منذ وفاة النبي ﷺ، إلا أنّها تؤكد كون هاتين الفكرتين ساهمتا في وجود حركة الصحوة (كتعبير عن دور عنصر القيمة) إلى جانب عوامل أخرى كاتقسام المجتمعات، وتمهيش العناصر الإسلامية، وجهود التقليديين لتغيير معادلة القوة (كتعبير عن عنصر المصلحة).

٢١- ومن هنا فالصراع مع الغرب ليس حتمياً؛ لأنّه لا يعتمد على العنصر القيمي فقط كما

يقول (الاستشراقون الجدد) الذين يدعون نتيجة دعواهم هذه إلى قمع العالم الإسلامي، وهؤلاء من أمثال (كرامر) الذي يوجّه نقداً لاذعاً للرئيس كارتر؛ لأنه سمح لظهور ظاهرة (آيات الله)، ومثله برلمونز. ويقف في قبال هذا التفسير من تسميهم بـ(العالم ثالين الجدد) من أمثال (بورغات) الذين يقبلون وجود العنصرين (القيمة والمصلحة) في مجال تنظيم العلاقة ومن هنا فهم يدعون للتصالح، وهي تؤيدهم في ذلك.

٢٢- وترى أنّ عوامل النهضة الإسلامية تتمثل في:

تمزق عوامل النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر وبالتالي تحوّل العلاقة من علاقة ندين إلى علاقة مسيطر ومسيطر عليه. ممّا خلق اتجاهين متخالفين، اتجاه العودة للإسلام اما بشكل حربي كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة إقبال وسير سيد أحمدخان والمرجاني وغيرهم.

٢٣- وفي صدر تقييمها للأفغاني وعبداه وهل هما أصلاحيان أو منافقان تعمل على ترجيح الجانب السلبي استناداً للجواب الفاتر للأفغاني على هجوم (رينان) على الإسلام باعتباره حرب الحضارتين السابقتين عليه، وترى أنّه أي الأفغاني استخدم (التقية) في ذلك.

٢٤- وتذكر أنّه على الصعيد السياسي بدأ الزعماء من منتصف القرن التاسع عشر بالتحديث: أمير كبير في إيران، العثمانيون في تركيا، محمدعلي في مصر، الثورة الدستورية في إيران ١٩٠٥م، ثم ثورة التحديث التركية، وتعقب بأنّ الأصلاحيين المسلمين واجهوا العلمانيين والتقليديين معاً.

٢٥- وانتصر العلمانيون انتصاراً زائفاً في الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٧٠، حيث فرضت العلمانية فرضاً على المسلمين، وحدث التشطّي الثقافي والصراع التحالفي فتارة يتحالف القوميون مع الإسلاميين ضد اليساريين، وأخرى يتحالف اليسار والإسلاميون ضد التقليديين، وثالثة يثور النزاع بين خريجي الجامعات الغربية ودارسي اللغة العربية، ولكن التحديث فشل في مسعاه، وعاد التمسك بالإسلام باعتباره هو الحل.

٢٦- وترى أنّ الثورة الإسلامية استفادت من خصائص الدين لتحريك الجماهير ولكنها لم تحقق الطموحات فعدت تواجه حقيقة مهمة هي انفصال الدين عن السياسة.

٢٧- وبعد أن تتعرض لآراء الدكتور سروش في النسبية وتشبهها بآراء سير سيد أحمد تقول: إن هذا يعني كون الإسلام يقبل الإصلاح.

٢٨- ثم تتحدث عن العوامل الخارجية للصحوة من قبيل: قيام إسرائيل، هزيمة ٦٧، الثروة النفطية، هزيمة السوفيت في أفغانستان، نجاح الثورة الإسلامية في إيران، ولكنها تقول: إن قبولها بوقف الحرب عام ١٩٨٨ م أحبط الآمال.

٢٩- ثم تعود فتقول: إن الغرب يعادي الصحوة؛ لأنها تكتنز عداً له، نتيجة سياساته هو لا نتيجة أن الإسلام بخصائصه يعادي الغرب.

وتذكر أن أمثال برنارد لويس ودانيال بايبس من المستشرقين الجدد يرجعون عداً الصحوة الإسلامية للغرب إلى الخوف والحسد، وتتقد هذا الرأي وإن كان فيه شيء من الواقعية تماماً كما يحسد الغرب اليابان والصين، في حين رأى آخرون أن الحقد الإسلامي ناتج من سياسات الغرب، ولذلك يشارك العلمانيون المسلمين في هذا الرأي.

٣٠- وتقول بعد ذلك في صفحة ١٤٨: أظهر هذا النقاش بوضوح أن نشوء الظاهرة الإسلامية كان إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من تطور التجربة الإسلامية في سياقاتها الزمانية والمكانية المتنوعة. فهي شأنها شأن الأوجه الأخرى للتجربة الإسلامية أتت مرتبطة بالتطور والتحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمعات الإسلامية، وديناميات مجابهتها للعالم غير الإسلامي وللقوى والأفكار الصادرة عنه.

إن المرحلة التالية قد تكون بالفعل علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية وحركة باتجاه توليفة بين التعاليم الإسلامية والمفاهيم الغربية.

٣١- وتدخل بعد هذا في السياسة الخارجية لبعض البلدان الإسلامية لتثبت أن الإسلام ليس وحده الدخيل في تنظيمها، ولتستنتج النقاط التالية - باختصار :-

(أ) سيبقى تأثير الإسلام قليلاً في سلوك الدول الإسلامية ويستبعد أن يكون للمسلمين كيان موحد.

(ب) ستختلف علاقات هذه الدول مع الغرب من متوترة إلى ودية.

(ج) لن تحل علمنة العالم الإسلامي كل المشاكل، وإن كان لها التأثير الكبير، ما دامت

هناك مصادر أخرى للخلاف؛ كسعي البلدان الإسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب.

د) ستتوازن العلاقة مع الغرب مع مستوى تعاطفه مع القضايا الإسلامية ولكن المصالح الدنيوية لكل دولة أيضاً ستؤثر على علاقاتها.

هـ) وستبقى المنافسة بين الدول الغربية نفسها في مجال بسط النفوذ.

و) أنّ احتمال تكوّن قدرة منافسة للغرب سوف يزيد من تحديات المسلمين، في حين أنّ فقدان احتمال تكوّن هذه القدرة ربما ينتج موقفاً أكثر تساهلاً. هذه خلاصة لبعض الأفكار الواردة في هذا الكتاب.

### نظرة نقدية

وينبغي لنا بعد إجراء مسح فاحص أن نطرح النقاط التالية:

### النقطة الأولى

قبل كل شيء نرى لزاماً علينا أن نذكر بجرأة الكاتبة في الاعتراف ببعض الحقائق المرّة لدى الغربيين من قبيل:

أ - تقرير حقيقة كون الإسلام لا يمكن أن يهزم من خلال انتصارات عسكرية وأمثالها كما هزمت النازية والاشتراكية وأمثالهما.

ب - أنّ الإيديولوجيا لا يمكن أن تفصل عن الحياة الاجتماعية، ذلك لأن المسألة الاجتماعية يجب أن تقام - ولو بشكل لا شعوري - على المسألة الفلسفية وإلا عادت بلا هدف ولا مبررات.

ج - كون الغرب لا يأبه بالقيم التي يدعيها - كالديمقراطية وحقوق الإنسان - إذا لم تخدم مصالحه.

د - أنّ العلمانية لا تجتمع مع النظام الديني حتى ولو كان مستمداً من المسيحية أو اليهودية.

هـ - كون الذين ينظرون إلى رؤى الإسلام بسطحية هم سطحيون.

و - السخرية من هتتينغتون عندما يقول: إن الإسلام لا يعرف المساواة.

ز - التفريق بين إيمان الإسلام بحقوق الإنسان وعمل المسلمين.

ح - الاعتراف بأن العلمانية فرضت فرضاً على العالم الإسلامي .  
ط - كون الغرب قد ينطلق من مواقف أخلاقية منحطة كالحسد والحقد وأمثال ذلك .

### النقطة الثانية

تتصور الكاتبة أنّ الأمر يدور بين المواقف المبنية على القيم الإسلامية فلا يمكن التصالح والمواقف المصلحية - فهناك إذن مجال للحلول الوسط - ولكن الحقيقة هي أنّ الإسلام: أولاً: يعتبر المصلحة المنسجمة مع مقاصده قيمة بنفسها، ولربما قدّمها على كثير من أحكامه في بعض الأحيان.

ثانياً: يمتلك عناصر مرنة كثيرة توفرّ للامة القدرة على استيعاب المتغيرات الزمانية والمكانية والخروج من الطرق المسدودة من قبيل امتلاكه مراتب من الأحكام الأولية والاضطرارية والحكومية، ولكل منها خصائص ومجالات معينة كالمنطقة المفتوحة للحاكم الإسلامي ليملاؤها وفق ما تقتضيه المتغيرات.

على أننا لا يمكننا أن نجعل السلوك الغربي المتوحش أصلاً تسعى إليه البشرية، وهدفاً عاماً ويعتبره فوكوياما (نهاية التطور التاريخي) ونطلب من الإسلام أن يكيّف نفسه دائماً معه تحقيقاً للتعايش تماماً كما يطلب من الفلسطينيين التنازل عن الأرض والكرامة وحتى حق مقاومة الاحتلال لاحتلال السلام والتعايش.

وهذا منهج نشهده لدى الكتاب الغربيين وأتباعهم لدينا، فأنت تشهدهم يجعلون الغرب معيار التقدم والحداثة ويبقى على العالم الإسلامي إذا أراد التطور أن يكيّف نفسه مع ذلك. فالمسلك الصحيح هو أن يقوم المخلصون لمستقبل الإنسانية بتقييم السلوك الأمثل أولاً، ثم يطلب ممن لا يدعن له أن يمثل للحق، وهذا منهج إنساني يقتضيه المنطق ويؤيده القرآن في مجالات الإصلاح.

### النقطة الثالثة

إذا تتبعنا التحليلات والحلول والتصريحات الغربية الممتدة على خط الزمان وعلى مختلف المستويات نجد أنّ الهاجس الأكبر لدى الغرب هو هاجس تقديم الإسلام البديل الحضاري

المتميز ذي الطابع القيمي اللامنسجم مع القيم الغربية، والذي يحمل في ذاته عنصر البقاء والنمو المتواصل، والحفاظ على الذات، ومنع الآخر من الاستغلال. وبالتالي سقوط النموذج الغربي، وانهار التفوق الحضاري للرجل المسيحي الاوربي الابيض. وهذا الهاجس ملاحظ في كلمات السياسيين كتشرشل، وديغول، وبرلسكوني وبوش وأمثالهم وفي كلمات المؤرخين كتوينبي والفلاسفة كهانتينغتون وفوكوياما وبرايان وغيرهم.

وتدخل أمور كثيرة في هذه الدائرة من قبيل:

- تصريح الجنرال غلوب باشا الشهير: بدأت مشكلة الشرق الأوسط منذ القرن السابع.
- تصريحات نيكسون التي عبّرت عن إيران قبل الثورة بأنها جزيرة الأمان.
- كلمات برلسكوني رئيس وزراء ايطاليا التي رجّحت الحضارة المسيحية على الحضارة الإسلامية.

- تصريحات المدعي العام الأميركي في عهد بوش الابن والتي تقارن بكل غباء بين صورة الإله في المسيحية والذي يقدم نفسه فداء للبشرية، وصورة الله الإسلامية الذي يطلب من البشرية أن تقدم أبناءها فداء له.

- تخوّف بعض الدول الغربية كفرنسا من عودة الحجاب الإسلامي كرمز للصحة.
- تصريحات بوش التي فطن لسخافتها فلم يكررها والتي تؤكد أنّ ما يسميه بالحرب ضد الإرهاب هي حرب صليبية.

- التصريحات المتوالية التي تعتبر الإسلام مارداً نائماً في الشرق الاوسط (من قبيل ما جاء في وصية ديغول، وما ذكرته الصحف الاوروبية كالتايمز في عددها المؤرخ ٢٩/٤/١٩٨٧).

- ما ذكره ريتشار بيرل مستشار البنتاغون الذي تصفه الدليل تلغراف بالمفكر الديني، وديفيد فرام وهو كاتب خطابات بوش في كتابها (دليل الانتصار في الحرب ضد الإرهاب) من أنّ الأصولية الإسلامية هي أكبر داعم للإرهاب فيجب استهدافها.

وقامت الدراسات الغربية بتشجيع من أسموهم (دعاة التحديث المؤيدين للغرب) بقوة ومنها دراسة قام بها معهد (راند لأبحاث الرأي) في أميركا داعية لحذف الأصوليين والتقليديين المخالفين للقيم الغربية (نقلاً عن صحيفة الخليج الاماراتية العدد ٩٠٧١).

ومن هذا الهاجس الذي تعاضم في الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي انطلقت فكرة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة عام ٩٧ بل من هذا الهاجس جاءت التصرفات الغربية الكبرى طوال القرون الأخيرة إن لم نمتد بها إلى مدى أبعد، ومنه أيضاً جاءت العولمة التي تعني في الواقع غربنة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية أو أمركتها، وركوب موجة الاتجاه العالمي الطبيعي من الكثرة إلى الوحدة في مختلف المجالات.

هذا الهاجس الذي تعبر عنه الكاتبة بالحسد أحيانا دفع الغرب لفرض واقع التخلف بثتى أنواعه والتمزق والعلمنة على العالم الإسلامي.

أما التخلف فحدث عنه ولا حرج سواء أكان في المجال العلمي أو الاقتصادي أو العسكري أو الثقافي أو الاجتماعي. وواضح أن الغرب لم يسمح إلا بالنزر القليل من التقدم إبقاءً على ادعاءات التحضير الإنساني.

ولا نريد هنا أن نقلل من تقصير المسلمين في هذا المجال، ولكن من غير المشكوك فيه أن السعي الغربي كان على أشده في مجال إبقاء التخلف وتعميق الفوارق بين المستوى الغربي ومستوى العالم الإسلامي بأساليب متنوعة.

وربما نجد البعض من المنبهرين بالغرب يعتبر تقدم البلاد الإسلامية بدأ مع حملة نابليون (١٧٨٩) متناسين ما جرّت علينا من اغتراب ومحو للهوية التربوية والتعليمية والإعلامية وترويج للعلمانية وبالتالي احتلال الأرض الإسلامية التي لم تكن قد احتلت بعد.<sup>١</sup>

وأما التمزق فإن للغرب دوره الأكبر في إيجاده إلى أقصى حد إما مباشرة أو من خلال المتأثرين بفكره. ويلاحظ من كلمات الكاتبة مدى التوجّس من التوحد حتى أنها تقرّر في نهاية كتابها أن الوحدة الإسلامية والكيان الإسلامي الموحد أمر بعيد المنال في المستقبل، بل إن مجرد ظهور شعور بالإسلام الشمولي وظهور الدعوات الأولية للمنظمات الشمولية في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الماضي قلب الموازين الغربية فراحوا يحسبون له

١. راجع الدراسة العلمية الجيدة للدكتور جلال امين في كتابه (العولمة والتنمية العربية - الفصل الاول).

ألف حساب، ومن حساباتهم تفرغ هذه المنظمات من محتواها وابقاؤها على مستوى الاشباع الشكلي والعاطفي لجوعة عارمة ورغبة جماهيرية لاتقاوم للوحدة الإسلامية. ويتخذ التمزق هذا أشكاله المتنوعة، فهناك تمزق على أساس القومية، وآخر جغرافي وثالث لغوي، ورابع في الولاء، والخامس في المستوى المعيشي، وهلم جرا. والكتابة تعتبر أنّ عملية تمزق النسيج الاجتماعي للعالم الإسلامي شكّلت أحد عوامل الصحوة الإسلامية والدعوة إلى العودة للإسلام دون أن تتحدّث عن الدور الذي لعبه الغرب في القضاء على الدولة العثمانية ونشر الفكر القومي الضيق، وإيجاد الخلافات بين الكيانات المصطنعة وأمثال ذلك.

وأما العلمنة فهي الداء الوبيل الذي ضرب عالمنا الإسلامي واستطاع إلى المدى الأكبر أن يسيطر على مجمل أرجائه. وقد شجّع الغرب العلمنة بشتى الأساليب حتى أنّ الكتابة اعترفت بأنّها فرضت فرضاً خلال الاعوام ١٩٢٠-١٩٧٠ وأتّهم لم تحقق المقصود، وذلك طبيعي؛ لأنّ العالم الإسلامي مهما ابتعد عن الإسلام وأحكامه فإنّه يبقى إسلامي النفس والنبرة والأحاسيس.

فإذا ضممنّا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنّ الإسلام دين الحياة ولا يمكن فصله عن جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهي حقيقة يحاول الكتاب الغربيون بل وحتى السياسيون إلى اليوم إنكارها، وهذا ما وجدناه في حديث كولن بأول وزير الخارجية الأمريكية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٣م وهو ما يركّز عليه العلمانيون في عالمنا الإسلامي بل يعملون على منحه أبعاداً فلسفية، ونحن نجد الكتابة تعمل جاهدة في هذا الكتاب على أن تجعله الحل السحري للصراع، فكل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي، والنظام السياسي غير واضح في الكتاب والسنة، والمجتمع الإسلامي يقبل العلمنة فلا حتمية للصراع، ولا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام، ومبدأ الجهاد يتنافى مع مبدأ نفي الإكراه في الدين، والاتجاه العالمي للإسلام يجب أن يتخلّى عنه المسلمون، وحركة الإحياء الإسلامي التي ترفض العلمنة يجب أن يرفضها المسلمون؛ لأنّها هي سبب الصراع بين الحضارات، وأنّ على العالم الإسلامي أن يروّض قيمه وفق مصالحه، وأنّ مسألة



انفصال الدين عن السياسة هي حقيقة واجهتها الثورة الإسلامية في إيران ولم تستطع التغلب عليها، وأن الأفكار الإصلاحية النسبية للدكتور سروش تعني أن الإسلام يقبل الإصلاح (وبطبيعة الحال العلمنة)، وأن التوليفة بين الإسلام والغرب تتم من خلال علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية، وتعتبرها هي المرحلة المستقبلية.

إننا إذا ضممنا الحقيقتين الماضيتين: (حقيقة أن النفس الإسلامي هو الطابع العام للعالم الإسلامي) و(حقيقة أن الإسلام لا يمكن فصله عن الحياة)،

عرفنا بوضوح بطلان كل المساعي لعلمنة العالم الإسلامي. وليت الكاتبة عمقت قولها السابق بأن النظام الديني مهما كان لا يجتمع مع العلمنة، وأدركت بالتالي ماقلناه، اللهم إلا أن نسلب الإسلام صفة النظام ونقيه مجرد تعاليم أخلاقية سطحية، وهذا ما لا يمكن تحقيقه. إن للإسلام رأيه في كل السلوك الإنساني، وكل من عرف الإسلام أدرك أنه ما من واقعة إلا والله فيها حكم أو فيها كتاب وستة - كما يقول الإمام الصادق عليه السلام - ولا يمكن أن يكون الإنسان مسلماً حتى يلتزم بأحكام الإسلام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>٢</sup>.

### النقطة الرابعة

إن الصحوة الإسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة الماضية (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته؛ فالإسلام دين التقدم، يدعو إلى العلم بشتى أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقق كل عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الأمم، وتكون في الطليعة الحضارية للناس، والتخلف حالة غير طبيعية مطلقاً.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة، والشعارات والعبادات واحدة، وثورات الأمة

١. أصول الكافي، ج ١ باب الرد الى الكتاب والسنة، ح ٤، ص ٥٩.

٢. النساء: ٦٥.

هي ملك كل الأمة، وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة، لا بل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة. أما الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالمياً أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة - كما قلنا - فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأي تعريف جاءت، وأية صفة اتخذت، إيجابية أم سلبية، أما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجرد خداع، لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركز على عنصر (التفوق) ونقول: إنه سر الصراع. ولكن الذي يجب التركيز عليه أن الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمل على تطوير الحياة الإنسانية في كل المجالات إذا اتخذ منحى إيجابياً تنافسياً. كما يؤدي كغيره من العوامل الطبيعية إلى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامل الغربي مع المسلمين.

إن الصحوة الإسلامية إذن تدعو للتفوق الإسلامي الحضاري فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأتى لهذه الروح أن تسود. أما عن عوامل هذه الصحوة فلا نتوقع للكاتبة أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية، ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد وتغير العلاقات وأمثالها.

إننا نتصور هذه العوامل - على ضوء دراساتنا للساحة - كما يلي:

**أولاً:** طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشدد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مر بنا القول إن كل أساليب التمييز سوف تبقى آثارها وقتية؛ لأن الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكتابة تتردد في إشارتها لهذا العامل، فتارة تعترف به (انظر مثلاً البنود ٢٦، ١٩، ١٣، ٧، ٤، ٦) وأخرى تحاول أن تقلل من أهميته (لاحظ مثلاً البنود: ١٢، ١٣، ١٤، ٢٠، ٢٦، ٢٨).

**ثانياً:** اشتداد الحملة الأوروبية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيّين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولا ريب أنّ حملة من هذا القبيل سوف تواجه بردّ فعلٍ قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه. ولا نريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح أبعاده، ووضوح حقيقة أنّ الاحتلال يستتبع المقاومة بشتّى ألوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال السوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفّر فرصة لنموّ الصحوة الإسلامية بشكل واسع وانطراح الاحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانينات.

**ثالثاً:** فشل كلّ الحلول والاطروحات البديلة للمقاومة والتغيير؛ لأنّها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الاطروحة القومية الضيقة رغم التطويل والتزمير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنّها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية؛ لأنها اعتمدت على أسس إلحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضاً لأنه أيضاً تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن أية إضافة معرفية.

وهنا أودُّ الإشارة بشكل وافر إلى التحليل الرصين الذي كتبه أستاذنا الشهيد الإمام محمد باقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: إن الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقاً واحداً للتحرك، وهو التحرك في الخط الإسلامي.

ويضيف: حينما أخذ العالم الإسلامي يفتتح على حياة الإنسان الأوربي ويدعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن إطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الأوربي حين قسّم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني.

وبعد أن ذكر أنّ العالم الإسلامي ظن كون الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت إما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين ما يبرره.

بعد هذا راح ينتقد أولئك الذين يغفلون - عند محاولتهم تطبيق خطة ما - العامل النفسي للامة فلا بد للامة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية ليست إلا رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الأجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية، وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة؛ لأن هذا الإطار القلق ليس إلا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الاجنبي... ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية ويقول بالتالي: وبالرغم من أنّ دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالإطار العربي فإنهم أكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها، وهي أنّ الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة إلا على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين انفسهم.

ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الاطروحات: إن هذه القوة مهما قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي لا يزال لها أثرها الكبير في

توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء<sup>١</sup>.

ونعود إلى الكاتبة لنجدها أحيانا تشير لهذا العامل حين تؤكد أنّ العلمانية حققت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالإسلام هو الحل.

رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو إعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر عليه السلام.

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال المرحوم السيد الاسترآبادي (الافغاني) - وإن حاولت الكاتبة التشكيك في إخلاصه - والمرحوم محمد عبده - وقد شككت فيه أيضاً بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة - والمرحوم الميرزا النائيني، والمرحوم كاشف الغطاء، والمرحوم الإمام الخميني، والمرحوم سيد قطب، والمرحوم الإمام الصدر، والمرحوم المطهري، والمرحوم الغزالي، والمرحوم البهشتي، وغيرهم كثير.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوة من قبيل:

١- تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي.

٣- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.

٤- توفر بعض أجواء الحرية في العالم الإسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم

العلاقات الدولية على اسس إنسانية.

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الأقصى أو هزيمة عام ٦٧،  
٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وانتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.  
وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوّة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له. ومن الجدير بالاشارة اليه:

إن الغرب لم يأل جهداً في إجهاض الصحوّة، ومقابلتها، وإلهائها واتهامها بشئى التهم من قبيل (التخلف والرجعية، والتطرف والأصولية، والعنف والإرهاب، والعمل ضد الديمقراطية والحرية، وضرب حقوق الإنسان ولم يعد من قدم له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً إرهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الإنسان. ولكن الواضح تماماً أنّ هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحوّة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه، وهو أمر تقرّ به الكاتبة بكل وضوح.

### النقطة الخامسة

ونركّز فيها على مستقبل الصحوّة الإسلامية هذه.  
والصورة التي قدمتها الكاتبة صورة قائمة تنسجم مع توجّهاها المنسجمة عموماً مع طموحات الغرب نفسه. إنّها صورة تتلخّص في إبعاد التأثير الإسلامي عن الحياة، وتمزق مواقف الدول الإسلامية باعتبار اختلاف المصالح الضيقة لها، واستدامة عملية العلمنة رغم إنّ ذلك لن يحل المشكلات مادام العالم الإسلامي راغباً في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب، (وكأنّها تعتبر أنّ الأفضل لهذا العالم الإسلامي أن يستسلم لقدره، ويقع في خانة العالم المتخلف، وكأنّها أيضاً تحذر الغرب نفسه من السماح للعالم الإسلامي للحصول على موقع متقدم، وقوة منافسة؛ لأن ذلك سيزيد من تحدياته - أي العالم الإسلامي - للغرب وطموحاته، في حين أنّ بقاءه عالماً متخلفاً يعطيه فرصة التسامح!!).

هذه هي الحصلية التي تتوصل إليها في نهاية الكتاب.

والحقيقة هي أنّ هذه الآراء هي قناعة الكتاب المعتدلين إلى حد ما في الغرب، أمّا المتطرفون فما زالوا يرددون آراء (وليم جيمس) و(هنيتنغتون) في ضرورة التعامل مع العالم الإسلامي معاملة الغابة، وضربه بكل قسوة وعدم التعاون معه.

ولكننا نختلف مع توجّهات الكاتبة تماماً.

إنّنا نلمح في الأفق السمات التالية:

**الأولى:** اتساع حركة الصحوة الإسلامية وتجذرها بحيث لا تنفع معها أساليب الحذف أو التحريف.

وإذا أردنا أن نستدل لهذا التوقع، وتجاوزنا المسألة العقدية التي نؤمن بها دون أي شك، فإنّنا نشير إلى مظاهر الصحوة التي تعمّ العالم الإسلامي من ارتفاع مستوى الأمل لدى جماهيرنا الإسلامية، وانتشار التقاليد الإسلامية كالحجاب وأنماط التعاون والعبادات انتشاراً واسعاً، واتساع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة في كلّ الحياة، وتشكل المنظمات الإسلامية ودخولها إلى الساحة السياسية والاجتماعية بكل قوة، وانهمزام الفكرة العلمانية مرحلة بعد مرحلة، وزوال الأمل بغير الإسلام على الساحة الفلسطينية وأمثالها من سوح المقاومة، واتجاه النخبة والجماهير نحو ثقافة الوحدة والتقريب، والسعي الحثيث على كلّ المستويات لنبد التخلف، وغير ذلك.

**الثانية:** اتجاه الدول الإسلامية نحو التعاون الأكبر، والعمل على وضع آليات جديدة

لتفعيل المؤسسات الشمولية، واحساسها جميعاً بالخطر المشترك.

ولا نريد أن نكون متفائلين أكثر من اللزوم ولكننا ندرك هذه الرغبة لدى القسم الأكبر، ونرجو أن تتحقق خصوصاً وأنّ المسألة لم تعد بيد الحكومات وحدها فالعصر عصر الجماهير.

**الثالثة:** ارتفاع مستوى أهمية العالم الإسلامي في مختلف المجالات. صحيح أنّه أحياناً لا

تدرك هذه الأهمية ولكنها حقيقة قائمة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها، فلدى هذه الأمة الكم البشري الهائل، والقدرات الإستراتيجية الفريدة، والمواقع الجغرافية المتحكمة، والعقول العلمية المتقدمة، وفوق كلّ ذلك لديها الطاقة الحرارية والحضارية الإسلامية التي لا تنضب.

### كلمة أخيرة

إنني أشعر بأنّ عاملنا الإسلامي - رغم بواذر القوة وطاقت صنع المستقبل فيه - بحاجة إلى خطط إستراتيجية تقوم على أساس الاعتبار من الماضي، واستشراف المستقبل استشرافاً علمياً، وملاحظة الطاقات المتوفرة لديه، ويجب أن تلاحظ هذه الخطة إجمالاً:

أ - مسألة ربط الأمة بمفاهيمها القرآنية ودفعها نحو تجسيدها في حياتها العامة بما يحقق التوازن المنشود بين علو ما تملكه من تراث، ومدى استفادتها منه، وسمو ما اراده الله لها من مواقع الريادة والإمامة والشهود الحضاري ومقدار إسهامها في المسيرة الحضارية الإنسانية، خطط الإسلام الوحودية ومدى تطبيقها في الواقع، والطلعية العلمية المفروضة، والجهود المبذولة لذلك.

ب - الترابط الوثيق بين كلّ من العملية التربوية التعليمية والعملية الثقافية، والعملية الإعلامية، فلا يتمّ التقدّم في أي منها دون التقدّم في الأخرى، وذلك لتحقيق: تربية أصيلة تلائم المعاصرة وفيها عناصر التغيير، وثقافة واضحة المعالم لها مرجعيتها الأصيلة التي تقرّ الحياة باسم الله تعالى، وإعلام بعيد النظر له مصداقيته.



## المقال الخامس: خلاصة الموقف الغربي من الصحوة

اطلعنا على تقرير خطير أعدته مؤسسة (راند) بتمويل من مؤسسة ريتشارد سون. ويلخص التقرير التخطيط الغربي الخطير لضرب الصحوة الإسلامية. وقد أثرنا نشر ملخصه فقط - كما لخصه معدو التقرير أنفسهم - مع التعليقات القصيرة لنعرف ابعاد المخطط الصهيوي-أمريكي في هذا المجال:

### ملخص التقرير

ليس هنالك من شك في أنّ الإسلام المعاصر يعيش في حالة من التقلّب وعدم الاستقرار بسبب الانخراط في صراعات داخلية وخارجية حول قيمه وهويته ومكانته في عالم اليوم. حيث إنّ هنالك العديد من القوى المتنافسة التي تسعى للحصول على الهيمنة الروحية والسياسية. كما أنّ لهذا الصراع تكاليفه الخطيرة ومضامينه الاقتصادية والسياسية والأمنية على الأجزاء الأخرى من العالم. ونتيجة لذلك يبذل الغرب جهوداً متزايدة للتوصل إلى اتفاق مع هذا الصراع وفهمه والتأثير على مخرجاته.

وكما هو واضح، فإن الولايات المتحدة والعالم الصناعي المتقدم، وبطبيعة الحال، المجتمع الدولي بأسره، يفضل عالماً إسلامياً متوافقاً مع باقي النظام الدولي، يكون ديمقراطياً، وقابلاً للنمو اقتصادياً، ومستقراً سياسياً، ومتطوراً اجتماعياً، ومواكباً لأنظمة وقوانين السلوك الدولي<sup>1</sup>.

---

١. وهكذا تُعتبر القيم الغربية هي معيار التقدم، والنظام الدولي الانساني ويتم السعي لتطبيق هذا المعيار على

كما أنّ هذه الأطراف تسعى إلى منع صراع الحضارات - في كلّ أشكاله المحتملة - من اضطراب داخلي متزايد بسبب النزاع بين الأقليات المسلمة والسكان الأصليين في الغرب، إلى حالة الاقتتال المتزايد عبر العالم الإسلامي، وما يترتب عليها من عدم الاستقرار والإرهاب<sup>١</sup>. وعليه يبدو أنّه من الحكمة تشجيع عناصر من داخل المزيج الإسلامي تكون أكثر ملائمة مع السلام العالمي والمجتمع الدولي، وصديقة للديمقراطية والحدّات. ولكنه ليس من السهل دائماً التعرّف على هذه العناصر بالشكل الصحيح وإيجاد الطرق المناسبة للتعاون معها<sup>٢</sup>. إن الأزمة الحالية للإسلام لها مكونان رئيسيان هما: قدرته على النمو، وعدم الاتصال مع الاتجاه السائد في العالم<sup>٣</sup>. لقد اتسم العالم الإسلامي بفترة طويلة من التراجع والوهن النسبي، وللخروج من هذه الحالة كان تبني الكثير من الحلول المختلفة، وذلك مثل القومية، والعروبة، والاشتراكية العربية، والثورة الإسلامية، ولكنها لم تنجح. وقد أدّى ذلك إلى حالة من الإحباط والغضب. وفي نفس الوقت لم يستطع العالم الإسلامي مواكبة الثقافة العالمية المعاصرة، وهي حالة غير مناسبة للطرفين<sup>٤</sup>.

ويختلف المسلمون حول كيفية التعامل مع هذا الوضع، كما يختلفون حول الشكل النهائي الذي ينبغي أن يكون عليه مجتمعهم. ويمكننا أن نحدّد ثلاثة تنظيمات رئيسية:

١. المتشددون الذين يرفضون قيم الديمقراطية والحضارة الغربية المعاصرة ويريدون دولة فاشية مترمّنة تطبّق وجهة نظرهم المتطرفة للقوانين والمبادئ الإسلامية.

#### العالم الإسلامي.

١. وكأنّ نظرية صراع الحضارات لم تطلق من الغرب، ولم يعمل الغرب على اضطهاد الأقليات المسلمة وتضييع حقوقها.
٢. وهكذا ينصبّ الغرب من نفسه قيماً على السلام والمجتمع الدولي والديمقراطية والحدّات ليبرر لنفسه تجنيد العناصر العميلة لصالح أهدافه.
٣. هذه خلاصة أزمة العالم الإسلامي وهي: عجزه الذاتي عن النمو وعدم تواصله مع القيم الغربية.
٤. يلخص هنا ردود الفعل على هذه الأزمة فيجمع بين الحلول التي قدمها هو كالقومية، والاشتراكية التي صبغها بالصبغة العربية لتكون مقبولة، وبين رد الفعل الطبيعي وهو الثورة الإسلامية، ليعتبرها جميعاً فاشلة في تحقيق المواكبة للثقافة العالمية المعاصرة (الغربية طبعاً).

وهم يريدون استخدام الابتكارات والتكنولوجيا الحديثة لتحقيق أهدافهم.

٢. التقليديون الذين يريدون مجتمعاً محافظاً ويشككون في الحداثة والابتكار والتغيير.

٣. الحدائيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يكون جزءاً من التقدم الذي يسود العالم، كما يريدون أن يقوموا بتحديث الإسلام وإدخال الإصلاحات فيه حتى يكون مواكباً للعصر.

٤. العلمانيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يتقبل فكرة فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الديمقراطية الغربية الصناعية، مع حصر الدين في النطاق الشخصي<sup>١</sup>.

لكلٍّ من هذه المجموعات موقفه الخاص من المواضيع الرئيسية المختلف عليها اليوم في العالم الإسلامي، ومن هذه المواضيع: الحريات السياسية والشخصية، والتعليم، ووضع المرأة، والقوانين الجنائية، وشرعية الإصلاح والتغيير بالإضافة إلى تنظيماتها تجاه الغرب.

إن المتشددين معادون للغرب عموماً وللولايات المتحدة بشكل خاص، حيث إنهم يهدفون، بدرجات مختلفة إلى تخريب وتدمير الديمقراطية الحديثة، وأن تشجيعهم ليس بالخيار الصائب، إلا أن يكون ذلك لاعتبارات تكتيكية مرحلية<sup>٢</sup>.

أما التقليديون بشكل عام، فلديهم قدر أكبر من وجهات النظر المعتدلة، ولكن هنالك اختلافات هامة بين المجموعات المختلفة من التقليديين أنفسهم. حيث إن بعضهم أقرب إلى المتشددين، كما أنه لا يوجد بين هذه المجموعة من يتقبل بإخلاص الديمقراطية الحديثة وثقافة وقيم الحداثة، وفي أحسن الأحوال يمكن التوصل إلى سلام غير مستقر معهم<sup>٣</sup>.

إن الحدائيين والعلمانيين هما أقرب هذه الفئات للغرب، من وجهة نظر المبادئ والسياسات. ولكنهم بشكل عام في موقف أضعف من باقي المجموعات الأخرى، حيث

١. وهكذا يأتي هذا التقسيم إلى متشددين يرفضون هذه القيم فهم فاشيون متطرفون، وتقليديون جامدون، وحدائيون في إطار الإسلام وعلمانيون يحصرون الإسلام في النطاق الشخصي، وهؤلاء هم من يصنعون التطور المنشود. وهنا يتوضح دور الغرب في تركيز العلمانية.

٢. كما تم دعم حركة طالبان والقاعدة في بعض المراحل.

٣. وهذا ما يبرر التصالح الموقت مع بعض القوى الرجعية، واستخدامها جسراً لتحقيق الأهداف الغربية.

إتّهم يفتقرون إلى من يؤيدهم بقوة، كما ينقصهم المال والبُنى التحتية الفعّالة، والبرنامج السياسي. إنّ العلمانيين إلى جانب كونهم غير مقبولين كحلفاء في بعض الأحيان بناءً على انتمائهم الفكري العام، يعانون كذلك من بعض المشاكل في التعامل مع القطاع التقليدي في المجتمع الإسلامي<sup>١</sup>.

إن الإسلام التقليدي (الأرثوذكسي) يتمتع ببعض العناصر الديمقراطية التي يمكن الاستفادة منها في تحجيم إسلام المتشددين القمعي الفاشيستي. ولكنه ليس ملائماً لأن يكون الوسيلة الابتدائية للإسلام الديمقراطي. ولكن عبء هذا الدور يقع على الحدائين الإسلاميين، الذين تتأثر فعاليتهم ببعض القيود المفروضة عليهم، وهي ما سنحاول التعرض له في هذا التقرير<sup>٢</sup>.

وللقيام بتشجيع التغيير الإيجابي في العالم الإسلامي نحو الديمقراطية والحداثة والانسجام مع النظام العالمي المعاصر، فإن الولايات المتحدة والغرب يحتاجان إلى التمعن وبحذر شديد في العناصر والميول والقوى الإسلامية التي يريدان تقويتها، وما هي أهداف وقيم مختلف الحلفاء المحتملين والذين تحت حمايتهم، وما هي الآثار العامة التي تترتب على تقديم أجندهما الخاصة. إنّ المنهج المتنوع التالي والذي يتكون من العناصر التالية ربما يكون أكثر فاعلية في هذا الموضوع:

### دعم الحدائين أولاً:

- طباعة كتاباتهم مقابل تكاليف مدعومة.
- تشجيعهم على الكتابة للعديد من القراء وللشباب.
- طرح وجهات نظرهم في المناهج الدراسية الإسلامية.
- إعطاؤهم برنامجاً سياسياً يعملون من خلاله.

١. اعتراف بأنّ التوجه العام للامة يرفض العلمانية وتغافل عن أنّ طبيعة التعاليم الاسلامية لا تتسجم مطلقاً مع هذا التوجه الغريب.

٢. الهدف اذن اسلام غربي ينبذ التراث.

- طرح وجهات نظرهم وأحكامهم حول المسائل الرئيسية للتفسيرات الدينية وجعلها في متناول القراء (والمتلقين بشكل عام) وذلك لمنافسة وجهات نظر المتشددين والتقليديين الذين يمتلكون مواقع في الإنترنت ودور النشر والمدارس والمعاهد، والعديد من الوسائل الأخرى لنشر وجهات نظرهم.

- جعل العلانية والحداثة بمثابة خيار ثقافي بديل بالنسبة للشباب الإسلامي المتمرد.

- تسهيل وتشجيع وعيهم لخلفيتهم التاريخية والثقافية غير الإسلامية في وسائل الإعلام وفي المناهج الدراسية في الدول المعنية.

- المساعدة في بناء منظمات مستقلة للمجتمع المدني وذلك من أجل تشجيع الثقافة المدنية ومنح

المواطنين العاديين المجال لتثقيف أنفسهم حول العملية السياسية، والتعبير عن وجهة نظرهم<sup>١</sup>.

### دعم التقليديين ضد المتشددين:

- نشر انتقادات التقليديين لعنف المتشددين وتطرفهم على نطاق واسع، وتشجيع عدم

الاتفاق بين الطرفين.

- السعي لمنع التحالف بين التقليديين والمتشددين<sup>٢</sup>.

- تشجيع التعاون بين الحداثيين والتقليديين لأتّهم الأقرب إليهم<sup>٣</sup>.

- تعليم التقليديين، ما أمكن ذلك، لتحسين أدائهم في مواجهة المتشددين في المناظرات،

حيث إنّ المتشددين متفوقون في الخطابة، بينما التقليديون غير قادرين على الإفصاح عن

آرائهم ويتبعون المفهوم الشعبي للإسلام. وفي بعض الأماكن مثل وسط آسيا ربما يحتاج

المسلمون إلى تعليمهم وتدريبهم على ممارسة الإسلام التقليدي حتى يتمكنوا من المحافظة

على وضعهم<sup>٤</sup>.

- زيادة ظهور الحداثيين ووجهات نظرهم في مؤسسات التقليديين.

١. وكل هذه الخطط واضحة ولا تحتاج الى تعليق.

٢. زرع الخلاف بين العناصر المؤمنة بالاسلام.

٣. لاضفاء صبغة مقبولة على الحداثيين.

٤. متابعة للخطة حتى ولم تتم ذلك باسم تعليم الاسلام للمسلمين.

- التفرقة بين القطاعات المختلفة للتيار التقليدي. وتشجيع القطاعات التي تتمتع بميل أكبر إلى الحداثة، وذلك مثل المدرسة الحنفية في القانون، ضد القطاعات الأخرى. وتشجيعهم لإصدار فتاوى وتعميمها لإضعاف سلطة الوهابيين الرجعيين في تطلّعهم إلى نظام الحكم الديني. حيث أنّ ذلك يتعلق بالتمويل: فالأموال الوهابية تذهب لدعم المدرسة الحنبلية المحافظة. كما أنّ الأمر يتعلق أيضاً بالمعرفة، حيث إنّ الأجزاء الأكثر رجعية في العالم الإسلامي غير واعية للتطور الحاصل في تطبيقات الفقه الإسلامي وتفسيراته<sup>١</sup>.

- تشجيع شعبية الصوفية وتهيئة المجتمع لزيادة تقبلها<sup>٢</sup>.

### مواجهة المتشددین ومعارضتهم:

- تحدي تفسيرهم للإسلام والكشف عن أخطائهم.

- فضح ارتباطهم بمجموعات وأنشطة غير قانونية.

- إعلان ما يترتب على أعمال العنف التي يقومون بها.

- إثبات عدم قدرتهم على الحكم وتحقيق النمو الإيجابي في بلدانهم ومجتمعاته.

- توجيه هذه الوسائل إلى الشباب خصوصاً، وإلى المجتمعات التقليدية المتدينة، والأقليات المسلمة في الغرب، وإلى النساء.

- تحجّب إبداء التقدير أو الإعجاب بأعمال العنف التي يقوم بها المتشددون المتطرفون والإرهابيون. ويجب وصفهم بأنهم أناس مضطربون وجبناء، وليسوا أبطالاً غاضبين.

- تشجيع الصحفيين لعمل تحقيقات صحفية في دوائر المتشددین حول الفساد والنفاق والأعمال غير الأخلاقية<sup>٣</sup>.

### دعم انتقائي للعلمانيين:

- تشجيعهم لاعتبار المتشددین كعدوٍّ مشترك، والسعي لمنع العلمانيين من إقامة تحالف

١. وهكذا يتم خلط الأوراق، وتمزيق الصفوف.

٢. فالانعزال هو أسلم الطرق وبعض الطرق الصوفية تشجع ذلك.

٣. وهذا الأساليب جميعها نشهدها عياناً وخصوصاً في الساحة الصحفية.

مع القوى المعادية للولايات المتحدة وذلك مثل القوميين واليساريين.  
- تشجيع وجهة النظر القائلة بأن فصل الدين عن الدولة ممكن أيضاً في الإسلام، حيث إن ذلك لا يشكل خطراً على الدين، بل على العكس من ذلك ربما يؤدي إلى تقويته<sup>١</sup>.  
وبصرف النظر عن المنهج أو المناهج المتنوعة التي يمكن أن يقع عليها الاختيار، نقترح أن يكون التطبيق على قدر كبير من الحذر والتروي، مع الأخذ في الاعتبار الوزن الرمزي لمواضيع معينة. أما الوسائل فيجب إسنادها إلى صنّاع القرار في الولايات المتحدة وتخطيطهم لها، ولتنظيمات معينة في هذه الموضوعات، حيث إن النتائج المترتبة على هذا التخطيط بالنسبة للفعاليات الإسلامية الأخرى، بما فيه المخاطرة بالتعرض للخطر أو التكذيب من قبل المجموعات والشعب التي نحاول مساعدتها. وتكاليف الفرص البديلة والنتائج غير المتوقعة من تقبل الموضوع والحالة التي ربما تبدو ملائمة على المدى القصير<sup>٢</sup>.

---

١. هذا الإسلام الذي يريدون. اسلام بعيد عن الحياة ومعزول في المساجد.

٢. وهكذا يصنع القرار هناك ويتم تطبيقه هنا، ومع كل هذا يراد منا أن لا نصدق نظرية المؤامرة.





## ملحق: مقابلتان صحفيتان

### حول هموم الثقافة والمواجهة والتغيير<sup>١</sup>

■ التوحيد: يبدي المسؤولون وأجهزة الإعلام في الجمهورية الإسلامية منذ فترة اهتماماً واسع النطاق بالهجمة الثقافية الغربية ضد الإسلام. هل تعدُّ هذه الهجمة ظاهرة جديدة في الصراع الإسلامي- الغربي؟ وما هي جذورها التاريخية؟

■ أعتقد أن للمسألة جذوراً تاريخية كما قلتم. فالاستعمار وجه الكفر والعصيان الإنساني للحقيقة المعنوية في الكون، ولذا فالعمل الطاغوتي يتسم بطابع واحد عبر التاريخ. ولما كان الإنسان ذا جوانب مترابطة هي: (الجانب العقائدي، والجانب الاحساسي، والجانب السلوكي) فإن الطغيان استهدف كل هذه الجوانب لقتل الشخصية الإسلامية في الأمة.

وقد راح عبر التاريخ الطويل يزرع الشبهات تلو الشبهات في النفوس تجاه العقيدة والتصور الإسلامي، وهي شبهات تتدرج في التعقيد، كما استهدف الجانب الإحساسي العاطفي ليميت ذلك الشعور بالاخوة الإسلامية، ويحل محلَّه الإحساس المحلي أو القطري أو القومي أو حتى الوطني الضيق، بالإضافة إلى عمله على إيجاد جو من المادية السلوكية والعلمانية على شتى الصُّعد، ليتسنى له بالتالي قتل كل هذه الجوانب في شخصية الإنسان المسلم. ويمكنكم أن تجدوا لهذه الكليات نماذج خلال تاريخ الصراع الإسلامي مع أوجه الكفر والطغيان.

هذا بشكل عام، أمّا عندما نركّز على تعامل الكفر مع الجمهورية الإسلامية وما حملته

---

١. لقاء مع مجلة التوحيد التي تصدر في طهران.

وبشرت به من تصوّر أصيل للإسلام والحياة على أساسه نجد عمليتين متوازنتين يقوم بهما الاستكبار العالمي في هذا الصدد:

إحدهما: غير مباشرة، من خلال التصعيد للحملة ضد العقيدة الإسلاميّة، والتاريخ، والحضارة الإسلاميّة، وضد الخلق والشريعة. وذلك على يد عملائه المفكرين في المنطقة الإسلاميّة، أو على أيدي مفكره ومنظّره هو وبشكل مباشر وطبيعي.

إن أي وهن أو شبهة توجّه للعقيدة، أو يصاب به الخلق العام، أو تبلى به العملية التشريعية، يعدّ ضربة للحركة الإسلامية العامة التي فجّرتها الثورة الإسلامية، والصحوة الإسلامية التي وسّعتها، وبالتالي فإن هذه الضربة سوف تتجه في النهاية إلى الجمهورية الإسلاميّة ومبادئها.

أما الخطة الثانية: فهي الخطة الهجومية المباشرة للبنى الثقافية في الجمهورية الإسلاميّة، ومحاولة التخريب الثقافي من داخل الجمهورية الإسلاميّة، وذلك عبر أساليب كثيرة، منها:

١- تشجيع الأفكار البعيدة عن الإسلام والتي تحملها بعض التجمّعات الصغيرة التي تأثرت بالفكر الماركسي أو الفكر القومي أو الوطني وأمثال ذلك، لكي يتم إضعاف الاتجاه الثوري الإسلامي الأصيل، وهي من قبيل حركة مجاهدي خلق (المنافقين) وما يسمى بـ(نهضة الحرية) وأمثالها.

٢- العمل على تسريب عناصر عميلة فكرياً - على الأقل - تحمل عناوين معروفة لتطرح نفسها على الساحة الثقافية، ومن ثم لتقوم بمهمة الإضعاف المطلوبة، وما نشاهده من وجوه طرحت نفسها إعلامياً من خلال الصحافة المشبوهة هي مظاهر لهذه الخطة.

٣- الارتفاع بمستوى الإرسال المسموع والمرئي، ليقوم بدور الوعاء القوي لحمل الثقافة الغربية إلى داخل الشعب الإيراني، وبالتالي تحقيق تلك الأهداف التي ذكرتها في المقدمة، واننا لنشهد جهوداً غريبة وعملية مكثفة لتحقيق هذا الهدف.

■ التوحيد: كيف تقومون المدلولات السياسية والحضارية لهذه الهجمة، ماضياً

وحاضراً؟ وما هي الدوافع التي تقف وراءها؟

■ إنّ المدلولات السياسية والحضارية لهذا الهجوم العريق هي هي لم تتبدل. إنّها صراع

الطاغوت - بكل ما يمثله من مصالح بشرية ضيقة، واستغلال بشع للقوة - ضد المستضعفين، وعمل على السيطرة وإشباع النهم السلطوي لدى الأفراد أو الجماعات أو حتى لدى الشعوب القوية على الشعوب الأخرى. إنها صراع الحضارة المادية التي انحرفت عن خط الفطرة ضد الحضارة الإنسانية التي حاولت أن تحقق في وجودها كل ما أراده الخالق تعالى لها، لتسير نحو هدف الخلق المنشود.

■ التوحيد: هل حقق الغزو الثقافي أهدافه؟ وما هي الأسباب التي كانت وراء ذلك؟

■ يبدو أن الهجمة الثقافية - بشتى صورها - لم تحقق أهدافها، فها هي الجمهورية الإسلامية تقف اليوم مرفوعة الرأس، قوية الأركان، متلاحمة العناصر، عالية الصوت، مؤثرة في بناء وعي الجماهير الإسلامية، وراسمة لكل طموحات هذه الأمة.

أما التشويه السياسي لمواقفها المبدئية فقد اضطر الاستكبار للتراجع عنه، وكمثال على ذلك اعتراف كل الأبواق التي طبّلت وزمّرت للطغمة البعثية العميلة بأنها هي المعتدية وأن الجمهورية الإسلامية قد وقعت ضحية العدوان الغاشم.

وأما التشويه العقائدي فها هي الأوراق الصُفر التي حاولت خلق الهوة الطائفية بين الثورة وجماهيرها تتمزق وتتهرأ، وها هو الهجوم الثقافي العام ضد العقيدة والتاريخ يواجه بصلافة كما حدث في قضية المرتد سلمان رشدي.

وأما التشويه التطبيقي، وأعني به التشكيك في قدرة الثورة على تنفيذ القوانين الإسلامية فإن العالم يشهد هذا التحرك السريع نحو تطبيق كل القوانين الإسلامية على شتى مجالات الحياة دون هوادة.

■ التوحيد: الغزو الثقافي والهجمة الثقافية مصطلحان يستخدمهما الإسلاميون للدلالة

على وجود صراع ثقافي بين الإسلام والغرب، بينما ينفي المتغربون في عالمنا الإسلامي وجود هذا الصراع ولا يرون ضرورة في استخدام هذين المصطلحين؛ لأنهم يفسرون الوضع القائم بين الغرب والمسلمين: (تضاييف الحضارات) ويرون أن الحضارة الإنسانية تتمثل دائماً بقطب معين في الأرض، وتسير البشرية تبعاً له. والمرحلة الحاضرة تعتبر دورة جديدة من التضاييف الحضاري بين الغرب والمسلمين، فكما كانت أوروبا ضيفاً على حضارتنا، نحن اليوم ضيوف على حضارة الغرب. كيف تقومون هذا الادعاء؟

■ هذا بالضبط ما أؤكد عليه، إنَّ التضاييف إنَّما يمكن تصوُّره بين المساحات التي تركها الأسس والمبادئ حرة ليتَّم ملء فراغاتها في ضوء معطيات العلم ومقتضيات الزمان والمكان والتجارب الإنسانية الممتدة. وهذا ما نجد التشريع الإسلامي للحياة يخطط له بدقة وبشكل يعبر عن أروع مرونة متصوِّرة ويضمن استيعاب مختلف التصورات. أمَّا التضاييف بين المبادئ المتنافرة أصلاً بل والمتضادَّة والمتناقضة فهو بالضبط ما حاولت الجاهلية القديمة أن تمرَّره على الدعوة الإسلامية، فواجهها القرآن الكريم بعبارته الخالدة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. إنَّ المرونة في هذا المجال تتحول إلى ميوعة وانقلاب رهيب.

■ التوحيد: ما هي إستراتيجية الجمهورية الإسلامية لمواجهة الغزو الثقافي؟

■ الإستراتيجية الوحيدة هي (صنغ الإعلام بالصبغة القرآنية) وأعني بذلك أتباع الأساليب التي أتبعها القرآن الكريم في مواجهة الهجوم الثقافي الكافر. ولا أستطيع أن أشير إلى كلِّ الخطوط الإعلامية القرآنية، لكن ذلك لا يمنع من ذكر الخطوط التالية:

١- الدعوة والتبليغ (بما يحمله هذان اللفظان من مداليل) هي العمل الأول. يقول شهيد الثور الإسلامية الكبير آية الله الصدر في هذا الصدد: (والأمر الآخر أن يبدأ الدعوة الإسلاميون - قبل كلِّ شيء - بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية وإيضاح معالمها الرئيسية معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمَّت للإسلام حجته ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبنّى المصالح الحقيقية للإنسانية - إلا أن تشقّ طريقها بالقوى المادية).

٢- استحضار النظرة الغيبية إلى جانب الحسابات المادية وذلك في كلِّ تحليل أو توقُّع

مستقبلي.

٣- الاتصاف بروح التبعية للحقيقة واجتناب ما يخالف الموضوعية.

٤- الهدفية في كلِّ خطوة.

٥- التنسيق بين كلِّ الخطى.

٦- الواقعية والتفاعل المستمر مع الأحداث الاجتماعية.

٧- المنطقية في العرض والابتعاد عن السطحية.

٨- التفاعل الوجداني مع الهدف، والعمل على تأجيج الحرارة الثورية في النفوس المؤمنة.

٩- الأخلاقية الإعلامية.

١٠- تنوع الأساليب الإعلامية بما يتناسب والمواقف المختلفة.

١١- العالمية في الاهتمام.

١٢- رصد التحركات التأميرية للشياطين على وجود الأمة الإسلامية.

١٣- التأكيد على النقاط المشتركة... وغير ذلك.

إنّها خطوط قرآنية يسعى الإعلام الإسلامي للتحلّي بها، والله تعالى هو الموفق لتحقيق هذا الهدف العظيم، وبمقدار وصولنا إليه نستطيع أن نضمن التصدي للهجمة الثقافية.

■ التوحيد: بالنظر إلى توافر الإمكانيات الثقافية في العالم الإسلامي، ما هي - بنظركم -

المميزات التي يمكن أن تحرك هذه الإمكانيات وتفيد منه؟

■ طبعاً الإمكانيات الثقافية والمعنوية أكبر وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الأرضية

المناسبة، وحيث الإيمان الشامل بالإسلام على اختلاف درجات الوعي به، والالتزام بمقتضياته، وحيث آثار التربية الإسلامية تترك بصماتها الواضحة، وحيث التطلع العام لسيطرة الإسلام على الحياة، وحيث الفطرة الأتقى، إلا أن المهم كون الإعلام الإسلامي يجب أن تتوفر فيه مميزات حتى يستطيع أن يستثمر هذه الإمكانيات ويستخدمها لتحقيق هدفه الكبير ومن هذه المميزات:

أ- امتلاك القدرة الثقافية والعلمية إلى الحد الذي يستوعب فيه مقولات الإسلام وتصوراتها.

ب- استيعاب الحوادث الجارية والإحاطة بالتحرك العلمي السياسي والإعلامي والثقافي.

ج- استخدام أفضل أساليب العرض.

د- الإيمان العميق بتحقيق الإسلام.

هـ- التخلّص من كلّ ذيلية أو ضيق أفق أو مصالح شخصية.

و- ملاحظة الأرضية الإيمانية التي أشرنا إليها ومحاولة استثارة الطاقات الكامنة.

ز- التمتع بالخصائص القرآنية التي أشرنا إليها قبل هذا.

■ التوحيد: هل توفرت على رصد الوسائل والأساليب المستخدمة من قبل الغرب في

هذه المهجمة؟ ما هي النتائج التي توصلتم إليها بهذا الصدد؟

■ أستطيع أن أقول بكل ثقة إنَّ الغرب جرَّب كلَّ وسائله الممكنة لضرب الثورة الإسلامية، وألقى بكل أوراقه، ومن هنا يمكننا أن ندَّعي المعرفة بشتى الوسائل وربما لم يكن الأمر بحاجة إلى كثير من الجهد.

أما نتائج هذا الرصد فما يمكنني التصريح به هو أننا نستخدم كلَّ ما اكتشفناه ضده، طبعاً مع الالتزام بالحدود الإسلاميَّة التي هي مرعبة حقاً ومؤلمة له، ولذلك نجده يقوم أحياناً بحركات هستيرية يخالف بها كلَّ مدَّعياته، لكي يصمد أمام هذه الضربات.

■ التوحيد: في الثقافة الإسلامية مبدأ يقول: (لا يتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال) أين يقع هذا المبدأ في المواجهة الإسلامية للهجمة الثقافية؟

■ لا أريد أن أرفض هذا المبدأ على إطلاقه أو أقبله كذلك على إطلاقه، وإنَّها أقول: إن علينا أن ننظر في الأساليب ونطوِّرها، بل ونبدع فيها ونكتشف الأساليب المعادية سعياً في إبطال مفعولها أولاً، واستخدامها ضد العدو ثانياً.

■ التوحيد: ما هي المبادئ الأساس التي يعتمدها الإعلام الإسلامي في الجمهورية الإسلامية؟

■ نحن نعتمد أهم مبادئنا في عملنا، وهما:

١- تأييد الله تعالى.

٢- تأييد المؤمنين عبر تعاطفهم وتلاحمهم ووعيمهم للأهداف الثورية، وهذان العاملان

هما اللذان ذكرتهما الآية المباركة:

﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ \* وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إن جماهير الأمة الإسلامية هي ساحتنا الطبيعية ووسيلتنا الكبرى لنشر الوعي الإسلامي وتحكيم شريعة الله في الأرض. وحينها تدخل الجماهير الساحة فلن تقف أمامها أية قوة، وأمامكم الحالة الفلسطينية الثائرة حيث الجماهير المؤمنة تقارع أعتى القوى وأضخم الأسلحة، وتتحدى كلَّ التآمر وكل الخطط بيد عزلاء.

إن الجماهير هي صانعة الثورة الإسلامية وهي حاملتها إلى الواقع العام، وهذا ما أكده

الإمام الخميني عليه السلام في مناسبات عديدة:

فمثلاً نجده في كلمته الموجهة إلى العلماء في طهران عام ١٩٨١ يقول: إننا جميعاً رهين لمحبة هذه الجماهير العظيمة، إنها تعطي كل شيء في سبيل الإسلام ولا تطلب شيئاً. وهذا بالتأكيد ما يطرحه آية الله الخامنئي قائد الثورة الإسلامية في كل مناسبة: إن الأمة يمكنها أن تصنع الثورة كما يمكنها أن تحتضنها وتمنع عنها كل عادية. **■** التوحيد: ما هو دور مبدأ (تصدير الثورة) الذي طرحته الثورة الإسلامية في مواجهة

الهجوم الثقافي الغربي المعادي؟

**■** لقد كان الإمام الخميني يؤمن بمبدأ (تصدير الثورة) ولكن لم يكن يعني به الصورة التخريبية التي منحها إيّاه الإعلام الغربي، أي صورة التصدير بالسلاح. إنه كان يركز على الجانب الثقافي والحاسي في آن واحد وقد خاطب سفراء الأقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ قائلاً:

إننا نعتبر الأقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإننا نريد لها أن تتمتع بما يتمتع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من برائن القوى الكبرى وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كل الشعوب، إننا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كل الشعوب وكل الحكومات وتتخلص من قيود التبعية والتسلط.

إننا نعتقد - في ضوء هذا المبدأ المهم - أن النموذج الثوري الإيراني إذا تمّ تعميمه فإنه يعمل على مقاومة أي غزو ثقافي من جهة، وتنمية الوجود الإسلامي على أرضه من جهة أخرى.

**■** التوحيد: ما هو مستقبل الثقافة الإسلامية في ظل تهاوي أعمدة الثقافات المادية والانحرافية في عصرنا الراهن..؟

**■** أعتقد أن الثقافة الإسلامية ينتظرها مستقبل زاهر، باعتبار ما تتحلّى به من مميزات وخصائص تجعلها الثقافة الإنسانية الوحيدة التي تعمل على إشباع الجوع المعنوي للبشرية، وهو ما نشعر به اليوم بشكل واضح، بالإضافة إلى هذا الإقبال العظيم للجماهير الأمة الإسلامية على الإسلام، الأمر الذي يفتح آفاقاً جديدة في هذا المجال.

## حول الصحوة الإسلامية والإعلام<sup>١</sup>

■ السؤال الأول: إننا نلاحظ إقبالاً عالمياً على الإسلام في الفترة الأخيرة، فبمّ تعللون ذلك؟

■ أعتقد أن هناك عوامل كثيرة أوجدت هذا الإقبال العالمي على الإسلام في الفترة

الأخيرة، وربما كان أهمها ما يلي:

١- ما يتمتع به الإسلام من تعاليم منسجمة تمام الانسجام مع الفطرة تشبع حاجة الوجدان، وتسمو بالأخلاق، وتتعامل مع طبيعة الإنسان تعاملاً واقعياً، وتنظر إليه ككل، وتعمل على حلّ كل مشكلاته، وتحقق الانسجام بين الجانب العقائدي، والجانب العاطفي، والجانب السلوكي. وهذه الجوانب وإن كانت تتمثل في الإسلام منذ انطلاقه قبل أربعة عشر قرناً، إلا أن الذي أوجد هذا الإقبال الأخير عليه من خلالها ناتج عن نهضة فكرية عملية قام بها المفكرون الكبار، لشرح هذه الخصائص، وعرضها بأسلوب يتناسب ومتطلبات العصر، ويجيب عن تساؤلاته، ويشرح الجوانب المضيئة في هذه الشريعة، وهؤلاء هم من أمثال الإمام الخميني، والإمام الصدر، وسيد قطب، والشهيد المطهري، وأبي الأعلى المودودي، ومالك بن نبي وغيرهم.

٢- فشل معظم الاطروحات اللادينية في إشباع حاجة الإنسان إلى المأمّن الروحي الحقيقي، لا بل فشلها في إشباع حاجاته المادية وتحقيق ما يصبو إليه من سعادة. وقد أدى تساقط هذه المذاهب الإلحادية إلى تكوين موجة بشرية هائلة متجهة إلى الدين من جديد،

١. لقاء مع مجلة رسالة الثقافة (نامه فرهنگ) الصادرة بطهران، باللغة الفارسية، العدد ٣/٢٣ بتاريخ

١٤١٧/١٠/٨، ١٣٧٥/١٢/١٠، ١٩٩٧/٣/١٢



ليشبع لها نهمها وجوعتها. ولما لم يكن هناك من دين فيه كل هذه الجامعية وهذا الشمول وهذه النظرة الحياتية المستوعبة وهذه الواقعية في التعامل غير الإسلام، كان من الطبيعي أن نجد الإقبال الواسع عليه وعلى تعاليمه.

٣- نجاح بعض التجارب الإسلامية في بعض المناطق، وفي طليعتها تجربة الثورة الإسلامية الكبرى في إيران بقيادة الإمام الخميني الراحل (قده)، حيث قدّمت هذه الثورة نماذج كبرى للثورة الشعبية الخالصة التي تتناسى كل المصالح المادية الضيقة في سبيل تحقيق الأهداف المعنوية الكبرى، وحيث استطاعت أن تكسر الكثير من الأساطير من قبيل: أسطورة انحصار الثورة بالمبادئ المادية وبالخصوص في الاشتراكية، وأسطورة انقسام العالم - لا محالة - إلى قوتين لا ثالث لهما، وأسطورة عدم إمكان لاستقلال في المجال السياسي، وأسطورة (الدين افيون الشعوب) وأمثالها. وقدّمت للعالم تصوّراً جديداً عن مشاكله وحلولها، بعيداً عن التصوّرات السابقة، ممّا دفعه لتفهّم هذه التصورات. كما أنّها استطاعت أن تعبئ الجماهير المسلمة وتزرع في نفوسها الأمل الكبير بالمستقبل، مما فتح أمام العالم كلّه أفقاً جديداً لم يكن ليتصوّره من قبل.

■ السؤال الثاني: ما هي العوامل التي انتجت هذا التوسع الكبير في حركة النهضة

الإسلامية في السنين الأخيرة؟

■ من الطبيعي أنّنا بهذا السؤال نتقل إلى مجال العالم الإسلامي، ونركّز عليه. والذي نتصوّره أنّ أهم العوامل لهذه الظاهرة الكبرى - ظاهرة الصحوة الإسلامية - تكمن في ما يلي: أولاً: نفس ما أشرنا إليه في جوابنا السابق. طبعاً مع ملاحظة التأثيرات الأوسع لتلك العوامل في عالمنا الإسلامي؛ لأن العالم الإسلامي أقرب كثيراً من غيره إلى تفهّم تراثه القيم، والتعامل بكلّ تصوراتهِ وعواطفه مع هذه الرسالة، من خلال إيمانه بها، حتى ولو كان هذا الإيمان ضعيفاً أو موروثاً، إلا أنّه - على أي حال - يوفر جواً طبيعياً للتعامل الأكبر مع القضية الإسلامية، خصوصاً بعد تبيان جوانبها من قبل أولئك المفكرين الذين أشرنا لهم آنفاً. على أنّ فشل الأنظمة الأخرى أرجع الكثير من الشاردين عن المسيرة الإسلامية (من المسلمين) وأعاد لهم الثقة بإسلامهم العظيم.

ثم إن نجاح التجربة الإسلامية أو جد شعوراً جماهيرياً كبيراً بعظمة الإسلام، وأعاد للامة اعتزازها بنفسها، وثقتها بمستقبلها، وقدرتها على صنع هذا المستقبل.

ثانياً: نضيف - في هذا المجال - عاملاً جديداً وهو الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة. وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة أو تلك، إلا أنّها نجحت في تأجيج الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدّ بها بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت والعودة إلى الإسلام.

ثالثاً: ردود الفعل التي أعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي، وبالرغم من التخطيط الدقيق لهذا الهجوم، والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب، وبالرغم من التمزيق القومي، والوطني، والعنصري، والتاريخي، وبالرغم من أنه زرع في وجود الأمة البؤرة السرطانية الخبيثة، وأثقلها بالحكام العملاء، وسرّب إليها سمومه الفكرية والعاطفية، وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق، فإن هذا الهجوم أنتج نتائج عكسية، إذ أيقظ الأمة وعلمها أنّ عزتها تكمن في إسلامها، وقد كان تأثير الهجوم بشكل معكوس بأسلوبين:

الأول: أنّه كشف نفسه وحضارته وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمة، وراح يحاول أن ينهب خيراتها، ويحطم شخصيتها، ويعبث بقيمتها.

الثاني: أنّه دفع الحريصين المؤمنين بمستقبل الأمة إلى اتخاذ موقف المواجهة، والتخطيط للصحة. وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة تلك الصيغ الرجعية للحكومة الإسلامية، وتلك الاطروحات المموّهة للوحدة الإسلامية.

وهكذا أثرت كلّ هذه العوامل أثرها الكبير في الإسراع بالصحة والنهضة ممّا جعل الأمة على أعتاب تحوّل تاريخي كبير، نسأل الله جل وعلا أن يحققه قريباً عاجلاً.

■ السؤال الثالث: أين ترون مركز هذه النهضة الإسلامية الدينية؟

■ بطبيعة الحال لا أعدو إيران في هذا المجال. فهي اليوم قلب النهضة الإسلامية الأصيلة، ومنبعها الدفّاق. لا أقول هذا محاباة أو تعصباً، وإنّما أقول ذلك عن وقوف حسن على واقع العالم الإسلامي، وتلمّس كامل لكلّ أبعاد الصحة والنهضة الإسلامية. فالكل اليوم ينظر إلى إيران باعتبارها المحور والنموذج والإمام والموجّه، بل أستطيع أن أقول: إن

العالم كله يدعن لهذه الحقيقة، ولا أدل على ذلك من تجمع التآمر المادي للدين ضد إيران، وتمركزه على هذه الثورة الإسلامية. وربما أمكنني الإشارة إلى دور إيران في المؤتمرات العالمية كالقاهرة وبكين وغيرهما، حيث وقفت تحمل لواء الدفاع عن الدين عموماً والإسلام خصوصاً بكل قوة، وأذعن العالم لهذا الوقوف والصمود.

فإذا تجاوزنا إيران أستطيع القول بأن مظاهر النهضة تشمل كل العالم الإسلامي على اختلاف في ما بين مناطقه من حيث الوعي والإحساس.

■ السؤال الرابع: ما هو دور الفكر الإسلامي والفكر الثوري في العلاقات الدولية القائمة؟

■ إذا أردنا أن ندرك عمق هذا الدور علينا أن نلاحظ الأمور التالية:

١- مساحة التخطيط والتآمر ضد الإسلام وضد الثورة الإسلامية. وهي مساحة واسعة حقاً تتمثل في تجمع العقول السياسية المخططة في مراكز علمية وسياسية لا تحصى لدراسة هذه الظاهرة، واتخاذ الإستراتيجيات الجامعة ضد نموها وانتشارها، ومحاولة الفصل بين الجماهير الإسلامية، لا بل الجماهير المستضعفة وبين قيادتها. كما تتمثل في وسائل الإعلام الموجهة ضد الإسلام ومظاهره وضد كل ما يمت بصلة إلى الإسلام. وتتمثل أيضاً بالمؤتمرات الدولية واسعة الأبعاد والتي تعمل على مسح الهوية الإنسانية وتفكيك عرى العائلة الإنسانية، ونشر التفكك والتبع، والفساد الأخلاقي، كما تتمثل في عشرات المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين الدول الكبرى نفسها، وبينها وبين دول المنطقة لوقف هذا التحرك الإسلامي العظيم، بل إننا نجد الغرب يعطي الضوء الأخضر للشيوخيين لاستعادة دورهم القيادي في الجمهوريات الإسلامية المستقلة والتي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي، لا لشيء إلا خوفاً من وصول المد الثوري الإسلامي لهذه المناطق.

ولا نستطيع هنا أن نستوعب كل هذه المساحة، وإنما نريد الإشارة إلى أن كل ردود الفعل هذه تترك أثرها الكبير على الساحة الدولية، وتغير من الإستراتيجيات الدولية والمعاهدات، وتفتح مجالاً لتصوير عدو كبير للعالم الغربي، وصب كل الاهتمامات لتدمير هذا العدو الكبير، كما تترك أثرها في سعي الدول الاستكبارية لاستغلال الأمم المتحدة والمحافل الدولية الأخرى للوقوف أمام هذه النهضة ومحاصرتها، والعمل على ضربها في مهدها، وقطع اتصالها بجماهيرها.

ولذلك أستطيع القول - بكل صراحة - إنَّ الحركات الثورية الإسلامية هي الهاجس الأكبر للطامعين وهي حجر الزاوية في كلِّ تخطيط إستراتيجي عالمي.

■ السؤال الخامس: هل تعتقد بما يقوله بعض السياسيين من أنَّ الإسلام قائم على أساس العداة للحضارة الغربية، أو أنَّ الثورة الإسلامية جاءت لتدمير النظام الغربي؟

■ لتلخيص العلاقة بين الإسلام والغرب أوضح ما يلي:

أ - أتصور أنَّ الإسلام - بمقتضى واقعيته المعروفة - يسعى عن طريق الدعوة والعرض السليم إلى مخاطبة الفطرة الإنسانية، والتأكيد على أنَّ كلَّ ما جاء به من تصوّرات عن الواقع والحياة إنّما يقوم على أساس منطقي سليم وينسجم مع تطلّعات الفطرة الإنسانية، المفروض أن يحصل الجوّ الحرّ الموضوعي للاستماع إلى صوت الإسلام.

وبالرغم من الحرية التي يتمتّع بها العالم الغربي أو يدّعيها في فسح المجال للآراء في أن تعرض نفسها إلا أن الإسلام يواجه عقبات كبرى في هذا الصدد، وأهمها التشويش والتشويه الدعائي الواسع الأبعاد ضدهً وضدّ مقدّساته، وذلك عبر القنوات الإعلامية الواسعة وبمختلف الأساليب الماكرة التي كثيراً ما تستغل الفنّ والقصة والعلم لتمرير أفكار معادية للإسلام، وأؤكد أن هذه الحملة تنطلق من منطلقات:

الأول: تعصّبي، حيث نجد الجهات المتعصبة الصليبية تحمل حقدًا تاريخياً ضدّ الإسلام، دونما تأمّل في ما يطرحه الإسلام من أفكار إنسانية.

الثاني: مصلحي، انطلاقاً من النظرة المادية الرأسمالية للحياة؛ لأن الإسلام بمقتضى مبادئه لا يسمح أولاً بخضوع الشعوب الإسلامية للمصالح التوسعية الغربية، كما لا يسمح - بشكل عام - باستغلال المستضعفين من قبل الأقوياء المستكبرين، الأمر الذي يقف عقبةً أمام الاستغلال المادي الوضيع.

الثالث: قومي وطني، انطلاقاً من تصوّر الغرب أن المسيحية أو بشكل عام الدين الذي لا يتدخل في معومات الحياة هو من الخصائص الوطنية والقومية للشعوب الأوروبية، وهذا فهم خاطئ للدين والتراث الوطني والقومي، وهو الأمر الذي يرفضه المنطق التغييري للبنية الإنسانية، فلمهم أن يدين الإنسان بدين الحق بعيداً عن مسائل التعصب الطائفي والقومي والوطني.

وأخيراً: فإن امتلاك الإسلام لخصائص الدين القيم على الحياة وأساليه المعنوية والأخلاقية

هي الحل البديل للفراغ المعنوي الذي تشعر به الإنسانية، وهو أحد العوامل المهمة التي حطمت نظام الإلحاد الشرقي وقضت على أحلامه، وبالتالي أعطت دوراً جديداً للتعاليم الإسلامية، لتملأ الفراغ بعد أن لم تكن باقي الأديان على مستوى الحاجة الحضارية الموجودة.

ب- أعتقد أن أفكار العالم الغربي قد طُرحت بشكل كافٍ في مجال العالم الإسلامي. فالمثقفون المسلمون يطالعون غالباً - وباستمرار - ما ينتج هذا الفكر، بالإضافة إلى أن الجماهير الإسلامية اليوم مغرقة بأحداث العالم الغربي التي تبث أخبارها وسائل الإعلام الغربية.

بل إنّي أعتقد أن ما يعرض في العالم الإسلامي عن الغرب فيه الكثير من المبالغة المقصودة، الأمر الذي قد يغوي الكثيرين بهذه اللجنة الموهومة، وهم لا يعلمون ما تستبطنه هذه الحضارة المادية من نقاط ضعف كبرى تمزق العلاقات العائلية، وتقضي على الروح الإنسانية، وتحرك الكوامن الحيوانية الغريزية دوننا سيطرة.

ج- لا يمكننا أن ننكر كون الكادر الإعلامي الغربي مدركاً لرسالته ومنسجماً مع حضارته، ويعرف بدقة ما هي واجباته بغض النظر عن مدى إنسانية هذه الرسالة وتلك الواجبات.

أما الكادر الإعلامي في العالم الإسلامي فالذي أظنه أنه في الغالب بحاجة ماسة لتفهيم الرسالة الإسلامية وأهدافها الحضارية وواجباته تجاه هذه الرسالة، وأظن أن أكبر نقاط الضعف التي ابتلي بها هذا الكادر هو عدم توفر ذلك الفهم الكامل من جهة، والتبعية العمياء لأهواء الحكومات المصلحية بل والعميلة أحياناً من جهة أخرى. ومن هنا فإن عليه أن يحرر نفسه من هذه القيود، ويبدأ مرحلة جديدة تحكمها خطوط عمل أساسية مستمدة من معين الرسالة الإسلامية، وفي طليعتها: ضرورة نشر الروح التغييرية الثورية التي يريد الإسلام أن تنتشر في النفوس فتجعلها مستعدة لتطبيق كل تعاليم الإسلام على كل شؤون الحياة.

د- أعتقد أن كلاً منّا لا يدرك الآخر، وربما كان من الصعب أن نصل إلى قواسم مشتركة، وسرّ هذا الأمر أن مبادئنا ومنطقنا مختلف تماماً. فالعالم الإسلامي يقوم على أسس تصورية لا يؤمن بها الغرب، والعكس بالعكس.

وكمثال على ذلك لنلاحظ الأسس التالية:

١- الفطرة الإنسانية: وهي وجود أصيل يسوق الإنسان إلى الحقيقة الإلهية بشكل طبيعي، وبدونها يفقد الإنسان إنسانيته.

٢- الأخلاق الفاضلة: العدل، التعاون، الإخلاص للمبدأ وما إلى ذلك هي جزء لا يتجزأ من إنسانية الإنسان.

٣- الإنسان الفرد والمجتمع محتاج لتنظيم شؤون حياته كلها للعودة إلى الله وإلى الدين والقيم في الحياة.

٤- التكامل البشري من مقومات الحياة الاجتماعية، والفوارق الطبقية والعرقية، والقومية، والوطنية أمور منبوذة بشرياً.

٥- الغرائز الجنسية بحاجة لضبط عاقل يضمن قيام علاقات عائلية متكافئة.

٦- الاستغلال والاستعمار والاعتداء وتسخير مصادر الآخرين لمصالح ضيقة، واحتلال أراضي الغير، وإهانة المقدسات، كلها أمور مرفوضة.

هذه بعض الأسس فهل نتفق عليها؟ المسلمون يقبلونها بشكل تام، ولكن هل ينسجم معها الغرب؟ أستطيع أن أؤكد كون الغرب قد لا يدرك كنهها؛ لأنها بعيدة عمّا اعتاد عليه مع الأسف. نعم إذا استطعنا أن نصل إلى مستويات من التفاهم حول هذه الأسس وأمثالها فقد يكون من الطبيعي أن نصل إلى قدر مشترك من الفهم المتبادل لبعضنا بعضاً. ولست متشائماً في تحقق هذا الهدف إذا توافرت النية المخلصة والموضوعية المطلوبة لمعرفة الحقيقة.

إنني أعتقد كون البشرية جمعاء تسير شيئاً فشيئاً نحو مرحلة فناء النزعات الإلحادية والظواهر الإنكارية لله تعالى، بالرغم من وجود بعض التواءات الصغيرة دائماً.

وهناك علامات كبرى تشير إلى هذا الاتجاه الحضاري نستطيع أن نشير منها إلى ما يلي:

١- هذا الاتجاه العالمي لإقرار حقوق الإنسان، فإنّه وبرغم أنماط الاستفادة السيئة من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان من قبل الدول الكبرى، إلا أنّه يعبر عن اتجاه معنوي نحو إقرار الحقوق الإنسانية التي نادى بها الأديان، وأي إنكار للجانب الروحي والفطري للإنسان يفقد الإنسان أي ادعاء للحقوق الإنسانية.

٢- هذا الاتجاه العالمي للجماهير نحو الحلول الدينية بعد فشل كلّ الحلول المادية. إنّه اتجاه حضاري يحاول الماديون إنكاره. ويعمل المستعمرون على كبته وخنقه والتأمر عليه، إلا أنّه اتجاه حقيقي، فالجماهير - سواء في العالم الإسلامي أو في غيره - أدركت أنّ السعادة

الإنسانية إننا تكمن في إحياء القيم المعنوية واستعادة وجودها في حال الإنسان. والأمر في العالم الإسلامي أوضح، فالجماهير الإسلامية اليوم تعمل على استعادة دور الدين في الحياة، وهي تتوسل بكلّ الوسائل المشروعة لإقامة نظام إسلامي للحياة بالرغم من كلّ العقبات التي توجد في طريقها. فالعصر اليوم هو عصر الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهو عصر الاتجاه نحو المعنويات كما عبّر الإمام الخامنّي قائد الثورة الإسلامية في إيران.

٣- هذا الانهيار الهائل للنظام الإلحادي الشيوعي نتيجة مخالفته للفطرة الإنسانية، وهو ما أشار إليه الإمام الخميني في رسالته التي وجهها إلى غورباتشوف قبل الانهيار بأكثر من عامين، حيث قال له: إن الشيوعية مرشحة للدخول في متحف التاريخ، لأنّها تخالف الفطرة الإنسانية، ودعاه إلى الدين وبالخصوص إلى الدين الإسلامي، لأنّه الإشباع الحقيقي للجوع الإنسانية، وهذا ما اعترف به غورباتشوف في خطاب الاستقالة حيث قال بأنّ الانهيار كان بسبب إنكارنا للنعم الإلهية.

وعلى أي حال فإننا نستبشر خيراً بعصر الدين والمعنويات، أمّا ما يقال أحياناً من أنّ الحكم الديني سوف يؤدي لاضطهاد الأقليات فهذا أمر موهون، فإن القواعد الدينية الإسلامية توجب على الدولة احترام حقوق الأقليات، ومنح أفرادها درجة المواطنة الكاملة وحمائهم من أي اعتداء. وتاريخ الإسلام شاهد على هذه المعاملة بالرغم من أنّ الإسلام لم يكن مطبّقاً بشكل كامل إلا في فترات قصيرة. وتمتّع الأقليات في الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم بكلّ الحقوق شاهد على هذه المعاملة.

إنّني أعتقد كون عودة الحكومات الدينية إلى الحياة سوف تترك آثاراً كبيرة على العلاقات الدولية، حيث ستسود روح التعاون المشترك لنشر الأخلاق الحميدة، وتتم عملية تحريك الطاقات الإنسانية الكامنة، وتقام الحياة على أسس متينة منسجمة مع الفطرة.

وإنّني لأنتظر عالماً تسوده العدالة، والتعاون والسلام والمحبة الدينية، والتفاهم الموضوعي، وهو ما بشرت به كلّ الأديان وتمثّل في الإسلام بالاعتقاد بظهور المهدي الذي سيملاّ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ولهذا فإنّي أعتقد كون البشرية يجب أن تستعد بل وتعمل على إقامة نظام ديني عالمي يحقق الأهداف السامية للبشرية.

■ السؤال السادس: عندما يدخل الدين إلى عالم علماني تفصل سياسته عن دينه فهل

تتغير علاقاته الأساسية بشكل كامل؟

■ أعتقد أن من المسلّم به كون النظام الاجتماعي لا يمكنه أن ينفصل عن الإيديولوجية التي يحملها المجتمع (موضوع التطبيق لذلك النظام) بل لا يمكن تصوّر قيام نظام حياتي شامل دون أن يسبقه تحديد للموقف من الوجود والإنسان والحياة، أي دون أن تسبقه فلسفة معينة، وحتى الرأسمالية التي طرحت فكرة فصل المسألة الاجتماعية عن المسألة الواقعية لم تستطع مطلقاً أن تنجو من نظرة مادية خالصة للحياة.

وعليه فعندما يدخل الدين إلى الحياة فمعنى ذلك أنّه ينفذ إلى عمق الوجدان الاجتماعي، ويغيّر القاعدة التي يطبّق عليها النظام، ومعنى ذلك أيضاً أنّه يخطط لوضع الحلول الناجعة لكل مشكلات الحياة ويبادر إلى حلّها، وفقاً لتصوراته (طبعاً إذا كان هذا الدين ديناً واقعياً واجتماعياً يطرح حلوله لكلّ المشكلات الاجتماعية).

ومن هنا نستطيع التأكيد على أنّ الدين عندما يدخل إلى أي ساحة يعمل على تغييرها تغييراً جذرياً، ويحاول أن يصوغ علاقاتها وسياساتها وفقاً لمنطق جديد.

■ السؤال السابع: ما هو تصوّركم لمستقبل النهضة الإسلامية؟

■ انطلق في تصوّري من أمور:

أولاً: من دراسة التاريخ الإنساني الذي يتسم - برغم كلّ النكسات - بالسير الصاعد لصالح الأهداف المعنوية.

ثانياً: من قناعاتي باللطف الإلهي الذي يسير بالإنسانية نحو الكمال.

ثالثاً: من الوعود القرآنية القطعية بالنصر المؤكّد للحركة الإسلامية إذا صدقت مع نفسها وتحلّت بكلّ الخصائص القرآنية.

وأعتقد بعد هذا: إن الغد أمام النهضة الإسلامية مشرق، خصوصاً إذا لاحظنا ما تتمتع به عناصر النهضة من حيوية مبدعة، وإمكانات مادية ومعنوية، وإيمان جماهيري بمستقبل هذه النهضة، وثقافة حضارية مقرونة بالتضحية والإيثار. وأعتقد أنّ كلّ من له بصيرة يدرك تماماً أنّنا على أعتاب عالم يسوده حكم القرآن الكريم.



# المقالات حول الحضارة



(١)

## العلاقة بين الإسلام والغرب

لتلخيص العلاقة بين الإسلام والغرب اوضح مايلي:

أ. أتصور أنّ الإسلام بمقتضى واقعيته المعروفة يسعى عن طريق الدعوة والعرض السليم إلى التحدث مع الفطرة الإنسانية والتأكيد على أنّ كل ما جاء به من تصورات عن الواقع والحياة إنما يقوم على أساس منطقي سليم ينسجم مع تطلعات الفطرة الإنسانية وما يطالب به هو أنّ يحصل الجو الحر الموضوعي للاستماع إلى صوت الإسلام.

ورغم الحرية التي يتمتع بها العالم الغربي أو يدعيها في فصح المجال للآراء في أنّ تعرض نفسها إلا أنّ الإسلام يواجه عقبات كبرى في هذا الصدد أهمها التشويش والتشويه الدعائي الواسع الأبعاد ضده وضد كل مقدساته، وذلك عبر القنوات الإعلامية الواسعة وبمختلف الأساليب الماكرة التي كثيراً ما تستغل الفن والقصة والعلم لتموير أفكار معادية للإسلام.

وأؤكد أنّ هذه الحملة تنطلق من منطلقات:

**الأول:** تعصبي حيث نجد الجهات المتعصبة الصليبية تحمل حقداً تاريخياً ضد الإسلام

دونما تأمل في ما يطرحه الإسلام من أفكار إنسانية.

**الثاني:** مصلحي انطلاقاً من النظرة المادية الرأسمالية للحياة ذلك أنّ الإسلام بمقتضى

مبادئه لا يسمح بخضوع الشعوب الإسلامية للمصالح التوسعية الغربية كما لا يسمح بشكل عام باستغلال المستضعفين من قبل الأقوياء المستكبرين الأمر الذي يقف عقبة أمام الاستغلال المادي الوضيع.

**الثالث:** قومي وطني انطلاقاً من تصور الغرب أنّ المسيحية أو بشكل عام الدين الذي

لا يتدخل في معمعان الحياة هو من الخصائص الوطنية والقومية للشعوب الاوربية وهذا فهم خاطئ للدين والتراث الوطني والقومي وهو الأمر الذي يرفضه المنطق التغييري للبنية الإنسانية فالمهم أن يدين الإنسان بدين الحق بعيداً عن مسائل التعصب الطائفي والقومي والوطني.

**وأخيراً:** فإن امتلاك الإسلام لخصائص الدين القيم على الحياة وأساليبه المعنوية والأخلاقية هي الحل البديل للفراغ المعنوي الذي تشعر به الإنسانية هو أحد العوامل المهمة التي حطمت نظام الإلحاد الشرقي وقضت على احلامه بالتالي أعطت دوراً جديداً للتعاليم الإسلامية لتملأ هذا الفراغ بعد أن لم تكن باقي الأديان على مستوى الحاجة الحضارية الموجودة.

**ب.** أعتقد أن أفكار العالم الغربي قد طرحت بشكل كاف في مجال العالم الإسلامي. فالمتقفون المسلمون يطالعون غالباً وباستمرار ما ينتج هذا الفكر بالإضافة إلى أن الجماهير الإسلامية اليوم مغرقة باحداث العالم الغربي التي تتحدث عنها وسائل الإعلام الغربية. بل إنني أعتقد أن ما يعرض في العالم الإسلامي عن الغرب فيه الكثير من المبالغة المقصودة الأمر الذي قد يغوي الكثيرين بهذه الجثة الموهومة وهم لا يعلمون ما تستبطنه هذه الحضارة المادية من نقاط ضعف كبرى تمزق العلاقات العائلية، وتقضي على الروح الإنسانية وتحرك الكوامن الحيوانية الغريزية دونها سيطرة.

**ج.** لا يمكننا أن ننكر أن الكادر الإعلامي الغربي مدرك لرسائله ومنسجم مع حضارته ويعرف بدقة ما هي واجباته بغض النظر عن مدى إنسانية هذه الرسالة وتلك الواجبات. أمّا الكادر الإعلامي في العالم الإسلامي فالذي أظنه أنه في الغالب بحاجة ماسة لتفهم الرسالة الإسلامية وأهدافها الحضارية وواجباته تجاه هذه الرسالة، وأظن أن أكبر نقاط الضعف التي ابتلى بها هذا الكادر هو عدم توفر ذلك الفهم الكامل من جهة والتبعية العمياء لأهواء الحكومات المصلحية بل والعميلة أحياناً من جهة أخرى ومن هنا فإن عليه أن يحرر نفسه من هذه القيود ويبدأ مرحلة جديدة تحكمها خطوط عمل أساسية مستمدة من معين الرسالة الإسلامية وفي طليعتها: ضرورة نشر الروح التغيرية الثورية التي يريدها الإسلام في النفوس فتجعلها مستعدة لتطبيق كل تعاليم الإسلام على كل شؤون الحياة.

**د.** أعتقد أن كلاً منا لا يدرك الآخر وربما كان من الصعب أن نصل إلى قواسم مشتركة

وسر هذا الأمر أن مبادئنا ومنطلقاتنا مختلفة تماماً.

فالعالم الإسلامي يقوم على أسس تصويرية لايؤمن بها الغرب والعكس بالعكس.

وكمثال على ذلك لنلاحظ الأسس التالية:

١. الفطرة الإنسانية: وهي وجود أصيل يسوق الإنسان إلى الحقيقة الإلهية بشكل طبيعي وبدونه يفقد الإنسان إنسانيته.

٢. الأخلاق الفاضلة: العدل، التعاون، الإخلاص للمبدأ وما إلى ذلك جزء لا يتجزأ من إنسانية الإنسان.

٣. الإنسان الفرد والمجتمع محتاج لتنظيم شؤون حياته كلها إلى الله وإلى الدين والقيم في الحياة.

٤. التكامل البشري من مقومات الحياة الاجتماعية، والفوارق الطبقة العرقية، والقومية، والوطنية أمور منبوذة بشرياً.

٥. الغرائز الجنسية بحاجة لضبط عاقل يضمن قيام علاقات عائلية متكافئة.

٦. الاستغلال والاستثمار والاستعمار والاعتداء وتسخير مصادر الآخرين لمصالح ضيقة واحتلال أراضي الغير وإهانة المقدسات كلها أمور مرفوضة.

هذه بعض الأسس فهل نتفق عليها؟

المسلمون يقبلونها بشكل تام ولكن هل ينسجم معها الغرب؟ استطيع أن أؤكد أن الغرب قد لا يدرك كنهها لأنها بعيدة عما اعتاد عليه مع الأسف.

نعم إذا استطعنا أن نصل إلى مستويات من التفاهم حول هذه الأسس أمثالها فقد يكون من الطبيعي أن نصل إلى قدر مشترك من الفهم المتبادل لبعضنا البعض.

ولست متشائماً في تحقق هذا الهدف إذا توفرت النية المخلصة الموضوعية المطلوبة لمعرفة الحقيقة.

نعم إنني أعتقد أن البشرية جمعاء تسير شيئاً فشيئاً نحو مرحلة فناء النزعات الإلحادية والظواهر الإنكارية لله تعالى رغم إمكان تواجد بعض التواءات الصغيرة دائماً.

وهناك علامات كبرى تشير إلى هذا الاتجاه الحضاري نستطيع أن نشير منها إلى ما يلي:

١. هذا الاتجاه العالمي لاقرار حقوق الإنسان فرغم أنباط الاستفادة السيئة من المنشور

العالمي لحقوق الإنسان من قبل الدول الكبرى إلا أنه يعبر عن اتجاه معنوي نحو اقرار حقوق الإنسانية التي نادى بها الأديان وأى إنكار للجانب الروحي والفطري للإنسان يفقد الإنسان أي ادعاء للحقوق الإنسانية.

٢. هذا الاتجاه العالمي للجماهير نحو الحلول الدينية بعد فشل كل الحلول المادية، أنه اتجاه حضاري يحاول الماديون إنكاره ويعمل المستعمرون على كبته وخنقه والتأمر عليه إلا أنه اتجاه حقيقي فالجماهير سواء في العالم الإسلامي أو في غيره أدركت أن السعادة الإنسانية إنما تكمن في إحياء القيم المعنوية واستعادة وجودها في حياة الإنسان.

والأمر في العالم الإسلامي اوضح فإن الجماهير الإسلامية اليوم تعمل على استعادة دور الدين في الحياة وهي تتوسل بكل الوسائل لإقامة نظام إسلامي للحياة رغم كل العقبات التي تقف في طريقها.

فالعصر اليوم هو عصر السيطرة الإسلامية في العالم الإسلامي وهو عصر الاتجاه نحو المعنويات. ٣. هذا الانهيار الهائل للنظام الإلحادي الشيوعي نتيجة مخالفته للفطرة الإنسانية وهو ما أشار إليه الإمام الخميني عليه السلام في رسالته التي وجهها إلى غورباتشوف قبل الانهيار بأكثر من عامين حيث قال له إنَّ الشيوعية مرشحة للدخول في متحف التاريخ لأنها تخالف الفطرة الإنسانية ودعاه إلى الدين بالخصوص إلى الدين الإسلامي لأنه الإشباع الحقيقي للجوعنة الإنسانية. وهذا ما اعترف به غورباتشوف في خطاب الاستقالة حيث قال بأنَّ الانهيار كان بسبب إنكارنا للنعم الإلهية.

وعلى أي حال فإننا نستبشر خيراً بعصر الدين والمعنويات. أما ما يقال أحياناً من أنَّ الحكم الديني سوف يؤدي لاضطهاد الأقليات فهذا أمر موهون فإن القواعد الدينية الإسلامية توجب على الدولة احترام حقوق الأقليات ومنحها درجة المواطنة الكاملة وحماتها من أي اعتداء وتاريخ الإسلام شاهد على هذه المعاملة رغم أن الإسلام لم يكن مطبقاً بشكل كامل إلا في فترات قليلة.

(٢)

## رسول الله والجيل الإسلامي النموذجي

إن امتنا ما فتئت تواجه التحديات الكثيرة التي تستهدف كل مقوماتها التي تتميز بها شخصيتها. ومن هذه المقومات حالاتها التعليمية والاعلامية والثقافية؛ ذلك أن تعليمنا وتربيتنا فرض عليهما الابتعاد عن الاسس التعليمية والاعلامية الإسلامية، التي تحاول أن تفجر الطاقات الفطرية في النفس الإنسانية، وتسير به نحو كماله المنشود، عبر النظر بمنظار القرآن والسنة والتأدب بأدابها، والتشبع بمفاهيم التصور الإسلامي.

اما الاعلام فهو بدوره ابتلي بأفات الاعلام المادي الغربي الذي تسوده عناصر الأثارة والمبالغة، والاستغلال، واللا خلقية، والتهمة وستر الواقع. وكلها تبتعد عن الصفات القرآنية للاعلام الحق.

وقل ما تشاء عن العملية الثقافية التي كانت تقرأ الحياة دائماً باسم الله، وتمتلك مرجعيتها الاصلية الضابطة لكل المقولات الثقافية.

ومن هنا ونحن نعيش عصر انبعاث الصحوة الإسلامية على المسؤولين في كل هذه المجالات أن يخططوا للعودة للماضي عودة غير تراجعية وانما هي كمثال العودة إلى القواعد الحصينة ثم الانطلاق إلى المستقبل برؤية اوضح، وهمة اكبر، ومعاصرة متوازنة.

واذ نركز على العملية التربوية للجيل الشاب يجب علينا أن نعيد له اسس شخصيته كما ارادها الإسلام وحددها الرسول الاكرم ﷺ وقد اهتم ﷺ بهذا الأمر غاية الاهتمام، وسلك لتحقيقه مختلف السبل.

### المسلم الشاب كما يريد رسول الله ﷺ

ولقد ركز الإسلام على عناصر الشخصية الإنسانية، و اراد له أن يكون متوازناً متعادلاً في نظرتة عن الواقع وموقفه منه، منسجماً في شخصيته، تتطابق عقيدته وعواطفه وسلوكه، مستفيداً من كل فرصة تتاح له خير الاستفادة. فإن الفرص لا تتوفر دائماً لتغير الاحوال والحالات والامكانات.

وقد روي عن علي عليه السلام قوله: «بادر شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك»<sup>١</sup>.

وكذلك قوله عليه السلام: «ما اقرب الدنيا من الذهاب والشيب من الشباب»<sup>٢</sup>.

ومن هذه الفرص مرحلة الشباب بما فيها من قوة وجمال وصفاء نفس وتفتح على الحياة وكأنها تماثل مرحلة الربيع في الطبيعة. إنها المرحلة التي تبنى فيه الشخصية بكل جوانبها العقائدية والعاطفية والتربوية في اطار من التعقل السليم، والتربية المتأصلة في النفس ولذلك يركز الإسلام عليها:

وقد روي عنه عليه السلام :

(والتوبة حسنة لكنه في الشباب احسن)<sup>٣</sup>.

وقوله عليه السلام : (ان الله يظل الشباب الناشئ في عبادة الله بظله)<sup>٤</sup>.

وقوله عليه السلام : (من تعلم القرآن في شببته اختلط بلحمه ودمه)<sup>٥</sup>.

وقوله عليه السلام : (ان الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله)<sup>٦</sup>.

نعم اراد الله أن يكون الشباب قوة وجمالاً في الباطن كما هو كذلك في الظاهر:

يقول الإمام العسكري عليه السلام وهو احد أئمة اهل البيت عليهم السلام (حسن الصورة جمال

١. غرر الحكم، ح ٤٣٨١.

٢. ن. م ح ٩٦٨٩.

٣. مجموعة ورام، ج ٢، ص ١١٨.

٤. مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٥.

٥. كنز العمال، ج ١، ص ٥٣٢.

٦. كنز العمال، ج ١، ص ٧٧٦.



ظاهر، وحسن العقل جمال باطن)<sup>١</sup>.

ويصف الرسول الزهراء فاطمة فيقول: (ان ابنتي فاطمة ملأ الله قلبها وجوارحها إيماناً حتى مشاشها)<sup>٢</sup>.

[والمشاش هي رؤوس العظام اللينة] ومثله (ملئ عمار إيماناً إلى مشاشه)<sup>٣</sup>.

ونحن نجد في قصة النبي يوسف عليه السلام انسجاماً رائعاً بين الجمال البدني ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾<sup>٤</sup>. والجمال الخلقي. فهو العبد الشاب الصالح في مواقفه المتنوعة الداعي إلى ربه حتى وهو في سجنه ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>٥</sup>. وهو الشاب الصابر والممتنع عن المعصية مهما كان الاغراء: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>٦</sup>. وتبقى شخصيته ثابتة منسجمة حتى بعد أن صار حاكماً قوياً ليقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾<sup>٧</sup>.

### وسائل الإسلام التربوية لتأكيد هذه الصورة

وقد استخدمت النصوص الإسلامية شتى الوسائل لتأكيد الحقيقة الآتفة ومنها مايلي:

اولاً: التوجيه المباشر في النصوص حيث يتم حث الشباب على تاصيل العقيدة في النفس، وربط العواطف بالعقيدة وبالتالي الانطلاق في السلوك من هذين المنبعين (العقيدة والعاطفة). وهذا ما نلاحظه في تعليقات لقمان لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ

١. بحار الانوار: ج ١، ص ٣٢.

٢. بحار الانوار: ج ٤٣، ص ٤٦.

٣. رواه النسائي وابن ماجه.

٤. يوسف: ٣١.

٥. يوسف: ٣٩.

٦. يوسف: ٢٣.

٧. يوسف: ١٠١.

لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ \* وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ \* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* يَا بَنِي إِهْرَاءَ إِنَّ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ \* يَا بَنِي أَيْمَنِ الصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ \* وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ \*<sup>١</sup>

وفي وصية أمير المؤمنين لولده الحسن بن علي عليه السلام، وهي من أروع الوصايا: حيث تعرض فيها الإمام من جملة ما تعرض إلى قضايا كثيرة وهذه مقاطع من الوصية:

(فإني أوصيك بتقوى الله - أي بني - ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به).

(احي قلبك بالموعظة، وامته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذللّه بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا).

(فاصلح ميثاوك ولا تبع آخرتك بدنياك).

(وامر بالمعروف تكن من اهله وانكر المنكر بيدك ولسانك).

(واجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وانت مقبل العمر ومقبل الدهر، ذونية سليمة، ونفس صافية).

(يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك).

فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها).

ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم)<sup>٢</sup>.

١. لقمان: ١٣ - ١٩.

٢. نهج البلاغة من ص ٣٩١، إلى ص ٤٠٦.

ثانياً: التأكيد على قيمة التحلي بهذه الصفات فقد ذكرت النصوص نتائج رائعة لذلك:

ومنها قوله ﷺ: إن الله يظل الشاب الناشئ في عبادة الله بظله<sup>١</sup>.

وقوله ﷺ: إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله تعالى<sup>٢</sup>.

وقال الإمام الباقر عليه السلام «كان أبي زين العابدين عليه السلام اذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم ادناهم اليه وقال: مرحباً بكم انتم ودائع العلم ويوشك إذ أنتم صغار قوم أن تكونوا كبار آخرين»<sup>٣</sup>.

ثالثاً: تقديم النماذج السامية لذلك من خلال الانبياء وقد اكدت بعض النصوص أن

الانبياء بعثوا في مرحلة الشباب من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>٤</sup>.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾<sup>٥</sup>.

وعنه ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا شاباً»<sup>٦</sup>.

وعنه ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب، ولا أوتي علم عالماً إلا وهو شاب»<sup>٧</sup>.

وعنه ﷺ: يا بني عبد المطلب: «اني والله ما اعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما

جئتمكم به اني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة»<sup>٨</sup>.

وما أكثر السلوكات النموذجية للانبياء عليهم السلام فهذا الفتى ابراهيم عليه السلام يقول عنه القرآن:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ

لَهَا عَاكِفُونَ \* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ \* قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>٩</sup>.

١. مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٥.

٢. كنز العمال، ج ١٥، ص ٧٧٦.

٣. الدر النظيم، ص ٥٨٧.

٤. يوسف: ٢٢.

٥. الانبياء: ٦٠.

٦. كنز العمال، ج ١، ص ٤٧٥.

٧. الفردوس، ج ٤، ص ٨٢.

٨. الامالي للطوسي، ص ٥٨٣.

٩. الانبياء: ٥١ - ٥٤.

وابراهيم نموذج الموحد الواله الصابر الثابت على الاخلاص المضحي المتبرئ من الشرك العائد بالله الأواه الحليم المنيب. وهذا اسماعيل عليه السلام الشاب المؤمن الذي يعلن أنه إن صبر على الفداء فذلك بامر الله: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>١</sup>. وهذا يوسف عليه السلام يقول عنه تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وهذا موسى عليه السلام لا تغره القوة بل يصنع الخير ويعلن لله فقره: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾<sup>٣</sup>. وهؤلاء الفتية من اصحاب الكهف يرفضون مجتمعهم الكافر ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى﴾<sup>٤</sup>.

واروع اسوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الامين حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>٥</sup>. وقد روي عنه قوله: «انا الفتى، ابن الفتى، اخو الفتى»<sup>٦</sup>.

وقد جمع صلى الله عليه وسلم كل الصفات الحميدة حتى قال فيه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>٧</sup>. رابعاً: ومن الاساليب التأكيد على مسؤولية الشاب الخاصة عن شبابه: فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله:

إن العبد لا تزول قدماه يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما افناه، وعن شبابه فيما ابلاه<sup>٨</sup>.

١. الصافات: ١٠٢.

٢. يوسف: ٢٤.

٣. القصص: ٢٤.

٤. الكهف: ١٣.

٥. الاحزاب: ٢١.

٦. معاني الاخبار: ص ١١٩.

٧. القلم: ٤.

٨. رواه الترمذي باب القيامة وراجع تاريخ يعقوبي، ص ٥٩ وغيره.

وعن الإمام علي قوله: «من لم يجهد نفسه في صغره لم ينبل في كبره»<sup>١</sup>.  
خامساً: وقد قلد رسول الله ﷺ بعض الشباب مناصب عليا تأكيداً على فضل اصحابها  
الشبان ومنهم:

- ١- مصعب بن عمير حيث بعثه - وكان فتىً حدثاً - ممثلاً عنه إلى المدينة قبل الهجرة  
ليعلمهم القرآن. وهو اول من جمع الجمعة في المدينة<sup>٢</sup>.
  - ٢- عتاب بن أسيد وياه مكة بعد الفتح في حنين وكان عمره ٢١ عاماً<sup>٣</sup>.
  - ٣- أسامة بن زيد وياه قيادة جيش عظيم لحرب الروم وفيه المهاجرون والأنصار وكان  
عمره ١٨ عاماً.
  - ٤- علي بن أبي طالب عليه السلام وقد استخلفه على المدينة حين خرج في تبوك قائلاً له: إلا  
ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى<sup>٤</sup>.
  - ٥- معاذ بن جبل جعله عليه السلام في عام الفتح معلماً للفقهاء والسنن<sup>٥</sup>.
- سادساً: نفّرت النصوص من الشاب المنحرف كما في قضية موسى والعبد الصالح الذي  
قضى على فتى يضل ابويه الصالحين<sup>٦</sup>.
- سابعاً: كما حث المجتمع والابوين بشدة على ابتغاء الولد الصالح وتربيته ومساعدته على  
النشأة الصالحة، وعدم دفعه للعقوق.
- فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لعن الله والدين حملاً ولدتهما على عقوقها»<sup>٧</sup>.

١. غرر الحكم، ح ٨٢٧٢.

٢. بحار الانوار، ج ١، ص ٤٠٥، واسد الغابة، ج ٤، ص ٣٦٩.

٣. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٢٠.

٤. المراجعات، ص ١١٧، وهو حديث مشهور اخرجه البخاري وغيره.

٥. السيرة الحلبية ج ٣، ص ١٢٠.

٦. الكهف: ٨٠.

٧. شباب قريش ص ١.

وعنه عليه السلام : « اوصيكم بالشبان خيراً فإنهم ارق افئدة»<sup>١</sup>.  
 ثامناً: دعا الإسلام الشاب إلى اختيار الاصحاب المتخلقين بالخلق الحسن واجتناب  
 المنحرفين:  
 فهذا علي بن الحسين عليه السلام يقول لبعض بنيه: «اياك ومصاحبة الكذاب فإنه بمنزلة السراب  
 يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، والفاسق فإنه بايعك بأكلة أو أقل من ذلك، والبخيل  
 فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، والاحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، والقاطع  
 لرحمه فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله»<sup>٢</sup>.  
 وهكذا يعمل الإسلام على صناعة جيل شاب صالح، يحمل الأمانة الالهية إلى من بعده،  
 ويحقق مقتضيات الخلافة بكل قوة وصلابة.

---

١. الوسائل ج ٥ ص ١١٥.

٢. تحف العقول ص ٢٧٩.

(٣)

## الترابط في الإسلام والأمة

نحاول في ما يلي التدرج في عرض الترابط على النحو التالي:

أ- الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام.

ب- الترابط بين مكونات الإسلام.

ج- الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها.

### أ- الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام

إذا كان التعريف الأحدث للفلسفة يصورها على أنها (عملية تحديد موقف) فإن الإسلام يمنح الإنسان أروع فلسفة كونية، وأركز تحديد موقف له من الواقع. وإذا كانت فلسفة هيغل (المثالية جوهرًا والواقعية ظاهراً) تدّعي الترابط وتمحله على ضوء خلطها بين عالم الذهن وعالم الواقع، وإذا كانت الفلسفة الماركسية تدّعي لنفسها أنها اكتشفت (الترابط الكوني، في ظل قوانين المادية الديالكتيكية)، التي كانت تتصيد لها من التاريخ وبعض القوانين العلمية والآراء الفلسفية ما يقوم دليلاً على مدعاها - ولكنها تفشل فشلاً ذريعاً في ذلك وعلى كل الأصعدة -، نعم إذا كانت هاتان الفلسفتان تكشفان الترابط في جزء من الكون كشفاً مهزوزاً، فإن الإسلام في نظرتة العامة يحق له أن يعرض الترابط ليس بين كل أجزاء هذا الكون المادي المحسوس فحسب، بل بين كل أجزاء الكون (الطبيعة وما فوقها) ليكون الكون كله مرتبطاً تمام الارتباط فيما بينه في نفسه وبالله خالقه العظيم، وهذا التصور

الشامل ينسجم تمام الانسجام مع تطلعات الفطرة الإنسانية ومع المنطق الموحد الذي يثبته الإسلام وتهدي إليه الفطرة الإنسانية.

### بين الكون والله

يردد المسلم في مطلع كل أمر يقوم به، وفي مطلع كل سورة يتبرك بقراءتها عبارة جميلة رائعة المدلول هي عبارة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولئن كان متعلق الجار والمجرور فيها محذوفاً؛ فإنه يشكل تعبيراً حياً عن إطلاق المتعلق؛ وهو يعني أن كل شيء على الإطلاق قائم باسمه تعالى ومتعلق به ومرتب به ارتباطاً وثيقاً، بل وجود كل الكائنات لا يتجاوز كونه وجوداً تعلقياً، أي هو التعلق والارتباط بعينه، إذ هو لا شيء مع زوال الارتباط.. ولئن جاء الوصفان الرائعان ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلكي يعبراً عن إطار صدور كل الكائنات وانبثاقها منه وباسمه ضمن إطار الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء. وهذا الإطلاق في القدرة والرحمة والخلق والقيمومة تعرضه لنا آيات قرآنية كريمة منها؛ قوله تعالى:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ \* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمُرْعَى \* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾<sup>١</sup> ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>٢</sup> ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>٣</sup> ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ \* أَوْ يَزُوْجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْبًا﴾<sup>٤</sup>.

١. الأعلى: ١-٥.

٢. الاعراف: ٥٤.

٣. آل عمران: ٢٦، ٢٧.

٤. الشورى: ٤٩، ٥٠.



### الترابط بين عالم الغيب وعالم الشهادة

إن الإسلام ركّز في خلد المسلم هذا الترابط بأساليب مختلفة، فالمسلم يعتقد بأن القوانين المؤثرة في الكون لا تختص بالقوانين المادية أبداً. فالاستغفار والتوبة وصلة الرحم والصدقة واتباع الحق والإيمان كل ذلك مؤثر في عالم الطبيعة تمام التأثير. يقول هود عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾<sup>١</sup> وبنفس هذا المضمون يخاطب نوح قومه، وعلى هذا الأساس يقوم جزء واسع من التشريع الإسلامي.

ولا ننسى أن نشير إلى أن أعظم ترابط واقعي حياتي يندرج في هذا الإطار وهو الترابط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة إلى الحد الذي يعين الأول طبيعة الثاني تماماً.

### بين المخلوقات أنفسها

وعلى أساس من ذلك الارتباط القويم للمخلوقات بالله تعالى قام الارتباط التبعية بين الموجودات كلها... فهي كلها مسخرة بأمره. وهي كلها تسبّحه تعالى من موجودات شاعرة وغيرها.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾<sup>٣</sup>.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾<sup>٤</sup>.

والشيء الرائع في التصور الإسلامي لهذا الترابط هو هذا التسخير الكامل لصالح الإنسان باعتباره الموجود الأرواح والقابل لأن يكون خليفة الله في الأرض، وليكون الهدف الأسمى الذي سخرت له الموجودات لكي يواصل مسيرته نحو الكمال.

وهذه الحقيقة واضحة في الآيات التالية:

١. هود: ٥٢.

٢. الحديد: ١.

٣. الرعد: ١٣.

٤. الإسراء: ٤٤.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾<sup>٢</sup>.  
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ \* وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ  
 وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾<sup>٣</sup>.  
 ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا \* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا \* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا \* وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا \*  
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا \* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا \* وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا \* وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا \*  
 وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَجًا \* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا \* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾<sup>٤</sup>.

وعلى ضوء التسخير الطبيعي لصالح الإنسان تنقلب نظرتة للطبيعة من عدو ينبغي الصراع معه وانتزاع القوت منه انتزاعاً إلى عملية استئناس بها وقيام على إعمارها وإحيائها يؤطر ذلك حباً طبيعياً عبر عنه النبي ﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، وأشرف على المدينة فقال: (هذه طابة، وهذا جبل احد، يحبنا ونحبه)<sup>٥</sup>.

### بين أبناء الإنسانية

وهنا تقوم الروابط على أساس قويم من وحدة المنطلق، ووحدة الشعور الواعي، ووحدة الهدف. فالكل خلق الله، والكل من نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾<sup>٦</sup>.  
 والكل يمثلون الموجود المكرم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾<sup>٧</sup>.

١. لقمان: ٢٠.

٢. الجاثية: ١٣.

٣. إبراهيم: ٢٢، ٢٣.

٤. النبأ: ٦ - ١٦.

٥. سفينة البحار.

٦. النساء: ١.

٧. الإسراء: ٧٠.

وما كان هذا الاختلاف بين الطوائف الإنسانية إلا للتعارف:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾<sup>١</sup>.

فلا مسوغ لأيّ تعال عنصري لوني أو جنسي أو مكاني أو نسبي أو غير ذلك ما دامت

تلك الوحدة قائمة، بل المجال للتفاضل هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وهكذا تقوم وحدة إنسانية كبرى تؤسّسها هذه النظرة الأخوية الشاملة، وتعبر عنها آيات

كريمة منها:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وعلى هذا الأساس جاءت التعليقات السامية ومنها ما في هذه الآية المباركة:

﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>٣</sup>.

والآية المباركة: ﴿وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾<sup>٤</sup>.

وغير ذلك من الآيات.

ومن هنا يكتب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عامله على مصر الاشر النخعي قائلاً له:

(وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سبعا ضاريا

تغتנם أكلهم فإثمهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق...)<sup>٥</sup>.

## الروابط الداخلية

وإذا تجاوزنا الروابط العامة بين أبناء الإنسانية نصل إلى مراحل أخرى للترابط هي

١. الحجرات: ١٣.

٢. الممتحنة: ٨.

٣. المائدة: ٣٢.

٤. المائدة: ٨.

٥. نهج البلاغة: ٤٢٧.

أضيق من سابقها: كالترابط الوثيق القائم بين الرجل والمرأة من حيث وحدة الأصل، ومن حيث وحدة القدر عند الله، وتكافؤ الفرص في العمل في سبيل التكامل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾<sup>١</sup> ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾<sup>٢</sup> ﴿أَيُّ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾<sup>٣</sup> وكذلك الترابط القائم بين الآباء والأبناء وغير ذلك.

أما الترابط بين أبناء العقيدة الواحدة فهو ترابط وثيق سنتحدث عنه في القسم الثالث من هذا البحث إن شاء الله.

### ب- الترابط بين مكونات الإسلام

استعرضنا مظاهر الترابط العام في تصور الإنسان المسلم بين موجودات الكون وها نحن هنا نتعرض باختصار إلى الترابط الداخلي في الإسلام (أي بين جوانبه المختلفة) وأن من يدرس الإسلام بعمق ثم يلقي نظرة تجريدية عليه يجد أن الإسلام تصميم هندسي متكامل، يرتبط كل جزء فيه بالجزء الآخر، ويحتل كل عضو فيه محله الطبيعي، ولا يستطيع أي جانب أن يؤدي دوره المطلوب على الوجه الأكمل إلا في ظل الصيغة العامة للكُلِّ. وتشكل العقيدة الأساس الرصين الذي يشع روحاً في كلِّ الأبنية الفوقية، والتمهيد اللازم للأرضية الصالحة تماماً للأشكال العلوية. ذلك أن العقيدة الإسلامية تبني عليها طائفة كبيرة من التصورات الإسلامية عن مختلف الشؤون الحياتية تدعى (المفاهيم الإسلامية) وهي بدورها تشكل أساساً لمجموعة من العواطف الإسلامية.

ويمثل الشهيد آية الله الصدر لهذا الترابط فيقول:

(ففي ظل عقيدة التوحيد ينشأ المفهوم الإسلامي عن التقوى، القائل: إن التقوى هي

١. النساء: ١.

٢. الروم: ٢١.

٣. آل عمران: ١٩٥.

ميزان الكرامة والتفاضل بين أفراد الإنسان، وتتولد عن هذا المفهوم عاطفة إسلامية بالنسبة للفقير والمتقوى والمتقين وهي عاطفة الإجلال والاحترام<sup>١</sup> وكذلك يمكننا أن نقيم مختلف فروع الأخلاق الإسلامية على أسس تصورية تنشأ في ظل العقيدة الإسلامية. فالتضحية مثلاً يمكن أن تبنى على أساس مفهوم الجزاء الأوفى المبني على عقيدة المعاد وهكذا. والعقيدة والمفاهيم والأخلاق تشكل كلها الأرضية الصالحة للمذهب الاجتماعي الإسلامي في الحياة.

### أمثلة من الترابط بين المكونات

وها نحن نذكر بعض أوجه الترابط - على نحو الإجمال -.

- ١- الارتباط بين النظام السياسي ودور الحاكم الشرعي (الإمام المعصوم أو الولي الفقيه)، وبين التشريع الاقتصادي، وذلك لكي يقوم بملء منطقة الفراغ المتروكة له على ضوء الظروف المتطورة ووفق القواعد العامة، وكذلك الارتباط بينهما وبين النظام الجنائي والسياسة المالية للدولة.
- ٢- ارتباط النظام الاقتصادي بمجموعة من العواطف التي يصوغها الإسلام في نظامه الأخلاقي: كعاطفة الأخوة العامة.
- ٣- ارتباط مختلف المذاهب الاجتماعية بالعقيدة الإسلامية وتأثيرها الكبير في تنفيذ تلك التشريعات والالتزام بها.
- ٤- ارتباط إلغاء الربا وأحكام الإسلام الأخرى في المضاربة والتكافل العام والتوازن الاجتماعي. وغير ذلك.

### ج- الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها

وانطلاقاً من واقعية الإسلام التي رأى فيها أن النظم المتعددة لن تستطيع أن تقود الإنسانية إلى هدفها الكمال المنشود، وأن التعدد الشعوري والتعدد في المقاييس لن يستطيعا مطلقاً أن

١. اقتصادنا: ٢٧١/١.

ينسجها مع الهدف الواحد الذي أراده الله للإنسان وإلا فالخروب متوقعة، والمصالح متحركة، ولا مخلص ولا مناص، وانعكاساً لذلك الترابط العام في التصور والتشريع، دعا الإسلام إلى تكوين الأمة المسلمة الواحدة التي يفترض فيها أن تضم كل الأرض وتوجه كل الأرض ﴿يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾<sup>١</sup>، فهي الأمة النموذجية قبل الانتصار الكامل، وهي واسطة العقد الاجتماعي، وهي الشاهد على كل الأمم، وبعد الانتصار هي الأمة المسلمة التي تعمل على أن تصل إلى أكمل الدرجات من خلال تطبيق تعاليم الإسلام الخالد.

وعلى هذا كان الترابط الحقيقي هو المقوم التالي من مقومات الأمة الإسلامية بعد الإيمان العميق النافذ إلى المشاعر. فإذا فقدت الأمة إيمانها النافذ؛ فقدت شخصيتها، وكذلك إذا فقدت ترابطها؛ فقدت شخصيتها المميزة لها والتي عملت في فترة التطبيق الإسلامي الأول على إذابة كل الفروق المصطنعة بين المسلمين، وشدّتهم إلى بعضهم حتى أعطتهم صفة الأخوة في الله تعالى، وهي أروع صفة تعبّر عن الشدّ القويّ في إطار الله، وكذلك أعطتهم صفة الأعضاء في جسد واحد من حيث اشتراك كل المكونات في القيام بالوظائف المطلوبة لتحقيق الهدف العام وذلك بتناسق وتخطيط دقيق.

### المظاهر العامة لتركيز هذا الارتباط في ذهنية الأمة

ويمكننا أن نلخص هذه المظاهر في خطوط عامة هي:

#### الترابط الشعوري

فقد عمل الإسلام - على الصعيدين النظري والعملي - على خلق ترابط إحساسي بين كل أفراد المسلمين بحيث يشعر كل مسلم بالأمم الآخرين من أبناء أمته، ويفرح لفرحهم، ويهتم لحل مشاكلهم ويعتبرها من مشاكله بالصميم. فعلى الصعيد النظري جاءت الروايات الكثيرة التي تؤكد على أن هذا الشعور هو شرط الإسلام الحقيقي، وأن الذي لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، وأن المسلم عليه أن يتفاعل شعورياً مع المسلمين: فيسلم على عباد

١. الأنفال: ٣٩.

الله الصالحين، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. إلى غير ذلك مما لا مجال لعرضه مفصلاً. هذا على الصعيد النظري، أما على الصعيد العملي فقد وجدنا الرسول الأعظم ﷺ، والقادة من أهل البيت الكرام عليهم السلام، والصحابة المنتجبين؛ يقدمون أروع الأمثلة على هذا الترابط الشعوري، وكل سيرة النبي ﷺ مصداق لذلك فلا نحتاج إلى عرض الأمثلة.

### الترابط عبر المقاييس الواحدة

وواضح أن المقياس عندما يتوحد فإنه يوحد ظروف تطبيقه، وما ضاعت الأمم وما تفرقت إلا لأنها اختلفت مقاييسها التي بها تتبين طريقها، وعليها تبني خطواتها... وإذا رجعنا إلى المقاييس المادية وجدناها مقاييس مفرقة بطبيعتها. فسواء أكان المقياس هو المصلحة المادية، أو التوفرات العنصرية، أو المؤهلات الطبقية وما إلى ذلك من مقاييس مادية فإن من الطبيعي أن تختلف المصالح الضيقة، أو المؤهلات العنصرية والطبقية وغير ذلك، وحينذاك فالنتائج هي الصراع الدموي العنيف والهلاك، أما لو رجعنا إلى مقياس الإسلام الثابت لوجدناه المقياس الوحيد الذي يستطيع أن ينفي كل ذلك وذلك هو رضا الله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>١</sup> نعم أكبر من كل مقياس، والحاكم على كل شيء وغيره، ورضا الله تعالى يكمن في اتباع شريعته الموحدة، والسير على الحق والعدل وفق تصورات الإسلام لهما.

والآن لتتصور الإنسانية وهي تضع هذا المقياس نصب عينها ثم لنلاحظ هذه المآسي التي نشاهدها اليوم. إن هذا المقياس كما ينظم تطبيق الإسلام وسيرة الأمة القانونية يحرك المناقبة العامة ويصبها في قالب منسجم مع ذلك التطبيق. وذلك ما يعبر عنه بـ(الحب في الله والبغض في الله).

وهكذا تقوم كل المقاييس في حياة الأمة المسلمة على ذلك المقياس مما يخلق ترابطاً تذوب عنده كل أنواع الترابط الكاذب سواء كانت تلك الأنواع روابط قومية أو عنصرية أو

مصلحية أو جغرافية أو غير ذلك... ومن العجب العجاب بل من المنطقي إلى حد بعيد أننا لاحظنا أن تلك المقاييس خلقت في المجتمع الإنساني اليوم نزعة اللائتماء إلى أي مقياس اللهم إلا إلى مقياس (اللائتماء واللائتماء) فقط.

### الترابط عبر العبادات

العبادات مظهر جميل أخذ من مظاهر الارتباط بين الله والعبد. وبين العباد أنفسهم. فهي إلى جنب ربطها الفرد والمجتمع بالله تعالى، وإلى جنب تأثيراتها النفسية الكبرى؛ تؤثر الارتباط والشعور بالوحدة.

فالمسلم أينما كان يقف في أوقات واحدة نسبياً، وفي جماعة حسية تعبر عن المجمع العالمي للمسلمين وتجسده، ويقوم بأعمال تربّي فيه الخشوع والخضوع والعقيدة النافذة والترابط بعدها، ويتجه مع إخوته جميعاً إلى قبلة واحدة، ويردد نشيداً مقدساً واحداً يسبح به الله تعالى ويحمده، إلى غير ذلك. وهكذا يبدو لنا نوع رائع من أنواع الترابط، بل أروع نموذج تتصوره الإنسانية للترابط في عملية الحج الكبرى بما لا يحتاج إلى كثير شرح وتفصيل، إلا أننا نشير هنا إلى وحدة المركز الذي يطوف حوله الحجاج كتعبير إيجابي عن لزوم جعل هذا المركز مطاف الحياة كلها، والعمل على أن يكون مطاف الأرض كلها بما يجسده من تعبيرات مقدسة؛ في حين يقف المسلمون في مكان آخر ليرموا رمز الشرّ المتمثل في الجمرات المتعددة إشارة إلى خطوات الشيطان وسبله المختلفة.

### الترابط عبر الحقوق المشتركة

زخرت كتب الروايات بالأخبار الكثيرة المتواترة إمّا لفظاً وإمّا معنىً بحقوق المسلم على المسلم، وهي لو روعيت تمام المراعاة لعادت على المسلمين بروابط قوية لا يمكن أن يفصمها فاصم.

وقد ذكر صاحب كتاب (الأخلاق) السيد عبدالله شبر رحمته الله هذه الحقوق مستمداً إياها من النصوص الشرعية وهي:

١- أن يجب للكافة ما يجب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.



- ٢- أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بقول أو فعل. قال ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).
- ٣- أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه.
- ٤- أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض.
- ٥- أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه أكثر من ثلاثة أيام مهما غضب عليه.
- قال ﷺ: (لا يجل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهم الذي يبدأ بالسلام).
- ٦- أن يحسن إلى كل من قدر منهم إن استطاع.
- ٧- أن لا يدخل على أحد إلا بإذنه.
- ٨- أن يخالط الجميع بخلق حسن، ويعاملهم بحسن طريقته.
- ٩- أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان. قال ﷺ: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا).
- ١٠- أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً.
- ١١- أن لا يعد مسلماً بوعده إلا ويفي به.
- وهكذا يصل بها إلى ستة وعشرين حقاً وهي في الحقيقة بعض الحقوق. ترى لو أن المسلمين جميعاً طبّقوا هذه الحقوق فهل يصلون إلى ما هم عليه اليوم؟!

### الترابط في المجال الاقتصادي

والدارس للاقتصاد الإسلامي المذهبي يجد بوضوح أن هذا المذهب يشكل دعامة كبرى من دعائم الترابط العام بين كل القطاعات المسلمة. وها نحن نشير إلى ظاهرتين في هذا المجال كمثال يوضح ما نقول.

#### الف - ظاهرة الملكية العامة

فالاقتصاد الرأسمالي إذا كان يعتبر الملكية الخاصة هي الأصل والملكية العامة الاستثناء والاقتصاد الماركسي يعتبر الأمر على العكس؛ فإن المذهب الاقتصادي الإسلامي يتميز بأنه يقول بالملكية المزوجة (العامة والخاصة) ولكل منهما مساحتها الخاصة بها، وملكية الأمة

هي جزء مهم من الملكية العامة في الإسلام حيث أن الأرض التي تفتح عنوة بالجهاد تكون ملكاً للمسلمين جميعاً على الرأي الأشهر - من هو حاضر ومن سيولد بعد - بدون أن تورث فالمسلمون على هذا الأساس شركاء في ملكية الكثير من الأراضي، وإليهم وإلى مصالحهم يعود ريع تلك الأرض.

### ب - ظاهرة التكافل الاجتماعي

وهي المبدأ الذي يفرض فيه الإسلام على المسلمين فرضاً كفائياً كفالة بعضهم لبعض. ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (أَيُّهَا مَنْ مِنْكُمْ مَنْعَ مَوْناً شَيْئاً مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ - مَنْ عِنْدَهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ - أَقَامَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْوِداً وَجْهَهُ مَزْرَقَةً عَيْنَاهُ، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَيَقَالُ هَذَا الْخَائِنُ الَّذِي خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ). هذا وأن هذه الروح لتشعُّ في كل جوانب التشريعات الاجتماعية الأخرى في الإسلام.

### الترابط عبر المسؤولية المتبادلة لتطبيق أحكام الله تعالى

ونعني بذلك مضمون ما ورد من أحاديث تؤكد على عاملي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأن بهما قوام الأمة وبقائها، وكذلك الأحاديث المباركة التي تؤكد على عموم المسؤولية الاجتماعية من قبيل: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) وغير ذلك فإنها تجعل كل مسلم على أي أرض كان، وبأي مستوى كان، مسؤولاً عن كل ما يقع من انحراف وكل توان في المسيرة الإسلامية الصاعدة، فعليه أن يواصل الدفع من جهة، ويرفع العقبات التي أمامها من جهة أخرى.

وفي ختام هذا الفصل لا بد لنا من أن ننصت إلى كلام الله الحكيم وهو يخاطب المسلمين جميعاً بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويمنحهم التصور المطلوب عبر لفظ واحد للجميع فيقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾<sup>١</sup> و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ

تُقَاتِهِ ﴿١﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ٢ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ ٣ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ ٤. و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ٥ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ٦ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ ٧ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ٨ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ٩ وهكذا يصف القرآن الأمة المسلمة بالصفات العامة: فهي الأمة الخليفة، والوسط، والشاهدة، والمسلمة لله تعالى، والشديدة على الكفار، والرحيمة فيما بينها، والكريمة غير المهانة، والمنفقة، والمتقية، وغير المتشبهة بالكفار، والصابرة المرابطة القائمة بالقسط، والمعادية للكفار، والمقيمة لشعائر الله، والمجتنبه للخمر والميسر، وغير الخائنة، والراحة الساجدة، والعبادة ربها الذاكرة له، وهكذا تتوالى هذه الأوصاف لتحدد معالم هذه الأمة، وتنتهي بها إلى موقف موحد تماماً، وتجعلها ﴿خَيْرَ بَرِيَّةٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ١٠.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ١١.

١. آل عمران: ١٠٢.

٢. آل عمران: ١٥٦.

٣. آل عمران: ٢٠٠.

٤. النساء: ٤٤.

٥. المائدة: ٢.

٦. المائدة: ٩٠.

٧. الأنفال: ٢٧.

٨. الحج: ٧٧.

٩. الأعراف: ١٥٨.

١٠. الأعراف: ١٥٨.

١١. سبأ: ٢٨.

ولهذا نجده ﷺ قد دعا العالم جميعاً إلى الإسلام، وأرسل رسائله إلى زعماء الدول المعروفة آنذاك، داعياً إليهم إليه، لا بل أعلن عالمية رسالته وهي ما تزال مستضعفة في مكة، حيث جاءت الآيات القرآنية:

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ \* وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>١</sup>.

لتؤكد هذه الحقيقة في المراحل الأولى من الدعوة. وقد ذكر الرسول الاعظم ﷺ مضمون ذلك، في بعض رسائله وهي التي أرسلها إلى (خسرو برونيز) كسرى، حيث جاء فيها:  
(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، ويشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ادعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إنم المجوس).  
ومن نفس هذا المنطلق بشر الأنبياء باليوم الموعود، حيث يعم العدل، ويكون الدين كله لله، وحيث يظهر المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

إن هذا التبشير بالدولة العالمية، منطلق من طبيعته العالمية بلاريب، على أن أية مراجعة لجوانب التشريعات الإسلامية توضح للإنسان - بما لامراء فيه - أن الإسلام مصمم ليكون دين الإنسانية ككل، ذلك لأنه لا ينطبع بطابع معين، ولا منطقة أو مساحة زمانية أو مكانية خاصة. كل هذا يكاد يكون من نافلة القول.

إلا أن الذي نريد أن نؤكد هنا: هو أن الإسلام بادعائه العالمية يصدق مع ذاته، في حين تكذب كل النظم الأخرى مع أسسها.

وماذا بعد؟

نعم كان المفروض بنا أن نكون كذلك ولكن ما هو الحال الآن؟

شعوب متفرقة، وفتن وحروب حدودية وإقليمية، وشعارات شعبية وقومية ضيقة،

وتخاذل سياسي مرعب، وانفصال رهيب عن الأهداف الكبرى، وانقسام في الولاءات وهكذا دواليك.

ولكن المخلصين للقضية لن ييأسوا من روح الله لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

انهم مطمئنون لنصر الله تعالى، ولقدرة أمتهم الإسلامية على تخطي العقبات والاستفادة من جديد من طاقاتها المعنوية والمادية، وتحقيق التلاحم الجماهيري الضاغظ على المسؤولين ليسيروا نحو تحقيق الوحدة المنشودة، ويمهدوا لغد قرآني أفضل.

والله الهادي إلى سواء السبيل



(٤)

## القرآن يربط الماضي بالحاضر والمستقبل عبر الفطرة

تمهيد:

إن كل متأمل للأسلوب القرآني يكتشف بوضوح أنه يعمل على تركيز وحدة المسيرة الإنسانية في ذهن أتباعه منطلقاً من وحدة المكنونة الفطرية لدى كل أبناء آدم ﷺ ووحدة القوانين الحاكمة على المسيرة هذه بما ينسجم مع المخزون بل الطينة الفطرية للإنسان ومع هذا الانسجام التكويني يأتي التشريع الإلهي منسجماً تماماً مع هذا الخزين الإنساني ليحقق أمراً هو سرّ وصول الإنسان إلى مراقي الكمال دون أن يمتلك أي حيوان آخر هذه الخاصّة. ويمكننا أن نعبر عن هذا السرّ بعبارة «التعقل الحضاريّ المغير بإرادة حرّة تحت ظل إرشاد الهي تشريعيّ ومخزون فطريّ هاد إلى هدف الحلقة».

وجاء الأنبياء ليثيروا هذه المكنونات ويوجهوها الوجهة المطلوبة ويتحقق خط الخلافة الإنسانية تحت شهادة الأنبياء وهدايتهم.

وهكذا نجد الإمام علياً عليه السلام يعبر عن هذا الانسجام بتعبير جميل فيقول: «فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسيّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»<sup>١</sup>

وبهذا تتلاحم المفاهيم في ذهنية الإنسان والمجتمع القرآني: (التكامل المعنوي) (الخلافة الإنسانية للكامل المطلق) (الشهادة المعصومة) (مكنونات الفطرة التي تمنح خالقها ميثاق

١. الخطبة الأولى من نهج البلاغة.

العبودية) (الهداية التشريعية) و(الكدح للتغيير الحضاري التكاملي) و(اللقاء الموعود) و(العودة الحتمية إلى الله).

انها مفاهيم تعني وحدة المنطلق ووحدة هدف الخلقة، ووحدة المسيرة وقوانينها ووحدة العبودية «ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون».

هذه الوحدة هي التي تربط ماضي الإنسان ومنطقه بحاضره الذي يعيشه وبمستقبله الذي يرنو اليه.

اما المنطلق: فتعبر عنه سورة البقرة عند حديثها عن خلق الإنسان وعبوره تجربة الجنة ونزوله هو وعدوه الشيطان إلى الارض ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

واما المسير فيتجلى فيه الخطان، خط الهدى وخط الكفر؛ خط الخلافة وخط الإنسانية الباقية على عهدا الذي أعطته لله بفطرتها حين قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ وراحت تطبق شريعة يشرف عليها الشهداء، وهم الأنبياء وأوصياؤهم والعلماء الذين يحملون الأمانة من بعدهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِّيُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>١</sup>.

ويقف في قبال هذا الخط خط الكفر والضلالة والتجبر والطغيان وهو خط الشيطان.

والقرآن يحدثنا عن صراع الخطين المرير؛ فهذا عهد الناردة الطغاة في بلاد ما بين النهرين، يتجبر ويتكبر ليسقط بالنهاية على يد إبراهيم عليه السلام شيخ الأنبياء والموحدين، ويقوم بعده عهد الفراعنة ليسقط على يد موسى كليم الله عليه السلام وبعده يأتي عهد اليونانيين لينتهي على يد عيسى عليه السلام روح الله، ويقوم بعده عهد الرومان ليسقط على يدي حبيب الله محمد عليه السلام وأتباعه، وليبدأ عهد جديد من الصراع بين الحق والباطل، إلا أنه عصر ممتد لخلود الرسالة وسيتهي بغلبة الحق وهو وعد الهي لا يتخلف ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا

١. سورة المائدة: ٤٤.



الصَّالِحَاتِ لَيْسْتَ خَلْفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿١﴾ .  
وتملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً بظهور الإمام المهدي المنتظر عج القائد الذي يستثمر جهود البشرية الصالحة ويحقق عصر تجلي فن الله الخالد في خلق الفطرة وبذلك يتحقق المستقبل الموعود في الارض لتنتهي المسيرة بالعودة إلى الله.  
فلنركز قليلاً على هذا الفن الرائع:

### الفطرة فن الله وإبداعه الخالد

#### أصل الفطرة في الثقافة القرآنية

ورغم التباين الموجود بين مفاهيم «الفن في القرآن» و«الفن في ظل القرآن» و«الفن القرآني» أو «القرآن والفن» إلا أنها تلتقي في نقطة واحدة هي أن جميعها ارتباطاً وثيقاً بأصل الفطرة التي هي أساس «الإيمان الديني».  
إن «مبدأ الفطرة» الذي أشير إليه مراراً في القرآن الكريم وروايات المعصومين: يمثل أحد المواضيع الرئيسة والمعقدة لعلم الاجتماع، حسب وجهة نظر الإسلام؛ إذ يبقى تعلم الدين ومعارفه السامية والمتجذرة بدءاً من التوحيد والمعاد وانتهاءً بالأحكام والشرائع، وكذلك الوقوف على معارف كتاب الوحي وعجائبه وجمالياتها ناقصاً دون الغوص في مكونات الفطرة.

الفن الديني، أو بعبارة أفضل: البعد الفني وعلم جمال الروح الإنسانية له ارتباط وثيق مع «الفطرة» ويتم تعريفه في ظل الفطرة.

وفي علم الاجتماع الإسلامي لا يعتبر الإنسان، هذا الموجود المعقد، صفحة بيضاء لا كتابة فيها بحيث لا ترى فيها أبداً أي أثر من تجسيم وتصوير ليد الخلق الإلهية، وأن ماهيته بشكل عام تتبلور بعد إيجاده.

إنَّ الإنسان في الإسلام هو وجود حقيقي يمتلك مؤهلات وقدرات خاصة تمارس تمارس دورها في مسيرة تكامله، ولعامل الإرادة دور أساسي في تجسيد ذاته، وإن العوامل الدخيلة في هذا الوجود تناور في مساحة بين أعلى عليين وأسفل سافلين ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا<sup>١</sup>.

على أن نمو وتكامل وازدهار المؤهلات والمواهب الإنسانية رهن بالسير في ركاب الدين الإلهي؛ الحد الفاصل بين الإنسانية والحيوانية وعامل تسامي الإنسان وتسلقه مراتب الكمال والتسامي الوجودي.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾<sup>٢</sup>.

وتعد معرفة الفطرة والجوانب المتعلقة بها أمراً مفصلياً وضرورياً جداً في طي هذا المسير ومواكبته.

وعلى نحو الإجمال والعموم، فإن الجوانب المتعلقة بالفطرة يمكن تقسيمها إلى مجموعتين:

١- الإدراكات الفطرية.

٢- الميول الفطرية.

فالإدراكات الفطرية التي هي أساس العلم والفلسفة وكل أنواع المعرفة للعلوم هي عبارة عن البدييات الأولى كمبدأ عدم التناقض وما شابهه، وهو ما يتم بحثه في محله.

أما الميول الفطرية التي لها صلة أكبر ببحثنا، فهي تشمل الأمور التالية:

١- الميل نحو المعنوية وعبادة الله.

٢- الميل نحو العلم وطلب الحقيقة.

٣- الميل نحو الإحسان والفضائل الخلقية.

٤- الميل نحو الكمال والجمال والظرافة التي هي أساس «الفن» في الحياة والتأريخ البشري.

١. سورة الشمس: ٧-٨.

٢. سورة الروم: ٣٠.

من خلال الميول أعلاه، تتألف الحياة المعنوية للإنسان... فالعلم والأدب والدين والفضيلة والأخلاق والفن قد سجلت حضورها، وعلى أساسها بني صرح الحضارة الإنسانية.

### رسالة الأنبياء

من الجدير، الإشارة إلى أن أنبياء الله تعالى، وهم رواد الحياة المعنوية للناس، لم يبعثوا من أجل إيجاد هذه الخصال في نفس الإنسان، بل أن رسالتهم تمثلت في تربية وتعزيز وتحقيق مظاهر البعد السامي للوجود الإنساني والحؤول دون انزلاقه في هاوية الماديات والشهوات. لقد جسد القرآن الكريم، معجزة الرسول الخاتم محمد المصطفى ﷺ بأكمل صورة ممكنة، عناصر الفطرة الأربعة وكان نقطة التقاء «المعرفة والعبودية» و«العلم والحكمة» و«الأخلاق والفضيلة» و«الجمال والظرافة».

إن تعاليم هذا الكتاب تنسجم تماماً مع فطرة الإنسان وتلبي كافة احتياجاته الفطرية، ومنها تعطش الروح الإنسانية للفن والأبعاد الجميلة.

وفضلاً عن أن القرآن الكريم تبلورت في ظلّه كثير من الفنون وكان الأصل في ظهور أو تكامل التلاوة والتجويد، والخط، والتجليد، والتذهيب، والتصوير، وخط الرسومات، والمعرّقات، وأنه ترك بصماته وتأثيره على فروع فنية أخرى كفن العمارة، وعمل الكتاب المزخرفة بالكاشي، والرسم... فإنه بحد ذاته مخلوق فني إعجازي مدّش تجلّي في صيغة (الكلام) و(البيان) وعرض المعاني السامية والمتكاملة من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ومن الله الرحمن إلى الناس.

إن بيان القرآن الكريم بيان فني وجميل ذو بناء هندسي خاص... من مختلف أنواع الصيغ الأدبية من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة، والكناية، والإيهام... وكذلك الأمثال والحكم، والقصص الجميلة، والموعظة والحكمة، والتأريخ، والفلسفة، والبحث والمناظرة والاستدلالات العقلية والفطرية مما جعل الإنسان يندفع إلى التدبّر والتفكّر، وحرّك فيه قدرة التخيل، وصوّره له الحقائق العلمية والعرفانية بشكل فني حتى وكأن الحقائق المعنوية السامية باتت مجسدة أمام عين القارئ والسماع، فأخذت منه مأخذها وصار متحيراً في مقابل تلك المناظر.

إن تركيب الآيات والكلمات، وكون الحروف والحركات تخضع لقاعدة التفخيم

والترقيق، وتناسب الجمل والسياق النغمي، إلى جانب تنوع وكثرة الاساليب المثيرة للعجب وكذلك التحليق المدهش في الآفاق والغور في مكنونات الأنفاق الإنسانية يعدُّ من أوجه جمالية هندسة الآيات والسور.

إنَّ استخدام الأوزان الشعرية في جمل مثورة، وموسيقية الآيات والبيان النغمي في صياغة الجمل القرآنية، التي تهتُّ لصوتها أوتار قلب كلِّ إنسان صاحب ذوق وناشد للحقيقة وتفتح قريحته بإطلاق كلمات الإشادة والإطراء، تفصح عن استخدام مختلف أنواع الفنون بأجمل صورها في خلقه هذا الكتاب السماوي.

إنَّ هذه الموسيقى والنغمة المرتبطة والمتناسقة تماماً مع مضمون وفحوى الآيات الشريفة، لها تأثير سحري على روح ونفس الإنسان.

حتى أنَّها تروّض أحياناً القلوب القاسية وتجذبها للكتاب العزيز، وهذا يعدُّ بحد ذاته أحد أسس تحدي القرآن الكريم.

### الوليد بن المغيرة والجادبية السحرية للقرآن الكريم

يتم الكشف عن هذه الحقيقة في سورة المدثر ببيان إلهي جميل وشاعري من على لسان الوليد بن المغيرة.. هذا المدعو ابن المغيرة وهو أحد أعداء الإسلام والرسول الأكرمؐ، حينما سمع شيئاً من القرآن الكريم في أيام الوحي الأولى تأثر جداً بجادبية القرآن الكريم إلى الحد الذي اضطر رغم أنفه للإعتراف بعظمته.

لكن الكبر والعناد جعله يسمي تلك الآيات الجذابة بالسحر. ولذا فالله تعالى فضحه قائلاً:  
﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ \* فَفَتَلَّ كَيْفَ قَدَرَ \* ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ \* ثُمَّ نَظَرَ \* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ \* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ \* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ \* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾<sup>١</sup>.

إن عظم الآيات أعلاه يتجلى ببيانها السهل والشاعري والموزون والموسيقي، وفي قصر جملها وحزمها وتماسكها حتى أنَّ الفاضح والقامع يميظ اللثام عن الحالات النفسية للعدو المعاند والحاقد. وبعد أن يمهد للسامع الأمور من الناحية النفسية، ينقل له كلام المنكر

١. سورة المدثر: ١٨ - ٢٥.

للقرآن الكريم، ومن ثم يجيب بقاطعية وحزم:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ \* لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ \* لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ \* عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿١﴾.

لا شك أن من الأهمية بمكان الوقوف على حالات التصوير القرآنية الجميلة تجسيد ظواهر الخلقة الرائعة من أرض وسما، وكواكب وسيارات، وصحار وبحار، وجبال، وطيور، وحيوانات أخرى وباقي مظاهر الخلقة وكذلك المشاهد المهيبة ليوم القيامة من حوادث النفخ بالصور وما يحصل للأرض والسما وحتى الجنة والنار وجماليات الأولى وبلايا الثانية، والحوار بين أهل الجنة والنار... وكذلك القصص القرآنية وأسلوبها الفني في رسم الشخصيات الإيجابية والسلبية وأبطال القصص وإعداد القارئ نفسياً، وتحريض وإثارة العواطف والأحاسيس واصطحاب القارئ إلى استنتاجاتها الإنسانية والإلهية؛ لا شك أن مطالعة كل ذلك تحظى بأهمية بالغة.

والتناسق الرائع بين الإطار والمضمون وفحوى المواضيع القرآنية لا يقتصر على القصص وظواهر الدنيا والآخرة، بل إن القرآن الكريم اختار إطاراً خاصاً فيها يتعلق بالعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وبما يتناسب مع مضمون الآيات وفحوى المواضيع، مستخدماً منهاج وأساليب مختلفة بغية المزيد من التأثير.

### نماذج من البيان الفني في القرآن الكريم

إن حالات استخدام فن البلاغة والصياغات الأدبية المختلفة وتناسب أشكال الكلمات ومرامي مفاهيم القرآن المجيد أكثر من أن تعدّ وتحصى، ولا يسع هذا المقال البحث في التفاصيل إلا أننا مضطرون إلى أن نشير بصورة عابرة ومقتضبة إلى نماذج مختلفة في هذا المجال بغية المزيد من الفائدة للباحثين والراغبين بالمطالعة.

١- بيان فني في رسم الظواهر الطبيعية وجماليات الخلقة:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ \* وَهُوَ

الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ اثْنَيْنِ يُعْشَى  
 اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ  
 أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَى بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي  
 الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ \* وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ  
 بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ  
 وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ٢﴾.

٢- البيان القرآني الفني في رسم وتصوير أحداث يوم القيامة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ \* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ \* وَإِذَا الْجِبَالُ  
 سُيِّرَتْ \* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ \* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ \* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ \* وَإِذَا  
 النُّفُوسُ زُوِّجَتْ \* وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ \* وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ \* وَإِذَا  
 السَّمَاءُ كُشِطَتْ \* وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ \* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ \* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ ٣﴾.

وكذلك كافة آيات سورة الحاقة المباركة ومنها:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ \* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ \* يَا لَيْتَهَا  
 كَانَتْ الْقَاضِيَةَ \* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ \* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ \* خُدُوهُ فَعُلُوهُ \* ثُمَّ الْجَحِيمَ  
 صَلُّوهُ \* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ \* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٤﴾.

٣- حوار أهل الجنة والنار:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ \* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ \* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ \* عَنِ  
 الْمُجْرِمِينَ \* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ \* وَكُنَّا

١. سورة الرعد: ٢- ٤.

٢. سورة الرعد: ١٢- ١٣.

٣. سورة التكوين: ١- ١٤.

٤. سورة الحاقة: ٢٥- ٣٣.

نَحُوسٌ مَعَ الْخَائِضِينَ \* وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ \* حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿١﴾.

٤- وصف الجنة ونعمها:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا \* حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا \* وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا \* وَكَأْسًا دِهَاقًا \* لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا \* جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾<sup>٢</sup>.

٥- وصف جهنم وعذابها:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا \* لِلطَّاعِينَ مَأْبَا \* لِابْتِئَانٍ فِيهَا أَحْقَابًا \* لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا \* إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا \* جَزَاءً وَفَاقًا \* إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا \* وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا \* وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا \* فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾<sup>٣</sup>.

٦- البيان القرآني الفني في ذكر القسم:

﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنَّسِ \* الْجَوَارِ الْكُنَّسِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ \* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾<sup>٤</sup>.

٧- البيان القرآني الفني في ذكر الوقائع التاريخية والقصص القرآنية:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>٥</sup>.

وفي سورة نوح يسرد القرآن الكريم الحوار بين النبي نوح عليه السلام ورب العزة على النحو التالي:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا \* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا \* وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا \* ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا \* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا \* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا \* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا \* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ

١. سورة المدثر: ٣٨-٤٧.

٢. سورة النبأ: ٣١-٣٦.

٣. سورة النبأ: ٢١-٣٠.

٤. سورة التكويد: ١٥-١٩.

٥. سورة القصص: ٧.

وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا \* مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا \* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١﴾ .

وكذلك:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا \* وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا \* وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا \* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا \* مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا \* وَأَفْذَخُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا \* وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا \* إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا \* رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢﴾ .

٨- سائر الأمثال والحكم

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم دخلت الأدب العربي وفرضت لنفسها مكاناً في الحوار بين الناس بصفتها بسبب قصرها وجماليتها ومعناها الوافي وتعلقها بقضاياهم الاجتماعية وخلفياتهم وحياتهم اليومية وبصفتها حكماً وأمثالاً، منها:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣﴾ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٤﴾ .

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥﴾ .

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ .

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴿٧﴾ .

١. سورة نوح: ٥ - ١٤.

٢. سورة نوح: ٢١ - ٢٨.

٣. سورة البقرة: ١٧٩.

٤. سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

٥. سورة آل عمران: ٥٤.

٦. سورة الانشراح: ٦.

٧. سورة الإسراء: ٧.



﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>١</sup>.

٩- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾<sup>٢</sup>.

١٠- البيان الرائع في تشريع الأحكام

لا يقتصر التناسق بين الإطار وكوامن المواضيع القرآنية على قصص وأمثال وحكم القرآن الكريم، بل إنه اختار إطاراً خاصاً عند تطرُّقه للعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وذلك بما يتناسب مع مضامين الآيات الشريفة، واستخدم أساليب مختلفة بهدف المزيد من التأثير... من بين تلك المواضيع تشريع الصيام؛ فهذا الحكم الإلهي الداعي إلى تجنُّب الأكل والشرب وابتعاد الإنسان عن اللذائذ الأخرى كان يعدُّ عملاً شاقاً وغير مألوف بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يعيشون في أرض الحجاز الملتهبة بحرارة الشمس وأيام الصيف الطويلة، ولذلك عمد إلى استخدام أسلوب مغاير في التشريع حيث راعى الجوانب العاطفية والنفسية أثناء تبيينه للحكم ومن ثم تطرَّق إلى التسهيلات وحالات التخفيف التي من شأنها أن تخفِّض من شدته وحدته، وبما يجعل النفوس تركز إلى الحكم وتقتنع بالعمل به. هذا فضلاً عن الفوائد المادية والمعنوية التي ترتبت على الحكم. إن صيغته شجَّعت المسلمين ورغبتهم بقبول الصيام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

إنَّ النقاط التالية تكشف عن جانب من البيان الرائع الذي استخدمه القرآن الكريم في الآيتين أعلاه من أجل تحفيز المسلمين على الصيام:

١. سورة الرحمن: ٦٠.

٢. سورة الحديد: ٢٠.

٣. سورة البقرة: ١٨٣ - ١٨٤.

- ١- التركيز على إيمان الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبالتالي تمسكهم بمقوماته.
  - ٢- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ أي لا مجال للجدال بل هو أمر من قبل تعالى.
  - ٣- ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي لا تقلقوا، فلستم وحيدون والأمم التي من قبلكم كانت تصوم أيضاً.
  - ٤- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ إن فائدة الصيام تتمثل في التقوى والورع عن المحارم.
  - ٥- ﴿أَيَّامًا﴾؛ جاءت بصيغة النكرة؛ أي عدداً من الأيام.
  - ٦- ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ تأكيد على قلة عدد أيام الصيام.
  - ٧- ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ تسهيل وتخفيف عن المرضى والمسافرين.
  - ٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾؛ تخفيف عن مجموعة آخرين من الشيوخ والعجزة ومن يشق عليه الصيام.
  - ٩- ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ تبيين لفوائد الصيام، وأن هذا الحكم إنما هو لمصلحة الناس.
  - ١٠- وفي آخر هذه الآيات يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.
- إنَّ هذه الآيات وعبر بيانها الرائع، والمتَّسم بالمعالجة النفسية، قدمت فلسفة وفوائد الصيام، وأوضحت حالات التخفيف والتسهيل، ولفتت الأنظار للأهمية المعنوية لشهر رمضان المبارك ونزول القرآن الكريم فيه، استخدمت أفضل أسلوب للنفوذ إلى ضمير ووجدان المخاطب مشرعة بذلك حكم الصيام الإلهي.
- إنَّ الآيتين الآتيتي الذكر ما هما إلاَّ نموذجين من استثمار العلم والحكمة والفن والإبداع في البيان القرآني الذي يؤلَّف بمجموعه الخلقية الفنية للقرآن المجيد. وإنه لمن نافلة القول أن يستلهم كافة المسلمين من الكتاب العزيز أدوات الفن بفروعه المختلفة نحو المزيد من إشاعة الثقافة القرآنية ونشرها بين الأجيال وفي مختلف العصور وخاصة بين الجيل الواعد، ولا يغلقوا الطريق أمام التحديث والتجديد والإبداع.
- علينا أيضاً أن لا ننسى أن شهر رمضان المبارك الذي هو شهر ضيافة الله تعالى وأنَّ الحضور حول مائدة رحمته الواسعة هو انطلاقة للتحرُّك في مسير التكامل الإنساني الإلهي والمعنوي نحو التقرب لله تعالى والوصول إلى (فطرة الله).

إنَّ الخروج بنجاح من امتحان محاربة هوى النفس وتسويلات إبليس وكذلك بلوغ الدروة في التقوى والزهد حيث الغاية النهائية للصيام في عيد الفطر السعيد وفيه العودة المنتصرة للصائمين إلى الفطرة الإنسانية - الإلهية الطاهرة والأصيلة.

هذا الفوز العظيم يتكامل بإقامة صلاة العيد التي هي تجسيد لوحدة صف المسلمين وأخوتهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى \* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾<sup>١</sup>.

إذن: يؤصل القرآن في خلد الإنسان العودة إلى فطرته وما تقتضيه من النظر في الكون وتناسقه الكاشف بكل وضوح عن خالقه العظيم، فإذا غفل عن ذلك غفل وفسق عن فطرته نفسها. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>٢</sup>.

كما يؤصل أيضاً فيه حسَّ الفنِّ والإبداع الفني باعتبارهما ميلين فطريين لينطلق الإنسان متكاملًا مجددًا - وهي خاصية لا يتمتع بها غيره من الحيوانات - عاملاً على إعمار الأرض وتحقيق مقتضيات خلافته لله سائراً تحت ظل الله يقوده الأنبياء مرحلة مرحلة شاهدين عليه في سفينة الحياة. وكأنَّ الآية التي تتحدَّث عن سفينة نوح تتحدَّث عن سفينة التاريخ كله إذ تقول: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>٣</sup>.

وقد قلت في تفسيري الذي اشتركت في كتابته مع سماحة الشيخ النعماني مايلي:  
وهذا المشهد يذكّرنا بالحياة الإنسانية الحضارية كلها؛ إذ تنطلق باسم الله، وتسرى فتتقدّم وتقف باسمه تعالى وبمقتضى غفرانه الدائم ورحمته الواسعة وحمه الكريم، إنها مسيرة تقودها النبوة باسم الله.

واضفت بعد تفسير الآية التالية لها قائلاً: وكأنَّ المشهد يكمل الهدف المطلوب: نبوة واعدة بالخير لا يتبّعها إلا قليل، وسفينة الحياة تقودها النبوة باسم الله، وعصيان وغرور وكفر ينتهي بأهله إلى الغرق والهلاك وهي عاقبة المكذّبين<sup>٤</sup>.

١. سورة الأعلى: ١٤ - ١٥.

٢. سورة الحشر: ١٩.

٣. سورة هود: ٤١.

٤. المختصر المفيد في تفسير كتاب الله المجيد ص ٢٢٦.

### الفطرة سر وحدة البشرية

والقرآن الكريم يؤكد حقيقة أن البشرية عاشت مرحلة الوحدة قبل بعث الأنبياء ﷺ، فيقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>١</sup>.

والظاهر أن الذي وحد البشرية قبل بعث الأنبياء هو عامل وحدة الفطرة الإنسانية لدى جميع أبناء آدم.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن سائلاً سأله عن البشر «أفضللاً كانوا قبل النبيين أم على هدى؟ فأجاب عليه السلام: لم يكونوا على هدى. كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله، ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم الله. أما تسمع بقول إبراهيم: لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين»<sup>٢</sup>.

فالفطرة كانت هي الموحدة في مرحلة البساطة الأولية وهي نفسها - كما يعبر الشهيد الصدر<sup>٣</sup> - أوجدت عبر الوعي التأملي والعملي الحالة الاجتماعية التي أدت بدورها سبباً في إثارة النزاع، نتيجة طغيان غريزة حب الذات الأصيلية في الإنسان في حالتها الطبيعية مما يتطلب وجود شريعة تنظم الحياة على أساس عادل حكيم منسجم مع الطبيعة الإنسانية التي لا يعلم ما يصلحها إلا خالقها.

وربما أمكننا أن نستوحي هنا أن منهج الأنبياء واحد وهو إرجاع البشرية إلى فطرتها إرجاعاً أعمق وبالتالي استرجاع الحالة الموحدة ولكن على أسس أقوى بتربية العناصر الفطرية وتعميقها لتمشي تحت هداية الوحي الإلهي نحو كمالها المنشود وتزيح من طريقها

١. البقرة: ٢١٣.

٢. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠٤.

٣. ومضات: نشر مؤسسة الإمام الشهيد، ص ٨٥.

كل عوامل الخلاف الممزق الناتج من الطغيان الذاتي ولن يتم ذلك إلا بعبادة الله وتطبيق منهجه الحقّ.

يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾<sup>١</sup>.

والحقيقة هي أن كل المآسي الإنسانية نتجت من حالة الطغيان هذه، وإن الأنبياء إنما جاؤوا لمحو كل مظاهر الطاغوت وإعادة البشرية إلى الحياة الفطرية الموحدة العابدة لله تعالى.



(٥)

## القيم والمصالح أساس التقارب بين الحضارات والأديان

لا شك أن هناك في العالم الإسلامي صحوة اسلامية شاملة وقد تجلّت بشكل أكثر وضوحاً في منتصف القرن الماضي، وقد رأينا بعض مظاهرها والتي قد تكون ايضاً عناصر مساعدة على اتساعها وتعميق جذورها، متمثلة في قيام المؤسسات الشمولية في اواخر الستينات كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في ايران، وهزيمة الاتحاد السوفيتي في افغانستان، وانتشار المطالبة بتطبيق الإسلام في شتى انحاء العالم الإسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الإسلامي، وانتشار العادات والظواهر الإسلامية خصوصاً بين الشباب وامثال ذلك.

وقد دفع هذا التحول الكبير بعض الدول العظمى كأمركا لتغيير استراتيجياتها، وبعض المفكرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية واسلوب التعامل بين الحضارات، كما دفع بعض ذوي النظريات المتطرفة إلى العودة إلى نظريات تقسيم العالم إلى متحضر ومتوحش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكانها، وأنه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الإنسانية.

وقد انجزت أعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال<sup>١</sup>.

وقد كانت المحاولات تنصب على عناصر ثلاثة في مجال تبين سبب الظاهرة، وهي:

---

١. من قبيل ما كتبه الكثير من الكتاب الاسلاميين كمحمد محمد حسين والعقاد، ومحمد حسنين هيكل، والمطهري، والسيد الصدر، والندوي، وكتاب غريون مثل جون اسبيزيتو وب. بيسكاتوري، وفرانسوا بورجا، وجيل كيبيل ور. ديكيميبيان، وشيرين هنتر، وابراهيم برايان وغيرهم.

١- مسألة انقسام المجتمعات الإسلامية إلى خطوط ثقافية ثورية أو رجعية وصراع هذه الخطوط.  
٢- مسألة سعي الغرب أو الحكومات الموالية له إلى تهميش العنصر الإسلامي والمظاهر الإسلامية.

٣- عمل المفكرين الإسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الإنساني وحقوق الإنسان لغرض إثارة الحماس في العالم الإسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الإسلامي الغربي إلى فريقين:

الأول: من يرون أن مجال التصالح بين الغرب والإسلام مغلق ونفقه مظلم، لأن السر يكمن في أن الإسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش أو ما يسمونه بالانسجام مع الحداثة أو التغريب. وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد<sup>١</sup>، أما نحن فيمكن أن نسميهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي يعنى على مخالفته تساهلهم في الأمر ويسميهم (الاعتذاريين) ويرى أن عملية الاحياء الإسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الإسلام والديمقراطية (أن المسألة ليست الديمقراطية بل الطبيعة الأصلية للإسلام)<sup>٢</sup>.

ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصور العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية. الثاني: يرى امكان التعايش نتيجة حيوية الإسلام وقدرة التجربة الإسلامية على التغيير والتكيف، كما يرى أن الانبعاث الإسلامي ناتج لا من قدرات الإسلام الذاتية بل من الحرمان الاقتصادي والاستلاب الاجتماعي والحرمان السياسي أيضاً وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى أيضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول:

(نحن نشهد الوجه الثالث لعملية ازالة الاستعمار. فالوجه الاول كان سياسياً - حركات الاستقلال والثاني اقتصادياً - تأمين قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر أما

١. مستقبل الإسلام والغرب صدام حضارات ام تعايش سلمى: ص ٩٦.

٢. الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢.



الوجه الأخير فهو ثقافي<sup>١</sup>. ويدعو هؤلاء إلى سياسة التعامل بإيجابية وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم الثالثين<sup>٢</sup>، واسميهم ب(مفكري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكرين الإسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت انعى على الاولين بعدهم عن فهم طبيعة الإسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإني انكر على اتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الاصل، ومدى قدرة الإسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الإسلام.

فهذا برايان في سلسلة مقالاته عن الموضوع في (الايكونوميست) اللندنية عام ١٩٩٤ يبدو توافقياً داعياً الغرب إلى شي من الانحياز إلى المعنويات وداعياً العالم الإسلامي إلى الإيمان بكل القيم الغربية معتبراً أن العالم الإسلامي يمر اليوم في قرنه الخامس عشر الهجري بنفس الحالة التي كان الغرب يمر بها في قرنه الخامس عشر الميلادي، وكما كان الإسلام العامل الخارجي المؤثر آنذاك لحدوث النهضة فيجب أن يكون الغرب هو العامل الخارجي المؤثر في نهضة العالم الإسلامي اليوم.

وكذا نجد شيرين هانتر فهي تدعو الغرب إلى شيء من التدين وتدعو العالم الإسلامي إلى العلمانية ليتم حل المشكلة<sup>٣</sup>.

وكأن الأمر يدور بين حالتين فيما أن يتنازل الإسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليائسون والتوافقيون، أو يوصف بأنه العدو الحضاري على طول المدى للغرب. ولنصور هذه الثنائية الحدّية بشكل آخر، فإما أن يكون معيار الصراع القيم فلا تلاقى في البين، أو يكون لمصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

وهنا أود أن ابدي بعض الملاحظات:

١. Paris: Editions La Decouverte .١٠٧ ،.١٩٩٥

٢. مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.

٣. مصدر سابق.

### الملاحظة الأولى:

إن هناك خلطاً واضحاً أحياناً بين الإسلام كمنظومة قيم والمسلمين كأمة تعتنق الإسلام، فالواقع التطبيقي للإسلام ولمسيرة الأمة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الإسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلاً اعتبار تصرف حاكم معين منطلقاً من الثقافة الإسلامية حتماً، خصوصاً وأن الحكم الإسلامي ابتلي بفترات استبداد وبعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون انفسهم، كما أن القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه بل أن محاولات التخلّص حتى من النّفس المسيحي معروفة.

إلا أننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن روح القيم الإسلامية هي التي تحرك التيار العام في العالم الإسلامي حتى لو افترضناه علمانياً، كما أن الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية. ولكنها (الإسلام والمسيحية) يبقيان مصونين عن أي انحراف في العالم (الإسلامي والغربي) لا يمت إلى قيمها بصلة.

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة أو في مجال التعايش في الغرب عنها في العالم الإسلامي حتى أن المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والأرمني الإيرانيين أو القبطي والمسلم المصريين.

ومن هنا نقول إن الحوار الإسلامي المسيحي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

### الملاحظة الثانية:

إننا لا نجد انفسنا محصورين في الزاوية الضيقة فيما أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع أو نلجأ إلى المصلحة فتُسحق القيم ويتم التعايش - والمفروض أن التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات - . أن هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الإسلامية الغربية وأكثر بطلاً على صعيد العلاقة الإسلامية المسيحية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الإسلام والغرب يمكنها أن يتفاهما عليها دون التنازل عن القيم. من أمثال (حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الارهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

اما المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية ففيها اتساع ملحوظ.

فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدر بثمن فإن الملاحظ للنصوص الإسلامية يجد كما كبيراً من النقل عن عيسى عليه السلام وامه الطاهرة نقلاً يوجه الحياة وينقيها. وكمثال على ذلك نجد الشيخ الكليني وقد توفي في اوائل القرن العاشر الميلادي في كتابه المعروف (الكافي) ١ ينقل نص مناجاة الله (عز وجل) لعيسى كأروع ما يكون حيث يبدو كما يعبر محمود ايوب (عبداً متواضعاً لله، لكنه في الوقت عينه ولي مقرب عند الله) ثم يعقب فيقول:

(من خلال مفهوم التجلي الإلهي هذا تلتقي صورتنا المسيح الإسلامية والمسيحية حول نقاط عدة: فالإسلام يؤكد أن في مقدور الإنسان، بل من واجبه أن يتقرب إلى الله والتقرب إلى الله يتضح جلياً في معراج النبي محمد صلى الله عليه وآله حيث وقف أمام الله مباشرة وصعود المسيح ليجلس عن يمين الله) ورغم وجود بعض النقاش في هذا النص إلا أنه يكشف عن تلاحم بين التراثين.

على أن هناك تلاقياً في مجالات كثيرة منها:

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الإيمان بالفطرة الإنسانية المبدعة.
- الإيمان بمنظومة أخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الإيمان بحقوق الإنسان.
- الإيمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.
- الإيمان بضرورة احياء الذكريات المصيرية.
- الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.

---

١. روضة الكافي، الجزء الثامن، ونقله عنه ابن شعبه الحراني في آخر كتاب تحف العقول. وتحدث عنه بالتفصيل البروفيسور محمود ايوب في كتابه دراسات في العلاقات المسيحية الاسلامية. ج١، ص٦٤.

- الإيمان بالحياة الإلهية المسجدية أو الكنسية.
- الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الإنسانية.
- الإيمان بمنظومة من العبادات والصلوات المزكية للنفس.
- وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على أن المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي هذا التعايش؛

إن التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصب، والانهيار الأخلاقي، واشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الارهاب بشتى أنواعه ومنه الارهاب الرسمي، ورفض ادعاء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية ويتسترون بالدين، وغيرها كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البناء.

### الملاحظة الثالثة:

إذا تتبعنا التحليلات والحلول والتصريحات الغربية الممتدة على خط الزمان وعلى مختلف المستويات نجد أن الهاجس الأكبر لدى الغرب هو هاجس تقديم الإسلام للبديل الحضاري المتميز ذي الطابع القيمي اللامنسجم مع القيم الغربية، والذي يحمل في ذاته عنصر البقاء والنمو المتواصل، والحفاظ على الذات، ومنع الآخر من الاستغلال. وبالتالي سقوط النموذج الغربي، وانهيار التفوق الحضاري للرجل المسيحي الاوربي الابيض. وهذا الهاجس ملاحظ في كلمات السياسيين كتشرشل، وديغول، وبرلسكوني وبوش وامثالهم وفي كلمات المؤرخين كتوينبي والكتّاب كهانتنتغن وفوكوياما وبرايان وغيرهم.

ومن هذا الهاجس الذي تعاضم في الثمانينات واولئ التسعينات من القرن الماضي انطلقت فكرة الاستراتيجية الامريكية الجديدة عام ٩٧ بل من هذا الهاجس جاءت التصرفات الغربية الكبرى طوال القرون الاخيرة إن لم نمتد بها إلى مدى ابعد، ومنه ايضا جاءت العولمة التي تعني في الواقع غربنة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية أو أمركتها، وركوب موجة الاتجاه العالمي الطبيعي من الكثرة إلى الوحدة في مختلف المجالات.

هذا الهاجس الذي تعبر عنه الكاتبة (شيرين هانتر)<sup>١</sup> بالحسد أحياناً دفع الغرب لفرض واقع التخلف بشتى أنواعه، والتمزق، والعلمنة على العالم الإسلامي. أما التخلف فحدث عنه ولا حرج سواء أكان في المجال العلمي، أو الاقتصادي أو العسكري أو الثقافي أو الاجتماعي. وواضح أن الغرب لم يسمح إلا بالنزر القليل، من التقدم ابقاء على ادعاءات التحضير الإنساني.

ولا نريد هنا أن نقلل من تقصير المسلمين في هذا المجال ولكن من غير المشكوك فيه أن السعي الغربي كان على أشده في مجال ابقاء التخلف وتعميق الفوارق بين المستوى الغربي ومستوى العالم الإسلامي بأساليب متنوعة (لاحظ ما كتبه مؤسس الماسونية في إيران السير جراوزلي في رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٤٤).<sup>٢</sup>

وأما التمزق فإن للغرب دوره الأكبر في إيجاده إلى أقصى حد إما مباشرة أو من خلال المتأثرين بفكره. ويلاحظ من كلمات الكاتبة المذكورة مدى التوجس من التوحد حتى أنها تقر في نهاية كتابها أن الوحدة الإسلامية والكيان الإسلامي الموحد امر بعيد المنال في المستقبل بل أن مجرد ظهور شعور بالإسلام الشمولي، وظهور الدعوات الأولية للمنظمات الشمولية في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الماضي قلب الموازين الغربية فراحوا يحسبون له ألف حساب ومن حساباتهم تفرغ هذه المنظمات من محتواها وابقاؤها على مستوى الأشباع الشكلي والعاطفي لجوعه عارمة، ورغبة جماهيرية لاتقاوم للوحدة الإسلامية. ويتخذ التمزق هذا اشكاله المتنوعة فهناك تمزق على أساس القومية وآخر جغرافي وثالث لغوي ورابع في الولاء والخامس في المستوى المعيشي وهلم جرّاً، والكاتبة تعتبر أن عملية تمزق النسيج الاجتماعي للعالم الإسلامي شكلت احد عوامل الصحوة الإسلامية والدعوة إلى العودة للإسلام دون أن تتحدث عن الدور الذي لعبه الغرب في القضاء على الدولة العثمانية ونشر الفكر القومي الضيق، وإيجاد الخلافات بين الكيانات المصطنعة وامثال ذلك.

١. مستقبل الاسلام والغرب.

٢. الماسونية تأليف اسماعيل راينين نقلاً عن المجلة الملكية الآسيوية كانون الثاني ١٩٤٤.

واما العلمنة فهي الداء الوييل الذي ضرب عالمنا الإسلامي واستطاع إلى المدى الأكبر أن يسيطر على مجمل ارجائه. وقد شجع الغرب العلمنة بشتى الاساليب حتى أن الكاتبة - اعترفت بأنها فرضت فرضاً خلال الاعوام ١٩٢٠- ١٩٧٠ وأنها لم تحقق المقصود وذلك طبيعي لأن العالم الإسلامي مهما ابتعد عن الإسلام وأحكامه فإنه يبقى إسلامي النفس والنبرة والاحاسيس، فاذا ضممننا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخريوهي أن الإسلام دين الحياة ولايمكن فصله عن جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهي حقيقة يحاول الكتاب الغربيون بل وحتى السياسيون إلى اليوم انكارها وهذا ما وجدناه في حديث كولن باول وزير الخارجية الامريكية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٣م وهو ما يركز عليه العلمانيون في عالمنا الإسلامي بل يعملون على منحه ابعاداً فلسفية، ونحن نجد الكاتبة تعمل جاهدة على أن تجعله الحل السحري للصراع، فكل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي، والنظام السياسي غير واضح في الكتاب والسنة، والمجتمع الإسلامي يقبل العلمنة فلا حتمية للصراع، ولا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام، ومبدأ الجهاد يتنافى مع مبدأ نفي الاكراه في الدين، والاتجاه العالمي للإسلام يجب أن يتخلى عنه المسلمون، وحركة الاحياء الإسلامي التي ترفض العلمنة يجب أن يرفضها المسلمون لأنها هي سبب الصراع بين الحضارات، وإن على العالم الإسلامي أن يروّض قيمه وفق مصالحه، وأن مسألة انفصال الدين عن السياسة هي حقيقة واجهتها الثورة الإسلامية في ايران ولم تستطع التغلب عليها، وأن الافكار الاصلاحية النسبية للدكتور سروش تعني أن الإسلام يقبل الاصلاح (وبطبيعة الحال العلمنة)، وأن التوليفة بين الإسلام والغرب تتم من خلال علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية، وتعتبرها هي المرحلة المستقبلية.

أنا اذا ضممننا الحقيقتين الماضيتين:

(حقيقة أن النفس الإسلامي هو الطابع العام للعالم الإسلامي) و(حقيقة أن الإسلام

لايمكن فصله عن الحياة)،

عرفنا بوضوح بطلان كل المساعي لعلمنة العالم الإسلامي. وليت الكاتبة عمّقت قولها

السابق بأن النظام الديني مهما كان لايجتمع مع العلمنة وادركت بالتالي ماقلناه، اللهم إلا أن

نسلب الإسلام صفة النظام ونبقيه مجرد تعاليم أخلاقية سطحية وهذا ما لايمكن تحقيقه.

إن للإسلام رايه في كل السلوك الإنساني وأن كل من عرف الإسلام أدرك أنه ما من واقعة إلا والله فيها حكم أو فيها كتاب وسنة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام ١. ولا يمكن أن يكون الإنسان مسلماً حتى يلتزم بأحكام الإسلام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٢.

إن الصحوة الإسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة التي استهدفتها الغرب من استعمارها للعالم الإسلامي وهي (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته. فالإسلام دين التقدم، يدعو إلى العلم بشتى أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقق كل عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الامم، ولتكون في الطليعة الحضارية للناس والتخلف حالة غير طبيعية مطلقاً.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة والشعارات والعبادات واحدة، وثورات الأمة هي ملك كل الأمة وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة لابل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة.

اما الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالماً أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة - كما قلنا - فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأي تعريف جاءت، واية صفة اتخذت ايجابية أم سلبية أما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجرد خداع لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

إن الصحوة الإسلامية إذن تدعو للتفوق الإسلامي الحضاري فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأنى لهذه الروح أن تسود.

١. أصول الكافي ج ١ باب الرد إلى الكتاب والسنة - ح ٤ ص ٥٩.

٢. النساء: ٦٥.

اما عن عوامل هذه الصحوة فلا نتوقع للكاتبه أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطّح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد وتغير العلاقات وامثالها.

اننا نتصور هذه العوامل، كمايلي:

اولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعدان اعطتها معاملها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته اذا فقد. وقد مرّ بنا القول إن كل اساليب التميع سوف تبقى آثارها وقتية لأن الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

ثانياً: اشتداد الحملة الاوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيّين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولا ريب إن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برد فعل قوي من امة يبقى الإسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه. ولا نريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح ابعاده، ووضوح حقيقة أن الاحتلال يستتبع المقاومة بشتى الوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك باعطاء الاستقلال السوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفر فرصة لنمو الصحوة الإسلامية بشكل واسع وانطرح الاحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانينات.

ثالثاً: فشل كل الحلول والاطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الاطروحة القومية الضيقة رغم التطليل والتزوير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الاهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز قوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على اسس الحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) ايضاً لأنه ايضاً تركيب وهمي



لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن اية اضافة معرفية.

وهنا اودّ الاشارة بشكل وافر إلى التحليل الرصين الذي كتبه استاذنا الشهيد الإمام محمدباقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: (ان الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهيارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود افضل وكيان ارسخ واقتصاد اغنى وارفه سوف لن تجد امامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقاً واحداً للتحرك وهو التحرك في الخط الإسلامي)، ويضيف (حينما اخذ العالم الإسلامي يفتح على حياة الإنسان الاوربي ويدعن لامامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الاصلية وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن اطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الاوربي حين قسم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني)، وبعد أن ذكر أن العالم الإسلامي ظن أن الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت إما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين ما يبرره. بعد هذا راح ينتقد اولئك الذين يغفلون - عند محاولتهم تطبيق خطة ما - العامل النفسي للأمة (فلا بد للأمة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب) وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية (ليست إلا رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الاجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة، لأن هذا الاطار القلق ليس إلا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الاجنبي)... ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الاصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية) ويقول بالتالي: (وبالرغم من أن دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تاطيرها بالاطار العربي فإنهم أكدوا بموقفهم هذا

تلك الحقيقة التي قلناها وهي أن الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة إلا على أساس قاعدة اصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين انفسهم) ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الاطروحات (ان هذه القوة مهها قدّرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي لايزال لها اثرها الكبير في توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الاشياء)<sup>١</sup>.

ونعود إلى الكاتبة لنجدها احياناً تشير لهذا العامل حين تؤكد أن العلمانية حققت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالإسلام هو الحل.

رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو اعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والامل الواعد بمستقبلها الحتمي، اضافة للوعود الالهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر عليه السلام.

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال المرحوم السيد الأسترابادي (الأفغاني) - وإن حاولت الكاتبة التشكيك في اخلاصه - والمرحوم محمد عبده - وقد شككت فيه ايضاً بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة - والمرحوم الميرزا النائيني والمرحوم كاشف الغطاء والمرحوم الإمام الخميني والمرحوم سيد قطب والمرحوم الإمام الصدر والمرحوم المطهري والمرحوم الغزالي والمرحوم البهشتي وغيرهم كثير.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في اذكاء هذه الصحوة من قبيل:

١- تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي

٣- تطور اساليب الدعوة إلى الإسلام.

٤- توفر بعض اجواء الحرية في العالم الإسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على اسس إنسانية.

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كاحراق المسجد الاقصى أو هزيمة عام ٦٧.

٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في ايران، وانتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له. ومن الجدير بالاشارة اليه أن نقول:

إن الغرب لم يأل جهداً في اجهاض الصحوة، ومقابلتها، والهائها واتهامها بشتى التهم من قبيل (التخلف والرجعية، والتطرف والاصولية، والعنف والارهاب، والعمل ضد الديمقراطية - والحرية، وضرب حقوق الإنسان) ولم يعد من قدّم له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً ارهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الإنسان. ولكن الواضح تماماً أن هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحوة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه.

هذه هي الحصلية التي تتوصل اليها في نهاية الكتاب.

والحقيقة هي أن هذه الآراء هي قناعة الكتاب المعتدلين إلى حد ما في الغرب أما المتطرفون فما زالوا يرددون آراء، (وليم جيمس) و(هنتنغتن) في ضرورة التعامل مع العالم الإسلامي معاملة الغابة، وضربه بكل قسوة وعدم التعاون معه.

ولكننا نختلف مع توجهات الكاتبة تماماً.

اننا نلمح في الافق السمات التالية:

اولاً: اتساع حركة الصحوة الإسلامية وتجذرها بحيث لا تنفع معها اساليب الحذف أو التحريف.

وإذا اردنا أن نستدل لهذا التوقع، وتجاوزنا المسألة العقيدية التي نؤمن بها دون اي شك، فانا نشير إلى مظاهر الصحوة التي تعم العالم الإسلامي من ارتفاع مستوى الأمل لدى

جماهيرنا الإسلامية، وانتشار التقاليد الإسلامية كالحجاب وانهاط التعاون والعبادات انتشارا واسعا، واتساع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة في كل الحياة، وتشكل المنظمات الإسلامية ودخولها إلى الساحة السياسية والاجتماعية بكل قوة، وانهمام الفكرة العلمانية مرحلة، بعد مرحلة وزوال الامل بغير الإسلام على الساحة الفلسطينية وامثالها من سوح، المقاومة واتجاه النخبة والجماهير نحو ثقافة الوحدة والتقريب، والسعي الحثيث على كل المستويات لنبد التخلف، وغير ذلك.

ثانياً: اتجاه الدول الإسلامية نحو التعاون الاكبر، والعمل على وضع آليات جديدة لتفعيل المؤسسات الشمولية واحساسها جميعاً بالخطر المشترك.

ولا نريد أن نكون متفائلين أكثر من اللزوم ولكننا ندرك هذه الرغبة لدى القسم الاكبر، ونرجو أن تتحقق خصوصاً وأن المسألة لم تعد بيد الحكومات وحدها فالعصر عصر الجماهير.

ثالثاً: ارتفاع مستوى أهمية العالم الإسلامي في مختلف المجالات. صحيح أنه احياناً لا يدرك هذه الأهمية ولكنها حقيقة قائمة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها فلدى هذه الأمة الكم البشري الهائل، والقدرات الاستراتيجية الفريدة والمواقع الجغرافية المتحمكة، والعقول العلمية المتقدمة، وفوق كل ذلك لديها الطاقة الحرارية والحضارية الإسلامية التي لا تنضب.

(٦)

## أهمية الدين والقيم في بناء الإنسان الخير ومكافحة الجرائم والفساد

**تمهيد:**

جاء التركيز في نداء مكة الذي صدر عن المؤتمر الإسلامي للحوار الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في ٤-٦/٦/٢٠٠٨، على القيم المشتركة إنسانياً باعتبارها الركيزة الأساس للحوار وذكر النداء:

«ان الرسائل الالهية والفلسفات الوضعية المعتمدة تمتلك من المشتركة الإنساني ما يدعو إلى الالتزام بفضائل الأخلاق، ويرفض مظاهر الظلم والعدوان والانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري والإضرار البالغ بالبيئة البشرية والاخلال بالتوازن المناخي. والحوار المعمق لاستثمار المشتركات الإنسانية ضروري للتعاون في برامج عمل مشتركة تطوق المشكلات المعاصرة، وتحمي البشرية من اضرارها».

ويضيف النداء

إنه يهدف من الحوار إلى «التعاون على ما فيه خير الإنسان وحفظ كرامته وحماية حقوقه ورفع الظلم ورد العدوان عنه وحل مشكلاته وتوفير العيش الكريم له، وهي مبادئ مشتركة جاءت بها الرسائل الالهية واقترتها الدساتير الوضعية واعلانات حقوق الإنسان». ومن الخطوات العملية التي يركز عليها:

«تركيز الحوار في المشترك الإنساني، والمصالح المتبادلة، والعمل على تحقيق التعايش السلمي والعدل والأمن الاجتماعي بين شعوب العالم».

وهكذا نجد البيان يوضح أن منطلق الحوار البشري هو القيم المشتركة وأن هدفه هو خدمة الإنسانية وحل مشكلاتها المشتركة، وأنه يجب التركيز على هذه القيم المشتركة وتعميقها في الوجدان الإنساني للوصول إلى الأهداف النبيلة التي ذكرها النداء.

### ملاحظات حول: أهمية الدين والقيم المشتركة في بناء الإنسان الخير ومكافحة الجرائم والفساد

وقبل بيان ملاحظتنا نود أن نذكر نقاطاً ثلاث هي:

١- يمكننا القول بأن مفهوم (نحن) ومفهوم (الآخر) يمكن أن يكونا نسبيين على ضوء المحور الذي نستند إليه. فقد يكون هذا المحور هو الذات الشخصية، أو الذات المذهبية في إطار الدين الواحد، أو الذات الدينية، أو الذات المؤمنة بدين سماوي، أو الذات المؤمنة بمطلق قيمي حتى وإن لم تؤمن بدين سماوي؛ وحينئذ يختلف (الآخر) باختلاف محور (الذات)، وتختلف نوعية (العلاقة) بينهما سعة وضيقاً، وتتنوع آفاق التواصل، وبالتالي تختلف الأشكال وآليات التواصل تبعاً لذلك. وما نركز عليه في هذا البحث هو محور الذات الدينية فيكون (الآخر) هو ما عدا المتدينين بدين سماوي سواءً مؤمنين بمطلقات قيمة أم لا. وبطبيعة الحال يختلف خطابنا بما فيه استدلالنا باختلاف المخاطب، واختلاف القيم المشتركة بيننا وبينه.

٢- لا يمكننا أن نفصل المسألة الاجتماعية أي (الأسلوب والآليات الخطابية والسلوكية أو فننقل: نظام التعامل) عن المسألة الفلسفية أي (كيفية تقييم الوجود بما فيه التاريخ والإنسان)، فهما مرتبطتان، بل تشكل المسألة الثانية.

ولذا كانت (الايديولوجيا) مرتبطة تماماً بالسلوك فلا يدعي الفصل بينهما إلا المغالطون. وقدبنا ادعت (الرأسمالية) الفصل بين العقيدة والسلوك الاجتماعي ولكنها في الواقع كانت قد آمنت بالمادية ثم وضعت نظريتها الاجتماعية.

وعليه: فما لم نحدد الأسس النظرية الفلسفية المشتركة يصعب الالتزام بالمنطقية في مجال تحديد الأساليب وآليات التعامل مع الآخرين. ومن هنا فسوف نركز على الأسس النظرية التي تشكل المشترك في مقدمة لتحديد هذه الآليات.

٣- قيل الكثير عن النظريات الفلسفية التي نظرت إلى الوجود نظرة كلية فرأته يتلخص في

(وحدة متكثرة) أو (كثرة متوحدة) ومنها نظرية (الحكمة المتعالية) للمرحوم صدر المتألهين الشيرازي وتتلخص في كون الوجود حقيقة خارجية لا يوجد فيها تباين أو تنوع بل هي ذات واحدة، وحدة متكثرة وكثرة متوحدة قائمة على أساس الإيهان بالوجود المشكك المؤدي إلى تنوع في العلل والمعاليل، والقوى والفعليات، ولكنه لا يعد تنوعاً في الماهيات وإنما هو تنوع في حد الوجود وقوته وضعفه ودرجاته ومراتبه.<sup>١</sup> ولسنا بصدد تأييد هذه الرؤية أو ردها بقدر ما نحاول التأكيد عليه من أن كل الفلاسفة والعرفاء يدركون حقيقة جامعة وهي هذا الالتحام بين وحدة هذا الوجود المترامي وبين تنوع مظاهره وتجلياته ولكنهم يختلفون في تفسير ذلك، وإذا ما ركزنا على الوجود الإنساني اتضحت لنا هذه الحقيقة بشكل أعمق فنحن من جهة ندرك وجداناً - ودوننا شك - وجود مساحة أصيلة تميز النوع الإنساني عن غيره وتبعاً لذلك تميز العمل والسلوك الإنساني عن السلوك الحيواني فضلاً عن الحركة النباتية أو الجمادية، كما ندرك وجود تنوع واسع في الألوان واللغات والأجناس والأذواق والثقافات وغير ذلك، وبالتالي تطرح قياً مشتركة مطلقة يمكنها أن تشكل محوراً للحوار.

ومن هنا، ونتيجة لنظرة موضوعية فاحصة نجد الإسلام بمقتضى انسجامه مع الفطرة والواقع الإنساني أقر أموراً تنطلق من الواقع وتنظم هذه العلاقة أروع تنظيم مما يشكل أروع نظرية إنسانية في العلاقات بين بني البشر وقد سعينا في هذا البحث لتبيين بعض الملاحظات أو الأضوية في هذا المجال، مستندين إلى النصوص الإسلامية المتعلقة بهذا الموضوع.

### الملاحظة الأولى:

التنوع لطف إلهي له غاياته الكبرى في الخلق: وقد حفلت الآيات القرآنية بما يدل على هذه الحقيقة من قبيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>٢</sup>.

١. الملاصدرا والحكمة المتعالية - فارسي - ص ٥٦.

٢. البقرة: ١٦٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>١</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾<sup>٢</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾<sup>٣</sup>.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ إلى غيرها من الآيات الشريفة التي تجعل التنوع سنة إلهية ونعمة على الموجودات وأهمها الإنسان تسهل له حياته إلى جانب ما لا يحصى من الظواهر التي تدل على التخطيط الإلهي الحكيم لهذه المسيرة الإنسانية المتكاملة. ولاريب في أن التنوع - كما تشير بعض النصوص - ضروري لتحقيق التعارف السليم مقدمة للتعاون البناء لتحقيق اهداف الخلقة الإنسانية، كما أنه ضروري لفسح المجال لانطلاق العقل نحو الاجتهاد والابداع والابتكار وتطوير الحياة عبر الاستفادة من قدرة التجريد العقلي والخلاص من أسر الظروف الحسية لتصور الحالة الأفضل وبالتالي التخطيط لتحقيقها.

وهو ضروري للتنافس في الخير لتحقيق الدفع التكاملي المطلوب بما فيه التسخير المتبادل للطاقات والتعاون اللازم، ومحاربة الشر والجريمة.

ثم إن هذا التنوع لا بد أن يعني الاعتراف بتنوع الرؤى والمواقف والمذاهب.

ومن هنا لا نجد أي تأكيد على وحدة الأفكار إلا ما يتميز به المؤمن عن غيره.

### الملاحظة الثانية:

إن الإنسان يطمح - كما قلنا - بفطرته إلى تغيير الواقع إلى الشكل الأمثل وهو يحتاج في كل مراحل التغيير إلى الإيمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

١. آل عمران: ١٩٠.

٢. الروم: ٢٢.

٣. الزخرف: ٣٢.

٤. الحجرات: ١٣.



أولاً: في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.  
ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.  
ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل.  
رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام افكارهم.  
خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.  
سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع.  
سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.  
وأخيراً: في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.  
وخلاصة الأمر:  
إن هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

### القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

إننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم احدهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة، والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل) مما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المنظومة الاولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين والسلام والأمن، التغيير

إلى الأفضل، الرحمة، الايثار، الامانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك

السلام أحياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمان الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة، فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السبوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدني نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه، ذلك إننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير ولا يندع الإنسان وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير. الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها، أو فلنعبّر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة - آية قناعة كانت - من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرة لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمتهم وأمكتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان (هل تعتبر أن السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً) فمثلاً لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهيه) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أَجَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾<sup>١</sup> ويترك أمر تعيين الطيبات له، ويقول ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾<sup>٢</sup> ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿تَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>٣</sup>.

١. المائدة: ٥.

٢. الأعراف: ٣٣.

٣. الحشر: ١٩.

### الملاحظة الثالثة:

إن التركيبة الوجودية الفطرية تتطلب التواصل الفكري مع الآخرين عبر صياغة الفكرة داخلياً ونقلها عبر الطريقة الرمزية واللغوية إلى الآخرين والتعرف على ما يفكر به الآخرون ليتم التفاعل بين الأفكار وبالتالي تطويرها.

ولكن هذا التفاعل يحتاج إلى قواعد يدركها الإنسان بالوجدان اجمالاً وتبلورها وتوضحها ارشادات الوحي أيما توضيح، ونحن نعتقد أن الوحي - بالإضافة إلى كشف المجالات المعرفية المجهولة لدى الإنسان في سبيل تسهيل وصوله إلى كماله - يستهدف أن يبرز له كوامنه الفطرية واستعداداته النفسية ويوضح له بجلاء ادراكاته العملية.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعرض أمام الإنسان نظريته الحوارية المتكاملة الشاملة لمرحلة ما قبل الحوار ولأهدافه ومواضيعه وأخلاقه وشروطه اللازمة كي يحقق هدفه المنشود دون أن يقع فريسة الجهل والتعصب والنرجسية والاعتداد بالنفس والعناد والخرافات والتقليد الأعمى والتهوؤش والاستخفاف وأمثال ذلك مما يتعقبه القرآن بكل دقة ويعمل على نفيه، وتنقية الحياة الفكرية منه ليتسنى للإنسان أن يجاور بكل صفاء وموضوعية وبروح حضارية توافقة للكمال.

### الملاحظة الرابعة:

مما يتردد في بعض الكتابات أن الحوار يستلزم الاعتراف بالآخر، أو يعني التردد في الموقف وعدم الوثوق منه، أو يعني وضعه إلى مستوى الفكر الآخر، وربما قيل إن موقف من يطلب الحوار هو موقف الضعيف الذي يطلب أن يعترف به الآخرون.

ولكننا نعتقد أن كون الحوار سبيلاً منطقياً إنسانياً ينفي عنه كل هذه الأمور؛

فهو لا يستلزم الاعتراف بالآخر ولا يتطلب أن يعترف الآخر به وإنما يبحث عن مسيرة ومساحة مشتركة، أو عن ما إذا كان الآخر ينظر إلى نقاط مبهمة لا يتفهمها ويحتاج الأمر إلى توضيح ما. نعم، من شرط الحوار احترام الآخر وعدم الإساءة إليه أو إثارته ليخرج عن حالته الطبيعية وهذا منهج قرآني أصيل.

وهو أيضاً لا يعني التردد في الموقف بقدر ما يعني الثقة به وقد دعي الرسول ﷺ ليقول

للمشركين ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>١</sup> وهو أعظم الناس إيماناً. إن الوثائق لديه أقدر على الدخول في الحوار لأنه مطمئن من جوهرته الثمينة فلا يخاف عليها من نقد ناقد.

### الملاحظة الخامسة:

مما يرتبط بعملية الحوار أن الهدف العام يجب أن يكون دراسة الجوانب التي يشترك فيها المتحاوران، وإن كان ذلك الاشتراك في الخطوط الجوهرية دون التفاصيل، ثم دراسة إمكان التوسع في هذه المساحة عبر سبر أبعاد المسائل والتوصل فيها إلى محاور مشتركة، ثم يأتي بعد ذلك التخطيط لتحويل المساحة المشتركة إلى واقع مجسد وهنا يبرز أمران:

**أولهما:** إن هذا المقصد عام متسع يمكن تطبيقه على كل المتحاورين مهما كانت مواقفها النظرية والعملية. وها نحن اليوم نعيش دعوة للحوار بين العالم الإسلامي والغرب. ورغم اتساع الهوة بينهما، وقيام الغرب بكل ما من شأنه القضاء على الهوية الإسلامية، وتوجيهه الاهانة للمقدسات الإسلامية السامية على كل ذلك بدوافع صليبية متطرفة أو صهيونية حاقدة، فإن المجال لازال مفتوحاً كما نرى لحوار بين العقلاء من الطرفين يحاول حل القضايا العالقة وتبين المساحة المشتركة وهذا لا يمنع من العمل الرادع ضد العناصر المتطرفة وإيقافها عند حدها بمختلف الأساليب المناسبة.

**وثانيهما:** إن المساحة المشتركة كلما اتسعت اتسعت معها المسؤوليات المشتركة، وتبع ذلك تعاون أكبر في المسار الحضاري المشترك حتى لو تطلب الأمر تجميد بعض الخلافات لصالح ذلك. وكمثال على ذلك نطرح هنا مسألة الحوار بين الأديان الإبراهيمية والتعاون لصد موجة الإلحاد والعلمانية ورفع مستوى المعنويات وتقوية حركة التوازن الحضاري، لأن الأديان تشكل روح الحضارات حتى ولو حاولت بعض الحضارات التنصل من روحها الدينية وادعاء العلمانية.

### الملاحظة السادسة:

ونحن نعتقد أن المسؤولية الحضارية مسؤولية مهمة يوليها الإسلام أشد الاهتمام. حيث يربي في المسلم رؤية إنسانية واسعة تجعله يفكر في الآخرين، فإما هم إخوة في الدين أو نظراء في الخلق - كما يعبر الإمام علي في نهج البلاغة - وينصر كل مستضعف مهما كان اتجاهه، ويدعم كل حركة عادلة مهما كان لونها، وهو يعتقد أن لكل كبد حرى لأجراً كما يعبر الرسول الأكرم ﷺ، بل هو يعشق الطبيعة ويحبها، ولا يؤذي حتى الحيوانات الأليفة إنها إذن خلقية حضارية. وهي كما قلنا تتسع باتساع المساحة المشتركة، فمسؤولية المسلم تجاه المسيرة الإنسانية ورفدها ومحو الظلم منها كبيرة، وتجاه المتدينين أكبر، وتجاه المسلمين أكبر وأكبر، وهكذا حتى يصل الأمر إلى المحلة المشتركة والعائلة المشتركة.

### الملاحظة السابعة:

إن مسألة الدفاع عن حقوق الإنسان تندرج في الملاحظة السالفة بقوة. ذلك أننا نعتقد أن الله أودع في الفطرة الإنسانية ما تدرك به هذه الحقوق، وما به يتم ضمانها للنوع الإنساني وحتى الحقوق المكتسبة من قبيل ما يستحقه المتقون والمحسنون والصالحون والآباء والأقارب من احترام وشكر وضعت في الفطرة مناشيء لانتزاعها وتدركها النفس الإنسانية بـ(العقل العملي) كما يسميه الفلاسفة، أو بالوجدان وهو خصيصة فطرية تتواجد مع الإنسان وتلومه إن انحرف عن الصبغة الطبيعية الإنسانية. ومن هنا نقول: إن الدين والإسلام - على الخصوص - ينطلق في نظريته عن حقوق الإنسان من منشأ واقعي فطري وينسجم في كل تشريعاته مع هذا المنشأ. في حين تعجز النظريات المادية - وهي لا تؤمن بالفطرة - عن إقامة مثل هذا البناء على أسس متينة، بل أننا نعتقد أن الحديث عن العدالة والأخلاق والذوق الفني، بل وعن المعرفة الإنسانية لا معنى له إذا أنكرنا الفطرة.

### الملاحظة الثامنة:

إن العالمية هي اتجاه طبيعي يخرج به الإنسان عن دائرته الضيقة إلى المساحة الإنسانية الواسعة ومن كثرته إلى وحدته، ومن همومه المحدودة إلى المسؤولية الكبرى، وبالتالي فهي

حركة مباركة. ونحن نشهد اليوم كيف ترابطت المصالح واشتبكت الأمور في مجال البيئة وإعلام والحقوق والعلوم والطاقة وغير ذلك، إلا أن المذموم والخطير في الأمر أن هناك حركة شيطانية تحاول الهيمنة ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً لسرقة هذا النتاج الحضاري وتحقيق أهدافها وسحق الآخرين وهو ما نسميه اليوم بالعملة المجنونة والحمقاء والامركة وما إلى ذلك مما يتطلب أن تتحرك البشرية كلها ضد هذا الاستغلال الحضاري المقيت.

### الملاحظة التاسعة:

لا ريب في كون الأمان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان.. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، مما يمهدها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحيث تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالأمن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّر الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدل تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضاً يكون من الطبيعي أن نتصور الحاجة إلى نظام شامل يتكفل بحماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصور حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أن الفطرة - كما قلنا - هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل إجمالي. وأنها هي التي فرضت حماية الأمن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحيث لن يقبل الأمن تحديداً إلا إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأمن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلا فكيف نتصور الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

### الملاحظة العاشرة: حول القواعد السلوكية الدينية

إن استعراضاً سريعاً للقواعد الدينية الموجهة للسلوك الإنساني يقودنا لمعرفة اجمالية لأهمية الدين وقيمه في مكافحة الجرائم والمخدرات والفساد، فالدين يعمل على تربية كل العناصر المذكورة آنفاً:

يربي العقل والتعقل، والتأمل والتدبر والاستنتاج ويحرم كل ما يؤدي إلى حرمان الإنسان من هذه النعمة الالهية.

كما يربي الإرادة الإنسانية ويقويها لتشكيل قوة يستخدمها العقل لتحقيق نزعات الفطرة الخيرة وتركيز العدالة بكل مظاهرها.

ويربي العواطف الإنسانية لتعمل بشكل متوازن على تنظيم السلوك الإنساني وتوجيهه الوجهة الصالحة.

وخلاصة الحال يعمل الدين على إيجاد التوازن في المواقف الإنسانية للفرد المتدين محققاً له:  
- موقفاً متناسقاً من الكون الذي خلقه الله متناسقاً لخدمته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ،  
وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾  
(سورة ابراهيم، ٣٣، ٣٤).

- موقف الشكر لله الخالق مع تقديم الشكر للمخلوقين المتفضلين.

- موقف الأمل بالله مع الثقة باستمرار السنن الكونية.

- موقف التوكل على الله والثقة بالنفس.

- موقف العلو على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل.

- موقف الدقة في اختيار سبيل الخير والحذر من سبيل الشر.

- موقف التوازن بين الخوف والرجاء.

- موقف التوازن بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة.

- موقف التصالح بين مصالح الذات ومصالح الآخر.
  - موقف الإيمان بالقيم الحقيقية ونفي القيم الوهمية والخرافية.
  - موقف الوسطية بين الافراط والتفريط، والاسراف والبخل.
  - موقف التعاون على الخير والبر ورفض العدوان.
  - وموقف نصره العدل والدفاع عن المحرومين.
  - موقف الانفتاح العاطفي على كل البشر.
  - موقف المسؤولية الإنسانية المشتركة.
  - موقف عدم الإضرار بالنفيس وبالأخر وبالطبيعة وغير ذلك.
- وبالتالي يرى الدين أن الإنسان لن يكون إنساناً ناجحاً رابحاً مفلحاً إلا إذا عمل مافي وسعه لصالح البشرية، والتكافل معها: ﴿وَالْعَصْرُ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.
- أما العمل على تضييع الطاقات الإنسانية الذاتية فهو عودة إلى البهيمية وحياة الأنعام، فإذا كان ضد البشرية كان تعميماً لشريعة الغاب وتمهيداً للأفول الحضاري.

### الملاحظة الحادية عشرة: نظام العقوبات طبيعي مع حياة الإنسان

ثبتت كل القرائن والدراسات التاريخية أن التعدي والخروج عن الحد أمر قديم قدم الإنسان وقدم غرائزه وقدم مجتمعه.

إن الإنسان يمتلك دوافع غريزية قوية قد تطغى فتعميه عن أية رؤية فينسى لذلك العواقب السيئة، ومن أهم هذه الغرائز المتحكمة في الإنسان غريزة حب الذات التي تشكل أمَّ غرائزه والتي تنمو بقوة ما لم يحاول أن يمنع من تأثيرها المخرب مانع ينطلق من داخلها هي، أي يعمل بمقتضى حب الذات نفسها، فيمتنع الإنسان من اشباع ذاته ببعض الأساليب التي لا ترضى الذات نتائجها.

وإذا تنبهنا إلى هذا الاختلاف الكثير في نمط التفكير الإنساني بالحياة، ونوعية التصورات والحساسيات، وما يعتمل في النفس، وما يمكن أن نعبر عنه باختلاف الأذواق واختلاف القدرات البدنية والعقلية بين الأفراد، إذا لاحظنا ذلك وضممنا اليه الندرة في الموارد



الطبيعية والصعوبة التي يجدها الإنسان في الحصول على ما يشبع به ذاته وفي أي وقت مفروض، (وهذه الندرة ضرورية لقيام مبدأ الاستخدام والتعاون بين المجتمع البشري)، عرفنا أن التعدي أمر طبيعي الحصول في كل مجتمع، وقد يكون هذا هو الذي يفسر ما جاء في القرآن الكريم من تساؤل الملائكة عن سر خلق الله للإنسان وهو يحمل هذه النوازح: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>١</sup>.

فإن هذه النوازح ستقود الإنسان بطبيعتها إلى الفساد وسفك الدماء. فما الداعي لأن يجعل الله (تعالى) في الأرض موجوداً بهذه السمة في حين أن التسبيح والتقديس قائمان في الملائكة المقربين؟ وكأنهم ظنوا أن آخر مرتبة كمالية يمكن أن يصل إليها موجود هي مرتبتهم. ولكن الجواب الالهي كان قاطعاً: إني أعلم ما لا تعلمون!

وقد يكون المقصود - على ضوء النصوص الشريفة - أن الإنسان لو ترك لوحده لكان ما تقولون، ولكنه يمنح الشريعة التي توجه عقله للسيطرة الصحيحة على هذه الغرائز، وعندها يصل إلى مرتبة من التسبيح والتحميد لا يصلها ملك مقرب.

كما أن هذه النكتة بعينها قد تفسر لنا ذلك التصور القرآني عن الإنسان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾<sup>٢</sup> إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾<sup>٣</sup>.

بل أننا حتى لو حذفنا عنصر الندرة في الموارد الطبيعية وتصورنا الإنسان يعيش في وفرة ما بعدها وفرة لرأينا أن نوازعه قد تطغى فلا يملك لها دعماً. ومن هنا كانت تجربة أبينا آدم عليه السلام في الجنة، حيث يخبرنا القرآن أنه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾<sup>٤</sup> بعد أن زين له ابليس هذه المعصية وقال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾<sup>٥</sup>.

فالجنة غاية في توفر المصادر الاشباعية للذات إلا أن الطموح الإنساني والخيال الجامح قد يتعدى بالإنسان حدود المعقول فيدعه يطلب الخلود وهذا لا يكون إلا للحق القيوم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>٦</sup>.

ومن هنا جاء ذلك الغضب الإلهي على آدم والذي تركه يمر بمرحلة ندم ضرورية أعطته سلاحاً ومتراساً يواجه به حياته على الأرض.

ثم إن القرآن الكريم يحدثنا عن أول جريمة قتل قام بها إنسان نتيجة لسوء تصرف ترك في نفسه حقداً وحسداً وتصوراً بائساً عن الحياة وذلك في قصة ابني آدم نفسه ﴿إِذْ قَرَّبْنَا قُورَيْبًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ... فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>١</sup>. مما يدلنا على قدم الجريمة في حياة الإنسان، وقد يكون هذا المعنى هو الذي خطر على ذهن الشاعر العربي إذ يقول: والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم.

ولئن كان التعدي قديماً في حياة الإنسان فإن للتفاوت في المقدرة بين الأشخاص تبعاً لمختلف العوامل دوراً دافعاً لحس الانتقام الذي يحس به الإنسان طبقاً لغريزة حب ذاته أو لغريزة الغضب المغروزة في أعماقه، إن لهذه الأمور الأثر المهم في دفع الآخرين للقيام ضد المجرم، ومن هنا ينشأ مفهوم العقوبة بشكله الإنساني لا الرباني الذي حدثنا عنه القرآن فإنه أقدم من ذلك الظرف.

وهكذا تسير الجريمة مع الوجود الإنساني فتحتاج تبعاً لها للعقاب الذي يحد من غلوائها ويمنع من اتساع مجال نطاقها.

وقد رأى انريكوفري ENRICO FRRI العالم الايطالي - وهو أحد مؤسسي مدرسة بوزيتيفيست Positiviste - أن الحياة الاجتماعية مادامت قائمة وفق الظروف الفعلية فإن الجريمة ستقع حتماً بأشكال معينة ونظم خاصة، والذي يستطيع تغيير نظامها هو التحول الفجائي للحياة الاجتماعية فقط.

وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا قوانين العقاب موجودة في أقدم الأمم، ورأينا أنها مرّت بتطورات مختلفة تبعاً للهدف الذي استهدفه المجتمع عموماً والطبيعة النفسية لذلك المجتمع. ولا نريد هنا التعرض لسير القوانين التي وضعها البشر للعقاب وما فيها من

١. المائدة: ٢٧، ٣٠.

مساوئ أو محاسن فهذا ما قد نتعرض له في نقاط تالية.

ولملاحظة نوعية هذا التطور يمكن الرجوع إلى كتاب (روح القوانين) لمونتسكيو وامثاله من الكتب التي ارخت له.

وقد حفل القرن التاسع عشر في أواخره ببعض المذاهب التي تؤمن بالجبرية، والتي تستتبع في النهاية عدم اقامة وزن لكل أنواع العقاب، وارجاع الجريمة إلى العوامل الوراثية والبيئة القائمة.

ولكن هذا الاتجاه سرعان ما اندثر لأنه يخالف الوجدان الإنساني الحاكم بارادة الإنسان وحريته في اختيار طريقه.

وإذا كان هذا الاندثار قديماً على الصعيد الحقوقي فإن جذوره الفلسفية والاجتماعية بقيت تتحكم في العقول، ولذا لم يكن من المنطقي أن ينفي الفرع مع ترتبه المنطقي على الأصل.

فإننا اذا تابعنا الماركسية في نظريتها عن التاريخ وحرركته وكيف أنها بنت كل مظاهر الحياة الاجتماعية - ومنها الافكار - على أساس من تطور خارج عن كيان الإنسان وأعني به تطور القوى المنتجة، رأينا أن المجرم بانطلاقه بدافع فكري ينسجم مع مايمليه التطور المذكور حتماً لا يُقي معنى لعقابه وكل شعارات الموت والعقاب التي تضعها الماركسية في القوانين المبنية على ضوء مذهبها.

وهكذا قل بالنسبة لما جاء به فرويد من تحكم اللاشعور في الوجود الإنساني، أو ما جاء به دوركهيم وأمثاله.

ولسنا نريد التعرض لمناقشة هذا الإتجاه بعد أن آمنت البشرية عموماً - إلا الشذاذ - بلزوم تشريع قوانين العقاب كتعبير عن الإيمان بحرية الإنسان في مايفعل من جهة - مما يؤكد مسؤوليته عنها - كما أنه من جهة أخرى تعبير عن الضرورة التي تستوجب مثل هذا التشريع النابعة من دوره الفعال في حفظ البناء الاجتماعي العام.

ولسنا بحاجة للقول بأن حكم الماركسية الذي يتصور حياة تموت فيها الدولة وتفنى فيها غريزة حب الذات... هذا الحكم سيبقى حلماً تكذبه يقظة الإنسان ووجدانه.

وسيبقى الإنسان - كما مر - محتاجاً لنظام كهذا لردعه عن تجاوز حدوده.

المادية تفشل في منع الاجرام وينجح الدين مما لا ريب فيه أن المشكلة الإنسانية الدائمة هي قيام التعارض في أكثر الأوقات بين المصلحة الذاتية للفرد والمصلحة الاجتماعية العامة ما يدفع الفرد في أغلب الأحيان لأن يقوم بسلب المجتمع حقوقه، أو يدفع المجتمع لسيان حقوق الفرد أحياناً أخرى، وتحدث بالتالي الجرائم وأنهاط الظلم.

وقد رأت الرأسمالية أن الظلم ينتج من عدم فسح المجال للحرية الإنسانية، فعملت على فتحها أمام الفرد الإنساني بأقصى مداها مما أنتج لنا الكثير من المآسي في مختلف المجالات، وكان الاستعمار مأساة كبرى من تلك المآسي المروعة.

في حين رأت الماركسية أن الحل الوحيد للمشكلة يكمن في القضاء على أساس البلاء - في نظرها - وهو (الملكية الخاصة) باعتبار أن تشريعها هو الذي أكد في الإنسان حب ذاته، وخلق كل تلك المآسي الرأسمالية. وهكذا خططت لنظام يخلو من تشريع الملكية مما يؤدي إلى القضاء على النوازع الذاتية للفرد.

وإذا كانت الرأسمالية قد فشلت في تشخيص الداء فإن الماركسية قد تبعثها في ذلك الفشل، ولذا فقد جرّت هي بدورها الكثير من المآسي والجرائم المروعة.

إن المشكلة الواقعية لا يمكن معالجتها بتشريع الحرية، أو رفض الملكية، وإنما يجب الرجوع إلى الواقع الإنساني الذي تتحكم فيه الغرائز وأهمها غريزة حب الذات والاعتراف به أولاً، ثم العمل على تغيير مفاهيم اللذة والألم بشكل يحقق الانسجام بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية ثانياً، وهذا بالضبط ما أدركه الدين وعمل على تحقيقه بطريقتين أساسيين، وهما الطريقتان اللذان ينتج عنهما ربط المسألة الخلقية بالمسألة الفردية.

يتلخص أحدهما في إعطاء التفسير الواقعي لحياة أبدية، لا لأجل أن يزهد الإنسان في هذه الحياة، ولا لأجل أن يخضع للظلم ويقرّ على غير العدل، بل لأجل ضبط الإنسان بالمقياس الخلقى الصحيح الذي يمدّه ذلك التفسير بالضمان الكافي.

ويتلخص الآخر في التربية الخلقية التي ينشأ عنها في نفس الإنسان مختلف المشاعر والعواطف التي تضمن إجراء المقياس الخلقى بوحى من الذات.

فالفهم المعنوي للحياة، والتربية الخلقية للنفس في رسالة الإسلام، هما السببان

المجتمعان على معالجة السبب الأعمق للمأساة الإنسانية<sup>١</sup>. وهكذا يكون علاج المشكلة الأساسية بالإيمان بأن الحياة الدنيا مقدمة للآخرة التي هي دار الحيوان، وبإقامة نظام تربوي واقعي.

فقد بدأ الإسلام مع الإنسان بعقيدة تنمي في نفسه كل نوازع الخير وتبعده عن بؤر الشر، وقوى فيه المعاني الإنسانية السامية، وركز على تقوية إرادته بمختلف الأساليب، وتقوية التعقل والإرادة الواعية يشكّلان أقوى مانع للإنسان من الاعتداء على الآخرين بالإضافة لما سيأتي. ولكن ذلك كله ليس كافياً للمنع من وقوع الجريمة في المجتمع، ما دامت درجات الوعي مختلفة، وما دامت للشيطان نفثات ونفثات. وهنا يأتي دور الإيمان بالآخرة وثوابها وعقابها ليشكّل رادعاً قوياً عن الجريمة، - بعد تصور ذلك العقاب الرهيب - ﴿خُذُوهُ فُغْلُوهُ \* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ \* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، كما يشكّل دافعاً نحو تجنبها وإحلال الخير والحسنات محلها بعد تصور ذلك الثواب الخالد في الجنة.

إن الجريمة تعود لوجود مصالح يراها الشخص في فعلها ويرى الخسران في تركها، ولذا فما هو الأمر الذي يعوض عن هذه المصالح؟

وما يذكر عادة في مسألة الجزاء هنا أربعة أنواع:

الجزء الأخلاقي، الجزء الطبيعي، الجزء الاجتماعي، الجزء الأخروي. ويقصدون من الجزاء الأخلاقي، أن الوجدان والضمير سوف يبقى يعذب الإنسان ويخزه بوخزات الألم الحادة لقاء قيامه بتلك الجريمة، ويكفي تصور هذه الوخزات أو رؤية أشخاص مبتلين بها لردع الإنسان، والتضحية بالمصالح التي يراها في الجريمة.

وهذا المعنى صحيح إلى حدّ ما ولكنه لا يكفي قطعاً وذلك إذا لاحظنا:

١ - إن هذا الضمير سوف لن ينمو ويتكامل بحيث يصبح مؤثراً في الحياة ما لم يقف وراء تنميته محفز أخلاقي آخر، فاذا فقد هذا المحفز ضمير تأثيره.

وان حالات موت الوجدان كثيرة جداً خصوصاً في مجتمع التقنية المعاصرة الذي فقد

١. المدرسة الإسلامية للمرحوم آية الله الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ص ٩٣ - ٩٤، طبع بيروت - دار الزهراء.

الكثير من الروابط العاطفية وتحول إلى آلة، يعمل كما تعمل الآلة التي يعيش جوّها، كما أنه يموت خصوصاً في حالات تسري فيها شبهات فتجعل الجريمة أمراً مقدراً وهذا ما نشاهده في أكثر الجرائم الجماعية التي ترتكبها المبادئ المادية حيث لا يبقى أي إحساس بأي وخز.

٢- إن الإحساس بهذا الوخز ضئيل قبل الجريمة وسوف لن يستطيع أن يشكل مانعاً قوياً من القيام بها خصوصاً إذا كانت مغرياتها قوية.

٣- إن الوجدان انما يعاقب على أمور يقتنع الفاعل بأنها من الجرائم. فاذا أوكلنا الأمر اليه فهذا يعني وضع المجتمع تحت رحمة تصور المجرم.

٤- إن الوجدان لا معنى له في جرائم مثل الانتحار. وقد يبلغ به الأمر أن يكون أعظم جريمة بحق الفرد أو الأسرة أو المجتمع. وغير ذلك.

ويقصدون من الجزاء الطبيعي، أن الإنسان إذ يقوم بالعمل السيء يحس بأنه سيلقى آثار هذا العمل في الحياة حيث يفقد الكاذب شخصيته المتزنة وبيتلى الزاني ببعض الأمراض وغير ذلك، وقد اعتمدت بعض المدارس الحقوقية على هذا الجزاء، ورفضت غيره، وفسرت العقوبات كرد فعل اجتماعي طبيعي قهري ضد المجرم. وهذا الجزاء صحيح إلى حد ما أيضاً ولكنه لا يكفي خصوصاً مع ملاحظة مايلي:

١- إن مثل هذا الجزاء لا يتصور في كثير من الجرائم، وخصوصاً الأخلاقية والفردية منها، ولذا فهو لا يشكل - مثلاً - مانعاً أمام من لا يملك شيئاً ومقاماً في المجتمع، بل يريد أن ينتقم منه نتيجة لعقد سابقة.

٢- قد يكون الضرر ضعيفاً بحيث تغلب عليه المصلحة التي يراها في الجريمة.

٣- إن الاحساس بذلك قبل الجريمة قد يكون بسيطاً لا يمنع منها.

ويقصدون من الجزاء الاجتماعي، قوانين العقاب الاجتماعية التي تشرع للضرب على يد المجرم مما يردعه عن القيام بالجريمة وإن كان يجد مصلحة ذاتية فيها.

وهذا الجزاء ضروري وطبيعي لا يمكن انكار تأثيره الكبير في ذلك إلا أنه لا يكفي أيضاً للردع التام الذي نبتغيه وذلك إذا نظرنا إلى ما يلي:

١- إن المجتمع انما يعاقب إذا اطلع على الجريمة أما إذا استطاع المجرم أن يخفي آثار جريمته فلا عقاب اذن.

وهذا ما نشاهده في الأساليب الدقيقة التي يمارسها المجرمون اليوم.

٢- إن هذه القوانين إذا كان لها أن تؤثر ففي حدود المجتمع الذي تطبق فيه، ولكن مجالها يقصر عن الحكم على الاعتداءات التي تقوم بها الدول القوية ضد الدول الضعيفة اللهم إلا أن تشرع قوانين عقوبات دولية، وهي على أي حال تحت رحمة الدول القوية نفسها.

٣- إن هذه القوانين انما تعبر عن رغبة المجتمع في منع الجريمة، أما إذا كان المجتمع نفسه فاسداً يتعود الجريمة ويستمرئها فلا معنى لأن نتوقع منه أن يعاقب نفسه. وهذا ما وجدناه واضحا في مجتمعات احلت اللواط تشريعاً بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تمنعه لأنه يعشعش فيها، وهكذا قل عن عملية تحريم الخمر التي لم تُجد العقوبات الهائلة في ايقاف انتشارها في المجتمع الامريكي، بل قد نجد المجتمع يسبغ على الجرائم أسماء شريفة فيعطيها معاني النضال والثورة وما إلى ذلك.

٤- إن القوانين لا يمكنها أن تعاقب على الجرائم الأخلاقية الفردية، وقد تكون تحمل ضرراً كبيراً على مستقبل الأمة وحاضرها.

وهكذا وجدنا أن كل أنواع الجزاء تنفع إلى حد ما، لكنها ليست حاسمة.

وقد اعترف الإسلام بها مؤثرة في هذا السبيل. فقد نَمَى ذلك الضمير الأخلاقي عبر نظامه التربوي وحرك النوازع الإنسانية بانياً إياها على أساس مفاهيم واعية تبني هي بدورها على أسس عقائدية متينة.

كما أن الروايات الإسلامية بينت كثيراً من المضارّ الفردية والاجتماعية للجرائم، في حين أنه وضع نظام العقوبات معترفاً بضرورة الجزاء الاجتماعي. ولكن الأهم من كل هذا هو تأكيده على هذه النظرة المعنوية للحياة، وانها طريق إلى حياة أكمل وأسمى، حيث الثواب العظيم والجزاء الأخروي الذي لا يعدل تأثيره أي تأثير. فإن كل الاشكالات التي أوردت على تأثير تلك الأنماط من الجزاء لا ترد هنا، إذ أن المعاقب هنا هو الله العالم بكل الخفايا الإنسانية، والذي شرّع نظاماً على ضوء مصلحة الإنسان، وشرع عقاباً على مخالفته يفوق كل أنواع العقاب، فقد يصل إلى حد الخلود في النار، وهو أعظم عقاب متصور على الاطلاق.

إلا أننا إذ قلنا إنَّ هذا الجزاء هو الجزاء الاكمل فلا يعني هذا أننا اغلقنا الباب به لوحده أمام الجريمة.

كلا. فإن الإرادة الإنسانية تبقى تمتلك زمامها أمام الجريمة تماماً، كما لا ننسى تأثير ضعف الإيمان بالآخرة في تقليل أثر هذا الجزاء.

وانما نريد أن نقول إن الدين لوحده هو الذي يستطيع أن يشكل المانع القوي أمام كل الجرائم المتصورة، فإن المانع الديني يجوي بالاضافة إلى القوة الحسية قوة معنوية قد تفوق تأثير كل القوى الحسية المتصورة وذلك إذا حصل الإيمان بها. وهو ما يعمل الإسلام على غرسه عميقاً في النفوس.

**والنتيجة هي:** أن الإسلام يدفع الجريمة بأمرين:

**إيجابي** بأن يركز في الإنسان أن يرى مصلحته تكمن دائماً في الطرف المقابل للجريمة، ويركز فيه دائماً أن يكره الشر وينبذه - كما نرى في نظام العبادات - فلا يخاف إذن من مسألة تعارض المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية؛ إذ أن مصلحة الفرد - بعد توسعة مجال الذات من مجال محصور في الدنيا إلى مجال دنيوي وأخروي فسيح - تصبح متوافقة تماماً مع المصالح الاجتماعية.. فلا يبقى أي مبرر للجريمة مطلقاً. هذا بالاضافة إلى تكوينه الجو الذي لا يناسب الجريمة.

**وسلبي** بأن هدد بالعقوبات الطبيعية والاجتماعية، وفوق ذلك كله هدد بالعقوبات الأخروية التي لن يفلت منها إلا من رحم الله، مع توفر اطلاع دقيق على كل ما يعتمل في صدر الإنسان فضلاً عن ما يعمل خارجاً.

وبهذا ينكشف عجز المادية تماماً عن منع الجريمة، باعتبار أنها لا تتمكن من القضاء على جذورها في الإنسان، ولا تستطيع أن تردع عنها إلا في حدود غير كاملة من جهة أخرى.



(٧)

## الإسلام دين الكرامة الحققة

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين والعن الدائم على أعدائهم أجمعين وبعد:  
فلقد عاش التفكير الإنساني في النفس مع الإنسان وتفكيرانه في مختلف الشؤون الحياتية  
رئيسية أو جانبية حسية وغير حسية ولعله يتسطاق القوب بأن التفكير فيها بدأ منذ المراحل  
الاولى لظهور الفلسفات القيمة فقد وجه سقراط الانظار ورعاها إلى الغوض في اعماق النفس،  
نعم وجهها بصورة غير مباشرة بقولته المشهورة عنه «اعرف نفسك» ولعله كان لها ابلغ الأثر  
في نفوس تلاميذه مما بعثهم نحو التعمق في اغوار هذاالمجهول المغرى والتعرف على محدداته  
ومكوناته، وتكرين نظرية كانت بالنسبة إلى الاطار الزماني الذي عاشره متكاملة المضج.

فقد قسم أفلاطون النفس الإنسانية إلى ثلاثة أقسام.

الف - القسم العقلي أو النفس العاقلة ومقرها في الرأس وفضيلتها الحكمة

ب - القسم الحماسي أو النفس الحماسية أو الغضبية ومقرها القلب وفضيلتها الشجاعة

ج - القسم الشهواني أو النفس الشهوانية أو الرغبةية ومقرها البطن وفضيلتها السير على  
الخط الاوسط بين متعلقات الحياة بلا إفراط أو تفريط وعليه فقد قسم المجتمع إلى طبقات  
(الفلاسفة) وتتولى سدت لحكم والرثاحة لأنها تمتلك الجانب العقلي الذي يمنحها هذا  
الامتياز و(رجال الجيش) وهم أصحاب النفس الحماسية ثم (العمال وأهل الحرف والزراع)  
وتقابل هذه الطبقات في التقسم النفسي الرغبةية الشهوانية.

وعلى أساس من قسيمة السابق فقد شبه افلاطون لمجتمع بعربة لها سائق وجوادان

أحدهما هادي والثاني جامع، فالسائق هو النفس العاقلة والجوادان هما النفس الحماسية والشهودانية التي تصف بالجموح.

وعلى الرغم من أن علم النفس الحديث قد قسم الشعور إلى النواحي الثلاث: (الادراكية) و(الوجدانية) و(الادارية) إلا إنه يختلف عنه ببعض المميزات وأكبر نقد لهذا التقسيم هو وجود هذه الاقسام المذكورة في جميع الفرس ولكن بدرجات متفاوتة. ولافلاطون بعد ذلك آراء قيمة منها:

أن الاولاع والرغبا ضرورية لتوفيق الساعي إلى المهنة، وأن الاكراه مضر في تعليم الاطفال، وحاول تعيين شرح الشباب للجنسين من أهم آراءه في هذا المجال هو مناداته المشهورة القائلة بأن المرأة تقارب الرجل في للكفاءة أما بالنسبة للروح فقد اعتقد أنها جوهر شفاف سجين في اطار النفس أما سلوتها في هذا السجن فهي قراءة الحكمة والتعمق في اغوارها أما عن حلولها فعال أنه حلول ترافقي لا إمتزاجي.

اما أرسطو فقد اعتقد بالحلول الامتزاجي للروح في الجسم ومينر للعقل البشري لكان مختلفة، وقال بأن النباتات والحيوانات ايضا تحتوي على ارواح ولكن بدرجة اوطا من الكفاءة واكتشف كذلك قوانين التداعي بالمعاني المائلة والمجاورة والمضادة، وفسر الفن وخلوده بتفسير طبيعي جذاب حيث قال إن الإنسان ميال لتقليد الطبيعة دائما، واخيرا افقد إكتشف الوهم الاوسطوي للحواس.

وهكذا وبهذه النظرة العجلى عرفنا كيف أن النفس كانت موضع بحث القدماء استنتاجاتهم ولئن يمعن البعض الأثراء، فإنه لاينكر بعضها بالنظر إلى بيئتها ما اثمره من نتائج لا يتنكر مالها من قيمة علمية ساهمت في نشوء علم واسع الاطراف كعلم النفس وعلم الاجتماع باقسامها المتعددة مما كان له اجمل الأثر في بعض النواحي في استكشاف جوانب خفية من النفس الإنسانية.

ولكن ويا للاسف - وتلك عادة وطبيعة الشيء الباقي - أدت هذه البحوث إلى بعض النتائج الاعباطية المرتجلة والتي أن دات على شيء فانما تدل على أن المتصدي ما كان يتوخا إلا إثبات فكرة معينة مسبقه لذا فهو لا يبصر هداه في مجال التجريب بل يسير عملية الاختبار وفق رغباته بدل أن تسيره هي إلى الحقيقة وهذا لايعاب علي الإنسان من جهة كونه أنسان

متاثر ولكن يعاب عليه من جهة كونه عالما يتطلب الحقيقة فيجب أن مجرد نفسه من كل ما يسبق التجربة.

أذن فما هو الحل وكيف يمكن السيطرة والتوجيه لشيء لم يدرك كنها ولا رغباته الغامضة المعاني والحدود؟

ليس الحل - في نظر المنصف المدرك - إلا الرجوع إلى تفسيرات السماء وخالقها خالق هذه النفس وباعثها من العدم؛ فهو اعلم بمازينها وما يسيطر عن أعتها وطرق تهذيبها ومجالها الغريزي. لكن الإنسان الحديث الذي اعمته المادة وبرجها وتغلغت في تفكيراته مسببات الابتعاد عن كل مجري رוחي يرتبط بالسماء، وعشعشت في نفسه النظريات الناقصة والتي حاولت التعويض عن نقصها بالقاء الوم على البشرية ووصفها بانها هي الناقصة ايضا. هذا الإنسان اعشاه ذلك الزخرف فلم يبصر هدها.

والان فقد آن لنا أن نستعرض الآراء المختلفة في الإنسان ونفسه لنحاول التعرف على أي مدى ضيعت هذه الآراء البراقة النفس الإنسانية وازالت عنها إنسانيتها وأنزلتها إلى مرتبة الحيوان البهيمية.

فهذا فرويد جرد الإنسان من كل ما يملك من طاقة خيرة نحو الاصلاح والتعاون جرده من مثله العليا، بل قل جرد الإنسانية من أن يصدر عنها عمل طوعي خير بكل ما في الكلمة من معنى، وجردها في المحاسب الاول على كل انحراف الضمير إذن فما الضمير المحسوسة آثاره عنده؟ إنه ليس إلا شيئاً ينشأ عندما تتصادم الرغبات المودعة في الفرد مع حاجلة المجتمع القوى ذي الرد الشديد، ينشأ ليوفق بين الفعل ورده، فهو إذن ينشأ للمنفعة الطارئة، أما الضمير الرادع عن الانحراف، أو فقل الخلقى البناء فلا أثر له على الاطلاق، وانما هو وهم واسطورة بالية.

والدوافع الإنسانية قال إنها احتيال نعم مجرد حيلة يسر بها الإنسان سفالته النفسية وعلية فلا حب إلا وقد سبقتة وتصاحبه كراهية، ولا لذة إلا وقد سبقتها ويصاحبها ألم، أما لو سئل كيف يجتمع نقيضان على موضوع واحد لأجاب إن الرتبة مختلفة فالكراهية في اللاشعور محببة لأن المجتمع لم يسمح لظهورها والحب ظاهر لأنه مسموح به، وهكذا اللذة وهكذا الألم.

ومن هنا ينتقل فرويد إلى مرحلة أخطر إلا وهو تعميم هذا المفهوم على العلاقات الامية جميعها وبهذا تنهار الدوافع النبيلة، ويسلخ عن الإنسان تلك المميزات التي امتاز عن الحيوان. اما إن امتنع متدين عن شهوات ومتصون عن لذات فما هو إلا لمداراة القوة الضاغطة عليه. وهكذا رأينا كيف نسى فرويد أو تناسي هذه الأعمال الطوعية التي قامت بها ابطل البشرية على مسرح التاريخ المشهود، نسى تلك الوخزة الداخلية التي تعاقب الإنسان حتى ولو كان قد اجرم ولم يطلع المجتمع على اجرامه بل قل لم يحاول أن يقف ضده.

والإنسانية اخيرا على رأي فرويد ما هي إلا مسيرة نحو تنفيذ وتحقيق اللذائد بدافع الطاقات الشهوانية (للبيد) فإن استطاعت تحقيقها وإلا تحايلت عليها وتبقى آثارها عالقة في الذهن مما يعكسها على صفحة الرؤى الليلية واضحة بازة.

وأكبر نقص في نظرية فرويد هذه هو التعميم على الجيل كله ومن ثم على أجيال البشرية كلها مع أنه استنتج ما استنتج من دراسته للشذاذ.

ثم عدم الموضوعية التي سايرت دراسته واعنى بها عدم تجريد الذهن في النظريات المسبقة فقد وضح تأثير آراء دارون التطورية في نظريته، ولكن اني له بالموضوعية وهو قائم في نظريته على أساس من إثبات آراء مسبقة وبدافع من موقف ردى اتخذه نحو الإنسانية كلها بدافع يهوديته المستضعفة الناقصة التي وصفتها البشرية بانها طعمة لخلق لها ولامثل إلا جمع المال والشهوة المادية الخسيصة فكانه بدافع رد الفعل أراد أن يعم البشرية نفسها بانها ناقصة ايضا وبان هذا الذي تدعيه خيراً وخلقاً ومثلاً ما هو إلا مجرد احتيال ونفاق ولعنا نحن اليهود اصرح وأقدر على مواجهة الواقع.

واما المجتمع فهو وأخلاقه الاجتماعية فالى لجحيم، وما الحياة إلا للفرد فهو الأساس وهو الهدف الاعلى، وما على الفرد المذكور هذا أن يلقى بهذا النفاق إلى الحضيض وليظهر على واقعة ويواجه الحقيقة.

وهكذا خلق فرويد الوجودية وفلسفتها العبثية المادية القائمة على أساس من تجاهل لكل ما يحكم به الوجدان، فهي إذن امتداد لايحاءات فرويد؛ قامت تدعو إلى تحطيم كل قيد يقف في سبيل ذاتية الفرد المتكاملة سواء كان ارضياً أم سماوياً، فالحق كل الحق هو رأي الفرد ولا دخل لغيره به وهكذا خلقت سوفسطائية القرن العشرين، ومما يوضح العلاقة التي تربط

اليهودي فرويد بسارتر زعيم الوجوديين لك التأييد للسافر الذي قدمه للقيطة اسرائيل في حرمها العدوانية على الدول الإسلامية مع أنه يعلم حق العلم اين هو الحق والصواب، ولكن ما معني الحق والصواب في منطق من فقدته أو فقل مزقة؟

وهكذا نشأت الجبرية النفسية التي تسير الإنسان حسبها تريد لاحسبها يريد وعلى أساس منها فليس الفرد إذن مجرماً وانما هو مسير لنفسه لاغير.

تلك كانت نظرية فرويد ملخصة على ينظرات عجلي والان إلى نظرة التجريبيين وسنجد التقائها في الهدف والمسلك العام مع نظرية فرويد.

فالتجريبيون قد مزقوا النفس الإنسانية إلى قطع صغيرة لتدرس كلا على حده بعد وضعها في المختبر ومعاملة الحوامض الوهمية، متناسين أن الجزء ليس هو الكل ولا يتمثل فيه صفاته كما تقول نظرية الجشثلث، ومتناسين انهم إن استطاعوا أن يضعوا في المختبر الجسد الحيواني - حسبها يقولون - تشأ منه، فإنهم لم يستطيعوا أن يضعوا السلوك الإنساني فيه ولا يتوصلون عن طريقة إلى تفسير الجانب الروحي الفعال الهام في حياة الإنسان، ومعه مختلف العوامل والانفعالات والايحاءات والترسبات، كل هذه لايمكن أن توضع في المختبر. ولكن ما العلاج إذن للتوفيق؟...

العلاج هو أن ننفي هذه الجوانب الروحية بتاتا وما الملزم بالاعتراف بها؟ مع إن ذلك ينقص مذهب الحسين من الأساس.

وعليه فما النشاط الأنساني المادي الابحث ينبع من الجسد لاغير وما الأخلاق والدين والمجتمع والأسرة إلا تلبية لدعوة الغرائز الصارخة.

وعلى مقاله الفرويديون من الجبرية النفسة فقد قال الماديون بأن الفرد السالك في أي طريق كان إنما وقعت الواقعة الصادرة منه بعواملها المختلفة، وقعت في جسمه بدون إختياره وعندها أصدر النشاط العصبي أمره لتوجيهت سلوكه.

وهكذا رأيناهم كيف قتلوا كل مسؤولية اجتماعية أو دينية ومحو أثر الضمير.

والان إلى نظرة الشيوعيين للنفس ومايحيط بها ويوجه سلوكها، والشيوعية أيضا إغراق مصل في المادية ونفى للجوانب الروحية على الاطلاق سواء كانت تعيش في عالم الإنسان وتواكبه للسير أو تتصل من خلاله إلى ما وراء المادة.

أنكروا وجود الغرائز الفطرية على الاطلاق لأنهم رأوا أن المجتمع هو الموجه الاول والاخير لضبط أعنة السلوك الفردي، ومن هنا رفضوا نظرية فرويد على الجملة لقوله بوجود الفطريات مما ينتهي إلى أن حب الملكية فطري عند الجميع مما يهدم نظريتهم القائمة على أساس من انكارها.

إدعى الشيوعيون بطلان المنطق بالصوري والذي يثبت مسلمات عقلية يشترك بالانفاق عليها جميع العقلاء ومنها استحالة الجمع بين النقيضين وارتفاعهما في أن واحد وشرائط معينة ومنها استحالة لدور والخلف وتقدم الشيء على نفسه وغير ذلك.

بيناهم يدعون أن المجتمع يحمل في نفسه المتناقضات ويجمع بينها في آن واحد تطبيقا للمذهب الجعلي، الوهمي وهذه المناقضات تؤدي أثر تفاعلها المستمر إلى انتقال المجتمع من طور إلى آخر، وهكذا كرروا تلك الحدود الصورية التي اخترعوها اسسا للانتقال التطوري للمجتمع من الزراعة إلى الرق ثم الاقطاع وهكذا حتى يصل إلى مرحلة الشيوعية، متناسين أننا لو سلمنا ما يقولون لما بقى لمجتمع متوقفا على مرحلة الشيوعية هذه وانما انتمل إلى مرحلة آخر يتغايرها.

والأساس الذي يخلق كل هذه المراحل الوهمية - التي أثبت التطبيق بطلانها في كثير من الحالات، الأساس هو الاقتصاد وهو الحقيقة الازلية ولا أثر لكل ما يتصل بجانب غير مادي، فالأخلاق مادية والدين - أفيون الشعوب ابتدعه الاقطاعيون والرأسماليون لتبرير قسوتهم ووحشيتهم طابعين اياها بسممة القدسية والوحي الالهي، والمثل العليا ما هي إلا خلافاً للطبقة السفلى في عرف المجتمع خلفتها فيها محروميتها والأسرة انما تكونت لسبب اقتصادي لاغير وآمنوا لما سبق بالجبرية الاقتصادية المطلقة كما آمن اتباع الفردية من قبل الجبرية النفسية، وهذه جهة من جهات الالتقاء العديدة ربما نستطيع أن نستجليها ايضا من خلال الالتقاء الجذري الذي انبعث منه كلا المذهبين وهو اليهودية التي كان منها ماركس وفرويد ومن قبلها دارون.

وإذا كانت الجبرية الاقتصادية هي التي تعمل عملها المحدد وتسير ضم هذا الخط الذي رسموه لها فلماذا كانت روسيا شيوعية مثلاً والولايات المتحدة التي مرت بنفسه الادوار رأسمالية؟ ولماذا نتحول نحن إلى مرحلة الشيوعية هذه؟

فأكبر نقص في النظرية حصرها مطالب النفس الإنسانية بالغذاء والكساء وطرحها باقي الاهداف العليا التي نجدها أكبر حقيقة وافعة على مجال الحياة الاجتماعية للاجيال على مر العصور. وأن دل قولهم باجتماع النقيضين على شيء فانما يدل على جهلهم بالتناقض وحقيقته وشروطه أو خلطهم بين المصطلحات أو قل هم يخلطون بين الجمع والاجتماع فلا مانع من أن يجتمع النقيضان البعض إلى جنب الاخر لتخلف وحدة المكان.

تلك هي النزعة المادية عرضنا لها بايجاز لنعرف كيف حطت المادية من قدر الإنسان لتجعله حيوانا يحمل في نفسه الالم وللذة معا والحب إلى جانب الكره أو لتجعله فرقا في المختبرات أو هو مسير عاجز أن يقف أمام رياح الجنس أو الاقتصاد أما المثل أما الأخلاق أما الشعوب بالخير فما هي إلا خرافة قديمه.

وعلى النقيض من المادية تقف الدعوة المسيحية قائلة إن عالم الروح هو العالم المنشور للإنسانية الحقّة وأن ما حوله من عوالم إنما هو دانة وحطة يربأ بالنفس أن تبقي ضمن إطارها القائم وأن الاعتزال لهذه الحياة وضرب النزعات والعواطف كلها عرض الجدار والتوهي في قوقعة وإعتزال هذه المخلوقات النعسة النساء فانهن شياطين الاغراء كان هذا كله هو الغاية القصوي وهكذا خلقت المسيحية المحرفة الشعور الدائم بالخطيئة في النفس الإنسانية التي جبان على نوازع فطرية لا تستطيع التحلل منها إلا بعد صراع عنيف بين روحيات الفرد الداعية إلى نبذها وبينها وهنا لا يخلوا الامر من حالتين أما الاستجابة للموازع الديني وهو قتل الحياة بكل ما فيها من معان جمالية، أو الاستجابة لداعي الشهوة وعندما يبقى الضمير يگنب وتلاحقه التصورات التي تصوغ منه شخصا متحديا للضمير ومن ثم المجتمع.

اما الإسلام ذلك النظام الاكمل فقد جاء وغايته العليا ايجاد التوازن بين جوانب الفرد نفسه من جهة وبين جوانب المجتمع من جهة أخرى من ثم لايجاد التوازن بين المجتمعات البشرية.

جاء الإسلام لينفي عن دنيا النفس ذلك الضغط وذلك التحليل لزائف فهو ياخذها على ما هي عليه بين بين لا يرتفع بها - امراً - إلى اعلى عليين ولا يجعلها تهبط إلى اسفل سافلين.

فهو يقررهما على النوازع التي تشدها إلى الارض بل يدفعها نحو دون أن تحمس بالخطيئة - كما يحس المسيحي، ومن الجهة الأخرى يرسم لها سبل السمو والرقى الروحي.

فالإنسان نظر الإسلام - كما سبق - إنسان قبل أن يكون اي شيء آخر يتكون من جسم مادي كثيف فهو يجاهد للمحافظة على ذاته بمايقتائه من طعام ويشرب من شراب كما يجاهد على أن يحفظ نسله ويكثر منه ليكون بذلك قد حفظ نوعه وهي الغاية الاسمى للغريزة والجنسية المركبة في جسمه.

والإسلام يرمى له هذا الناحية ويعترف، فله أن يتمتع بما يتطلقه الجسد بكل امان ويدون شعورا بالانحراف ولكن دون أن ينزل إلى المستوى الذ انزلته اليه المذاهب المادية اعني دون أن يتجاوز حدوده فيعتدي على مجتمعه ونظامه السائد اباح الإسلام عزيزة «طعام فقال: - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

واعترف للإنسان بأنه فرد يحاول حفظ نوعه وأن فيه طاقة جنسية يجب أن تصرف لذلك، فهو يميح له تصرفها بل ويدعوه إلى ذلك (تناكحوا وتناسلوا حتى أباهى بكم الاسم) (وانكحوا الاياى منكم) وهكذا نراه يدفعه إلى هذا التعريف ولكن يشترط أن يكون نظيفا لاعثيا يعبت بقيم المجتمع وأوزانه وعلاوة على هذا فهو يعرف بأن هذا الحق الذي منحه اياه انما هو طبيعي له ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ ﴿الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. وهكذا نرى إن المسلم بفضل تعاليم دينه يقوم بالعمل الجنسي وهو واثق إنه يطلب بذلك رضى ربه.

وكذلك يعترف الإسلام بغريزة التملك الفردية ويصونها من إعتداء للغير عليها ﴿الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «الناس مسلطون على اموالهم» ولكنه يذكره من الجانب الاخر أن المال أمانة الرب تعالى عنده فما عليه إلا أن يؤدي حقوق هذه الامانة فيحاول أن يستغله في الطرق التي رسم اله المولى أو لا ثم يتصرف في الباقي بالطرق الصالحة التي راها هو بعد ذلك شرطة أن لاتمس الاجتماع وتحقق اقتصاده وإلا انقلب الامر إلى مايقره والى خيانة للامانة المودعة ومن ثم العقاب.

إن الذين يكتزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم).  
والإسلام كذلك يرسم للحاضر ويخطط للمستقبل ويفكر في افضل الاستجابات



الناجحة للجوانب المادية من نفسه ومنها النزعة إلى المعرفة وحب الاستطلاع عل هذا المجهول العظيم الذي يحيط به محاولا بذلك أرواه هذه الغريزة ومن ثم أمن الضرر المحتمل، والإسلام يدفعه دفعه دفعا إلى السير قدما في هذه الناحية واستراة منها ولا حاجة للاكثار في الشواهد على ذلك فهو في أوضح الواضحات وهناك الجانب الثالث من جوانب الإنسان وهو الجانب الروحي الذي يربط بين الجانبين السابقين بما يعينها على النهوض ويستوحي ماراء هذا لعالم الكثيف ليستلهم الخير الذي يرسم له سبل السعادة.

والإسلام غني من هذه الناحية دون إسراف فالقوى الغيبية فيه هي التي خططت منهاجه اعلم بالمشيء من خالقه وموجده وهي التي تجعل الإنسان مرتبطا دائما بهذا الجانب لكي تضمن سعادته هو ذلك بتشريعها العبادات المفروضة والمندوبة.

واخيرا يعالج الإسلام النفس التي حادت عن طريق الحق بمعالجات شتى حتى يرجعها إلى حضيرة الخير والسعادة فيفتح لها باب التوبة الواسع فتعون أمنة مطمئنة.

وعلى العموم تجد أن الإسلام يعترف بالنواحي الثلاث ويعطيها الحقوق في تنفيذ متطلباتها ولكن في ضمن الحدود المرضية التي روعى فيها مصلحة الإنسان قبل كل شيء متبعاً في ذلك طريقة الحد المعتقد فلا إسراف في التقرب للروح البهيمية ولا أسراف في الصعود إلى الروح الملائكية مع نبذ الجانب الآخر. «إعمل لدياك كانت تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غداً».

ومع هذه نجده يفضل - لا أكثر أن يكون الميل نحو الروح بداعي التعقل أكثر من الميل نحو الطرق الأخرى للإنسان الذي استجاب لدواعي عقله أكثر من الاستجابة لدواعي جسده في نظره افضل من الملك.

تلك هي صورة مصغرة عن نظرة الإسلام للنفس الإنسانية وطرق تهذيب لوكها طبقها الإسلام في فترة حالكة فانتجت اعظم الثمار وخلققت نفوسا مثالية تمثلت فيها الإنسانية الحققة لا التي صورتها المسيحية المنحرفة ولا المادية الملحدة فاقام مجتمعها على اسس من التعاون ظل مثلا اعلا لكل مجتمع يتطلع إلى السمو، فما احوجنا اليوم إلى ذلك الهدى وما احوجنا إلى تلك الروح العظيمة وروح الإسلام الخالد.



(٨)

## مشكلات العالم الإسلامي وعلاجها في ظل العولمة

واجه العالم كله وبطبيعة الحال العالم الإسلامي حالة جديدة من تعامل الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية معه في ظل النظام العالمي الجديد الذي كان بدوره مظهراً ضخماً لحركة العولمة الجارفة، مما تطلب من الجميع أن يعيدوا النظر في مواقفهم. ذلك لأنهم وجدوا كل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسيادية وحتى الفولكلور الشعبي في خطر اجتياح هذا المد البحري التاريخي العارم.

ونحن نعتقد أن العالم الإسلامي هو الأشد تضرراً نظراً لتركيز العولمة المتوحشة - كما يصفها الغربيون أنفسهم - عليه. وإشارة الإستراتيجيات الموضوعية في ظل هذا النظام اليه بصراحة (كالإستراتيجية الأمريكية الصادرة عام ١٩٩٧)، بل يكاد المرء يجزم بأنها تتوجه إليه أولاً وبالذات وذلك بملاحظة تمرکز الضغوط العسكرية والثقافية والاقتصادية عليه، وتوجه المشاريع الاستعمارية الحديثة الكبرى اليه كمشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يشمل قلب العالم الإسلامي وما حواليه.

وكذلك بملاحظة ما يملكه هذا العالم من تحديات ضخمة للغرب سواء على صعيد مصادر الطاقة، أو المواقع الإستراتيجية الفريدة أو القدرة الإنسانية، أو التوجه الحضاري الإيديولوجي المتناقض مع كثير من القيم والتوجهات الحضارية الغربية.

اضف إلى كل هذا التراكم التاريخي النفسي الذي أنتجته قرون ممتدة من التجاذب وتبادل ادوار الانتصار العسكري بين الطرفين فتارة يمتد العالم الإسلامي إلى قلب الغرب وأخرى يمتد الاحتلال الغربي إلى كل العالم الإسلامي فلا تجد منطقة منه بعيدة عنه.. كل ذلك أنتج حقداً تاريخياً وصبغة نفسية تصبغ كل الإستراتيجيات لدى الطرفين بطابع النظر إلى الآخر

قبل غيره حتى على مجال التنظير التاريخي والتحليل العلمي الذي تدعى له الصبغة الموضوعية بل وقد تدعى له الضرورة التاريخية.

إن العالم الإسلامي اليوم يعاني أشد المعاناة من العولمة لا لأنها حالة حضارية طبيعية تسوق البشرية من الكثرة إلى الوحدة والتضامن في مختلف المجالات، وهذا أمر حسن وواقعي بلا ريب، بل لأن الغرب يحاول امتطاء صهوة هذا الجواد وتحريف مسيرته نحو تحقيق أهدافه المصلحية الضيقة والسيطرة على مقاليد الأمور كلها والهيمنة العسكرية والاقتصادية والثقافية على ما عداه وهذا هو مكن الخطر الكبير الذي يحتاج منا للتخطيط لمواجهة إذا كنا نريد الحفاظ على موروثنا الحضاري الضخم، بل وعلى وجودنا المساهم في صنع الحضارة فلتتعرف بإجمال على مفهوم العولمة لنعرف ما علينا فعله.

### تعريف العولمة

لا ريب أن تعريف العولمة غامض والتعاريف المقدمة متناقضة ومتنوعة، والحقيقة إن الإنسان يدرك من خلال معرفة نوع التفسيرات والتعاريف؛ إن العولمة هي محاولة نفي الحضارات غير الغربية، وتحميل الرأسمالية، ومحاولة فرض الأمركة والهيمنة على العالم. ونذكر في هذا الصدد ثلاث محاولات:

- ١- تعريف اللجنة الدولية عام ١٩٩٥ م وهو يفسرها بالتداخل بين أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك عبر رفض الحدود والانتماء الوطني والاجراءات الحكومية.<sup>١</sup>
- ٢- بعض التعاريف العربية للعولمة بأنها حقيقة التحول الرأسمالي في ظل هيمنة الدول المركزية وسيادة نظام عالمي غير متكافئ، وهناك تعريفات اقتصادية أو ادبية أو تعاريف باعتبار اللوازم (للجابري) و(التيزيني) وغيرهما.<sup>٢</sup>
- ٣- تعريف (روزناو) الأمريكي ويطرح تساؤلات: هل تنطلق العولمة من التجانس، أو تعميق الفوارق؟ وهل لها مصادر واحدة أو متفرقة؟ وهل لها ثقافة واحدة أو متعددة؟ وبالتالي يعتبر أن هناك ثلاثة عناصر دخيلة في العولمة، هي ازالة الحدود وابرار تشابه

١. مجلة النهج عدد ٥٠ ربيع ١٩٨٨.

٢. مجلة الواحة عدد ١٦ ص ١٥٣.

المجتمعات الكبرى وفرض طريقة حياتها على الآخرين<sup>١</sup>، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن العولمة في الواقع هي محاولة امركة العلاقات السياسية والحقوقية والاجتماعية، عالمياً، وفرض ثقافة الهيمنة الغربية على الآخرين فهي من أخطر الأفكار الشيطانية. وقد استفاد الغرب من قدرته التكنولوجية والعلمية والثقافية والعسكرية لطرح هذه الفكرة، كما قام بعض الفلاسفة والكتاب بالتمهيد النظري لها، وكلنا يعرف نظرية (هانتنكتن) التي تركز على الحضارة الغربية وتعتبرها تتميز بالتسامح والإنسانية والتعددية، في حين تصف الحضارات غير الغربية بالاستبداد والانغلاق على الماضي، والفشل في حل المشكلات الإنسانية، كالفقر والبطالة ومستوى المعيشة، وكثرة الانجاب والديكتاتورية. وهي تقترح على الغرب أن لا يتعاون مع غيره، ولا يصدر التكنولوجيا، ويوحد نفسه اقتصادياً وسياسياً وإدارياً، وترى أن الحضارة الغربية تعتمد على الإرث اليوناني والمسيحية الغربية والعلمانية، وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، وهي أمور تميزت بها الحضارة الغربية ولا تتحقق في حضارات أخرى. ويأتي (فوكوياما) ليجعل النظام الرأسمالي غاية التاريخ، ويرى أن المجتمعات كلها يجب أن تتجه نحو الرأسمالية، ويجب توفير الشروط السياسية والاجتماعية، وأهمها تطوير البنية الاجتماعية نحو المساواة واللاطبقة واللائقافية، وإيجاد تفسيرات دينية مرتبطة بهذا التطور، وكذلك قيام المجتمع النامي لإيجاد المؤسسات الوسيطة بين الأفراد والدولة، كما يجب عدم المبالغة بالتمييز القومي مما يدعو للعزلة الحضارية، ويدعو إلى تفسيرات مستنيرة للنصوص الدينية، وينتقد كل الحركات المتطرفة، ويدعو لتوجه الصفوة لدعم القيم الديمقراطية والحريات؛ فهو إذن يجعل المجتمع الرأسمالي الغاية التي يجب أن تسير إليها كل الحضارات.<sup>٢</sup> كذلك نجد (بيدهام برايان) المفكر الانكليزي في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة الايكونومست خلال عام ١٩٩٤ يؤكد أن هناك تشابهاً بين الوضع الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى أن كلا الوضعين متشابهان في توفر الأرضية المناسبة للأصلاحات، وفي نوع المؤسسات الدينية لدى المسلمين ومؤسسات الكنيسة في القرن ١٥ م

١. جيمس روزناو - ديناميكية المعرفة.

٢. العربي العدد ٥١٢، الأستاذ مجد الدين خممش ص ٣٠.

وفي المستوى البائس لديهم، وفي الشوق لتحسن الاوضاع، ويرى أن هناك عاملاً خارجياً يحرك هذه الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكل فيه (المسلمون) العامل الخارجي لتطوير أوروبا في حينها، يشكل الغرب اليوم عامل دفع للعالم الإسلامي نحو التطور والتقدم ويرى أن التحرك يبدأ من الإسلاميين المتحررين الذين يؤمنون بالديمقراطية، ولا بد من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، وفي ختام مقالاته يوجه إلى العالم الإسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الإنسانية السائدة هي:

١- الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

٢- القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

٣- العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم.<sup>١</sup>

هذا وقد شملت عملية التمهيد لنظرية العولمة والأمركة المجالات المعلوماتية كما في مجال الانترنت والفضائيات، كما شملت عملية السيطرة على المنظمات الدولية، فإن استجابات لهذا الهدف وإلا تم تجاوزها أو وضع العقبات في طريقها كما رأينا أخيراً عندما ارادت الأمم المتحدة إنشاء مجلس حقوق الإنسان بدلا من اللجنة الدولية المكلفة بذلك. فرغم أن الأمر يحقق ما ترفعه أمريكا من شعارات إلا أنه لم يفسح المجال لها لبسط نفوذها فقد وقفت ضده. وقد استغلت أميركا حوادث ١١ سبتمبر لتطرح نفسها القوة الأولى في العالم، والمسيطرة على كل مقدراته السياسية كما جاء التخطيط للسيطرة على الثقافات والقيم، والتدخل في التشريعات الاجتماعية، كما رأينا في مؤتمرات الأسرة في القاهرة وكوبنهاغن، ومكسيكو سيتي، وبكين وغيرها؛ حيث تم التدخل في الأمور التشريعية الاجتماعية تحت شعار حماية حقوق الإنسان.<sup>٢</sup> وإضافة حقوق أخرى كالحقوق الجنسية وحقوق الانجاب وأمثال ذلك.

### الآثار السلبية للعولمة

لقد توضحت للعالم جميعاً الآثار السلبية التي تركتها هذه الفكرة المخربة، ولذلك

١. راجع مجلة المنهاج عدد ٢٢، السنة السادسة، ص ٢٤٨، مقال للمؤلف حول هذا الموضوع.

٢. راجع كتاب: مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتداعياته للمؤلف.

وصفت العولمة بكثير من الأوصاف منها العولمة المتوحشة أو العولمة المجنونة أو العولمة الفخ، أو وصفت بأنها أما أن تأكل أو تؤكل، وقد ذكرت الدراسات المتنوعة هذه الآثار السلبية التي نشير إلى بعضها:

١- سيطرة القوى الكبرى على حركة الاقتصاد العالمي والمصادر الإنتاجية والتبادل المالي والتجارة، حتى قيل أن هناك ٥٠٠ شركة تسيطر على ٧٠٪ من حجم التجارة العالمية، وأن هناك ٢٠٪ فقط يعيشون في اكتفاء ذاتي في حين يقبع ٨٠٪ في عالم التبرعات. وأن ما تكسبه الولايات المتحدة من حركة تحرير التجارة لا يقل في المتوسط عن ٢٠٠ مليار دولار سنوياً منذ إنشاء منظمة التجارة العالمية وحتى عام ٢٠٠٥ بينما تقدر خسائر الدول الإفريقية بحوالي ٢٠٩ مليار سنوياً.<sup>١</sup>

٢- سيطرة أمريكا على وسائط نقل المعرفة.

٣- كسر هيبة الدول الصغيرة، وقدرتها على النمو.

٤- التدخل في التقنين الداخلي لباقي الشعوب كما رأينا في مؤتمرات الأسرة وغيرها.

٥- الغزو الثقافي لكل المناطق، ومحاوله استئصال الثقافات الأخرى. فهي تدعو إلى تطبيقات عصر ما بعد الحداثة والغاء دور الدين وقد نادى الفيلسوف دجاك دريدا إلى حل المؤسسات الدينية والتعليمية.<sup>٢</sup>

وهانحن نجد الغرب يسوق بعض مفاهيمه على أنها مفاهيم مسلمة وعلى العالم أن يلتزم بها من قبيل (الديمقراطية) و(الحرية الفردية) و(الحرية الجنسية) بل راح أخيراً يجعل (العلمانية) مبدأً إنسانياً لا يمكن تركه، وهكذا يمكن الحديث عن النماذج الاقتصادية الغربية في الاستهلاك من زاوية ثقافية وكذلك من الممكن الإشارة للغزو الثقافي الواسع الأبعاد والعمل على محو الهويات الوطنية وإيجاد هويات مجازية ومصطنعة بواسطة وسائل الاعلام الواسعة التأثير.

١. الاستاذ المناوي نقلاً عن تقرير المجلس القومي للإنتاج والشؤون الاقتصادية (المصري) والذي عرض في ٢٠٠٢/٣/١٧.

٢. الدكتور عبدالعزيز حموده - الثقافة - اختيار للثقافة القومية (الاهرام ٢٠٠٢/٧/٥ ص ١٣).

- ٦- التقليل من شأن المحافل الدولية، واستغلالها لصالح هيمنة القوى الكبرى، كاستغلال صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرها من المنظمات لتنفيذ السياسات المصلحية وقد رأينا قبل أيام أن رئيس دولة غربية يعلن أن الناتو والقوى الغربية وجهوا أكبر ضربة للنظام العالمي لاستغلالهم المحافل الدولية.<sup>١</sup>
- ٧- تلويث البيئة نتيجة الجشع الذي ابتليت به القوى الكبرى.
- ٨- وهناك عمل رهيب على تغيير الخارطة السياسية في بعض المناطق (من قبيل منطقة الخليج ومنطقة شمال إفريقيا، وروسية وتايوان) وربما لإيجاد سايكس بيكو جديدة. وهناك آثار سلبية كثيرة أخرى للعولمة نعرض عنها فعلاً.

### الموانع بوجه مخططات العولمة الأمريكية (المتفردة)

- ونحن نجزم بأن أمريكا التي تقف وراء حركة العولمة هذه، لن تستطيع أن تحقق مآربها رغم ما تملكه من امكانات. فهناك موانع كثيرة امامها ومنها:
- ١- وقوف دول كبرى وتكتلات عالمية مختلفة المصالح بوجهها.
  - ٢- وقوف الشعوب بوجه المخططات الرامية إلى مسح الهوية بل وربما الاحتلال المبطن.
  - ٣- حصول الازمات العالمية على مختلف الصعد وخصوصا الاقتصادية كازمة الطاقة التي قد تشعل النظام العالمي كله.
  - ٤- عدم امكانها الاستمرار في عملية تحدي نظام العلاقات الدولية وتخطي المؤسسات العالمية مما يحرك العالم ضدها.
  - ٥- تنامي الوعي العالمي لهذه المخططات بنفسه يؤدي لارتفاع وتيرة المقاومة ومن هنا يمكن

١. وتتابع الأدلة يوماً بعد يوم على هذا الاستغلال فإذا لم تحقق لهم مصالحهم تركوها وهذا ما شاهدناه من موقف أمريكا من معاهدة (كيوتو) التي تمنع تلويث البيئة لانهم اكتشفوا أنها تقلل من انتاجهم من الفحم الحجري، والنفط الثقيل، والطاقة النووية وذلك بعد ان كانت قد وقعت عليها ومن المحكمة الجنائية الدولية أخيراً، بعد ان ساهمت هي في انشائها ولكنها عملت على اعفاء جنودها من اجراءات المحاكمة. وكذلك عملت على الخروج من اتفاقية (Ctbt) لمنع التجارب الذرية ووقفت العمل التنفيذي في مجال تحريم الاسلحة الكيميائية.



أن تتحول الوسائل الحديثة التي تستغلها العولمة إلى أدوات تنمي عنصر الوعي بمخططاتها.  
٦- الوعي الديني المتنامي للشعوب فهو يشكل المانع الأكبر بوجه المخططات التي تعمل على محوه.

### بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

وقبل أن نطرح تصورنا لما يجب أن تفعله الأمة، نحاول أن نلخص الفروق بين عالميتنا وعولمتهم فيما يلي:

إن العالمية الإسلامية تمتاز بانها:

\* عالمية إقناعية لا تفرض على الشعوب إيديولوجيتها ولا تحاول سلبها ثقافتها ونمط حياتها، وانما تعمل على التعايش والتفاهم معها وهذا ما تثبته النصوص الإسلامية وتؤكده الوقائع التاريخية المنسجمة مع النصوص فلا إكراه عقائدي ولا مسح ثقافي ولا محو عنصري.  
\* وهي لا تعمل على سلب حقوق الآخرين ونهب ثرواتهم.

\* وهي لا تعمل على إشاعة مفاهيم مصلحية كتعميق مفاهيم الاستهلاك، بل توازن في اتجاهاتها بين الإنتاج البشري والحاجة العامة نافية أي كفر بنعم الله وأي ظلم في التوزيع مستهدفة قبل كل شيء سعادة الإنسان وكرامته رافضة الإسراف إنتاجاً أو توزيعاً.

\* كما أنها لا تتحرى ما يوجب الإضرار بالأفراد أو الجماعات أو المجتمعات بل تعمل على إعطاء كل ذي حق حقه، موفرة الأمن بكل أنواعه للجميع.

\* وهي لا تحاول فرض هيمنة شعب أو طبقة أو فرد على الآخرين، وتتصدى لكل أنواع الديكتاتوريات والتعالي وتعتبره مظهراً للطاغوت معتبراً أن الصراع ضد الطاغوت هو أحد هدي الأنبياء إلى جانب تعبيد الأرض لله.

\* وهي تعمل على نشر القيم الإنسانية والأخلاق الحميدة كهدف لاتحيد عنه.

\* وتعمل بواقعية أصيلة على أن تتجلى باقي المظاهر الإنسانية في السلوك الفردي والاجتماعي والدولي.

\* ومن هذه العناصر الفطرية العدالة التي يعمل الدين لتحقيقها في كل المجالات ويجذف كل ما يتنافى معها مهما كان.

\* كما تعمل هذه العالمية على احترام الآخر وإشاعة منطق الحوار قبل أي عمل (ليحيي من حي عن بيته ويهلك من هلك عن بيته) وهو أيضاً من مقتضيات الفطرة الإنسانية.  
\* ومن المبادئ التي تعمل على إشاعتها التعاون والتعارف والاستخلاف الإلهي والتكافل الاجتماعي.

\* وتقوم الإنسان ومركزه بمعايير الالتزام والعمل الإنساني.

\* وتوازن بين الحريات الفردية والمنافع الاجتماعية وبالتالي فهي تبني كل المسائل الاجتماعية على فلسفة واقعية تنطلق منها وتلتزم بمقتضياتها إلى ما هنالك من خصائص لايسع المجال لاستقصائها.

أما العولمة الغربية فنكاد نقطع بانها تقف على النقيض مما سبق.

فهي تتصف - كما رأينا - بالإكراه الثقافي، والنهب اما بشكل همجي مجنون أو بشكل عصري حدائي، كما أنها تعمل على تعميم المنطق الحيواني للاستهلاك، وتتدخل في كل شؤون المجتمعات حتى الاجتماعية والمدنية منها وتستهدف الهيمنة بشتى أنواعها، ثم أنها لاتعرف أي معنى للقيم الأخلاقية، بل هي تسخر الأخلاق لتحقيق مآربها السياسية - كما رأينا في بيان المفكرين الأمريكيين أخيراً - فلامجال للأمر المعنوية في قاموسها، بل هي تعمل على محاربتها بما تمتلك من وسائل ومنها الوسائل الإعلامية الإباحية، كما أن العدالة عندها نسبية تتناسب مع مصالحها الضيقة، وبالتالي تطرح بوحشية لا مثيل لها منطق الصراع بدلا عن الحوار، اما معيار العدالة والتقويم فليس إلا القوة والمصلحة الضيقة ولذا تستسيغ الكيل بمكيالين باعتبار الآخرين لايملكون استحقاق التعامل الإنساني - وفقا لنظرية هوبز في تقسيم المجتمعات على أساس الحداثة - وقد وجدت اليوم اتباعا أكثر من المفكرين الغربيين وخصوصا في انجلترا وأميركا.

وأخيراً فقد قلنا إن العولمة الغربية تستغل الظروف المواتية لها دون أن تستند إلى فلسفة واقعية تبرر لها هجمتها المتوحشة.

### حالة الأمة اليوم:

لقد نفضت الأمة الإسلامية اليوم أو تكاد غبار معركة طويلة دامت عشرات السنين

وربما أمكن التعبير عنها بقرون. ذلك أن بعض أنماط الاحتلال الغربي دامت أكثر من ثلاثة قرون كما في الحالة الاندونيزية. وقد لاقت فيها الكثير من العذاب والهزائم والنهب وطبقت عليها مخططات التخلف بشتى جوانبه، والتمزق الجغرافي والتاريخي واللغوي وغيره، والابتعاد عن الهداية الدينية والعلمانية العدائية وغير ذلك خرجت في نهاية القرن العشرين مثخنة بالجراح نتيجة الغفلة والخيانة وعدم التخطيط. وهي مع ذلك تواجه تخطيطاً أكبر وأخطر يستهدف اليوم استئصال وجودها الثقافي والحضاري كله فماذا هي فاعلة؟

اننا نعتقد أننا نعيش إلى حد كبير الحالة التي عاشها المسلمون بعد هزيمتهم في معركة أحد حيث الجراح والتمزق والنفاق والتشكيك يعصف بهم لتأنيهم انباء عن تخطيط شيطاني حرك قريشا على معاودة الكرة وأنبها على عدم استثمارها الكامل لنصرها فيعرف القائد الخبير ويعد المسلمين الذين اشتركوا في أحد من جديد ليخرجوا كالاسود الضارية فتسمع قريش وتهاب الانطلاقة فتراجع عن التخطيط.

إن علينا أن ندرس تلك الحالة ومخططات الرسول القائد ﷺ وتعليمات القرآن للمسلمين آنذاك ونسقطها على واقعنا اليوم.

لقد انزل الله تعالى ستين آية من آل عمران في يوم أحد كما يقول ابن هشام في سيرته (فيها صفة ما كان في يومهم ذلك ومعاينة من عاتب منهم).<sup>١</sup> فبعد أن حذر الله المسلمين من تخطيط اعدائهم (الآيات ١١٨-١٢٠) مر على الدروس والوقائع في معركة (أحد) على النحو التالي:

- انطلاق إشاعات الأعداء والرسول يهيبء المسلمين للقتال مما أدى إلى أن تتناسى طائفتان من المؤمنين خلفياتهما العقائدية وعنصر التوكل على الله العزيز القدير، فتهان بالفشل فيعود بها وعد الرسول إلى الرشد.

- ثم تأتي التعليمات القرآنية التي تحدد الخصائص الإيمانية للامة فاذا تمسكت بها انتصرت باعتبارها من سنن التاريخ (الآية ١٣٧).

- ثم تأتي مسألة تقوية المعنويات، وأن المؤمن يدرك أنه المنتصر وأنه الأعلى رغم الجراح فهي جراح متبادلة يصاب بها العدو أيضاً وأن النصر والهزيمة بيد الله تعالى فلن تقهره قوة

١. سيرة ابن هشام الجزء الثالث ص ١١٢ - طبعة دار احياء التراث.

وهي بالنسبة للمؤمنين امتحان وتمحيص وللكافرين محق وانهيار (١٣٩-١٤٠).

- ويأتي التعرض إلى النظرة الخاطئة لنوعية الارتباط بالنبى ﷺ حيث يتم تعليق الثبات على حياة القائد فما أن تنتشر شائعة قتله حتى يتخاذل المؤمنون فيتم التأكيد على ضرورة حمل الرسالة والثبات عليها وهو مقتضى شكر نعمة الرسالة (١٤٤).

- كما يجب الاحتفاظ بالحماسة والأمل والثبات على الخط وانتظار الوعد الإلهي، والحذر من وعود العدو (١٤٦-١٥١).

- وإن الوعد الإلهي وعد حقيقي رآه المسلمون بام عينهم حين التزموا بخطه وعندما فقدوا الصبر والتقوى فقدوا شرط النصر فمروا بامتحان الهزيمة (١٥٢).

- إن الهزيمة كانت نتيجة حيرة البعض وعدم تجاوز الموم الضيقة والتشكيك في تخطيط القيادة، والخوف من الموت، والاستماع للوساوس الشيطانية ولذلك يعيد القرآن تذكيرهم بالتصورات الأصيلة عن القوة الإلهية وعود النصر، ومعنى الموت والأجل، وينهاهم عن التخيلات الجاهلية (١٥٥-١٥٨).

- ثم تأتي الدعوة للملمة الوضع وإعادة التركيبة الطبيعية للعلاقة بين القائد والأمة في إطار اللين والرحمة ونشر الشورى وتحمل المسؤولية المشتركة مع احتفاظ القيادة بالمضي في تنفيذ خططها في إطار التوكل على الله (١٥٩).

- ثم تأتي الخطوة الحماسية الكبرى حيث يأمر الرسول المسلمين وبالخصوص أولئك الذين اشتركوا في أحد أن يتجهزوا رغم جراحهم لمواجهة العدو المصمم على اجتثاث الوجود الإسلامي في ما سمي بواقعة (حمراء الاسد) لتدرك قريش مدى عزيمة القائد وتراجع عن الهجوم بعد أن علمت أن المسلمين حولوا التهديد إلى فرصة (١٧٢-١٧٤).

وهكذا تستمر الدروس التاريخية التي يجب أن يستفيد منها المسلمون على مر العصور، ونستفيد منها نحن في مواجهة هجمة العولمة المتوحشة والاستتصالية.

### موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأن الرفض الانفعالي للعولمة بكل صورها لن يؤدي إلى

نتيجة لأنها في بعض صورها حالات طبيعية وتقدمية، وإنما يجب التأمل واتخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال: إن نقوم بوضع إستراتيجية عملية وواضحة وشاملة، يتعاون الجميع على وضعها أولاً، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا أن نقوم بفضح النظريات التي مهدت لمثل هذه النظرة التخريبية. وبالنسبة للإستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

### عالمياً:

- ١- يجب علينا أن نعري الجانب الإيديولوجي للهيمنة الأمريكية والمقصود الحقيقي من مقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخل وفتح الحدود وأمثال ذلك).
  - ٢- يجب علينا التخطيط الجاد لمنع وحذف هيمنة السوق على الجانب السياسي بكل مظاهرها.
  - ٣- يجب العمل على تعميق قيم الإنسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الإسلامية.
  - ٤- يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.
  - ٥- يجب التأكيد على الهويات الإقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافتها.
  - ٦- يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنموية للشعوب.
  - ٧- يجب العمل على إعطاء الحريات والحقوق الأصيلة للشعوب.
  - ٨- يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.
  - ٩- يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوعة.
- وفي الإطار الإسلامي يجب علينا بالإضافة لما سبق:
- ١- أن نعمق الحوار بين المذاهب اتجاهها لتكوين الوحدة في الموقف الإسلامي.
  - ٢- يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.
  - ٣- يجب أن نطور دراساتنا الإقليمية والعالمية ونحقق الانفتاح على التاريخ.
  - ٤- علينا أن نقوي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميقها، كما يجب علينا أن نحبي معاني الأمل في النفوس وهي المائز بيننا وبين أعدائنا:

يقول تعالى في سورة النساء الآية ١٠٤ ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٥- علينا أن نعيد الحالة الطبيعية للقيادة الإسلامية ومدى وأسلوب تعاملها مع الأمة في إطار (اللين والحب).

٦- علينا أن نعيد تعميق المفاهيم في قلوب أمتنا عن الحياة والموت والحضارة ونوع المساهمة الحضارية ونوع الارتباط بالله تعالى والإيمان بقدرته والتوكل عليه دون التواكل وبالتالي علينا أن نصيغ قلوبنا ووعينا ومشاعرنا بالقرآن الكريم وآياته ومنها آيات آل عمران الآنفة، دونها تأثر بالتخطيط العولمي للتعليم وبعيدا أيضاً عن التطرف السطحي القشري التكفيري المتهور.

إن الوسطية الإسلامية تعبير دقيق عن التوازن الإسلامي الحكيم فيجب اكتشافه أولاً وتعميقه في النفوس.

٧- علينا أن نشيع روح الشورى في مجتمعنا بكل معانيه.

٨- علينا أن نطبق مواد الاعلان الإسلامي لحقوق الإنسان بكل دقة.

٩- يجب القيام بكل ما من شأنه تحويل أنماط التهديدات إلى فرص كما رأينا في آيات آل عمران السابقة وبالخصوص في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>١</sup>.

١٠- علينا أن نجمع بين الأصالة والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروج للاجتهد الجماعي، وغير ذلك مما يؤدي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.

١١- علينا أن ندعم قضية الصحوة الإسلامية.

وأخيراً فإن علينا أن لانسى أن عولمة كبرى موازية قد امتدت إيجابياً وهي الاتجاه العالمي لنمو المعنويات وروح التدين لدى الشعوب والتفاهم بين القادة الدينيين وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الفهم الشمولي للإسلام فهماً يجعله أمل هذه الأمة في احتلال موقعها الحضاري المطلوب.

١. آل عمران الآية: ١٧٣.

وإننا لنعتقد أن مظاهر هذا الاتجاه العالمي تتجذر يوماً بعد يوم حيث نشهد مثلاً:  
أ- اتجاه الجماهير في العالم الإسلامي نحو الدين بشغف ومطالبة العلماء بالتدخل المباشر في الحياة العامة وابداء الرأي في القضايا الملحة.  
ب- تحكيم دور الكنيسة السياسي والاجتماعي في العالم المسيحي وخصوصاً في الدول التي تشكلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي حرر قوة البوذية المعنوية في صياغة القرارات الاجتماعية في جنوب آسيا.  
د- ازدياد الاقبال على النظريات والمؤلفات الدينية.  
هـ- اتجاه الأمم المتحدة الأخير نحو القادة الدينيين كما في مؤتمر نيويورك وبانكوك.  
و- اتساع نطاق الحوار الديني بين الأديان المختلفة فيجب أن يقوم رجال هذه الأديان بواجبهم في دعم المسيرة المعنوية الصاعدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته





(٩)

## بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

وقبل أن نطرح تصورنا لما يجب أن تفعله الأمة، نحاول أن نلخص الفروق بين عالميتنا وعولمتهم فيما يلي:

إن العالمية الإسلامية تمتاز بانها:

\* عالمية إقناعية لا تفرض على الشعوب إيديولوجيتها ولا تحاول سلبها ثقافتها ونمط حياتها، وانما تعمل على التعايش والتفاهم معها وهذا ما تثبته النصوص الإسلامية وتؤكدده الوقائع التاريخية المنسجمة مع النصوص فلا إكراه عقائدي ولا مسخ ثقافي ولا محو عنصري.

\* وهي لا تعمل على سلب حقوق الآخرين ونهب ثرواتهم.

\* وهي لا تعمل على إشاعة مفاهيم مصلحية كتعميق مفاهيم الاستهلاك بل توازن في اتجاهاتها بين الإنتاج البشري والحاجة العامة نافية أي كفر بنعم الله وأي ظلم في التوزيع مستهدفة قبل كل شيء سعادة الإنسان وكرامته رافضة الإسراف إنتاجا أو توزيعا.

\* كما أنها لا تتحرى ما يوجب الإضرار بالأفراد أو الجماعات أو المجتمعات بل تعمل على إعطاء كل ذي حق حقه موفرة الأمن بكل أنواعه للجميع.

\* وهي لا تحاول فرض هيمنة شعب أو طبقة أو فرد على الآخرين، وتتصدى لكل أنواع الديكتاتوريات والتعالي وتعتبرها مظهرا للطاغوت معتبرة أن الصراع ضد الطاغوت هو أحد هدي الأنبياء إلى جانب تعبيد الأرض لله.

\* وهي تعمل على نشر القيم الإنسانية والأخلاق الحميدة كهدف لا تحيد عنه.

- \* وتعمل بواقعية أصيلة على أن تتجلى باقي المظاهر الإنسانية في السلوك الفردي والاجتماعي والدولي.
- \* ومن هذه العناصر الفطرية العدالة التي يعمل الدين لتحقيقها في كل المجالات ويحذف كل ما يتنافى معها مهما كان.
- \* كما تعمل هذه العالمية على احترام الآخر وإشاعة منطق الحوار قبل أي عمل (ليحيي من حي عن بينه ويهلك من هلك عن بينة) وهو أيضاً من مقتضيات الفطرة الإنسانية.
- \* ومن المبادئ التي تعمل على إشاعتها التعاون والتعارف والاستخلاف الإلهي والتكافل الاجتماعي.
- \* وتقوم الإنسان ومركزه بمعايير الالتزام والعمل الإنساني.
- \* وتوازن بين الحريات الفردية والمنافع الاجتماعية وبالتالي فهي تبني كل المسائل الاجتماعية على فلسفة واقعية تنطلق منها وتلتزم بمقتضياتها إلى ما هنالك من خصائص لايسع المجال لاستقصائها.
- أما العولمة الغربية فنكاد نقطع بانها تقف على النقيض مما سبق.
- فهي تتصف - كما رأينا - بالإكراه الثقافي، والنهب اما بشكل همجي مجنون أو بشكل عصري حدائي، كما أنها تعمل على تعميم المنطق الحيواني للاستهلاك، وتدخل في كل شؤون المجتمعات حتى الاجتماعية والمدنية منها وتستهدف الهيمنة بشتى أنواعها، ثم أنها لاتعرف أي معنى للقيم الأخلاقية بل هي تسخر الأخلاق لتحقيق مآربها السياسية - كما رأينا في بيان المفكرين الأميركيين أخيراً - فلامجال للأمور المعنوية في قاموسها بل هي تعمل على محاربتها بما تمتلك من وسائل ومنها الوسائل الإعلامية الإباحية، كما أن العدالة عندها نسبية تتناسب مع مصالحها الضيقة، وبالتالي تطرح بوحشية لامثيل لها منطق الصراع بدلا عن الحوار، اما معيار العدالة والتقويم فليس إلا القوة والمصلحة الضيقة ولذا تستسيغ الكيل بمكيالين باعتبار الآخرين لايملكون استحقاق التعامل الإنساني - وفقا لنظرية بعض فلاسفتهم في تقسيم المجتمعات على أساس الحداثة - وقد وجدت اليوم اتباعا أكثر من المفكرين الغربيين وخصوصا في انجلترا وأميركا.

وأخيراً فقد قلنا إن العولمة الغربية تستغل الظروف المواتية لها دون أن تستند إلى فلسفة واقعية تبرر لها هجمتها المتوحشة.

### موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأن الرفض الانفعالي لن يؤدي إلى نتيجة، وإنما يجب التأمل واتخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال:

إن نقوم بوضع إستراتيجية عملية وواضحة وشاملة، ويتعاون الجميع على وضعها أولاً، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا أن نقوم بفضح النظريات التي مهدت لمثل هذه النظرة التخريبية. وبالنسبة للإستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

### عالمياً:

- ١- يجب علينا أن نعري الجانب الإيديولوجي للهيمنة الأميركية والمقصود الحقيقي من مقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخل وفتح الحدود وأمثال ذلك).
  - ٢- يجب علينا حذف هيمنة السوق على الجانب السياسي.
  - ٣- يجب تعميق قيم الإنسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الإسلامية.
  - ٤- يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.
  - ٥- يجب التأكيد على الهويات الإقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافتها.
  - ٦- يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنموية للشعوب.
  - ٧- يجب العمل على إعطاء الحريات والحقوق الأصيلة للشعوب.
  - ٨- يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.
  - ٩- يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوعة.
- وفي الإطار الإسلامي يجب علينا بالإضافة لما سبق:
- ١- أن نعمق الحوار بين المذاهب اتجاهها لتكوين الوحدة في الموقف الإسلامي.

- ٢- يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.
- ٣- يجب أن تطور دراساتنا الإقليمية والعالمية ونحقق الانفتاح على التاريخ لصنع المستقبل الأمثل.
- ٤- علينا أن نقوي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميقها.
- ٥- علينا أن نجمع بين الأصالة، والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروج للاجتهاد الجماعي، وغير ذلك مما يؤدي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.
- ٦- علينا أن ندعم قضية الصحوة الإسلامية.
- وأخيراً فإن علينا أن لانسى أن عولمة كبرى موازية قد امتدت إيجابياً وهي الاتجاه العالمي لنمو المعنويات وروح التدين لدى الشعوب والتفاهم بين القادة الدينين وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الفهم الشمولي للإسلام فهماً يجعله أمل هذه الأمة في احتلال موقعها الحضاري المطلوب.
- وإننا لنعتمد أن مظاهر هذا الاتجاه العالمي تتجذر يوماً بعد يوم حيث نشهد مثلاً:
- أ- اتجاه الجماهير في العالم الإسلامي نحو الدين بشغف ومطالبة العلماء بالتدخل المباشر في الحياة العامة وابداء الرأي في القضايا الملحة.
- ب- تحكيم دور الكنيسة السياسي والاجتماعي في العالم المسيحي وخصوصاً في الدول التي تشكلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وكذلك تحرير قوة البوذية المعنوية في صياغة القرارات الاجتماعية في جنوب آسيا.
- د- ازدياد الاقبال على النظريات والمؤلفات الدينية.
- هـ- اتجاه الأمم المتحدة الأخير نحو القادة الدينين كما في مؤتمري نيويورك وبنكوك.
- و- اتساع نطاق الحوار الديني بين الأديان المختلفة فيجب أن يقوم رجال هذه الأديان بواجبهم في دعم المسيرة المعنوية الصاعدة.
- وقبل أن نختم المقال، نود أن نؤكد أن العولمة هي إحدى مشكلاتنا في العالم الإسلامي. وهناك مشكلات أعمق، إن لم نهتم بحلها، فإن العالم الإسلامي سيبتلى بآثارها المدمرة والمذلة، ومن جملة هذه المشكلات:

١- الاختلافات الداخلية التي ينشأ بعضها من الأفكار والأعمال السخيفة من قبل مجموعة متحجرة ومتطرفة وبعيدة كل البعد عن المفاهيم والتصورات الإسلامية. وقد كانت هذه الثلة على مدى قرون منشأً للصراعات اللفظية وأحياناً مثاراً للحروب الدموية التي تؤدي إلى سفك الدماء وهتك الأعراض والخسائر البشرية والمادية والتخلف على مختلف المستويات.

والبعض الآخر وهو أخطر من القسم الأول ينشأ من مؤامرات أعداء الإسلام والمستعمرين واللاعبين الأجانب في الساحة السياسية. فهم يراقبون الوضع، فمتى ما رأوا أن المجتمع الإسلامي يخطو نحو وحدة الكلمة والائتلاف بقيادة علماء ومفكرين إسلاميين من قبيل المرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي (الأفغاني) والمرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم الإمام الشيخ محمود شلتوت والمرحوم الإمام البروجردي والمرحوم الإمام الخميني رحمهم الله جميعاً، نعم متى ما رأوا ذلك وأحسوا أن منافعهم تتعرض إلى الخطر راحوا يجركون عملاءهم المعروفين وغير المعروفين لطرح المسائل الخلافية من جديد وتحريك المسلمين ضد بعضهم البعض ليصطادوا في الماء العكر. والله تعالى يعلم كم ستجري الدماء وكم ستتهتك الأعراض وكم ستحرق الأموال العامة والخاصة، وبالنهاية سيحصل المستعمرون على مرامهم ولا يعود على العالم الإسلامي شيء سوى الخسارة. ويكفي أن نشير هنا إلى المصائب والفجائع التي ترتبت على الصراع الطائفي بين أهل الكرخ وأهل الرصافة في عصور الصراع الماضية، وكذلك نشير إلى الصراع الطائفي بين أتباع المذاهب في مدينة الري كما ينقل ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان، ويمكن أن نشير أيضاً إلى الصراع الدموي بين الصفويين والعثمانيين خلال أربعة قرون، مما أضعف الأمة ومهد لسيطرة الغربيين على بعض أجزاء العالم الإسلامي.

والقسم الآخر من مشكلاتنا ينشأ من عدم تعرّف أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة على بعضهم البعض مما أدى إلى أن يقوم بعض الكتاب والخطباء بطرح إشكالاتهم - عن حسن نية - في الكتب ووسائل الاعلام والندوات والمؤتمرات مما أدى إلى إيجاد سوء ظن متبادل بين الأخوة من المسلمين دون ما أي مبرر. فلو كان هؤلاء قبل أن يطرحوا آراءهم بحثوا عن الحقيقة وارتبطوا بعلماء هذه الفرق لكانوا على بينة من حقيقة المشكلات ولا ترفع سوء الظن والتفاهم، إلا أنهم مع الأسف لم يتجشموا عناء التحقيق، ولم يطالعوا المصادر الأصيلة التي تقبلها المذاهب الأخرى، وبالتالي ألقوا أنفسهم والآخريين في مثل هذه المشكلات.

٢- والمشكلة الثانية التي يعيشها عالمنا الإسلامي اليوم هي مشكلة تسلل الثقافة الغربية إلى العقول والافهام في المجتمعات الإسلامية، ونسيان الثقافة الإسلامية العميقة والعقلية والمتقنة، وعدم الاهتمام بالدراسات والمعارف القرآنية، مما أدى إلى انزواء الثقافة الإسلامية النيرة وانهار الأجيال الإسلامية النقية بفطرتها بالثقافات الغربية الدخيلة، إلى الحد الذي اعتبر فيه الإسلام سبباً للتخلف والجهل والفقر والمذلة، واعتبر سبيل النجاة منحصرأ في الذوبان في الثقافة الغربية، وتم الخلط بين التقدم العلمي والصناعي للغرب والثقافته المنحطة والإباحية والعلاقات الجنسية اللامشروعة التي تسحق العلاقات العائلية الطبيعية، ومن هنا غرقوا في مستنقع الفساد والتحلل.

ونحن اليوم وفي هذه الظروف الحساسة التي تفقد الثقافة الغربية فيها شكلها الخداع، ويتنامى الوعي الإسلامي والاتجاه نحو المعنويات، واليأس من المادية، فإن على العلماء والمفكرين الإسلاميين والمتألمين لحالة العالم الإسلامي، والمتطلعين لنشر المعرفة القرآنية، عليهم أن يقوموا بكل ما لديهم من قدرة علمية ومواقع اجتماعية لإنقاذ الجيل الشاب وكل الأناس الطيبين في العالم الإسلامي، عبر كل وسائل الاعلام من كل عوامل الفساد ومؤامرات الأعداء، ودفعهم للاهتمام بنشر المعارف القرآنية، والتصدي لاتساع رقعة الخلافات، والعمل على نشر روح الأخوة والمودة، وتعريفهم بالعواقب السيئة للثقافة الغربية، وتحريضهم للتحلي بالثقافة الإسلامية الأصيلة، وذلك لاستعيد تلك العظمة والمجد الإسلامي الفريد، والقدرة والعزة والسعادة التي أوجدها الإسلام في أتباعه، وتخلص من الذلة والجهل والفقر وتسلط الأعداء، ونجعل آيات القرآن الكريم نصب أعيننا إذ يقول تعالى: قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واوثلتكم لهم عذاب عظيم.

(١٠)

## المشكلات الثقافية والاجتماعية للعالم الإسلامي في ظل العولمة

لا ريب أن مسيرة التحول البشري، وتغير المعادلات الدولية، واتساع مجالات التعامل، واقتضاء عملية الخروج من المحاور الضيقة إلى المجال الإنساني الأرحب يتطلب إعادة النظر في النظام العالمي القائم أما تغييراً ثورياً كلياً أو تغييراً أصحاحياً يحدف منه ما لا ينبغي ويضيف إليه ما ينبغي على ضوء آخر ما توصلت إليه البشرية من القيم الإنسانية. ولا ريب أن الإسلام له تصوره الكامل عن الكون والحياة والتاريخ والإنسان والعلاقات التي تنتظم حياته وتحقق له الهدف من خلقته.

إلا أننا إذا تجاوزنا مسائل التنظير وركزنا على الواقع القائم وسعينا للعمل على إصلاحه اعتماداً على القيم الإنسانية التي بشر بها الإسلام وطبقها في فترات من سيطرته على الحالة الاجتماعية، فإننا سنجد أن الواقع القائم خليط من تخطيط قديم للعلاقات الدولية تراكم على مدى العشرات من العقود واثمر في منتصف القرن الماضي قيام الأمم المتحدة وبالتالي قيام المؤسسات العالمية التابعة لها بعد ذلك إلى جانب التحالفات الدولية والإقليمية الأخرى.. وقد شهدنا في العقود الأخيرة اشتداد انطراح فكرة العولمة متجاوزة حدودها الاقتصادية لتشمل مختلف المجالات الأخرى لتشكل اليوم أهم التحديات للنظام العالمي الذي وجدته الأمم المتحدة نفسها.

ومن هنا نرى أن الأجدى أن نتعرف شيئاً ما على العولمة وآثارها، والموانع الواقعية التي تقف بوجهها ثم نستعرض ولو بإيجاز الفروق بينها وبين العالمية الإسلامية لتعرض بالتالي إلى بعض مشاكلنا الثقافية والاجتماعية في ظل العولمة.

### العولمة: المفهوم والتعريف

ما زالت العولمة كظاهرة تطرح أسئلتها وتحدياتها بحدّة على العالم، وبالتحديد على المجتمعات والدول التي ليست في عداد قواها، ولا تجد نفسها قادرة على ممانعتها أو ضعيفة في مواجهتها.

إذ إنّ النظر الغالب لدى طيف واسع من المفكرين المنتمين إلى غير العالم الأول، يرجّح كون العولمة تكريساً صارخاً لانتصارات المجتمعات والدول الرأسمالية والصناعية المتقدّمة في مجال المنافسة الاقتصادية والعلمية والتقنية العالمية، من خلال إيجاد الفرص المتجدّدة لإحراز المزيد من المكاسب على صعيد تعظيم الثروة، والتفوّق في المجالات المختلفة، واحتكار الأسواق والمنتجات المتنوّعة.

ذلك لأنّ هذه الظاهرة باتت تؤوي مسائل ذات العلاقة بجوانب وزوايا إنسانية وحضارية وبيئية كثيرة، وتشير اهتمام المراقبين والأخصائيين بتلك الشؤون بشدّة، ومن المعلوم أنّ كلّ باحث - عادة - يركّز تحليله في بحثه على جانب معيّن يقع ضمن اختصاصه، ومن النادر أن تجد مرجعاً واحداً يتناول هذه الظاهرة من جميع جوانبها المتعدّدة. ومن هنا، فهل يمكن القول بأنّ مفهوم العولمة ما زال غامضاً في تعريفه أو تحديده، على الرغم ممّا كتب عنه؟

والمهم أنّه لا عجب من تكاثر الخطابات حول هذه الظاهرة، خاصّة وأنّ ثمة عالماً جديداً تتسارع خطواته من أجل أن تكتمل مراحل تشكيل نظام عالمي جديد يتزامن مع انبلاج ظهور هذه الظاهرة، إذ نحن إزاء فتح كوني على حدّ تعبير المفكر اللبناني علي حرب<sup>١</sup>، فتح يتزامن معه جملة تغييرات عملية يشهدها العالم، وسلسلة تطوّرات في خارطة توزيع الأدوار للدول القوية، يختلف عمّا كان يجري في السابق، بحيث يمكن الادّعاء بأنّ العولمة غدت واقعة العصر الأولى، وانقلابه الكوني الخطير!

إن مجريات الأحداث العالمية إذا ما قدّر لها السير على هذه الوتيرة، فإنّها ستمهّد بلاشكّ

١. نقلاً عن كتاب «ظاهرة العولمة: رؤية نقدية»: ٦١.



الطريق لإحداث واقع ثقافي مستقبلي جديد - مهما كانت صفته - وتكنولوجيا ذات تقنية عالية في مضمار علم الوراثة والاستنساخ، وزرع الأعضاء، وغير ذلك، مما يولد - كما يظنه البعض - طوفاناً رهيباً لا مفرّ منه، سيغمر العالم كله، وأمام هذا الواقع فإنه لا حيلة للضعفاء، ومن يعدّ في قائمة الدول النامية أمام الغول الثقافي والتكنولوجي الرهيب، الذي سيسعى إلى التهام الحضارات والتراث الإنساني على حدّ تعبير الشيخ كمال الدين جعيط<sup>١</sup>.

إن التقدم التكنولوجي المتسارع والمتواصل في قطاعات الصناعة - الخفيفة والثقيلة - ومجالات الإعلام والاتّصال، قد أخذت تحوّلاً ثورياً وعميقاً في مفهوم الزمان والمكان، تقلّصت معه جغرافية العالم إلى حدود قرية الكترونية صغيرة، الأمر الذي يسهل من خلاله استقطاب الشعوب والتأثير عليها، ومحاولة توجيه أنماط سلوكها، ومستوى مواقفها... وهذا من شأنه أن يخلق وعياً خاصاً وثقافةً جديدة، لا يحسّ المرء معها بالزمان ولا المكان، ولا الألوان السياسية أو الاجتماعية، فلاتجري فيه تبايناتا بعد توجيه الإمكانيات الهائلة للترويج والدعاية لمنتجاتها الجديدة!

### غموض وتعددية

ارتبط مفهوم العولمة بالتحوّلات التي كادت تكون خارقة للعادة، والتي أصابت المجتمعات والأمم المعاصرة، فحدث أشبه بالثورة التي قادت العالم برمته باتجاه التغيير المذهل في جميع المجالات، وعلى مستويات مختلفة، الأمر الذي أثار بصورة وأخرى في تهيج الأوضاع القائمة، وتأسيس مفاهيم جديدة، وتوجّهات تختلف عن السابق. يضاف إليه تدفق الأموال الغزيرة من خلال السيولة النقدية الواردة عن طريق التجارة والمعاملات والمعقود المبرمة بكثافة بين الشركات المتعدّدة الجنسيات والدول العديدة.

ومع ظهور مفهوم العولمة، حدث أن جرت توسعة مذهلة في مساحة هذه التغيّرات، تمتد إلى مجال الثقافة والسياسة والاجتماع والتربية والتعليم... مع ما رافقه من طغيان في المفهوم

١. انظر النظام العالمي الجديد: العولمة والتكتلات الإقليمية: ١٦ ورقد مقدمة إلى الدورة (١٤) من ندوة المؤتمر الإسلامي المنعقد بقطر ما بين ١/١١ - ١/١٦/٢٠٠٣م.

الاقتصادى والثقافى، لدرجة أن صار العالم أشبه بسوق استهلاكي كبير لمنتجات الشركات الصناعية الأكبر حجماً، والأعظم رأسمالاً، فضاعت وسط الزحام منتجات الشركات الصغيرة والدول النامية!

كما باتت الثقافة العالمية - على تعددها - ليست شيئاً سوى الثقافة الغربية، أو بالتحديد الثقافة الأميركية، لدرجة غير متصوّرة، ممّا هزّ مشاعر نخب العالم النامي، حتّى أنّ بعضهم عبّر عن هذه العملية بـ «أمركة العالم»، وجعله عنواناً لكتابه<sup>١</sup>.

حيث يقول في مقدّمته: اليوم قبل أي يوم آخر تجري أمركة الأمم والثروات، وكلّ ما يتّصل بها، وما يتلازم معها بشكل مختلف ومتنوع ومخيف ومثير. وما يميّزها في هذا الزمن هو أنّ أميركا تمثّل وحدوية حادّة في قيادة النظام الدولي، في نفس الوقت الذي تصرّ فيه على عدم التقيّد بأيّ من المبادئ التي تتعارض وبعض عناوينها الإستراتيجية<sup>٢</sup>. وهذا ما عبر عنه الرئيس الروسي بوتين بقوة وادانه في مؤتمر (الأمن العالمي) الذي عقد أخيراً في ميونيخ بالمانيا وإن كان استعار مفهوماً خطيراً من مفاهيمه هو مفهوم (الحرب الاستباقية).

فيما عبّر آخر عنه بـ «أمركة العالم وفرض الذوق الغربي»<sup>٣</sup>.

وعلى أي حال فالعولمة كظاهرة وإن بدت آثارها تظهر في الأفق، إلا أن موضوعها لا يزال صعب التحديد، عسير المنال في أن يتمّ وضعه ضمن إطار محدّد.

لكن السؤال الأساسي المطروح: هل العولمة جرعة خليطة من المصطلحات والمفاهيم التي تظهر على صفحات القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الحين والآخر، أم هو واقع حتمي القدوم بكلّ سلبياته وإيجابياته المفترضة؟

وفي ظلّ المعطيات المختلفة الجوانب، هل يمكن أن ندّعي بأنّ العولمة تكوّنت حضارة جديد تختلف اختلافاً كبيراً عن كلّ ما عرفه العالم في تاريخه الطويل من حضارات ومدنية، أم أنّه من

١. الشيخ جعفر حسن عتريسي، من منشورات دار الهادي - بيروت، ٢٠٠٢م.

٢. المرجع السابق.

٣. أحمد شهاب في مقال له تحت عنوان «نحو تناول علمي لمفهوم العولمة» نشرته مجلة «الكلمة» العدد

(٢٥) لسنة ١٩٩٥م.

باب المصادفة أن يكون بروزها ونموها على نحو مطرد ومتزامن مع التطور الحضاري الجاري؟

### حضور شهير في سبعينات القرن الماضي

رغم أن مصطلح العولمة قد بات من المفردات الأكثر رواجاً منذ نهاية القرن الماضي وحتى هذه اللحظة، فإن مصطلح الكوننة أو الكونية كان له حضور شهير في الأوساط الفكرية والثقافية آنذاك، وتحديدًا في أوائل السبعينات، بفضل مؤلفين شهيرين: الأول: كتاب مارشال ماك لوهان وكنت فيور، الذي يحمل عنوان War and Peace in the Global Village والكتاب الثاني كتاب زيغينو بريجنسكي واسمه: Two Ages Americans Role in the Technotronic era.

والأول ينطلق من تجربة فيتنام، والدور الخطير الذي لعبه التلفزيون في الحرب التي كانت دائرة في ذلك البلد الآسيوي البعيد عن القارة الأميركية، حيث استطاع أن يحول المشاهدين إلى مشاركين في اللعبة، الأمر الذي أدى إلى اختفاء الحدود بين القارتين، والحدود التي كانت قائمة بين المدنيّين والعسكريّين أيضاً!

والنتيجة كما استخلصها باحث معاصر من ذلك بأن الإعلام الإلكتروني في وقت السلم يجعل من التقنية محرّكاً للتغيير الاجتماعي<sup>١</sup>.

وكان الكاتبان قد استخدموا مصطلح الكونية Global في مؤلفهما، وبنفس الحماس فضل بريجنسكي<sup>٢</sup> هو الآخر وقتها مصطلح المدنية الكونية حينما تعرّض في كتابه لهذا الموضوع، وأشار إلى التشابك الحاصل في الشبكات الالكترونية - التكنولوجية، فصار أن سمّاه التكنوترونية أو التكنو - الكترونية، حيث يتزاوج الكمبيوتر بالتلفزيون بالهاتف بالاتصالات اللاسلكية حول العالم. وبفضل هذه التقنية الرفيعة المستوى، يمكن أن تساعد الولايات

١. الدكتور غسان العزي في مقال له تحت عنوان «جذور العولمة وإشكالياتها» نشرته مجلة «منبر الحوار» البيروتية في العدد (٣٧) شتاء عام ١٩٩٩م.

٢. زيغينو بريجنسكي، مستشار الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر للأمن القومي، وهو الذي سعى إلى أن تقدّم الولايات المتحدة ما أسماه حينذاك بالنموذج الكوني للحدثة في الحياة للعالم!!

المتحدة في أن تصبح المجتمع الكلي الأول في التاريخ؛ لأنها تقود أكثر من ٦٥٪ من مجموع الاتصالات المعالجة على حدّ تعبيره<sup>١</sup>.

ومنذ ذلك الحين حاولت البحوث والدراسات الأكاديمية أن توجه أفكارها، وسياق نشاطاتها بهذا الاتجاه، وشيئاً فشيئاً برزت ملامح متعدّدة عن هذه الظاهرة، فبدأت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى بتقديم ما يترجم هذه الظاهرة، ويشير إليها. واستناداً إلى التداعيات والآثار التي أبرزتها هذه الظاهرة على كافة الأصعدة والرصد الهائل الذي قام به المراقبون لتتائجها، والانعكاسات التي خلّفتها، سارعت الأقلام والألسن إلى صياغة عنوان يشمل مظاهرها واثارها؛ لغرض الدلالة على جوهرها الحقيقي، فلم تجد اسماً أفضل وأشمل وأنسب من العولمة لتطلقه على هذه الظاهرة المتعدّدة الجوانب، فكان هذا باعثاً مباشراً على رواج هذا المصطلح، وغلبته على المصطلحات الأخرى. غير أنّ المصطلحات جميعاً تشترك معاً في استخلاص العنوان الأكبر لهذه الظاهرة، والذي يتمثّل في:

**أولاً:** اختزال المسافات بين دول العالم، سواء أكان بالنسبة للمواصلات أم لوسائل الاتصال والمعلوماتية والخبرية أم عمليات التعامل في مختلف الحقول الإنسانية الحيوية رغم تعدّد الثقافات والانتفاءات والأعراق، فلا يجمع بينهم إلا الانتفاء إلى هذا العالم.

**وثانياً:** عملية ترويج لمفاهيم جديدة برزت إلى السطح كإحدى إفرازات هذه الظاهرة، مثل: التفاعل الثقافي، التداخل الحضاري، حوار الحضارات، التبادل الثقافي... وغيرها.

**وثالثاً:** تطوّر الأساليب التقنية، وفعاليات الأجهزة التكنو-الكترونية الحديثة واجتيازها الزمن بشكل جنوني، وبطريقة أكثر سرعةً من الطرق التي كانت سائدة في القرن الماضي، لتصل إلى أبعد نقطة من الأرض، وتم تصدير معلومات على مستوى كبير من الحداثة والسرعة، وانهيار الحدود والحواجز المانعة في المجتمعات والأمم، وعجز السلطات الصغيرة المحلية والمركزية عن كبح جماح هذا الانتشار المذهل.

١. انظر ظاهرة العولمة برؤية نقدية: ٩٥.

فعالم اليوم أصبح عالماً بلا دولة، وبلا أمة، وبلا وطن على حدّ تعبير الأستاذ عبدالجليل الوالي<sup>١</sup>، وبات الفضاء اللامحدود هو المكان الذي تتحرّك فيه أساليب الترويج المبتدعة، والمقرّ الرئيس لتشغيل آليات التحكّم عن بُعد في نقل المعلومات، وإنجاز المعاملات السريعة عبرها.

وقد نشرت إحدى المجالات المعنية بشؤون التكنولوجيا والفضاء خبراً مفاده أنّه تمّ الاتفاق بين خمس عشرة شركة أميركية وأوروبية ويابانية على مشروع يؤدي إلى تطويق الكرة الأرضية بكوكبة من الأقمار الصناعية، وإنشاء شبكة كونية *Global Network of Networks* كما أسمتها الإدارة الأميركية، لتكون البنية التحتية الكونية *Global Information Infrastructure* للمعلومات في عصر العولمة<sup>٢</sup>.

**ورابعاً:** الأثر البالغ الذي أحدثته هذه الظاهرة على الصعيدين: النظري والعملي في ميادين الحياة الإنسانية ومتعلقاتها، والأبعاد المتعدّدة التي تشتمل عليها الظاهرة، ومساسها لواقع الإنسانية والبيئة المحيطة بها، لأنّها بمجموعها تشير إلى العملية التاريخية الكبرى للإنسان، ومجريات مسيرته الحضارية الطويلة حتّى بلغ ما عليه الآن.

**وخامساً:** ظهور التيار المتحمّس والمتحيّز لهذه الظاهرة، الذي يعتبرها قدراً حتمياً لا مناص من قبوله بلا تحفّظ! بناءً على زعمهم بأنّها تمثل تطوّراً من أجل مصالح البشرية جمعاء أو تقدّماً طبيعياً لمراحل تطوّر البشرى باتجاه اللامحدود!!

وهذا الفريق الذي قد يطلق على أصحابه: المتعولمون (*Globalisers*) أو المتكوننون أو المتكوكبون... يرى بحماس غريب ضرورة وجود مراكز سلطة عالمية بديلة، تنافس غالباً بنجاح الدول والحكومات في تحديد اتجاهات السياسة والاقتصاد الكونيين!!

هذا وفي المقابل هناك تيار معاكس، يرفض الظاهرة بإطلاق تام، على أساس أنّها ليست

١. في مقالته «جدلية العولمة، بين الاختيار والرفض» المنشورة ضمن سلسلة كتب المستقبل العربي، العدد (٢٤)، يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية: ٢٢.

٢. انظر إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك، لأحمد مصطفى عمر، ضمن سلسلة المستقبل العربي، العدد (٢٥٦) السنة (٢٣) حزيران/يونيو عام ٢٠٠٠م: ٥٢ - ٧٣.

في حقيقتها سوى إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديمة، مع تغيير في الأسلوب والوسيلة، أو هي عبارة عن تحقيق أهداف الرأسمالية التي تتركز في الاستغلال، وكسب أعلى معدلات الربح وإن كان بوسائل أخرى جديدة!

وإلى جانب ذلك ثمة تيار ثالث توخى الحذر تجاه هذه الظاهرة، ووقع بوصف الظاهرة من جميع جوانبها: الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية... مع التحفظ عن إصدار أي حكم عليها. غير أن هنالك ثلثة من الباحثين والمراقبين المسلمين لم تتبنَّ أيّاً من الاتجاهات السابقة، بل راحت تراقب بتأمل وعن كثب كلّ إفرازات هذه الظاهرة، ومعطياتها الإيجابية والسلبية على السواء، ومقارنته بالشرع المقدّس، واستحصّال ما يمكن استحصّاله في هذا السياق؛ للاستفادة منها على جملة من الأصعدة.

### قراءة واعية وخطابات متعدّدة

لقد حاولت البحوث الأكاديمية أن تقدّم للعولمة مفهوماً أحادي الجانب، يقوم على أساس تخصّص الدراسة المعنية، واتجاه المركز الأكاديمي الذي قام بها، وعلى أساس تحديد الأسباب ورصد النتائج المستخلصة من الدراسة، مع أنّ ظاهرة العولمة تحتاج إلى صياغة نموذج متعدّد الأبعاد، من حيث:

- تعريفها
- نشأتها التاريخية ومراحل تطورها
- مفهومها
- تجلّياتها المختلفة
- تحدياتها ومخاطرها التي تفرزها
- انعكاساتها، سواء الإيجابية منها أو السلبية، بالنسبة إلى عالمنا الإسلامي على مستوى تياراته الفكرية، وقضاياها الاجتماعية والثقافية و...
- دورها في تعزيز الوحدة والتقارب بين المسلمين. وهذا إيماناً منا بضرورة إدراك المسلمين عموماً لهذه المسألة الحيوية بأبعادها المختلفة، وهي التي تشكّل مصدر قلق الدوائر المعادية للامة والفكر الإسلامي الأصيل.

## مشاكلنا في ظل العولمة:

وهنا نذكر بعض النقاط:

**أولاً:** مما سبق نستنتج أننا لا نستطيع أن نخطط لأية قضية حتى ولو كانت تبدو لأول وهلة داخلية بحتة - من قبيل قضايا التربية والاعلام والبيئة الداخلية وحركة الطاقة الداخلية والمسيرة الزراعية والتنمية العلمية، وحتى المناسبات والقناعات الفولكلورية - إلا إذا لاحظنا المسيرة العالمية للعولمة في كل هذه المجالات وإلا فسيكون تخطيطنا ناقصاً تواجهه موانع بعد ملاحظة الفضاء العولمي والنفوذ العميق لثقافة العولمة إلى كل مجالات حياتنا شتتاً أم أبيتاً.

وتلك بنفسها مشكلة تضغط على أنماط تخطيطاتنا.

**ثانياً:** إن مفهوم الدولة وقدرتها بدأ يهتز بشدة وبالتالي راح دور الضغط الخارجي، والمراقبة الكونية يزداد. وربما كان هذا ذا أثر إيجابي في مجال نفي الأساليب الديكتاتورية والقمعية وإدانة انتهاك حقوق الإنسان، إلا أننا نعلم أن العولمة لا تستخدم هذه العناوين البراقة إلا لتبرر تدخلها لتحقيق مصالحها الضيقة، فإذا رأت أن تدخلها ينقلب على أهدافه المخفية تخلت عنه، وهو بالضبط ما رايناه من تحلي أمريكا عن مشاريعها في الشرق الاوسط الكبير والجديد.

ثم أن هذا التزلزل لدور الدولة يهز معه كل قدراتها ويشل سيطرتها لتنفيذ برامجها الثقافية والاجتماعية.

**ثالثاً:** وهذا المعنى ينسحب على عملية التقنين والتشريع الثقافي والاجتماعي فيها نحن نشهد مؤتمرات التنمية والسكان، والمرأة تسعى جاهدة لتعميم الثقافة الغربية والتصورات الاجتماعية المنحرفة باسم (الحقوق الجنسية) و(الحرية الفردية للمراهقين) وأمثال ذلك، مضمنة ذلك في خانة حقوق الإنسان وهي الباب الواسع الذي تنفذ منه العولمة إلى جميع المجالات.

**رابعاً:** وتتدخل العولمة الإعلامية من خلال الجو الخائق للمعلومات المتدفقة عبر مئات المحطات الفضائية والانترنت لتغير الحقائق، وتثبط الهمم وتبث الشائعات وتمزق الأواصر، وتغير التصورات وتشكك في القناعات وتخلق الحزازات. وهذه امامنا المؤامرة الضخمة

التي تعمل على أن يخطئ العالم الإسلامي عدوه الحقيقي ويتوجه إلى أعداء وهميين، بعد تحريك الكوامن الطائفية والقومية والجغرافية والتاريخية فيه.

**خامساً:** وعلى نفس الوتر نذكر بالمشكلة الأخلاقية التي جلبها لنا اعلام العولمة فجعل الرذيلة والعري والتحلل وكل المحرمات مباحة معروضة في العلن امام شبابنا وكل من تتحرك فيهم الأهواء. والآنكى أنه خلق له قواعد ومحطات داخلية تصب حممها على الترابط الخلقى بين مجتمعاتنا فلا يستطيع الخيرون أن يصلحوا الأمر.

**سادساً:** وقد ابتلينا أخيراً بالتدخلات العسكرية الأمريكية تحت غطاء العولمة ومساهمة القوى العظمى في دفع الاخطار عن البشرية ومحاربة الإرهاب، بعد أن سوقت لمفاهيم عولمية خطيرة من قبيل مفهوم (الحرب الاستباقية) وأمثال ذلك.

وكانت التدخلات الخطيرة في أفغانستان والعراق ولبنان، والقائمة ممتدة، بالإضافة للعدوان الصهيوني المستمر في تطبيق الأجندة الغربية الممتدة.

ولاريب أن العالم كله قد شهد ما تركته هذه التدخلات من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية مدمرة عانت منها مجتمعاتنا كثيراً.

**سابعاً:** ربما كان من سخرية المسيرة اليوم أن نجد نظماً حاكمة تتذرع بالدفاع عن شخصية الأمة ووحدها وصمودها في قبال العولمة بتشديد الرقابة وزيادة القيود على الحرية وتكميم الأفواه ونشر الاستبداد، فتكون بذلك من قبيل المستجير من الرمضاء بالنار. وماهي في الواقع إلا ذريعة للتشبث بالحكم والسلطة وقد توافقها دول العولمة لأنها تؤمن لها نفوذها وهيمنتها وهو المقصد الأول في كل العملية العولمية.

### وفي الختام:

ندعو كل العقول الخيرة أن تعمل على اكتشاف أبعاد ظاهرة العولمة، ومعرفة مساقطها في حياتنا الثقافية والاجتماعية وغيرها، ومحاولة تحويل التهديدات إلى فرص تستفيد من كل حالة وترفض أبعادها السلبية. وهذه هي الصفة القرآنية للمؤمنين الواعين ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.



(١١)

## المنطقة مقبلة على سايكس بيكو جديدة إذا ما سيطرت أميركا على العراق

شدد سماحة الشيخ آية الله محمد علي التسخيري الأمين العام لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية على ضرورة وقوف العالم الإسلامي خلف الانتفاضة الفلسطينية ودعمها، مشيراً إلى أن العمليات الاستشهادية باتت اليوم المتنفس الوحيد لمواجهة العدو الصهيوني، وانها تشكل نمطا جهاديا ضخما.

وقال في حوار شامل مع الوطن أن الشعب الفلسطيني والمقاومة وقادتها هم الذين يقررون ما إذا كانت المواجهة مع العدو تقتصر على الساحة الفلسطينية أو خارجها، موضحاً أنه في حالة اختيار قادة المقاومة الأسلوب الامثل لمواجهة العدو، فإن الأمة الوقوف خلف هذا الخيار ودعمه، داعياً إلى عدم الالتفات للتسويات السياسية التي حسب رأيه أنها لم تثمر شيئاً ولأهمية اللقاء إرتأت رسالة التقريب إعادة نشر المقابلة.

### التحرير:

وصف سماحته العمليات التي يقوم بها البعض ضد الاجانب المدنيين كما حدث في اليمن والاردن ولبنان بأنها عمليات منفلثة وإرهابية، وضررها أكثر من نفعها.

وانتقد بشدة المواقف الأميركية حيال قضايا العالم الإسلامي، وقال إن تاريخ الولايات المتحدة الأميركية لا يؤهلها لقيادة العالم فيما تسميه بمكافحة الإرهاب، ووصف ما حققته في أفغانستان بأنه نصر ناقص، وأنها مازالت راکسة في الطين الأفغاني. وفيما يلي نص الحوار:

- بداية سماحة الشيخ حبذا لو تسلطون الضوء على القضايا التي خرجتم بها من

اجتماعات مجمع الفقه الأخير بالدوحة:

- نحن نقدر استضافة هذه الدورة، ونعتقد أنها دورة هامة وناجحة، وأن الموضوعات التي طرحت فيها موضوعات حساسة، كانت الأمة بحاجة إلى أن يبين العلماء آراءهم الفقهية حيالها، وأعتقد أن كل الموضوعات هامة، وإن كانت الموضوعات السياسية مهمة منها النظام العالمي الجديد (العولمة) والتكتلات الإقليمية، أو موضوع حقوق الإنسان والعنف الدولي، فهذان موضوعان درسا من زاوية الفقه السياسي، وهناك موضوعات أخرى مهمة ويعيشها العالم الإسلامي، ويحتاج إلى قرار فيها، مثلا عقود المقاولات والتعمير أو الشركات الحديثة القابضة. أو عقود الاذعان.. وهذه قضايا يعيشها العالم الإسلامي ويحتاج إلى الموقف الفقهي حيالها، وهناك موضوعات أخرى عديدة هامة.

وعلى الرغم من هذه الإيجابيات والنتائج الجيدة التي خرج بها الاجتماع، إلا أن الذي حز في نفوسنا أن بعض التصرفات الفردية منعت أن تبدي الاغلبية موقفها من أهم القضايا التي تعيشها الأمة، وهي القضية الفلسطينية، وأهم ما فيها العمليات الاستشهادية، إضافة إلى القضية العراقية التي تواجه اليوم ظروفًا صعبة جدًا، فقد كانت هناك أكثرية متجهة نحو تحديد الموقف، إلا أن بعض التصرفات الفردية منعت من مرور رأي هذه الأكثرية في البيان، ولولا هذه القضية لكان المؤتمر ناجحًا جدًا سواء بموضوعاته أو بتنظيمه أو حرص العلماء على حضور الجلسات أو من حيث وسائل الاستضافة الأخرى.

### تغيب الاستشهاد

- إذا كانت هاتان القضيتان اللتان تعيشها الأمة الإسلامية هذه الايام، فلسطين والعراق، وقد غيبتا عن الاجتماع.. فهل يعني ذلك أنه قد حصل تقصير خلال هذه الاجتماعات؟

- الاجتماع من حيث مضمونه ناجح جدًا على الصعيد الفقهي، وعلى الصعيد الفكري أيضاً، لكنه على الصعيد السياسي لم يحقق النجاح المطلوب، لأنه خيب آمال جماهير الأمة لكي يبدي بوضوح الموقف العلمي الفقهي المطلوب من أهم ما نتبلي به في عالمنا اليوم، فالهجوم على العراق - رغم ما لدينا من تحفظات على شكل النظام - برغم تحفظاتنا سوف يمنح أميركا فرصاً أخرى لتنفيذ ما طرحته من نظام عالمي جديد تستغله لبسط نفوذها على أرجاء العالم، وفي المقدمة العالم الإسلامي. أو القضية الفلسطينية التي يراد تصفيتا لترفع

من نفوذ هذا النظام العالمي وتنفس القضية الفلسطينية والذي يقض مضجع العدو الصهيوني هو العمليات الاستشهادية.

### القضية العراقية

- حتى لا نخرج عن القضية العراقية، لقد شهدنا مناصرة لهذه القضية من قبل المنظمات والهيئات الحقوقية والشعبية في أوروبا، وآينا وفودا عربية تذهب إلى بغداد للتضامن مع الشعب العراقي، لكننا لم نشاهد وقفة فعلية لعلماء الأمة مع الشعب العراقي بمعنى لم نشاهد وفدا إسلاميا من العلماء يذهب للعراق تعبيراً عن تضامن الأمة؟

- انا لا أرى جدوى في هذا الوفد الذي يزور العراق، الأهمية المعلقة على تحريك جماهير أمتنا من قبل العلماء الذين كانوا موجودين بالدوحة كان عليهم أن يقوموا بطرح كلمة الحق وأن يحركوا الشارع الإسلامي في أرجاء الأمة وبالتالي يحركوا القادة المسلمين للتكاتف، لوقف هذه الضربة؛ لأنها إذا نفذت وتحققت السيطرة الأميركية على العراق فإن هذه الخطوة لا تحمد عقباه، ونستطيع من الآن تصور تغيير في الخارطة السياسية أو سايكس بيكو جديدة في المنطقة، مركزها إسرائيل وصيانتها والحفاظ على مصالح القوى الكبرى في المنطقة. ولا استبعد أن تتحول هذه الضربة إلى ضربات متتالية لمناطق ودول أخرى أو لما تسميه واشنطن بمحور الشر؟ وبالتالي فإن الصحيح في الأمر هو توعية الشارع الإسلامي وتعبئة هذا الشارع ومن ثم دفع القادة والرؤساء لايقاف هذا التهور الأميركي الصارخ كجزء من خطة النظام العالمي الجديد، الذي يتبدى بتحد كبير آخر لكل الأمة وجوداً وثقافة واقتصاداً وامناً، ذلك التحدي هو تحدي العولمة التي تحاول أميركا أن تتركب موجتها.

نحن لسنا ضد الاتجاه العالمي الإنساني والعلاقات الدولية الطبيعية الطيبة للإسلام منذ أن انطلق بنظرة عالمية ولكن هذه القوى تريد أن تتركب هذه الموجة، وأن تستغل العولمة لتحويلها إلى مجرد امركة للعلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية، هذا الذي نخشاه، وهذا الذي بين علماء الأمة رأيهم أيضاً فيه.

## إستراتيجية أميركية

- ساحة الشيخ هل تعتقدون أن المنطقة مقبلة على مرحلة تقسيم وإعادة تشكيل وتشيت لمقدراتها؟

- هذا بالضبط ما اراه ويراه معي كل منصف وبوضوح نحن نعتقد أن هناك إستراتيجية أميركية طرحت في التسعينيات وتعتمد على امور: أهمها اظهار التفوق الأميركي، حتى على الغرب نفسه، وفي كل مكان. والأمر الثاني استهداف ما تسميه بـ الإسلام المسلح وتقصد به الإسلام السياسي، الإسلام الذي يطرح نفسه كبديل أو كند للحضارات القائمة، أميركا تحاول ضرب هذا الهدف.

فالمنظرون الأميركيون مهدوا لتنفيذ هذه الإستراتيجية من خلال نظريات هانتغتون وفوكاياما وغيرهما هؤلاء صوروا للغرب وللعالَم أن الغرب هو محور التقدم الحضاري، أو هو نهاية التاريخ، وأن الصراع الحضاري لا بد أن يتم وأن العالم الإسلامي على ابواب تحول كبير، فاذا اراد أن ينجوا من آثاره السيئة عليه أن يتبع النمط الغربي كنموذج حضاري. وهذا أمر يرفضه قرآنا وترفضه ثقافتنا وترفضه عزتنا وكرأمتنا والقرآن الكريم يقول: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا فهذا شهود حضاري دعانا اليه القرآن ولكن للأسف نعيش مواقع الذيلية.

## صد الهجمة

- مواقع الذيلية كيف للامة أن تخرج من ذلك وكيف للامة أن تصد الهجمة الصهيونية أميركية الحالية؟

- نحن بحاجة إلى كثير من الامور. نحن بحاجة إلى تعميق الدراسات المستقبلية، لننظر إلى ما هو ابعده من مواقع اقدامنا، وبحاجة إلى توعية جماهيرية شاملة بالإسلام أولا وبمقتضيات العقيدة وتوعية بالعدو والخطة المعادية لهذه الأمة وأهدافها، وبالتالي على مفكرينا رسم الإستراتيجية المطلوبة لمواجهة العولمة، مواجهة واقعية؛ بحيث تستفيد الأمة من إيجابياتها وتتجنب سلبياتها الماحقة لوجودنا واقتصادنا وثقافتنا، بل لكل شيء في وجود هذه الأمة. نحن بحاجة لوضع الخطة المطلوبة والتكاتف والتوحد لتنفيذها، وإلا فإننا سوف نتلى بالفتنة والفساد. وقد كان آخر مقال يكتبه المرحوم المفكر أبو الحسن الندوي إلى مؤتمر

القمة الإسلامي في قطر قبل أن يتوفى، وكانت رؤاه إسلامية شاملة، آخر ما كتبه وارسله إلى كتاب الأمة في قطر الذي وجه إلى قادة وزعماء العالم الإسلامي في اجتماع قمتهم التاسعة بالدوحة كان، يؤكد على قوله تعالى والذين كفروا بعضهم اولياء بعض، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. فالعدو قد اتحد على الرغم من تنافره، إلا أنهم اتحدوا وصار بعضهم اولياء بعض، وإن لم نتحد ونشجع نمط التعاون تكن فتنة وفساد ونحن اليوم نبصر بوضوح هذه الفتنة وهذا الفساد، خصوصا بعد التحرك الأخير، وبالتالي نحن بحاجة للوحدة الإسلامية والعمل على تنفيذ خطة إستراتيجية على ضوء دراسات مستقبلية.

### تفعيل المؤسسات الشمولية

- في المنظور القريب هل بالامكان حدوث توحيد للدول الإسلامية؟  
- التوحيد بين دولنا الإسلامية في الوقت الراهن يكاد يكون مستحيلا ولكن نطالب بتفعيل مؤسساتها الشمولية لتشكّل موقفا متكاتفا وتكتلا امنيا اقتصاديا وسياسيا قويا يمكنه أن يلعب دورا على الساحة السياسية، ويمنع ضربات العدو لهذه الأمة. ويكفي أن ننظر للمثل الكوري الشمالي هذه الدولة الصغيرة جدا والتي تصغر بكثير عن العديد من دولنا الإسلامية، ولكن لقوتها اولا ولقدرتها السياسية في جذب التلاحم المنطقي والإقليمي معها فإنها تتحدى أميركا بكل قوة، وأميركا مجبرة للتعامل معها بلغة المرونة والليونة والحوار لكي تتقي خطرها.  
أقول إن العالم الإسلامي اليوم لا يمتلك القدرة التي تمتلكها كوريا ليفرض ذلك على أميركا، وعليه فإني اتجه لجماهيرنا الإسلامية؛ فقلوب المسلمين في انحاء العالم متحدة وكل الجماهير الإسلامية لديها شوق لمستقبل زاهر وتقف صفا واحدا ضد أية ضربة لاي دولة إسلامية.  
ومن هنا أرى أن العلماء عليهم واجب كبير في هداية وارشاد هذه الجماهير نحو الأهداف المنشودة.

### القنابل البشرية

- مادام العلماء قد تحفظوا على طرح العمليات الاستشهادية.. فهل نتنظر من العالم الغربي دعم ومساندة المنظمات المقاومة أو الوقوف بحياد؟  
- اود أن اوضح أن العلماء لم يتحفظوا عليها فالأكثرية الساحقة من العلماء طرحوا هذه

العمليات الاستشهادية كنمط جهادي ضخم وكقنابل - كما عبر عنها فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي - بشرية في مقابل القنابل الذرية، وجاءت التعبيرات كلها تدعم هذه القضية. ولا أعتقد أن هناك تحفظاً من قبل العلماء فالاتجاه العام كان هو اتجاه تأييد، لكن الذي افشل ذلك وجود بعض التصرفات الفردية ولا استبعاد وجود ضغوط سياسية على المجتمع.

العدو والغرب يعلمان أن علماء العالم الإسلامي يقفون تماماً خلف العمليات الاستشهادية، لا لشيء إلا لأنه لم يبق لهذه الأمة إلا هذا المتنفس، فالعدو يقتل شعبنا في فلسطين، ودمروا قراهم، واغتالوا قادتهم واطفالهم، منعوا حتى العمليات الانتخابية البسيطة داخل الأراضي الفلسطينية، ولم يبقوا لهم شيئاً آخر حتى ما تعهدوا به في وثائق مكتوبة ومشهود عليها نقضوه ورفضوا كل هذه التعهدات، فلم يبق للشعب الفلسطيني إلا متنفس الجهاد والعمليات الاستشهادية، فاذا اغلقنا هذا المتنفس فما الذي يبقى لشعبنا في فلسطين؟

### طريق الاستشهاد

- ساحة الشيخ.. برأيكم أيهما يمكن أن يرد الحقوق إلى الشعب الفلسطيني.. طريق المفاوضات أم طريق العمليات الاستشهادية؟

- الجواب اثبتته اتفاقيات اوسلو ومدريد وكامب ديفيد وواي ريفر.. كل هذه الاتفاقيات وغيرها سحقها شارون تحت قدمه، ووقفت أميركا بكل صلف لتعلن أن شارون بطل السلام، ولتمنحه الضوء الأخضر ليسحق شعبنا في فلسطين، فشعبنا اليوم يسحق، ومن الواضح جداً أن المسيرة السياسية لن تؤدي إلى شيء، ولن تثمر شيئاً، لأن شارون خطة عالمية، وليست خطة خاصة، وبالتالي يجب أن يقابل منطق القوة بمنطق القوة، وقد رأيتم كيف أن فئة قليلة في جنوب لبنان قد هزمت العدو في صبر وتحذ، بعد أكثر من ٥٠ عاماً لم يهزم العدو بمثل هذه الهزيمة، إذ خرج ذليلاً صاغراً، واعترف بقدرته المقاومة. يجب أن نقف بقوة خلف الانتفاضة، وخلف المقاومة، وإلا تغرنا التسويات السياسية المطروحة، لأنها لن تثمر شيئاً.

### القرار للمقاومة

- هناك من يرى ضرورة توجيه الضربات للعدو الصهيوني في كل مكان سواء داخل

فلسطين أو خارجها.. فهل ترون أن في ذلك جدوى لاجبار العدو للرضوخ إلى مطالب الشعب الفلسطيني؟

- أعتقد أن يد الشعب الفلسطيني يجب أن تكون مفتوحة ومتى ما قرر ذلك فإنه يجب أن نقف خلفه، فالشعب الفلسطيني والمقاومة وقادتها أعلم بما ينبغي فعله في هذا المجال، وهذه المرحلة. أعتقد أنه إذا ما قرر الشعب الفلسطيني ومقاومته وقادته ذلك فيجب أن تقف الأمة خلفه، وإذا ما رأى أنه من الصالح اقتصار العمليات على الداخل يجب أن تقف الأمة خلفه أيضاً، أنا لا أستطيع أن أقرر موقفاً معيناً ولكن أقول يجب أن نترك الأمر لقادة الانتفاضة ليقرروا الموقف المطلوب، ولكن مبدئياً فإن العدو يجارنا في كل مكان، فيجب علينا أن نلاحظ هذه الحرب الشاملة، ولا نسمح للعدو بالنفاذ إلى حصوننا في أي مكان، ومن أي منطقة فالمرحوم الشيخ الداعية محمد الغزالي كان يقول إنهم يمتدون في فراغنا يجب أن نحصن عالمنا الإسلامي، يجب أن يكون عالمنا الإسلامي صامداً ومدافعاً عن نفسه ولا يسمح لأي خلل ينفذ من خلاله العدو.

### العمليات المنفلتة مرفوضة

- خلال الأشهر الماضية وقعت اغتيالات لشخصيات أجنبية في اليمن ولبنان والأردن، فهل تعتقدون أن القيام بمثل هذه العمليات يكون في صالح الإسلام إذا ما ثبت أن منفذها من المسلمين؟

- أنا لا أؤمن بمثل هذه العمليات المنفلتة ويمكنني أن أسميها بعمليات إرهابية، وربما كان ضررها أكثر من نفعها، ولكنني أقول بأن حوادث الحادي عشر من سبتمبر أعطت أميركا ذريعة لأن تقود حملة شرسة ضد العالم الإسلامي باسم محاربة الإرهاب، هذه الحملة لو جرت تحت مظلة دولية وبموافقة الدول كلها لاستبشرنا خيراً لاجتثاث جذور الإرهاب في العالم، لأن الإرهاب مشكلة عالمية والإسلام لا يرضى بالإرهاب وتخويف الأمنين، إلا أن أميركا وبصلافة غيرت منطق العمل وحولت الأمر إلى مسرب لتحقيق مصالحها، وبالتالي اتبعت سلوكاً لا منطقياً من خلال جعل نفسها المدعي والحكم والقاضي والشرطي المنفذ، أميركا خانت قضية محاربة الإرهاب عندما اتبعت هذا الأسلوب والغريب أنها تملك تاريخاً

مليئا بالإرهاب. سواء كان إرهابا فرديا أو دوليا ويكفيها أنها الداعم الأول للإرهابي الأول الرسمي شارون واسرائيل منذ أن انشئت حتى اليوم.

إن تاريخ أميركا ومنطقها لا يسمحان لها بقيادة العالم لمحاربة الإرهاب وبالتالي فهي تتهم من تشاء وتربط كل قضية بما تشاء، وهي اليوم تعمل من أجل تحقيق أهدافها وبسط نفوذها من خلال هذه المظلة سواء هذه المظلة في محاربة الإرهاب أو حقوق الإنسان أو العولمة أو الدفاع عن الحرية.. هذه شعارات براقه استغلّت وركبت موجتها لتحقيق أهداف توسعية.

وانني اتوقع شرا كبيرا إذا ما انتصرت الولايات المتحدة الأمريكية في القضية العراقية لأن أميركا حققت نصرا ناقصا في أفغانستان فهي ما زالت راکسة في الطين ولولا تعاون قوات الشغال في أفغانستان معها لما استطاعت الدخول وتحقيق ما حققته، هذا النصر الناقص استغلته لبسط نفوذها على العالم فكيف إذا انتصرت نصرا كاملا على العراق عندها ستنمر وتستأسد أكثر وتفتح شهيتها لبسط تفوقها على العالم.

### أسلحة دمار شامل

- في ضوء هذه الهجمة الأميركية والاسرائيلية على الأمة الإسلامية.. هل تدعون الدول الإسلامية لامتلاك قنابل نووية واسلحة ذرية لمواجهة هذه التحديات؟

- إذا أردنا النظر لهذه القضية نظريا فهذه كلها قوى يجب تسليح العالم الإسلامي بكل ما يعطيه التأهب لمواجهة العدو وكل ما يساعد في هذا الأمر انطلاقا من قوله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ولكن على صعيد الواقع العالمي هناك اتفاقيات دولية، هذه الاتفاقيات يجب أن تراعى كالاتفاقيات الخاصة بانتشار اسلحة الدمار الشامل هذه الأمور يجب مراعاتها فليس من المصلحة نقض هذه الاتفاقيات الدولية ولكن ذلك لا يجب أن يحدنا من الوصول إلى النقطة الأكبر لتقوية موقفنا امام الأعداء.

- لكن هناك اسرائيل تضرب بكل الاتفاقيات والقرارات الدولية عرض الحائط.. وها هي اليوم سيده المنطقه ولها معاملة خاصة بين دول العالم!

- أعتقد أن الدول الإسلامية استطاعت أن تجمع نفسها ولو استطاعت أن تمهد الظروف المناسبة للرقى في مختلف المجالات العلمية وبالتالي تحدي الموقف الأميركي الظالم أو الموقف



الدولي الذي يفسح المجال للعدو لأن يقوى ولا يفسح المجال للعالم الإسلامي أن يسير في مساره الطبيعي لو استطعنا تكوين الأرضية المناسبة فإن الأمر له.

## اين الخلل؟

- سماحة الشيخ.. هناك العديد من التوصيات والفتاوى صدرت سواء عن مجمع الفقه الإسلامي أو العلماء ولكن لا نجد لها صدى مؤثراً وقويًا في الشارع العام، على عكس مثلاً البابا الذي عندما يدعو لقضية ما فإن أتباعه ينصاعون لذلك، فأين الخلل في الشارع الإسلامي أو العلماء؟

- أعتقد أن هناك خللاً في الإرادة، بمعنى أن هناك تراخياً في هذه الإرادة، وهناك نقاط ضعف في الإرادة الفردية والاجتماعية للامة الإسلامية، مظهرها أيضاً خلل في الإرادة السياسية للدول المنتسبة للإسلام، الآن يمكن طرح نفس هذا السؤال حول منظمة المؤتمر الإسلامي، لماذا لا تستطيع المنظمة تشكيل كتلة إسلامية قوي يدافع عن وجود هذه الأمة؟ أعتقد أننا بحاجة للإرادة السياسية، فعدد الدول الإسلامية يصل لنحو ٥٦ دولة، ولكن الإرادة السياسية فيها خلل، ومنظمة المؤتمر الإسلامي انعكاس لخلل الإرادة السياسية، وليس معنى ذلك الدعوة للتخلي عن المنظمة، بل أريد التأكيد على ضرورة تفعيل هذه المنظمة من خلال منحها الطاقة المستقلة للعمل، ومن خلال إيجاد الإرادة السياسية المطلوبة. على صعيد أمتنا أيضاً يجب أن يعمل المخلصون والمفكرون، وتعمل كل أجهزة الإعلام، بدلاً من انغماسها في مظاهر اللهو والفساد والتميع واضاعة الفرص وما أكثرها، ففي رمضان شهر الصبر والجهاد يطرحون مسابقات العري والمسابقات التجارية والسخافات التي لا تؤدي إلا إلى اماتة الإرادة.. يجب أن يتعاون الجميع لبعث الإرادة الإيمانية الموجودة أصلاً فإذا بعثت الإرادة حينئذ تصبح التعاليم الإسلامية أوامر يومية تنفذها الأمة تماماً كما في عصر رسول الله ﷺ فعندما كانت الآية القرآنية تأتي لعمل الجميع على انزالها لواقع التطبيق، وعندما يأمر رسول الله ﷺ كان المجتمع ينفذ ذلك بكل اصرار في كل شؤون حياته. يجب أن تستعيد المؤسسة الدينية في العالم الإسلامي منزلتها وقدرتها من خلال ارتباطها بالنبوة، يعود لها الموقع المناسب حتى تستطيع أن تهدي الأمة إلى تعاليم الإسلام وتطلب من الأمة تنفيذ هذه التعاليم.

هذا الخلل في الإرادة وهذا الخلل في الموقع هو الذي يؤدي إلى ما اشرتم اليه على كل الاصعدة السياسية والاقتصادية. نحن في عالمنا الإسلامي ألسنا مأمورين بالتكافل ففي رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أي مؤمن وجد في مؤمن شيئاً مما يحتاج اليه وهو يقدر عليه ولم يشبعه حشره الله يوم القيامة مزرقة عيناه مغلولة يدها إلى عنقه ثم يقال له هذا الخائن لله ورسوله ثم يؤمر به إلى النار. واقعنا ماذا يقول؟ هل نحن نعيش هذه الحالة؟ هل كل فرد منا يشعر بالآلام وآمال كل فرد في الأمة الإسلامية؟

نحن مأمورون بالتكافل والتعاون والتساند، ولكن أعلى نسبة تطرح للتبادل التجاري فيما بين العالم الإسلامي ربما لا تتجاوز ٧٪.

نحن لدينا الوعي، ولكن ليس لدينا الإرادة والعدو يعمل على بقاء هذه الحالة، فهو ممتد إلى كل واقعنا، ويستخدم كل الأساليب، ونحن لا نستطيع أن نلومه، لأنه يريد تحقيق مصالحه ووجوده يجب أن نلوم أنفسنا بأن فسحنا له المجال لينفذ إلى أحزابنا وقادتنا وبعض مفكرينا ومثقفينا.

### الشيعة والسنة

- بين فترة وأخرى نسمع عن خلافات بين السنة والشيعة، ونعرات تثار هنا وهناك، كيف يمكن إغلاق هذا الباب وتوحيد الأمة؟

- هذا حديث مليء بالحزن ومليء بالأمل أيضاً، نحن عندما آمنا بأن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة وعندما آمنا بأن الاجتهاد هو أسلوب حر مفتوح له العمل في الإسلام، وعندما نؤمن بقضايا الوحدة الإسلامية كدعوى قرآنية والاخوة الإسلامية كدعوى أخلاقية اجتماعية قرآنية، نجد أن من الطبيعي أن تعمل الأمة جميعاً على ابقاء خلافاتها الفكرية في مواقعها واتخاذ الموقف العملي الواحد تجاه قضاياها الرئيسية وحينئذ تكون المذهبية ثراء وغنى فكرياً لهذه الأمة، تستطيع من خلالها أن تعيش المرونة وتتعامل مع الوقائع الحادثة بكل واقعية. مع الاسف تحولت المذهبية في مسيرة تاريخنا إلى طائفية مقبنة والى عدااء قاتل بفعل عوامل كثيرة منها الجهل سواء بين بعض العلماء وبين الطبقات الأخرى ثم التعصب الاعمى والمصالح السياسية لبعض الحكام الذين حكموا تاريخ أمتنا بالحديد

والنار إضافة للعوامل الخارجية والأيادي الخارجية التي تشعل وتذكي أوار الفتنة بين المسلمين. هذه العوامل الرئيسية دخلت إلى ساحتنا وتركت هذه الفرقة الطويلة التي جرت نتيجتها انهارا من الدموع والدماء في تاريخنا الطويل ولكننا نأمل خيرا. بعد أن انطلقت دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ارتاب البعض من هذا الطرف أو ذاك في هذه الدعوة، وربما اتهموها بانها دعوة لتذويب المذاهب او، لتغليب مذهب على آخر، أو لتسريب عناصر غريبة، لكن ولله الحمد أن هذه الدعوة بقيت صافية ونجحت في إثبات شفافيتها ووضوحها واخلاصها وتقبل الجميع اليوم هذه الدعوة ونحن اليوم نشهد تطورا في التقارب بين المذاهب، وهذا يؤدي إلى تأليف القلوب والتفاهم الأكبر بين بعضنا البعض وتغليب لغة الحوار على لغة الصراع وأعتقد أننا بحاجة على الصعيد العالمي إلى ثلاثة خطوط حوارية.. حوار بين الحضارات وحوار بين الأديان وحوار بين المذاهب الإسلامية لكي نغلب المنطق الإنساني على المنطق التوحشي.



(١٢)

## التفاعل بين الأدبين العربي والفارسي

### (أدب سعدي نموذجاً)

بنام خداوند جان آفرين	حكيم سخن در زبان آفرين
خداوند بخشنده دستگیر	كريم خطا بخش پوزش پذیر
الحمد لله رب العالمين على	ما درّ من نعمة عزّا اسمه وعلا
الكافل الرزق إحساناً وموهبةً	إن احسنوه وإن لم يحسنوا عملاً

لم أجد أنسب في هذا المقام من أن أفتتح حديثي بنموذجين من شعر أفصح المتكلمين الفرس سعدي الشيرازي، الأول يتضمن مطلع قصيدته الديباجة في ديوانه البوستان، والثاني مطلع إحدى قصائده العربية، لتكون البداية تيمناً بأدب سعدي في البسمة والذكر والحمد، وبعد.. إن انعقاد هذا المؤتمر في إيران، بالتعاون بين مؤسسات عربية وإيرانية، احياء لذكرى شاعر إيراني عالمي كتب شعره بالفارسية والعربية، دليل آخر على استمرار حالة التوأصل الأدبي والثقافي بين العرب والإيرانيين منذ عهد صدر الإسلام وحتى الآن، وهو خطوة مهمة ورائدة باتجاه دراسة هذه الحالة والسعي لتعميقها وتركيز مفاهيمها بمناهج علمية وأساليب معرفية رصينة. وأود بهذه المناسبة الكريمة أن أطرح موضوع العلاقة الثقافية بين العرب والإيرانيين ونوعية هذه العلاقة وانعكاسها على الجانب الأدبي، مع التركيز على الشاعر سعدي نموذجاً. والحقيقة أن استيعاب مضامين هذا الموضوع يستدعي تناول ثلاث محطات رئيسية: الأولى تتوقف فيها عند طبيعة التكامل الثقافي بين العرب والإيرانيين، والثانية تنظر إلى التفاعل بين

الأديين العربي والفرسي، والثالثة نرصدُ موقع سعدي في ميدان التكامل الثقافي والتفاعل الأدبي. وتتطلب أهمية الموضوع وحجمه جهداً بحثياً واسعاً، الأمر الذي لا يسمح به الوقت المقرر للكلمة. وبالنظر العبور على بعض محطات الموضوع، للترابط الوثيق بينها، فسأضطر إلى تناول المفصلات الرئيسية لهذه المحطات، وبشكل تأملات وخطوط عامة، تاركاً البحث التفصيلي لهذا اللقاء الكريم.

### أولاً: التكامل الثقافي بين العرب والإيرانيين:

في هذا المحور، أوضح ابتداءً ما أعنيه ببعض الاصطلاحات الواردة في العنوان، لقد استخدمت هنا مصطلح الإيرانيين بدلاً عن الفُرس، وأعتقد أنه الاستخدام الأصح في وصف الظاهرة، إذ أن الإيرانيين هم كل الاقوام الذين عاشوا في بلاد فارس، ومنهم الأكراد والعرب والبلوش والتركمان والتاجيك والأوزبك والآذريون، إضافة إلى الفُرس، فالفُرس هم الجزء الأكثر عدداً من الإيرانيين، وليسوا كلَّ الإيرانيين. والحضارة التي قامت في بلاد فارس كانت حضارة إيرانية عناصرها من قوميات مختلفة، رغم أن الفرس ظلوا العنصر الذي أمسك بتاريخ إيران وقاد البلاد طيلة آلاف السنين، لأنهم الأغلبية السكانية الساحقة. ومن هنا فموضوع التكامل الثقافي مع العرب والاسهام في بناء الحضارة الإسلامية لم يكن مقتصرًا على الفرس، بل كان للقوميات الإيرانية الأخرى تأثير فيه أيضاً.

ثم نأتي على موضوع التكامل الثقافي، فلماذا التكامل وليس التفاعل؟ الحقيقة أنني أميل إلى استخدام مفردة التكامل الثقافي بين العرب والإيرانيين وليس التفاعل الثقافي؛ لأن نوعية العلاقة الثقافية بين الشعبين، لم تكن تفاعلاً وتوأصلاً واحتكاكاً وتبادلاً وتبادلاً فحسب، بل حدثت عملية تكامل وامتزاج بين الشعبين اثر انصهارهما في بوتقة الإسلام، ونتج عن هذا الانصهار المتكامل أرقى حضارة عرفتها البشرية على مر تاريخها، فالحضارة الإسلامية كانت افرازاً لهذا التكامل في الميادين الثقافية والفكرية والعلمية، إضافة إلى الاسهامات المهمة للشعوب المسلمة الأخرى.

ثم إنَّ التأثير والتأثر في إطار المثاقفة والاحتكاك الثقافي يحدث عادة بين شعوب منفصلة عن بعضها، وتنتمي إلى مرجعيات حضارية مختلفة، الأمر الذي قد يصح إطلاقه على نوعية

العلاقة الثقافية بين المسلمين والثقافة اليونانية مثلاً، في حين أن العرب والإيرانيين - بعد الإسلام - ينتمون إلى مرجعية حضارية واحدة، اشتركوا معاً في رسم شكلها ومضمونها، وكانوا أنفسهم تفصيلاً تدخل في دائرة الثقافة الإسلامية. كما أن الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية التي ينضوي العرب والإيرانيون تحت لوائها، هي ثقافة أمة وليست ثقافة قوم أو البناء الحضاري الإسلامي حكراً على شعب دون آخر، بل ساهمت الشعوب المسلمة - بقدر وآخر - في تشييده وعلى هذا الأساس نجد من الصعوبة الفصل - في الفترة التي سبقت تأسيس الدولتين الصفوية والعثمانية - بين الواقعين الحضاريين للعرب والإيرانيين. ففي تلك الفترة كانت الثقافة الإسلامية هي الغالبة، ولم تكن هناك صارخة اسمها الثقافة العربية وأخرى الفارسية وثالثة المصرية، بل كانت الثقافات الإقليمية والمحلية باهتة في ألوانها، رغم أن كل شعب مسلم كان يمتلك مساحة ثقافية قومية موروثية تفرضها بيئته وتقاليده ولغته وأدبه، وهي مساحة لم يردم الإسلام حدودها التي تتقاطع مع عقائده وشريعته وأخلاقياته.

ومن منطلق التكامل والامتزاج هذا، كان تأثير النخبة الإيرانية في بناء الحضارة الإسلامية، وفي ثقافة المسلمين عموماً، وفي الثقافات العربية المحلية أيضاً، يختلف تماماً عن تأثير اليونانيين والهنود والسراني والصابئة وغيرهم، فالإيرانيون دخلوا الإسلام وأخذوا ينتجون ثقافة جديدة في إطار الواقع الإسلامي الذي صهرهم في بوتقته، وإن احتفظوا بقسم من موروثاتهم ونقلوا منها مالا يتقاطع غالباً مع الثوابت الإسلامية، في حين كان تأثير ثقافات الشعوب غير المسلمة تأثيراً غير مباشر، ونتاجاً عن الترجمة، ومحددات بمجالات معينة كالطب والفلسفة. فضلاً عن أن الشعوب غير المسلمة التي أثرت في حضارة المسلمين لم تكن معنية بالشأن الإسلامي، بينما كان الإيرانيون معنيين مباشرة بالشأن الإسلامي، وكان تأثيرهم شاملاً لكل حقول المعرفة الإسلامية والإنسانية، ابتداءً بعلوم القرآن والفقه والحديث والعربية وانتهاً بالتاريخ والفلسفة والعرفان والسلوك، مروراً بالطب والهندسة والفلك. ويكفي أن نذكر أن كثيراً من رواد علم قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) كانوا من البلاد الإيرانية، كسيبويه وولده وأبرز تلامذته. وكذا لو أدخلنا كتابة الحديث الشريف كجزء من التدوين بالعربية، فسرى أن معظم الموسوعات الحديثية الإسلامية كتبها علماء إيرانيون، وفي مقدمتهم أصحاب الصحاح الستة لدى السنة والكتب الأربعة لدى الشيعة.

ووصل التكامل بين العرب والإيرانيين ذروته في عصر الدولة العباسية، بفعل انفتاح الحكم على الشعوب الأخرى، ولا سيما الإيرانيين، والهجرات الكمية والنوعية، فقد أصبح حضور النخب العلمية والسياسية والأدبية الإيرانية واضحاً جداً في عاصمة الخلافة وغيرها من مدن العراق والشام، فضلاً عن الناس العاديين، كما أصبحت هجرة الكثير من الأسر والعشائر العربية إلى إيران ظاهرة واضحة أيضاً، سواء كان ذلك بدوافع دينية وسياسية أو بدوافع اقتصادية أو اجتماعية. وهذه الهجرات الكبيرة المتبادلة أدت إلى تفاعل اجتماعي واسع وعميق، وباتت الكثير من صور الحياة الإيرانية حاضرة في المجتمع العربي، والعكس صحيح أيضاً.

### ثانياً: التفاعل بين الأدبين العربي والفارسي:

في هذا المحور أستخدم كلمة التفاعل؛ لأن نوعية العلاقة بين الأدبين كانت احتكاكاً وتوأصلاً وتبادلاً، إذ بقي كل أدب يحتفظ بلغته وصوره وعناصره الخاصة، رغم التداخل غير العادي الذي حصل بينهما. وقد يبالغ بعض المؤرخين والنقاد حين يرجعون تطور مضامين الأدب العربي ومعانيه في العصر العباسي إلى تأثير الثقافة الفارسية، ويستشهدون على ذلك بالكثير من الأدلة، فيما يبخس آخرون حق الثقافة الفارسية في التأثير على الأدب العربي، والحقيقة أن التاريخ والنقد الأدبي الرصين ومنهج الأدب المقارن، سيكشف عن حقيقة موضوعية أساسية تشير إلى عمق حالة التأثير بين الأدبين، دون أن يذوب أحدهما في الآخر.

ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى القصص والروايات الفارسية التي نقلت إلى العربية، وانتقال كثير من معاني وصور الأدب الفارسي إلى الأدب العربي، فضلاً عن ككم لا يستهان به من المفردات اللغوية. وفي المقابل كان التأثير العربي كبيراً في الأدب الفارسي، فقد أصبحت اللغة الفارسية مزيجاً من اللغتين البهلوية القديمة والعربية الحديثة، كما استخدمت الفارسية في بناء قواعدها اللغوية معظم مصطلحات وقواعد النحو والصرف العربية، وانتقلت إلى الشعر الفارسي الكثير من معاني وأغراض الشعر العربي، فضلاً عن البحور الشعرية. حتى نرى أن تلك المرحلة شهدت ظهور أدب عربي جديد وأدب فارسي جديد أيضاً، بل وأدب إسلامي عالمي، كان أبطاله شعراء عرب متأثرون بالأدب الفارسي، وشعراء إيرانيون متأثرون بالأدب العربي، ومنهم من نظم بلغته الأم، ومنهم من نظم ونثر باللغتين كشاعر إيران الأكبر حافظ الشيرازي



وعمر الخيام، ومنهم من لم ينظم بلغته الأم، بل اكتفى بالعربية كبشار بن برد وأبي، كالأغاني لأبي الفرج وغيره، سنقف على كثير من الحقائق في هذا المجال.

### ثالثاً: سعدي نموذجاً للتفاعل بين الأدبين العربي والفارسي:

الأديب الشاعر الشيخ أبو عبدالله مشرف الدين بن مصلح الدين الشيرازي الملقب بسعدي والمعروف بشيخ شيراز وأفصح المتكلمين، والذي عاش في القرن السابع الهجري، هو نموذج معبر بوضوح كبير عن نوعية العلاقة بين الأدبين العربي والفارسي، إذ ينطوي أدب سعدي على تفاعل عميق بين الأدبين، ومثاقفة فارسية - عربية متوازنة. فبفعل عوامل متعددة امتزجت فارسية سعدي ثقافياً وأدبياً بالحياة العربية، وتأثرت بها بشدة، فأنتج هذا الامتزاج والتأثر أدباً متميزاً تظهر في شعر ونثر راق باللغتين العربية والفارسية.

وتنقسم العوامل التي وضعت سعدي في دائرة التأثير الكبير بالأدب العربي إلى عوامل خارجية أو موضوعية، أهمها طبيعة الزمن الذي عاشه سعدي أو الذي تكوّن فيه وعيه الثقافي والأدبي، فهذه الفترة تميزت بجغرافية سكانية متحركة، نشأت من إقامة قطاعات واسعة من الشعوب المسلمة في مواطن غير مواطنها الأصلية، ولا سيما تواجد الإيرانيين والأتراك في البلاد العربية، والعرب في البلاد الإيرانية والتركية، وكان لأبناء هذه الشعوب دور كبير وتأثير ملحوظ في مجالات الحياة المختلفة، العسكرية منها والاقتصادية والفكرية والعلمية والأدبية والاجتماعية. فعلى المستوى السياسي - مثلاً - كان العرب والإيرانيون والأتراك يتناوبون على الامساك بالقرار في البلاط العباسي، حتى كانت الفارسية هي لغة البلاط في كثير من الفترات، كما في عهد البرامكة وبنو سهل والبهويين في حين كان للعرب وجوداتهم السياسية ودولهم في إيران. كما كانت النخبة الإيرانية تتقل بين البلاد العربية أو تقيم غالباً في عاصمة الدولة الإسلامية، وتساهم بشكل أساس في ردف الحضارة الإسلامية بعناصر القوة وآليات التقدم والتطور.

في مثل هذه الأجواء نشأ وترعرع سعدي الشيرازي وتكونت ثقافته، فكانت ثقافة إسلامية إمتزج فيها العنصران الفارسي والعربي. وبهذا يمكن القول بأ، الزمن الذي عاشه سعدي خدمه بشدة في مجال تأثره بالأدب العربي.

**أما القسم الآخر من عوامل التأثير فيتمثل في العوامل الذاتية أو الشخصية، وهي أربعة:**  
 العامل الأول: دراسة سعدي القرآن الكريم واطقانه اللغة العربية، فقد شغف سعدي الشيرازي بالقرآن الكريم منذ صغره، وتعلّمه وحفظه على والده، كما درس اللغة العربية وآدابها وعلومها وأتقنها.

العامل الثاني: دراسة العلوم الدينية، فقد بدأ سعدي بدراسة العلوم الدينية في وقت مبكر من عمره في مدينة شيراز ثم بغداد ولغة هذه العلوم هي العربية، الأمر الذي جعل اللغة المعرفية والفكرية لسعدي هي اللغة العربية، التي تقوّت بها بنيّه الفكرية والعلمية. وقد ترك سعدي موطنه شيراز وارتحل إلى بغداد، بهدف الدراسة وتحصيل العلم، فتنقل بين مدارسها وزواياها. بدأ بالمدرسة العضدية ثم النظامية والمستنصرية. وأتاح له ذلك دراسة علوم القرآن الكريم والحديث والفقه وغيرها، فضلاً عن العربية وآدابها وأغراضها من نحو وصرف وبلاغه وشعر ونثر.

العامل الثالث: اقامته في البلاد العربية، فقد كانت الكوفة وبغداد أول محطتين لسعدي بعد رحلته من شيراز، فمكث في بغداد عدّة سنين، ولم يتركها إلا للخلاص من فتك الغزو المغولي، ويندب سعدي بغداد المحتلة التي تعلّق بها وبيّتها والحياة فيها بقوله:

حُبست بجفنيّ المدامعُ لا تجري      فلمّا طغى الماء استطال على السكر  
 نسيمٌ صباً ببغداد بعد خرابها      تمّيت لو كانت تمرُّ على قبري

وفي قصيدة أخرى يقول:

وقفت بعبّادان ارقب دجلة      كمثل دم قان ييسيل إلى البحر

وهو المعنى الذي يكرره في قصيدة بالفارسية:

دجله خونابست از اين بس گر نهد سردر نشيب

خاك نخلستان بطحا را كند در خون عجين

ولكن هذا الشغف لم يكن ينسه موطنه شيراز، فقد كان قلبه مشدوداً إليها وإلى اهله، فيقول:

متى حللت بشيراز يا نسيم الصبح      خذ الكتاب وبلغ سلامي الأحباب

ومرة أخرى يشدُّ سعدي الرحال صوب البلدان العربية، فيبدأها باليمن ثم الحجاز -

مروراً بالحبشة - ثم الشام، حيث يقيم سنين طويلة في دمشق، ويتنقل بينها وبين مدن لبنان وفلسطين. وبعد أن يمتد به العمر ويشيخ، يترك الشام باتجاه المغرب ثم مصر. وفي أكثر من قصيدة يذكر سعدي سفره إلى مصر وولعه بها، ومنها قوله:

به دل گفتم از مصر قند آورند      بر دوستان ارمغانی برند

مرا گر تهی بود از آن قند دست      سخنهای شیرین تر از قند هست

فإنه إن لم يجلب السكر معه من مصر، فإنه جلب منها كاملاً أحلى من السكر. بعدها يعود إلى إيران ماراً بالعراق:

قضا نقل کرد از عراقم بشام      خوش آمد در آن خاک پاکم مقام

مع القصة چندی بیودم مقیم      به رنج وبه راحت به امید وبیم

دگر پرشد از شام پیمانهام      کشید آرزومندی خانهام

قضارا چنان اتفاق اوفاد      که بازم گذر بر عراق اوفتاد

العامل الرابع: شغف سعدي بالأدب العربي، إذ أن الشغف والحب هو الذي إلى التأثير الواعي، وهكذا كان سعدي يعي تأثيره بالأدب العربي، لأنه عشقه، فتحول هذا العشق في كثير من الحالات إلى تباهي وتشبه بالأدباء العرب في معانيهم وأغراضهم وأمثالهم ومأثوراتهم الشعبية، بل وحتى الفاظهم أحياناً، وهو ما سنأتي عليه لاحقاً.

أما المصادر التي استلهم منها سعدي مجالات تأثره بالأدب العربي فهي كثيرة، وبرزها: القرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة وكتب التراث ونتائج الأدب العربي نفسه. سعدي الكامل إلى هذه المصادر، واقتباسه منها واستعارته مفاهيمها وصورها وألفاظها:

گناههم ببخش ای جهان آفرین

که گربا من آید فبئس القرین

طوبی لمن جمع الدُّنيا وفرَّقها

في مصرف الخیر لا باغ ولا عاد

کسی را چه زور وزهره که وصف علی کند

جبار در مناقب او گفته هل أتى

ففي هذه الايات يستخدم سعدي معان والفاظ قرآنية صريحة.  
كما أنه يصور في شعره ونثر الكثير من القصص التي يذكرها القرآن، كقصة الاسراء  
والمعراج مثلاً:

شبي بر نشست از فلک بر گذشت      يعود غريباً مثل مبتدأ الأمر

چنان گرم در تيه قربت براند      که در سدره جبريل از او بازماند

ومن الحديث الشريف اقتبس سعدي الكثير أيضاً:

وفي الخبر المروي دين محمد      يعود غريباً مثل مبتدأ الأمر

وهو مضمون الحديث: بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ

بنی آدم اعضای یک پیکرند      که در آفرینش زیك گوهرند

چو عضوی بدرد آورد روزگار      دگر عضوها را نماند قرار

وهو مضمون الحديث: مثل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه  
عضو، تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمى.

ويعبر سعدي في كثير من اشعاره عن وله كبير بالرسول الاعظم وآله الكرام، فيقول

واصفا النبي ﷺ:

كريم السجايا جميل الشيم      نبی البرایا شفیع الأمم

امام رسل پیشوای سییل      امین خدا مهبط جبرئیل

وينشد أيضاً البيتين الشهيرين:

بلغ العلا بكماله      كشف الدجى بجماله

حسنت جميع خصاله      صلوا عليه وآله

كما يتوسل بآل البيت ﷺ إلى الله تعالى منشداً:

يا رب به نسل طاهر أولاد فاطمه      يا رب به خون پاک شهيدان كربلا

وفي قصيدة أخرى يقول:

خدايا به حق بنی فاطمه      که بر قول ایمان کنم خاتمه

اگر دعوتم رد کنی در قبول مرا دست و دامان آل الرسول

اما أخذه من نهج البلاغة، فيكفي أن نشير إلى المقارنة العلمية الرائعة التي عقدتها باحثة مصرية بين كتاب الإمام علي عليه السلام إلى عامله على مصر مالك الاشر النخعي، وباب العدل من بوستان سعدي، إذ تقول بأن الشاعر لم يقتطف من أقوال أو معاني كتاب الإمام علي عليه السلام فحسب، بل أفرط في نثر درر الكتاب بين ثانيا باب العدل في البوستان، ووظف لذلك جميع ملكاته الأدبية وتجاربه الشعرية، بل امتد تأثير سعدي بكلمات الإمام علي عليه السلام الأخرى إلى اغلب ابواب البوستان ورسائله، وخاصة الرسالة الخامسة، إذ ترى الباحثة أن سعدي عثر على ضالته المنشودة في نهج الإمام علي عليه السلام وبلاغته وحكمته وسيرته. تجدر الإشارة إلى أن باب العدل يتألف من (٩٧٠) بيتاً موزعة على خمسين مقطوعة شعرية.

كما يعد الادب العربي مصدراً مهماً آخر لسعدي، فقد كان سعدي قارئاً نهماً للنتاج الأدبي العربي، وتماهى بصوره والفاظه ومعانيه:

أيها الظاعنون من حي ليلي      عجباً كيف تستطيعون صبراً  
لعمرك إن خوطبت ميتاً تراضياً      سيبعثني حياً حديث مخاطبي  
بليت بنحوي يصول مغاضباً      علي كزبد في مقابلة العمرو

ففي هذه الابيات التي نعرضها كنهاج، نجد أن سعدي يستخدم ذات الالفاظ المتداولة - حصراً - في الأدب العربي، بل إنه في بعض أبياته يذكّرنا بالمضامين نفسها التي تناولها بعض الشعراء العرب:

شوق را بر صبر قوت غالب است      عقل را با عشق دعوی باطل است  
وكانه يتمثل قول شاعر العرب الاكبر أبي الطيب المتنبي:  
أغالب فيك الشوق والشوق اغلب      واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب  
وكذا في قول أبي العلاء المعري:  
خفف الوطء ما أظن أديم      الأرض إلا من هذه الاجساد

فينشد سعدي:

خاک راهی که برو می گذری ساکن باش      که عیون است و خداوند است و قدود

ونأتي في ختام الحديث على ذكر المظاهر التي ميزت تأثر سعدي بالأدب العربي، وهذه المظاهر التي كانت بي (سفينه) پر (دفينه) به (آخريهر زاخري) نشايد رسيد (الطلب رذ والسبل سد)، تا اينها كه (سلطان) و(شأن) سدة سيادتند در (ادراك) اين سعادت، دست موافقت در فتراك موافقت (مسكين جالس مسكنا) ميزند، يكي گوهر شب افروز، (آدم ومن دونه تحت لوائي)، در عقد شبه شبرنگ، (اللهم احيني مسكينا وأمتني مسكيناً واحشني في زمرة المساكين) نظم مي دهد.

في هذه المقطوعة نجد أن الكلمات والجمل العربية يزيد عددها على الكلمات والجمل الفارسية. وكذا شعره:

شفيع الوري خواجه بعث ونشر. امام الهدى صدر ديوان حشر

هذا فضلا عن صور الأدب العربي وأغراضه التي تضمّنها أدبه الفارسي.

أما شعر سعدي الملمع الذي يحتوي أبياتا عربية وأخرى فارسية أو شطراً عربياً وآخر فارسياً، فإنه يتوزع على عشر مقطوعات وقصائد، منها المقطوعة الختامية في ديوانه:

به پايان آمد اين دفتر حكايت همچنان باقي به صد دفتر نشايد گفت حسب الحال مشتاق  
 كتاب بالغ مني حبيبا معرضا عني أن افعل ماترى، اني على عهدي وميثاق  
 نگويم نسبتي دارم به نزديكان درگاهت كه خود را بر تو می بندم به سالوسي وزراق  
 أخلائي واحبايي ذروا من جبه ما بي مريض العشق لا يبرأ ولا يشكو إلى الراقي

وهذا النوع من الشعر الملمع استخدمه كثير من شعراء الفارسية، كالشاعر حافظ الشيرازي - مثلا - الذي يفتتح ديوانه بقصيدة ملمعه مطلعها:

إلا يا ايها الساقى أدر كأساً وناولها كه عشق آسان نمود اول ولي افتاد مشكلها

إلا أن سعدي كان أكثرهم استخداما وشغفا به.

والمظهر الأخير الذي عزز تأثر سعدي بالأدب العربي، تمثل بإنتاجه الشعري العربي، إذ بلغ ستا وعشرين مقطوعة وقصيدة عربية خالصة. وقد اختلف النقاد في تقويم مستوى الشعر العربي لسعدي من الناحيتين الفنية والمضمونية، ولكن لا بد للتأكد أن يأخذ بنظر الاعتبار أن سعدي لم يكن عربياً بلغته كشعراء العربية الآخرين أمثال المتنبي والبحتري

والمعري، كما أنه لم يترك لغته الام وآدابها كبشار وأبي تمام، بل ظلّ مشدوداً للغته وبيئته، فكان معظم إنتاجه بالفارسية، وفيه يكمن ابداعه الحقيقي. من هنا لا يمكن تقويم شعره العربي بالقياس بشعر هؤلاء الشعراء، بل ولا تقويمه بالقياس لمستوى شعره الفارسي الرفيع. ولم يفت سعدي أنه سيتعرض يوماً لمثل هذا النوع من التقويم والقياس، ولذا نجده يقول في إحدى قصائده العربية:

وما الشعر - ايم الله - لست بمدع      ولو كان عندي ما ببابل من سحر  
هنالك نقادون علماً وخبرة      ومنتخبو القول الجميل من المهجر

وأخيراً..

استثمر فرصة انعقاد هذا المؤتمر الكبير لادعوا أدباءنا العرب والإيرانيين للمزيد من التوأصل والاحتكاك، لتعود حالة التفاعل بين الادبين العظيمين كما كانت عليه في السابق، وأعتقد أن الخطوة الأولى تتمثل بتعرف أدباء كل شعب على ادب الشعب الاخر. وهنا لا نشك في أن حاجز اللغة يحول دون حصول تفاعل حقيقي بين الادبين أو تكامل ثقافي حقيقي بين الشعبين. ولرفع هذا الحاجز يتوجب إشاعة ثقافة تعلم لغات الشعوب الإسلامية. ويبدو أن حاجز اللغة العربية لم يكن يوماً حاجزاً حقيقياً بالنسبة للإيرانيين؛ لأن هناك اعداداً هائلة منهم تتقن العربية أو تفهمها، لاعتبارات عديدة، في مقدمتها أنها لغة الإسلام كتاباً وحديثاً وشريعة. ولكن يبقى هذا الحاجز ما تلاً بقذوة امام الادباء والمثقفين العرب خلال محاولتهم التعرف على الادب الفارسي بسبب ضعف الاهتمام باللغة الفارسية، رغم أنها اللغة الثانية للحضارة الإسلامية. فنأمل أن نرى المثقفين والادباء والنقاد العرب يطلعون على النتاج الثقافي والادبي الإيراني اطلاقاً مباشراً من خلال قرائته بلغته الأصلية. وتعرفون ايها الاخوة والاخوات أن ما حصل في إيران منذ عشرين عاماً وحتى الان يشكل ثورة كبرى على مستوى النتاج الفكري والثقافي، وهذا الميدان لازال - هو الاخر - ارضاً بكرّاً للنخب الثقافية والادبية العربية كي تجول فيه، وتقطف أزهاره وثمره.

يا ايها الناس انا خلقناكم والسلام عليكم رحمة الله وبركاته.





(١٣)

## الخطة الوجودية للسيد جمال الدين والصحة الإسلامية اليوم

والصلاة والسلام على سيد النبيين وآله الطاهرين وصحبه الميامين وبعد:  
فمهما طال الحديث عن هذه الشخصية الفذة فإنه سيظل يتحفنا بجوانب مهمة ترتبط  
بواقعنا ومستقبلنا تمام الارتباط ذلك أن هذا الرجل أدرك بعمق أدواء هذه الأمة وراح يجتهد  
في تقديم العلاج، وإذا كان لم يستطع أن يحقق طموحاته فإن حلوله مازالت حية قوية ترعب  
أعداء هذه الأمة وتؤرقهم وتفتح أمام الواعين المتحرقين سبلاً واسعة للخلاص.  
لقد عاش السيد - وهكذا كان يوقع أحيانا - وضعاً كثيباً مرت به الأمة الإسلامية في  
القرن التاسع عشر الميلادي وبذل أقصى الجهد منتقلاً من بلد إلى بلد، تاركاً كل افتخار  
وانشداد وطني وقومي وعائلي ناذراً نفسه للإسلام أينما كان، مسخراً كل طاقاته المتفجرة  
للنهضة والصحة، مخططاً تخطيطاً إستراتيجياً لإنقاذ الأمة من واقعها الأليم.

### صورة الواقع الأليم ونقاط الضعف

لقد نظر السيد في أوضاع الأمة فرآها كثيبة وشخص أهم نقاط ضعفها في الأمور التالية:  
أولاً: الاحتلال الغربي والاستعمار فلم تكن هناك أرض إسلامية تسلم منه إلا إيران  
والدولة العثمانية وبعض المناطق الأخرى.  
ثانياً: هدر الطاقات، وضعف النفوس، وتناقلها عن حمل الرسالة.  
ثالثاً: انتشار الفساد الخلقي القاتل.  
رابعاً: انتشار عناصر التفرقة الممزقة مذهبياً وقومياً وحزبياً.

خامساً: التخلف في جميع المجالات العلمية والاقتصادية والاجتماعية.  
سادساً: التحجر الفكري والتعصب والتكفير وشيوع الأفكار المخدرة كالجبرية.  
سابعاً: الاستبداد وضعف الشورى وعدم المشاركة الشعبية.  
وكانت علة العلل - في رأيه - في كل هذه الأمور تكمن في ابتعاد هذه الأمة عن دينها وعدم تطبيقها لتعاليم الدين الحنيف، مما أدى بها إلى الحالة السيئة الممزقة.  
وكان من الطبيعي أن يخطط إستراتيجياً وهو البصير النقاد للإنقاذ.  
والإستراتيجية - كما نعلم - تنطلق من حمل رسالة معينة، إلى تعيين أفق منظور وعملي ومحسوس وجذاب له قدرة تنسيق كل النشاطات وتنظيم كل القطاعات لتحقيق تلك الرسالة، وبالتالي تتطلب تعيين الخطة العملية للوصول لذلك الأفق المنظور. وكل هذا نجده في تخطيط السيد جمال الدين.  
أما الرسالة فكانت تلتخص في إنقاذ الأمة من ما هي عليه.  
وأما الأفق المنظور فيتلخص في تقريب الأمة من مجتمع صدر الرسالة من حيث القيادة الواعية الرسالية والمجتمع المتلاحم المطيع لها القوى في عزيمته العارف لأهدافه.  
وأما السياسات والخطوات التي يجب أن تتبع فهي التركيز على التوعية بالإسلام وتعاليمه، وإحياء دور العلماء، والعمل على التوحيد وتنظيم طاقات الأمة وتحريك الأحاسيس ضد أعدائها. ومن هنا دعى للأمور التالية:  
أولاً: التركيز على عودة الأمة لإسلامها فهو الحل الناجع لكل أدوائها يقول فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية... ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس.. فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح<sup>١</sup>.  
وهو بهذا يقرر حقيقة قائمة وهي أن النفوس مؤمنة إجمالاً ويحتاج الأمر إلى توعية شاملة حتى تتحرك بسرعة نحو الهدف، في حين أن الأطروحات الغربية كالقومية والاشتراكية حتى

١. الآثار الكاملة: العروة الوثقى، ص ١١٤.

لو أعطيت عنواناً عربياً لاتستطيع أن تنمو في هذه التربة مما يفسر فشلها الذريع<sup>١</sup>.  
ثانياً: دعوة العلماء والمفكرين لاستعادة دورهم الاجتماعي عبر تقرّبهم بعضهم إلى البعض الآخر وتلاحمهم ثم القيام بواجبهم وتنسيق جهودهم الدعوية، وتنسيق العمل في مراكزهم ومساجدهم.

ثالثاً: تكوين الجمعيات والتشكيلات الإسلامية لتشكّل العرق النابض في الأمة، وقد قام هو بتشكيل جمعيات (العروة) منذ إقامته في مدينة (كلكتا) بالهند وعمل على نشر فروعها في شتى أنحاء العالم وكان يرسل من يقوم بتشكيلها إلى مختلف المناطق.

وربما كانت مجلة (العروة الوثقى) التي كان يصدرها من باريس بدعم مالي من المخلصين من أنحاء العالم الإسلامي الناطق الرسمي باسم هذه الجمعيات.

رابعاً: الدعوة إلى إقامة مؤتمر إسلامي في مكة المكرمة يتركب من العلماء ومندوبي الدول الإسلامية مستفيدين من قدسية المكان وأنوار موسم الحج محيين لهذه الشعيرة، متدارسين لمشاكلهم وحلولها، معلنين نتائج بحوثهم أمام جماهير الأمة.

والحقيقة أن هذه الشعيرة عبّت في التعاليم الإسلامية لمثل هذه الأغراض ولكن سوء الفهم أفقدها هذا التأثير؛ ومع ذلك فقد كان الاستعمار الهولندي مثلاً يشعر بارتفاع وتيرة التحرك ضده بعد عودة الحجاج، لذا حاول إرسال بعض عملائه لمعرفة سر ذلك عملاً منه على إدامة احتلاله الذي طال ثلاثمائة عام في أندونيسيا.

وهذه الفكرة أكد عليها تلامذته كالكواكبي وعبدّه ومن بعده رشيد رضا وغيرهم.  
خامساً: الدعوة الحثيثة لنفي تأثيرات العوامل التمييزية للامة من قبيل النعرات القومية، والاختلافات المذهبية كما يحدث باستمرار بين الشيعة والسنة والتركيز على التعاون في نقاط الاشتراك الكثيرة وتقديم مصالح الأمة على المصالح الضيقة. وكان يقدم التجربة الألمانية الموحدة للامة رغم اختلاف المذاهب فيها<sup>٢</sup>.

١. وهذا ما أشار السيد الصدر كما سيأتي في هذا المقال.

٢. جمال الدين - الأعمال الكاملة - تحقيق محمد عمارة، ص ٢٦٩.

ومن الأمور التي ركز عليها نفي التعصب الأعمى الذي يؤدي لطائفية قاتلة، وتكفير للآخرين بأية ذريعة وبالتالي تعظم الخلافات. كما كان يدعو لرفض الأمور الاستفزازية المنفرة. سادساً: ورأى السيد أن فقدان المعنويات والفضائل الأخلاقية وانتشار مظاهر الرذيلة والفساد هي أكبر عوامل الانهيار الاجتماعي، ولذا دعا لمحاربة الرذائل ونشر الفضائل لاستعادة التوازن إلى الجماهير.

سابعاً: ورغم أنه كان يرى أن الوحدة الإسلامية العملية الكاملة بما فيها وحدة القيادة في هذه الأمة وأن لا جنسية لهذه الأمة إلا بالدين<sup>١</sup>، إلا أنه وإذعاناً للواقع ركز على تضامن الحكومات الإسلامية والتزامها بالأخوة الإسلامية وتطبيق تعاليم الإسلام، بل حاول أن يتدرج في توحيد الأراضي الإسلامية بالدعوة إلى اتحاد إيران وأفغانستان - وهو ما كرره مراراً في ندائاته، بل دعا الدولة العثمانية للاتحاد مع الهند وبلوجستان وإيران وأفغانستان وتركمنستان ودول آسيا الوسطى ضد روسية وتعهد بالعمل على ذلك دعماً للدولة العثمانية التي كانت تمثل الدولة الإسلامية القوية آنذاك، وقد رحل إلى الآستانه ليدعم نظريته وأرسل رسائل بهذا الخصوص إلى مختلف الدول والشخصيات، وتلقى إجابات إيجابية من قبل مختلف الدول والشخصيات، وقد ذكر أنه تلقى مائتي رسالة من هذا النوع من قبل علماء إيران والعراق، ولكن المشروع لم يحقق أهدافه لأن الدولة العثمانية كانت تئن تحت مشاكلها والانجليز يعملون بكل جد لإفشال هذه المشاريع وقد توأصلت المؤامرات ضد السيد حتى قضت عليه وعلى مشروعه.

ثامناً: رعى السيد جمال الدين ثلة من المفكرين والعلماء المؤمنين بأفكاره والساعين لتحقيقها حتى عاد بيته محوراً ومرجعاً لهؤلاء العاشقين له مما ألب العثمانيين أنفسهم عليه وكان من تلامذته أو تلامذة مدرسته شيوخ الأزهر والكواكبي والشيخ عبدالقادر المغربي، والأمير شكيب أرسلان، والشيخ حسين الجسر، ومولانا أبو الكلام آزاد، وإقبال، وكثير من علماء العالم الإسلامي ليكونوا جميعاً الحياة الصحية التي يراد لها أن تسري في عروق الأمة.

١. المجموعة الكاملة، ص ٢٦.

تاسعاً: وكانت أهم خطته محاربة الاستعمار البغيض الجائم على صدر الأمة وذلك من رؤيته الدقيقة للأحداث واطلاعه على الأمور، وجهاده ومثابرته وأسفاره إلى الشرق والغرب، وكان الاستعمار يرصده ويرصد تحركاته بدقة، وقد سجل كتاب كباراً تحركاته ضد الاستعمار بكل دقة. لقد ركز على فضح خطط الاستعمار وأساليبه ومؤامراته ونشر الوعي بخطته الجهنمية في أنحاء العالم الإسلامي: الهند وشمال إفريقيا، وأندونيسيا وماليزيا، وآسيا الوسطى وغيرها وركز بالخصوص على الاستعمار الإنجليزي وهو أخطر أنواع الاستعمار، وكشف خطته المستقبلية وهو ما تحقق بعد موت السيد من القضاء على الدولة العثمانية واحتلال كل الأرض الإسلامية في الربع الأول من القرن العشرين.

وقد اعتبر الصراع ضد الاحتلال من أهم الواجبات وبذل في سبيل التحسيس بهذا الواجب كل جهوده واحيا روح الجهاد، وعزة الأمة وقوتها وغيرها على وجودها وثقافتها ورفض الاتجاه التغريبي لدى عملاء الغرب في العالم الإسلامي، كما رفض كل عوامل التمزيق والتخدير والتثييس وحاول أن يعمل على تربية الجيل المسلم المقاوم فلسفياً وعقائدياً واقتصادياً.

كما أنه دعا الحكام إلى التضامن والاستفادة من فرص التنافس بين المستعمرين الجشعين. كل ذلك كان تحت مراقبة الاستعمار وعيونه فسخر عملاءه من الكتاب والسياسيين، والمتنورين ضده فاتهموه بشتى التهم ومنها العمالة للاستعمار، وتتبعه الاستعمار في كل مكان، في مصر التي قضى فيها ثماني سنوات (١٢٨٨-١٢٩٦ هـ. ق) وأوجد نهضة إصلاحية كبرى ضايقه الاستعمار وأبعد هو وتلميذه محمد عبده، وفي الهند حيث أبعده بدأ نشاطه التوعوي أيضاً ضيقوا عليه إلى الحد الذي اضطر معه إلى السفر إلى أوروبا، حيث بدأ ينشر أفكاره هو وتلميذه محمد عبده، فمنعوا أيضاً نشر مجلة (العروة الوثقى) في بلدانهم، ثم منعوا مطلقاً من النشر بعد أن اصدرت ١٨ عدداً خلال ٨ أشهر (١٥ ج، ١٣٠١ هـ إلى ٢٦ ذي الحجة من نفس العام) وكان لها القدح المعلى في نشر أفكاره.

١. من قبيل د. عنایت. د. محیط الطباطبائي، د. أحمد أمين، د. الجبلاوي د. محمود محمود، الأستاذ مزيناني، الأستاذ خسرو شاهی وغيرهم.

وهكذا لاحقه الاستعمار إلى إيران وروسية وغيرها. أما التهم ضده فحدث عنها ولا حرج فقد اتهم بالبهائية، والماسونية (وكان قد انتمى إليها ظناً منه أنها ستحدث تغييراً فلما عرف حقيقتها رفضها) والعمالة والإلحاد وغير ذلك.

### جمال الدين والصحة الإسلامية

نستطيع بحق أن ندعي أن السيد كان من أكبر عوامل نشر الصحة الإسلامية وترشيدها في العالم الإسلامي. وكانت أفكاره ونشاطاته الواسعة قد هيأت العالم الإسلامي للثورة الكبرى ضد الاستعمار واستعادة دوره الحضاري والنهوض من كبوته. ورغم أثره العظيم فإن وفاته في (٩ مارس ١٨٩٧ - ٧ شوال ١٣١٤ هـ) تركت فراغاً كبيراً في العالم الإسلامي.

فلقد خطط الاستعمار للقضاء على الدولة العثمانية ونجح في تحقيق ذلك عام ١٩٢٤، كما خطط لاحتلال كل العالم الإسلامي تقريباً وقد تسنى له ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، كما خطط لزرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي وحقق حلمه عام ١٩٤٧. ومع كل ذلك فقد ظل هاجس الصحة الإسلامية يؤرقه، وشبح السيد جمال الدين يطارده، ولذا ظل الكتاب الغربيون وعملاؤهم في المنطقة يشككون في نواياه. وظل يركز على الثلاثي المرعب في العالم الإسلامي وهو (التخلف والتمزق والعلمانية) بكل الأساليب.

وقد حاولت الكاتبة الغربية شيرين هانتر في كتابها الجديد (مستقبل الإسلام والغرب) أن تشوه الدور الأصلاحي للسيد جمال الدين وتلميذه الإمام محمد عبده وتصفها بالنفاق مستندة للجواب الفاتر (كما تعبر) للمرحوم السيد على هجوم (رينان) على الإسلام وترى أنه استخدم (التقية) في ذلك. وتعمل على إرجاع عوامل الصحة إلى تمزق النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر مما أدى إلى نشوء اتجاهين متخالفين (اتجاه العودة للإسلام إما بشكل حرفي كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة إقبال، واتجاه السير مع الغرب).

وهكذا تحذف دور السيد جمال الدين في هذه المعركة مما يعبر عن وجل مستمر لدى الكتاب الغربيين والحقيقة أن الصحة الإسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة الماضية (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته؛ فالإسلام دين

التقدم، يدعو إلى العلم بشتى أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقق كل عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الأمم، وتكون في الطليعة الحضارية للناس، والتخلف حالة غير طبيعية مطلقاً.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة، والشعارات والعبادات واحدة، وثورات الأمة هي ملك كل الأمة، وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة، لا بل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة. أما الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالماً أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة - كما قلنا - فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأي تعريف جاءت، وأية صفة اتخذت، إيجابية أم سلبية، أما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجرد خداع، لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركز على أن رغبة العالم الإسلامي في تحقيق عنصر (التفوق) باعتباره سر الصراع بين الإسلام والغرب، ولكن الذي يجب التركيز عليه أن الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمل على تطوير الحياة الإنسانية في كل المجالات إذا اتخذ منحى إيجابياً تنافسياً. كما يؤدي كغيره من العوامل الطبيعية إلى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامل الغربي مع المسلمين.

إن الصحة الإسلامية إذن تدعو للتفوق الإسلامي الحضاري فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأنى لهذه الروح أن تسود. أما عن عوامل هذه الصحة فلا نتوقع للكاتبة أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية، ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد وتغيّر العلاقات وأمثالها.

إننا نتصور هذه العوامل - على ضوء دراساتها للساحة - كما يلي:

أولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مر بنا القول إن كل أساليب التمييز سوف تبقى آثارها وقتية لأن الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكتابة تتردد في إشارتها لهذا العامل، فتارة تعترف به وأخرى تحاول أن تقلل من أهميته. ثانياً: اشتداد الحملة الأوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولاريب أن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برّد فعلٍ قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه.

ولانريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح أبعاده، ووضوح حقيقة أن الاحتلال يستتبع المقاومة بشتى ألوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال الصوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفرّ فرصة لنمو الصحوة الإسلامية بشكل واسع وانطرح الإحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانينات.

ثالثاً: فشل كل الحلول والأطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الأطروحة القومية الضيقة رغم التطليل والتزوير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز قوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على أسس إلحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضاً لأنه تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن أية إضافة معرفية.



وهنا أود الإشارة بشكل وافر إلى التحليل الرصين الذي كتبه أستاذنا الشهيد الإمام محمد باقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: (إن الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقاً واحداً للتحرك وهو التحرك في الخط الإسلامي)، ويضيف (حينما أخذ العالم الإسلامي يفتتح على حياة الإنسان الأوربي ويدعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن إطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الأوربي حين قسّم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني)، وبعد أن ذكر أن العالم الإسلامي ظن أن الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت إما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين مايرره. بعد هذا راح ينتقد أولئك الذين يغفلون - عند محاولتهم تطبيق خطة ما - العامل النفسي للامة (فلا بد للامة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب) وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية (ليست إلا رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الأجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية، وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة، لأن هذا الإطار القلق ليس إلا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الأجنبي)... (ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية) ويقول بالتالي: (وبالرغم من أن دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالإطار العربي فإنهم أكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها وهي أن الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها

الحديثة إلا على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين أنفسهم). ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الأطروحات (إن هذه القوة مها قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي لا يزال لها أثرها الكبير في توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء)<sup>١</sup>.

ونعود إلى الكاتبة لنجدها أحيانا تشير لهذا العامل حين تؤكد أن العلمانية حققت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالإسلام هو الحل. رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو إعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر عليه السلام.

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال المرحوم السيد الأسترابادي (الأفغاني) - وإن حاولت الكاتبة التشكيك في إخلاصه - والمرحوم محمد عبده - وقد شككت فيه أيضاً، بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة - والمرحوم الميرزا النائيني، والمرحوم كاشف الغطاء، والمرحوم الإمام الخميني، والمرحوم سيد قطب، والمرحوم الإمام الصدر، والمرحوم المطهري، والمرحوم الغزالي، والمرحوم البهشتي، وغيرهم كثير.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوة من قبيل:

١- تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي.

٣- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.

٤- توفر بعض أجواء الحرية في العالم الإسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على أسس إنسانية.

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الأقصى أو هزيمة عام ٦٧,

٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وانتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له. ومن الجدير بالإشارة إليه:

إن الغرب لم يأل جهداً في إجهاض الصحة، ومقابلتها، وإلهاؤها واتهامها بشتى التهم من قبيل (التخلف والرجعية، والتطرف والأصولية، والعنف والإرهاب، والعمل ضد الديمقراطية - والحرية، وضرب حقوق الإنسان)، ولم يعدم من قدّم له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً إرهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الإنسان. ولكن الواضح تماماً أن هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه، وهو أمر تقرّ به الكاتبة بكل وضوح.



(١٤)

## الخطوات المطلوبة لتحقيق الأمن الاجتماعي على صعيد العالم الإسلامي

من الواضح لدى كل دارس للإسلام، أنه حدد الهدف من خلقه كل المخلوقات، وهو كماها أي تحول طاقاتها الذاتية الكامنة بالقوة إلى ظواهر فعلية، بل أن هذا هو ما يدركه الوجدان الفطري حينها يلاحظ التخطيط الإلهي لهذا الكون والتنسيق والهدفية في الخلق. وبالنسبة للإنسان يحدد القرآن هدف خلقته بوضوح أكبر حين يعلن ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>١</sup>، مما يوضح أن تكامل الإنسان يتم كلما تأصلت صفة العبودية لله تعالى فيه كفرد، وأوج كمال الفرد يتمثل في النبي، وأرقى صفة تمنح للنبي أنه ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾. يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾<sup>٢</sup>.

وحيث يشهد المؤمن لرسول الله سيد البشرية بالرسالة يقدم العبودية أولاً فيقول: (اشهد أن محمداً عبده ورسوله) وينعكس هذا على الإنسان كمجتمع حيث يعمل عباد الله الصالحون وطلبتهم هم الأنبياء على إقامة المجتمع العابد.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾<sup>٣</sup>. هكذا إذن تكون المسيرة الصحيحة المتوازنة المتكاملة للبشرية ضمن خطين. خط العبادة وخط اجتناب

١. الذاريات آية ٥٦.

٢. ص: ٣٠.

٣. النحل: ٣٦.

الطاغوت، وهما الناتجان الأساسيان من حالة العبودية المطلقة لله تعالى.  
فنحن هنا نواجه تفصيلاً وتوضيحاً أكبر للعبودية يتمثل في (العبادة) و(رفض الطاغوت).  
ولكن ماذا يعنينا؟

إن العبادة في مفهومنا الإسلامي باختصار تعني تعبيد الحياة لله (تعالى) وتنفيذ أوامره ونواهيه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾<sup>١</sup> وهذا المعنى يشمل العبادة بالمعنى الأخص كالصلاة والصيام، ولا يلخص الحياة فيها بل تتحول الحياة كلها إلى مسجد وصلاة وهو المعنى الأعم للعبادة.

أما الطاغوت: فهو باختصار المتجاوز للحد الوسط في تصور الإسلام، المتعدي عليه، والطغيان هو تجاوز الحد كما يقول الراغب<sup>٢</sup> ولذا قال تعالى: (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية).<sup>٣</sup>  
والوسطية الإسلامية تعني: العدل، والتوازن، والحكمة ووضع الشيء في موضعه بما يحقق الهدف منه، وليس المقياس الكمي، وإذا كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾<sup>٤</sup>، فإنما لأنها الأمة القدوة والأسوة الحضارية للأمم بعد أن تقتدي بالرسول الأسوة.

وإذا راجعنا كل المفاهيم التي ينفر منها الإسلام وجدناها تخرج عن الحد الوسط بهذا المعنى: فمفاهيم: الإلحاد والشرك والفاحشة والتهور والتشدد والاستبداد والعنف والطغيان والتبذير والتطيف وبخس الآخرين والإسراف وأمثالها بل حتى المفاهيم السلبية كالرهينة والبخل والجبن واللامسؤولية، والتحلل هي نوع من أنواع عدم الالتزام بالحد الشرعي افراطاً أو تفريطاً.

فالمعيار هو الحد الإنساني الذي ارتضاه الله تعالى، وربما ادركناه بوجداننا لوضوحه كالطيبات والخبائث، ولكن المنظار الإلهي يعطينا صورة كاملة عن الحد الوسط أو فلنعبّر

١. الأنفال: ٢٤.

٢. مفردات الراغب، ص ٣٠٥.

٣. الحاقة: ١١.

٤. البقرة: ١٤٣.

بالحد الطبيعي الذي يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يأتي هذا التعبير الإلهي الجميل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>١</sup>، تماماً كما تفسق النواة حين تخرج عن موقعها الطبيعي فتسميها العرب نواة فاسقة.

والأمن البشري على مدى التاريخ مهدد من قبل الطغاة والفاستق. ذلك أننا لو نظرنا من عل إلى كل انهيار الدماء والدموع والاعتداء على النسل والحرق والعقل والإنسانية فإننا بكل سهولة نستطيع أن نرجعها إلى مظهرين من مظاهر الطغيان هما: كما يعبر الشهيد الصدر: مشكلة الضياع واللائتاء، ومشكلة الغلو في الائتاء بتحويل الحقائق النسبية إلى مطلقات، والتعبير الإسلامي عنها هو (الإلحاد) و(الشرك)، وهما يلتقيان في نقطة واحدة أساسية هي (إعاقفة حركة الإنسان في تطوره عن الاستمرار المبدع الصالح)<sup>٢</sup> أما العلاج فهو الإيثار بالله الواحد والمسؤولية تجاهه.

إن اللإيثار أو الإيثار بالوثنية هما حالتا طغيان أو فلنعبّر هما سببان عظيمان للطغيان فيما أن تنتفي المسؤولية في حالة اللإيثار أو تتضخم الصورة الوثنية للذات أو للحجر أو للحاكم أو للاسطورة أو للمنصب أو للمال أو للقوة أو للشهوة. وكلها أمور نسبية يحولها الجهل إلى أمور مطلقة. وحينئذ يكون الدمار، ويكون التهديد العظيم للامن الإنساني بشتى أنواعه.

اننا نستطيع أن نتصور أنماطاً شتى من الأمن للإنسان فهناك (الأمن الفكري والاجتماعي، والأخلاقي الإنساني والعائلي والصحي والبيئي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك). والطغيان وتجاوز الحد والافراط والتطرف يهدد هذه الأنواع جميعاً.

ونحن نعلم أن فرعون يمثل نموذج الطغيان في النصوص القرآنية ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾<sup>٣</sup>، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾<sup>٤</sup>، فحتى الإيثار يحتاج إلى إذن منه قال فرعون ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾<sup>٥</sup>، وكان فرعون رمز التهديد للوجود

١. الحشر: ١٩.

٢. الفتاوى الواضحة، ص ٥٩٥.

٣. طه: ٤٣.

٤. يونس: ٨٣.

٥. الاعراف: ١٢٣.

الشعبي والنسل والخلق، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>١</sup>. وكان رمز الاستخفاف بالأمة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِتْمَامًا فَهُمْ يَرْهَبُونَ﴾<sup>٢</sup>.

وربما كان من نافلة القول بعد هذا أن نتحدث عن دور الإسلام في تحقيق الأمن للإنسان بشتى أنواعه بعد أن عرفنا رفضه لكل الأساليب الطاغوتية الفرعونية جملة وتفصيلاً.

فهو يعمل على توفير الأمن الأخلاقي من خلال نظامه الأخلاقي والتربوي ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾<sup>٣</sup> فهو يعين هنا مرجعية النظام التربوي وبدونها يفقد صبغته وهو ينفي كل ما يلوث الجو الإنساني الخلقى عبر تحريمه المفسد الخلقية التي تميم إنسانية الإنسان.

كما يعمل على توفير الأمن الاجتماعي من خلال إقامة البناء العائلي ونفي كل ما يوجه الغرائز نحو التحلل أو الاشباع الخاطيء، ومن خلال تقديمه نظاماً للعلاقات الاجتماعية المتعالية، ونفيه كل ما يمزق الأمة من مقاييس مادية، كاللون واللغة والعنصر والقبلية والجغرافيا وغيرها، وكذلك من خلال ضمانه لكل حقوق الإنسان في الوجود والكرامة والحرية والضمان الاجتماعي والاقتصادي، ورفضه كل عوامل التهديم كالبخل والغصب واكل المال بالباطل وتمركز الثروة والإسراف والتبذير والحراة والبغي والقتل وغيرها، وكلها تتعاون لتحقيق الهدف، كما يعمل على ضمان المشاركة الشعبية السياسية من خلال مبدأ الشورى ومبدأ الولاية المتبادلة وتعميم المسؤولية ولا نريد أن نستمر في هذا العرض وهو واضح صريح.

إن الإسلام يعمل على المستوى الحضاري لتحقيق الأمن والسلام العادل للبشرية منطلقاً من مبادئه الإنسانية، وحتى لو اضطر للحرب فإنه يشنها حرباً نظيفة لا رد فيها إلا على المعتدي أما الأبرياء فلا ينالهم شيء بل وحتى الطبيعة تبقى آمنة سليمة.

١. القصص: ٤.

٢. الزخرف: ٥٤.

٣. الجمعة: ٢.



يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، اصحابه فيقول (سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تغلو ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا اليها ...).<sup>١</sup>

إن الأمن البيئي والطبيعي والحيواني مضمون إسلامياً وأن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) قاعدة عامة تمنع الإضرار بالبيئة بلا ريب، لأنه إضرار بكل البشرية، خصوصاً إذا فسرنا الضرر بمعناه الواسع مما يشمل المنع من كل إضرار بالفرد أو المجتمع مباشرة أو بشكل غير مباشر. وكل خرق للامن يعد إضراراً وأن الإسلام يجعل الطبيعة مسخرة للإنسان نفسه فعليه أن يشكر نعمتها ولا يكفر بها، ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.<sup>٢</sup>

وحتى علاقات الحب والعواطف قد تقوم بين المسلم والطبيعة، فيمر الرسول الكريم ﷺ على جبل أحد، فيقول: (هذا جبل أحد يحبنا ونحبه).<sup>٣</sup>

ويبقى الوعد الإلهي قائماً في خلد المسلم هدفاً يسعى إليه حثيثاً، إذ يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.<sup>٤</sup>

إنه المجتمع الخليفة الأمن العابد، الأمن من العدو الخارجي والداخلي، وأنه هدف الأنبياء وقد تحقق: عبادةً وأمناً من الطاغوت. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.<sup>٥</sup>

والحقيقة أننا إذا فسرنا الإرهاب بالمنطق الإنساني العام بأنه (كل عمل لا ينسجم مع

١. كنز العمال، ج ٤، ص ٢٢٣، والكافي، ج ٥ ص ٢٧، وغيرها.

٢. إبراهيم: ٣٤.

٣. روته الصحاح.

٤. النور: ٥٥.

٥. النحل: ٣٦.

الوجدان الإنساني من حيث الوسيلة أو الهدف ويهدد الأمن بشتى أنواعه) فسنجد أن الإسلام يقف بقوة ضده بل ويعمل على اجتثاث جذوره من الأساس.  
ومن الطبيعي أن نقول هنا أننا لا نستطيع أن نقضي على المعلول مع الإبقاء على العلل.  
إن معظم ما نشاهده من مظاهر الإرهاب يعود إلى عوامل كثيرة منها:  
أ- انتشار الجهل وروح التعصب الأعمى والنظرة الظلامية للعالم.  
ب- انتشار الفقر والجوع والحرمان، وكاد الفقر أن يكون كفراً.  
ج- انتشار الظلم والاستبداد والقهر والعنف وسلب حقوق الإنسان ومصادرة حرياته المشروعة.

د- فقدان الوازع المعنوي وتدني المستويات القيمية وانتشار الروح الحيوانية الجشعة العمياء.  
فما لم توضع الخطط العالمية المخلصة للقضاء على هذه العلل أو التخفيف من وطأتها فإنها سوف تظل تزرع الإرهاب.  
والأنكى من كل ذلك أن نجد الدول العظمى التي ارتبط تاريخها بالحروب والدمار والإرهاب على رأس قائمة محاربه وهي حتى في حربها المفروضة ضد الإرهاب ترتكب اشبع أنواع الإرهاب وتدعم نظماً إرهابية فاشية مثل النظام الصهيوني الإرهابي بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

فهي تعاقب من تشاء، وتدعم من تشاء، وتدعي على من تشاء، وتدخل من تشاء في خانة الشر أو الخير، فهي النائب العام عن البشرية وهي القاضي الدولي، وهي المنفذ تحت اسماء عديدة.

### الحل على مستوى الأمة الإسلامية

إن الحل على مستوى الأمة يجب أن يتركز على مايلي:

أولاً: رفع مستوى الوعي لدى جماهير أمتنا في مختلف المجالات عبر فهم الإسلام وقراءة الحياة باسم الله، ثم فهم الواقع القائم، والموقف العالمي والتحديات الدولية من أمثال العولمة والعلمنة والهجوم الثقافي.

ثانياً: العمل على تعميم تطبيق الشريعة الإسلامية في كل الشؤون الحياتية فما لم نعد إلى الإسلام فإن المشاكل سوف تظل تحاصرنا. وإن من أهم الأمور ضمان نظافة الجو العام

للمجتمع مما يهيء مجالاً مناسباً للتنمية المعنوية.

**ثالثاً:** تطبيق عملية تربية شاملة لمختلف قطاعات الأمة وفق تعاليم الإسلام.

**رابعاً:** العمل بكل ما من شأنه التقريب في الفكر، لأن الأفكار لا يمكن توحيدها، وتوحيد موقف الأمة عملياً. ولا نريد لهذا التوحيد أن يكون خيالياً، كما لا نريده أن يكون استسلامياً، بل يجب أن يتبع المنهج الوسطي الواقعي على ضوء الأهداف المرسومة. وإشاعة العقلانية الإسلامية، ولغة الحوار المنطقي السلمي، وتحمل التعددية والرأي المخالف، وحرية الاجتهاد بضوابطه، والابتعاد عن لغة التكفير والتفسيق والتبديع وأمثال ذلك.

**خامساً:** العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الدولية الإسلامية وإيجاد ما يلزم لإيجاده، ومنحها حرية أكبر في التحرك عبر آليات جديدة وفاعلة وواعدة.

واعتماد خطة أمنية اجتماعية شاملة - تبنتي - من جملة ما تبنتي عليه - على ما يلي :-

١- وحدة قضايا الأمن في كل أرجاء العالم الإسلامي.

٢- الالتزام باللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.

٣- ضرورة تقوية الاسس العقائدية لتقوم بصياغة العواطف الواعية لتترك أثرها على السلوك الفردي والاجتماعي.

٤- اعتماد مبدأ الحرية العقلانية المسؤولة، واقتلاع جذور الجريمة، ودوافع الاخلال بالأمن، ثم العمل على الردع الإنساني بدلاً من كبت الحريات وخنق المطالبات بحجة الحفاظ على الأمن.

٥- اعتماد مبدأ تعاون الشعوب والحكومات للحفاظ على الأمن الاجتماعي.

**سادساً:** وضع خطة شاملة للاستفادة الأفضل من الامكانيات السياسية والاقتصادية والإعلامية والجغرافية والمادية والطاقات الجماهيرية والعلمية والثقافية وتعبئتها في عملية مواجهة. والتأكيد على إيجاد مرجعية ثقافية عامة تحدد المعايير وتضبط المسيرة.

**سابعاً:** العمل على حل، أو تغافل أو تأجيل بعض النزاعات الجانبية أو الثانوية، الفكرية والمذهبية والمصلحية والجغرافية والتاريخية وغيرها خدمة للهدف الأهم واستجابة لقضية التراحم في الأولويات، وتقديم الأهم على المهم.

**ثامناً:** الشد من ازر الأقليات المسلمة - وتبلغ حوالي ثلث مجموع المسلمين في العالم - بالتأكيد على وجودها أولاً ووحدها ثانياً وهويتها ثالثاً، وتقوية مجالات التلاحم بينها وبين الأمة الأم فهي تستفيد من دعم الأمة، والأمة تستفيد من خبراتها، وقدراتها الإعلامية والعلمية وغيرها.

**تاسعاً:** التركيز على دعم مؤسساتنا الخيرية ومؤسسات الاغاثة والدعوة، وعدم تركها في مهب الريح وعدم انزلاقها في مداخل الخلافات الجانبية والمذهبية والسياسية وحمايتها من الاتهامات المعادية بدعم الإرهاب وأمثاله مما يؤدي إلى اغلاقها.

**عاشرأ:** الاحتفاظ بأصالة التعليم واستقلالية المؤسسات التعليمية وعدم الخضوع للضغوط الخارجية لتؤدي دورها المطلوب على وجه أتم ويتم ذلك عبر استمداد أصولنا التعليمية من الكتاب والسنة مع مراعاة مكتشفات العصر وتعقيدات الواقع.

**حادي عشر:** الاستفادة الأفضل من المؤسسات والمنظمات الدولية الأخرى غير الحكومية لصالح قضايانا العادلة كما حدث في (دوربان) بإفريقيا الجنوبية.

**ثاني عشر:** الوقوف بحزم وتخطيط في قضايانا المصرية وأهمها قضية فلسطين. وفي هذا المجال نقترح:

١. تظافر كل الجهود الإسلامية لافشال خطط اسرائيل لتركيع الشعب الفلسطيني وانهاء الانتفاضة الباسلة بدعم صموده وانتفاضته الباسلة ومقاومته الشجاعة.
٢. القيام بحملة لدعم المنكوبين وترميم الخراب وتكليف كل دولة غنية بسد جانب منه.
٣. ضرورة التأكيد على كون القضية الفلسطينية إسلامية وتعبئة كل الطاقات الإسلامية لذلك.
٤. ضرورة اتخاذ كل الخطوات والاستفادة من كل الامكانيات القانونية والمحافل الدولية لفضح جرائم الصهيونية.
٥. عدم السماح لأمريكا للاستفراد بالقضية وأمثالها، وعدم الاعتماد على الحلول الأميركية.
٦. لزوم التفكير الجدي للعودة لنظام المقاطعة الشاملة للكيان الصهيوني الغاصب ومن يدعمه بل وتنفيذ المقاطعة الشعبية فوراً.
٧. لزوم تفعيل الدور السياسي لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا المجال خصوصاً في مجال

- المطالبة بتنفيذ القرارات الدولية ودفعها لتحقيق الأهداف السامية التي انشئت لأجلها.
٨. لزوم العمل دولياً على وضع تعريف شامل للإرهاب والتفريق بينه وبين المقاومة المشروعة. لئلا تتهم حركات المقاومة بتهمة الإرهاب.
٩. ضرورة إعطاء الغطاء الشرعي للمقاومة الفلسطينية. بل والعمل على رفع روح المقاومة لدى جماهير الأمة بهدف إيجاد الاستعداد اللازم لمواجهة التحديات الخارجية وصنع المستقبل الأمثل.
١٠. السعي لتحقيق كل ما من شأنه اجتثاث الإرهاب من جذوره، فإن الإرهاب معلول له علل، وليس من الحكمة محاربة المعاليل وابقاء العلل على حالها.



(١٥)

## الاختلاف وأسلوب الحوار الحكيم

هذا البحث يتناول أسباب اختلاف الفقهاء، والموقف العملي للدولة الإسلامية تجاه هذا الاختلاف، ثم يذكر دعوة الإسلام إلى الحوار، وشروط هذا الحوار مركزاً على مسائل تحرير محل النزاع، والموضوعية والانطلاق من المبادئ المتفق عليها، والابتعاد عن التهويل، والأثر العملي. قبل أن نبحث عن دواعي وأسباب الخلاف الفقهي ينبغي أن نذكر حقيقة مهمة هي: إن الإسلام دين الفطرة، أي أنه دين واقعي لا يتعامل مع الخيال وإنما يتعامل مع الواقع سواء كان على صعيد الوجود كله، أو صعيد التاريخ الإنساني أو صعيد الفطرة الإنسانية وهي السر الوحيد لتمييز الإنسان عن غيره من المخلوقات. ومن عجائب الفطرة هذا الانسجام التكويني الرائع بين القناعة الفكرية، والميول العاطفية والسلوك العملي في الإنسان، كما أن من عجائبها هذا التنوع في دراسة الأشياء ومعرفتها وتطبيق البدييات العقلية عليها، وربما كان من عجائبها أيضاً اختلاف وجهات النظر والاجتهادات في تحليل القضية الواحدة. ولسنا بصدد التحليل النفسي بقدر ما نحن بصدد القول بأن الإسلام بمقتضى واقعيته قرر أن العقيدة يجب أن تتشكل وفق برهان منطقي: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وأنه لا يمكن الإكراه عليها، وإنما مسيرها الطبيعي الاستدلال والبرهنة، وكذلك فإنه بمقتضى واقعيته أيضاً سمح بالاجتهاد في فهم نصوصه القرآنية والنبوية واستنباط أبعادها وتطبيق مفاهيمها على الواقع، وبالتالي استنباط الصور الكلية والجزئية لموقف الإسلام من أنماط السلوك

الإنساني بل وحتى الموقف الإسلامي من الكون والحياة والإنسان، وشتى المواقف الاجتماعية المطروحة أو التي ستطرح على المسيرة الحضارية.

أما الاختلاف الذي نهب عنه القرآن الكريم وشدد النكر عليه، فهو كما هو واضح، الاختلاف في الموقف العام من القضايا المصيرية المشتركة للامة الإسلامية الواحدة، ذلك أن حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به هو الخط العام المتيقن من الإسلام والذي يشكل عصمة هذه الأمة وخصيصة الكبرى، إنه (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة) ولا يشك في هذه العروة الوثقى إلا جاهل أو مكابر.

وتبقى كل الاختلافات والاجتهادات المتنوعة في إطار الاعتصام بالكتاب والسنة وحينئذ يتوحد الموقف العام رغم اختلاف الاتجاهات في الإطار الواحد. إن وعي هذه الحقيقة ضروري لدى مفكرينا بل جماهيرنا، وردّ على أولئك الذين يدعون إلى تدويب المذاهب الفقهية تحقيقاً للوحدة الإسلامية.

### أسباب الاختلاف الفقهي:

ومعرفة أسباب الاختلاف الفقهي أمر مفيد جداً لتحقيق التقريب، وضروري لبحثنا هذا، فما هي هذه الأسباب؟

ورقة العمل المقدمة من قبل اللجنة المنظمة لندوة التقريب التي انعقدت في المغرب، أرجعت الأسباب إلى أربعة، هي:

أ- الاختلاف في دلالة النص الثابت.

ب- الاختلاف في صحة النص المتعلق بالحكم.

ج- تباين الاجتهاد في ترجيح الأدلة عند تعارضها.

د- اختلاف الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح<sup>١</sup>.

وأجزها ابن رشد في مقدمة كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد وحصرها في ستة أمور: أحدها: تردد الألفاظ بين هذه الطرق الأربع، أعني بين أن يكون اللفظ عاماً يراد به الخاص

١. ورقة عمل ندوة التقريب بين المذاهب الإسلامية المقدمة إلى ندوة التقريب في المغرب ص: ١٢.



أو خاصاً يراد به العام، أو خاصاً يراد به الخاص، أو يكون له دليل الخطاب أو لا يكون.  
والثاني: الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك:

إما في اللفظ المفرد كلفظ: القرء الذي يطلق على الأطهار وعلى الحيض، وكذلك لفظ: الأمر هل يحمل على الوجوب أو الندب، ولفظ النهي هل يحمل على التحريم أو الكراهة، وإما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾<sup>١</sup> فإنه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط، ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة شهادة القاذف.  
والثالث: اختلاف الإعراب.

والرابع: تردد اللفظ بين حملة على الحقيقة أو حملة على نوع من أنواع المجاز التي هي: إما الحذف وإما الزيادة وإما التأخير وإما تردد على الحقيقة أو الاستعارة.  
والخامس: إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة أخرى، مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة وتقييدها بالإيمان تارة.

والسادس: التعارض في الشئيين في جميع أصناف الألفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض وكذلك التعارض الذي يأتي في الأفعال أو في الإقرارات أو تعارض القياسات نفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الأصناف الثلاثة، أعني معارضة القول للفعل، أو للإقرار أو القياس ومعارضة الفعل للإقرار أو للقياس، ومعارضة الإقرار للقياس<sup>٢</sup>.

إلا أن هذا التقسيم وقع موقع الاعتراض إذ أنه ركز على الأسباب التي تتصل بالاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور أو حجية القياس، في حين أن الاختلاف في الكبريات نفسها - باعتبارها المنشأ الأساس لهذا الاختلاف - مما يمكن تجاهله، ولذا توجهوا إلى التركيز على منبعين رئيسيين هما:

١- الخلاف في الأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي كالخلاف في حجية القياس أو العقل أو الاستصحاب.

١. النور: ٥.

٢. ص ٥ - ٦ ج ١، من: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

## ٢- الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد انطباقها.

(وفي هذا القسم تنتظم جميع تلك المناشئ التي ذكرها ابن رشد ونظائرها مما لم يتعرض له كمباحث المفاهيم والمشتقات ومعاني الحروف وما يشخص صغريات حجية العقل، كباب الملازمات العقلية، بما فيه من بحوث مقدمة الواجب، واجتماع الأمر والنهي والإجراء، واقتضاء الأمر بالشيء، والنهي عن ضده وغيرها من المباحث الهامة)<sup>١</sup>.

وهنا نشير إلى أن بعض العلماء كانوا يميزون الاختلاف في الفروع دون أصول الفقه.

وهذا التقسيم الأخير بلا ريب أوفى وأكثر انطباقاً على الواقع من التقسيمين السابقين، وهذا يعني أن الاختلاف في أصول الفقه هو أساس في جل الاختلافات في الفتاوي، الأمر الذي يتطلب جهداً واسعاً ولقاءات عملية مستمرة لتحقيق تفهم أكبر للآراء والأدلة والوصول إلى مساحات مشتركة - وهي واسعة كما أتصور - وذلك تقليلاً للخلاف - من جهة - ونفهاً أكثر لوجهة النظر الفقهية المخالفة - من جهة أخرى - الأمر الذي يمنع من انسحاب هذا الخلاف الطبيعي إلى المجالات التحريفية التي لمحننا إليها.

وما نود أن نضيفه هنا هو عامل الاختلاف في مناهج الاستدلال فهو يؤدي بالطبع إلى الاختلاف في النتائج ومن هنا أدعو إلى ضرورة التحديد في منهج الاستدلال، وملاحظة الترتيب المنطقي بين الأدلة. وهو أمر ضروري جداً وإلا لوقعنا في الخلط الكبير.

ولا أعتقد أننا إذا ركزنا على نوع الدليل، ولاحظنا ظروفه الخاصة به، سوف نختلف في الترتيب المطلوب وبدون ذلك نشهد اضطراباً واسعاً، فهذا يستدل بالاستصحاب أولاً، ثم يلجأ إلى النص، وذلك يذكر مقتضى أصل الإباحة ثم يلجأ للإجماع، وهكذا تقع في دوامة فقهية فظيعة، وسر هذا الوقوع عدم التصفية المنهجية ابتداءً، وهي شرط كل استدلال فقهى متين.

وفي هذا الصدد نجد مثلاً الإمام الغزالي، يطرح الترتيب على النحو التالي: يجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النفي الأصلي قبل ورود الشرع، ثم يبحث عن الأدلة السمعية المغيرة، فينظر أول شيء في الإجماع، فإن وجد في المسألة إجماعاً، ترك النظر في

١. أصول الفقه المقارن ص ١٩.

الكتاب والسنة فإنهما يقبلان النسخ والإجماع لا يقبله، فالإجماع على خلاف ما في الكتاب والسنة دليل قاطع على عدم النسخ إذ لا تجتمع الأمة على الخطأ، ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة، وهما على رتبة واحدة، لأن كل واحد يفيد العلم القاطع، ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بأن يكون أحدها ناسخاً فمما وجد فيه نص عن كتاب أو سنة متواترة أخذ به، وينظر بعد ذلك إلى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصصات العموم من أخبار الآحاد ومن الأقيسة، فإن عارض قياساً عاماً أو خبر واحد عموماً، فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها، فإن تساوى عنده توقف على رأي، وتخير على رأي آخر<sup>١</sup>.

فالترتيب لديه هو مقتضى القاعدة التي تنفي التشريع قبل وروده، ثم الأدلة المخالفة لهذا المقتضى، وفيها أيضاً يرجع إلى الإجماع أولاً، وإلا فإلى النصوص المتواترة، وبعدها إلى العمومات الكتابية ثم المخصصات، والأرجح إلى الأقيسة، وعند التعارض يطلب الترجيح ومع التساوي، فإما التخيير، وإما التوقف، والذي يظهر أن هناك نقاطاً مبهمه في هذا الترتيب.

منها: إن الإجماع - لو قلنا باستقلاله في الدليلية - يقف إلى صف واحد من الكتاب والسنة وباقي الأدلة الاجتهادية فما معنى تخصيصه أولاً بالرجوع؟

ومنها: إن العمومات الكتابية على مستوى واحد من عمومات السنة، فما معنى تخصيص الأولى بالذكر.

ومنها: إن القياس - لو قلنا به - فهو في رتبة واحدة مع النصوص، فلماذا التأخير؟  
ومنها: إنه ما الموقف عند فقدان الأدلة الاجتهادية، أي، ما هو الموقف العلمي؟ وليس لدينا أصلاً دليلاً متعارضاً حتى نتخير أو نتوقف، ثم أين مسألة الاستصحاب؟ والبراءة؟ وعلى أي حال، فهناك إبهام واضح في البين.

إن هذا الأمر يتطلب دراسة موسعة حول ملاكات تقديم أي دليل على آخر، وهذه الملاكات تعرضت لها بالتفصيل المدرسة الأصولية الإمامية، وإن كان الاستيعاب قد تم في مرحلة متأخرة جداً<sup>٢</sup>.

١. المستصفى ١ / ٣٩٢.

٢. فقد قال صاحب (أصول الفقه) العلامة المظفر رحمته الله ج ٣ - ص ١٩٠: «إن مصطلحي الحكومة والورود» هما  
←

وقد ذكرت أن الملاكات هي: التخصيص والتخصص والحكمة والورود، ونشير بالإجمال إلى معانيها:

- التخصيص: والمراد به إخراج من الحكم مع دخول المخرج موضوعاً.

- التخصص: والمراد به الخروج الموضوعي الوجداني.

وهذان معروفان:

- الحكومة: والمراد بها أن يكون أحد الدليلين ناظراً إلى الدليل الآخر موسعاً أو مضيقاً له، فمن القسم الأول: من أن الفقاع خمر استصغره الناس. ومن الثاني: قوله ﷺ: لا ضرر ولا ضرار الذي يقوم بتضييق موضوع الأدلة الأولية إلى ما لا يشمل الأحكام الضرورية.

- الورد: والمراد به الدليل النافي للموضوع وجداناً، ولكن بواسطة تعبد شرعي كتقدم دليل: لا ضرر على دليل: وجوب دفع الضرر المحتمل في المورد الضروري.

وعبر هذه الملاكات لا أظن أننا سنختلف بعد ذلك كثيراً، ذلك أن المجتهد يبحث - أول ما يبحث - عن واقع الحكم الشرعي - فإذا لم يجد شيئاً، راح يبحث عما نزل بمنزلة الواقع، فإذا لم يعثر على شيء فعليه البحث عن موقفه العملي كما تحدده الوظيفة الشرعية، وإلا راح للموقف العلمي كما يحدده العقل، وعند تعقد الأمر يلجأ عادة للقرعة طبق تحديدها.

وهذا الترتيب قائم على قوانين الحكومة والورد.

فالأدلة التي تكشف بلسانها عن الواقع كالكتاب والسنة والإجماع، وغيرها مقدمة بلا ريب على الأدلة التي تكشف عن الواقع التنزيلي (أي ما هو بمنزلة الواقع) كالاستصحاب وأصالة الصحة وقاعدة التجاوز والفراغ في الصلاة وأمثالها، وذلك لأن الأولى حاكمة على الثانية ومزيلة لموضوعها تعبداً، في حين نجد أن أدلة الواقع التنزيلي مقدمة بدورها على أدلة الوظيفة الشرعية كأدلة البراءة والتخير والاحتياط، لأن هذه الأدلة، أخذ في موضوعها فقدان الواقع بجميع مراتبه حتى التنزيلية.

---

من مبتكرات الشيخ الأنصاري الكبير ﷺ المتوفى سنة (١٢٨١ هـ) في حين أرجعه المرحوم الحلبي إلى طبقة أسبق منه، كما ذكر السيد الحكيم في أصول الفقه المقارن ص ٨٧.

وأدلة الوظيفة العملية الشرعية مقدمة على أدلة الوظيفة العملية العقلية. وهذه الأخيرة مقدمة على أدلة القرعة لنفس ما ذكرناه<sup>١</sup>. وما أظنه أن الكثير من الاختلاف في مناهج الاستدلال راجع إلى عدم التركيز على ملاكات التقديم هذه وإلا فلا مجال للاختلاف الكثير. ومن الضروري أن ننبه هنا أن هذه الملاكات بنفسها تلعب دورها في تقديم أدلة الأحكام الثانوية - كالأحكام الضرورية والحرجية وأحكام (السبيل على المؤمنين) وأمثالها - على أدلة الأحكام الأولية، كالوضوء والصوم والحج، وغيرها. وكذلك في تقديم أدلة الأحكام الولائية التي يصدرها ولي الأمر في منطقة المباحات بعناوينها الأولية على أدلة الإباحة هنا باعتبار أن أدلة الولاية ناظرة إلى الأدلة الأولية ومقدمة عليها، وهو باب واسع من الضروري أن تتم دراسته والتأمل العميق فيه.

### مجالات الاختلاف الفقهي والموقف فيها

لاحظنا أن وجود الاختلاف حالة طبيعية نتيجة تعدد أسباب الاختلاف. إلا أننا هنا نحاول التحدث عن المجالات التي يتم الاختلاف فيها وكيفية توجيه الموقف فيها أو احتواء الموقف الخلافية أو بالاحرى تحويل الخلاف إلى نقطة قوة وثناء بدلاً من أن يتحول إلى نقطة خور وضعف، ومهما قيل عن الحديث المنسوب للرسول ﷺ اخلاف أمتي رحمة فإن الإسلام لا بد أن يحول كل القضايا الطبيعية إلى عنصر ثراء للمسيرة الإسلامية الصاعدة. ولما كان الفقه مرتبطاً بالحياة الفردية والاجتماعية فمن الطبيعي أنه يترك أثره الإيجابي أو السلبي على المسيرة الحياتية، فهاهو الطرح الإسلامي المتصور في البين؟ ولدى الجواب نود أن نذكر بأن السلوك ينقسم إلى فردي واجتماعي دون أن نضع حداً فأصلاً بينهما، فإن هناك سلوكات فردية ترتبط تماماً بالسلوك الاجتماعي، وأخرى لا علاقة مباشرة لها بذلك، ولذلك فهي مشمولة للأحكام الاجتماعية بمقدار هذه العلاقة.

١. راجع أصول الفقه للمظفر - ٣٣ / ص ١٩٢ - ١٩٥ وأصول الفقه المقارن ص ٨٥ - ٩٢ وباقي الكتب الأصولية من قبيل دروس في علم أصول الفقه للمرحوم الصدر، وغيرها.

فإذا ركز على أنماط السلوك الفردي من قبيل (استحباب القنوت في الصلاة ووجوب رد السلام، وحرمة النذر لغير الله تعالى) وأمثال ذلك مما لا يرتبط مباشرة بالسلوك الاجتماعي العام، وجدنا أن الإسلام يفسح المجال للمسلم أن يجتهد بنفسه لاستنباط هذه الأحكام أو يقلد مجتهداً فيها، ولا ضير حينئذ في اختلاف الاجتهاد ولا يترك أثراً على وحدة الموقف العام. فإذا انتقلنا إلى الساحة الاجتماعية، والعمل الاجتماعي فإن الموقف كما نرى يتغير، فرغم سماح الإسلام للمجتهدين بل تأكيده عليهم في استنباط المواقف النظرية للإسلام في هذا المجال، وكذلك سماحه لهم في إبداء الرأي في النوازل والحوادث الواقعة إلا أنه لا يسمح لهم مطلقاً بالإخلال بالموقف العام، ومن هنا نقول: إن المجتهدين يمكن أن يستنبطوا الحكم الإسلامي الأولى أي الذي وصفه الإسلام للموضوعات بعناوينها الأولية كحرمة الخمر والربا والقمار ووجوب الصلاة والزكاة والحج، كما لهم أن يعينوا الموقف النظري في الأحكام الثانوية أي الأحكام التي تطرأ على الموضوعات نتيجة حصول ضرر أو حرج أو إكراه أو وقوع الشيء مقدمة للواجب أو سد ذريعة للحرام وما إلى ذلك، والمكلفون هم الذين يشخصون مصاديق هذه المواقف النظرية ويعملون بها في سلوكياتهم الفردية. أما المجال الاجتماعي أو الموقف الاجتماعي فالذي يقرره هو المجتهد الحاكم لا غير ويمكن لغيره من المجتهدين أن يعينوه على ذلك، وإذا صدر الموقف الحكومي الشرعي فليس لأحد من المجتهدين أن يخالفه عملياً على الإطلاق وإلا لأدى ذلك إلى شق عصا المسلمين ومن هنا يحق لنا أن نقول إنه لا مجال للاختلاف في الموقف الاجتماعي العام داخل المجتمع الإسلامي أو تجاه خارج هذا المجتمع.

### ولي الأمر وانتخاب الفتوى الملائمة

في أحد بحوثنا الماضية التي طرحت حول مسألة (التلفيق والأخذ بالرخص) قلنا بأن للفرد أن يأخذ بمسألة التلفيق بين الفتاوى بعد أن بنينا ذلك على عدم لزوم اتباع الأعلام في التقليد. ولسنا نريد إعادة البحث هنا، ولكننا نريد أن نتحدث عن حقيقة مهمة هنا هي إن الحاكم الشرعي يستطيع أن يعتمد فتواه أو فتوى غيره مما يراه منسجماً أكثر من غيره مع مجمل الخط العام الإسلامي، فيصدر أمره بجعل هذه الفتوى حكماً عاماً وقانوناً تتبعه الأمة - بما فيها

سائر المجتهدين بما يشمل القائلين بخلاف تلك الفتوى - وهذا المعنى إنما يتصور في مجال الحياة العامة لا السلوك الفردي<sup>١</sup>.

ولتوضيح الأمر نقول:

إن المجال هنا ليس مجال تقليد العامي للمجتهد ليأتي بحث (الأعلمية)، وإنما هو مجال إدارة الحياة العامة بما يحقق المقاصد الإسلامية وفق الأحكام التي شرعها الشارع الحكيم (تعالى)، في إطار تخطيط إسلامي للحياة قد يتطلب أحياناً اللجوء إلى فتوى معينة هي أكثر انسجاماً مع المصلحة العامة، وتشكل مع غيرها مجموعة متكاملة، مما يدفع إلى انتقائها وجعلها قانوناً بعد إن كانت حصيلة اجتهاد إسلامي جار وفق الطريقة الشرعية لاستنباط الأحكام. فلو كان الحاكم ممن يقولون بمسألة تعدد الآفاق - كما هي فتوى الشافعية - وبالتالي تعدد أوائل الشهور القمرية في العالم الإسلامي، إلا أنه كانت هناك فتوى معتبرة - وحذا لو كانت مشهورة أيضاً - تقول بوحدة الآفاق وكفاية رؤية القمر في أي مكان من العالم للحكم بدخول الشهر القمري كما هي مثلاً فتوى المذاهب الثلاثة (الحنفي والمالكي والحنبلي) وبعض علماء الإمامية كالمرحوم الإمام الخوئي والإمام الشهيد الصدر<sup>٢</sup> فإن للحاكم الشرعي لا بصفته يفتي لمقلديه، بل بصفته يدير شؤون الأمة الإسلامية أن ينتخب هذه الفتوى ويحولها إلى حكم الزامي تدار على أساس منها شؤون الأمة.

فملاك عمل الفرد في تقليده هو الوصول إلى الرأي الحجة بينه وبين ربه في المجال العملي في حين أن ملاك عمل الحاكم الشرعي هو تحقيق مقاصد الشريعة وإشاراتها مع الحفاظ على المصلحة العامة للامة في إطار ما منحه الشرعية من صلاحيات قانونية.

ولكي نقرّب الأمر إلى الذهن نلاحظ أن الباحث المسلم لكي يكتشف مذهباً حياً كالمذهب الاقتصادي الإسلامي أو المذهب الاجتماعي، أو الحقوقي أو غير ذلك، قد يجد فتاوى منسجمة مع بعضها لدى مفتين متعددين، لكنها تشكل وجهاً واحداً لخط عام منسجم، وحينئذ فإنه يستطيع أن يطرح ذلك الخط كصورة اجتهادية عن المذهب المذكور.

١. راجع كتابنا «المرجعية» طبع بيروت ص ٤٤.

٢. راجع «الفتاوى الواضحة» للإمام الصدر و«منهاج الصالحين» للإمام الخوئي.

وهذا ما فعله المرحوم الشهيد الصدر - وهو من كبار المجتهدين - في كتابه اقتصادنا وقال مفسراً ذلك: إن اكتشاف المذهب الاقتصادي يتم خلال عملية اجتهادية في فهم النصوص وتنسيقها والتوفيق بين مدلولاتها في اطراد واحد، وعرفنا أن الاجتهاد يختلف ويتنوع تبعاً لاختلاف المجتهدين في طريقة فهمهم للنصوص، وعلاجهم للتناقضات التي قد تبدو بين بعضها والبعض الآخر، وفي القواعد والمناهج العامة للتفكير الفقهي التي يتبنونها. كما عرفنا أيضاً أن المجتهد يتمتع بصفة شرعية وطابع إسلامي مادام يمارس وظيفته ويرسم الصورة ويحدد معالمها ضمن إطار الكتاب والسنة، ووفقاً للشروط العامة التي لا يجوز اجتيازها.

وينتج عن ذلك كله ازدياد ذخيرتنا بالنسبة إلى الاقتصاد الإسلامي ووجود صور عديدة له كلها شرعية وكلها إسلامية، ومن الممكن أن نتخير في كل مجال أقوى العناصر التي نجدها في تلك الصورة وأقدرها على معالجة مشاكل الحياة وتحقيق الأهداف العليا للإسلام وهذا مجال اختيار ذاتي يملك الباحث فيه حريته ورأيه.

ويضيف: إن ممارسة هذا المجال الذاتي، ومنح الممارس حقاً في الاختيار ضمن الإطار العام للاجتهاد في الشريعة قد يكون أحياناً شرطاً ضرورياً من الناحية الفنية لعملية الاكتشاف.

ثم يضيف متسائلاً: هل من الضروري أن يعكس لنا اجتهاد كل واحد من المجتهدين - بما يتضمن من أحكام - مذهباً اقتصادياً متكاملأً وأساساً موحدة منسجمة مع بناء تلك الأحكام وطبيعتها؟ ونجيب على هذا التساؤل بالنفي لأن الاجتهاد الذي يقوم على أساسه استنتاج تلك الأحكام معرض للخطأ، ومادام كذلك فمن الجائز أن يضم اجتهاد المجتهد عنصراً تشريعياً غريباً على واقع الإسلام.. ولهذا يجب أن نفصل بين واقع التشريع الإسلامي كما جاء به النبي ﷺ وبين الصورة الاجتهادية كما يرسمها مجتهد معين<sup>١</sup>.

فإذا كانت الحال هذه - مع اكتشاف النظرية العامة للإسلام من قبل مجتهد ما - مشروعة فهي أولى في المشروعية عندما يراد إصدار قانون عام، وذلك:

أولاً: لما يملكه الحاكم الشرعي من صلاحية واسعة لتحويل الأحكام وفق المبادئ المعطاة.

ثانياً: لكون هذه الحالة مؤقته في حين يراد للنظرية أن تكون دائمة.



ثالثاً: لأنه يعتمد على خبراء الدولة ومشاورتهم في معرفة القائم واكتشاف التلاؤم بين الفتاوى، الأمر الذي يقربه من الواقع.

رابعاً: لأنه لا مفر لانتخاب أحد الفتاوى للعمل بها بشكل عام من قبل الحاكم الشرعي ولذا فمن الطبيعي أن تنتخب الفتوى الأكثر انسجاماً مع سير الأمور.

كل ذلك شريطة أن تكون قد صدرت على أساس من قواعد الاجتهاد المعروفة بل وقد نشترط فيها أحياناً أن تكون من الفتاوى المشهورة. ونشير هنا إلى أن الكثير من الدول في دساتيرها لم تعتمد مذهباً إسلامياً معيناً حتى في قضايا الأحكام المدنية، رغم أنها ركزت على خصوص أحد المذاهب، فقد اضطرت لكي تحفظ سلامة العائلة وصيانتها للاعتماد على الرأي الإمامي القائل بعدم مشروعية الطلاق بالثلاث واعتبارها طلاقاً واحداً رغم أنها اعتمدت في عموم أحكامها على المذاهب الأخرى.

### الحوار المطلوب

إذا كان الإسلام قد سمح بالاجتهاد واعتمد العقل والبرهان سبيلاً منطقياً للإقناع فمن الطبيعي أن يجوز الحوار ويدعو إليه على كل الأصعدة، وهي من قبيل:

أ- الحوار بين المسلمين المختلفين في الشؤون الشخصية.

ب- الحوار بين المختلفين في القضايا الاجتماعية.

ج- الحوار بين الفقهاء.

د- الحوار العقائدي.

هـ- الحوار بين الأديان.

و- الحوار بين الحضارات.

وفي كل هذه الأنماط نجد النصوص الإسلامية تركز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدث علماءنا القدامى عن آداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكره جميعاً في منطقة الشروط الضرورية لأنها جميعاً إن لم تتوفر عرضت النتائج لخطر التمويه.

أولاً: تحرير محل الحوار، وهو أول شرط وأهمه فإن الحوار قد يكون مضيقاً للوقت إذ يتبين للمتحاورين بعد فترة طويلة أنها كانا يركزان حديثهما على محورين مختلفين، أو وجهتين

متفاوتتين، ولذا كان ديدن علمائنا البدء بتحرير محل النزاع وتشخيص أبعاده ليكون الاستدلال متتجا، وهذا شرط منطقي لا نحتاج للاستدلال عليه<sup>١</sup>.

ثانياً: الموضوعية، ونعني بها الدخول إلى مرحلة الحوار بعد التخلي مؤقتاً عن كل القناعات السابقة والسعي لطلب الحق أينما كان.

وهذا هو القرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم وهو القمة في الإيمان واليقين بأن يدخل في الحوار بروح موضوعية هادفة ليقول ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>٢</sup>.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>٣</sup>. وهو أمر أكده السابقون من علماء الأخلاق وغيرهم.

يقول صاحب المحجة البيضاء في إحياء الأحياء عند التحدث عن شروط المناظرة: الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإن ذلك مرء منهى عنه بالنهي الأكيد ويضيف أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره فيرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق<sup>٤</sup>.

ثالثاً: الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه. فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الأطراف أو لا يعلمه أحدهم أو لا يتخصص فيه إن كان مما يحتاج للتخصص. يقول تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٥</sup>.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ

١. راجع «الكافية» للجويني ص ٥٤٠ و«قاموس الشريعة» للسعدي ج ٣ ص ٦.

٢. سبأ: ٢٤.

٣. القصص: ٤٩.

٤. «المحجة البيضاء في شرح الأحياء» للغزالي - ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ والغزالي في إحياء العلوم ج ١ ص ٤٣.

٥. الأنعام: ٦٦.

إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾.

وهنا يقول أحد العلماء: الثامن أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق<sup>٢</sup>.

ومن هنا فنحن نعتقد أن طرح الاستدلالات العلمية الدقيقة في المجمع العامة مع اختلاف مستويات الحاضرين أمر يجانب شروط الحوار.

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتفق عليها. إن الحوار لن ينتج مطلقاً إذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقاً، وفرضيات مسلمة يرجع إليها المتحاوران. ومن هنا رد الجميع عنصر المصادرة على المطلوب واعتبروه أسلوباً مخاتلاً..

ولا سبيل هنا إلا التنبيه على بعض القضايا الوجدانية، ومن هنا نجد القرآن الكريم يرد على أولئك المنكرين للبدييات بتوبيههم لخطأ ما يعتقدون وإيقافهم أمام تساؤلات فطرية إذ يقول تعالى لأولئك المقلدين لأبائهم (دونما منطوق): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>٣</sup> ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾<sup>٤</sup> قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٥﴾.

فإن هؤلاء قوم لا يؤمنون بشيء مشترك مع المحاور المسلم بها، وما عليه إلا أن ينبههم على بعض المشتركات الفكرية من قبيل:

«أن المجانين لا يتبعون، فإذا افترضنا أن آبائهم مجانين فهم لا يتبعون، إذن عليكم التحقيق».

أو (إن الأفضل والأهدى هو المتبع فيجب التأكد من الأهدى).

خامساً: المنطقية، بحيث يسير البحث بشكل منطقي وتؤدي المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي

١. غافر: ٥٦.

٢. المحجة ج ١ ص ١٠١.

٣. البقرة: ١٧٠.

٤. الزخرف: ٢٣-٢٤.

وذلك دونها تحايل أو ملاحظة أو جدال عقيم، والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>١</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾<sup>٢</sup>.

وقد رأينا العلماء يردون التحايل على الطرف الآخر ويذكرون لذلك أمثلة من قبيل:

أ- إبهام العبارة حتى لا يفهمها الطرف.

ب- الاحتيايل عليه حتى يخرججه عن محل تساؤله.

ج- توجيه كلام السائل إلى وجوه محتملة<sup>٣</sup>.

بل تحدثوا عن الصفات التي قد يبتي بها المتحاوران نتيجة عدم القدرة على امتلاك الموقف من قبيل الحقد والحسد وتزكية النفس والفرح بمساءة الآخرين، والاستكبار عن الحق، والرياء، وكل ذلك لكي تعود إلى المحاور شخصيته الطبيعية التي تحقق منطقيته في الحوار.

سادساً: الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي ففي مثل هذا الجو يفقد الحوار جوه المطلوب، ولا معنى فيه للاستدلال المنطقي الهادئ الحكيم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جو انفعاليواجه المشركون به النبي ﷺ واتهموه بالجنون، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والعودة إلى الهدوء المطلوب ثم التفكير بما يتهمونه به، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾<sup>٤</sup>.

سابعاً: أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً فلا معنى للحوار حول افتراضات تجانب الواقع. يقول الإمام الغزالي: الرابع أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من

١. الزخرف: ٥٨.

٢. الكهف: ٥٤.

٣. راجع الجويني في الكافية ٥٤٢ - ٥٤٩.

٤. سبأ: ٤٦.

الوقوع وأن يهتم بمثل ذلك<sup>١</sup>.  
ثامناً: إن تلحظ في الحوار كل الجوانب المرتبطة بالموضوع فقد تترك الجوانب غير الملحوظة  
أثرها على النتيجة، أما إذا لم يتسع صدر البحث فيجب الاتفاق على قدر متيقن فيها.

---

١. المحجة البيضاء ج ١ ص ١٠٠.



(١٦)

## حوار الإسلام والغرب بين الواقع والمستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وبعد:  
فإنه من الممكن أن ندرس هذه العلاقة على ضوء التصريحات والآراء المبدئية، وعلى أساس من جو الاحاديث الدبلوماسية المرححة التي تسود حلقات الحوار الخاصة والعامة فنجدها علاقة مطردة النمو وارتفاع بالكثر الكثير.

ولكننا لو درسناها على صعيد الواقع القائم فإننا نجد صورة متوترة جدا لدى الطرفين تتمثل في عبارات التوجس خيفة من الآخر، فاذا رأينا من يحسن الظن فإننا يتم ذلك على أساس من تسليم الطرف الآخر نفسه والاعتراف بالهزيمة المرة.

وهذا الوضع القائم إنما هو افراز لتصرفات تاريخية وأعمال معاصرة وسياسات قائمة لاتسمح للمرء بتكوين صورة متفائلة. ولاريب أن هذا التشنج في الموقف لن يعود إلا بالنزاع المستمر والعداء المتواصل ولن تبقى للحوار الإنساني ادنى مساحة.

ومن هنا فإن المفكرين من كل جانب مدعوون لتقييم الواقع وتهدئة الموقف والبحث عن المساحة المشتركة، والعمل على توسعتها والتعاون المثمر لتعميقها.

الواضح أن الإسلام بمقتضى واقعيته المعروفة يسعى عن طريق الدعوة والعرض السليم إلى التحدث مع الفطرة الإنسانية والتأكيد على أن كل ما جاء به من تصورات عن الواقع والحياة إنما يقوم على أساس منطقي سليم وينسجم مع تطلعات الفطرة الإنسانية. والمهم هو أن يحصل الجو الحر الموضوعي للاستماع إلى صوت الإسلام.

ورغم الحرية التي يتمتع بها العالم الغربي - أو يدعيها - في فسح المجال للآراء أن تعرض نفسها إلا أن الإسلام يواجه عقبات كبرى في هذا الصدد وأهمها التشويش والتشويه الدعائي الواسع الأبعاد ضده وضد كل مقدساته، وذلك عبر القنوات الإعلامية الواسعة وبمختلف الأساليب الماكرة التي كثيرا ما تستغل الفن والقصة والعلم لتمير أفكار معادية للإسلام. واؤكد أن هذه الحملة تنطلق من منطلقات:

الأول: تعصبي حيث نجد الجهات المتعصبة الصليبية تحمل حقدا تاريخيا ضد الإسلام دونما تأمل في ما يطرحه الإسلام من أفكار إنسانية. ويسعى الكثيرون في الغرب للتخلص من هذه التراكمات التاريخية، ولكن التيار العام - كما يبدو - يترك تأثيره على أعلى المستويات: وهو ما لاحظناه ينطرح في خطاب الرئيس الأمريكي بعد ١١ سبتمبر وإن انمحي بعد ذلك.

الثاني: مصلحي: انطلاقا من النظرة المادية الرأسمالية للحياة والعمل على مسخ هوية الشعوب لامتناسخ خيراتهما. والإسلام بمقتضى مبادئه لا يسمح - أولا - بخضوع الشعوب الإسلامية للمصالح التوسعية الغربية كما لا يسمح - ثانياً - بشكل عام باستغلال المستضعفين من قبل الأقوياء المستكبرين، الأمر الذي يقف عقبة أمام الاستغلال المادي الوضيع. في حين يتحدث المنظرون والإستراتيجيون عن نظرية التقدم والتفوق الغربي وكأنها قدر على الأرض لا يمكن تحطيه والحقيقة أن عملية مسخ الهوية أو (التغريب) التي ركزها الغرب في فترة استعمارهم للعالم الإسلامي شكلت أشد ضربة موجهة له: فحاولت تغيير نظمه التربوية، وتعليمه، ومفاهيمه عن الحياة، واحساسه بالوحدة الإسلامية، والتحام الدين بالحياة وغير ذلك مما لا يمكن تغطيته - كما يفعله المبهورون - بمظاهر التقدم المادية التي حققتها حملة نابليون ١٧٩٨ على مصر مثلا أو التغييرات الحديثة في العالم الإسلامي<sup>١</sup>.

الثالث: قومي وطني انطلاقا من تصور الغرب أن المسيحية أو بشكل عام الدين الذي لا يتدخل في معمعان الحياة هو من الخصائص الوطنية والقومية للشعوب الأوروبية<sup>٢</sup> وهذا فهم

١. راجع البحث القيم للدكتور جلال امين في كتابه (العولمة والتنمية العربية) الفصل الاول.

٢. وهو ما شهدناه اثناء طرح موضوع الدستور الاوروبي الموحد او حينما طرحت مسألة انضمام تركية للاتحاد الاوروبي.



خاطيء للدين والتراث الوطني والقومي. وهو الأمر الذي يرفضه المنطق التغييري للبنية الإنسانية. فالمهم أن يدين الإنسان بدين الحق بعيداً عن مسائل التعصب الطائفي والقومي والوطني. وأخيراً: فإن امتلاك الإسلام لخصائص الدين القيم على الحياة وأساليبه المعنوية والأخلاقية هي الحل البديل للفراغ المعنوي الذي تشعر به الإنسانية وهو أحد العوامل المهمة التي حطمت نظام الإلحاد الشرقي وقضت على أحلامه، وبالتالي اعطت دوراً جديداً للتعاليم الإسلامية لتملاً هذا الفراغ بعد إن لم تكن باقي الأديان على مستوى الحاجة الحضارية الموجودة.

وانني أعتقد أن أفكار العالم الغربي قد طرحت بشكل كاف في مجال العالم الإسلامي.. فالمتقفون المسلمون يطالعون غالباً وباستمرار ما ينتج هذا الفكر بالإضافة إلى أن الجماهير الإسلامية اليوم مغرقة بأحداث العالم الغربي التي تحدثها عنها وسائل الاعلام الغربية. بل اني أعتقد أن ما يعرض في العالم الإسلامي عن الغرب فيه الكثير من المبالغة المقصودة، الأمر الذي يغوى الكثيرين بهذه الجنة الموهومة وهم لا يعلمون ما تستبطنه هذه الحضارة المادية من نقاط ضعف كبرى تمزق العلاقات العائلية، وتقضي على الروح الإنسانية وتحرك الكوامن الحيوانية الغريزية دونما سيطرة.

ولايمكننا أن ننكر أن الكادر الإعلامي الغربي مدرك لرسائله ومنسجم مع حضارته ويعرف بدقة ماهي واجباته بغض النظر عن مدى إنسانية هذه الرسالة وتلك الواجبات. أما الكادر الإعلامي في العالم الإسلامي فالذي أظنه أنه في الغالب بحاجة ماسة لتفهم الرسالة الإسلامية وأهدافها الحضارية وواجباته تجاه هذه الرسالة، واطن أن أكبر نقاط الضعف التي ابتلى بها هذا الكادر هو عدم توفر ذلك الفهم الكامل من جهة والتبعية العمياء لأهواء الجهات المصلحية بل والعميلة أحياناً من جهة أخرى. ومن هنا فإن عليه أن يحرر نفسه من هذه القيود، ويبدأ مرحلة جديدة تحكمها خطوط عمل أساسية مستمدة من معين الرسالة الإسلامية وفي طليعتها: ضرورة نشر الروح التغيرية العملية الشاملة التي يريد الإسلام أن تنتشر في النفوس فتجعلها مستعدة لتطبيق كل تعاليم الإسلام على كل شؤون الحياة.

انني أعتقد أن كلا منا لا يدرك الآخر وربما كان من الصعب أن نصل إلى قواسم مشتركة إلا بعد جهد جهيد، وسر هذا الأمر أن مبانينا ومنطقتنا مختلفة تماماً.

فالعالم الإسلامي يقوم على اسس تصورية لا يؤمن بها الغرب والعكس بالعكس .  
وكمثال على ذلك لنلاحظ الاسس التالية:

- ١- الفطرة الإنسانية: وهي وجود أصيل يسوق الإنسان إلى الحقيقة الإلهية بشكل طبيعي وبدونه يفقد الإنسان إنسانيته. وهي فكرة تشكل أهم الاسس في البناء المعرفي الإسلامي في حين لا يعترف بها الغرب وإن كنا نجد ما يؤكد عليها في التراث المسيحي.
  - ٢- الأخلاق الفاضلة: العدل، التعاون، الاخلاص للمبدأ وما إلى ذلك هي جزء لا يتجزأ من إنسانية الإنسان في التصور الإسلامي ولكنها لا تمتلك دورا كبيرا في التصور الغربي.
  - ٣- الإنسان الفرد والمجتمع محتاج لا يكال شؤون حياته كلها إلى الله وإلى الدين القيم على الحياة واستمداد الحقوق منه - تعالى - وهذا أمر يعارضه الفكر الغربي.
  - ٤- التكامل والتكافؤ البشري من مقومات الحياة الاجتماعية، والفوارق الطبقية والعرقية، والقومية، والوطنية أمور منبوذة بشريا. في حين نرى أن الفكر الغربي يقوم على نظرية التفوق بل ينظر - غالباً - إلى العالم الإسلامي كما يتصوره اتباع (وليم جيمس) الجدد على أنه مما لا يستحق التعامل معه إلا بلغة الغابة. والذي يدرس حيثيات التعذيب في أبو غريب وغوانتانامو يكتشف ذلك تماما.
  - ٥- الغرائز الجنسية بحاجة لضبط عاقل يضمن قيام علاقات عائلية متكافئة ومنضبطة، في حين يصر الغرب على ما يسميه بالحقوق الجنسية المفتوحة.
  - ٦- الاستغلال والاستثمار والاستعمار والاعتداء وتسخير مصادر الآخرين لمصالح ضيقة واحتلال اراضي الغير واهانة المقدسات كلها أمور مرفوضة.  
في حين يعج التاريخ والحاضر الغربي بها.  
هذه بعض الاسس فهل نتفق عليها؟
- المسلمون يقبلونها بشكل تام ولكن هل ينسجم معها الغرب؟ استطيع أن اؤكد أن الغرب قد لا يدرك كنهها لأنها بعيدة عما اعتاد عليه مع الاسف.
- نعم إذا استطعنا أن نصل إلى مستويات من التفاهم حول هذه الاسس وأمثالها فقد يكون من الطبيعي أن نصل إلى قدر مشترك من الفهم المتبادل لبعضنا البعض.
- ولست متشائما في تحقق هذا الهدف إذا توفرت النية المخلصة والموضوعية المطلوبة لمعرفة الحقيقة.

نعم انني أعتقد أن البشرية جمعاً تسير شيئاً فشيئاً نحو مرحلة فناء النزعات الإلحادية والظواهر الإنكارية لله تعالى رغم إمكان تواجد بعض التتواتر الصغيرة دائماً.

وهناك علامات كبرى تشير إلى هذا الاتجاه الحضاري نستطيع أن نشير منها إلى مايلي:

١- هذا الاتجاه العالمي لاقرار حقوق الإنسان فإنه ورغم أنهاط الاستفادة السيئة من المنشور العالمي لحقوق الإنسان من قبل الدول الكبرى إلا أنه يعبر عن اتجاه معنوي نحو اقرار حقوق الإنسانية التي نادى بها الأديان وأي انكار للجانب الروحي والفطري للإنسان يفقد الإنسان أي ادعاء للحقوق الإنسانية.

٢- هذا الاتجاه العالمي للجماهير نحو الحلول الدينية بعد فشل كل الحلول المادية. إنه إتجاه حضاري يحاول الماديون انكاره ويعمل المستعمرون على كبتة وخنقه والتأمر عليه إلا انه إتجاه حقيقي. فالجماهير سواء في العالم الإسلامي أو في غيره ادركت أن السعادة الإنسانية إنما تكمن في احياء القيم المعنوية واستعادة وجودها في حياة الإنسان.

والأمر في العالم الإسلامي اوضح فإن الجماهير الإسلامية اليوم تعمل على استعادة دور الدين في الحياة وهي تتوسل بكل الوسائل لإقامة نظام إسلامي للحياة رغم كل العقبات التي تقف في طريقها.

فالعصر اليوم هو عصر الاتجاه نحو المعنويات.

٣- هذا الانهيار الهائل للنظام الإلحادي الشيوعي نتيجة مخالفته للفطرة الإنسانية وهو ما اشار اليه الإمام الخميني في رسالته التي وجهها إلى غورباچوف قبل الانهيار بأكثر من عامين حيث قال له إن الشيوعية مرشحة للدخول في متحف التاريخ لأنها تخالف الفطرة الإنسانية ودعاه إلى الدين وبالخصوص إلى الدين الإسلامي لأنه الاشباع الحقيقي للجوع الإنسانية وهذا ما اعترف به غورباتشوف في خطاب الاستقالة حيث قال بأن الانهيار كان بسبب انكارنا للنعم الإلهية.

### الحوار بين الإسلام والغرب

يمكن أن يقال إن الحوار بين العالم الإسلامي والغرب بدأ دينياً ثم اتسعت آفاقه. وهذا أمر طبيعي، لأن الغرب مهما تنصل من روحه الدينية واغرق في العلمانية والامانية فهو

مرتبط بروحه المسيحية وأحيانا المركبة من المسيحية واليهودية. والواقع أن الحضارات لا تمتلك بعدها الإنساني إلا إذا ارتبطت بالدين.

ولانعدم الكثير من اللمحات التاريخية التي التقى فيها رجال دين مسيحيون أو يهود مع علماء مسلمين، ولكنها كانت لقاءات عابرة إلا أن الحاجة اشتدت اليها لاسباب مختلفة بعضها موضوعي والأكثر سياسي، وشهدنا بعد سقوط الدولة العثمانية لقاءات متكررة من قبيل:

- لقاء ممثلين لفرنسا برجال الازهر عام ١٩٣٢ .
- مؤتمر باريس للمستشرقين والمسلمين عام ١٩٣٣ .
- مؤتمر الأديان العالمي عام ١٩٣٦ .
- المؤتمر العالمي الثاني للدين والسلام في بلجيكا.
- مؤتمرات قرطبة - اسبانيا في هذا المجال.
- مؤتمر تونس في قرطاج عام ١٩٧٩ .
- مؤتمر الحوار الاوروبي العربي في الاردن ١٩٩٣ ثم في ١٩٩٦ .
- مؤتمرات حوار متعددة في هولندا وانكلترا وروسيا وفرنسا والمانيا في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي.
- مؤتمرات علماء الأديان للأمم المتحدة في نيويورك وبانكوك.
- مؤتمر القاهرة الذي عقد أخيرا .
- مؤتمرات أخرى للحوار عقدت في بيروت والخرطوم وطهران .
- كما تشكلت منظمات منظمة في بيروت وطهران والقاهرة وعمان وغيرها.
- ولا ريب أن الإسلام يشجع الحوار بين الجميع وخصوصاً بين الأديان ويتوضح ذلك إذا لاحظنا الأمور التالية:

- اولاً: تركيز الإسلام على أنه دين الفطرة والمنطق والعقل، والحوار أمر تركزه كل هذه الامور.
- ثانياً: ملاحظة ابعاد نظرية الحوار الجامعة في القرآن الشاملة لمقدمات الحوار، أساليبه، أهدافه، اجوائه الأخلاقية وكلها تعطيه ابعاداً إنسانية.
- ثالثاً: تأكيد القرآن الكريم مباشرة على دعوة اهل الكتاب إلى كلمة سواء، وهي تعني الدعوة إلى اكتشاف مساحة مشتركة يتم فيها التعاون.

رابعاً: تأكيد النصوص الإسلامية على طلب الحكمة لأنها ضالة المؤمن أينما وجدها طلبها، وطلب العلم ولو كان في الصين وأمثال ذلك.

خامساً: ملاحظة الأحكام الإسلامية الاجتماعية التي تتيح تعايشاً إسلامياً مع أهل الكتاب وغيرهم على أساس عهد اجتماعي ملتزم به يستلزم الحوار بلاريب.

سادساً: ملاحظة التراث المنقول في كتبنا عن الأنبياء وخصوصاً النبي موسى ﷺ والنبي عيسى ﷺ مما يدفع للاستزادة من مواظبتها وإخبارهما وباقي الأنبياء.

سابعاً: إن الحوار ونتائجه مما يحقق مصلحة الأمة بلاريب.

والمصالح المقصودة من عملية الحوار كثيرة ويمكن أن نعد منها:

١- المساعدة في الدفع نحو التجديد الديني عبر انفتاح آفاق جديدة وانطراح موضوعات مستحدثة وتساؤلات متنوعة.

٢- تحقيق ارضية مساعدة لتحقيق السلام العالمي وهو مما يدعو إليه الإسلام، كما يوفر جواً مساعداً للمنطقية، وتفهم الحقيقة.

٣- تقوية الجبهة الدينية المعنوية ضد أعداء الدين عموماً.

ذلك لأن عملية التحوار بين المتدينين يمكن أن تؤدي إلى مايلي:

١- تفهم الموضوعات بشكل ادق.

٢- معرفة حقيقة الرأي الآخر.

٣- معرفة المساحات المشتركة الفكرية والعملية.

٤- معرفة الحلول المشتركة.

٥- فضح المتلاعبين بالدين لمنافعهم الشخصية.

٦- التعاون لدفع العدو المشترك كالإلحاد، العلمانية.

٧- دعم العولمة المعنوية.

ومعرفة الحاجات المعنوية، ومشاكل الشباب، والدوافع نحو المادية.

٨- اكتشاف الطاقات الخيرة.

٩- التخلص من روااسب الماضي.

- ١٠- تفهم تطورات الدين الآخر والعقبات التي واجهها.
- ١١- الفصل بين ماهو ديني وماهو دخيل.
- ١٢- تفهم التراث المشترك.
- ثم انا نعتقد أن هناك موانع تقف امام تطور العملية الحوارية واثارها وتتلخص فيمايلي:
- ١- تشكيك المسلمين في نوايا الآخرين، نتيجة ما راوه في تاريخ تعاملهم من نوايا سيئة، وتآمر، وتجسس وأهداف سياسية وأمثال ذلك، مما يحتم بناء جو الثقة والطمأنينة بسلامة النوايا.
- ٢- عدم اعتراف الآخرين بوحانية الإسلام وبالتالي لايلتئم الشمل العائلي الإبراهيمي المطلوب، وقد حدث بعض المرونة في الأمر في القاهرة وموسكو إلا أنها بقيت محاولات خجولة.
- ٣- عدم التخطيط المؤسسي والممنهج له.
- ٤- وقد يتصدى للحوار من لايملك الاهلية المناسبة.
- ٥- الدخول للحوار بروح (انا الحقيقة وعلى الآخر أن يدرك ذلك فقط) وهو منطوق لاينتج شيئاً. والقرآن المجيد يدعو الرسول الكريم للحوار بروح موضوعية كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>١</sup>.
- ٦- دخول الحوار أحيانا في متاهات عقلية فلسفية تبعده عن الجانب العملي وتطيله إلى مالا نهاية إلى غير ما هنالك من الموانع.
- ونحن نعتقد أن الحوار بين الأديان فيه مجال واسع جدا للبحث حول:
- الفطرة.
  - نظرية المعرفة.
  - العقيدة التوحيدية والتنسيق ضد الإلحاد.
  - أهداف الأنبياء المشتركة.
  - التعاليم الحياتية المشتركة.
  - التعاليم الأخلاقية المشتركة.

- التنسيق لتحكيم البناء العائلي.
  - التنسيق لحل النزاعات الدينية القائمة وأمثال ذلك.
- أما الحوار مع الغرب عموماً فيمكن أن يتم لدراسة قضايا إنسانية مشتركة كثيرة منها:

### العدالة وعلاقتها بالتكاليف

- السلام العالمي العادل والتعايش.
- حقوق الإنسان.
- حقوق المرأة.
- الشورى والديمقراطية.
- التعددية.
- المساهمة الحضارية.
- الحرريات.
- تقوية المنظمات الدولية.
- تقوية الحضور الشعبي للمنظمات.
- قضية الفقر.
- قضية البيئة.
- قضية الطاقة.
- قضية المعلوماتية.
- قضية اسلحة الدمار الشامل.
- القضية المعنوية ودورها الحضاري.
- توضيح صورة كل طرف لدى الآخر.
- وغير ذلك من القضايا الكثيرة.

### اهم القضايا العالقة بين الإسلام والغرب

إذا اخذنا الغرب بمعناه العريض، واخذنا الإسلام بمعناه الشامل للحضارة والأمة الإسلامية اليوم، فإننا سنجد في البين قضايا عالقة كثيرة تحتاج إلى اتخاذ موقف حضاري من

قبل الطرفين، عبر حوار هادئ، فاما التوافق، ولو على حد ادنى، واما التعامل الحضاري الإنساني مع فرض ابقاء التناقض على حاله.

ورغم كثرة المسائل وتنوعها، خصوصا إذا ما أردنا أن ندخل المسائل الفلسفية إلى جانب المسائل الخلقية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً، إلا أننا نستطيع التعرض إجمالاً إلى أهمها: ونحن نعتقد أن القرآن الكريم والسنة الشريفة اعطانا منهجاً تاماً رائعاً للحوار مع الآخر، حددت فيه معالمه وقواعده قبل عملية الحوار واثناها، من حيث المقدمات والأهداف والاجواء وحتى اللغة، فاذا ما توفر لدى عقلاء الطرف الآخر منهج سليم ونية صادقة أمكننا من خلال نقاط التماس المكتوبة والمرئية والمسموعة أن نطرح هذه القضايا على بساط البحث، آملين الوصول إلى نتائج مرضية، أو على الأقل التفهم المتبادل للموقف الآخر وبالتالي التفاهم حول الأطر الإنسانية لتطويق الخلاف إذا لم يتم حله.

كما نعتقد - خلافاً لبعض النظرات التي نرى فيها شيئاً من التطرف - أن هناك مجالات كثيرة للالتقاء وتوحيد الموقف، خصوصاً مع وجود طبقة منصفة تتأثر بالموقف المنطقي وتتعامل معه بإنسانية. وامامنا الكثير الكثير من المبدئية التي نشهدها في العالم الغربي، وهي مستعدة حتى للتضحية في مجال تأييدها لقضايانا العربية والإسلامية.

فلندخل بهذه الروح وهذا الأمل في مجال عرض أهم هذه القضايا، وهي كما يلي:

- ١- النظرة العدائية والروح الصليبية والتعامل مع العالم الإسلامي بروح الغابة وهي ما نشاهده لدى الكثير من الغربيين الذين نسميهم باتباع وليم جيمس.
- ٢- الاختلاف حول حدود الحرية.
- ٣- الاختلاف حول العلاقة بين السلام والعدالة.
- ٤- طرح مسألة التفوق الحضاري.
- ٥- العولمة بشتى أبعادها.
- ٦- الاختلاف في العلاقات المدنية.
- ٧- العلمانية وتحميلها على الشعوب.
- ٨- الديمقراطية باتساعها الغربي.
- ٩- حقوق الإنسان طبق التصور الغربي.



١٠- دعم الصهيونية اللاحدود.

١١- المعايير المزدوجة في التعامل.

١٢- فرض التخلف وعدم التعاون المطلوب.

وهي أمور تتطلب المزيد من الجهد لتتحول من عوائق إلى جسور، ومن تحديات إلى فرص.

### مستقبل العلاقة:

ويسود التشاؤم كلا الجانبين في سعيهم للتنبؤ بمستقبل العلاقة بينهما.

فالجانب الإسلامي المتشدد لا يرى أي بارقة نور، ويرفض الحوار لما يسوده من التآمر وعدم العدالة. أما المعتدلون الواقعيون فرغم تناغمهم مع دعوات المصالحة فهم لا يحسنون ظنا بالطرف الآخر.

وحين نستعرض رأي الكتاب والمنظرين الغربيين نجدهم أيضاً بين مستشرقين جدد يحملون نفس الروح، وآخرين يتوجسون خيفة من نوايا العالم الإسلامي، ومن الصحوة الإسلامية ويتمنون أن تقوم الحكومات بضررها حتى يمكن الحديث عن علاقات متميزة. بل ينظر البعض للامر فيعتبرون الحضارة الغربية ومفاهيمها هي خاتمة المطاف الحضاري التي يجب أن ينتهي إليها العالم الإسلامي اما بوسيلة الصراع الحضاري، أو بواسطة التعامل الإيجابي، أو حتى بواسطة نهضة إسلامية شاملة يشكل الغرب عاملها الخارجي وتشكل ضرورة التحول والأصلاح وعناصر التغيير الشابة في الداخل عاملها الداخلي.

واود هنا أن اركز على كتاب حديث صدر لكاتبة غربية تحاول أن تفلسف الماضي والحاضر والمستقبل لهذه العلاقة، وهي (شيرين هانتر) فتقول بعد مسيرة بحث شاقة في ختام دراستها لعرض دلالات العلاقة المستقبلية:

تنطوي هذه الاستنتاجات على دلالات مهمة في مايتصل بمستقبل العلاقات بين البلدان

الإسلامية والغربية:

اولاً، كما في الماضي، سيبقى للدوافع المتجذرة في الإسلام تأثير أقل بكثير في سلوك الدول الإسلامية حيال بعضها بعضاً أو حيال غير المسلمين من تأثير المحددات الأخرى لسلوك الدولة، مثل الاعتبارات الأمنية، والمتطلبات الاقتصادية ومصالح النخبة. لذا،

فبالرغم من العروض الدورية للوحدة الظاهرية فإنه من المستبعد جدا أن يجسر الإسلام الخلافات بين الدول الإسلامية ويمكنها من التصرف ككيان إسلامي موحد.

وكما في الماضي. سيفكر بعض المسلمين في علاقات افضل مع غير المسلمين منها مع اشقائه المسلمين، أو سيشكلون احلafa مع غير المسلمين ضد مسلمين آخرين. والمثال الأخير لهذه الظاهرة هو الحلف العسكري بين اسرائيل وتركيا عام ١٩٩٧.

ثانيا، ستكون العلاقات ذات سمة غير متوازية، بمعنى أنه في حين سيكون لعدد من البلدان الغربية علاقات متوترة مع بعض الدول الإسلامية ستتمتع بعض الدول الغربية والإسلامية الأخرى بصلات تعاونية وحتى ودية تماشيا مع النموذج التاريخي لعلاقات الإسلام-الغرب.

ثالثا، بما أن التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمعات الإسلامية، بما فيها علمتها التدريجية، ليس مكتملا، فإن طابع علاقاتها الخارجية سيكون متغيرا وغير ثابت، عاكسا بذلك حركتها الداخلية السريعة، بل أن العلمنة التامة للمجتمعات الإسلامية وتبنيها لمظاهر مهمة من الحضارة الغربية لن يضمنا تفاهما دائما بين البلدان الغربية والإسلامية، طالما بقيت المصادر الأخرى للخلاف، وخصوصا رغبة البلدان الإسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب.

رابعا، وكما في الماضي، سيعتمد مستوى الصداقة والعداوة بين العالم الإسلامي والغرب إلى حد كبير، على موقف البلدان الغربية من قضايا ذات أهمية للمسلمين، في مجالي تطورهم الداخلي وعلاقاتهم بالعالم الخارجي. والمثال الجيد لآثر المواقف الغربية في سلوك المسلمين هو مسألة حقوق المسلمين في القدس، لكن تأثير هذا العامل في سلوك كل دولة مسلمة منفردة سيختلف اعتمادا على مدى ارتباط هذه المسألة بمصالحها الأكثر دنيوية.

خامسا، في المستقبل كما في الماضي، فإن قدراً من المنافسة والخصومة سيبقى بين الدول الغربية، التي تريد الحفاظ على تفوقها الاقتصادي والسياسي العالمي ونفوذها في العالم الإسلامي، وبين تلك الدول الإسلامية التي تريد توسيع هامش استقلالها ونفوذها الخاصين.

سادسا، إن امكان ظهور ثقل مضاد اقتصاديا وسياسيا للغرب قابل للنمو، يوفر للدول الإسلامية حليفا محتملا ومصدر عون، قد يعزز ميولها التنافسية تجاه الغرب ويحثها على تحدي

السيادة الغربية. وفي المقابل، فإن فقدان هكذا ثقل مضاد من المرجح أن ينتج موقفاً إسلامياً أكثر تساهلاً.

في المستقبل، كما في الماضي، ستظل العلاقات بين الدول الإسلامية والبلدان الغربية، مثلها مثل العلاقات الدولية الأخرى، مركبة من النزاع والتعاون. وستبقى ديناميات العلاقات الدولية الأخرى هي المحدد الجوهرى للسمة الأساسية لهذه العلاقات<sup>١</sup>.  
وتعليقاً على هذه التنبؤات نقول:

إن الصورة التي قدمتها الكاتبة صورة قائمة تنسجم مع توجهاتها المنسجمة عموماً مع طموحات الغرب نفسه. إنها صورة تتلخص في إبعاد التأثير الإسلامي عن الحياة، وتمزق مواقف الدول الإسلامية باعتبار اختلاف المصالح الضيقة لها، واستدامة عملية العلمنة رغم أن ذلك لن يحل المشكلات مادام العالم الإسلامي راغباً في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب، (وكأنها تعتبر أن الأفضل لهذا العالم الإسلامي أن يستسلم لقدره، ويقبض في خانة العالم المتخلف، وكانها أيضاً تحذر الغرب نفسه من السماح للعالم الإسلامي للحصول على موقع متقدم، وقوة منافسة لأن ذلك سيزيد من تحدياته أي العالم الإسلامي للغرب وطموحاته، في حين أن بقاءه عالماً متخلفاً يعطيه فرصة التسامح!!).

هذه هي الحصلية التي نتوصل إليها في نهاية الأمر.

والحقيقة هي أن هذه الآراء هي قناعة الكتاب المعتدلين إلى حد ما في الغرب. أما المتطرفون فما زالوا يرددون آراء (وليم جيمس) و(هنتنغتن) في ضرورة التعامل مع العالم الإسلامي معاملة الغابة، وضربه بكل قسوة وعدم التعاون معه.

ولكننا نختلف مع توجهات الكاتبة تماماً.

اننا نلمح في الافق الساعات التالية:

اولاً: اتساع حركة الصحوة الإسلامية وتجزؤها بحيث لا تنفع معها أساليب الحذف أو التحريف.

١. مستقبل الإسلام والغرب: صدام حضارات ام تعايش سلمى - تعريب الدكتورة زينب شوريا - ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

وإذا أردنا أن نستدل لهذا التوقع، وتجاوزنا المسألة العقدية التي نؤمن بها دون أي شك، فإنا نشير إلى مظاهر الصحة التي تعم العالم الإسلامي من ارتفاع مستوى الأمل لدى جماهيرنا الإسلامية، وانتشار التقاليد الإسلامية كالحجاب وأنماط التعاون والعبادات انتشاراً واسعاً، واتساع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة في كل الحياة، وتشكل المنظمات الإسلامية ودخولها إلى الساحة السياسية والاجتماعية بكل قوة، وانهمزام الفكرة العلمانية مرحلة بعد مرحلة، وزوال الأمل بغير الإسلام على الساحة الفلسطينية وأمثالها من سوح المقاومة، واتجاه النخبة والجماهير نحو ثقافة الوحدة والتقريب، والسعي الحثيث على كل المستويات لنبد التخلف، وغير ذلك.

ثانياً: اتجاه الدول الإسلامية نحو التعاون الأكبر، والعمل على وضع آليات جديدة لتفعيل المؤسسات الشمولية واحساسها جميعاً بالخطر المشترك.

ولا نريد أن نكون متفائلين أكثر من اللزوم ولكننا ندرك هذه الرغبة لدى القسم الأكبر، ونرجو أن تتحقق خصوصاً وأن المسألة لم تعد بيد الحكومات وحدها فالعصر عصر الجماهير.

ثالثاً: ارتفاع مستوى أهمية العالم الإسلامي في مختلف المجالات. صحيح أنه أحياناً لا يدرك هذه الأهمية ولكنها حقيقة قائمة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها فلدى هذه الأمة.: الكم البشري الهائل، والقدرات الإستراتيجية الفريدة والمواقع الجغرافية المتحكمة، والعقول العلمية المتقدمة، وفوق كل ذلك لديها الطاقة الحرارية والحضارية الإسلامية التي لا تنضب. رابعاً: إننا نعتقد - بكل وضوح - أن سياسات العولمة في مختلف مجالاتها تواجه مقاومة كبرى من كل الشعوب التي تحترم هويتها وثقافتها. وبالتالي فإن على العولمة هذه أن تعدل من سلوكها الساعي للهيمنة، وتركن للمشاركة والتعددية، أو فإن عليها أن تنتظر المصير المحتوم لكل ظلم وطغيان.

(١٧)

## التقارب الإسلامي المسيحي محاولة فهم جديدة

قبل كل شيء اود أن اشكر وزارة الثقافة في الجمهورية العراقية الشقيقة وكل القائمين على عقد هذا اللقاء واختيارهم الموفق لهذا الموضوع في هذا الظرف الحساس الذي تمر به البشرية، وهذا اللفه الشديد للمعنويات في عالم يغص بالأمور المادية. وبمناسبة إعلان مدينة النجف الاشرف عاصمة بحق للثقافة الإسلامية.

وقد اعجبت بالأهداف المعلنة لهذا المؤتمر الذي أرجو أن يوفق لتحقيقها واود بادىء ذي بدء أن أؤكد لكم أن إيران الإسلامية تنظر إلى العراق بلداً قوياً في حضارته وتطلعاته ومنفتحا على الحضارة ومتطلعاً للتعاون الصميم في خدمة البشرية، واننا لنفتخر اليوم بعلاقتنا الوطيدة وتعاوننا في سبيل تعالي شعبينا وشعوب المنطقة ونسأل الله أن يوفقنا لتطوير هذه العلاقات سياسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

أيها السادة والسيدات لي الفخر أن أقف في هذا المحفل العلمي ذي العطاء الوفير لأتحدث إلى سيداتي وسادتي الحاضرين، وأنا أعتقد أن الكثير من الجوانب التي يتوفر عليها الحوار بين أتباع الديانات الإبراهيمية التوحيدية بقي مجهولاً تحت اطار من النظريات الضيقة والتعصب وادعاء احتكار الحقيقة ومنعها عن الآخرين، مما أفقد البشرية - وأؤكد أفقد البشرية - الكثير من العطاء الذي لو أثمر لغذى الأجيال.

### هدف الأنبياء

الإسلام ينظر للإنسان كخليفة الله، والإسلام ينظر للدين كعطية إلهية منطلقة من

منطلق اللطف الإلهي بالبشرية، أليس الله خالق الإنسانية؟! إنه الأعلّم بخبايا النفس، وإنه الأعلّم بما يصلح هذا الإنسان ويقوده إلى هدف خلقتة، وهذه نقطة أركز عليها. يخطئ من يتصور أن الله كان بحاجة لشيء، فالله غني مطلق، لطفه اقتضى أن يوجد هذا الإنسان ليسير إلى الكمال، وكمال الإنسان قربه من الله، الدين إذا هدية، والمسيرة الدينية واحدة، الأسس واحدة إذا تغيرت اللغة بمقتضى تغير الظروف، هذه حقيقة قرآنية أصيلة، والأنبياء جميعاً إنما جاؤوا ليحققوا هدفين - وفق منطوق القرآن:

الهدف الأول: تعبيد الحياة لله، وتعميق معالم الشخصية الفردية والاجتماعية والدينية.

والهدف الثاني: هو الصراع ضد مظاهر الطاغوت والطغيان، ومظاهر الطاغوت تعني كل فسوق عن المسيرة الفطرية الصافية، كل نبوءة عن المسيرة الإنسانية الحقيقية، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، هل ترون نبياً حاد عن هذا الهدف؟ إذا كان الأمر كذلك فكل ما جاء به الأنبياء عطاء على هذا الطريق، وإذا كانت هذه الحقيقة فكل تقارب بين أتباع الأديان سوف يثري الفكر الإنساني، ويمنح المسيرة الإنسانية قدرة وثباتاً على الخط وتسمراً للاحداق في الهدف.

### القاعدة القرآنية للتقارب

لأريد أن أتحدث عن تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية، والكثير منكم أعلم مني في هذا المجال، وربما كنتم جميعاً أعلم مني في ذلك، ولا أريد أن أتحدث عن الاحترام الخاص الذي يُعلنه القرآن لتعليم الأنبياء، وبالأخص تعاليم السيد المسيح، وعندنا هنا علماء يعلمون أن الكثير من النصوص الإسلامية تستقي بالنص من تعاليم السيد المسيح، تستقي بالنص لتقول لأتباعها أن هذه التعاليم هي تعاليم سماوية، وأن الإسلام جاء ليعمق هذه التعاليم، ويا حبذا لو نهض المفكرون لاستخراج هذه النصوص لندرك جميعاً عمق تأثير تلك التعاليم التي جاءت من مصدر واحد في ثقافتنا الإسلامية.

إذاً لا أريد أن أستعرض، وإنما أذكر لأستنتج، أيضاً أريد أن أنسى الماضي الطويل لحالات التداول في الصراع بين المسلمين كدول والمسيحيين كدول، هناك تاريخ طويل من الصراع تارة تتقدم القوة الإسلامية إلى قلب العالم المسيحي، وأخرى تتقدم القوة المسيحية

إلى قلب العالم الإسلامي، وتزهق نفوس ونفوس وتغمر حضارات وحضارات - مع الأسف الشديد - باسم الإسلام وباسم المسيحية، وكم كان حري بنا أن نجلس جميعنا إلى القاعدة القرآنية الكبرى:

﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

إذاً أعبر كل هذه الحوادث: أعبر حوادث الأندلس، وأعبر الحروب الصليبية، وحتى اني أعبر - أحياناً - الصراع على السواحل الإفريقية والجنوب آسيوية لأصل إلى واقعنا الحاضر، وأعبر كل الكتابات التي - مع الأسف - انطلقت من منطلق تعصب أو من منطلق حقد، ولا أفرق فيها بين الكتابات المسيحية والإسلامية، فكل من ينطلقون خلاف الحقيقة مدانون، وكل من يكتبون من منطلق الحقد والتعصب مرفوضون، أما المقبولون فقط فهم الذين ينطلقون من منطلقات الحقيقة وخدمة القضية الإنسانية.

### نقاط الضعف في مسيرة الحوار

الحوار بين الإسلام والمسيحية ليس قديماً، وإن كان التماس قديماً، ولكن الحوار بشكله الحاضر يكاد يكون مستحدثاً، إلا أن أكثر محاولات الحوار - كما أعتقد، ويمكنكم أن توضحوها لي خطأي إذا كنت قد أخطأت - قد ابتليت بنقاط ضعف كثيرة، واسمحوا لي أن أذكر بعض النقاط الأساسية:

أولاً: أن الحوار ركز على العنصر العقائدي المجرد، على الحوار اللاهوتي فقط، حتى دون أن يدرك مدى أثر التوصل إلى قناعة في ذلك الجانب على الحياة العملية، ومن الطبيعي أن تبقى الاستغلالات قوية لدى الجانبين، نسيان الحديث عن الجوانب الفكرية أو الجوانب الإيديولوجية المبنية على تلك الأسس والأصول المشتركة، نسيان الحديث عن القيم الأخلاقية التي يؤمن بها الطرفان، نسيان الحديث عن القيم الاجتماعية التي يؤمن بها الطرفان أفضل كل محاولات الحوار.

ثانياً: إن كل فريق كان يدخل ساحة الحوار وكأنه يدخل ساحة معركة ليحسم الموقف لنفسه، يقول للآخر أنت على باطل وأنا على حق، ويجب أن يحذف الباطل ويحق الحق وأنا

الحق، إذا كانت هذه الروح اللاموضوعية هي المحور فلن نتوقع نتيجة. إسمحوا لي أن أنقل لكم آية قرآنية تقول لرسول الله، لمحمد وهو المؤمن برسالته تمام الإيمان، تقول له يجب أن تدخل إلى الحوار مع المشركين بروح حذف المسبقات الذهنية كلها، تدخل بهذه الروح وتقول لمحاوريك: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، قد تكون أنت على الحق وأنا على الباطل، وقد يحمل كل منا جزءاً من الحقيقة فإذا تكاملنا تكاملت الحقيقة.

ثالثاً: هي أن كل إنسان يريد أن يتحاور يطلب من الآخر أن يعترف به أولاً، المسلم يقول للمسيحي اعترف بي أولاً حتى احاورك، هناك بعض الموانع، هناك نصوص لدى المسيحي تمنعه من أن يتخطى مفهوم خاتمة الأديان التي قد توصف بها المسيحية، وهناك نصوص تقول للمسلم إن الإسلام نسخ المسيحية، ونسخ كل الأديان بعدها، وحينئذ يبقى المسلم سجين ذاته ويبقى المسيحي سجين نصوصه، ويكون الحوار عقيماً.

فالصحيح أن نعبر هذه الحالة لنركز على المشتركات.

رابعاً: إن الحوار كان يجري بين شخصين أو بين طرفين كل منهما يشك بالآخر، يدخل المسلم إلى الحوار ويقول للمسيحي أنت تحاورني لتحقيق أهدافاً سياسية، ويدخل المسيحي إلى الحوار ويقول للمسلم أنت تحاورني لتحقيق أهدافاً سياسية أخرى، وفي إطار الشك لا يمكن للحوار أن يثمر.

خامساً: هي أن الحوار كان يجري بشكل عفوي، لا تنظمه مؤسسة، ولا يبدأ الآخرون من حيث انتهى الأولون، يجري بشكل متقطع متجزئ لا يعبر عن مسيرة، ولا يستفيد من السوابق، على الأقل أنا أشهد امامكم من الجانب الإسلامي.

النقطة الأخيرة: التي أود الإشارة إليها، أن كلا الجانبين كان يفتقد المرجعية الرئيسية في الحوار، لنفترض أنني اقنعتك أو أنك اقنعتني، أو أننا اتفقنا على خطة، فمن الذي يقبل بهذه الخطة؟ ألم يكن الأخرى أن تكون هناك مرجعية دينية تتصدى نيابة عن هذا الجانب، وأخرى عن ذلك الجانب حتى إذا ما اتفقنا على شيء عاد قاعدة للجميع!!

هذه مجموعة نقاط، وهناك نقاط أخرى لم اتعرض لها ولكنها تنفعنا كثيراً عندما نحاول أن ندخل مرحلة جديدة من مراحل الحوار. أعتقد أنه من الطبيعي أن تتولى المرجعيات



الدينية تنسيق مواقفها في كل طرف، وإن تتولى هذه المرجعيات سحب رواسبها النفسية والتاريخية وإلقاءها جانباً، قد لا يستطيع الإنسان أن يتخلص من رواسبه، لكنه إذا لقن نفسه هذه الحقيقة شيئاً فشيئاً فإنه يستطيع أن يتحرر من هذه الرواسب، على الأقل ولو للحظات الحوار، ليصل إلى نتيجة.

وهنا أريد أن أقول إنني أفضل أن ينتقل الحوار من الحوار الكلامي اللاهوتي المحض إلى الحوار الفكري العلمي، وما أكثر القضايا التي يمكننا أن ندرسها فكرياً؛ أليست مسألة صراع الحضارات مسألة تستحق أن نفكر فيها معاً ونتحاور؟! هل قُدر للحضارات أن تتصارع؟ هل قُدر لنا جميعاً أن نعيش الحرب، أما السلام فيجب أن لانحلم به؟ هل هناك مجال لمساحات مشتركة في التعامل الحضاري؟ هل علينا أن نتبع هانتنكتون مثلاً؟ أم أن هناك مجالاً قوياً للتعاون بين أتباع الأديان؟ نعم هناك مجالات كثيرة ينبغي أن ندرسها ونتعاون فيها فلننطلق إلى مجالات التعاون والتآلف وخدمة البشرية.

وفي الختام أستذكر معكم - ونحن في رحاب ذكرى أربعينية استشهاد الإمام الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام ضد الظلم والاضطهاد فأقف متواضعاً أمام عظمة هذه التضحية التي تحولت كل قطرة دم فيها إلى ثورة وصرخةٍ بوجه الظالمين عبر التاريخ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



(١٨)

## التكاثر البشري عبر الاستعانة بالتقنية الحديثة

قبل كل شيء يجب أن نفرق بين حالات مختلفة لهذا التكاثر؛ فهناك حالة الاستنساخ البشري التي تعني الحصول على نسخ طبق الأصل من إنسان دون حاجة إلى تلاقح خلايا جنسية ذكورية أو انثوية وهناك حالة الاستنساخ الحيواني والاستنساخ النباتي، وهناك حالة الاستعانة بالتكنولوجيا لإيجاد تلقيح صناعي بين الزوجين لتكبير اللقيحة في رحم الزوجة أو الضرة أو المرأة المستأجرة، وهناك حالة التلقيح الصناعي بين اجنبيين، وهناك مسألة الهندسة الوراثية التي تتدخل فيها التكنولوجيا في تحديد جنس الجنين أو في إعطائه صفات متميزة ويمكن أن نفترضها في الإنسان أو الحيوان أو النبات. ويختلف الموقف الأخلاقي والديني باختلاف الحالات فلا بد من بيان النقاط التالية، ثم نتعرض إلى حالتَي التلقيح الصناعي والاستنساخ.

**الأولى:** إن الحال يختلف كثيرا في مورد الإنسان عنه في مورد غيره لما يمتاز به الإنسان من ميزات تجعله محور المخلوقات ويسخر له ما في السماوات والأرض.

وفي ما عدا الإنسان أيضاً تلاحظ اعتبارات المصلحة الإنسانية والطبيعة التي يعيش فيها وحاجاته الحياتية.

ومن هنا فإن التركيز في بحثنا ينصب على التكاثر الإنساني بالسبل التكنولوجية دون التعرض إلى الحالات الأخرى.

**الثانية:** إن عمليات التلقيح الصناعي تستفيد من التكنولوجيا العلمية ولا مانع من ذلك لأن التكنولوجيا تقوم برفع الموانع أو تهيء الشروط اللازمة لجريان العملية الطبيعية. ومن هنا فهناك حالات مسلمة الجواز كالتلقيح الصناعي بين الزوجين وهناك حالات مختلف في جوازها كبعض الحالات الأخرى التي سنذكرها.

ومن هنا نقول: إن عدم الخصوبة مرض بلاريب لأنه نقص في الحالة الطبيعية، وعدم استجابة للرغبة في الانجاب. وأي استفادة من القدرة التكنولوجية مطلوب في هذا السبيل. اما حدود هذا الاستخدام فهو اجتناب المحرمات في الشريعة الإسلامية والتي قد تصاحب عملية الاستخدام. فاذا بلغت الحالة حد الضرورة ابيحت المحظورات بقدرها. ويبدو أن أي استخدام من هذا القبيل بين الزوجين لن يترك آثاراً سلبية تذكر على العلاقات الأصلية بينها وبين الأولاد.

أما استخدام الاختبارات الجينية قبل الانجاب والتأثير على نوعية الصفات التي سيتحلى بها الأولاد فلا نرى أي مبرر شرعي لمنعه، بعد إن كان يستهدف تقوية بنيتهم وتحسينهم ضد الأمراض، واشباع رغبة مشروعة لدى الوالدين في ذلك، شريطة أن لا يصحب ذلك احتمال إضرار لها تأثيراتها السلبية على حياتهم.

ولا نرى حجة القائلين بأن عملية الانتقاء تشكل تمييزاً حجة مقبولة ومبررة. بل قد يجب الانتقاء إذا ثبت أن الجنين يعاني من أمراض خطيرة حفاظاً على سلامته. وإن لم يمكن الإصلاح وجاء الخوف القوي على حياته أو حياة الام أمكن تجويز الاجهاض، خصوصاً في المراحل الأولى من حياة الجنين. وعلى أي حال فإن قانون (التراحم) بين الالهم والمهم هو الذي يحدد الموقف في مثل هذه الحالات.

هذا ونحن نعتقد أن عملية استخدام التعليم والتأديب، لتنمية قدرات الطفل تبقى ضرورية مهما كانت التكنولوجيا الجينية مؤثرة في تكميل قدراته، لأن هناك الكثير من الاستعدادات المعنوية تبقى بحاجة إلى التربية.

**الثالثة:** وهل يؤدي التكاثر التكنولوجي إلى حدوث انشقاق بين النشاط الجنسي والتكاثر الطبيعي؟ وما هي آثاره على الأسرة والطفل؟

نقول بهذا الصدد: إننا إذا بقينا في حدود الزوجين فليست هناك اية مشكلة مهما اختلفت الوسائل وأنماط الاستخدام وحتى اوعية تنمية اللقيحة.

فإن هذا النمط لن يقلل من دور النشاط الجنسي بينهما ولن يترك آثاره على العلاقة الاسرية بعد إن كان قد تم برضاً تام من الزوجين.

أما إذا عبرنا هذه العلاقة فإن الأمر يختلف تماما.

وهنا نشير إلى أن الإسلام بأحكامه المتنوعة يسعى لتوجيه النشاط الجنسي لصالح تشكيل الأسرة الصالحة، ويحارب كل منحى لتصريفه في مسارب أخرى، ويعاقب عليه بعقوبات شديدة.

**الرابعة: إن الانتقاء المفروض لن يكون إلا لصالح تكميل قدرات الطفل أو تكميل حالة العائلة بانتقاء الذكر مثلاً وبالتالي فهو منسجم مع الكرامة الإنسانية الطبيعية ومع حقوق الإنسان انسجاماً كاملاً.**

ويبقى للتربية والتعليم الدور الأكبر لتفجير الطاقات المعنوية، وتوجيه السلوك السوي الذي يقترن بالإرادة الخيرة فيصنع شخصية إنسانية متعالية تستحق أن تحظى بكرامة مكتسبة تسمو على الكرامة الطبيعية.

فليست هناك أية مبررات تدعو إلى القلق بشأن حصول تمييز اجتماعي بعد إن كان الاستخدام التكنولوجي يؤدي إلى تنامي الطاقات وتكثير العطاء.

ولا يقاس هذا إلى تناول المخدرات المنشطة - الممنوعة لما لها من آثار خطيرة على حياة الإنسان. **الخامسة:** والحقيقة أن أي تصرف في هندسة الجينات تصرفاً طبيعياً لصالح تقويتها لن يستطيع أن يؤثر على الصبغة الفطرية التي تحدد شخصية الإنسان وتحقق له دوافعه وقدرته الإرادية وتحليله العقلي واتجاهه نحو الكمال.

نعم يجب أن نحذر بشدة من التصرفات السلبية الخطيرة التي تحرك فيه حس السبعية والتوحش وتفقدته قدراته العقلية أو الإرادية.

**السادسة:** يعتبر الإسلام الأسرة لبنة البناء الاجتماعي، ويبني نظريته الاجتماعية وأحكامه المتنوعة بهذا الصدد على هذا الغرض، ويقف بشدة بوجه أي تخريب للأسرة.

فتجب ملاحظة هذه الحقيقة عند بيان أي موقف اجتماعي.

**السابعة:** إن الشريعة تقرر اصالة الاباحة وهي قاعدة تبقي كل تصرف إنساني مباحاً حتى تثبت حرمة والمنع منه، فلا يمكن تحريم شيء بلا دليل تماماً كما لا يمكن تجويز شيء قام على حرمة الدليل.

**الثامنة:** إننا نعتقد أن كل تقدم وكل حقيقة تكتشف تبقى في إطار العظمة الإلهية واستخدامها يعني استخداماً للقوانين الإلهية لاخرقاً لها ولا تغييراً لخلق الله وما جاء في الشريعة من نهي عنه يركز على منع أي تلاعب في الطاقات الفطرية وهو ما اشرنا اليه، أو منع أي تحايل على الخلقة لتحقيق شعوذة أو سحر كاذب واغراء الآخرين، أو اهدار لثروة طبيعية وهبها الله للإنسان.

**التاسعة:** إن كل حدث جديد وخصوصاً إذا كان يتصل بمسألة حياتية كهذه مما يغير مجرى الحياة البشرية لابد أن يثير اجواء عاطفية ويغرق الأفكار في افتراضات وتخمينات بعضها رائع وبعضها مرعب. ولكل يتكون انصار ومؤيدون، وفي هذه الاجواء ربما لا يستطيع الباحث أن يدرس الموضوع بتجرد وإنما يجنح مع هذا الفريق أو ذاك دون أن يشعر. ولذا فمن البعيد التوصل إلى رأي اجتماعي أو علمي أو فقهي موضوعي في هذه المرحلة.

**العاشر:** إن الابحاث العلمية لا يمكن منعها والوقوف بوجهها، خصوصاً إذا كانت بهذا المستوى من التأثير الواسع، وخصوصاً إذا كانت تطل على عالم مجهول لتفتح مغاليقه ومجاهيله، فيجب التأمل كثيراً قبل اصدار الأحكام المطلقة، ويجب أن نضع في الحسبان تلك الحالات التي سنواجهها شئنا أم أبينا.

**الحادية عشرة:** قد نجد بعض الافتراضات نتاجاً للخيال القصصي المجنح مما يؤثر سلبياً على سلامة الدراسة. كما أن بعض الافتراضات تحذر من أنماط الاستغلال السيء، الأمر الذي يدفع الفقهاء والشرعيين للتحريم المطلق سداً للذرائع. وقد مررنا بموضوع التلقيح الصناعي والافتراضات التي طرحت حوله ثم استسلم الفقهاء للامر الواقع، وراحوا يدرسون كل حالة على حدة بمنأى عن الضجيج والافتراضات، وما زال البحث فيه غير ناضج كما نعتقد.

**الثانية عشرة:** إن المنهج الصحيح هو دراسة نفس الحالة اولاً ومدى انطباق العناوين

المحللة أو المحرمة عليها، ثم محاولة معرفة النتائج المتوقعة والعوارض الناتجة لمعرفة من خلال أحكامها المعروفة. وقد تشابك النتائج الحسنة والسيئة منها، مما يدعو إلى التأمل وملاحظة الاغلبية الساحقة في البين.

**الثالثة عشرة:** يجب أن نعترف بأن الاخصائين الطبيعيين لهم الحق وحدهم في تقرير الآثار العلمية المخربة أو الإيجابية لهذا الأسلوب، ولانستطيع نحن أن نقرر شيئاً إلا بعد انتهائهم من بحوثهم. نعم إذا انتهى هؤلاء إلى نتائج ولو كانت شبه قطعية أمكننا أن نلاحظ مدى انسجام هذه الآثار مع معتقداتنا وقيمنا ومبادئنا الإسلامية ونظيرتنا السياسية والاجتماعية وتخطيطنا للحياة.

ومن هنا فلا ينبغي التسرع في الحكم مادامت النتائج العلمية غير قطعية.

### التلقيح الصناعي

وتوجد هنا أحكام عامة في التلقيح الصناعي نذكرها بإيجاز:

- ١- تلقيح ماء الرجل بزوجه بأي شكل كان، مع الاحتراز من المقدمات المحرمة؛ ككون الملقح أجنبياً أو كون التلقيح يستلزم النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه.
  - ٢- لو وقع التلقيح بوجه محرم ولكنه كان بين ماء الرجل وبويضة الزوجة كان الولد ولدهما بلاريب.
  - ٣- لا يجوز التلقيح بهاء غير الزوج سواء كانت المرأة ذات بعل أم لا، رضي الزوج والزوجة بذلك أو لا، كانت المرأة من محارم صاحب الماء أو لا.
  - ٤- لو كانت المرأة ذات بعل وحصل التلقيح بهاء غير الزوج وعلم بأن الولد من التلقيح فلا اشكال من عدم لحوقه بالبعل.
  - ٥- الاحتياط في مثل هذه المسائل هو طريق النجاة.
- وعلى ضوء هذه الأحكام يمكن أن نقرر حكم الصور التالية:
- أ- أن تؤخذ النطفة من الزوج وتحقن في الموضع المناسب من زوجته وهو جائز.
  - ب- أن تؤخذ النطفة من الزوج والبيضة من الزوجة ويتم تلقيحها في أنبوبة ثم تعاد اللقيحة إلى رحم الزوجة وهو جائز أيضاً.

ح- هذا الفرض مع زرع اللقيحة في رحم الزوجة الثانية للزوج وهو جائز أيضاً ولا نرى مانعاً من ذلك.

د- أن تؤخذ هذه اللقيحة وتزرع في رحم امرأة متبرعة أو مستأجرة وهنا لا نرى أي مانع من ذلك وما ذكر من موانع نفسه وأخلاقية لا يرقى إلى مستوى المنع.

هـ- أي فرض يخرج بالتلقيح عن فرض الزوجين محرم ويمنع من ترتب أحكام الأولاد. تبقى مسألة القضاء على اللقائح الزائدة، ولا مانع من ذلك لأنه لا يصدق عليها عنوان القتل عرفاً.

وسياتي مزيد توضيح عندما نلقي نظرة على الاستنساخ.

## نظرة في الاستنساخ وحكمه الشرعي

### ما هو الاستنساخ؟

يقسم العلماء الاستنساخ إلى أنواع، منها التقليدي ومنها الجديد.

أما التقليدي منه فيعني الحصول على عدد من النسخ طبق الأصل من نبات أو حيوان بدون حاجة إلى تلاقح خلايا جنسية ذكورية أو انثوية.

وتتم من خلال ادخال نواة من أي خلية من خلايا الجسم كالخلية الجلدية مثلاً إلى داخل بيضة ناضجة بعد أن يتم اخلاؤها من نواتها، فإن النواة الجديدة تشرع في الانقسام ليس في اتجاه تكوين خلايا جلدية ولكن (بتأثير من السائل الخلوي السيتوبلازم) تشرع في تكوين جنين سيكون نسخة طبق الأصل ممن اخذنا عنه الخلية.

واما الجديد فإنه يعتمد على المنع من تمزق الجدار الخلوي السميك للمنح من الانقسام المعهود في الخلايا الجنسية، ذلك أن الحالة الطبيعية المعهودة هي أن يخترق المنوي الذكري الذي يحمل (نصف عدد كروموسومات الخلية الإنسانية) البيضة الناضجة (التي تحمل النصف الآخر) لتكمل في الخلية الناتجة الكروموسومات الست والاربعون وهي كروموسومات الإنسان، وهذه الخلية الناتجة من الالتحام تتكاثر إلى خليتين ثم ثمان ثم ست عشرة ثم اثنتين وثلاثين وهكذا، ولكن العلماء يركزون على الخلية الناتجة من الالتحام



فيمنعون من تمزق جدارها الخلوي فإن النواة تنقسم إلى قسمين وكل قسم يتصور نفسه النواة الام وتبدأ في النمو إلى جنين وتتطابق الاجنة تماما في الصفات.

**والملاحظ:** هنا أن هذا الأمر بشكليه التقليدي والجديد لا يستغني عن تلاقح المنوي الذكري والبيضة الانثوية ولو في المراحل السابقة اما في الشكل الجديد فواضح، واما في الشكل القديم فلأن النواة المجلوبة من الجلد مثلا إنما نتجت بعد تكاثر خلية ملقحة سابقا. وما سمعناه هنا من أن البيضة قد تنشط فتستمر حتى حصول الحيوان فهي بنفسها محمول تزوج، ولكن هذا الحيوان، سيقى عقيبا كما سمعنا ومشوهاً أيضاً.

وقد ثارت ضجة عالمية حول هذا الموضوع وأنقسم العلماء الطبيعيون والاجتماعيون والفقهاء إلى مؤيدين ومعارضين ونسجت خيالات القصاص الكثير من الاوهام وراح (الارأيتيون) كما يسميهم الدكتور حسان تحتوت يفترضون ويفترضون.

### آراء المؤيدين:

- وهم يركزون على نقطتين أساسيتين:
- أولاً:** عدم توفر ما يمنع من القيام بهذه العملية.
- وثانياً:** الآثار الإيجابية الكبرى التي يتوقع حصولها والآفاق العلمية التي ستنتج امام الإنسان. وهم هذا الصدد يذكرون اموراً كثيرة، منها:
- أ - المعلومات الضخمة التي سيكسبها العلماء في مجال تمايز الخلايا، ومعرفة جذور أمراض السرطان، والآثار السلبية الوراثية، وعوامل المناعة، واسباب الاجهاض، ووسائل منع الحمل، وأمثال ذلك.
- ب - الآثار التي ستركها هذا الموضوع في مجال منح الاطفال للازواج المبتلين بالعقم.
- ج - إنه سيساعد بشكل كبير في التحكم بسلامة الجيل الآتي وتحسين حياته.
- د - إنه سيساهم في مسألة الاستفادة من الخصائص المتميزة للأفراد وتكثيرها.
- هـ - إنه سيساعد في انجاح الدراسات بعد اجرائها على أناس متطابقين وذلك للتأكد من سلامة النتائج.
- ويضيف هؤلاء المؤيدون أن الاستنساخ عملية طبيعية قد تحدث بشكل طبيعي عند بعض الحيوانات.

كما يؤكدون أن العلم ملك للجميع، ولا يمكن إيقاف بحوثه وحرمان البشرية من نتائجه. وهنا نجد الاغراق أحياناً في الخيال بتصوير مجتمع خال من الأمراض متحكماً في عناصره، يحوي سلالات معرفية واسعة وما إلى ذلك.

### آراء المعارضين:

وهؤلاء أيضاً يستفيدون من الخيال المجنح لبيان الإضرار المتوقعة من هذه العملية بل يفوقون المؤيدين في هذا المجال. ومن الأمور المطروحة، ما يلي:

- أ- إنه يستلزم اختلاط الأنساب.
  - ب- يعني تغيير خلق الله.
  - ج- يعني التقاء المياه المنوية الاجنبية.
  - د- إنه التدخل في خلق الله.
  - هـ- إنه يؤدي إلى الاستغناء عن الزواج.
  - و- استلزامه لاماة اللقائح وهي مشروعات إنسانية جاهزة.
  - ز- احتمال تهديم المجتمعات وتجريد الإنسان من إنسانيته.
  - ح- إن استمرار البشرية يعتمد على التنوع الجيني وهذا التنوع يفنى من خلال هذا الأسلوب.
  - ط- إنه يشجع عمليات الاجهاض.
  - ي- تحويل الرغبة الطبيعية في الأولاد إلى الرغبة في الصفات المعينة.
  - ك- إنه يؤدي إلى أن يعرف التوأم الصغير مستقبله من خلال حياة التوأم الكبير.
  - ل- مشكلات الارث هنا معقدة واسئلتها مخرجة وقد ورد النهي عن فساد المواريث<sup>١</sup>.
  - م- مشكلات حمل العذراء وخصوصاً من إحدى خلاياها.
  - ن- احتمال استفادة المجرمين المحترفين من هذا الأسلوب.
- الى ما هناك من إضرار يتصورها المعارضون ولا نستطيع استيعاب كل افتراضاتهم.

١. وسائل الشيعة، ج ١٤ ص ٢٣٤.

### التقييم الأولي لهذه الاتهامات

وإذا تم تقييم هذه الاتهامات فإن الأمر سيتضح بالنسبة لآراء المؤيدين. وإذا القينا نظرة سريعة على هذه الاتهامات رأينا أنها لا تستطيع أن تصمد للنقد، الأمر الذي يتطلب إعادة النظر من جديد فيها وعدم تكوين موقف سلبي قاطع منها.

فمسألة اختلاط الأنساب مسألة تشير لها بعض الروايات وتحذر منها، بل أننا نجد أن البناء الاجتماعي في التصور الإسلامي يبتني على هذه المسألة، وعلى ضوء هذه الأنساب تبتني أنظمة اجتماعية مهمة كالنظام العائلي، ونظام الارث وبعض النظم الاجتماعية الأخرى. ففي الرواية عن محمد بن سنان عن الإمام الرضا عليه السلام فيما كتب إليه من جواب مسأله وحرمة الله الزنا لما فيه من الفساد من قتل النفس وذهاب الأنساب<sup>١</sup>.

وفي كتاب الاحتجاج للمرحوم الطبرسي: إن زنديقا قال لابي عبدالله الصادق عليه السلام: لم حرم الله الزنا؟ قال: لما فيه من الفساد وذهاب الموارث وانقطاع الأنساب لا تعلم المرأة في الزنا من احبلها ولا المولود يعلم من أبوه<sup>٢</sup>.

ومن الواضح أن الحديثين لاحظا هذه النقطة (اختلاط الأنساب وذهابها) وكانها من الأمور المفروض حرمتها ورفضها شرعا فلا تقتصر على مورد الزنا منها وإنما نعمم الأمر لكل ما ينتج منه هذه الحالة.

إلا أن الذي يمكن أن يطرحه المؤيدون هنا يمكن تلخيصه في أمور:

الأول أن النسب يمكن ضمانه هنا إذا كانت النواة (الضيقة) مأخوذة من جلد الزوج مثلا والبيضة مأخوذة من الزوجة فلا ريب في أن المولود ولد لهذين ومن الواضح أن الكثير من النتائج الإيجابية يمكن أن يتم الحصول عليها مع توفر هذه الشروط.

**الثاني:** إن هذه الحالة لا يمكن أن تشكل ظاهرة اجتماعية واسعة، بل هي حالات قليلة (على الأقل في الامكان الحاضر)، ولا مانع حينئذ من وجود أفراد لا يعلم نسبهم أو يتسبون

١. ج ١، كتاب وسائل الشيعة، ج ١٤ ص ٢٣٤.

٢. الاحتجاج للطبرسي.

إلى الام فقط كما ينتسب ولد الشبهة إلى امه فلا يلزم منه اختلاط الأنساب - كما يقال - وانما قد يلزم مجهولية النسب مما يخرج موضوعاً عن أحكام النسب.

**الثالث: إن احتمال اساءة الاستفادة بوجود بنفس النسبة في موضوع التلقيح الصناعي وقد اجازته كل الفقهاء تقريباً.**

ولا نريد أن نؤيد هذه الاشكالات بقدر تأكيدنا على لزوم التأكد من المحذور.

أما موضوع تغيير خلق الله تعالى: فقد ذكر أن الاية الشريفة تقول عن الشيطان: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضِلَّةَ لَهُمْ وَلَا يُرْمَوْنَ مِنْهَا وَلَا مَهْلَكُ لَهُمْ فَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ لَفَعَلْنَا بِنَسْلِ الْإِنْسَانِ مَا يَنْهَى عَنْهَا وَلَا يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>.

ومن الواضح أن الشيطان الرجيم يهدد بالتركيز على مجموعة من عبادالله ليسخرهم لأعماله الشيطانية، ومنها تبتيك آذان الانعام وتغيير خلق الله، وهي أمور مبعوضة للمولى جل وعلا بلاريب، ولذا يعدها سبحانه من الخسران المبين.

فهل هذا العمل الذي نحن بصدد من مصاديق تغيير خلق الله المنهي عنه؟ وهنا يقال بأن التبتيك والتغيير لايمكن أن يكون المراد به مطلق المفهوم اللغوي لها، حتى ولو كان بدواع مشروعة عقلانية لاشيطانية، وإلا لكان كل تغيير يحدث في البدن كحلق الشعر أو الختان أو تعليم اذان الابل أو التجميل من المحرمات، وهو أمر واضح البطلان.

بل أن التعميم يعني كل تغيير في خلق الله وهذا يشمل أي تغيير في الطبيعة، فهل نمنع ذلك؟ كلا، فليس المراد هو العموم وانما المراد - وكما يقول بعض العلماء - عمليات شيطانية خرافية تقوم على أساس من تصورات شيطانية جاهلية يتم بموجبها اهدار للثروات الطبيعية، من قبيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾<sup>٢</sup> حيث تبتك آذان البحائر وتترك. يقول العلامة الطباطبائي في الميزان أن عرب الجاهلية كانت تشق آذان البحائر

١. النساء الآية ١١٨ - ١١٩.

٢. المائدة. الآية ١٠٣.

والسوائب لتحريم لحومها<sup>١</sup> كما يؤكد أنه ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطرة وترك الدين الحنيف مستشهدا بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾<sup>٢</sup> ولعل سياق الآيات يساعد على ذلك، وقد أيدته رواية عن الإمام الصادق عليه السلام كما جاء في مجمع البيان في ذيل تفسير هذه الآية، وحينئذ لا يمكن أن يستند لهذه الآية الشريفة في رد أي تغيير طبيعي، ومنه موردنا هذا، إذ المراد هو قسم خاص يتم بتسويل الشيطان وتسويغه.

على أنه في الواقع استفادة من قوانين طبيعية فرضها الله في الطبيعة ولا يمكن أن يعد تدخلا في خلق الله - كما جاء في اتهامات المعارضين - أو يعد تحديا لله تعالى في خلقه كما ربما يأتي على ألسنة بعض المخالفين للاستنساخ وإلا كإن علينا أن نسد باب أي ابداع علمي في علم الوراثة في جميع حقول الخلق.

أما حكاية التقاء المياه الاجنبية هنا فهي مرفوضة كبرى وصغرى (اي مبدأ وتطبيقا): اما كبرى: فلا دليل على حرمة التقاء المياه الاجنبية ولو خارج الرحم وانما الأدلة كلها تنظر إلى عملية الزنا، إلا ما يتوهم استفادته من روايات تتحدث عن حرمة وضع المنى في الرحم المحرم من قبيل ما جاء في الكافي باسناد معتبر إلى علي بن سالم عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اقر نطفته في رحم يجرم عليه<sup>٣</sup> ورواه الصدوق في عقاب الأعمال<sup>٤</sup> وعن البرقي في المحاسن مثله.

وما جاء عن الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) قال النبي صلى الله عليه وآله: لن يعمل ابن آدم عملا أعظم عند الله تبارك وتعالى من رجل قتل نبيا أو اماماً أو هدم الكعبة التي جعلها الله عزوجل قبلة لعباده أو أفرغ ماءه في امرأة حراماً.

إلا أن أمثال هذه الروايات بالإضافة لضعف سندها - ناظرة بلا ريب إلى عمليات الزنا،

١. الميزان ج ٥، ص ٨٤.

٢. الروم، آية ٣٠.

٣. الكافي باب الزاني من كتاب النكاح، ج ٥، ص ٥٤١، الوسائل باب ٤، ج ١٤، ص ٢٣٩.

٤. ثواب الاعمال وعقاب الاعمال ص ٣١٠.

خصوصاً إذا لاحظنا العذاب الشديد المذكور فيها فلا يمتثل أن العذاب إنما هو لمجرد إيصال ماء الرجل إلى رحم يحرم عليه. إلا أن يقال بشمول الحديث له لحساسية الموضوع. وشموله لموردنا من حيث الصغرى أيضاً غير صحيح فليس هنا التقاء مياه ولا انعقاد نطفة - كما هو واضح - إلا أن يقال إن المورد هو بحكم انعقاد النطفة فيقاس عليه، وهنا يقتصر على المورد الذي يحل فيه هذا الانعقاد.

أما موضوع الاستغناء عن الزواج فاذا افترضنا أن الأمر فيه تيسر إلى هذا الحد - وهو بعيد - فإن دواعي الزواج لا تقتصر على الاستيلاء. على أن الاستيلاء من طريق الزواج هو المطلوب للإنسان قبل كل شيء، ولا يلجأ لمثل هذه الطرق إلا استثناء.

أما مسألة اللقائح المتعددة واعدامها فالذي يتصور في البين أن هذه اللقائح لا ينطبق عليها أنها اناس، وأن اعدامها غير مشمول لادلة حرمة القتل، أو أدلة دية الجنين، وأمثال ذلك.

وأما مسألة احتمال تهديم المجتمعات أو تجريد الإنسان من إنسانيته، فهي مسألة لا دليل عليها. بل أن عملية انقراض بعض المجتمعات أو بعض العوائل من امراضها الوراثية، وتقوية الصفات الجيدة مطروحة هنا، وكذلك مسألة التنوع الجيني فإنه أولاً لم يثبت التطابق التام إلى حد ينتفي معه أي تنوع. على أن اختلاف البيئات والعوامل الخارجية لا بد أن تؤدي إلى نوع من الاختلاف.

ونحن نتصور أن عمليات الاجهاض إنما يتحكم فيها القانون والشريعة تماماً كما هي الحال في وضعنا الحالي. ومسألة الرغبة الطبيعية في الأولاد سوف تبقى، لأنها نابعة من عمق الفطرة الإنسانية، ولسنا نتصور الإنسانية آلة صماء لا تحكم إلا ما خطط لها من قبل، دونها رحمة أو عواطف أو دواع فطرية.

أما احتمال أن يعرف التوأم الصغير مستقبله من خلال حياة التوأم الكبير فهي قد تكون مشجعة على تلافي الوقوع في المرض من خلال الرصد المبكر لها.

وتبقى المسائل الشرعية للارث والنظر والعلاقات الاجتماعية فهي أمور يجب أن يسعى الفقه الإسلامي لبيان موقفه فيها بدلا من التخلص من التبعية عبر اغلاق الباب من الأساس وحرمان العلم الإنساني من النتائج الباهرة لهذه البحوث.

وأخيراً تبقى مسألة التطبيق السيء لهذا الكشف والاستغلال السيء له، فهذا أمر بيد

الإنسان يستطيع أن يتجنبه ويتحاشاه عبر بناء الخلق الاجتماعي الرصين، والروح الإنسانية النزينة ولا يمكننا أن نغلق بابا للخير لأن هناك من يستفيد منه للشر. وهنا نعود لما ساقه المؤيدون من أدلة، فنراها أدلة قوية محكمة ينبغي التأمل فيها ودراستها، وخصوصاً ما ذكره من أن العلم للجميع، ولا يمكن حرمان البشرية من نتائجه لمجرد احتمالات وظنون وافتراضات تقابلها ظنون إيجابية واحتمالات إثباتية مقبولة. نعم يجب أن تخلو الأساليب المتبعة مما يخالف الشريعة من الملابس التي تقترن بشكل طبيعي بمثل هذه الأبحاث.

وأخيراً:

فلسنا نريد أن نصدر حكماً قاطعاً بهذا الشأن بقدر ما نريد أن نؤكد على ضرورة عدم التسرع في الحكم ونقله من صفحات الجرائد إلى معاهد البحث العلمي، وتحليله من الأجواء الحماسية والعاطفية، والغوغائية ونقله إلى حيث البحث العلمي النزينة. ونحن في الختام نجنح إلى منع هذه العملية مطلقاً لأنها على الأقل تنتهي إلى إيجاد اناس غير معلومي النسب وهو أمر لا يرضاه الإسلام كما هو واضح. والله تعالى هو العالم بالصواب





(١٩)

## التوازن المطلوب في الخطاب الإسلامي بين الخصوصيات الفردية والمحلية وعموميات مصالح الأمة

والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وآله الطيبين وصحبه الكرام؛ وبعد، فإننا لا نعني بالخطاب الإسلامي هنا الخطاب التعليمي السطحي أو العمق، كما لا نقصد به الخطاب الأدبي والبلاغي، وإنما نريد به الخطاب الإعلامي الذي يلامس حس الجماهير، ويوجه الرأي العام.

ولسنا بحاجة - كما نعتقد - للدخول في عملية تفلسف الخطاب وتحديد له تعاريفه وأقسامه وعناصره وضوابطه، فذلك أمر يكاد يتضح ببداهة لدى المفكرين. ومقاصد الشريعة واضحة فيه، وتتلخص في كونه يوصل الحقيقة للآخرين أو فلنعبّر عنها بعملية إيصال الحقيقة من قبل الشاهدين عليها إلى الغائبين عنها كما قال ﷺ: ليلبغ الشاهد الغائب<sup>١</sup>.

وللإسلام أسلوبه الرائع في الدفع نحو الحوار البناء الموضوعي، والمنطقي، بشكل يعد نظرية متكاملة وسباققة في تاريخ الفكر الإنساني.

ولكننا نشعر بأدواء يبتلى بها الخطاب الإعلامي الإسلامي بشكل فضيع في عصرنا الحاضر مما يقعه عن تحقيق مقاصده. ولعلنا نستطيع جمعها تحت عنوان التطرف المرفوض والابتعاد عن العقلانية والوسطية والتوازن.

---

١. رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

ولسنا بحاجة للحديث عن مدى التزام الإسلام بهذه الأمور، فهي ظواهر واضحة في تشريعاته وضوحها في مفاهيمه وأخلاقياته<sup>١</sup>.  
ومن الجدير ذكره أننا لانريد بالخطاب الإعلامي ذلك الخطاب المتداول والمتدني أحيانا إلى مستوى الاهتمام بالقضايا الجزئية والعادية وربما العامة، بل ما نركز عليه هو إعلام المفكرين الإسلاميين الذي يخاطب عقول الأمة وثقافتها ونهج حياتها ويحدد موقعها الحضاري البشري.

فمحاولتنا هي نقد ذاتي لحركة المفكرين الإعلاميين ودعوة إلى تحقيق الوسطية:

بين السطحية والتعمق التعقيدي.

وبين الاتجاه المتسرع المتهور والنفس التغييرية الطويل.

وبين التخصص وعدم الاحتكار.

وبين الانغلاق والتأثر المفرط.

وبين التعصب والتنازل المبدئي.

وبين الرجعية والتقدمية المزيفة.

وبين الإفراط في التقييم واللامبالاة.

وكلها نماذج غير حاصرة لادواتنا في الخطاب.

### النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم

تختلف النفوس والآفاق من حيث الموضوعية والسعة إلى حد كبير، فبين من لا يأبه لأي نقد شخصي مهما كان حادا عنيفا، وبين من تجرعه كلمة ناقدة مهما كانت موضوعية بناءة.  
إلا أن نقد الحركة والاتجاه الفكري أمر طبيعي، وكثيرا ما يدعو الأفراد للتأمل وإعادة النظر دون أن يصحب ذلك تأجيج حماسي بليد، أو عاطفة جريجة ضارية تسد السبل على التفكير الهادئ.. وتلك هي سنة الغضب الطافح عن حده.

١. راجع كتاب «الظواهر العامة في الإسلام» للمؤلف.

وما نحاوله هنا هو تحريك حس النقد الذاتي لمسيرة الفكر الإسلامي السائد اليوم في عالمنا الإسلامي المعاصر، والذي يطالعنا بشكل كتاب أو مقال أو محاضرة تطرح منفردة أو تنضم إلى مجموعة نطلق عليها عنوان ندوة أو مؤتمر فكري.

على أن منهجنا في هذا الحديث لا يتوجه بالانهاض الصريح إلى الرموز الفكرية التي تطالعنا أسماؤها في هذه الصحيفة الإسلامية أو تلك، وإنما يطرح بعض الأمراض والنقائص التي لا يشك أحد في ماهيتها المرضية، ثم يترك للمفكر نفسه أن يتجرد من دوافعه الذاتية - والمفروض أنه يعمل مخلصاً في سبيل إعلاء كلمة الله - فينظر هل تمسه لفحة من هذا اللهب، أو تدنس ثوبه لوثة من هذا القتام؟

وقبل أن نطرح بعض هذه الأنماط المرضية نسارع للتركيز على حقيقتين موضوعيتين هما: **الأولى:** وجود بعض المفكرين الواعين الذين منحهم الله تعالى القدرة على التحليق الفكري المجرد، والإخلاص له - جل شأنه - الأمر الذي جنبهم الوقوع في المزالق وجعلهم مهبط الهداية الإلهية.

**الثانية:** توقع التغيير الشامل للحركة الفكرية الإسلامية، وانسجامها بالتالي مع التغيير الشامل الذي يسري كالعافية الإلهية إلى أوصال عالمنا الإسلامي الكبير.. فنحن إذن إلى التفاؤل اقرب منا إلى التشاؤم.. بل أننا لنجدنا نأمل أملاً قريباً في طلوع إسلامي فكري مشرق، يغمر الأرض نورا بحوله تعالى وقوته.

أما وقد ركزنا على هاتين الحقيقتين، نود أن نستعرض - بما يتناسب وحجم هذا الحديث - بعض نقاط الضعف، والحالات المرضية التي قد يبتلى بها الفكر، أو فلنقل يبتلى بها المفكرون. وأولها - بكل صراحة - (التبعية المكمنة للأفواه) والتي غالباً ما تتشخص بشكل تبعية لذوي النفوذ، وهذه التبعية المقيتة قد تفرضها ظروف الطرف المسيطر، كما قد يلجئ إليها الضعف النفسي للمفكر، وحاجته الاقتصادية أو النفسية إلى مثل هذه التبعية. ويمكننا أن نفترض لهذه التبعية من آثار السوء الشيء الكثير، فقد تبدأ بعنصر المجاملة، وعدم التعرض لما يغضب، وتنتهي إلى عملية التزييف المتعمد بعد أن تمتلئ البطون من الحرام، وتتفغ الاوداج من دماء المقهورين.

وبين تلك البداية وهذه النهاية يمكن تصنيف الكثير الكثير مما يكتب أو يلقي في عالمنا الإسلامي وباسم الإسلام، والتربية، والتوعية!!  
 فهل فكر بهذا الأمر أولئك الذين باعوا أئمن جوهره في الحياة وهي (الحياة المعقولة) للصغار التافهين، فراحوا يمتدحون جاهلاً لا يعقل ما ينطق ولا يملك من مسوغات الوجود المسيطر.  
 نعم؛ لنتائج التبعية درجات، فمنها ما لا يتجاوز الإعراض عن ذكر ما يغضب، والاقتصار على التوعية البعيدة عن تحريك أبناء الأمة ضد الظلم، في حين نجد المظاهر الأخرى تصل إلى حد التسويغ لما يفعله هؤلاء المانحون حتى ولو كان قد بلغ من الوضوح ما لم تبلغه الجريمة نفسها.

والعينة المرضية الأخرى - على الصعيد الفكري - هذا (التكرار الممض للفكر دونما إبداع وابتكار) لا في مجال الموضوع ولا على صعيد الحلول والاستنباط.. وإنه لما يملأ القلب ألماً إلا نجد من يرفع الخطوة التالية لخطوة رفعها مفكر كبير هو المرحوم آية الله الشهيد الصدر<sup>١</sup> في المجال الاقتصادي، وذلك على الرغم من مرور نصف قرن على هذه التجربة من جهة، والحاجة الماسة إلى مثل هذه الخطى الفكرية الكبرى من جهة أخرى.  
 وأما الساحة الفكرية، فلنسر فيها، ولنبره هذه المظاهر، ونعمل بالتالي على إدانتها بأي شكل كانت.

أما نقطة الضعف الأخرى والتي تبدو للعيان فهي مسألة (عدم التعامل مع الواقع القائم) و(الابتعاد - إلاماً - عن المشاكل الواقعية للامة) لعوامل كثيرة، منها ما سلف من عدم التعرض لما يغضب ذوي النفوذ، ومنها عدم الإحساس بألم الجماهير بعد تمام عملية التخدير، وغير ذلك.

وإلا فكم هي الكتابات التي نشهدها عن الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام كله في إطار

١. هو الامام الشهيد محمد باقر الصدر، استشهد عام ١٩٨٠ في العراق على يد مجرمي نظام صدام البائد، وأفكاره المبدعة في الفقه والفكر والسياسة لاتخفى على أحد، له: اقتصادنا، فلسفتنا، دورس في أصول الفقه، الأسس المنطقية للاستقراء وغيرها.

وحدة إسلامية شاملة تتناسى الحدود والمصالح الضيقة؟ وهل تتوفر الدراسات الكافية للمبادئ المنحرفة التي تسود عالمنا الإسلامي كالقومية الضيقة، والماركسية، والأفكار الرأسمالية والعلمانية والمهرنوطيقا والعولمة وغير ذلك، مع أنها مشاكل يعاني منها جسم الأمة وفكر شبابها الناهض.

واستطرادا في هذا المجال نجد (الفراغ الهائل في الدراسات الجامعية الإسلامية) فأين هي المناهج التي تشبع هذا النهم؟ وهل استطعنا العمل على تلبية هذا الشوق الجامعي المتطلع للإسلام وهو واقع قائم لاشك فيه، فإذا نحن في قبالة فاعلون؟ وحتى التجارب التي طرحت لأسلمة الجامعات جاءت ناقصة مبتلاة بالأفكار المستوردة دون ملاحظة عدم انسجامها مع واقعنا الإسلامي.

وإذا أردنا أن نستمر في عرضنا لنقاط الضعف فإننا سنجد أمامنا قائمة طويلة ملأى بها وكلها مما لا يمكن غفرانه.

إننا سنجد أمامنا مثلا: ضعف العرض وقلة التجديد في ذلك، وإهمال مسألة الإثارة الحماسية القائمة على أساس الفكر الأصيل، وهي جانب قرآني أهملناه في بحوثنا، وغير ذلك كثير. ونعود فنكرر ماقلناه آنفا من أن هذه الآفاق قد تكون غير عامة ولكنها - على أي حال - تمتلك مواقعها في وجودنا الفكري، الأمر الذي يتطلب نقدا ذاتيا موضوعيا يقوم به كل فرد، وكل مجموعة، مستهدفين القيام بالواجب الإلهي التاريخي، عاملين على المواكبة - على الأقل - لمسيرة تطلعات الأمة، والتي تطوي المسافات الطويلة لتقع على الهدف الكبير حيث يكون الدين كله لله، وفي الأرض كل الأرض بعونه تعالى، والله على كل شيء قدير. وسنحاول فيما يلي التركيز على نمط واحد من أنماط التوازن المطلوب.

### التوازن المطلوب بين خصوصيات الفرد والوطن وعموميات الأمة

والملاحظ في بعض أنماط الخطاب الديني بمعناه الواسع أنه يغرق في الخصوصية الفردية حتى لكأن الدين جاء ليربي الجانب الفردي في الإنسان، ويهمل الجانب الاجتماعي ويمكن أن يعزى هذا إما إلى غرق في الخصوصية الفردية ينسى معه الباحث والمفكر المسار الاجتماعي، أو إلى تأثر بالفكر الديني الغربي الذي يجعل الدين شأناً فردياً لا دخل له بالحياة العامة.

وعلى أي حال فإننا قد نجد الباحث - وقد يكون على مستوى رفيع من الفقه - يركز على النص الديني تركيزاً فردياً خالصاً فيطرح الاحتمالات، والاحتياطات، والمستحبات التي لو عمل بها الفرد ابتعد عن أي نشاط اجتماعي مجد، وهذا ما لاحظناه في بعض الدراسات الأصولية والفقهية.

وهذا من قبيل الإفتاء بصرف الزكاة في خصوص محلها، في حين أن التخطيط لتحقيق التكافل اليوم لا يتم إلا عبر مركزية عامة.

وقد نجده يركز على المصالح المحلية أو الوطنية أو حتى المذهبية إلى الحد الذي ينسى معه مصالح الأمة أو حتى الرؤية الإسلامية الشاملة. وهذا من قبيل أن تدرس مسألة مهمة (كالتقريب بين المذاهب) على ضوء ما يمكن أن تعود به من المنافع على هذا المذهب أو ذاك دونما نظر إلى ما تقتضيه الاتجاهات الإسلامية أو مصالح الأمة بأسرها.

ويدخل في هذا أيضاً تشبع أتباع المذاهب بفكرهم الخاص حتى أنهم ليستغربون أن تدل آيات كريمة على خلاف مذهبهم.

وقد نقل الإمام الفخر الرازي عن أكبر شيوخه أنه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها.

ويضيف: ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا<sup>١</sup>. وقد نجد الخطاب الديني مركزاً على تنمية الموارد الوطنية في إطار المصالح الوطنية دونما نظر للحالة الإسلامية العامة، وضرورة التنسيق معها لتحقيق المصلحة العليا للمجموع. وربما تم الاهتمام بالمخاطر السياسية أو الاقتصادية أو حتى الأخلاقية المحلية دونما ملاحظة لمسيرة العامة ومقتضياتها.

وأخيراً قد نلاحظ هذا الخطاب يقصر تخطيطه على إصلاح جزئي فردي بعيداً عن اهتمامات الأمة.

١. التفسير الكبير، ج ١٦، ص ٣٧، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، في تفسير الآية ٣١، من سورة التوبة.

وفي المقابل: نجد بعض أنماط الخطاب يفرض في التعميم، والتذكير بمصالح الأمة متناسياً خصوصيات الفرد والأرض والشعب وطبائفة المخصوصة، ولذلك يأتي وقعه باهتاً، ولتواجهه لا بألية طبيعية من مستمعين غريبيين على مثل هذا اللحن العام، مشغولين بمحنهم الخاصة. ومن هنا:

فإن المطلوب من الخطاب الديني العودة إلى (التوازن) و(الواقعية) و(العقلانية) و(المرونة) وكلها من الظواهر الإسلامية العامة والتأكيد على نقاط، أهمها:  
 أولاً: ملاحظة المصالح العامة والخاصة معاً مع تغليب المصلحة العامة عند التعارض.  
 ثانياً: اعتماد النظرة الاجتماعية ومقاصد الشريعة العامة مع النظر إلى المقاصد الخاصة لكل نظام.

ثالثاً: إن العالمية الإسلامية لا تعتدي على الخصوصيات الثقافية للشعوب، بل تهذبها وتوصلها وتخلق الانسجام بينها.

رابعاً: اعتماد مبدأ الوحدة الإسلامية في المواقف العملية، وتحمل التعددية الفكرية، مع الاتجاه إلى اكتشاف المساحات المشتركة، وتوسعتها والتعاون على تطبيقها، والتسامح في موارد الخلاف.

خامساً: التحلي بمجمل الظواهر الإسلامية العامة التي أشرنا إليها في عمليات التخطيط التنموي الطبيعي والإنساني المعنوي.

والله الموفق





(٢٠)

## العلاقة بين الإسلام والغرب وواجب المسلمين

الحديث حول العلاقة بين الحضارات اليوم يجد مصداقه الاكمل في العلاقة بين الإسلام والغرب كمفهوم حضاري، وكذلك العلاقة بين المسلمين والغرب كرابطة تعاملية تاريخية، وهو حديث متشعب الجوانب، إلا أنه يبقى حديثاً شيقاً متطلباً للبحث العلمي والاستعراض الموضوعي دائماً.

إنه حديث العلاقة بين مجموعتين فكريتين اثرتا أكبر الأثر في المسيرة الحضارية الإنسانية، بغض النظر عن الجوانب الإيجابية أو السلبية لذلك ...

كما أنه حديث العلاقة بين امتين كبيرتين وحدتها ظروف ورؤى، وقفنا في وجه بعضهما البعض حيناً وتعاوننا حيناً آخر.. تشابهتا في المسير والمصير، واختلفتا في تبادل الأدوار القيادية عبر التاريخ.

ومن هنا، فإن العلاقة الحاضرة لا يمكن فصلها عن التاريخ الماضي.. بل لا يمكن فهمها إلا في إطار المسيرة ككل.. وهل فصل مكونات النظرة الغربية للمسلمين أو الأتراك (كما يسميهم الاوربيون لما للدور التركي من أثر في نشر الإسلام) وكذلك فصل النظرة الإسلامية للغرب عن تاريخ التعامل المتبادل أمر ممكن؟

إلا أن الذي يقف عقبة امام الباحثين الموضوعيين، هو الابهام الذي يواجههم، وهم يحاولون تفهم حقيقة التعامل بل وحقيقة المصطلحات التاريخية ومدى عمقها وعموميتها ومصداقيتها وخلفياتها الحضارية! فهل كانت العصور الوسطى عصوراً مظلمة حقاً لكل

أوروبا أم كانت كذلك فقط لأوروبا الجنوبية، أما أوروبا المركزية والشالية فلم تكن تعيش ظلام القرون الوسطى؟

وهل كانت المسيحية سبباً لهذا الظلام أم كانت عنصر قوة، وقف بوجه هذا الظلام؟ وهل جاءت المصائب بعد سيطرة الجرمان على حواضر اليونان والروم بعد أن ذوت وخوت هاتان الحضارتان ولم تزدها السيطرة الجرمانية إلا خواء واضمحلالاً؟

وما هي تأثيرات تلك الثورة الكبرى التي أحدثها الإسلام، تلك المسيرة الفتية التي انطلقت من الجزيرة العربية.. هذا المكان النائي والقابع تحت هدوء موح خلال قرون طويلة؟

وهل صحيح ما يقال من أن الحركة الإسلامية الفتية بعد أن ترعرعت ونشرت اضواءها على أرجاء العالم المعروف آنذاك ومدت الجسور الفكرية والحضارية مع أوروبا، خلقت ردة فعل ضخمة في الجوف العالمي، ومنه الجوف الأوروبي الذي كان مبتلى بالتحجر والظلام وجلبت إليها كل أولئك المتنورين أو المثقفين الذين راحوا يقاومون ذلك التحجر الحضاري بشكل قوي دون أن يتحولوا إلى مسلمين، ولكنهم لم يبقوا مسيحيين تقليديين الأمر الذي جرهم خلال عملية صراع مريرة إلى الاومانبة والتي سارت بهم إلى مرحلة علمية فريدة شكلت مقدمات لعصر النهضة، وهكذا قامت أسس أوروبا المتمدنة اليوم؟

كل هذه تساؤلات وغيرها أخرى، تشكل مجموعة ضخمة لا بد أن يلحظها الباحث حتى يصل إلى الحقيقة.

إلا أنه يصطدم بشتى النظريات، منها المتعصب المتعصب، ومنها الحاقده الحاقده، ومنها الذي يقرب إلى الموضوعية منهجاً ويعتمد العمق فهماً، ولذلك فهو يقرب من الواقع المطلوب وهو قليل جداً حسبنا نفهم من مقاييس الموضوعية والفهم.

والذي يبدو من المسلمات أن الحضارتين تبادلتا الأدوار في المسيرة والتأثير بلا ريب، فبعد سقوط معظم شبه القارة الايبيرية في ايدي المسلمين عام ٧١١م وسقوط صقلية ومالطا وسويسرا بعد نحو قرنين من الزمان تحت السيطرة الإسلامية على مناطق اوروبية مهمة، تمت عملية تلاقح كبرى على الصعيد الحضاري تركت اثرها الكبير في إيجاد التحولات الغربية الكبرى، بعد ذلك، وفي عام ١٠٦٠م بدأت حرب استرجاع صقلية ثم اسبانيا ١٠٨٥م ثم

الحروب الصليبية مما يعني انحسار السيطرة الإسلامية.

ثم عاد المسلمون وانكفأ الصليبيون عن الشرق عام ١٢٩١م واحتل محمد الفاتح القسطنطينية وحاصر فينا عام ١٥١٩م ثم ١٦٨٢م وشاع في أوروبا الخوف والحقد فهي فترة امتداد إسلامي.

ثم اتجهت أوروبا إلى إفريقيا وشرق آسيا وكان هناك صراع أوروبي إسلامي على أرض إفريقيا وجنوب شرق آسيا وانتصر الإسلام هناك.

ثم بدأ الهجوم الغربي بنزول نابليون في الإسكندرية عام ١٧٨٩م، وسيطر الهولنديون على اندونيسيا عام ١٨٠٠م، واحتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠م، واحتلت القوات الروسية القوقاز وتركستان في اواسط القرن التاسع عشر، واحتل الانجليز الهند في الفترة نفسها ١٨٥٧م، ونجح الغرب في السيطرة على المحيطين الاطلسي والهندي والبحر المتوسط ومداخل البحر الاحمر، واحتل الانجليز مصر ١٨٩٧م والسودان، وفي ١٩١٧م دخل الحلفاء بيت المقدس، وفي عام ١٩٤٨م انشئت آخر قلعة عربية في قلب العالم الإسلامي بقيام دولة (اسرائيل) على يد الانجليز، وإن كان الحضور الغربي انحسر عن معظم المناطق الشرقية والإفريقية في الظاهر على الأقل.

وهكذا كانت الايام تتداول ولا ريب في أن في هذا التداول الخير والشر والتلاحح الفكري، والظلم والنهب والسلب ومن ثم الحقد والعداء المستمر حتى يومنا هذا. وحينئذ فإذا شئنا أن ندرس العلاقة بين الغربيين والمسلمين المعاشين لهم أو الغرب والإسلام عموماً، كإن علينا أن نلاحظ هذه الاسقاطات التاريخية على النظرة التقييمية للآخر عند كل من الفريقين.

### نظرة الغرب للإسلام والمسلمين

وعندما ننسب هذه النظرة إلى الغرب، فإن ذلك لا يعني أننا لا نستثني احداً وانما نتحدث عن الظواهر العامة التي تجد مستثياتها أحياناً.

وهذه النظرة موروثه ومستحدثة أيضاً.

وهي تتم على عدة اصعدة:

## ١- الصعيد العقائدي:

فعل الصعيد العقائدي نجد الهجوم الصاعق على النظرة الإسلامية للصفات الإلهية باعتبار أن الإسلام يركز على صفات الجبروت والانتقام والعقاب، وقد سمعنا عن المدعي العام الأميركي قوله إن الله في المسيحية يقدم ولده قرباناً وفداء للبشرية في حين يطلب من البشرية في الإسلام أن تقدم أبناءها قرايين له!! وكذلك الهجوم على القدسية التي يملكها الوحي لدى المسلمين، ومن هنا تأتي الدعوة إلى عقلنة الوحي، أو مزج الوحي السماوي بعنصر إنساني وهي دعوة تؤثر بها حتى بعض مفكري المسلمين، ثم نجد الهجوم على الرسول الكريم ﷺ ونعته بشتى النعوت من قبيل الشاعرية الرومانطيقية، والغريزية، مع تغيير لكثير من الحقائق واستفادة من بعض الاحاديث الموهومة، كحديث الغرائق العلى، فإذا شاؤوا الموضوعية في رأيهم جعلوا الإسلام حصيلة الروح العربية.

وعندما تحرك المرتد رشدي ليطلق سبابه وهذره ضد الرسول الكريم وجد مع الأسف في ذهن الغربيين الاستقبال الحسن والدفاع الاعمى عن شخصه الحقير. ناهيك عن الصفات الأخرى التي اتهم بها الإسلام، كالقول بالجبرية والقول بالجمود الفكري وأمثال ذلك من الافتراءات.

## ٢- الصعيد الحضاري:

وعلى الصعيد الحضاري نجد التصوير الاستشراقي يتحدث عن الخواء الإسلامي ويعتبر التراث الإسلامي حصيلة للتراث اليوناني والمسيحي واليهودي وحتى العلوم الإسلامية جعلوها مستمدة من الرومان والساسانيين وغاية ما فعله المسلمون هو نقل التراث اليوناني إلى الغرب، ولذلك فضل أحد كبار السياسيين الايطاليين الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية. أما تخلف المسلمين فهو نقطة الضعف التي ينزهم الغربيون بها كلما شاءوا ناسبين اياها إلى العقيدة الجبرية، وعناصر التوكل والقناعة والنظام الدكتاتوري الحاكم ونقض حقوق الإنسان بما فيها حقوق المرأة إلى آخر ذلك من القائمة الطويلة من التهم والافتراءات الصادرة عن حقد دفين.<sup>١</sup>

١. راجع علل الاتجاه نحو المادية للشهيد المطهري (ترجمة الكاتب).

### ٣- الصعيد السياسي:

ونجد على الصعيد السياسي التهم تتوالى ضد المسلمين بل ضد الإسلام بأنه بؤرة الإرهاب، والصحة الإسلامية هي في الواقع - كما يقولون - الأرضية المساعدة للإرهاب، ومن هنا فإن من الواجب الوقوف بوجه هذه الصحة بكل امتداداتها.

### نظرة المسلمين للغرب

ولا نقصد هنا أولئك الذين فقدوا هويتهم الإسلامية وأنهبوا بالاضواء وتغربوا بالتالي، فإن هؤلاء لا يمثلون الهوية الإسلامية كما لا يمثلون الظواهر الإسلامية العامة وإنما نريد أولئك الذين يمثلون التيار العام الملتزم عمومًا بالإسلام. وهنا أيضاً نجد التقييم يتم على عدة أصعدة:

### ١- الصعيد العقائدي:

يتصور المسلمون أن الغربيين بعيدون عن الاعتقاد بعالم الغيب، وحتى الإيمان بالمسيحية كدين فردي، ويرون أن الاومانبة القديمة نسبياً جعلت الفرد ومصالحه بدلاً من الاله وصفاته بل وحتى الاله نزل به الإنسان الغربي إلى الأرض<sup>١</sup>.

### ٢- الصعيد الحضاري:

يتم تصور الغرب بأنه رغم تقدمه المادي يستغل امكاناته للقضاء على كل صفة إنسانية، والاستيلاء على المكاسب الحضارية للآخرين وفرض القيمومة على كل الثقافات عبر امكاناته الواسعة في مختلف الحقول.

ولا أدل على ذلك من استغلاله تصوراته هو عن حقوق الإنسان لفرض قيمومته

١. يقول الشهيد الإمام الصدر: إن الانسان الاوروبي ينظر إلى الارض دائماً لا إلى السماء. وحتى المسيحية - بوصفها الدين الذي آمن به هذا الانسان مئات السنين - لم تستطع ان تتغلب على النزعة الارضية في الانسان الاوروبي بل بدلاً عن ان ترفع نظره إلى السماء استطاع هو ان يستنزل اله المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن ارضي (اقتصادنا ص ٣٥).

التصورية على كل شؤون بلدان العالم الثالث، ومنها شؤون العلاقة العائلية بل وحتى العمل على تغيير تعريفها وهي تعني - في تصور المسلمين تفتيت البناء العائلي - ولما كانت العائلة أساساً للبناء الاجتماعي، فإن ذلك يؤدي لتفتيت كل العلاقات الاجتماعية. وهذا بالضبط ما حدث خلال طرح وثيقة مؤتمر السكان والتنمية عام ١٩٩٥م في القاهرة ووثيقة بكين عام ١٩٩٦م، حيث كان الغرب يصرّ على نشر ما اسماه بالحقوق الجنسية واعتبارها وثيقة دولية يتم بموجبها ملاحقة الدول النامية في تقنينها وعلاقاتها<sup>١</sup>. كما يتصور المسلمون أن الغرب بتركيزه على النزعة الفردية أكد الجشع ورفض الأخلاق الإنسانية، وأدى ذلك للولايات الاستعمارية المعروفة<sup>٢</sup>.

### ٣- الصعيد السياسي:

يتذكر المسلمون الولايات التي لاقوها من الاستعمار الغربي ويرون أن السياسات الغربية مازالت مستمرة رغم التبرجح بالصدقة والتعاون. ويزيد هذه النظرة عمقاً سياسة الكيل بمكيالين تجاه قضايا العالم الإسلامي، وهي سياسة معروفة المصايد.

ويدرك المسلمون أن الغرب اليوم يعمل على صياغة عدو موهوم له هو الإسلام ويحاول أن يغذي في نفوس أتباعه هذا الحقد والاستعداد لمواجهة هذا العدو بعد سقوط العدو السابق الشيوعية. الأمر الذي دعا المنظرين لجعل محاربة الإسلام السياسي من أهم أهداف الإستراتيجية الأمريكية التي صيغت في التسعينيات.

### نظريات غربية

ولابد أن نشير هنا إلى نظريات غربية عنيت بهذا الأمر:

١. راجع كتاب (مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتضارب الآراء حوله) للكاتب.
٢. يقول الشهيد الصدر (ان الاستعمار ليس تعبيراً اقتصادياً عن المرحلة المتأخرة من الرأسمالية، وإنما هو التعبير العملي بصورة اعمق عن العقلية المادية بمقاييسها الخلقية، ومفاهيمها عن الحياة واهدافها وغاياتها)، اقتصادنا ص ٢١٣ طبعة مشهد.

### النظرية الأولى:

نظرية (هانتنغتون) القائلة بضرورة الصراع بين الحضارتين، وقد أكدت نظريته التي نشرها في صيف ١٩٩٣ في مجلة (فارين افرر) الأميركية أن النزاع ضروري بين الحضارات، ورغم أنه عد ثماني حضارات إلا أن التأمل في تحليله يحصر النزاع في اطراف ثلاثة في الواقع هي:

### الطرف الغربي الأميركي:

والذي هو نتيجة الرينسانس والأصلاح الذي انتج الرأسمالية والديمقراطية الحديثة.

### الطرف الكنفوشوسي:

وأفكاره مجموعة رؤى اجتماعية تسود الصين.

### الطرف الثالث الإسلام:

وهو الطرف الأصيل في النزاع في تصوره، ورغم تراجع (هانتنغتون) في بعض احاديثه عن هذه الرؤية العدائية القائمة، فإن السياسات الغربية مازالت تؤكد هذا المنحى العدواني.

### النظرية الثانية:

نظرية (برايان) التي نشرها في (الاكونوميست) في الشهر الثامن من عام ١٩٩٤ ويؤكد فيها أن الديمقراطية، هي وليدة الأصلاح في المسيحية في اوائل القرن السادس عشر والذي ركز على مسؤولية الفرد أمام الله، مستبعداً دور الكنيسة، وتحول هذا بعد ثلاثة قرون إلى الفكرة الديمقراطية على الصعيد السياسي والتي سادت جزءاً كبيراً من العالم، ثم عادت بلا منازع بعد انهيار الماركسية، ويرى أن القرآن أيضاً يؤكد المسؤولية الفردية ولكن في إطار جبري!!

ولكي يوقع صلحاً بين العالمين الإسلامي والغربي، يركز على ضرورة نفي دور العلماء الذين - يحتكرون - في رأيه الفهم الإسلامي بعد طرحهم مبدأ (الاجتهاد) وهو عملية تخصصية يهاجمها برايان بشدة.

ولكي يصل إلى مصالحة مطلوبة، يعقد مقارنة بين القرنين الخامس عشر الميلادي والخامس عشر الهجري، قائلاً بأن كل ظروف الأصلاح في العالم الغربي آنذاك متوافرة في العالم الإسلامي اليوم وعناصر هذه الظروف هي:

- ١- اليأس من النظام السياسي العسكري الحاكم.
  - ٢- اليأس العالمي العام.
  - ٣- الشوق نحو الإصلاح.
  - ٤- التحريك الخارجي.
- وكما وجدت حركة الإصلاح آنذاك، فإنها ستوجد اليوم في العالم الإسلامي. ويرى أن القادة المعتدلين في الحركة الإسلامية يمكنهم بطرد عنصر الاجتهاد من الساحة واعتماد الحوار الصحيح، أن يوجدوا الجو الديمقراطي المطلوب. وهنا يدعو الغرب للتعامل معهم، شريطة أن ينبذ النظرة الفردية في السلوك والعمل.

### النظرية الثالثة:

نظرية (نهاية التاريخ) وقد حاول فيها المفكر الأميركي ذي العرق الياباني التأكيد على أن الحضارة الغربية هي غاية التاريخ تماماً كما تصور ماركس أن الشيوعية هي نهاية التاريخ، ودعا ياما الحضارات كلها للسير نحو الرأسمالية. والحقيقة أن هذه النظريات مهدت لظهور فكرة العولمة في مجالاتها الشاملة والتي لا نستطيع إلا أن نفسرها بالأمركة في أحسن الاحوال.

### التصحيح المطلوب

ومهما قيل عن الصراع، فإن الحوار سيقى هو السبل الاقوم والحل الانجح، ولن يتحقق التفاهم إلا بتحقيق التفهم والوعي للآخر وهذا هو الذي يقتضيه المنطق الإنساني وجاءت به الشرائع السماوية وأكدته الإسلام ورسم له القرآن الكريم اروع صورة في العديد من آياته الكريمة. ومن هنا ينبثق واجب التصحيح، فعلى كل من الفريقين أن يصحح صورته لدى الآخر، فيؤكد على عناصر الصحة وينفي عناصر التزييف من الصورة أو من الواقع القائم ومن الطبيعي أن لا ينتظر منا - نحن المسلمين - أن ندافع عن الغرب وصورته في اذهاننا، ذلك أننا نعتقد صحة ما نتصور، والوقائع يوماً بعد يوم تزيدنا وضوحاً وتأكداً، بل وكلما تعمقنا في كتابات المنظرين والمؤرخين الغربيين اليوم لتاريخ الصراع، نجد الأمر يتأزم أكثر مما نحن عليه من تصور.



وإلا فهاذا يؤدي التأمل في نظرية (هانتنغون) غير اللاحح في تعميق الصراع ضد (الآخر)، وهل يؤدي التأمل في مقارنة (برايان) بين القرنين الخامس عشر الميلادي والهجري إلا إلى السخرية من هذا الهذر التحليلي، بعد أن نلاحظ الفارق الكبير بين التصورين المسيحي والإسلامي عموماً، ونوع الارتباط الاجتماعي بهذين التصورين ونمط الشعارات التي تطرحها الحركة الإصلاحية هنا والحركة الإصلاحية هناك وأساليب التحلل التي طرحت هناك والإصلاح الذي يطرح هنا، ومن هنا نؤكد أن الصورة المكونة في ذهن الغرب عن الإسلام والمسلمين صورة مغلوطة، سواء على صعيد الواقع القائم، أو على المستوى التاريخي، فالصورة الإسلامية لله تعالى هي أكمل الصور واليها تنتهي رغبة الراغبين، ذلك أنه تعالى هو الكمال المطلق بصفاته الثبوتية والسلبية، وأن الإسلام لم يطرح هذه الصفات ليكرس الذات الإلهية (فالذات الإلهية غنية عن كل شيء) وإنما طرحها للانسجام مع مقتضيات البرهان العقلي والفطري، والعمل على الارتفاع بالمستوى الإنساني إلى عالم الكمال، وتحقيق التوازن المطلوب في مجال موقف الإنسان من الواقع بعد أن يتركز في الذهنية الإسلامية التعادل بين كونه تعالى الغفور الرحيم وكونه شديد العقاب.

ويبقى الوحي المقدس اقدس رابطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ولذلك لا يتحمله إلا الأنبياء عليهم السلام، وما قيل عن عقلنة الوحي، إنما هو محاولة يائسة لمحو الوحي نفسه وجعل النتيجة تابعة لأخس المقدمات.

أما قصة الفداء فهي واضحة البطلان ولا يضحى الإنسان المسلم بنفسه لتكريس رغبات الآلهة وإنما يعمل لهداية البشرية نحو صلاحها، وأما قصة الفداء على الرواية المسيحية فهي ما لا يمكن أن يصدقه عقل سليم.

ويبقى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم اقدس إنسان وأكملهم، وتبقى سيرته الرائعة أروع نموذج للإنسان المتكامل بما حوته من صفات لو تجرد الإنسان عن عصبتيه ولا حظها، لغرق في بحر جمالها.

أما مقولة الجبرية فهي المقولة التي يتنزه عنها الإسلام تماماً، ولا نعلم مسلماً تخلّى عن مسؤوليته بهذه الذريعة<sup>١</sup>، ولا تستطيع المادية المغرقة في العلل المادية أن تنجو منها، وهكذا

١. راجع (الإنسان والقدر) للشهيد المطهري، ترجمة الكاتب.

مقولة الجمود الفكري لا مجال لها في دين يعتمد العقل أساساً للتقييم في شتى المجالات ويفتح الباب للعلم على مصراعيه، السبب الذي نجّى الغرب نفسه في مطلع تعامله مع الإسلام من جموده الفكري على العهد الجرمانى وبعده.

وعلى الصعيد الحضاري نجد الإسلام والمسلمين قد قاموا بنقلة حضارية ضخمة لا يمكن أن تقاس بمن سبقوهم، وعندما أخذوا من سابقهم احتفظوا بالفضل لهم وذكروهم، ولكنهم طرحوا الأمور بشكل جوهري فلا يمكننا مطلقاً أن نقول إن المسلمين كانوا مجرد حملة لعلوم اليونان إلى الغرب وعندهم أمثال ابن سينا والفارابي والبيروني والملا صدرا الشيرازي وغيرهم.

والحديث عن تخلف المسلمين ذو شجون، وحقيقة الأمر أن سيطرة العقليات البعيدة عن الإسلام، سواء على مستوى الدول الوسطى كالمغولية والعثمانية والصفوية، أو على الصعيد الفردي لبعض المتحجرين أو بعض المتميعين هي السبب المهم في التخلف.

على أنا يجب أن لا ننسى أن الكثير من التقدم الغربي كان نتيجة النهب الاستعماري لثروات الشعوب، لا الكد الحلال من خلال العمل العلمي والإنساني.

**أما تهمة الإرهاب:** فهي أمر غريب، أنها التهمة التي اخترعت غريباً لمحاربة كل عملية صحوة ضد المصالح الغربية، فإذا قام بها الغرب تحولت إلى عملية مشروعة ويتحقق بذلك مصداق الكيل بمكيالين.

وهكذا تحولت عمليات جهاد الفلسطينيين ضد الغزاة الصهاينة إلى عمليات إرهابية، في حين بقيت عمليات الإبادة الجماعية في فلسطين جهاداً مشروعاً في سبيل عودة الشعب المشرّد إلى وطنه الأم.

وها هي مذبحه قانا في لبنان، حيث قصفت اسرائيل الشعب الأمن، واللاجئ إلى مقر دولي معترف به، ولكن أميركا بلغت إلى حد طرد الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة، لأنه اصر على نشر تقرير الأمم المتحدة عن هذه المذبحة الفظيعة، هذه إذن هي العقلية التي تتعامل بها أميركا مع الإرهاب.

وهاهي جنين المهذمة والمذبوحة وقد منعت هيئة الأمم المتحدة من التحقيق فيها دونها وازع أوراوع.

إن تهمة الإرهاب تصدق أكثر من أي مكان على الإرهاب الدولي الذي يقوده الغرب مع الأسف الشديد، ثم يلصقه بالصحة الإسلامية التي ما نشأت إلا لتدعو إلى تعميم حقوق الإنسان المسلم وانصافه.

وتقف إلى جانب الإرهاب تهمة الأصولية، كل ذلك للعمل على تفكك الشخصية الإسلامية المقاومة في كل مكان.

### مستقبل العلاقة كما تتصورها كاتبة غربية:

وقد ركزنا على كتاب السيدة (شيرين هانتر) حول هذا الموضوع واسمه (مستقبل الإسلام والغرب: صدام حضارات أم تعايش سلمي) لأنه يلخص الموقف الغربي تماماً. ولكي نقف ولو بشكل سريع على هذا الكتاب علينا أن نعطي لمحات عن مسيرة البحث فيه على النحو التالي:

١- تبدأ الكاتبة بالحديث عن رواية ضابط بريطاني الفها عام ١٩١٦ على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى وهو يعلن: إن الشرق في انتظار إشارة الهية.

ثم تذكر أن (كراوثرمر) عبر بعد ٧٥ عاماً عن مخاوفه من أن أميركا تواجه الخطر الأصولي الإسلامي.

٢- وتقرر أن أوروبا كانت تواجه هم الخطر الإسلامي منذ سنة ١٣٥٩ بسقوط غاليبولي بيد الأتراك وتعرج على الخوف الذي استولى عليه بظهور الإمام الخميني عليه السلام.

٣- وتتحدث عن الصراع القائم في الغرب بين الدين والعلمانية، وتعلن أن الفصل بين الثقافة والإيديولوجيا هو فصل زائف.

٤- ثم تذكر أن ميزات الإسلام تجعله خصماً حضارياً باستمرار للغرب.

٥- وترتكز على دور النفط في اذكاء الصراع، الأمر الذي لا يتصور عند الأصوليين الهنود ولذا فلا يقلق الغرب كثيراً لنمو هذه الأصولية.

٦- وتؤكد على أن الإسلام لا يمكن أن يهزم كما هزمت الاشتراكية والنازية.

٧- ثم تميز بين الإسلام (الشخصي) فهو جيد والإسلام (الحضاري) فهو سيء وترى أن

الخطر كله آت من الإسلام المقاتل.<sup>١</sup>

٨- ثم تعلن أن كل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي وفيها يكمن التطور.

٩- وتؤكد أن الحل الوسط يكمن في قبول الغرب بدور الدين في الحياة وقبول العالم الإسلامي بالعلمنة.

١٠- ثم تقول: إن السبب الحقيقي في الصراع هو توازن القوى، فالمسلمون ينكرون السيطرة الغربية على مقدراتهم، والغرب ينكر عليهم تحديهم لتفوقه.

١١- ثم تتحدث عن دور الإيديولوجيا في المجتمع باعتبارها تخدم القوة وأن التضحيات الكبرى تحتاج لمبرر إيديولوجي، وترى أن القيم الغربية لا يؤبه بها إذا لم تخدم المصالح.

١٢- وتعود فتؤكد أن النظام السياسي الإسلامي غير واضح في الكتاب والسنة. كما تؤكد وحدة الدين والسياسة ومفهوم الأمة عند المسيحية واليهودية سعياً منها لتحقيق التقارب باعتبار أن المجتمع الإسلامي يقبل العلمنة (وإن كانت تعترف أن النظام الإلهي والعلمنة لا يجتمعان) وحينئذ لا حتمية للصراع.

١٣- وتؤكد أنه لا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام. ولكنها تنتقد من يسطح موقف الإسلام، ثم تعود لتؤكد أن الإسلام توسعي معاد للآخرين باعتباره يريد أن يحكم العالم، ساخرة من هانتنكتن الذي يرى أن المسلمين لا يعرفون منطق المساواة.

١٤- ثم تركز على حكم (الجهاد) فتري أنه يتنافى مع مبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولكنها تخفف منه لأنه مبدأ دفاعي، وتقترح على المسلمين أن يرجئوا الهدف العالمي.

١٥- وتنتقد التصور الغربي للإسلام ورؤيته للعالم وأن المسلمين يتعاملون ككتلة واحدة فيجب التعامل معهم كذلك.

١٦- وبعد أن تتحدث عن مهارة الرسول ﷺ في التعامل مع أعدائه تتهم المسلمين في صدر الإسلام بأن دوافع اندفاعهم لم تكن عقائدية فقط، تماماً كما هو الحال في الحروب الصليبية.

١. هذا التعبير ورد في متن الاستراتيجية الاميركية التي نشرت عام ١٩٩٧ واكدت على ضرورة محاربة الإسلام المقاتل وتقصده به الإسلام السياسي.

- ١٧- وتؤكد أن التمزق الذي يعيشه المسلمون حول مفهوم دار الإسلام من مفهوم سياسي إلى مجرد مفهوم ديني، وأن الدعوات إلى الوحدة الإسلامية لا تجد لها صدقاً اليوم.
- ١٨- كما تذكر أن ممارسات المسلمين ضد حقوق الإنسان لا علاقة لها بالإسلام.
- ١٩- وتعتبر حركة الاحياء الإسلامي هي المسببة لصراع الحضارات. وترى أنها بدورها معلولة لخصائص الإسلام.
- ٢٠- وتعرض إلى فكري علاقة الدين بالسياسة، وكيان الأمة الإسلامية فتعتبرهما اسطورتين، وترى أن الأمة الإسلامية لم تقم لها قائمة منذ وفاة النبي ﷺ، إلا أنها تؤكد أن هاتين الفكرتين ساهمتا في وجود حركة الصحوة (كتعبير عن دور عنصر القيمة) إلى جانب عوامل أخرى كاتقسام المجتمعات، وتهميش العناصر الإسلامية، وجهود التقليديين لتغيير معادلة القوة (كتعبير عن عنصر المصلحة).
- ٢١- ومن هنا فالصراع مع الغرب ليس حتمياً لأنه لا يعتمد على العنصر القيمي فقط كما يقول (الاستشراقيون الجدد) الذين يدعون نتيجة دعواهم هذه إلى قمع العالم الإسلامي، وهؤلاء من أمثال (كرامر) الذي يوجه نقداً لاذعاً للرئيس كارتر لأنه سمح لظهور ظاهرة (آيات الله)، ومثله برلمونز. ويقف في قبال هذا التفسير من تسميهم بـ(العالم الثالثين الجدد) من أمثال (بورغات) الذين يقبلون وجود العنصرين (القيمة والمصلحة) في مجال تنظيم العلاقة ومن هنا فهم يدعون للتصالح، وهي تؤيدهم في ذلك.
- ٢٢- وترى أن عوامل النهضة الإسلامية تتمثل في:
- تمزق عوامل النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر وبالتالي تحول العلاقة من علاقة ندين إلى علاقة مسيطر ومسيطر عليه. مما خلق اتجاهين متخالفين، اتجاه العودة للإسلام اما بشكل حربي كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة اقبال وسير سيد احمدخان والمرجاني وغيرهم.
- ٢٣- وفي صدر تقييمها للافغاني وعبده وهل هما أصلاً حيان أو منافقان تعمل على ترجيح الجانب السلبي استناداً للجواب الفاتر للافغاني على هجوم (رينان) على الإسلام باعتباره حرب الحضارتين السابقتين عليه، وترى أنه أي الافغاني استخدم (التقية) في ذلك.

٢٤- وتذكر أنه على الصعيد السياسي بدأ الزعماء من منتصف القرن التاسع عشر بالتحديث: أمير كبير في إيران، العثمانيون في تركيا، محمدعلي في مصر، الثورة الدستورية في إيران ١٩٠٥م ثم ثورة التحديث التركية وتعقب بأن الأصلاحيين المسلمين واجهوا العلمانيين والتقليديين معا.

٢٥- وانتصر العلمانيون انتصاراً زائفاً في الفترة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٧٠ حيث فرضت العلمانية فرضاً على المسلمين، وحدث التشطي الثقافي والصراع التحالفي فتارة يتحالف القوميون مع الإسلاميين ضد اليساريين وأخرى يتحالف اليسار والإسلاميون ضد التقليديين، وثالثة يثور النزاع بين خريجي الجامعات الغربية، ودارسي اللغة العربية ولكن التحديث فشل في مسعاه. وعاد التمسك بالإسلام باعتباره هو الحل.

٢٦- وترى أن الثورة الإسلامية استفادت من خصائص الدين لتحريك الجماهير ولكنها لم تحقق الطموحات فعاتت تواجه حقيقة مهمة هي انفصال الدين عن السياسة. - وبعد أن تتعرض لآراء الدكتور سروش في النسبية وتشبهها بآراء سير سيد أحمد تقول إن هذا يعني أن الإسلام يقبل الإصلاح.

٢٧- ثم تتحدث عن العوامل الخارجية للصحة من قبيل، قيام إسرائيل، هزيمة ٦٧، الثروة النفطية، هزيمة السوفيت في أفغانستان، نجاح الثورة الإسلامية في إيران ولكنها تقول إن قبولها بوقف الحرب عام ٨٨ أخطب الآمال.

٢٨- ثم تعود فتقول إن الغرب يعادي الصحة لأنها تكتنز عداءً له نتيجة سياساته هو لانتيجة أن الإسلام بخصائصه يعادي الغرب.

وتذكر أن أمثال برنارد لويس ودانيال بايبس من المستشرقين الجدد يرجعون عداء الصحة الإسلامية للغرب إلى الخوف والحسد وتنتقد هذا الرأي وإن كان فيه شيء من الواقعية تماماً كما يحسد الغرب اليابان والصين، في حين رأى آخرون أن الحقد الإسلامي ناتج من سياسات الغرب، ولذلك يشارك العلمانيون المسلمين في هذا الرأي.

٢٩- وتقول بعد ذلك في صفحة ١٤٨ اظهر هذا النقاش بوضوح أن نشوء الظاهرة الإسلامية كان إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من تطور التجربة الإسلامية في سياقاتها الزمانية

والمكانية المتنوعة. فهي شأنها شأن الأوجه الأخرى للتجربة الإسلامية اتت مرتبطة بالتطور والتحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمعات الإسلامية، وديناميات مجابهتها للعالم غير الإسلامي وللقوى والأفكار الصادرة عنه... إن المرحلة التالية قد تكون بالفعل علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية وحركة باتجاه توليفة بين التعاليم الإسلامية والمفاهيم الغربية.

٣٠ - وتدخل بعد هذا في السياسة الخارجية لبعض البلدان الإسلامية لتثبت أن الإسلام ليس وحده الدخيل في تنظيمها ولتستنتج النقاط التالية - باختصار:-  
أ - سيبقى تأثير الإسلام قليلاً في سلوك الدول الإسلامية ويستبعد أن يكون للمسلمين كيان موحد.

ب - ستختلف علاقات هذه الدول مع الغرب من متوترة إلى ودية.  
ج - لن تحل علمنة العالم الإسلامي كل المشاكل، وإن كان لها التأثير الكبير - ما دامت هناك مصادر أخرى للخلاف كسعي البلدان الإسلامية الإسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب.

د - ستتوازن العلاقة مع الغرب مع مستوى تعاطفه مع القضايا الإسلامية ولكن المصالح الدنيوية لكل دولة أيضاً ستؤثر على علاقاتها.

هـ - وستبقى المنافسة بين الدول الغربية نفسها في مجال بسط النفوذ.  
و- إن احتمال تكوّن قدرة منافسة للغرب سوف يزيد من تحديات المسلمين في حين أن فقدان احتمال تكون هذه القدرة ربما ينتج موقفاً أكثر تساهلاً.  
هذه خلاصة لبعض الأفكار الواردة في هذا الكتاب الحديث.

### نظرة نقدية

وينبغي لنا بعد اجراء مسح فاحص أن نطرح النقاط التالية:

### النقطة الأولى:

قبل كل شيء نرى لزاماً علينا أن نذكر بجرأة الكاتبة في الاعتراف ببعض الحقائق المرة لدى الغربيين من قبيل:

- أ - تقرير حقيقة أن الإسلام لا يمكن أن يهزم من خلال انتصارات عسكرية وأمثالها كما هزمت النازية والاشتراكية وأمثالهما.
- ب - إن الإيديولوجيا لا يمكن أن تفصل عن الحياة الاجتماعية ذلك لأن المسألة الاجتماعية يجب أن تقام - ولو بشكل لا شعوري - على المسألة الفلسفية والاعادات بلا هدف ولا مبررات.
- ج - إن الغرب لا يأبه بالقيم التي يدعيها كالديمقراطية وحقوق الإنسان إذا لم تخدم مصالحه.
- د - إن العلمانية لا تجتمع مع النظام الديني حتى ولو كان مستمداً من المسيحية أو اليهودية.
- هـ - إن الذين ينظرون إلى رؤى الإسلام بسطحية هم سطحيون.
- و - السخرية من هتكتن عندما يقول إن الإسلام لا يعرف المساواة.
- ز - التفريق بين إيمان الإسلام بحقوق الإنسان وعمل المسلمين.
- ح - الاعتراف بأن العلمانية فرضت فرضاً على العالم الإسلامي.
- ط - إن الغرب قد ينطلق من مواقف أخلاقية منحطة كالحسد والحقد وأمثال ذلك.

### النقطة الثانية:

إذا تتبعنا التحليلات والحلول والتصريحات الغربية الممتدة على خط الزمان وعلى مختلف المستويات نجد أن الهاجس الأكبر لدى الغرب هو هاجس تقديم الإسلام للبديل الحضاري المتميز ذي الطابع القيمي اللامنسجم مع القيم الغربية، والذي يحمل في ذاته عنصر البقاء والنمو المتواصل، والحفاظ على الذات، ومنع الآخر من الاستغلال. وبالتالي سقوط النموذج الغربي، وانهار التفوق الحضاري للرجل المسيحي الاوربي الابيض. وهذا الهاجس ملاحظ في كلمات السياسيين كچرچيل، وديغول، وبرلسكوني وبوش وأمثالهم وفي كلمات المؤرخين كتوينبي والفلاسفة كولين جيمس والكتاب كهانتنغن وفوكوياما وبرايان وغيرهم.

ومن هذا الهاجس الذي تعاضم في الثمانينات واولئل التسعينات من القرن الماضي انطلقت فكرة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة عام ٩٧ بل من هذا الهاجس جاءت التصرفات الغربية الكبرى طوال القرون الأخيرة ان لم نمتد بها إلى مدى أبعد، ومنه أيضاً جاءت العولمة التي تعني في الواقع غربنة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية أو أمركتها، وركوب موجة الاتجاه العالمي الطبيعي من الكثرة إلى الوحدة في مختلف المجالات.



هذا الهاجس الذي تعبر عنه الكاتبة بالحسد أحيانا دفع الغرب لفرض واقع التخلف بشتى أنواعه، والتمزق، والعلمنة على العالم الإسلامي.

أما التخلف فحدث عنه ولا حرج سواء أكان في المجال العلمي، أو الاقتصادي أو العسكري أو الثقافي أو الاجتماعي. وواضح أن الغرب لم يسمح إلا بالنزر القليل، من التقدم ابقاء على ادعاءات التحضير الإنساني.

ولا نريد هنا أن نقلل من تقصير المسلمين في هذا المجال ولكن من غير المشكوك فيه أن السعي الغربي كان على أشده في مجال ابقاء التخلف وتعميق الفوارق بين المستوى الغربي ومستوى العالم الإسلامي بأساليب متنوعة.

وأما التمزق فإن للغرب دوره الأكبر في إيجاد إقصى حد اما مباشرة أو من خلال المتأثرين بفكره. ويلاحظ من كلمات الكاتبة مدى التوجس من التوحد حتى أنها تقرر في نهاية كتابها أن الوحدة الإسلامية والكيان الإسلامي الموحد أمر بعيد المنال في المستقبل بل أن مجرد ظهور شعور بالإسلام الشمولي، وظهور الدعوات الأولية للمنظمات الشمولية في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الماضي قلب الموازين الغربية فراحوا يحسبون له الف حساب ومن حساباتهم تفرغ هذه المنظمات من محتواها وبقاؤها على مستوى الأشباع الشكلي والعاطفي لجوعة عارمة، ورغبة جماهيرية لاتقاوم للوحدة الإسلامية. ويتخذ التمزق هذا اشكاله المتنوعة فهناك تمزق على أساس القومية وآخر جغرافي وثالث لغوي ورابع في الولاء والخامس في المستوى المعيشي وهلم جرا، والكاتبة تعتبر أن عملية تمزق النسيج الاجتماعي للعالم الإسلامي شكلت أحد عوامل الصحوة الإسلامية والدعوة إلى العودة للإسلام دون أن تتحدث عن الدور الذي لعبه الغرب في القضاء على الدولة العثمانية ونشر الفكر القومي الضيق، وإيجاد الخلافات بين الكيانات المصطنعة وأمثال ذلك.

وأما العلمنة فهي الداء الوبيل الذي ضرب عالمنا الإسلامي واستطاع إلى المدى الأكبر أن يسيطر على مجمل أرجائه. وقد شجع الغرب العلمنة بشتى الأساليب حتى أن الكاتبة - اعترفت بانها فرضت فرضاً خلال الاعوام ١٩٢٠ - ١٩٧٠ - وأنها لم تحقق المقصود وذلك طبعي لأن العالم الإسلامي مهما ابتعد عن الإسلام وأحكامه فإنه يبقى إسلامي النفس والنبذة

والاحاسيس، فاذا ضممننا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أن الإسلام دين الحياة ولا يمكن فصله عن جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهي حقيقة يحاول الكتاب الغربيون بل وحتى السياسيون إلى اليوم انكارها وهذا ما وجدناه في حديث كولن بأول وزير الخارجية الأمريكية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٣م وهو ما يركز عليه العلمانيون في عالمنا الإسلامي بل يعملون على منحه ابعاداً فلسفية، ونحن نجد الكاتبة تعمل جاهدة في هذا الكتاب على أن تجعله الحل السحري للصراع، فكل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي، والنظام السياسي غير واضح في الكتاب والسنة، والمجتمع الإسلامي يقبل العلمنة فلا حتمية للصراع، ولا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام، ومبدأ الجهاد يتناقض مع مبدأ نفي الإكراه في الدين، والاتجاه العالمي للإسلام يجب أن يتخلى عند المسلمون، وحركة الاحياء الإسلامي التي ترفض العلمنة يجب أن يرفضها المسلمون لأنها هي سبب الصراع بين الحضارات، وأن على العالم الإسلامي أن يروض قيمه وفق مصالحه، وأن مسألة انفصال الدين عن السياسة هي حقيقة واجهتها الثورة الإسلامية في إيران ولم تستطع التغلب عليها، وأن الأفكار الإصلاحية النسبية للدكتور سروش تعني أن الإسلام يقبل الإصلاح (وبطبيعة الحال العلمنة)، وأن التوليفة بين الإسلام والغرب تتم من خلال علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية، وتعتبرها هي المرحلة المستقبلية، أننا إذا ضممننا الحقيقتين الماضيتين: (حقيقة أن النفس الإسلامي هو الطابع العام للعالم الإسلامي) و(حقيقة أن الإسلام لا يمكن فصله عن الحياة)،

عرفنا بوضوح بطلان كل المساعي لعلمنة العالم الإسلامي. وليت الكاتبة عمقت قولها السابق بأن النظام الديني مهما كان لا يجتمع مع العلمنة وادركت بالتالي ماقلناه، اللهم إلا أن نسلب الإسلام صفة النظام ونبقيه مجرد تعاليم أخلاقية سطحية وهذا ما لا يمكن تحقيقه. إن للإسلام رايه في كل السلوك الإنساني وأن كل من عرف الإسلام أدرك أنه مامن واقعة إلا والله فيها حكم أو فيها كتاب وسنة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام ١. ولا يمكن أن

١. أصول الكافي ج ١ باب الرد إلى الكتاب والسنة - ح ٤ ص ٥٩.

يكون الإنسان مسلماً حتى يلتزم بأحكام الإسلام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>١</sup>.

### النقطة الثالثة:

إن الصحو الإسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة الماضية (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته. فالإسلام دين التقدم، يدعو إلى العلم بثتى، أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقق كل عناصر القوة، وإن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الأمم، وتكون في الطليعة الحضارية للناس والتخلف حالة غير طبيعية مطلقاً.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة والشعارات والعبادات واحدة، وثورات الأمة هي ملك كل الأمة وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة لابل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة. أما الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالماً أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة - كما قلنا - فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة باي تعريف جاءت، واية صفة اتخذت إيجابية أم سلبية اما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجرد خداع لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركز على عنصر (التفوق) ونقول إنه سر الصراع. ولكن الذي يجب التركيز عليه أن الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمل على تطوير الحياة الإنسانية في كل المجالات إذا اتخذ منحى إيجابياً تنافسياً. كما يؤدي كغيره من العوامل

الطبيعية إلى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامل الغربي مع المسلمين. إن الصحوة الإسلامية إذن تدعو للتفوق الإسلامي الحضاري فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأنى لهذه الروح أن تسود. أما عن عوامل هذه الصحوة فلا تتوقع للكاتب أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد وتغير العلاقات وأمثالها.

اننا نتصور هذه العوامل - على ضوء دراساتنا للساحة - كما يلي:

أولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشدد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعدان اعطتها معاملها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مر بنا القول إن كل أساليب التمييز سوف تبقى آثارها وقتية لأن الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكاتبه تتردد في اشارتها لهذا العامل فتارة تعترف به (انظر مثلاً البنود ٤، ٦، ٧، ١٣، ١٩، ٢٦) وأخرى تحاول أن تقلل من اهميته (لاحظ مثلاً البنود: ١٢، ١٣، ١٤، ٢٠، ٢٦، ٢٨).

ثانياً: اشتداد الحملة الاوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافييين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولا ريب أن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برد فعل قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه.

ولانريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح ابعاده، ووضوح حقيقة أن الاحتلال يستتبع المقاومة بشتى الوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال السوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفر فرصة لنمو الصحوة الإسلامية بشكل واسع وانطراح الاحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانينات.

ثالثاً: فشل كل الحلول والاطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الاطروحة القومية الضيقة رغم التطويل والتزوير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على اسس الحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضاً لأنه أيضاً تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن اية إضافة معرفية.

وهنا اود الاشارة بشكل وافر إلى التحليل الرصين الذي كتبه أستاذنا الشهيد الإمام محمدباقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: (ان الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود افضل وكيان ارسخ واقتصاد اغنى وارفه سوف لن تجد امامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقاً واحداً للتحرك وهو التحرك في الخط الإسلامي)، ويضيف (حينما اخذ العالم الإسلامي يفتح على حياة الإنسان الاوربي ويزعن لامامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسائلته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن إطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الاوربي حين قسم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني)، وبعد أن ذكر أن العالم الإسلامي ظن أن الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت اما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين مايرره. بعد هذا راح ينتقد اولئك الذين يغفلون - عند محاولتهم تطبيق خطة ما - العامل النفسي للامة (فلا بد للامة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب) وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية (ليست

إلا رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الاجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة، لأن هذا الإطار القلق ليس إلا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الاجنبي)... ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية) ويقول بالتالي: (وبالرغم من أن دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالإطار العربي فإنهم اكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها وهي أن الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة إلا على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين انفسهم) ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الاطروحات (ان هذه القوة مهما قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي لا يزال لها اثرها الكبير في توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء)<sup>١</sup>.

ونعود إلى الكاتبة لنجدها أحيانا تشير لهذا العامل حين تؤكد أن العلمانية حققت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالإسلام هو الحل. رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الاثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو اعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر عليه السلام.

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال امرحوم السيد الأسترابادي (الأفغاني) - وإن حاولت الكاتبة التشكيك في اخلاصه - والمرحوم محمد عبده - وقد شككت فيه أيضاً بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة - والمرحوم الميرزا النائيني والمرحوم كاشف الغطاء والمرحوم الإمام الخميني والمرحوم سيد قطب والمرحوم الإمام الصدر والمرحوم المطهري والمرحوم الغزالي والمرحوم البهشتي وغيرهم كثير.

١. اقتصادنا - المقدمة.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في اذكاء هذه الصحوة من قبيل:

- ١- تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة.
- ٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي.
- ٣- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.
- ٤- توفر بعض اجواء الحرية في العالم الإسلامي.
- ٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.
- ٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على اسس إنسانية.
- ٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كاحراق المسجد الاقصى أو هزيمة عام ٦٧.
- ٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وانتصار المجاهدين الافغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له. ومن الجدير بالاشارة اليه أن نقول:

إن الغرب لم يأل جهداً في اجهاض الصحوة، ومقابلتها، والهائتها واتهامها بشتى التهم من قبيل (التخلف والرجعية، والتطرف والأصولية، والعنف والإرهاب، والعمل ضد الديمقراطية - والحرية، وضرب حقوق الإنسان) ولم يعدم من قدم له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً إرهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الإنسان. ولكن الواضح تماماً أن هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحوة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه، وهو أمر تقرّ به الكاتبة بكل وضوح.

#### النقطة الرابعة:

ونركز فيها على مستقبل الصحوة الإسلامية هذه.

والصورة التي قدمتها الكاتبة صورة قائمة تنسجم مع توجهاتها المنسجمة عموماً مع

طموحات الغرب نفسه. إنها صورة تتلخص في إبعاد التأثير الإسلامي عن الحياة، وتمزق مواقف الدول الإسلامية باعتبار اختلاف المصالح الضيقة لها، واستدامة عملية العلمنة رغم أن ذلك لن يحل المشكلات مادام العالم الإسلامي راغباً في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب، (وكأنها تعتبر أن الأفضل لهذا العالم الإسلامي أن يستسلم لقدره، ويقبع في خانة العالم المتخلف، وكانها أيضاً تحذر الغرب نفسه من السماح للعالم الإسلامي للحصول على موقع متقدم، وقوة منافسة لأن ذلك سيزيد من تحدياته أي العالم الإسلامي للغرب وطموحاته، في حين أن بقاءه عالماً متخلفاً يعطيه فرصة التسامح!!).

هذه هي الحصلية التي تتوصل إليها في نهاية الكتاب.

والحقيقة هي أن هذه الآراء هي قناعة الكتاب المعتدلين إلى حد ما في الغرب اما المتطرفون فما زالوا يرددون آراء، (وليم جيمس) و(هنتنغتن) في ضرورة التعامل مع العالم الإسلامي معاملة الغابة، وضربه بكل قسوة وعدم التعاون معه.

ولكننا نختلف مع توجهات الكاتبة تماماً.

اننا نلمح في الافق السمات التالية:

اولاً: اتساع حركة الصحوة الإسلامية وتجذرها بحث لا تنفع معها أساليب الحذف أو التحريف.

وإذا أردنا أن نستدل لهذا التوقع، وتجاوزنا المسألة العقدية التي نؤمن بها دون أي شك، فانا نشير إلى مظاهر الصحوة التي تعم العالم الإسلامي من ارتفاع مستوى الأمل لدى جماهيرنا الإسلامية، وانتشار التقاليد الإسلامية كالحجاب وأنماط التعاون والعبادات انتشاراً واسعاً، واتساع حركة المطالبة بتطبيق الشريعة في كل الحياة، وتشكل المنظمات الإسلامية ودخولها إلى الساحة السياسية والاجتماعية بكل قوة، وانهمام الفكرة العلمانية مرحلة، بعد مرحلة زوال الأمل بغير الإسلام على الساحة الفلسطينية وأمثالها من سوح، المقاومة واتجاه النخبة والجماهير نحو ثقافة الوحدة والتقريب، والسعي الحثيث على كل المستويات لنبدأ التخلف، وغير ذلك.

ثانياً: اتجاه الدول الإسلامية نحو التعاون الاكبر، والعمل على وضع آليات جديدة لتفعيل المؤسسات الشمولية واحساسها جميعاً بالخطر المشترك.



ولا نريد أن نكون متفائلين أكثر من اللزوم ولكننا ندرك هذه الرغبة لدى القسم الأكبر، ونرجو أن تتحقق خصوصاً وأن المسألة لم تعد بيد الحكومات وحدها فالعصر عصر الجماهير. ثالثاً: ارتفاع مستوى أهمية العالم الإسلامي في مختلف المجالات. صحيح أنه أحياناً لا يدرك هذه الأهمية ولكنها حقيقة قائمة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها فلدى هذه الأمة.: الكم البشري الهائل، والقدرات الإستراتيجية الفريدة والمواقع الجغرافية المتحمكة، والعقول العلمية المتقدمة، وفوق كل ذلك لديها الطاقة الحرارية والحضارية الإسلامية التي لا تنضب.

### النقطة الخامسة:

لا نرى أن العلاقة تدور بين أحد أمرين فإما أن نحكم القيم فلا مجال للتصالح، وإما أن نحكم المصالح فيجب أن نستبعد القيم وإنما نعتقد أننا نستطيع الاحتكام إلى كلا الأمرين معاً. ولكي يتضح الموقف ينبغي التفصيل إلى حد ما في الموضوع تحت العنوان التالي:

### القيم الإنسانية المشتركة تنظم مسألة الحوار

وقد لانجد أنفسنا بحاجة إلى إعطاء تعريف لهذه القيم ولكن شيئاً من التوضيح ضروري في هذا المجال.

فإن المراد بالقيم ليس تلك التي يؤدي إليها التعبير اللفظي (أي الأشياء التي يقيمها الإنسان ويحترمها بل المراد منها معنى ادق وهو (الأمر التي ينطلق الإنسان من ذاته أو من ركائز عقيدته ليعطيها قيماً معنوية مطلقة تؤثر من خلالها على كل مسيرته الحياتية).

وبهذا يمكن القول أن دور الإيمان، أو عدم الإيمان بهذه القيم كبير جداً في الحياة الحضارية للإنسان. بل يمكن قياس مدى تحضر أي مجتمع بمدى علو قيمه المطلقة التي يؤمن بها.

فاذا فقد أي مجتمع الإيمان بقيم مطلقة فهو لاحالة سوف يفقد صفته الإنسانية، لأن هذه الصفة - كما سنبين ذلك - تلازم هذا الإيمان، ولم يعد قادراً على التعامل مع الواقع، ولا الابداع في تطويره، لأنه لا يمتلك اية صورة عن منطلقه، ولا عن مصيره ولا عن معالم ثابتة في مسيرته بين (المبتدأ) و(المنتهى)، وبالتالي لا يملك اية روابط تنظم حركته وتربطها بالكون والوجود، وإنما هو متحرك ضائع في عشوائية وهباء.

ومن هنا نجد يطلق لذاتيه العنان، فيقتل ويسلب ويفجر دونما أي رادع. فعدم الإيمان بالمطلق من أكبر علل الدمار والاجرام والضياع.

كما أن الإيمان بـ(القيم الوهمية، أو النسبية) لا يقل تدميراً لحياة الإنسان عن حالة عدم الإيمان بآية قيم. ذلك أن هذا الإيمان- كما يعبر أستاذنا الإمام الشهيد الصدر- (يصبح سبباً في تطويق حركة الإنسان وتجميد قدراتها على التطور والابداع، وأقعد الإنسان عن دوره الطبيعي المفتوح في المسيرة ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾<sup>١</sup>).

وهذه حقيقة صادقة على كل الآلهة التي صنعها الإنسان عبر التاريخ، سواء ما صنعه الإنسان في المرحلة الوثنية من العبادة، أو في المراحل التالية، فمن القبيلة إلى العلم نجد سلسلة من الآلهة التي اعاقت الإنسان بتأليهها والتعامل معها كمطلق عن التقدم الصالح)<sup>٢</sup>. بعد هذا نقول:

كيفما عرفنا الحضارة فإنه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانية - بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية - هي أهم مقوماتها بلا ريب. ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا إذا اتسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر ادراكات الوجدان، وبلا حاجة إلى استدلال، تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشاركة، فلا يمكن أن نفترض النسبية في كل شيء ثم نفترض وجود خصائص إنسانية فإن ذلك يستبطن نوعاً من التناقض:

مفاده: الاعتراف - من جهة - بأن الإنسان له هويته المتفردة جزئياً - إن لم يكن التفرد كلياً - ورفض أي تمايز إنساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة أخرى.

فما هي هذه السمة الثابتة المميزة؟

إن الجواب الوجداني (ونؤكد على وجدانيته لأن ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

١. الاسراء: ٢٢.

٢. الفتاوى الواضحة ص ٧٥٤ - طبعة قم إيران.

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق إلهي اودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطيبته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وكل الحضارات والمذاهب والأديان إنما جاءت لتشير له دفائن العقول - كما يعبر الإمام علي عليه السلام - وتبهي الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجباء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات. أما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلا دخل في طريق مسدود لأن الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملاساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. إن هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وابداعه ونموّه.

وأما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال: ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته - فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح أيضاً أن مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار) و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لأنهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الإيمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه ولا يتصل إلا بصوره الذهنية - كما يعبر جورج باركلي - بل يمكن القول بأنه لا يستطيع الإيمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء. وبدونها فكل حديث عما مضى إنما هو حديث بلا معنى كما نتصور. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكد على (الفطرة) وأن الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لأنها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لأصلاح الإنسان يقول تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾<sup>١</sup>. وهذه الآية الكريمة تقرر كما يقول الإمام الشهيد الصدر<sup>٢</sup> في كتابه اقتصادنا (ص ٣١٢):

أولاً: إن الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: إن هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلا الدين الحنيف الخالص اما أديان الشرك والإيمان بالالهة الوهمية النسبية فهي لا يمكن أن تحل المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾<sup>٢</sup>.

وثالثاً: إن الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيمياً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطارها العام.

١. الروم: ٣٠.

٢. يوسف: ٤٠.

ذلك أن المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لأن يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً في الحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة) وهذا التناقض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم أن يحلّه، فإن علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدم الحلّ ويبقى للدين الحل النهائي لهذا التعارض وتحقيق العدالة وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير إذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>١</sup> ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾<sup>٢</sup>. وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر رحمته الله:

فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخرى تزود الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التدين<sup>٣</sup>.

ونضيف إلى ماسبق أن الإنسان بفطرته يطمح إلى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه إلى الأفضل باستمرار. فهذا من نوازع الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً ولكنها لن تنمحى من صفحة الذات وهو مجهز بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصور الحالة الأفضل تصوراً إجمالياً - وربما كان تفصيلياً - ثم العمل على تغيير الواقع إلى الصورة

١. غافر: ٤٠.

٢. فصلت: ٤٦.

٣. اقتصادنا، ص ٣١٠ - ٣١٢، طبعة مشهد.

المفروضة. وهي حالة لا يتمتع بها أي حيوان آخر. ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غير الإنسان من الموجودات.

وهكذا يمكن أن نقرر أن العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها إلى الإيمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

أولاً: في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل.

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام أفكارهم.

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والافتناع.

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً: في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

### خلاصة الأمر:

إن هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

### القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

أنا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدهنا في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم احدهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل) مما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المجموعة الأولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين والسلام والأمن، التغيير إلى الأفضل، الرحمة، الايثار، الامانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك السلام أحيانا بما يؤدي إليه من جرأة على حرمان الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

**الأول:** معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير ولا يخذع الإنسان وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

**الثاني:** معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها أو فلنعتبر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة - آية قناعة كانت - من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرة لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وازمتهم وأمكتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان (هل تعتبر أن السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً) فمثلاً لتركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهيه) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب والقرآن الكريم أحيانا يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعاته الفطرية حينما يقول: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾<sup>١</sup> ويترك أمر تعيين الطيبات له، ويقول ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي

الْفَوَاحِشُ ﴿١﴾ ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٢﴾.

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة وهي:

إن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأن الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً إذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

### القيم والمصالح تنظم العلاقة بين اتباع الديانات والثقافات وتبلور النظم الدولية

بعد أن تم عقد اتفاقية (وستفاليا) عام ١٦٤٨ في أوروبا طرح مفهوم النظام العالمي وكان يقوم على مبدأ (توازن القوى) لمدة ٢٥٠ عاماً، وبعد الحرب العالمية الأولى قام نظام (الأمن الجماعي) وجاءت الحرب العالمية الثانية فأفرزت نظام القطبين والحرب الباردة بينهما. ولكن قيام المؤسسات الشمولية في العالم الإسلامي في أواخر الستينات كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في إيران، وانتشار المطالبة بتطبيق الإسلام في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الإسلامي، بحيث اوجد صحوة إسلامية كبرى، وما تبع ذلك من هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وبالتالي انهياره تماماً، كل ذلك دفع بعض الدول العظمى كأمركا لتغيير إستراتيجياتها للتخطيط لنظام القطب الواحد واعتبار الإسلام هو العدو الأول، كما دفع بعض المفكرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية وأسلوب التعامل بين الحضارات، كما دفع بعض ذوي النظريات المتطرفة إلى العودة إلى نظريات تقسيم العالم إلى متحضر ومتوحش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكانها، وأنه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الإنسانية. وفي قبال ذلك طرحت نظريات في الجانب الإسلامي تراوحت بين التناقض الكامل بين الإسلام والغرب والانسجام بينهما ومحاولات التوفيق.

١. الحشر: ١٩.

٢. الأعراف: ٣٣.



وقد انجزت أعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال.  
وقد كانت المحاولات تنصب على عناصر مهمة في مجال تبين سبب ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومنها ما رايناه من محاولة الكاتبة (هنتر) ارجاعها إلى مايلي:  
١- مسألة انقسام المجتمعات الإسلامية إلى خطوط ثقافية ثورية أو رجعية وصراع هذه الخطوط.  
٢- مسألة سعي الغرب أو الحكومات الموالية له إلى تهميش العنصر الإسلامي والمظاهر الإسلامية.

٣- عمل المفكرين الإسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الإنساني وحقوق الإنسان لغرض إثارة الحماس في العالم الإسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الإسلامي الغربي إلى فريقين:  
الأول: من يرون أن مجال التصالح بين الغرب والإسلام مغلق ونفقه مظلم، لأن السر يكمن في أن الإسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش أو ما يسمونه بالانسجام مع الحداثة أو التغريب. وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد<sup>١</sup>، أما نحن فيمكن أن نسميهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي ينعى على مخالفه تساهلهم في الأمر ويسميهم (الاعتذاريين) ويرى أن عملية الاحياء الإسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الإسلام والديمقراطية (أن المسألة ليست الديمقراطية بل الطبيعة الأصلية للإسلام<sup>٢</sup>).

ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصور العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية.  
الثاني: يرى امكان التعايش نتيجة حيوية الإسلام وقدرة التجربة الإسلامية على التغيير والتكيف، كما يرى أن الانبعاث الإسلامي ناتج لا من قدرات الإسلام الذاتية، بل من الحرمان الاقتصادي والسياسي والاستلاب الاجتماعي أيضاً وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى أيضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول:

١. مستقبل الإسلام والغرب صدام حضارات ام تعايش سلمى: ص ٩٦.

٢. الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢.

(نحن نشهد الوجه الثالث لعملية ازالة الاستعمار. فالوجه الأول كان سياسياً كحركات الاستقلال، والثاني اقتصادياً كتأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر اما الوجه الأخير فهو ثقافي<sup>١</sup>). ويدعو هؤلاء إلى سياسة التعامل بإيجابية وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم الثالثين<sup>٢</sup>، واسميهم ب(مفكري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكرين الإسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت انعى على الأولين بعدهم عن فهم طبيعة الإسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإني انكر على اتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الأصل، ومدى قدرة الإسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الإسلام.

وإذا اراد المفكر الغربي أن يلبس لبوس الواقعية فإنه يحاول أن يدعو الغرب إلى شيء من الأخلاقية إلى جانب دعوته العالم الإسلامي للتنازل عن قيمة الأصيلة كلها تقريباً. وهكذا نجد الكاتبة شيرين هانتر الغربية تدعو الغرب إلى شيء من التدين وتدعو العالم الإسلامي إلى العلمانية لئتم حل المشكلة<sup>٣</sup>.

وكان الأمر يدور بين حالتين فإما أن يتنازل الإسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليائسون والتوافقيون، أو يوصف بأنه العدو الحضاري على طول المدى للغرب. ولنصور هذه الثنائية الحدية بشكل آخر، فإما أن يكون معيار الصراع القيم فلا تلاقي في البين، أو يكون المصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

ولكي انتقل بالبحث من التعامل الإسلامي الغربي إلى التعامل الإسلامي المسيحي واليهودي في حركة الواقع اليوم - وهناك من سحب الواقع الغربي على كل الساحة المسيحية - أبدي الملاحظتين التاليتين:

١. Paris: Editions La Decouverte (١٩٩٥), ١٠٧.

٢. مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.

٣. مصدر سابق.

### الملاحظة الأولى:

إن هناك خلطاً واضحاً أحياناً بين الإسلام كمنظومة قيم والمسلمين كامة تعتنق الإسلام، فالواقع التطبيقي للإسلام ولمسيرة الأمة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الإسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلاً اعتبار تصرف حاكم معين مثلاً منطلقاً من الثقافة الإسلامية حتماً، خصوصاً وأن الحكم الإسلامي ابتلي بفترات استبداد وبعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون انفسهم، كما أن القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه بل أن محاولات التخلص حتى من النفس المسيحي معروفة وهكذا قل عن التصرف السياسي الصهيوني فهو لا يعبر بالضرورة عن التعاليم اليهودية الأصيلة وإلا كان علينا أن نبرر كل الفجائع التي ترتكبها اسرائيل اموراً يبررها هذا الدين وهو ما يخالف الواقع.

إلا أننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن روح القيم الإسلامية هي التي تحرك التيار العام في العالم الإسلامي حتى لو افترضناه علمانياً، كما أن الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية وهكذا تترك اليهودية بصماتها بقوة في التصرفات الاسرائيلية. ولكن هذه الأديان أي (الإسلام والمسيحية واليهودية) تبقى مصنونة عن أي انحراف في العالم الإسلامي والغربي وفي اسرائيل لا يمت إلى قيمها بصلة.

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة أو في مجال التعايش في الغرب عنهما في العالم الإسلامي حتى أن المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والارمني الإيرانيين أو القبطي والمسلم المصريين.

وبالتالي نقول إن الحوار الإسلامي المسيحي اليهودي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارات.

### الملاحظة الثانية:

اننا لا نجد انفسنا محصورين في الزاوية الضيقة فيما أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع، أو نلجأ إلى المصلحة فتُسحق القيم ويتم التعايش - والمفروض أن التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات.. أن هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الإسلامية الغربية وأكثر بطلاناً على صعيد العلاقة الإسلامية المسيحية - اليهودية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الإسلام والغرب يمكنهما أن يتفاهما عليها دون التنازل عن القيم. من أمثال (حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الإرهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية ودعم العدالة ورفض الاستبداد ونشر الحرية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

أما المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ففيها اتساع ملحوظ. فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدر بثمن فإن الملاحظ للنصوص الإسلامية يجد كما كبيراً من النقل عن عيسى عليه السلام واهم الطاهرة وموسى عليه السلام نقلاً يوجه الحياة وينقيها. وكمثال على ذلك نجد الشيخ الكليني وقد توفي في اوائل القرن العاشر الميلادي في كتابه المعروف (الكافي)<sup>١</sup> ينقل نص مناجاة الله (عز وجل) لعيسى كأروع ما يكون حيث يبدو كما يعبر محمود ايوب (عبداً متواضعاً لله، لكنه في الوقت عينه ولي مقرب عند الله) ثم يعقب فيقول: (من خلال مفهوم التجلي الإلهي هذا تلتقي صورتا المسيح الإسلامية والمسيحية حول نقاط عدة: فالإسلام يؤكد أن في مقدور الإنسان، بل من واجبه أن يتقرب إلى الله والتقرب إلى الله يتضح جلياً في معراج النبي محمد صلى الله عليه وآله حيث وقف امام الله مباشرة وصعود المسيح ليجلس عن يمين الله) ورغم وجود بعض النقاش في هذا النص إلا أنه يكشف عن تلاحم بين التراثين.

وقد تحدثت النصوص الإسلامية في مختلف المصادر عن أمور كثيرة منها:

أ- عظمة عيسى المتجلية يوم القيامة.

ب- زهده ومواعظه الكثيرة.

ح- ادعيته ومناجاته.

د- سيرته بين الناس، وفيها تذكر مكارم أخلاقه وخطبه وكلماته.

هـ- ما أوحى الله سبحانه إليه.

و- درر كلامه وحكمه.

١. روضة الكافي، الجزء الثامن، ونقله عنه ابن شعبة الحراني في آخر كتاب (تحف العقول) وتحدث عنه بالتفصيل البروفيسور محمود ايوب في كتابه (دراسات في العلاقات المسيحية الإسلامية) ج ١، ص ٦٤.

ز- قبسات من الانجيل.<sup>١</sup>

### تعامل الرسول الأكرم ﷺ مع المسيحيين:

من المسلم به انه ﷺ كان يتعامل بمنطق الحوار البناء، واكتشاف المساحة المشتركة والتعاون في توسعتها، عبر طرح مختلف الآراء. وهذا بالضبط ما اراده القرآن الكريم حين قال: قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.<sup>٢</sup> ولم يكن يخرج عن هذا الخط مطلقاً، فكان يوصي قاداته بمسألة الدعوة قبل أي شيء. والمستفاد من القرآن الكريم أن لقاء الرسول ﷺ بنصارى نجران في المدينة كان مفصلاً وربما دام عدة أيام، وقد اكد الطبري في تفسيره أن أكثر من ثلاثين آية من سورة آل عمران تنظر إلى وقائع هذا اللقاء.<sup>٣</sup> في حين أن ابن اسحق يصل بها إلى أكثر من ثمانين آية من هذه السورة<sup>٤</sup> وهذا يعني أن حواراً مفصلاً دام بين المسلمين والمسيحيين الذين ضم وفدهم أكثر من ستين شخصية.

ويستطيع المورخ المحقق أن يقطع انه ﷺ لم يتعامل مع المسيحيين تعاملًا خشناً يؤدي إلى صراع، وربما كان من اسباب ذلك أن المسيحيين كانوا دائماً ملتزمين بعهودهم ومواثيقهم التي عقدوها مع الرسول الكريم ﷺ. وهكذا اطنبت النصوص في ذكر موسى عليه السلام وذكره القرآن الكريم في مواضع كثيرة فكانت قصته أكثر القصص<sup>٥</sup>، ولكن تعامل المسلمين مع اليهود اختلف عنه مع المسيحيين لأن اليهود لم يتقيدوا بالمعاهدات.

على أن هناك تلاقياً بين الأديان الإبراهيمية في مجالات كثيرة منها:

١. يراجع كتاب (المسيح في الروايات المشتركة بين الشيعة والسنة) باشراف كاتب المقال.

٢. آل عمران ٦٤.

٣. جامع البيان للطبري ج ٣ ص ٢٢٠.

٤. السيرة النبوية لابن اسحاق ج ١ ص ٥٧٦.

٥. راجع كتابنا (نظرات في علوم القرآن) ص ٢٥٥ فما بعد.

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الإيمان بالفطرة الإنسانية المبدعة.
- الإيمان بمنظومة أخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الإيمان بحقوق الإنسان.
- الإيمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.
- الإيمان بضرورة احياء الذكريات المصيرية والاعیاد التاريخية والدينية.
- الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.
- الإيمان بالحياة الإلهية المسجدية أو الكنسية.
- الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الإنسانية.
- الإيمان بمنظومة من العبادات والادعية والصلوات المزكية للنفس.
- الإيمان بمنظومة من الاطعمة والأشربة المحللة.
- الإيمان بمنظومة من الطهارات والنجاسات.
- وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على أن المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي

هذا التعايش؛

إن التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصب، والانهيار الأخلاقي، واشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الإرهاب بشتى أنواعه ومنه الإرهاب الرسمي، ورفض ادعاء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية ويتسترون بالدين، ورفض الاستكبار والحروب المدمرة والاعتداء على الآخرين وكذلك رفض أساليب القتل الجماعي بالاسلحة المدمرة إلى ما هناك من مجالات وربما كان من أهمها محاربة المادية وملء الفراغ المعنوي والأخلاقي، وغيرها كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البناء.

ولايفوتني في الختام أن انوه بكتاب صدر مؤخراً لأستاذ أمريكي هو ريتشارد بوليت بعنوان (دفاعاً عن مقولة الحضارة الإسلامية المسيحية) طارحاً هذه المقولة في قبال مقولة

(صدام الحضارات) مركزاً على المساهمات المشتركة بين الحضارتين في المسيرة البشرية العامة موضعاً أن الفارق الزمني بين بدئهما، والنزاعات المستمرة بينهما لا يشكلان مانعاً من تلاهما الحضاري، وحتى فارق التطور المادي بينهما ما بين ١٦٠٠ - ١٩٠٠ م يتعادل بتقدم العالم الإسلامي بشرياً بنسبة ٥٠٪ في قبال ٢٠٪ ليخلص إلى النتيجة التالية فيقول:

أما إذا نظرنا اليهما كوحدة واحدة ومن ضمن إطار تاريخي، فإن العالم الإسلامي المسيحي لديه ما يجمعه أكثر مما يفرقه - فماضي الغرب ومستقبله لا يمكن فهمهما بشكل كامل دون تقدير العلاقة التوأمية التي ربطته بالإسلام طوال اربعة عشر قرناً. والملاحظة نفسها تنطبق على العالم الإسلامي. أن مسألة الحضارة الإسلامية - المسيحية كمبدأ تنظيمي هو بالنسبة إلى الفكر المعاصر مسألة متجذرة في الحقيقة التاريخية على مر هذه القرون. وقد يتمنى الواحد منا أن يرى مؤرخو الحضارة الغربية وحضارة الإسلام قيمة تعديل نظراتهم كي يأخذوا هذه الحقيقة بالحسبان... أن الحضارة الإسلامية المسيحية هي مفهوم نحتاجه بشدة إذا كنا سنحوّل يوماً تراجيدياً مشهوداً<sup>١</sup> إلى لحظة تاريخية للاستيعاب والتكامل الاجتماعي والديني<sup>٢</sup>.

ويقول عنه الأستاذ محمود حداد مترجمه مايلي:

(ولم يتفق الجميع مع اطروحة هانتغتن بل خرج كثير من المثقفين عن هذا الخط الفكري معلنين ضرورة حوار الديانات والحضارات وضرورة التعايش لا التقاتل في ما بينها إلا أن الكتاب... يقول إن الإسلام والمسيحية شكل حضارة واحدة من الناحية الاجتماعية<sup>٣</sup>. والكتاب رغم بعض النقاط التي نخالفه فيها جدير بالمطالعة.

### احداث ١١ سبتمبر والهجمة ضد الأمة الإسلامية

لا يتردد عاقل أو متدين في أن احداث ١١ سبتمبر هي عمل إرهابي مدان وأنه عاد على البشرية بالفساد الكبير، وأنه دفع بقوة عظمى نحو خطة جهنمية تسلطية تستهين بكل القيم

١. يقصد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

٢. الكتاب المذكور ص ٥٥ - ٥٦.

٣. ن. م ص ١٠.

وتتجاوز كل الأعراف الإنسانية والمعاهدات الدولية لتفرض هيمنتها على الشعوب بل وتفلسف هذا الاعتداء وتعتبره أخلاقياً.

وهكذا شهدنا الإستراتيجية الأميركية التي تم وضعها في التسعينات بعد تعاظم أمر الإسلام الشمولي من جهة وانهار الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى والتي وضعت مسألة محاربة ما اسمته بـ(الإسلام المسلح) أو (الإسلام السياسي) أحد أهدافها الكبرى بالإضافة لهدف التفرد في قيادة النظام العالمي الجديد؛ نعم شهدنا التأكيد على هذه الإستراتيجية والاسراع في وتيرتها وخصوصاً ضد الأمة الإسلامية وكان التأكيد على خطة واسعة الابعاد نشير فيما يلي إلى بعض جوانبها:

أولاً: التشكيك في قيم الحضارة الإسلامية ومفاهيمها وهناك الكثير من الأمثلة التي طالعنا الغرب بها، كتفضيل الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية من قبل مسؤول ايطالي، وتفضيل العقيدة المسيحية في الصفات الإلهية على العقيدة الإسلامية. والحملة ضد مفاهيم الجهاد وتصورات الإسلام لحقوق المرأة وغيرها.

ثانياً: تعميق الحقد الغربي والعداء للإسلام وكل ما هو إسلامي ومهاجمة المساجد والمراكز الإسلامية والتضييق ضد الاقليات المسلمة وتوجيه اصابع الاتهام حتى للدول التي كانت تعتبرها صديقة لها، وبالتالي العمل على منع الهجرة حتى القانونية رغم حاجة أوروبا للهجرة.

ثالثاً: مهاجمة بعض الشعوب الإسلامية بشراسة بتهمة ايوائها للإرهابيين وهذا ما حدث لأفغانستان الجريحة ومازالت بعض الشعوب الإسلامية مهددة.

رابعاً: الحكم على بعض الدول الإسلامية بانها محور الشر وما زال الخطر يتهددها كل آن، كما أن بعض الجهات شبه الرسمية هددت باستخدام القنابل الذرية ضد بعض الدول.

خامساً: تم التخطيط لحملة إعلامية وبوليسية ضخمة لضرب المؤسسات المالية الإسلامية والمؤسسات الخيرية الدعوية وتم الضغط على الدول لتغلق هذه المؤسسات.

سادساً: كما تم التخطيط لضرب المؤسسات التعليمية الإسلامية وافقادها استقلالها كما

١. راجع نص الوثيقة التي اصدرها ٦٠ من المنظرين الاميركيين وقد قام بعض المفكرين الإسلاميين من شتى الدول بالرد عليها.



تدخل الغرب بوقاحة لدى الدول الإسلامية لتقوم بتغيير مناهجها التعليمية وفق ما يرتئيه الغرب من تصور.

سابعاً: وهناك خطوات نلاحظها لتهميش دور المؤسسات الإسلامية الدولية.

ثامناً: تصعيد الحملة التي بدأها الغرب بنفسه أو من خلال عملائه قبل الأحداث في مجال نشر المفاصد الأخلاقية والخلاعة والتحلل والاستهانة بالمقدسات واضعاف اللغة العربية وترويج العمالية ومحاربة الحرف العربي (كما في اسيا الوسطى) وإشاعة العلمانية وتعميق الخلافات بين الدول الإسلامية وتداخلها ومحاربة عنصر (الاجتهاد) والتشكيك في صلاحية الإسلام لهذا العصر وضرورة الاتجاه نحو تطبيق قيم الحضارة الغربية وغير ذلك كثير.

تاسعاً: وأهم الجوانب محاولة اغلاق الملفات المزعجة وفي طليعتها قضية فلسطين فقد اعطت أميركا الضوء الأخضر لشارون ليقوم بتصفيته واستفاد هذا من ظروف الرعب وجعل عملياته ضد الفلسطينيين جزءاً من المرحلة الثانية للحرب ضد الإرهاب وقام بما يندى له جبين الإنسانية وساعدته أميركا بكل وقاحة وصراحة ونسى الغرب كل تاريخه في تمجيد المقاومة وكل شعاراته في الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والشرعية الدولية وحتى جنایات العدو الصهيوني في مخيم جنين لم تستطع الأمم المتحدة رغم صدور قرار بذلك أن تحقق فيها وهي في الأصل واضحة للعيان وموثقة ومشهود لها من قبل شخصيات دولية.

### الموقف الصحيح على المستوى الدولي

وكخطوة إستراتيجية من اجل ردع الإرهاب بكل اشكاله ومضامينه ومصادره، نرى ضرورة قيام منظمة الأمم المتحدة بالتصدي لهذا المشروع وتبنيه، شريطة إحداث آليات جديدة تحول دون قيام الدول الكبرى بحرف المشروع باتجاه مصالحها الخاصة وممارسة الضغوطات على المنظمة لتسير طوع أهدافها الاستكبارية. ومن هنا يمكن لمنظمة الأمم المتحدة أن تكون مرجعاً عالمياً للحملة الشاملة ضد الإرهاب وفرض السلام العادل في الأرض. ونرى أن مقدمات هذه الحملة تتمثل في:

١- المساواة في الحقوق والواجبات بين الدول العضوة في منظمة الأمم المتحدة، ومنع هيمنة دولة أو أكثر على قراراتها، ولا سيما ما يرتبط بالآلية غير العادلة التي يضع مجلس الأمن

الدولي قراراته من خلالها. فهذه الآلية تسببت مثلاً في استمرار الإرهاب في أكثر من بقعة من بقاع العالم، ولا سيما في فلسطين، إذ استخدمت الولايات المتحدة الأميركية حق الفيتو عشرات المرات لمنع اصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يكبح جماح الإرهاب الصهيوني.

٢- رفع الظلم عن الشعب الفلسطيني والشعوب المجاورة لفلسطين، والتي تتعرض للانتهاكات والإرهاب من قبل الكيان الصهيوني.

٣- إحداث آلية دولية تمنع استمرار دعم الدول الكبرى للأنظمة والكيانات الدكتاتورية والعنصرية، وكذلك المنظمات والجماعات الإرهابية.

٤- محاربة الفقر والجهل والتعصب الأعمى والمرض وكل مظاهر التخلف وكذلك أمراض المدنية الحديثة، ووسائل الاعلام والفن التي تشجع على العنف، والعنصرية وتضعف المعنويات والقيم الأخلاقية على مستوى العالم أجمع؛ لأنها تمثل الأرضية الطبيعية التي تترعرع فيها النزعات الإرهابية.

ويتم العمل بدلاً من ذلك على:

أ- تعميم منطق الحوار بين الحضارات والأديان.

ب- تشجيع الديمقراطية المنسجمة مع القيم.

ج- المساعدة على تنفيذ برامج التنمية في العالم.

د- تقوية المنظمات الدولية وحذف عناصر الهيمنة فيها.

هـ - الارتفاع بالمستوى المعنوي والقيم الأخلاقية وتعميق دور الدين في ذلك واحترام

الادوار العائلية في عملية البناء الاجتماعي.

و- توجيه الحالة المعلوماتية لخدمة البشرية.

ز- انسنة الفن واستخدامه لصالح الأهداف العليا وغير ذلك.

٥- الحيلولة - بكل الوسائل - دون استغلال الدول الغربية الكبرى للأحداث وتحويلها إلى

صراع حضارات وحرب بين الأديان وتصفية حسابات مع بعض الأنظمة، على حساب الشعوب.

٦- تخفيف معاناة شعب أفغانستان، ودعمه بالغذاء والكساء والملجأ والدواء وغيرها من

وسائل العيش الابتدائية.

٧- استمرار الحوار بين عقلاء البشرية من أتباع الأديان والحضارات والمذاهب، وتكثيفه

وتعميقه، بهدف خلق رأي عام عالمي يمارس دوره في نشر العدالة والسلام والمحبة بين جميع شعوب العالم.

ولا شك أن السلام الذي ننشده وتنشده البشرية هو السلام العادل الذي تتكافأ فيه الفرص، ويعطى كل ذي حق حقه، وينصف فيه المظلوم، ويعاقب المعتدي، إذ أن السلام العادل هو الكفيل فقط باقتلاع جذور العنف والإرهاب، أما السلام المفروض وغير العادل فهو تسطيح للمشكلة والإبقاء عليها ناراً تحت الرماد؛ لأن المجرم يتساوى فيه مع الضحية، وتضيع جراءة الحقوق، وتكون سياسة الأمر الواقع هي الحكم. وبالتالي ستعود أعمال العنف كما كانت وربما بكثافة أكبر. وهذا ما يجعل السلام غير العادل سبباً في استمرار المشاكل وبؤر التوتر، وهو ما نشهده في أكثر من بقعة من بقاع العالم.

### الحل على مستوى الأمة

إن الحل على مستوى يكاد يكون من الواضحات ويتركز على ما يلي:  
أولاً: رفع مستوى الوعي لدى جماهير أمتنا في مختلف المجالات (فهم الإسلام وأهدافه، فهم الواقع القائم، فهم الموقف).

ثانياً: العمل على تعميم تطبيق الشريعة الإسلامية في كل الشؤون الحياتية.

ثالثاً: تطبيق عملية تربية شاملة لمختلف قطاعات الأمة وفق تعاليم الإسلام.

رابعاً: العمل بكل ما من شأنه توحيد موقف الأمة عملياً ولا نريد لهذا العمل أن يكون خيالياً كما لا نريده أن يكون استسلامياً بل يجب أن يتبع المنهج الوسطي الواقعي على ضوء الأهداف المرسومة.

خامساً: العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وإيجاد ما يلزم إيجاده ومنحها حرية أكبر في التحرك عبر آليات جديدة وفاعلة وواعدة.

سادساً: وضع خطة شاملة للاستفادة الأفضل من الامكانيات السياسية والاقتصادية والإعلامية والجغرافية والمادية والطاقات الجماهيرية والعلمية والثقافية وتعبئتها في عملية المواجهة.

سابعاً: التغافل أو تأجيل بعض النزاعات الجانبية أو الثانوية خدمة للهدف الأهم واستجابة لقضية التزاحم في الأولويات.

ثامناً: الشد من ازور الأقليات المسلمة - وتبلغ حوالي ثلث مجموع المسلمين في العالم - بالتأكد على وجودها أولاً ووحدها ثانياً وهويتها ثالثاً، وتقوية مجالات التلاحم بينها وبين الأمة الأم.

تاسعاً: التركيز على دعم مؤسساتنا الخيرية ومؤسسات الاغاثة والدعوة وعدم تركها في مهب الريح وعدم انزلاقها في مداخل الخلافات الجانبية والمذهبية والسياسية.

عاشراً: الاحتفاظ بأصالة التعليم واستقلالية المؤسسات التعليمية وعدم الخضوع للضغوط الخارجية لتؤدي دورها المطلوب على وجه أتم.

حادي عشر: الاستفادة الأفضل من المؤسسات والمنظمات الدولية الأخرى غير الحكومية لصالح قضايانا العادلة.

ثاني عشر: الوقوف بحزم وتخطيط في قضايانا المصرية وأهمها قضية فلسطين. وفي هذا المجال نقترح:

١- تضافر كل الجهود الإسلامية لافشال خطط شارون لتركيع الشعب الفلسطيني وانهاء الانتفاضة الباسلة.

٢- القيام بحملة لدعم المنكوبين وترميم الخراب وتكليف كل دولة غنية بسد جانب منه.

٣- ضرورة التأكد على كون القضية الفلسطينية إسلامية وتعبئة كل الطاقات الإسلامية لذلك.

٤- ضرورة اتخاذ كل الخطوات والاستفادة من كل الامكانات القانونية والمحافل الدولية لفضح جرائم الصهيونية.

٥- عدم السماح لأميركا للاستفراد بالقضية وأمثالها وعدم الاعتماد على الحلول الأميركية.

٦- لزوم التفكير الجدي للعودة لنظام المقاطعة الشاملة بل وتنفيذ المقاطعة الشعبية فوراً.

٧- لزوم تفعيل الدور السياسي لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا المجال خصوصاً في مجال المطالبة بتنفيذ القرارات الدولية.

٨- لزوم العمل دولياً على وضع تعريف شامل للإرهاب والتفريق بينه وبين المقاومة المشروعة.

٩- ضرورة إعطاء الغطاء الشرعي للعمليات الاستشهادية.

١٠- لزوم الاستفادة الفعالة من امكانات المنظمات غير الحكومية على غرار ما جرى في

مؤتمر (دوربان) في جنوب إفريقيا.

### للتوسع في البحث تراجع المصادر التالية

- ١- ارنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام.
- ٢- الإسلام وعصر التمدن، مجلة اشبيغل ٢٠/١/١٩٩٢م.
- ٣- برايان، السيد بيدهام، الاكونوميست اللندنية بتاريخ ٦/٨/١٩٩٤م.
- ٤- بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين.
- ٥- بن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
- ٦- توينبي، ارنولد، الإسلام والغرب.
- ٧- (جريدة فرانكفورت الجمانية)، بتاريخ ١٦/اكتوبر/١٩٩٥م.
- ٨- الحرب الباردة لأوروبا ضد الإسلام، جريدة (يولند بوستن - بلجيكا)، بتاريخ ٢٠/٨/١٣٧٣ هـ ش.
- ٩- الخربوطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي.
- ١٠- رومان، رئيس الجمهورية الألمانية، خطاب بمناسبة اهداء جائزة نوبل للسيدة ماري شمبل.
- ١١- سلمان، الأستاذ سمير، الإسلام والغرب - اشكالية التعايش والصراع، كتاب التوحيد الثاني، س ١، ط ١، سنة ١٩٩٥م.
- ١٢- سوذرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى.
- ١٣- غارودي، روجيه، (من أجل حوار بين الحضارات)، ترجمة ونشر: الدكتور ذوقان قرقوط، دار النفائس بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.
- ١٤- كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية.
- ١٥- ماريابيا، العالم الإسلامي وقضاياها التاريخية.
- ١٦- وات، مونتغمري، فضل الإسلام على الحضارة الأوروبية. وغيرها.
- ١٧- هونكه، السيدة زيغريد، شمس الإسلام تشرق على الغرب.



(٢١)

## العلاقة مع الآخر في إطار السلام من مقومات مشروع النهضة

### التغيير سنة الحياة الصالحة:

من الأمور التي أكد عليها القرآن بكل وضوح مسألة التغيير المستمر لأساليب التعامل مع الطبيعة والإنسان في إطار تكاملي يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) وذلك في سياق سلسلة من الآيات التي تهز الوجدان وتحدث عن التغيير الكوني ويقول تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وأن الله سميع عليم (الانفال: ٥٣) باعتبار هذه القاعدة درساً رائعاً من الدروس المستفادة من نتائج معركة بدر الكبرى التي غيرت تاريخ التعامل الإسلامي مع المشركين.

بل يعتبر القرآن أن الإنسان بطبيعته يدخل في مسير الخسران إذا لم يبدل كل ما في وسعه للتطوير والتغيير عبر الإيمان العميق والعمل الصالح يقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ويذكر أحد كبار المفسرين المعاصرين وهو يفسر هذه السورة المباركة بعد أن اعتبرها ملخصة لكل المعارف القرآنية، يذكر أن الظاهر هو (التلبس بجميع الأعمال الصالحة) <sup>١</sup> وهو يستفيد ذلك من دخول (أل) على مجموع (الصالحات) وفي ذلك دلالة على العموم، وطبيعي أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم

١. الميزان ج ٢٠ ص ٣٥٧.

بعمل كل الصالحات فيكون المراد أن كل أفراد الإنسان معرضون للانحطاط إلا اولئك الذي بذلوا كل امكاناتهم للعمل الصالح واستغلوا كل الفرص للتغيير إلى الافضل.

### التغيير التكاملي

وقد اكدنا أن التغيير ليس مطلوباً في نفسه وإنما هو وسيلة للتكامل أما التغيير من حالة سيئة إلى أخرى أو إلى اسوأ منها فهو رجعية وتقهر وارتكاس يرفضه الوجدان. وهنا يبدو أن مصطلح (النهضة) يتضمن مفهوم (التغيير التكاملي والحركة) بمعنى الانتقال من (القوة) إلى (الفعل) كما يعبر الفلاسفة.

ومن هنا نحن نعتبر التحرك الاوربي مثلاً من مرحلة (الحدائثة) إلى مرحلة (ما بعد الحدائثة) تحركاً رجعياً وارتكاساً في الوهم بلا من التكامل: يقول الأستاذ عبدالوهاب المسيري: (وعالم ما بعد الحدائثة هو عصر المابعديات (وسقوط كل الما قبليات بسقوط الكل المتجاوز) فهو عصر ما بعد التاريخ وما بعد الإنسانية وما بعد السببية وما بعد المحاكاة وما بعد الميتافيزيقا وما بعد التفسير وما بعد التجاوز... ) ويضيف (فاذا كان جوهر المشروع الحضاري الغربي هو التحديث فهل تعني (ما بعد الحدائثة) نهاية الحدائثة ونهاية الغرب؟ وهل يفسر هذا أن إيديولوجيا ما بعد الحدائثة التي تقف ضد العقل والمنطق والإنسان والمعنى وضد رؤية الأشياء في علاقتها الجلية مع الإنسان وضد الكل وحدوده تقف ضد كل ما هو عظيم وله قيمة في الحضارة الغربية الحديثة؟<sup>١</sup>

وهكذا يتم الكفر بالحقيقة والإنسانية والمنطق والقيم والعالم الموضوعي ودلالات الأشياء وكل الأشياء! فهل تعد هذه الحركة التخريبية نهضة؟ المشروع النهضوي:

إننا إذ ندعو إلى نهضة شاملة فإننا ندعو الى:

أولاً - العودة إلى الذات الإنسانية وتقوية مقوماتها وتركيباتها الواقعية بما يشمل: تقوية عنصر التعقل وهو سر التغيير في الحركة الإنسانية المتكاملة،

١. الحدائثة وما بعد الحدائثة ص ٨٦ منشورات دارالفكر - دمشق.



وتقوية عنصر الميول الإنسانية التكاملية وهو سر بقاء النوع الإنساني وإبداعه مما يؤدي إلى اعمار الأرض.

وتقوية عنصر الإرادة الإنسانية الحرة وهي محور المسؤولية الفردية والاجتماعية والحضارية. وتوجيه السلوك الإنساني بما يجعله ينسجم مع باقي الاجزاء المكونة لشخصية الإنسانية. وبالتالي العودة إلى الفطرة الإنسانية ولكنها ليس عودة رجعية وإنما هي عودة تقدمية تفجر طاقاتها وتثير دفائناتها - كما يعبر الإمام علي عليه السلام - وتنقلها من القوة إلى الفعل. إنها عودة إلى الذات لبنائها من جديد بعد طول اغتراب.

ثانيا: العودة إلى الذات الإسلامية:

ولا نعني أن الإسلام يضيف ذاتا مكتسبة إلى الإنسان تختلف عنها، بل نريد أن الإسلام يؤكد الفطرة ويلبسها ثوبا يناسب قدها، ويرسم لها طريقا تستطيع أن تفجر طاقاتها فيه وانه: يربي العقل ويحول الحالة الإنسانية إلى حالة عقلانية أصيلة تتقبل فيه الآخر وتتلقى أفكاره وتحاوره باروع أسلوب، وبمنطقية حكيمة، وتسعى لاكتشاف المشترك ليكون ذلك تهيئة لعمل مشترك على تجسيد الفكرة المشتركة في الواقع الحياتي ويحول العلاقات الإنسانية إلى علاقات عقلية عملية وتعتمد مبادئ ما يسمى بالعقل العملي، وتدفع نحو الحسن الفعلي والحسن الفاعلي (انية الحسنة) ونحو إقامة العدالة وتتجه نحو اقرار حقوق الإنسان وإعطاء كل ذي حق حقه وبالتالي نحو تحقيق الامان في الأرض من كل نقص واهم النقائص (الجوع والخوف).

ويربي العاطفة والميول تربية تخرجها من حالات العمى وأحيانا الطغيان إلى حالات العطاء المتوازن المتقيد بالعقل والمنضبط بالإرادة والمعترف بالوحي بما يحمله الوحي من (علم كامل بالكون وبصلاح الإنسان وفساده) و(لطف إلهي شامل بالإنسان من قبل ربه الرؤوف) و(اطمئنان بأن أوامر الوحي وارشاداته إنما هي لصالح الإنسان وليست لتكريس الذات الإلهية فهي لا تحتاج لشيء).

ويربي (الإرادة الإنسانية) لتبقى حية قوية تنفذ أوامر العقل وتضبط الميول وتوجه السلوك مسترشدة بهدى الوحي ومنشدة بخالق الكون).

انها عودة للحياة ونهضة من رقاد وانتفاضة ضد الخمود والكسل والجمود وعودة لحياة الرقي.

### الخطوط الرئيسية للمشروع

بعدما تقدم أعتقد أن أهم الخطوط الرئيسية هي كما يلي:

اولا: خطة دقيقة - معرفية - تدعو للتأمل في عمق الوجدان الإنساني لاكتشاف معالم الذاتي الإنسانية وتفعيلها وتصعيدها إلى مستوى يطبع كل السلوك الفردي - والاجتماعي والحضاري لشعوب العالم الإسلامي.

ثانيا: خطة معارفية تدعو لحياء الثقافة الإسلامية وبعد اقامتها على اسسها الأصولية والفقهية الرصينة واعدادها على النحو الذي تجيب فيه على تساؤلاتنا الحياتية.

ثالثا: خطة لتخليص هذه الأمة من نتائج أنماط الهجوم الشرس عبر التاريخ على خصائصها ومكتسباتها مما انتج (التخلف المتنوع، والمتمزق القاتل، والبعد عن توجيهات الإسلام، والتطرف الموهن المرفوض إسلاميا والذي ابعدنا عن (الوسطية الإسلامية).

رابعا: خطة تعمل على استرجاع الأمة لمكانتها الحضارية التي أرادها: لله لها حيث قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وكذلك قوله تعالى (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) معلنا أن هذا الهدف هو سر تسمية هذه الأمة في الكتب السابقة وفي القرآن بالمسلمين مما يؤكد لزوم احتلالها موقع الريادة الحضارية والشهادة على مجموع المسيرة تماما كما أن الرسول ﷺ هو الرائد والشاهد المطلق على مسيرة هذه الأمة.

ولا يتم التمهيد والاعداد لهذه المكانة إلا عبر ما يلي:

- أ- اعلان عام عن رغبة هذه الأمة في تحقيق علاء الإنسانية ورفيها، وامنها وسلامها.
- ب- اعلام عام عن احترام الأمة لحقوق الإنسان وتجسيدها في عالمها اروع تجسيد.
- ج - انفتاح جامع على الاخر مهما كان هذا الاخر، مع إيمان الأمة بانها تملك مساحة

١. البقرة: ١٤٣.

٢. الحج: ٧٨.

مشتركة إنسانية معه على أي حال فهو على الأقل يشاركها في الخلق والإنسانية.  
 جاء في كتاب الإمام علي لعامله على مصر قوله:  
 واشعر قلبك الرحمة للرعية والمجتهد لهم واللفظ بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا  
 تغتنم اكلهم فإنهم صنفان اما اخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق<sup>١</sup>.  
 وسنحاول توضيح هذه الممهدات باختصار شديد.

### السلام العالمي والموقف منه:

إن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأن الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً إذا شكل مصادقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.  
 ولا ريب في كون الأمان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان.. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.  
 وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوِّ الأمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، مما يمهد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحيث تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.  
 فالأمن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّر الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدل تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضاً يكون من الطبيعي أن تتصور الحاجة إلى نظام شامل يتكفل بحماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

١. نهج البلاغة - طبعة صبحي الصالح ص ٤٢٧.

ولا يمكننا أن نتصور حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أن الفطرة هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل إجمالي. وأنها هي التي فرضت حماية الأمن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الأمن تحديداً إلا إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأمن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه. وإلا فكيف نتصور الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

### الحوار ركيزة التعامل مع الآخر:

ولاريب أن الحوار هو منطق الإنسان، وأن القرآن يحوي نظرية واسعة للحوار لاجمال لشرحها هنا وهو يشمل كل أنماط الآخر وخصوصاً الأديان السماوية كما يشمل كل الثقافات والحضارات.

### الحوار بين الديانات واسع الأبعاد

نستطيع بكل وضوح أن نقرر إمكان الحوار بشكل واسع الأبعاد بين الأديان وذلك:

- ١- لأنها جميعاً تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها.
- ٢- لأنها جميعاً تؤمن بقيم مشتركة كثيرة حتى ليلمح الإنسان تطابقاً تاماً في أصول القواعد. وربما ذكر بعض المؤلفين المسلمين القدامى مجمل تعليقات المسيح واعتبرها تعليقات إسلامية<sup>١</sup>.

وقد قام محققان فاضلان مسيحيان باعداد بحث جيد عن القيم والقواعد المشتركة للأحكام القانونية انتهيا فيه إلى نتائج جيدة فهما يقولان:

(تكفى محاولة إقامة جسور حول السؤال الذي يطرحه الناس نساءً ورجالاً، عندما يريدون أن يعيشوا بمقتضى إيمانهم: ما هي مشيئة الله؟ ماذا يتوجب علي أن افعل؟ يبدو لنا

١. لاحظ مثلاً ما ذكره الشيخ ابن شعبه الحراني (وهو من علماء القرآن الرابع الهجري) في كتابه المشهور (تحف العقول) إذ ذكر الكثير من الحكم والمواعظ الحياتية عن عيسى عليه السلام.

أن الديانات الإبراهيمية الثلاث تسير في جوارها في اتجاه واحد<sup>١</sup>.  
وهما يقرران في النهاية: وحدة الناس في الله.

٣- إن الأديان كلها تدعو إلى الحوار المنطقي ولما كانت الأديان هي روح الحضارات فإن الحوار بينها يفسح المجال لحوار حضاري أصيل ممتد إلى مختلف المساحات الحياتية، ويوجه الحوار الحضاري نحو مسارات أكثر إنسانية.

### الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه

بعد ملاحظة ماسبق يمكننا القول إن السير الطبيعي للبشرية يقتضي أن يسود منطق الحوار بين الحضارات. باعتبار أن الحضارات تحمل بشكل واضح بصمات الفطرة - اعترفت بها بشكل فلسفي أو رفضتها<sup>٢</sup>. ولذا ففيها جوانب مشتركة تفسح المجال للحوار لا محالة. كما أننا ذكرنا من قبل أن الأديان تشكل جوهر الحضارات - حتى ولو انكرت الحضارات ذلك - وبالتالي تبقى التأثيرات الدينية واضحة المعالم وأخيراً نجد المجالات المشتركة بين الأديان تفسح المجال لحوارات مشتركة بين الحضارات.

هذا بالإضافة إلى حقيقة امتدت مع البشرية وتعاضمت مساقطها باستمرار وهي هذا الترابط المصلحي بين عمار الأرض وساكنيها على مختلف الأصعدة.  
وهو ترابط عبرت عنه طموحات الأديان العالمية، والفاحين الكبار بشتى التعابير منذ اقدم العصور، واشتد على مر الايام حتى عدنا اليوم نشبه العالم بقرية صغيرة. والعالم هذا لم يصغر ولكن وعينا لترابطه وشدة الالتحام بين اجزائه هو الذي اوصلنا إلى هذه النتيجة.  
فلم يعد بمقدور أي بلد أو دولة أن تخطط لبيئتها ولطاقاتها وقوانينها الجوية والبحرية

١. الاستاذ عادل خوري والاستاذ فانوني، كما جاء في تقرير الندوة الايرانية النمساوية المشتركة المنعقد في فيينا عام ١٩٩٩م، ص ٢٦٠.

٢. ولتوضيح ذلك يلاحظ ان كل فلسفات التشكيك في الحقائق المطلقة في مجال الفكر او السلوك كالماركسية والفرويدية والدور كهايمية والكاتبية وفلسفة باركلي وغيرها، هذه كلها تحمل نوعاً من الجزم والقطع لا محالة وإلا لشكت في نفسها ايضاً وهي لا تفعل ذلك.

ومواصلاتها ومخابراتها بل وتعليمها وتربيتها وثقافتها ونهضتها واقتصادها ودفاعها، بمفردها بعيداً عن ملاحظة ما يجري في العالم.

ومن هنا نعتبر أن الاتجاه نحو العالمية اتجاه طبيعي لا معنى لمقاومته، بل يجب تشجيعه ودعمه. وإذا كنا نقف بوجه (العولمة) ونعتبرها تحدياً خطيراً فإننا ذلك لأن هذا النمط يعني تفسيراً خاصاً لهذا الاتجاه يصب في مصلحة القوة العظمى أو فلنقل يعني سيطرتها على مقود المسيرة وتحويلها لصالح أمة بعينها مهما كان الأمر، وأمركة للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها بمختلف الوسائل وشتى السبل القمعية. ولذلك وصفت بالعولمة المتوحشة والمجنونة و(ان تأكل أو تؤكل) وأمثال ذلك.

وعلى أي فإن الحوار هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني ولا بديل له إلا الصراع وهو منطق الغابة لا الإنسان بلاريب.

فيجب إذن تأكيد إنسانيته وتعميقها بتأصيل القيم الإنسانية فيه.

ويمكننا الحديث عن هذه القيم في ما يأتي كنهاذج فقط وإلا فمجال هذه القيم واسع جداً.

### نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود

#### ١- قيم الحوار المنطقية.

وهي قيم إنسانية ثابتة. لا تتغير باختلاف الظروف فيجب أن يكون الحوار قائماً على مفروضات متفق عليها بين الطرفين والالم يعد منتجاً.

ويجب أن يدخله الطرفان بروح طلب الحقيقة، وأن تكون اطراف الحوار بمستوى دراسة الموضوع ويجب أن يتوضح محور الحوار بشكل تام كما يجب أن يكون امراً عملياً لا طوبائياً.

ويجب أن تسوده روح احترام الآخر، كما يجب أن يتخلص من روااسب الماضي أيضاً.

ويجب أن يتم في جو حر بعيد عن الضغط والعنف والتحايل والضوضاء والتهويل.

وغير ذلك من مقتضيات الحوار السليم.

واستطيع بكل اطمئنان أن أقول إن القرآن الكريم اشار إلى كل هذه القيم الحوارية الثابتة

في اصالتها.

#### ٢- قيم العدالة ومعاييرها ومساحتها.

- فمهما اختلفت الآراء وتنوعت المذاهب فإنه تبقى هناك مساحات لا يختلف عليها اثنان. وهل يختلف أحد على ضرورة إعطاء الحق لأهله، وأن سلب الشعوب حقوقها في الأرض والمصير ظلم، وأن التنمية والاستثمار الصحيح للموارد أمر حميد وغير ذلك. فيجب إذن اكتشاف هذه المساحات والسعي لتعميمها وتعميم الالتزام بها.
- ٣- الاتفاق على الحقوق الأساسية للإنسان، والسعي لتوسعة هذا الاتفاق ليشمل الحقوق التفصيلية الأخرى، وهو أمر غير صعب إذا حسنت النوايا لأن البحث بحث في عمق الوجدان الإنساني وفي قيم تدرك بالفطرة الصافية.
- ٤- الاتفاق على حدود الحرية الإنسانية ومحاولة ترجمتها إلى معالم واضحة وتطبيقات عملية.
- ٥- الانطلاق من القيم الإنسانية لتحديد الإيديولوجيات الهدامة: كالإرهاب والعنصرية والاستبداد والتفرقة العنصرية والاستعمار وغير ذلك.
- ٦- وضع مبادئ سلامة البيئة وتعميمها.
- ٧- الاتفاق على مبادئ الفن الرفيع بما يخدم البشرية ويستجلي كوامنها.
- ٨- الاتفاق على القيم الاجتماعية ومقومات المجتمع السليم الخالي من الشذوذ والتسيب.
- ٩- الاتفاق على نوع التخطيط للصراع ضد التحديات المتفق على رفضها من قبيل: الأمراض والفقر والجهل والامية. والتخطيط لتقليل آثار الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول والحرائق وغيرها.
- ١٠- تنظيم الحقوق الدولية المشتركة في مجال الملاحة والمواصلات والمعلومات وأمثال ذلك.
- ١١- بناء المؤسسات الدولية العاملة بمقاييس متعادلة واحدة بعيداً عن الازدواجية والتفرقة.
- ١٢- الوصول إلى آليات عملية لتعزيز التضامن وتعميم المسؤولية الإنسانية تجاه عملية السلام ونشر العدالة.

### معاً لتعميم منطق الحوار

وفي ختام حديثنا المختصر هذا لا بد أن ندعو بقوة لتعميم منطق الحوار بعد أن آمنا بأنه أمر تقتضيه الحكمة والفطرة والعقل السليم، في قبال مقتضيات العاطفة الجارحة والعنصرية المقيتة والانحباس في بوتقة الماضي.

وفي هذا الصدد ندعو لتكوين أمة من المفكرين من كل الاطراف القائمة في الواقع العملي تعمل على تهيئة الظروف لهذا التعميم، وتضع الخطة اللازمة لذلك، وأرى أن نسميها بـ(الوسطية العالمية)، اسوة بما ندعو إليه ونسميه داخل الهوية الإسلامية بـ(الوسطية الإسلامية). وذلك انطلاقاً من إيماننا بأن هذه الوسطية لها مفهوم شمولي يعم تصورنا عن الوجود (باعتباره متوازناً)، وموقف الإنسان منه موقفاً متوازناً، كما يشمل تصورنا عن التاريخ والعوامل المؤثرة فيه، فضلاً عن كونه تعبيراً عن طبيعة الإسلام وموقفنا منه أيضاً. ومن هذا المنطلق (الوسطي) نرى أن تعتمد الخطة العالمية الدعوات التالية:

١- الدعوة إلى التفرقة الجادة بين الثنائيات الحدية المتناقضة أو المتضادة بحكم العقل القطعي من قبيل ثنائيات (الوجود والعدم) و(التوحيد والشرك) و(الاطلاق والنسبية) وأمثالها، وبين الثنائيات اللاحدية أو المصطنعة من قبيل (انا الخير والآخر الشر) (اما محاربة الإرهاب أو الكون معه) (اما أن تكون ماركسياً أو فأنت لا تفهم الماركسية). (انا التوحيد وما عداي الشرك) (انا التمدن وما عداي التوحش) (مبادئي هي منتهى التاريخ وما عداها هي التي يجب أن تزول) (اما انا أو الهمجية) وأمثالها، فإن النمط الأول مما يمكن الاتفاق عليه وإن شكك في ذلك الماركسيون. أما النمط الثاني فهو من قبيل الاصنام الفكرية التي تتم عبر عملية (تصعيد) ذهنية أو نفسية أو تاريخية أو عصبية فيتحول (النسبي) فيها إلى (مطلق) وبالتالي يقيد كل عمليات التفكير ويمنع كل احتمالات التطور. نعم يجب الازعان للقيم الإنسانية المشتركة التي اشرنا اليها ودل عليها الوجدان.

٢- العمل على إشاعة روح الانفتاح الواعي على الحاضر، وعدم الانحباس الأعمى في الماضي أو حتى في النظريات التي تم القبول بها مع احتمال وجود ثغرات فكرية فيها.

٣- السعي لتعميم ما قلناه من قبل من أن كل الحضارات لابد أن تستقي من الفطرة بعض مكوناتها أو على الأقل نبقى احتمال استقائها وارداً وحينئذ تنفتح أمامنا كوى الحوار.

٤- الاتجاه نحو تعميق مفهوم التطور الفكري والابداع الجديد وعدم التأثر بمفهوم (ليس في الأمكان أيدع مما كان) وابقاء روح اكتشاف الحقائق حية دافعة متدفقة.

٥- السعي نحو تعميم الاحساس الإنساني المشترك بالاحطار التي تهدد البشرية جمعاء



ولا تفرق بين حضارة وحضارة، وقومية وأخرى، ومنطقة وثانية كالمريض والجهل ونقص المعنويات وتلويث البيئة وتفكك العائلة وسيادة منطق العدوان وغيرها.

٦- الدعوة إلى تغليب التعقل على عنصر التطرف فهو أمر يعمي البصيرة ويمنع من التفكير بهدوء مهما كانت الإيديولوجية.

٧- السعي للتوصل إلى حل متوازن بين الاتجاه العالمي وبين احتفاظ الشعوب والأمم بخواصها الثقافية وغيرها. وهذه الجادة الوسطى هي التي تضمن نجاح الاتجاه العالمي من جهة لكيلا يصطدم بالعقبات الجادة، كما يحفظ للبشرية والأمم ثرواتها المتنوعة على مختلف الصعد. فنحقق بذلك مبدأ فلسفياً يقول به (الكثرة في عين الوحدة).

٨- ضرورة تثقيف الجميع بأن مصالح الأمم هي جزء من ماتؤكد عليه قيمها. وحينئذ لن يقوم هناك تناقض بين القيم والمصالح وتتهيأ فرص واسعة للحوار.

٩- تعميق الروح الموضوعية الإنسانية لمحو الروح الاستعلائية العنصرية من جهة وعدم التأكيد على القيم الحضارية الخاصة واعتبارها قمة الإنتاج الحضاري واعتبار ماعداها تخلفاً. نعم يجب الإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة.

وقبل أن ننهي حديثنا نؤكد أن بوادر الأمل بالمستقبل الواعد - من وجهة نظرنا - كثيرة: فهذا القبول العالمي بحوار الحضارات في الأمم المتحدة، وهذه اللقاءات المتتابعة منذ الثلاثينات في القرن الماضي وعلى مختلف المستويات، وهذا الانفتاح من قبل المرجعيات الدينية المتنوعة على الحوار، وهذا الاتجاه الواسع نحو المعنويات، وهذه المعلوماتية المنتشرة والتي تكشف الحقائق امام الجميع، كل هذا وغيره يعدنا بمستقبل مثالي رغم ما نواجهه من تحديات العولمة المصلحية، والنظريات الاستعلائية، والظلم الفاحش ضد الشعوب، والاحتلال والإرهاب الفردي والرسومي، والتعامل المزدوج. ذلك أننا نؤمن ونرى أن قوى الخير تنتصر على عوامل الشر وفقاً لسنن الله في الحياة.



(٢٢)

## العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي ودور المسلمين في عملية الإحياء الروحي

إن حركة تطور العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي وصلت في الأونة الأخيرة إلى مستوى جديد في روسيا الاتحادية التي يقطن فيها أكثر من ٢٣ مليون مسلم يمثلون ٥٧ قومية من أصل ١٨٢ قومية تشكل بمجموعها الاتحاد الروسي وترى مصلحتها في تطوير وتعميق العلاقات مع الدول الإسلامية ومع المجتمعات الإسلامية في أوروبا وآسيا وأميركا وكذلك مع المنظمات الإسلامية الدولية.

وقد حصلت العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي على دفعة جديدة في فترة رئاسة فلاديمير بوتين الذي سمي - في خطابه في مؤتمر قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في ماليزيا - هذه السياسة (تقاربا مع العالم الإسلامي).

روسيا بتطويرها العلاقات مع العالم الإسلامي وفي عام ٢٠٠٥ حصلت على صفة المراقب في منظمة المؤتمر الإسلامي.

وبعد ذلك عبّرت موسكو وبكل الاشكال عن رغبتها بتطوير وتعميق هذه العلاقات واستقبل الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي اكمل الدين احسان اوغلو واثناء زيارته لروسيا في الكرملين كضيف مرحب به.

ولأول مرة قام الرئيس الروسي ميدفيديف هذه السنة بزيارة مسجد الدولة الرئيسي - مسجد موسكو الجامع - وفي هذه الزيارة اشار الرئيس إلى أهمية التعاون والعمل المشترك

بين روسيا والعالم الإسلامي، ودخول روسيا كعضو مراقب إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، وعمل مجموعة الرؤية الإستراتيجية (روسيا - العالم الإسلامي)، كما خص الرئيس بالاشارة مجلس شورى المفتين لروسيا بالاشارة اليه بصفته مشاركاً مبادراً وملهماً في الحوار الروسي الإسلامي وشريكاً مسؤولاً في الدولة الروسية.

وفي إطار تطوير المبادرات المتخذة على المستوى الفيدرالي، تعززت الاتصالات بين اقاليم روسيا المسلمة وبين الدول الإسلامية، فتتارستان والشيشان وداغستان باتت أكثر انفتاحا على العالم الإسلامي، ورؤساء هذه الجمهوريات راحوا يشاركون مع قادة الدول الإسلامية في اللقاءات الدولية، ويستقبلونهم في جمهورياتهم.

وقد عبر وزير الخارجية الروسي بدقة متناهية عن طابع علاقات روسيا مع العالم الإسلامي عندما اعلن في لقاء اعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي (ان روسيا باعتبارها دولة متعددة القوميات والأديان وصاحبة تاريخ طويل يمتد لقرون، لن تسمح ابدا لاي كان بزرع الخصومة بينها وبين العالم الإسلامي، مهما اراد ذلك وكيفما كانت الظروف في أي قضايا دولية).

وتعتبر العوامل المذكورة والمنحى الإيجابي لمسار العلاقات الروسية مع العالم الإسلامي، وكذلك فترة الخمس سنوات لعضوية روسيا باعتبارها مراقباً في منظمة المؤتمر الإسلامي والاحتفال بالذكرى الأربعين لتأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي في شهر ايلول، كل هذا يعتبر أساساً متيناً وخلفية جيدة لعقد المؤتمر الدولي (روسيا والعالم الإسلامي - شراكة من اجل الاستقرار) في ٢٤ من ايلول عام ٢٠٠٨ في موسكو بموافقة الرئيس ميديفيدف. وقد ساعد المؤتمر بشكل اعمق على ادراك وتحليل المعالم والمؤشرات الأساسية في تطور علاقات روسية بالعالم الإسلامي، كما فتح آفاقاً جديدة لتعزيزها وتطويرها.

ومن خلال الأحاديث التي جرت في المؤتمر أشار عمدة موسكو إلى أن روسيا فيها عشرات الأديان والقوميات وهي حرة آمنة.

وإن الدولة تحترم المسلمين حتى أنها أصدرت أوامرها لبناء محال للعبادة في الدوائر الحكومية وأن التنوع جمال، وأن روسيا تعرضت للمحن عندما اعتدت النازية عليها، وقد

ناضل الجميع بمن فيهم المسلمون ضدها، وأكد على أن جميع الشعوب يجب أن تعمل على نفي نظام القطب الواحد.

ورد على من ساووا بين الإسلام والإرهاب وهاجم أمريكا دون أن يسميها، واعتبر مفهوم الجهاد في الإسلام إيجابياً بناءً وعرض جهوده لإعادة المساجد وتوسعة المسجد الجامع.

وقد تحدث الرئيس مرتضى عبيد الله رحيموف رئيس جمهورية باشقيرستان عن أنها تحوي ٢/٥ مليون مسلم فهي أكبر جمهورية إسلامية في الاتحاد، وأكد على أن روسيا جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وأن المسلمين يتطورون باستمرار، وأن الإسلام له تاريخ عريق في روسيا، وله تجربة تعايش طويلة فيها، وتحدث عن عملية الحفاظ على التقاليد الإسلامية وعن العلماء هناك وعن المعاهد كمدرسة (غالية)، وذكر أنه سيسعى لنشر النموذج الروحي للإسلام، وتأسيس الجماعات الإسلامية وقد بلغت ألف جماعة، وأن ٩٠ مبنى تحولت إلى مساجد، وأن معاهد التعليم تطورت. وركز على أنه يجب إيصال العلم إلى الجماهير، وأشار إلى كلمة (انشتاين): الدين بلا علم أعرج وأعمى. ودعا لاستخدام إمكانيات الإسلام لمقاومة التحديات، وكسب الشباب، والأصلاح الاقتصادي وتطوير المنتجات الحلال، وذكر أنه كان من الممكن تقليل آثار الأزمة الاقتصادية لو أمكننا التعامل مع المصارف الإسلامية في العالم الإسلامي.

وذكر البروفيسور الروسي نعومكن أن روسيا لا يمكن أن تعيش بمعزل عن العالم الإسلامي، بل هي بلد إسلامي، وأن الشعوب الإسلامية اشتركت في الدفاع عن روسية، وأن التسامح انتشر في عصر الملكة كاترينا الثانية، وأن هناك تقاليد وأفكاراً مشتركة مع العالم الإسلامي، وضرب لها مسألة الاحتفاظ بعلم الأنساب مثلاً وقال: إن جذور حضارتنا تعود إلى أصل واحد، ونحن نشكل معاً مصادر طاقة العالم. وركز على أن ما يسمى بالإرهاب الإسلامي باطل.

إن ما مر يبشر بالخير، ويدفعنا لتعميق هذه العلاقات وتطويرها خصوصاً إذا لاحظنا الحقائق التالية:

١- إن روسيا تجاور العالم الإسلامي لمسافات طويلة جداً، وترتبط مع دوله ارتباطاً وثيقاً

يترك أثره على كلا الطرفين.

وقد سمعنا من بعض المسؤولين أن روسية هي جزء من العالم الإسلامي.

٢- إن الجانيين يمتلكان ثقافة شرقية متقاربة بحيث يتم التمازج بشكل لا يقبل الانفصال اجتماعياً أو تاريخياً.

٣- إن الإسلام يشكل عنصراً أصيلاً في تاريخ الشعب الروسي فقد دخل بشكل متفرق في القرن السابع الميلادي، وشكل دولة فيها في القرن العاشر، وسار مع التاريخ فيها يرفدها بالروح والعطاء.

٤- إن الحوار الإسلامي الارثوذكسي له عمقه وسعته، وبالخصوص في هذه البلاد، وبالتالي فهو يشكل عنصر تقارب قوي وجرماً للتلاقي بين الطرفين. وفي الآونة الأخيرة كان لنا حوار رائع متوأصل مع الكنيسة ولقاءات مشتركة في موسكو وطهران، وما زالت صداقتنا تتطور يوماً بعد يوم.

٥- إن هناك فجوة وجفوة كبرى بين العالم الإسلامي والغرب بسبب سياساته اللامعقولة وتعامله الذي يكيل بمكيالين تجاه العالم الإسلامي، وبالتالي فإن روسية تستطيع أن تشكل دور الوسيط الذي يستطيع أن يملأ هذا الخلاء ويعيد العلاقة إلى نوع من العقلانية والتوازن المطلوب.

٦- ولما كان المسلمون يشكلون نسبة لا بأس بها في روسية فإنهم يستطيعون أن يساهموا كل الاسهام في التنمية الروحية للشعب الروسي، كما يمكنهم أن يشكلوا أكبر عامل تقارب مع العالم الإسلامي.

وهذا ما نتحدث حوله فيما يلي:

### دور المسلمين في مجال الإحياء الديني للمجتمع في روسيا

هناك مقدمات قبل الدخول في الموضوع.

**الأولى:** لقد عاد غنياً عن التوضيح دور الدين في حياة الإنسان، فقبل الحديث عن نتائجه الاجتماعية والنفسية يدرك الإنسان من خلال تأمله في أعماقه وتزكيته النفسية أن هناك ميولاً غريزية دائمية للارتباط بالقوة المحركة لهذا الكون، والمفسرة لكل ظواهره المتناسقة، وتقديم

فروض التدين له، وإشباع الحاجة النفسية للجوء لهذه القدرة المطلقة التي لن يهدأ روع الإنسان ولن تسكن جوعته الروحية إلا بعد الوصول إليها وتحقيق رضاها.

أمّا على صعيد النتائج الحضارية فإن الدين والإيمان بالله تعالى هو الحل الحقيقي لأعظم المشاكل الحضارية التي سببت كل أنواع الظلم الاجتماعي عبر التاريخ؛ فإن كل الأنواع من هذا الظلم عبر التاريخ تعود إلى شكلين رئيسيين هما - كما يعبر الشهيد الصدر - مشكلتان:

**الأولى:** اللا انتفاء والضياع ورفض الإيمان بأيّ حقيقة من الحقائق المطلقة. **والثانية:** مشكلة الإيمان بالمطلقات الوهمية، وهي الأمور النسبية التي يجردها الإنسان من حدودها ويحولها إلى مطلقات وآلهة ممّا يتركها تجمد حركة الإنسان ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا﴾<sup>١</sup>، وهذه الآلهة الوهمية هي من قبيل (العلم، والطبيعة، والطبقة، والسلطة وغيرها).

والإيمان بالله تعالى هو الذي يحل هاتين المشكلتين مشكلة اللا انتفاء ومشكلة الإيمان بالآلهة الوهمية، فالإيمان بالله يؤدي إلى الإيمان الحقيقي بحقيقة الكون وعلاقة الإنسان به وبالتاريخ وبالحقائق الأخلاقية الثابتة، وينفي كل إيمان بالآلهة الوهمية. وبدون الإيمان بالله لاتبقى حقيقة تضبط سلوك الإنسان ويعود كل ظلم وتعدّ وتجاوز أمراً جائزاً كما يقول داستايفسكي على لسان إيوان كارامازوف إذا لم يكن لله وجود فإن كل شيء يعود جائزاً.

ومن هنا يمكننا أن نؤكد أنّ الضمان لتربية الإنسان وضبط سلوكه هو الإيمان بالله تعالى. وقد رأينا كيف فشلت كل الدعاوي التي طرحت فكرة تخدير المجتمع بالدين أو جعلت الدين يعيش في الرفوف العالية بعيداً عن الحياة الاجتماعية واعتبرته مجرد حاجة شخصية.

وعلى أي حال، فإن على المسلمين والمسيحيين وغيرهم من المتدينين في هذا المجتمع العمل على تقوية الوازع الديني ونسيان التاريخ المرير الذي مرّوا به.

**الثانية:** إن المتأمل في تاريخ المسلمين في هذه البلاد يجده تاريخاً مليئاً بالآلام والدماء والدموع والتهجير والحرمان دون ذنب اقترفوه إلا تمسكهم بإسلامهم وتقاليدهم وعاداتهم الدينية. والغريب أنّ الكثير من الظلم الواقع عليهم ارتكب باسم العدالة الإنسانية والمساواة

وصهر القوميات في بوتقة الإنسان العالمي ونفي الرجعية، وتحقيق الاندماج الاجتماعي التقدمي وغير ذلك من الشعارات البراقة.

وقد واجهوا في العهد الشيوعي ضروب العذاب فهدمت مساجدهم التي كانت تعد بالآلاف، وصودرت موقوفاتهم وهجروا وشردوا وواجهوا عملية المحو الثقافي، والتطهير العرقي وفقدوا أبسط حقوقهم الإنسانية.

ولذلك فهم اليوم أكثر من غيرهم يشعرون بنعمة سقوط النظام الشيوعي، وحرية الأديان، وحقوق الإنسان، ومن هنا فإنهم مدعوون للمساهمة الجادة في عملية الإحياء الديني.

### دور المسلمين في عملية الإحياء الديني

بعد هذا نعتقد بأن هذا الدور يمكنه أن يتم من خلال ما يلي:

**أولاً:** العمل على نشر التوعية بين المسلمين بأحكام الإسلام وتقوية الشخصية الإسلامية فيهم ونشر الفضائل الأخلاقية وترسيخ العقيدة في نفوسهم، واستعادة المؤسسات الإسلامية كالموقوفات وتوجيهها الوجهة الصحيحة حسبما أوقفها أهلها، وإعادة المساجد الإسلامية لتؤدي دورها الحيوي الهام، فالمسجد يمثل قاعدة تربوية ضخمة في الحياة الإسلامية. وقد جاءت الروايات الإسلامية لتؤكد هذا الدور وخصوصاً دور المسجد الجامع، فهو محل الاتصال بعالم الغيب، وهو محل تعميق الصلوات الاجتماعية، وهو محل الاعتكاف وتربية النفس، وهو محل الدراسة والتعليم والتعبئة الاجتماعية.

**وثانياً:** بناء العلاقة مع المواطنين من اتباع الأديان الأخرى وخصوصاً مع المسيحيين الارثوذكس. ومما يجدر بالذكر أن هناك عوامل كثيرة تدعو للتلاحم معهم في عملية البناء الاجتماعي وإحياء الروح الدينية، ومنها: روح التسامح الإسلامي والحوار والتعارف لتحقيق الأهداف الخيرة. ومنها: التوجه إلى وجود عدو مشترك يقوم بهجوم ثقافي واسع ضد الوجود الديني كله ويتمثل في عمليات الهجوم الغربي الإلحادي والعلماني ضد الدين ودوره في الحياة، والهجوم التحليلي ضد البناء الأخلاقي، والبناء الاجتماعي كالعائلة والقيم الأخلاقية لها.

وأتذكر هنا التاريخ الطويل للمسلمين، وأستعيد إلى الذاكرة المؤثرين للذين عقدوا في أوائل القرن العشرين وعبر فيهما المسلمون عن وحدتهم واتفقوا على المساهمة الحضارية.



وكيف قهرت الماركسية هذا الوعي وكيف هاجمت المساجد عام ١٩٢٨ وكانت تبلغ الآلاف وصادرت الأوقاف حتى عام ١٩٣٠ وحلت كل المؤسسات الاجتماعية الإسلامية وكممت الأفواه ونفت وشرّدت.

كما نتذكر أساليب المقاومة المستميتة للمسلمين والذين لم يرضوا لهم مصيراً كمصير إخوتهم في الأندلس حيث محوا عن بكرة أبيهم. وعلى العكس فقد قام المسلمون هنا سواء عبر نهضاتهم المسلحة التي دامت قروناً بكل شجاعة وإصرار، أو باحتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية في الملابس والمأكل والزواج والدفن والإصرار على إبقاء وجودهم حياً عبر الاحتفاظ بلغاتهم، وعدم الاستجابة لضغط السلطات بالهجرة. كما أتذكر ذلك التعامل السخيف الذي تم بين المذاهب الإسلامية، فلم تكن هناك مشكلة الاختلافات المذهبية. ورأينا كيف تحدث المؤتمر الإسلامي الثالث للمسلمين عام ١٩٠٥ عن المذاهب الخمسة وكيف تعابش الشيعة والسنة في أذربايجان.

كما نتذكر المشاعر الرائعة التي عبّر عنها المسلمون حينما انتصرت الثورة الإسلامية المباركة في إيران الإسلام بقيادة الإمام الخميني عليه السلام والوفود التي جاءتنا إلى هناك وعبرت عن أحاسيسها الصادقة نيابة عن المسلمين في هذه الديار.

ويجب أن نؤكد على دور المسجد في عملية البناء الاجتماعي.

بقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ \* لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>١</sup>.

وقوله عليه السلام: المساجد بيوت المتقين، قد ضمن الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوته الروح والرحمة والجواز على الصراط<sup>٢</sup>.

١. النور: ٣٦-٣٨.

٢. أخرجه ابن أبي شيبه في المصنف ١٣: ٣١٧.

ونؤكد على المسجد الجامع وهو المسجد الذي يجمع الناس، فكل مسجد إذن محل توحد الناس وجمعهم، والمسجد الجامع هو المحور الأساس للحركة الواحدة. نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لخدمة دينه الخفيف، إنه السميع المجيب.

وخلال اليومين العشرين والحادي والعشرين من صفر عام ١٤٢٠ هـ. ق المطابقين ليومي الخامس والسادس من حزيران عام ١٩٩٩ ميلادي، وبمناسبة حلول الذكرى الخامسة والتسعين لبناء المسجد الجامع في موسكو، وكذلك بمناسبة مرور الذكرى الخامسة لتأسيس الإدارة الدينية للمسلمين الأوربيين الروس في موسكو، أقيم المؤتمر الإسلامي الدولي تحت عنوان: دور المسلمين في إحياء القيم الروحية في روسيا.

وقد حضر المؤتمر شخصيات دينية ورسمية، وعلماء العلوم الدينية، وأئمة المساجد، ومتدينون عاديون وممثلو المؤسسات الخيرية، والاتحادات الشعبية والثقافية، من عدة دول مختلفة من آسيا وإفريقيا وأوروبا. وكانت المرة الأولى - بعد سقوط الاتحاد السوفياتي - التي يجتمع فيها قادة المنظمات الإسلامية في آسيا المركزية والقوقاز وأوروبا الشرقية.

وقد نظم المؤتمر من قبل الإدارة الدينية للمسلمين الأوربيين الروس بالتعاون مع المنظمة الخيرية الدولية للجنة مسلمي آسيا في الكويت.

وقد لاحظ المشاركون التغييرات الرائعة التي حصلت في حياة المسلمين الروس خلال السنوات الأخيرة. والتي تبلورت، على سبيل المثال، في افتتاح آلاف المساجد والمؤسسات التعليمية لطلاب العلوم الدينية. وفي كثير من المساجد الحالية والمدارس الدينية التي تقوم بنشر الكتب الدينية المختلفة.

وذكر في المؤتمر أن هذه الإمكانيات المذكورة إنما حصلت بسبب التحولات الديمقراطية في روسيا، وكذلك نتيجة حسن توجه المسؤولين في الحكومة الروسية - بمستوياتهم المختلفة - واهتمامهم باحتياجات المسلمين ومنظمتهم.

وقد وضعت المنظمات الدينية إمكانيات كثيرة للتأثير في حياة المسلمين، وعلى مستوى المجتمع الروسي عامة. فالتعاليم الإسلامية قادرة على نشر الأخلاق الفاضلة بين المسلمين وحثهم على رعاية القوانين بصورة جيدة، كما ساعدت على تطور المجتمع الروسي الحالي بما

توفر لديها من إمكانات، كما تعطي هذه التعاليم للمسلمين الروس في المجتمع الروسي ذي النفوس الكثيرة وفي المجتمعات العالمية قدرة الاعتماد على النفس، كما تشجع هذه التعليمات الروحية على احترام الآداب والتقاليد الأخرى.

إلا أن القدرات الإسلامية والمنظمات الإسلامية لم تستثمر - لحد الآن - بصورة تامة. وأخيرا لوحظت رغبة الإدارات الدينية المذكورة نحو الوحدة، إلا أنها مازالت متفرقة، ومازالت الاختلافات قائمة بين البعض منها، والسبب الأساس هو أن المنظمات الإسلامية في المجتمع الروسي لم تحصل على الموقع المناسب، وذلك لوجود أكثر من ثلاثين قومية فيه لذا لم تستطع أن تغرس الدين في حياتهم الروحية.

وفضلا عن ذلك، فقد حصلت حوادث وأساليب مختلفة في تاريخ الإسلام الروسي، سببت للمسلمين - في تطورهم التالي - ظهور مواجهة فيما بينهم، وكذلك بين أتباع الأديان الأخرى، وهي كذلك تستطيع أن تهدد أمن واستقرار المناطق الأخرى.

وقد أفرّ المشاركون في المؤتمر بضرورة تقدير وتعظيم دور الإسلام في إحياء القيم الروحية في روسيا، وأوصوا كبار مسؤولي الدولة الروسية، والحكومات المحلية للمناطق ذات الأغلبية المسلمة في القطر، وزعماء الإدارات الدينية وأئمة المساجد بضرورة الاهتمام بالموارد التالية:

١. لكي تستطيع إدارات المسلمين الدينية أن تنسق بين مساعيها ورغبتها في مواصلة اتحادها مع أعضاء لجنة مفتي روسيا، ولتقوية نشاطاتها، عليها أن تنظر إلى النقاط التالية باعتبارها من أهم وظائفها:

أ) إعداد الأفراد الإسلاميين وتغذيتهم بالمعلومات الإسلامية التي تؤهلهم، في الظروف الحالية، لأداء وظيفتهم، وبلاستفادة من خصوصيات المسلمين الروس للحوار مع ممثلي الأديان الأخرى.

ب) تأليف الكتب والمناهج الدراسية بالاستفادة من اختصاصات العلماء الروحيين الأعلام والعلماء المسلمين، بحيث تبين دقائق حياة المسلمين وميزاتها ونظمهم الدينية.

ج) تركيز النشاطات ضد التيارات المتطرفة والراديكالية في الإسلام لغرض ازدهار الإسلام السائد في روسيا، والحد من حصول التفرقة بين المسلمين الروس.

(د) الحوار مع أتباع الديانات الأخرى في مختلف الموضوعات وبصورة أوسع، واكتشاف الطرق المختلفة لاجرائه.

(هـ) يجب أن يكون دور المنظمات الإسلامية - على مستوى القطر - أكثر نشاطاً في المجالات التالية: إزالة الخلافات بين الشعوب، إزالة الخلافات بين الأديان، النشاطات الخيرية، بيان وسائل الحياة الطيبة، مكافحة المشروبات الكحولية، مكافحة الإدمان على المخدرات، مكافحة الاعتداء على الأطفال.

وقد رأى المؤتمر أنّ زيادة دور الإسلام في إحياء القيم الروحية يتعلّق بتعاون مسؤولي الدولة، ويدعوهم إلى أن يتعاونوا دائماً مع المنظمات الإسلامية، وأن يهتموا بها، ولإيجاد الحل الإيجابي السليم للمسائل التالية ويتقدم بالطلبات التالية من كبار مسؤولي الدولة:

(أ) تكريم الذكرى الأربعمئة بعد الألف لورود الإسلام إلى المناطق الروسية، والذي يطابق الشهر الرابع بعد عام ألفين للميلاد، وعلى مستوى الدولة.

(ب) إيجاد برامج دائمة، من قبل قنوات الإذاعة والتلفزيون الحكومية، لنشر تعاليم الإسلام، وماضي دور المسلمين في الحياة الروحية في روسيا، ودورهم الحالي في تنمية ونشر الثقافة الإنسانية.

(ج) تدوين وتصديق برامج هادفة لمؤسسات الدولة للتعليم العالي، لتربية كوادر متخصصة بالعلوم الإسلامية، وفي نفس الوقت تخصيص بعض هذه الإمكانيات للطلاب الجامعيين، ومن ضمنهم ممثلو الشعوب الإسلامية.

(د) تكليف وزارة التعليم العامة والحرف لاتحاد روسيا بالتعاون مع إدارة شؤون المسلمين الدينية في روسيا، وذلك بتأليف الكتب التي تعكس كيفية ظهور الإسلام، وتعاليمه، ودور المسلمين في بناء الحضارة العالمية، وتاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية في روسيا، لمؤسسات التعليم العالي والمدارس.

(٢٣)

## وجدانية الحقوق ترفض الاعتداء على المقدسات

من نافلة القول: التأكيد على قضية الحوار بين الأديان (وهو جوهر الحوار بين الحضارات) انطلاقاً من تعاليم الإسلام الأصيلة القائمة على الواقعية التي يتحلّى بها. وقد انطلقت دعوة الحوار بين الأديان على أسس منطقية سليمة، وراحت تترك أثرها الجيد في مجال تحقيق التفهّم والتفاهم المنشود وتقليل مناطق الصدام، وتوفير مجالات التعاون المستمر على صعيد خدمة القضية الإنسانية والقضية الدينية، والقيم المعنوية.. ونحن نرجو لها التوسع من مرحلة التفاهم بين المتخصصين إلى مرحلة صيرورتها ثقافة عامة تعشقها الشعوب وتتعامل على أساس منها في مختلف قضايا التماس الحضاري بعيداً عن محاولات الاستغلال والتشكيك، والموانع التي تقف عقبات كأداء في طريقها. ومن اوليات قضية الحوار - أي حوار كان - ضرورة الانطلاق من قنوات متفق عليها مسبقاً.. لتكون هذه القنوات هي الاضوية الكاشفة التي تحل العقد وتفتح السبل المسدودة لعملية الحوار، وتقضي في موارد الخلاف.

وما نتصوره أن الإيمان بالفطرة والوجدان الأخلاقي هو من القنوات المشتركة بين جميع الأديان السماوية:

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق إلهي اودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطيبته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز والوجدان اللوام التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وإنَّ الأديان إنَّما جاءت لتشير له دفائن العقول - كما يعبر الإمام علي عليه السلام - وتتهيء الجو المناسب لبروز هذه الطاقات كامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً إنسانياً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

أما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلا دخل في طريق مسدود لأن الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملاسباتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكلّيات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم.. أن هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وابداعه ونموّه.

وأما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال: ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر واداء حقه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته - فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكتبتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزرعها هذا الكون. ومنها هذه النفس اللوامة والوجدان الأخلاقي الذي يشخص إجمالاً نوعية الحقوق ويحدد حدودها ويتابع الإنسان - أيا كان - إذا تخطاها.

ولسنا نريد استعراض كل العناصر الفطرية وانما نريد أن ننطلق إلى هذه الحقيقة وهي: إن الاقتناع بأن (العدالة شيء حسن دائماً) و(ان الشيء الحسن ينبغي فعله) هي من القناعات الفطرية التي لا تحتاج إلى دليل... فإذا اقتنع الإنسان بأن الموضوع المعين حسن اقتنع بأنه مما ينبغي فعله دونما تشكيك فهو موضوع مطلق كما أن من المواضيع المطلقة حكم الوجدان الإنساني بأن قضية (اطاعة المنعم الحقيقي، والمالك الحقيقي للكون والإنسان) هي قضية مطلقة لا تتخلف أيضاً وهناك من القضايا التي زرعت في الوجود الإنساني كمصاديق لمسألة العدالة (أصلاً) كالصدق، والأمانة، والرحمة، والإيثار، والسلام.

فهذه الأمور حسنة في أصلها، ونقصد من عبارة (في أصلها) أنها قد تطرأ عليها بعض الحالات التي تفقد معها حسنها الطبيعي الفطري وتخرج من كونها تجليات للعدالة ومصاديق واقعية لها لتعود من تجليات الظلم والتعدي.

ونستنتج من هذا أن الفطرة الإنسانية تحكم بنوعين من الحكم:

أحدهما مطلق من قبيل: العدالة نفسها وطاعة الخالق الحكيم.

والثاني مقيد ونسبي من قبيل: الصدق والسلام.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالةً وكذلك السلام أحياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمان الإنسانية فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلماً ولكن التساؤل الأساس هو: ما هي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحققها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

**الأول:** معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير ولا يخدع الإنسان وانما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

**الثاني:** معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها أو فلنعبّر يكفي فيه الرجوع

إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة - آية قناعة كانت - من ملازمات الطبيعة الإنسانية ولذلك نجدها متوفرة لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وازمنتهم وأمكتهم.

ومن هنا كان الوجدان المعيار الوحيد الذي يفصل في الأمر حتى بين من لا يؤمنون بالأديان. ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان (هل تعتبر السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً؟) مثلاً (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهبي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب. والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية ﴿أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾<sup>١</sup> ويترك أمر تعيين الطيبات للإنسان ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾<sup>٢</sup> ويترك أمر تعيين الفواحش أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>٣</sup>.

وهكذا ننتهي إلى هاتين الحقيقتين وهما:

الأولى: إن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأن الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً إذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

الثانية: إن الوجدان هو الحكم الفصل في مجال تقرير الحق الإنساني كما أنه هو الحكم أيضاً في مجال تحديد هذا الحق بحدود تضمن له إنسانيته وتبقيه في حدود (العدالة) فاذا تجاوزها عاد ظلماً وفقد (حقيقته) ومن هنا ننتقل إلى القول بأن (الحرية) وإن كانت تمتلك جذوراً وجدانية إلا أنها تبقى محدودة بحدود قد يدركها الوجدان كما في تحديدها بعدم الاعتداء على الآخرين وكراماتهم. وقد يوحي بها الله العالم بما يصلح الإنسان، والمناح للإنسان كل حقوقه. ومن الطبيعي فإن الله تعالى منع الإنسان من الاعتداء على كرامة الآخرين وهذا أمر

١. المائدة: ٥.

٢. الأعراف: ٣٣.

٣. الحشر: ١٩.



واضح مقرر في الشريعة الإسلامية وهو يمتد مع الإنسان في حياته وبعد مماته وبذلك اعتبرت حرمة الجنازة من الحقوق الإنسانية في الاعلان الإسلامي. وهذا ما نجده بشكل أقل وضوحاً في الاعلان الدولي حيث تقرر المادة التاسعة والعشرون البند (ب) أن الحريات المذكورة فيه مقيدة بالاعتراف بحريات الآخرين ورعاية المقتضيات الأخلاقية الصحيحة، ولاريب أن من أهم المقتضيات الأخلاقية كرامة الإنسان الفرد وبالاحرى المجتمع. وقد قلنا إن الوجدان هو معيار الحق وحدوده (في المنطق الإنساني العام) ويأتي الدين ليعطي الإنسان معياراً أوسع وادق ويتم تطبيقه طبعاً في الوسط المؤمن به.

ومن أهم مايقوم كرامة الإنسان المقدسات والمطلقات التي يؤمن بها ونحن نجد القرآن الكريم يصف الله تعالى بالملك القدوس، ويسمي الوادي الذي كلف به موسى بحمل الرسالة الكبرى ب(الوادي المقدس) والملك الذي يحمل الوحي ب(روح القدس) وارض فلسطين ب(الأرض المقدسة) لأنها ارض أنبياء الله. فأية اهانة لها تعنى تعدياً على الكرامة الإنسانية ويزداد الأمر وضوحاً عند ما ندرك أن عنصر الإيمان في الأديان السابوية وخصوصاً في الإسلام يشكل أحد مقومات الشخصية بل تؤكد الآية القرآنية الشريفة ﴿الْمُيَاذِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ خَشَعُوا قُلُوبَهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إن الإيمان يبقى ناقصاً ما لم يصبغ العواطف والمشاعر ويترك القلوب مطمئنة خاشعة، وأن بعض الأمم عندما تبتعد عن منبع إيمانها تصاب بقسوة القلوب.

وخصوصاً إذا كان الأمر يرتبط بشخص الرسول الكريم الذي يعشقه المؤمنون.

وتلك حقيقة قد لا يدرك ابعادها الملحدون.

إن حب الله ورسوله مقدم لدى المسلمين على كل حب يقول تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

ويقول ﷺ: لا يؤمن عبد حتى اكون احب اليه من نفسه واهلي احب اليه من أهله

وعترتي احب اليه من عترتي وذاتي احب اليه من ذاته (رواه أبو داوود).

وقد تواترت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في الحث على حب اهل البيت فاكدت على أن حب الرسول واهل بيته هو أساس الإسلام.

وقد جاء في كنز العمال قوله ﷺ :

لكل شيء أساس وأساس الإسلام حب اصحاب رسول الله وحب اهل بيته.<sup>١</sup>

كما قال الإمام الباقر عليه السلام : حبنا اهل البيت نظام الدين.<sup>٢</sup>

وقال الصادق عليه السلام : من عرف حقنا واحبنا فقد احب الله تعالى.<sup>٣</sup>

وهكذا اكدت الروايات أن حبهم هدية إلهية؛ وأنه افضل العبادة وأنه من الباقيات الصالحات. وهذا الكلام بعينه يأتي في المجتمع المسلم، فإن المقدسات توجه عواطفه ومشاعره وكل حبه وكرامته وعليها يبني شعاراته ووجدته فهي توجه سلوكه وحركته الحضارية وخصوصا إذا كانت محورية كقدسية القرآن والرسول ﷺ واهل بيته.

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الطبيعي أن تغضب جماهير الأمة إذا أهين مقدس من مقدساتها ومن الطبيعي أن تشكل أية إهانة من هذا القبيل داعياً لوحدة الأمة وانسجامها بوجه المعتدين.

وفي الختام فإنني ادعو المسلمين جميعاً لنصرة رسولهم الكريم واهل بيته الطاهرين والدفاع عن مقدساتهم وبذل الغالي والرخيص في سبيل ذلك اما الأعداء والحاقدون من الصليبيين والصهاينة فلن ينالهم إلا الخزي والعار والدمار، ولن يجدوا منا إلا صلابة في الحق ووحدة وتماسكاً واعتصاماً بحبل الله المتين. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

كما اؤكد على نقطتين مهمتين:

**اولاهما:** إن الرد يجب أن يكون إنسانياً إسلامياً بعيداً عن الافراط والتطرف والعنف

١. ج ١٢ ص ١٠٥.

٢. أمالي الطوسي ٥٨٢/٢٩٦.

٣. الكافي ج ٨ ص ١٢٩.

٤. راجع كتاب (اهل البيت عليهم السلام) في الكتاب والسنة.

الاعمى الاهوج كما حدث من بعض الأعمال الغربية على الروح الإسلامية سواء بعد الاهانة لشخص الرسول الأكرم ﷺ أو بعد تفجير المرقدين الطاهرين للإمام الهادي عليه السلام والإمام العسكري عليه السلام من احراق وتدمير للمساجد والأماكن العامة وقتل وتهجير للآمنين، فهو أمر وحشي لا يقبله عقل أو دين ونحن ندينه بشدة ولا يقوم به إلا السخفاء أو العملاء.

وثانيتها: إن خير نصره للرسول العظيم تكمن بالعمل الجاد المنظم على تطبيق شرع الله في الأرض، وتحقيق الخصائص القرآنية لهذه الأمة ومنها الوحدة والترابط والتوازن والوسطية والتعاون والتكافل ونشر الدعوة ومحو المفاسد الخلقية والاعداد العلمي والاقتصادي والمساهمة الحضارية الرائدة في المسيرة الإنسانية الصاعدة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.



(٢٤)

## القيم والمفاهيم والقواعد الإسلامية المؤثرة في الحفاظ على البيئة

هناك ترابط تام بين عناصر التصور الإسلامي عن الكون، وموقف المسلم منه من جهة، وبين الدوافع والمشاعر الاحساسية والعاطفية وبالتالي السلوكيات الإرادية من جهة أخرى، الأمر الذي يحقق انسجاماً كاملاً للشخصية الإنسانية لدى المسلم، كما يوفر أرضية مساعدة لقيام النظام الاجتماعي الذي يريده الإسلام.

ونستذكر هذه المناسبة حكمة رويت عن الإمام علي عليه السلام يقول فيها: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الاعضاء).<sup>١</sup> ولا ريب في أن المفاهيم والقيم لها منشأان: فطري وجداني، وديني وحياني، وإن كان من الممكن إرجاع أحدهما إلى الآخر.

فالفطرة الإنسانية في جانب منها (أي الجانب العقلي النظري والعملي) تفتح للإنسان آفاق المعرفة بالكون وخالقه وتصله بالحقيقة المطلقة لينفتح أمامه عالم واسع سعة علم الله تعالى وإحاطته، كما أنها - أي الفطرة - تحركه نحو قيم عملية تنظم له سلوكه عبر تحويلها إلى شوق مؤكد واردة فاعلة تسيطر على جوارحه.

ومن هنا نستطيع القول بأن القيم الإنسانية المنطلقة من الفطرة والمتعززة بالتعاليم الدينية تشكل (المشترك الإنساني) الذي يوجه كل السلوكات لتحقيق الهدف من خلقته، وتوجد الانسجام بينه وبين الكون، والطبيعة هي جزء من هذا الكون الفسيح المسخر له.

---

١. بحار الانوار ج ١ ص ٩٦.

ولقد عرض القرآن الكريم هذا الترابط الرائع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾<sup>١</sup>.

ومن هنا نجد أن استعراض بعض القيم والقواعد التي ترتبط بالبيئة امرًا ضروريًا للاحاطة بموقف الإسلام منها:

### ١- الخلافة الإلهية

من الواضحات القرآنية أن الإنسان بنوعه ومجموعه أفراده يحمل صفة خليفة الله في الأرض؛ وقد جاء هذا المفهوم بتعبيرات مختلفة من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٢</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>٣</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾<sup>٤</sup>.

إلى ما هنالك من آيات واضحة الدلالة على ذلك.

ورغم اختلاف المفسرين في دلالة هذا المفهوم فإنه يدل على مسؤولية إنسانية سامية حملها الله إياه بمقتضى ما منحه من طاقات تميز بها على غيره<sup>٥</sup>. وهذه المسؤولية عامة تشمل البناء

١. إبراهيم: ٣٢ - ٣٤.

٢. البقرة: ٣٠.

٣. الانعام: ١٦٥.

٤. الاعراف: ٧٤.

٥. المنار، ج ١، ص ٢٦٠.

المادي للأرض كما تشمل الحياة<sup>١</sup> والبناء التكاملي للفرد والأمة عبر التاريخ للوصول إلى هدف الخلق.

ولعلنا نستفيد من التعبير بالأمانة عن هذه المسؤولية في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾<sup>٢</sup>، نستفيد عظمة الواجب الملقى بالفطرة على النوع الإنساني تجاه الكون والتاريخ والإنسان نفسه.

## ٢- التسخير

وهو أيضاً مفهوم قرآني واسع الأبعاد، ويشمل مختلف الظواهر الكونية الشمس والقمر والبحار والفلك والأنهار والليل والنهار وما تحمله الأرض وتقله من منابع ومصادر، وكل ما في السماوات والأرض.

وهي حقيقة يلمس الإنسان بعض جوانبها ويكتشف يوماً بعد يوم عظمة التنسيق بينها وبين الحياة الإنسانية بشكل لا يمكن تفسيره إلا على أساس وجود القوة المطلقة الحكيمة الرحيمة. ولا ريب أن الإيمان بهذه الحقيقة يرتب مسؤولية كبرى لتحقيق شكر النعمة الإلهية وعدم الكفر بها، وتحقيق التوزيع العادل لها والابتعاد عن الظلم وهو سر المشاكل الإنسانية: يقول تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنتُمْ مِنَّا لَظُلُومًا كَفَّارًا﴾<sup>٣</sup>.

## ٣- التسبيح، حيث يؤمن المسلم بأن الكون عابد مسبح لله منسجم مع حركة المؤمنين

والآيات القرآنية واضحة الدلالة أيضاً وهي تركز في الإنسان المؤمن نظرة أخرى تجاه الكون والطبيعة تختلف عن رؤية الصراع لانتزاع لقمة العيش وحق الحياة.

١. المنار، ج ١، ص ٢٦٢.

٢. الاحزاب: ٧٢.

٣. إبراهيم: ٣٢ - ٣٣.

إن المسلم يؤمن بأن الكون منسجم مع حركته الإيمانية:  
يقول القرآن على لسان هود عليه السلام ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾<sup>١</sup>.  
وتنخسف الطبيعة باعدائه كما في قضية قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾<sup>٢</sup>. وتحارب إلى جانبه ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾<sup>٣</sup>.  
ومن هنا تقوم بين الإنسان المؤمن والطبيعة علاقة تكامل وحب حتى نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: هذا جبل أحد يجننا ونحبه<sup>٤</sup>. وحتى نجد الجبال تلبني كما يلبي الأنبياء فقد جاء في الرواية: إن موسى حج البيت الحرام يلبي وتجيبه الجبال<sup>٥</sup>. وعن الإمام علي عليه السلام ما من مهل يهل بالتلبية إلا أهل من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب<sup>٦</sup>.  
والرسول صلى الله عليه وسلم عبر عن حبه لمكة فقال واقفًا على الحزورة والله انك لخير ارض الله واحب ارض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت<sup>٧</sup>.

#### ٤- التنمية المستدامة وطيفة إنسانية أصيلة:

والنصوص الإسلامية غنية بالدفع نحو التنمية والعمران:  
يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾<sup>٨</sup>. وكأنه يربط بين النشأة (فالأرض هي الام)<sup>٩</sup> والهدف وهو إعمار الأرض وتنميتها لتوفر الجو الصالح لإيجاد مجتمع

١. هود: ٥٢.

٢. القصص: ٨٢.

٣. الفيل: ٣-٤.

٤. صحيح البخاري كتاب المغازي، ج ٥ ص ٣٩، المجازات النبوية للشيخ الرضي ص ١٥.

٥. الكافي، ج ٤، ص ٢١٣.

٦. من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٣٢، ميزان الحكمة ج ٤ ص ٣٥٦٦، روضة الواعظين للفتاك النيسابوري ص ٤٠٦.

٧. الترمذي (كتاب المناقب).

٨. هود: ٦١.

٩. كنز العمال ج ١٥ ص ٨٦٩، بحار الانوار ج ١٨ ص ١٤.



مؤمن عابد مطمئن متكامل. وواضح أن الاطلاق هنا يشمل الزمان فلا يمكن أن يخلو جيل من واجب العمران، والمكان ومجالات التنمية فلا يترك مجال يقبل التنمية دونها تنمية، ومراتب العمران فلا تقف التنمية عند حد معين مادام من الممكن التطوير والابداع. وفي قبال ذلك يرفض القرآن التفريط في النعمة وتركها دونها استفادته، أو اهلاك الطبيعة والقضاء على منبع العطاء فيها إذ يقول تعالى في بعض الظالمين المفسدين: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾<sup>١</sup>. كما رفض تحريم الطبييات حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾<sup>٢</sup>. وهكذا حث الإسلام على التنمية بمختلف الوسائل الفكرية والعملية؛

## وسائل الإسلام في تنمية الإنتاج

### أ- الوسائل الفكرية

حث الإسلام على التنمية، وربط كرامة الإنسان بها، وأصبح العمل عبادة والعامل للقبول أفضل من العابد. وقد رفع الرسول ﷺ يد عامل مكدود فقبلها، وقال: ((طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة))<sup>٣</sup>. وقد قاوم الإسلام فكرة تعطيل بعض ثروات الطبيعة فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>٤</sup>.

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾<sup>٥</sup>.

١. البقرة: ٢٠٥.

٢. المائدة: ٨٧.

٣. اسد الغابة ج ٢، ص ٢٦٩، وبحار الانوار، ج ١٠٣، ص ٩.

٤. المائدة: ١٠٣.

٥. الملك: ١٥.

وقد فضل الإسلام الإنفاق الإنتاجي على الإنفاق الاستهلاكي فقد جاءت نصوص تنهى عن بيع العقار والدار وتبيد الثمن في الإستهلاك.<sup>١</sup>

### ب - الوسائل التشريعية: وهذه بعض الأحكام الإسلامية بهذا الصدد.

- ١- الأرض تنتزع لو عطلت حتى خربت.
  - ٢- منع الإسلام من الحمى.
  - ٣- ليس للأفراد الذين يبدأون عملية إحياء المصدر الطبيعي بعد منحهم امتياز ذلك من قبل الدولة. أن يتوقفوا عن العمل وإلا أنتزع الحق منهم.
  - ٤- لا يسمح لولي الأمر بإقطاع الفرد مصدرا طبيعيا إلا بمقدار ما يتمكن من استشاره.<sup>٢</sup>
  - ٥- يحرم الكسب بلا عمل كالإيجار بمقدار ثم التأجير بأكبر.<sup>٣</sup>
  - ٦- تحرم الفائدة الربوية وهذا يحقق للإنتاج مكسبين هما:
- ألف - القضاء على التنافس المرير بين مصالح التجارة والصناعة. إذ ينتظر الربويون - عادة - فرصة حاجة رجال الأعمال إلى المال ليرفعوا سعر الفائدة، والعكس بالعكس، فإذا ألغى الربا تحول الرأسماليون إلى الصنعة والإشتراك على أساس الأرباح.
- باء - إن هذه الأموال سوف توظف في مشاريع ضخمة بعيدة الأمد. بخلاف ما لو شرع نظام الفائدة، إذ سيفضل صاحب المال توظيفه في الربا لأنه مضمون ويتحاشى الأقراض لمدة طويلة لثلا يفوته سعر الفائدة لو ارتفع، في حين يضطر المقترضون إلى توظيف أموالهم في مشاريع قصيرة الأمد ليستطيعوا التسديد. ثم إنهم سوف لن يقدموا على مشروع ما لم يتأكدوا من ربحهم فيه وهذه معوقات في طريق التنمية تؤدي إلى الأزمات وتزلزل الحياة الاقتصادية. أما بعد تحول المرابي إلى تاجر فإنه سيرى المصلحة في المشروع وإن كان ربحه اقل، كما يرى أن الصالح أن يوظف الأرباح في مشاريع تجارية وهكذا تعمر الحياة الاقتصادية.

١. وسائل الشيعة ج ١٢، ص ٤٤.

٢. تذكرة الفقهاء، ج ٢، ص ٤٠٤.

٣. جواهر الكلام، ج ٢٧، ص ٢٢٢.

٧- حرم الإسلام القمار والسحر.

٨- منع الإسلام من اكتناز النقود عن طريق فرض ضريبة على المكتنز من النقود الذهبية والفضية التي كانت الدولة الإسلامية تجري على أساسها وهي الزكاة وهي تتكرر في كل عام، ويقتطع ربع العشر من المال، وهكذا حتى يبقى بمقدار عشرين دينارا وهذا تندفع كل الأموال إلى النشاط الإقتصادي. والإسلام بتحريمه هذا استطاع أن يتخلص من مشاكل الرأسمالية الناشئة من شذوذ الدور الرأسمالي للنقد.

٩- يحرم اللهو والمجون الذي يؤدي إلى تذيب الشخصية الجدية وتقاعسها عن العمل.

١٠- يدعو الإسلام للمنع من تركز الثروة ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾<sup>١</sup>. وهذا المنع وإن إرتبط بالتوزيع مباشرة ولكنه يرتبط بشكل غير مباشر بالإنتاج، إذ عندما تتركز الثروة في أيدي البعض يعم البؤس ويعجز الجمهور عن إستهلاك ما يشبع حاجاته فتتكسد المنتجات بلا تصريف ويسود الكساد، ويتقلص الإنتاج.

١١- يعمل الإسلام على التقليل من مناورات التجارة<sup>٢</sup>.

١٢- منح الإسلام ملكية المال بعد موت المالك للأقرباء وهو الجانب الإيجابي للإرث مما يعتبر عاملا دافعا للإنسان نحو العمل، بل عاملا أساسا على موأصلته في أواخر الحياة.

١٣- قرر الإسلام الضمان الإجتماعي وله دوره في القطاع الخاص من حيث أن احساس الفرد بذلك يعطيه رصيذا نفسيا من الشجاعة، ويدفع به إلى مختلف ميادين الإنتاج والإبداع ولولا ذلك لكان يحجم عن كثير من الوان النشاط.

١٤- حرم الإسلام القادرين على العمل من الضمان الإقتصادي ومنعهم من الإستجداء<sup>٣</sup>.

١٥- حرم الإسراف والتبذير وهذا يحد من الإستهلاك ويهيء الأموال للإنتاج.

١٦- أوجب على المسلمين كفاية تعلم جميع الفنون والصناعات التي تنتظم بها الحياة.

١. الحشر: ٧.

٢. الوسائل، ج ١٢، ص ٣٢٧.

٣. الوسائل، ج ٦، ص ١٥٩.

- ١٧- بل أوجب عليهم الحصول على أكبر قدر ممكن من الخبرة في مختلف لأُمور ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وهي عامة تشمل كل ما يتصل بشؤون تمكين الأمة من الكون في الطليعة.
- ١٨- مكن الدولة من قيادة كل قطاعات الإنتاج، فالدولة بإمكانها وملكيته تشكل نموذجا موجهها للحقول الأخرى<sup>١</sup>.
- ١٩- منح الإسلام الدولة القدرة على تجميع عدد كبير من القوى البشرية العاملة الفائضة عن حاجة القطاع الخاص مما يجعل جميع الطاقات تساهم في حركة الإنتاج<sup>٢</sup>.
- ٢٠- وأخيرا فللدولة الحق في الإشراف على الإنتاج وتخطيطه مركزيا لتفادي الفوضى<sup>٣</sup>.

### ج- السياسات المؤدية للتنمية

بعد أن قدم الإسلام بوصفه المذهبي هذه الخدمات للتنمية ترك للدولة دراسة الظروف ووضع السياسة الاقتصادية التي تستهدف ذلك، فهذه السياسة ليست جزءا للمذهب الاقتصادي الإسلامي لأنها تختلف باختلاف الظروف، وإنما يضع المذهب الأهداف الرئيسة لها وخطوطها العامة، أما التفصيل فهي متروكة للدولة.

### هـ- الرحمة، بها انطلق هذا الوجود الكائن

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا المقطع المبارك يعتبر أروع مقطع جامع يعبر عن سر العقيدة الإسلامية، فقد وردت بعض الروايات التي تركز على أن القرآن جمع في سورة الفاتحة، وأن سورة الفاتحة جمعت في البسملة...<sup>٤</sup> وعند تحليلنا لهذا المضمون لا يسعنا إلا أن نرى أنها تشير إلى: إن سورة الفاتحة إنما اعتبرت روح القرآن باعتبار أنها تحوي أصول العقيدة الإسلامية بصورة إجمالية، والقرآن قد أطر كل شيء تحدّث عنه بـإطار العقيدة.

١. ن. م. ج ٦، ص ٣٧٠.

٢. جواهر الكلام، ج ٢٧، ص ٢٠٤.

٣. الاصول للكافي، ج ١، ص ٤٠٥.

٤. مستدرک سفینه البحار، ج ١، ص ٢٦٩، الاقناع للحجاوي، ج ١، ص ٥، مغني المحتاج، محمد بن شرييني،

ج ١، ص ٤.

أما إذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية، فسنجد أنّ البسملة نفسها شكلت روح العقيدة وأساسها، إذ ركزت على انطلاق كل شيء في الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الأول، وعن الإطار الذي تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الأخير.

فالانطلاق: بسم الله وموجبه: (الرحمة التي لا حد لها).

وهذه حقيقة نجدها متمشية في مختلف المواضع من القرآن الكريم، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الإلهية، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم: أنّه منطلق من مصدر الرحمة، ومنته إلى عالم الرحمة، وسائر في كنف هذه الرحمة، التي تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التي تطرأ أحياناً على سلوكه.. ونجد عند استعراضنا لآثار الدعاء: الكثير من الأساليب التربوية العقائدية، التي تركز على هذا الجانب، في الأدعية المنقولة.

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات الكريمة التي تقرن صفة العزة الإلهية بالرحمة، وتنتهي بعبارة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾<sup>١</sup>.

أو بعبارة: أنه خير الراحمين، أو كتب على نفسه الرحمة أو ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾<sup>٢</sup>. وهكذا الآيات الشريفة:

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾<sup>٣</sup>.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>٤</sup>.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾<sup>٥</sup>.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾<sup>٦</sup>.

١. الدخان: ٤٢.

٢. الأنعام: ١٣٣.

٣. الأنعام: ١٥٧.

٤. الاعراف: ٥٦.

٥. الروم: ٥٠.

٦. الزمر: ٥٣.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>١</sup>.

وحتى في أشدّ المواقع هيبية ورهبة تأتي صفة (الرحمن):

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾<sup>٢</sup>.

إن النصوص الإسلامية تربي الإنسان الرحيم باخيه الإنسان ومحيطه الذي يعيش فيه وكل ما في الوجود. قال عليه السلام: الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء<sup>٣</sup> وقال عليه السلام: إن الله يحب الرفق في الأمر كله<sup>٤</sup>.

إن الحب والرحمة لدى المسلم يشملان كل شيء حوله فهما الحيوان والنبات والجماد. وقد قال عليه السلام: عذبت امرأة في هرة، سجننتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لاهي اطعمتها ولاسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض<sup>٥</sup>.

وقولة الرسول عليه السلام في البهائم وسقيها من اروع الاقوال إذ قال عليه السلام في جواب من سألوا: وأن لنا في البهائم اجراً فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر<sup>٦</sup>.

وعنه عليه السلام من قطع سدره صوب الله رأسه في النار<sup>٧</sup>.

وعنه عليه السلام: من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله عزوجل يوم القيامة منه يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة<sup>٨</sup>.

وقد طبق الإمام الصادق عليه السلام عنوان الباغي على من يصيد عبثاً وكان يؤكد أن رسول

الله عليه السلام نهى عن ضرب وجوه البهائم وعن قتل النحل والوسم في وجوه البهائم<sup>٩</sup>.

١. طه: ٥.

٢. طه: ١٠٨.

٣. سنن الترمذي كتاب البر والصلة.

٤. رواه البخاري ومسلم، جامع احاديث الشيعة ج ١٥ ص ٥٢٩، الرسالة السعدية للعلامة الحلبي ص ١٤٣.

٥. جاء في صحيح البخاري. مسالك الافهام للشهيد الثاني ج ٨ ص ٤٩٨.

٦. جاء في صحيح البخاري.

٧. رواه أبو داود، بحار الانوار ج ٦٣، ص ١١٣.

٨. رواه أحمد، بحار الانوار ج ٦١، ص ٣٧.

٩. الوسائل، ج ١١، ص ٤٨٣.

وما اروع قوله الإمام علي عليه السلام إذ قال:  
والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت<sup>١</sup>.

وحتى لو اضطر الإسلام للحرب فإنه يلتزم بالأسلوب النظيف؛ فهذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه فيقول: سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليه<sup>٢</sup>.

### القواعد الإسلامية العامة تدفع نحو حماية البيئة

إذا كنا قد تحدثنا بإيجاز عن القيم والمفاهيم الإسلامية التي تصون البيئة فإن القواعد والأحكام الإسلامية لا تقل تأكيداً على ذلك، وقد ذكرنا بعضها عرضاً.  
ويمكن أن نذكر هذا الصدد بقواعد كثيرة نذكر منها:

#### ١- ملكية البشرية عموماً لموارد الطبيعة مما ينتج عدم جواز الافراط

بهذه الملكية واهدائها والاعتداء عليها حتى بالاخلال بعنصر الانتفاع بها في المستقبل فلا يجوز العمل على افناء الغابات ونشر التصحر أو التفريط في استخراج المعادن ومنها النفط مثلاً وهدره في مصارف واهية مما يضر بالبشرية حاضراً أو مستقبلاً والحديث هنا مفصل.

#### ٢- التوازن التكويني ولزوم الانسجام معه:

فالمسلم يمتلك نحو الكون والوجود نظرة متوازنة، ويقف من هذا التوازن موقفاً متوازناً، بل قد ينطلق القرآن من فكرة التوازن التكويني ليؤكد على التوازن التشريعي، يقول تعالى، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ \* إِلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾<sup>٣</sup> والمسلم إذ يتأكد لديه هذا

١. نهج البلاغة الرسالة ٢٥.

٢. كنز العمال ج ٤ ص ٢٢٣، الكافي ج ٥ ص ٢٧.

٣. الرحمن: ٧-٩.

التوازن البيئي حيث يسمع: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾<sup>١</sup> ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾<sup>٢</sup> ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾<sup>٣</sup> ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يشعر تماماً بالانسجام الكامل مع بيئة كونية منسجمة مقدره وظواهر لا تعد معدة لاشباع حاجاته وتسهيل حياته، وحينئذ يعمل على أن لا يخل بتصرفاته بهذا التوازن البيئي وهو يشعر بالارتباط بينه وبين وجوده، وكأن سفينة نوح التي حملته مع النماذج الحيوانية وتحركت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾<sup>٤</sup> تمثل سفينة الحياة التي تتحرك أيضاً بسم الله في مسيرة متوازنة.

### ٣- النظافة بمفهومها الواسع من متطلبات الشريعة

وإذا كانت النظافة مطلوبة في الجزئيات حيث يطلب من المؤمن أن يكون نظيفاً في سكناه، وطيباً في سلوكه وفي عبادته وثوبه وبيته وشعره ورائحته فإن من الأولى أن يتعد عن تلويث بيئته العامة بما ينتجه من غازات سامة ومخلفات ضارة وانبعاثات قاتلة.

### ٤- الضرر والضرار مرفوض في الإسلام

وهذه قاعدة تسالم عليها المسلمون جميعاً ورويت في مختلف المصادر وجاءت في موارد عديدة منها قضية سمرة بن جندب ومنها ما جاء في ميراث اهل الملل وما جاء في قضاء النبي ﷺ بين اهل المدينة في مشارب النخل، وفي باب الشفعة<sup>٥</sup> ولذلك ادعى التواتر المعنوي فيها. وقد بحث الفقهاء فيها مفصلاً واعتبروا ادلتها متقدمة على أدلة الأحكام الأولية، وتحدثوا فيها عن الضرر الشخصي والنوعي وإذا كان للشخص أن يطالب بعوض عما لحقه من ضرر شخصي فإنه ليس لاي كان الحق في توجيه أي نوع من الضرر للآخرين فإذا كان

١. الحجر: ٢١.

٢. الرعد: ٨.

٣. الرعد: ١٧.

٤. هود: ٤١.

٥. القواعد الفقهية للبحرودي، ج ١ ص ٢١٢-٢١٣ ويراجع الكافي للكليني الجزء الخامس.



الضرر نوعياً طالب الحاكم بالتعويض عنه وإذا كان دولياً أمكن للهيئات الدولية المخولة أن تمنعه وتطالب بالتعويض عنه، وحتى لو لم يكن الضرر مباشراً فإن للمتضررين بشكل غير مباشر أن يطالبوا بالتعويض؛ يقول المرحوم الشهيد الصدر: تصرف المالك في ماله بشكل يؤدي إلى الإضرار بالآخرين على نوعين:

أحدهما التصرف الذي يضر شخصاً آخر ضرراً مالياً مباشراً...

والثاني التصرف المضر بشكل غير مباشر الذي يؤدي إلى سوء حال الآخرين دون أن ينقص فعلاً شيئاً من أموالهم كالأساليب التي يتبعها المشروع الرأسمالي الكبير في تدمير المشاريع الصغيرة...

وهذا النوع الثاني يعد في نظر بعض الفقهاء من موارد القاعدة كما أوضحناه في بحثنا الأصولية ودللنا على شمول القاعدة له<sup>١</sup>.

ومن الواضح بملاحظة روح الإسلام العامة وبعض التطبيقات<sup>٢</sup> أن المفهوم يتسع ليشمل الضرر النوعي بلاريب ومن الطبيعي أن الإضرار بالطبيعة إضرار مباشر بكل البشرية الحاضرة وربما الآتية أيضاً. ومن هنا فإن بعض الدول الصناعية الكبرى اليوم تجرم اجراماً بالغاً بتلويثها البيئة وإخلالها بالتوازن العام فيها الأمر الذي نشهده عياناً بحدوث موجات الحر الشديد وذوبان الثلوج القطبية وثقوب الأوزون الخطرة.

وهناك قواعد أخرى لايسعنا هنا التعرض إليها.

١. اقتصادنا ج ٢ ص ٦٠٨.

٢. تراجع في الوسائل، ج ١٧ ص ٣٤٠، فما بعد.

## الفهرس

٣	..... العقيدة والحضارة
٥	..... في الطريق إلى التوحيد الإلهي
٧	..... الفصل الأول: حول الفطرة الإنسانية
٧	..... الفطرة هي الأساس
٧	..... المدرسة العقلية والمدرسة الحسية
٧	..... المدرسة الحسية
٨	..... مناقشة المدرسة الحسية
٨	..... المناقشة الأولى:
٨	..... المناقشة الثانية:
٩	..... المناقشة الثالثة:
٩	..... المناقشة الرابعة:
١٠	..... المدرسة العقلية

- ١١..... قيمة المعرفة الإنسانية وحدودها:
- ١٢..... نظرية المعرفة في القرآن
- ١٣..... الإيمان بالواقع الخارجي:
- ١٤..... مصادر المعرفة في المنطوق القرآني
- ١٤..... أولاً الحس:
- ١٥..... ثانياً - العقل:
- ١٦..... التحذير من خطأ العقل
- ١٦..... موارد خطأ العقل
- ١٧..... ثالثاً - الإلهام الإلهي
- ١٨..... الفطرة الإنسانية ودورها في المعرفة
- ١٨..... المراد من الفطرة
- ٢٠..... ثبات الاستراتيجية بثبات الفطرة
- ٢١..... البديهيات بعض من المنطلقات الفطرية
- ٢١..... المجالات الفطرية لدى الإنسان
- ٢٢..... أولاً - الإدراكات النظرية والعملية
- ٢٢..... ثانياً - الغرائز
- ٢٣..... ثالثاً - القدرة الإنسانية الخارقة على التعقل والتدبر والتفكير
- ٢٥..... حالات الفطرة الإنسانية
- ٢٦..... وسائل وأساليب تنبيه الفطرة
- ٢٧..... الفطرة والهدف السامي
- ٣١..... الفصل الثاني: الرحمة الإلهية تهدي الإنسان بكل أنواع الهداية إلى كماله
- ٣٢..... أنواع الهداية
- ٣٢..... الهداية الغريزية
- ٣٣..... الهداية العقلية

٣٣	..... الهداية التشريعية.
٣٣	..... مستلزمات تحقق الهدف الإنساني الأعلى
٣٥	..... علل الانحراف نحو المادية.
٣٧	..... أ- العوامل العامة
٤١	..... ب- الاستعمار
٤٦	..... ج- الفهم والسلوك الديني الخاطيء
٤٩	..... الفصل الثالث: الفطرة تمهد السبيل إلى الله
٤٩	..... الفطرة الإنسانية في النصوص القرآنية.
٥١	..... الفطرة الإنسانية في الأحاديث الشريفة.
٥٢	..... في الطريق إلى الله.
٥٢	..... الأدلة الفلسفية.
٥٣	..... دليل العليّة.
٥٣	..... التناسق الكوني يقود إلى الله.
٥٧	..... الفصل الرابع: التكامل الكوني والإيمان
٦٠	..... الإيمان بالتكامل يحقق الإيمان بالله تعالى.
٦٠	..... العلم والإيمان.
٦١	..... الصدفة.
٦٢	..... النتيجة.
٦٢	..... التطور في المادة ومسألة الإيمان بالله
٦٤	..... القرآن ومسألة الإيمان
٧١	..... الإيمان بالله في الأحاديث الشريفة
٧٧	..... الفصل الخامس: إلى التوحيد.
٧٧	..... التوحيد في اعماق الإنسان
٧٨	..... دعوة جميع الأنبياء إلى التوحيد

٧٨.....	الأدلة الوجدانية على التوحيد.....
٧٩.....	مناحي التوحيد.....
٨٠.....	أدلة التوحيد في القرآن الكريم.....
٨١.....	جلاء التوحيد في الفطرة الإنسانية.....
٨١.....	ظاهرة التوحيد في السلوك الإنسان.....
٨٥.....	الفصل السادس: نظرة أكثر تفصيلاً إلى التوحيد.....
٨٦.....	توحيد الله في وجوده.....
٨٧.....	الله موجود لانهائى:.....
٨٧.....	صفاته عين ذاته.....
٨٨.....	إثبات التوحيد.....
٨٨.....	الأدلة الفلسفية.....
٨٨.....	١- لا معنى للتعدد.....
٨٩.....	٢- الوجود المطلق لا يمكن أن يتعدد.....
٨٩.....	٣- فرض الشريك يستلزم فرض التركيب والاحتياج.....
٩١.....	٤- دليل التمانع:.....
٩٢.....	٥- الشريك ينافي الكمال المطلق.....
٩٢.....	٦- التركيز على المائز الذي يميز أحدهما عن الآخر.....
٩٢.....	الأدلة التجريبية والكونية.....
٩٥.....	الدليل الفطري.....
٩٦.....	الدليل الثقلي.....
٩٧.....	آيات في التوحيد:.....
٩٩.....	صفاته تعالى.....
١٠٠.....	الصفات الايجابية:.....
١٠١.....	القدرة.....

- الدليل الأول: دليل النظام القائم في الكون ..... ١٠٢
- الدليل الثاني: اللامحدودية والقدرة المطلقة ..... ١٠٣
- الدليل الثالث: الدليل النقلي ..... ١٠٣
- في القرآن الكريم ..... ١٠٣
- في الاحاديث الشريفة ..... ١٠٤
- اشكالات واقوال واهية ..... ١٠٥
- الاختيار ..... ١٠٦
- العلم والحكمة ..... ١٠٨
- الادلة على علمه تعالى: ..... ١٠٩
- الدليل النقلي ..... ١٠٩
- الآيات ..... ١١٠
- الاحاديث الشريفة ..... ١١٠
- الادلة العقلية والفطرية ..... ١١١
- العلم الحسوبي والعلم الحضورى ..... ١١٢
- حل بعض المشكلات: ..... ١١٤
- القدم والازلية والابدية ..... ١١٦
- الصفات السلبية ..... ١١٦
- ١- عدم المحدودية ..... ١١٦
- ٢- عدم التركيب ..... ١١٧
- ٣- عدم كونه محلاً للأشياء الحادثة ..... ١١٧
- ٤- عدم الحلول والاتحاد بالغير كما تزعمه بعض الفرق الضالة لمايلي:
- ..... ١١٨
- ٥- عدم التجسيم ..... ١١٩
- ٦- عدم الاحتياج إلى المكان لأنه ليس بجسم ..... ١٢١

- ١٢١..... القرآن والكتب المحرفة
- ١٢٢..... ٧- عدم الرؤية.....
- ١٢٦..... صفات الفعل.....
- ١٢٦..... الله المتكلم.....
- ١٢٧..... الله الصادق.....
- ١٢٧..... الحسن والقبح العقليان.....
- ١٢٨..... الله الحكيم.....
- ١٢٩..... بعض النصوص الشريفة.....
- ١٣٩..... الفصل السابع: العدل الإلهي.....
- ١٣٩..... التمهيد الأول:.....
- ١٤٠..... التمهيد الثاني: هل العدل من أصول الدين؟.....
- ١٤٠..... التمهيد الثالث: مسألة التحسين والتقيح العقليين.....
- ١٤١..... التمهيد الرابع: العدل وأنواعه.....
- ١٤١..... الدليل على العدل الإلهي.....
- ١٤٣..... بعض العقبات التي تقف أمام الإيهان بالعدل.....
- ١٤٣..... المشكلة الأولى: مشكلة الشر.....
- ١٤٤..... الثنوية ومناقشتها.....
- ١٤٤..... الأسلوب الأول: التركيز على أن الشر أمر عدمي.....
- ١٤٤..... الأسلوب الثاني: الشر أمر نسبي.....
- ١٤٥..... نقاط حول اشكال تنافي الشرور مع العدل الإلهي.....
- ١٥٢..... المشكلة الثانية: مسألة التفاوت في الملكات والقدرات.....
- ١٥٢..... الكلمة الأولى:.....
- ١٥٣..... الكلمة الثانية:.....
- ١٥٤..... الكلمة الثالثة: التفاوت في القدرات سر التنظيم المتحرك النشط.....

- مشاكل أخرى:..... ١٥٥
- مشاكل ترتبط بعالم الآخرة:..... ١٥٦
- أولا - مشكلة العقاب والعقاب الزائد..... ١٥٦
- اشكال عدم التناسب بين حجم الجريمة ونوعية العقاب ..... ١٥٧
- ثانيا: الشفاعة..... ١٦٣
- معنى الشفاعة ..... ١٦٣
- شروط حصول الشفاعة ..... ١٦٣
- علاقة الشفاعة بالاستغفار ..... ١٦٥
- دور الشفاعة في بعث الأمل ..... ١٦٥
- الدور الأول: ..... ١٦٦
- الدور الثاني:..... ١٦٦
- الدور الثالث:..... ١٦٧
- الدور الرابع:..... ١٦٧
- الآراء في الشفاعة ..... ١٦٧
- بعض الروايات في الشفاعة ..... ١٦٨
- بعض الاشكالات وردّها ..... ١٧١
- جواب العلامة المطهرى ..... ١٧٢
- مناقشة هذا الجواب ..... ١٧٤
- موقف القرآن من الشفاعة ..... ١٧٦
- القضاء والقدر والجبر والاختيار..... ١٧٧
- النقطة الأولى: لمحة تاريخية..... ١٧٧
- النقطة الثانية: أهمية المسألة عقائديا واجتماعيا ..... ١٨٠
- النقطة الثالثة: معنى القضاء والقدر: ..... ١٨٢
- النقطة الرابعة: هل تؤدي هذه المعاني إلى الجبر؟..... ١٨٤



- ١٨٦..... الحلّ الأول للمشكلة: هو أن يقال:.....
- ١٨٦..... الحل الثاني:.....
- ١٨٧..... الحل الصحيح:.....
- ١٨٨..... بعض الآيات حول الموضوع .....
- ١٨٩..... بعض الروايات في الموضوع .....
- ١٩١..... النقطة الخامسة: القدر الحتمي وغير الحتمي .....
- ١٩١..... تفاسير للقدر غير المحتوم.....
- ١٩٢..... الدعاء والقضاء.....
- ١٩٣..... النقطة السادسة: البداء .....
- ١٩٤..... أقوال بعض العلماء في (البداء).....
- ١٩٩..... بعض النصوص الشريفة:.....
- ٢٠٥..... أهم المصادر .....
- ٢٠٩..... حول الصحوة الإسلامية.....
- ٢١١..... المقال الأول: حقيقة الصحوة وأعراضها.....
- ٢١١..... (أ) الصحوة.. أسبابها ومظاهرها ودوامها .....
- ٢١١..... حقيقة الصحوة الإسلامية .....
- ٢١٤..... معالم الصحوة .....
- ٢١٦..... أسباب الصحوة.....
- ٢٢٠..... ديمومة الصحوة.....
- ٢٢٠..... أولاً: صيانة الصحوة .....
- ٢٢٢..... ثانياً: الصحوة والتطُّرف .....
- ٢٢٢..... ثالثاً: الصحوة والتهم .....
- ٢٢٣..... رابعاً: الصحوة الإسلامية والاحتواء.....
- ٢٢٤..... الصحوة الإسلامية بين الترشيد والتضليل .....

٢٢٩.....	(ب) الإمام الخميني <small>عليه السلام</small> والصحوة
٢٢٩.....	مقدمات
٢٣٢.....	حقيقة الصحوة
٢٣٦.....	١- التحرك الإسلامي الواسع
٢٣٧.....	٢- انتفاء الأساطير الاستعمارية
٢٣٨.....	٣- معالم كبيرة أخرى
٢٤٠.....	عوامل الصحوة
٢٤١.....	العامل الأول: تأييد الله تعالى
٢٤٢.....	العامل الثاني: توفر القيادة المطلوبة
٢٤٦.....	العامل الثالث: قيام العلماء بواجباتهم
٢٤٨.....	العامل الرابع: التحول الشعبي باتجاه الإسلام والمعنويات
٢٤٩.....	العامل الخامس: اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري
٢٥٠.....	العامل السادس: الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها
٢٥٢.....	العامل السابع: نجاح الحركات الإسلامية والثورة الإسلامية الكبرى في إيران نفسها
٢٥٢.....	العامل الثامن: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة
٢٥٣.....	(ج) الصحوة وبعض الأعراض السلبية
٢٥٥.....	الأعراض المرضية للصحوة
٢٥٥.....	١- التركيز في عملية تطبيق الشريعة على بعض الجوانب الحياتية ونسيان الجوانب الأخرى
٢٥٥.....	٢- الاتجاه القشري والسطحي في فهم الشريعة
٢٥٥.....	٣- الانفصال عن العلماء والمفكرين وحركة الاجتهاد الأصيل

- ٤- الانبهار والانفتاح أمام بعض النظريات الغربية ..... ٢٥٦
- ٥- الاتجاه نحو العنف والإرهاب ..... ٢٥٧
- ٦- الصنمية التنظيمية، وأتباع مصلحة التشكيلات قبل كل شيء ..... ٢٥٧
- ٧- اليأس والتراخي ..... ٢٥٨
- ٨- الاتجاه نحو الإصلاحات الفرعية وعدم التركيز على التغييرات المركزية ..... ٢٥٨
- ٩- عدم تفعيل امكانات الأمة المتاحة ..... ٢٥٩
- ١٠- فقدان الواقعية، وتجاوز المرحلة ..... ٢٥٩
- ١١- الدوران حول الذات وعدم فتح الجسور مع الآخرين ..... ٢٦٠
- ١٢- الاتجاه القطري والإقليمي ..... ٢٦٠
- ١٣- فقدان التخطيط الإستراتيجي المستقبلي ..... ٢٦١
- ١٤- ظاهرة التمزق وتراشق الاتهامات ..... ٢٦١
- ١٥- العمل الإسلامي في أوقات الفراغ ..... ٢٦١
- ١٦- الطائفية ..... ٢٦٢
- ملاحظات تعقيبية ..... ٢٦٢
- (د) التنوع المذهبي في المجتمعات الإسلامية (علله وتاريخه وواقعه اليوم) ..... ٢٦٤
- مقدمة: ..... ٢٦٤
- أ- المطلقات النسبية الوهمية ..... ٢٦٧
- ب- الخرافات ..... ٢٦٧
- ج- التقليد ..... ٢٦٧
- د- الغفلة ..... ٢٦٨
- نشوء المذاهب الإسلامية في ظل هذه الروح العقلانية ..... ٢٦٨
- سر تنوع المذاهب ..... ٢٧٠
- حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية ..... ٢٧١

- ٢٧٢..... عقبات.. في طريق التقريب
- ٢٧٣..... موانع في طريق التقريب
- ٢٧٩..... تنوع المذاهب بين الماضي والحاضر
- ٢٨٤..... (ه) الهوية بين تهديد التنميط وتداعيات التفريط
- ٢٨٤..... متى ينطرح السؤال؟
- ٢٨٤..... ما هي الهوية على صعيد الأمة؟
- ٢٨٦..... موارد الحذر.....
- ٢٨٧..... السلوك الرشيد.....
- ٢٩٥..... المقال الثاني: الصحوة والتغيير.....
- ٢٩٧..... بين التجديد والمرونة.....
- ٢٩٨..... مظاهر المرونة في الشريعة.....
- ٣٠٣..... منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة.....
- ٣٠٤..... ملاحظات عامة.....
- ٣٠٨..... في الطريق إلى التجديد.....
- ٣٠٩..... التجديد للمستقبل.....
- ٣١١..... المقال الثالث: الصحوة والإعلام.....
- ٣١١..... (أ) الغزو الفكري وأساليب المواجهة.....
- ٣١١..... الترابط بين المساحات الثلاث.....
- ٣١٢..... العدو يستهدف كلّ الجوانب.....
- ٣١٦..... خطوط المواجهة الإعلامية للغزو الثقافي.....
- ٣١٦..... أولاً: الخط الإعلامي الثوري البناء.....
- ٣١٦..... ثانياً: الخط الإعلامي السطحي.....
- ٣١٧..... الإعلام القرآني جوهر النهوض.....
- ٣١٩..... الهدف الرئيس والأهداف المرحلية للإعلام الإسلامي.....

- ٣٢١..... العدة المطلوبة والأسلوب الأمثل
- ٣٢٧..... (ب) عناصر الضعف في الإعلام الإسلامي
- ٣٣٣..... الاقتراح الأول:
- ٣٣٤..... الاقتراح الثاني:
- ٣٣٤..... الاقتراح الثالث:
- ٣٣٤..... الاقتراح الرابع:
- ٣٣٤..... الاقتراح الخامس:
- ٣٣٥..... الاقتراح السادس:
- ٣٣٥..... الاقتراح السابع:
- ٣٣٥..... (ج) النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم
- ٣٣٨..... (د) الخطوط الإعلامية العريضة لتوحيد العمل التبليغي في العالم الإسلامي
- ٣٣٩..... أولاً: أهداف الدعوة الإسلامية
- ٣٤١..... ثانياً: مضمون الدعوة الإسلامية وخصائصه
- ٣٤٢..... ثالثاً: عناصر الدعوة
- ٣٤٣..... رابعاً: أساليب الدعوة
- ٣٤٤..... خامساً: وسائل الدعوة
- ٣٤٥..... المقال الرابع: الصحوة والغرب
- ٣٤٥..... مقدمة
- ٣٥١..... مع كتاب (مستقبل الإسلام والغرب) لشيرين هانتر
- ٣٥٦..... نظرة نقدية
- ٣٥٦..... النقطة الأولى
- ٣٥٧..... النقطة الثانية
- ٣٥٧..... النقطة الثالثة
- ٣٦١..... النقطة الرابعة

٣٦٦.....	النقطة الخامسة
٣٦٨.....	كلمة أخيرة
٣٦٩.....	المقال الخامس: خلاصة الموقف الغربي من الصحوة
٣٦٩.....	ملخص التقرير
٣٧٢.....	دعم الحداثيين أولاً:
٣٧٣.....	دعم التقليديين ضد المتشددين:
٣٧٤.....	مواجهة المتشددين ومعارضتهم:
٣٧٤.....	دعم انتقائي للعلمانيين:
٣٧٧.....	ملحق: مقابلتان صحفيتين
٣٧٧.....	حول هموم الثقافة والمواجهة والتغيير
٣٨٤.....	حول الصحوة الإسلامية والإعلام
٣٩٣.....	المقالات حول الحضارة
٣٩٥.....	(١) العلاقة بين الإسلام والغرب
٣٩٩.....	(٢) رسول الله والجيل الإسلامي النموذجي
٤٠٠.....	المسلم الشاب كما يريد رسول الله ﷺ
٤٠١.....	وسائل الإسلام التربوية لتأكيد هذه الصورة
٤٠٧.....	(٣) الترابط في الإسلام والأمة
٤٠٧.....	أ- الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام
٤٠٨.....	بين الكون والله
٤٠٩.....	الترابط بين عالم الغيب وعالم الشهادة
٤٠٩.....	بين المخلوقات أنفسها
٤١٠.....	بين أبناء الإنسانية
٤١١.....	الروابط الداخلية
٤١٢.....	ب- الترابط بين مكونات الإسلام

- أمثلة من الترابط بين المكونات..... ٤١٣
- ج - الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها ..... ٤١٣
- المظاهر العامة لتركيز هذا الارتباط في ذهنية الأمة ..... ٤١٤
- الترابط الشعوري..... ٤١٤
- الترابط عبر المقاييس الواحدة..... ٤١٥
- الترابط عبر العبادات ..... ٤١٦
- الترابط عبر الحقوق المشتركة..... ٤١٦
- الترابط في المجال الاقتصادي ..... ٤١٧
- الف - ظاهرة الملكية العامة..... ٤١٧
- ب - ظاهرة التكافل الاجتماعي..... ٤١٨
- الترابط عبر المسؤولية المتبادلة لتطبيق أحكام الله تعالى..... ٤١٨
- (٤) القرآن يربط الماضي بالحاضر والمستقبل عبر الفطرة ..... ٤٢٣
- تمهيد:..... ٤٢٣
- الفطرة فن الله وإبداعه الخالد..... ٤٢٥
- أصل الفطرة في الثقافة القرآنية..... ٤٢٥
- رسالة الأنبياء..... ٤٢٧
- الوليد بن المغيرة والجادبية السحرية للقرآن الكريم..... ٤٢٨
- نماذج من البيان الفني في القرآن الكريم..... ٤٢٩
- الفطرة سر وحدة البشرية..... ٤٣٦
- (٥) القيم والمصالح أساس التقارب بين الحضارات والأديان ..... ٤٣٩
- الملاحظة الأولى:..... ٤٤٢
- الملاحظة الثانية:..... ٤٤٢
- الملاحظة الثالثة:..... ٤٤٤
- (٦) أهمية الدين والقيم في بناء الإنسان الخير ومكافحة الجرائم والفساد..... ٤٥٣

- تمهيد:..... ٤٥٣
- ملاحظات حول: اهمية الدين والقيم المشتركة في بناء الإنسان الخيّر ومكافحة الجرائم والفساد..... ٤٥٤
- الملاحظة الأولى:..... ٤٥٥
- الملاحظة الثانية:..... ٤٥٦
- القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:..... ٤٥٧
- الملاحظة الثالثة:..... ٤٥٩
- الملاحظة الرابعة:..... ٤٥٩
- الملاحظة الخامسة:..... ٤٦٠
- الملاحظة السادسة:..... ٤٦١
- الملاحظة السابعة:..... ٤٦١
- الملاحظة الثامنة:..... ٤٦١
- الملاحظة التاسعة:..... ٤٦٢
- الملاحظة العاشرة: حول القواعد السلوكية الدينية..... ٤٦٣
- الملاحظة الحادية عشرة: نظام العقوبات طبيعي مع حياة الإنسان..... ٤٦٤
- (٧) الإسلام دين الكرامة الحققة..... ٤٧٣
- (٨) مشكلات العالم الإسلامي وعلاجها في ظل العولمة..... ٤٨٣
- تعريف العولمة..... ٤٨٤
- الآثار السلبية للعولمة..... ٤٨٦
- الموانع بوجه مخططات العولمة الأمريكية (المتفردة)..... ٤٨٨
- بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية..... ٤٨٩
- حالة الأمة اليوم:..... ٤٩٠
- موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة..... ٤٩٢
- عالمياً:..... ٤٩٣



- ٤٩٧..... (٩) بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.
- ٤٩٩..... موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة.
- ٤٩٩..... عالمياً:
- ٥٠٣..... (١٠) المشكلات الثقافية والاجتماعية للعالم الإسلامي في ظل العولمة.
- ٥٠٤..... العولمة: المفهوم والتعريف.
- ٥٠٥..... غموض وتعديدية.
- ٥٠٧..... حضور شهير في سبعينات القرن الماضي.
- ٥١٠..... قراءة واعية وخطابات متعدّدة.
- ٥١١..... مشاكلنا في ظل العولمة:
- ٥١٣..... (١١) المنطقة مقبلة على سايكس بيكو جديدة إذا ما سيطرت أميركا على العراق.
- ٥١٤..... تغييب الاستشهاد.
- ٥١٥..... القضية العراقية.
- ٥١٦..... إستراتيجية أميركية.
- ٥١٦..... صد الهجمة.
- ٥١٧..... تفعيل المؤسسات الشمولية.
- ٥١٧..... القنابل البشرية.
- ٥١٨..... طريق الاستشهاد.
- ٥١٨..... القرار للمقاومة.
- ٥١٩..... العمليات المنفلتة مرفوضة.
- ٥٢٠..... أسلحة دمار شامل.
- ٥٢١..... اين الخلل؟
- ٥٢٢..... الشيعة والسنة.
- ٥٢٥..... (١٢) التفاعل بين الأديين العربي والفرسي.
- ٥٢٦..... أولاً: التكامل الثقافي بين العرب والإيرانيين:

- ٥٢٨.....ثانياً: التفاعل بين الأديين العربي والفارسي:.....
- ٥٢٩.....ثالثاً: سعدي نموذجاً للتفاعل بين الأديين العربي والفارسي:.....
- أما القسم الآخر من عوامل التأثير فيتمثل في العوامل الذاتية أو الشخصية، وهي أربعة:
- ٥٣٠.....
- ٥٣٧.....(١٣) الخطة الوجدانية للسيد جمال الدين والصحة الإسلامية اليوم.....
- ٥٣٧.....صورة الواقع الأليم ونقاط الضعف.....
- ٥٤٢.....جمال الدين والصحة الإسلامية.....
- ٥٤٩.....(١٤) الخطوات المطلوبة لتحقيق الأمن الاجتماعي على صعيد العالم الإسلامي.....
- ٥٥٤.....الحل على مستوى الأمة الإسلامية.....
- ٥٥٩.....(١٥) الاختلاف وأسلوب الحوار الحكيم.....
- ٥٦٠.....أسباب الاختلاف الفقهي:.....
- ٥٦٥.....مجالات الاختلاف الفقهي والموقف فيها.....
- ٥٦٦.....ولي الأمر وانتخاب الفتوى الملائمة.....
- ٥٦٩.....الحوار المطلوب.....
- ٥٧٥.....(١٦) حوار الإسلام والغرب بين الواقع والمستقبل.....
- ٥٧٩.....الحوار بين الإسلام والغرب.....
- ٥٨٣.....العدالة وعلاقتها بالتكاليف.....
- ٥٨٣.....اهم القضايا العالقة بين الإسلام والغرب.....
- ٥٨٥.....مستقبل العلاقة:.....
- ٥٨٩.....(١٧) التقارب الإسلامي المسيحي محاولة فهم جديدة.....
- ٥٨٩.....هدف الأنبياء.....
- ٥٩٠.....القاعدة القرآنية للتقارب.....
- ٥٩١.....نقاط الضعف في مسيرة الحوار.....
- ٥٩٥.....(١٨) التكاثر البشري عبر الاستعانة بالتقنية الحديثة.....

- التلقيح الصناعي.....٥٩٩
- نظرة في الاستنساخ وحكمه الشرعي.....٦٠٠
- ما هو الاستنساخ؟.....٦٠٠
- آراء المؤيدين:.....٦٠١
- آراء المعارضين:.....٦٠٢
- التقييم الأولي لهذه الاتهامات.....٦٠٣
- (١٩) التوازن المطلوب في الخطاب الإسلامي بين الخصوصيات الفردية والمحلية وعموميات مصالح الأمة.....٦٠٩
- النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم.....٦١٠
- التوازن المطلوب بين خصوصيات الفرد والوطن وعموميات الأمة.....٦١٣
- (٢٠) العلاقة بين الإسلام والغرب وواجب المسلمين.....٦١٧
- نظرة الغرب للإسلام والمسلمين.....٦١٩
- ١- الصعيد العقائدي:.....٦٢٠
- ٢- الصعيد الحضاري:.....٦٢٠
- ٣- الصعيد السياسي:.....٦٢١
- نظرة المسلمين للغرب.....٦٢١
- ١- الصعيد العقائدي:.....٦٢١
- ٢- الصعيد الحضاري:.....٦٢١
- ٣- الصعيد السياسي:.....٦٢٢
- نظريات غربية.....٦٢٢
- النظرية الأولى:.....٦٢٣
- الطرف الغربي الأميركي:.....٦٢٣
- الطرف الكنفوشيوسي:.....٦٢٣
- الطرف الثالث الإسلام:.....٦٢٣

- ٦٢٣..... النظرية الثانية:
- ٦٢٤..... النظرية الثالثة:
- ٦٢٤..... التصحيح المطلوب.
- ٦٢٧..... مستقبل العلاقة كما تتصورها كاتبة غربية:
- ٦٣١..... نظرة نقدية.....
- ٦٣١..... النقطة الأولى:
- ٦٣٢..... النقطة الثانية:
- ٦٣٥..... النقطة الثالثة:
- ٦٣٩..... النقطة الرابعة:
- ٦٤١..... النقطة الخامسة:
- ٦٤١..... القيم الإنسانية المشتركة تنظم مسألة الحوار.....
- ٦٤٦..... خلاصة الأمر:
- ٦٤٦..... القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:
- القيم والمصالح تنظم العلاقة بين اتباع الديانات والثقافات وتبلور النظم الدولية
- ٦٤٨.....
- ٦٥١..... الملاحظة الأولى:
- ٦٥١..... الملاحظة الثانية:
- ٦٥٣..... تعامل الرسول الأكرم ﷺ مع المسيحيين:
- ٦٥٥..... أحداث ١١ سبتمبر والهجمة ضد الأمة الإسلامية.....
- ٦٥٧..... الموقف الصحيح على المستوى الدولي.....
- ٦٥٩..... الحل على مستوى الأمة.....
- ٦٦١..... للتوسع في البحث تراجع المصادر التالية.....
- ٦٦٣..... (٢١) العلاقة مع الآخر في إطار السلام من مقومات مشروع النهضة.....
- ٦٦٣..... التغيير سنة الحياة الصالحة:

- ٦٦٤.....التغيير التكاملي.....
- ٦٦٦.....الخطوط الرئيسة للمشروع.....
- ٦٦٧.....السلام العالمي والموقف منه:.....
- ٦٦٨.....الحوار ركيزة التعامل مع الآخر:.....
- ٦٦٨.....الحوار بين الديانات واسع الابعاد.....
- ٦٦٩.....الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه.....
- ٦٧٠.....نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود.....
- ٦٧١.....معاً لتعميم منطق الحوار.....
- (٢٢) العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي ودور المسلمين في عملية الإحياء  
الروحي.....٦٧٥.....
- ٦٧٨.....دور المسلمين في مجال الإحياء الديني للمجتمع في روسيا.....
- ٦٨٠.....دور المسلمين في عملية الإحياء الديني.....
- (٢٣) وجدانية الحقوق ترفض الاعتداء على المقدسات.....٦٨٥.....
- (٢٤) القيم والمفاهيم والقواعد الإسلامية المؤثرة في الحفاظ على البيئة.....٦٩٣.....
- ١- الخلافة الإلهية.....٦٩٤.....
- ٢- التسخير.....٦٩٥.....
- ٣- التسبيح، حيث يؤمن المسلم بأن الكون عابد مسبح لله منسجم مع حركة  
المؤمنين.....٦٩٥.....
- ٤- التنمية المستدامة وطيفة إنسانية أصيلة:.....٦٩٦.....
- وسائل الإسلام في تنمية الإنتاج.....٦٩٧.....
- أ- الوسائل الفكرية.....٦٩٧.....
- ب- الوسائل التشريعية: وهذه بعض الأحكام الإسلامية بهذا الصدد.....٦٩٨.....
- ج- السياسات المؤدية للتنمية.....٧٠٠.....
- هـ- الرحمة، بها انطلق هذا الوجود الكائن.....٧٠٠.....

- القواعد الإسلامية العامة تدفع نحو حماية البيئة ..... ٧٠٣
- ١- ملكية البشرية عموماً لموارد الطبيعة مما ينتج عدم جواز الافراط ..... ٧٠٣
- ٢- التوازن التكويني ولزوم الانسجام معه: ..... ٧٠٣
- ٣- النظافة بمفهومها الواسع من مطلوبات الشريعة ..... ٧٠٤
- ٤- الضرر والضرار مرفوض في الإسلام ..... ٧٠٤
- الفهرس ..... ٧٠٦